

مهرجان القراءة للجميع

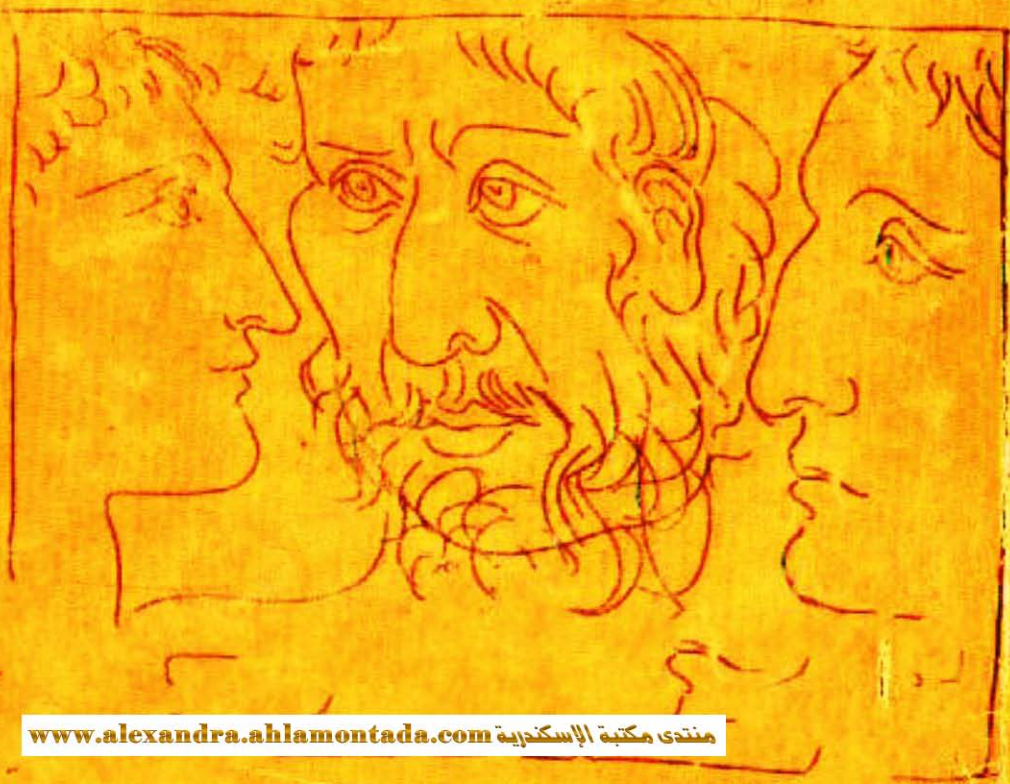
الأعمال
المفكرة

مسئف الكائنات

الشاعر أوقيد

نقله إلى العربية وقدم له

د. ثروت عكاشة



الحديثة
العصرية
الطاعة
للكتاب

www.alexandra.ahlamontada.com منتدى مكتبة الإسكندرية

مسح الكائنات

الطبعة الثالثة

الشاعر أوقيد
رسوم بيكاستو

مسح الكائنات

”ميتمورفوزس“

ترجمه و قدم له
د. شروت عكاشه

راجعه على الأصل اللاتينى
د. مجدى وهبه



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٢

صمم الغلاف : حسن عثمان

تقديم

١

إني إذ أقدم هذا العمل « مسخ الكائنات METAMORPHOSES » من تأليف « بوبليوس أوفيدوس ناسو PUBLIUS OVIDIUS NASO » إلى قراء اللغة العربية أحسن بالحاجة إلى أن أمهد له بمقدمة أبسط فيها الصلة بين عالمنا الحديث والمعاصر من جهة وبين الآداب الكلاسيكية والدراسات القديمة من جهة أخرى ، كما أعرف بحياة المؤلف ومكانته شاعراً ، وما تركه من أثر في شتى المجالات . وحسبى فيما سأقدم من أعمال أوفيد أننى سأتيح للقارئ أن تقع عيناه على قصص يسحر الوجدان ولغكوه أن يشرد في عالم أسطوري رحب . ولست أحسب في ذهب الأرض كله ما يعدل نشوة الفكر حين يصيبه الدوران ويترنح محلقاً في عالم الخيال الخصب .

ويروى هذا الكتاب جملة من الأساطير القديمة المختارة من خرافات اليونان والرومان وحضارات الشرق السابقة ومن التراث الشعبي الرومان نفسه ، تجعلنا نتبين حقيقته ونقف على مدى صلته بثقافتنا الحاضرة . وكم كان الدارس لثقافة اليونان والرومان في فروعها المختلفة من فلسفة أو سياسة أو أدب أو تاريخ أو فنون بعامة يجد نفسه يتعثر في دراسته لتعدد أسماء الشخصيات الأسطورية القديمة وزحمتها ، ولكثرة أسماء الآلهة المتكررة هنا وهناك . وقد أدى الجهل بحقيقة الأسماء وصلتها بحضارة اليونان أو بعقائدهم الدينية إلى قلة الإقبال على دراستها . ولعل شيئاً من هذا القبيل هو الذى حال بين العرب الأقدمين وبين تناول آداب اليونان والرومان أو فنونهم ، والاكتفاء بفلسفاتهم وعلومهم لأنها نجلو من الأساطير المعقدة التى تزخر بها تلك الفنون الكلاسيكية .

ودور الأسطورة في الأدب القديم والحديث واضح لا يحتاج إلى بيان ، أفاض فيه الكتاب والمؤرخون بما لا يحتاج إلى مزيد . والواقع أن الأسطورة قامت بأكثر من دور ، فكانت في صورها المحلية حكايات يقصد بها التربية والتثقيف ، واعتاد التلاميذ في المدارس اليونانية القديمة أن يحفظوا أشعار هوميروس عن ظهر قلب . ولكن لم يلبث أفلاطون أن ثار على هذا الوضع وطرد شعراء الأساطير من المدينة الفاضلة ونظر إليهم نظرتة للمفسدين للفكر .

غير أن الأسطورة عادت وظهرت في شكل جديد وقد تحوّلت إلى تراجمها ، وصار هذا التحول نفسه نقطة تغيير واضحة ووجهة نظر جديدة في الأسلوب الأسطوري نفسه . ولم تعد التراجم حكاية من الحكايات ، بل تأملا في موضوع بذاته أو في حدث من أحداث روائية متسلسلة ، وامتاز هذا التأمل أول الأمر بالغمائية معبراً مع ذلك عن مآسى الحروب وويلات الحياة الإنسانية في صراعها الضارى .

ولم يلبث كل من أيسخولوس وسوفوكليس وأوريبيديس أن أسهما في كتابة التراجم غير أن عنايتهما بأن تكون هذه التراجم عملاً أدبياً عدلت كثيراً من تكوين الأسطورة نفسها وغيرت من طريقة سردها . فكانت بعض الشخصيات تحظى باهتمام لم تحظ به في الحكاية الأصلية ، كما كان الضوء يُسلط فجأة على بعض المظاهر أو الطباع التي ليس لها نظير في القصة القديمة . ولا شك أن الأهداف الأدبية التي كان يتطلع إليها المؤلف المسرحي هي التي كانت تؤدي إلى تحريك الأحداث والوقائع والأشخاص على نحو مختلف بين صياغة مؤلف وآخر . ولكن لا شك أيضاً في أن الحرص على تحقيق بعض الأهداف الاجتماعية والسعى إلى تثبيت عدد من المعاني الفكرية والفنية قد أسهبا في إحداث تغيير جوهري في طريقة الاستفادة من الأسطورة على المستوى الأدبي والفني .

ولهذا كله كان لانتشار الفلسفة في القرن الثالث قبل الميلاد أثر في تخوير الأسطورة من أجل استخدامها الفكرى استخداماً لم تعرفه من قبل ، إذ بدأت تشارك مشاركة جادة في حمل أعباء الفكر الفلسفى إلى جانب الاهتمام بالمعاني الأدبية الخالصة . وعندما اتسع المجال في استخدام الأسطورة على هذا النحو صارت غنية بالرموز التي تُفُلتُ بها من عقاب أصحاب السلطان دون أن تفقد دلالتها الأصلية .

ومنذ عرفت الأسطورة الإشارة إلى معانٍ معينة عن طريق الرمز باسم البطل أو الإله أو الشخصيات الأسطورية المختلفة اكتسبت هالة فنية معبرة وطاقة روحية تهدف إلى تغيير القيم في المجتمع . ولم تلبث أن استيقظت الأساطير من جديد وساورت التاريخ ، حتى إن كُتِبَ عصر النهضة وكتاب القرن الثاني عشر بأوروبا ورواد الآداب الحديثة والمعاصرة لجأوا إلى إحياء الأساطير القديمة وتناولوا وقائعها وشخصياتها في رواياتهم الحديثة في ظلّ فلسفات العصر .

ومن الصعب أن نتعقب هذا الاتجاه إحصاءً لدى المؤلفين والأدباء والشعراء وكتاب المسرح ، ولكننا لا نكاد نلقى نظرة على الآداب الحديثة والمعاصرة حتى ندرك أمرين : أولهما أثر الأسطورة في إحياء بعض المعاني ، وثانيهما أثر تكرار استخدام الأسطورة أو الأسماء الأسطورية لدى الأدباء والمؤلفين لإثارة المعاني الخاصة المطلوبة ولتوجيه العمل توجيهاً هادفاً ، فنجد راسين مثلاً يعيد في مسرحيته « صحراء طيبة » أو « الأخوة الأعداء » عام ١٦٦٤ إحياء الموضوع القديم نفسه الذى أثاره أيسخولوس في مسرحيته « السبعة ضد طيبة » ، وهو الموضوع نفسه الذى تناوله أوريبيديس في مسرحية « الفينيقيات » ، كما تناول راسين أيضاً موضوع « إيفجينيا » الذى تناوله أوريبيديس من قبل . وصار من المألوف حتى أيامنا هذه مشاهدة

تفسير حديث للتراجيديا القديمة ممثلة في الأسماء الأسطورية أو في الأبطال القدماء أو الآلهة . ولهذا تناول جيرودو « إلكترا » تناولاً جديداً ، كما تناولها سارتر أيضاً تناولاً مختلفاً في مسرحيته « الذباب » .

ولست أحاول هنا أن أتبع كل الآماد والمجالات التي استخدمت فيها الأساطير استخداماً أدبياً مستحدثاً ، ولكني أحاول أولاً أن أؤكد أن الكثير من الأسماء الأسطورية القديمة قد عادت إلى الظهور في مؤلفات الكتاب والشعراء من راسين إلى سارتر ، وأحاول ثانياً أن أقنع القارئ المعاصر بأنه بحاجة ماسة إلى معرفة الأساطير والحكايات الخرافية القديمة ، حتى يتسنى له قراءة الآداب الحديثة وفهمها ومعرفة ما يهدف إليه الكاتب عند تناول الاسم القديم واستخدامه من جديد في المناسبات المعاصرة . ويكفى أن نعرف مدى المرونة التي تحملها الأسطورة القديمة في التعبير عن الأفكار والمعاني من استخدام سارتر لأسطورة « أورستيس » في شرح بعض مبادئ فلسفته الوجودية ، وذلك في أحلك الأوقات التي مرّت بها فرنسا أثناء الحرب العالمية الثانية وقت أن احتلتها ألمانيا النازية .

٢

ولد أوفيد في مدينة سولونه على بعد تسعين كيلو متراً شرقي روما ، وكان مولده سنة ٤٣ قبل الميلاد ، ويعدّ آخر الشعراء الذين كان يطلق عليهم اسم « الأوغسطين » ، وهم جملة من الشعراء الرومانيين الذين سجلوا أشعارهم وأتموا أعمالهم من سنة ٢٧ قبل الميلاد حتى سنة ١٤ بعد الميلاد ، وهي المدة التي كان فيها أوغسطس قيصر إمبراطوراً لروما . وكانت معظم كتابات هؤلاء الشعراء ذات أصالة باستثناء ما استوحوه من الأساطير والآداب اليونانية القديمة وما تبعها من آداب العصر المتأغرق ، وهو العصر الذي عرفت به القرون الثلاثة الأخيرة قبل الميلاد . وأرفع ما بلغه الأدب الأوغسطي هو ما حققه فيرجيل في « الإنيادة » ، [٧٠ ق.م. - ١٩ ق.م.] ، تلك الملحمة المشهورة التي أعدت على نمط إلياذة هوميروس ، ثم أشرّبت بعض المعاني والملاحم الخاصة بالأدباء المتأغرقين وأخذت طابع تلك الفترة ، وقد كان فرجيل صديقاً لأوفيد .

ومن هؤلاء الشعراء أيضاً هوراس [هوراتيوس] الذي عاش بين سنة ٦٥ ق.م. وسنة ٨ ميلادية ، وتميز شعره بروح غنائية ، واستخدم عروفاً شعرية يونانية خاصة بالأغاني القديمة ، وأعاد تناول بعض الموضوعات والأفكار التي سادت في أشعار الإغريق القدماء ، وكان هو الآخر صديقاً لأوفيد . ومن الشعراء المبرزين أيضاً في هذه الفترة پروبيروتيوس المعاصر للشاعر هوراس ، وكان شعره تقليدياً ومجازة للشعر المتأغرق .

أما شاعرنا أوفيد المتوفى سنة ١٨ م بمنفاه « توميس » على البحر الأسود [كونستانزا برومانيا حالياً] فقد بدأ حياته بنظم القصائد الغزلية مثل الشاعر پروپروتوس ، وما لبث أن واصل رسالته الفنية متسماً ببساطة ميّزته عن كل من عداه من شعراء تلك الفترة .

ونستطيع استقاء كل شيء عن حياة أوفيد وأحداثها من خلال حديثه هو نفسه وتسجيله لمظاهر معاشه وعصره . فهو يعترف بأنه لم يكن يجد شيئاً أمتع من الحديث عن نفسه ، وهو القائل في كتابه « فن الهوى » : « فليسعد غيري بأن يجترّ ذكريات الماضي ، أما أنا فأهنيء نفسي لأنى وُلدت في هذا العصر الذى يلائم طبعى ومزاجى » .

وكان أبوه قد أعده ورياه ليشغل إحدى الوظائف السياسية أو الإدارية فى الدولة ، فانتقل إلى روما مع أخيه حيث كان يختلف إلى المدارس ، يتلقى العلم على أيدي الأساتذة المشهورين غير أنه لم يجد إشباعاً لذوقه وحسه فيما كان يتعلمه على أيدي هؤلاء المعلمين ، وأحس بخطر الابتعاد عن الأصالة الشعرية الحقّة وعن ميوله الذاتية فى صناعة الشعر ونظمه ، فقد كان يشعر فى قرارة نفسه بأنه خلّق للشعر وأن الشعر يتدفق من بين شفثيه كما يتدفق الماء الرائق من ينبوع الصافي . وأخذ بعد ذلك يلقي رجال الأدب فى روما وشيخّل بالتعرف عليهم دون أن يُغفل متع الحياة ولذاتها فى مدينة كبيرة مثل روما ، وصار بعد وقت قصير شخصاً مرموقاً بين خلّان على حظ من الدعابة والمرح .

وكان عهد الامبراطور أوغسطس عهد تفاؤل وانطلاق ومرح ، وعهد تنفيذ للمشروعات المعيارية الكبرى وتشجيع للاداب والفنون بعد أن أشاع روح السلام فى ربوع البلاد . ولم تلبث الطمأنينة أن انعكست على حياة الناس ، فأخذوا ينهلون من ألوان السعادة والمتعة دون تحجرف أو قلق . وامتلت ردهات الأدب بالعديد من الكتاب ، كما اكتظت بالشعراء والأدباء الذين اعتادوا شحذ ملكاتهم والمران على التعبير والخطابة والكتابة الأدبية وممارسة الهوايات التى تناسب مواهبهم وتصادف هوى فى نفوسهم بعيداً عن المشاغل المادية وعن الظروف المحيطة .

وهكذا هيأت الظروف لأوفيد فرصة قرض الشعر فقصر كل جهوده عليه بعد أن أتاح له ميراث أبيه أن يتحرر من ثقل الوظائف الإدارية ، فترك لنا مجموعة من الأعمال الشعرية ذات أصالة فنية لا تبارى .

٣

وكانت أولى أعمال أوفيد ديوانه الصغير المسمى « بالغزليات » Amores وهو مجموعة من القصائد التى تدور موضوعاتها حول المعانى الغزلية - كما يشى عنوان الديوان - أكثر فيها من الإشارة إلى أسماء أبطال الأساطير القديمة فى غضون القصائد ، الأمر الذى ينبىء عن مدى إلمام أوفيد المبكر بالأساطير اليونانية التى



ديلا كروا : أوليفيد في منقاه بسكرينيا

مجموعة خاصة - سويسره

اعتاد أن يقتبس منها في أشعاره الغزلية بما يجمّلها ويعيد إلى الذاكرة الحكايات الخرافية التقليدية ، إلا أن أوفيد كان يتعمد أن يسبغ على هذه العناصر الأسطورية التي يقتبسها في أشعاره نضارة فياضة ، كما اعتاد أن يضيف على الأساطير القديمة حيوية وشباباً متجدداً . وقد نَظَم قصائده على الوزن الإيليجي ، وهو الوزن الذي يتكون من بيتين أحدهما سداسي والآخر خماسي .

وقد سبّب في « غزلياته » بعشيقته أساها « كورينا » يعتقد النقاد أنها لم تكن شخصية حقيقية ، ولعلها كانت نمطاً حشد فيه صفات العديد من النساء اللاتي عرفهن . وقد كان أوفيد سريع الوثوب إلى المغامرات العاطفية ، ولو أننا نظرنا إلى بعض ما يكتب على أنه يحمل ظلاً من الحقيقة لاستقر في نفوسنا أنه هام بمُحصّنات إلى جانب العذارى ، وأنه عرف الخليعات كما استهال إليه الخرائر .

وقد قَسَم غزلياته إلى كتب ثلاثة^(١) : تحدث في أولها عن وقوعه في أسر كيويدي إله الحب ، الذي صرفه عن الحديث الحرب إلى الخوض في قصص الهوى ، وهكذا علق قلبه بزوجة رجل لم يكن يعبا بوجوده وبخليعة حاول أن يطهرها من دنسها . وتحدث في الكتاب الثاني عن عبوديته لمعشوقته التي اجتاحتها رغبة في هجر المدينة التي كان يرى أنه لا يكتمل بهاؤها إلا بوجودها فيها ، ثم يكشف عن شغفه بأن يجمع بين هوى فتاتين بينما يدفع عن نفسه تهمة خيانتة لعشيقتة مع وصيفتها . ثم نجد في الكتاب الثالث يصف بعض ما صادفه من عثرات عاقته عن أن يلحق بمعشوقته ، كما يصف لحظات أخرى نَعَم فيها بجمعة اللقاء .

وجاء ديوانه الثاني « البطلات » Heroides يشمل عدداً من الرسائل كتبها على لسان نساء شاعت مأسى غرامياتهن في عالم الأساطير والحكايات الشعبية ، فضمّن رسالة « پنيلوي » إلى زوجها أوديسيوس الشكوى من تباريح الهوى والبعاد وقسوة الانتظار والقلق على الزوج الذي احتجزته حرب طرواده ثم مغامراته البحرية بعيداً عن زوجته . وعرض في رسالة الحورية « إينونية » مأساة انصراف حبيبتها « باريس » عنها وانشغال قلبه « بهيلينا » التي اتخذ منها زوجة له . ونقرأ في رسالة الأسيرة « بريزيس » عتاباً لأخييل الذي سعدت بأن تكون محظيته فلم يتحمس لاستردادها حين طمع فيها الملك « أجامنون » . وقد حظى هذا الكتاب بانتشار واسع لتلك البراعة التي لا تجارى في السرد القصصي وعمق الإلمام بطبيعة المرأة وردود فعلها الدفينة .

ثم ظهر كتابه الثالث « فن الهوى » Ars Amatoria^(٢) في العام الميلادي الأول في أسلوب تعليمي جذاب ، وقد قَسَمه إلى ثلاثة كتب تضمّن أولها وثانيها نصائح للذكور بينما خصص الثالث للنصائح الموجهة للإناث .

(١) جرت العادة لدى الكُتّاب الرومان على تسمية فصول الكتاب الواحد باسم « كتاب Liber » .

(٢) « فن الهوى » لأوفيد . ترجمة كاتب هذه السطور ، وراجعته على الأصل اللاتيني د . مجدى وهب . الطبعة الأولى : دار الشروق ببيروت ١٩٧٣ . الطبعة الثانية والثالثة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩ و ١٩٩١ على التوالي .

والأول توجيه للرجل إلى البحث الذكي الدعوب عن المرأة الجديرة بهواه ، ثم عن طريقة التعرف بها واستبالتها وإغرائها بالحديث العذب واللفتة البارعة والاهتمام بأناقة المظهر .

والكتاب الثانى تدريب للعاشق على الاحتفاظ بمعشوقته أسيرة دائمة لهواه ، لا ينسى فى ذلك أثر الكلمة المنعشة للأفئدة أو الهدية الغالية ولا المظهر الحسن أو الخلق الرزين .

والكتاب الثالث نصيحة ثمينة لأية امرأة تريد أن تَغزُوَ بهواها القلوب وإرشادها للطريق المثالى الذى يجعل منها امرأة جذابة فى كلمتها ومشيئتها ولفقتها وزيتها .

ومع ذلك فليس الكتاب دعوة إلى الانغماس فى الغرام بقدر ما هو دعوة إلى الرقة فى المسلك والأناقة فى المظهر والتحلّى بالمعارف والفنون التى يعتبرها أوفيد أشدّ تأثيراً فى القلوب من جمال الملامح وبهاء الحلى والجواهر . هو دعوة إذن إلى خلق مجتمع تنمو فيه أسمى العلاقات بين الرجال والنساء ، وترقى فيه العادات والتقاليد ، ويُصَقِّلُ فيه الحس ويكتمل فيه الذوق الرفيع .

ثم فاجأ أوفيد قراءه الذين كانوا يتلقفون كتبه السابقة بكتاب يمثّل الوجه الآخر لكل ما سبق وقَدّمه ، فطالعهم بـ « سلوان الحب » Remedia Amoris يستحث فيه الناس على أطراح الهوى والانصراف عن الغرام إلى الأعمال النافعة كالفلاحة أو الرماية أو الصيد أو الانشغال بالرحلات والأسفار الطويلة ، وينصح فيه العشاق بنسيان تجارب غرامهم والتخلص من ذكرياتهم ، رسائل كانت أو صوراً . ولم يكن إقدام أوفيد على وضع هذا الكتاب الأخير إلا محاولة لتهدئة الفلاسفة ودعاة الأخلاق والمتزمتين من الحكام ممن ثاروا عليه واعتبروا كتبه دعوة إلى الفجور والانحلال .

ثم تحدث أوفيد عن الأعياد والمهرجانات والشعائر الدينية والمناسبات التاريخية فى قصيدة تعليمية طويلة مقسّمة إلى إثني عشر جزءاً كان كل جزء منها خاصاً بشهر من شهور السنة وسياها « التقويم » Fasti ، ورجع فيها إلى وثائق الدولة ومصادر التاريخ والميثولوجيا وعلم الفلك . غير أنه للأسف لم يُعثر إلا على ستة أجزاء منه ، ولا نعلم هل أكمله كما يزعم وفقد نصفه أو احترق ضمن ما حرقه يوم نفى من روما ، أم أنه لم يكتب أصلاً غير هذه الأجزاء الستة .

وكانت هذه الفترة بمثابة مرحلة للمران على تناول موضوعات تراجمية أهلته لكتابة مأساته الرائعة عن « ميديا » التى لقيت شهرة كبيرة فى عصره ونالت استحساناً ضخماً آنذاك ، وإن لم يبق منها شيء مع الأسف لأنها ضاعت ضمن ما ضاع من التراث الرومانى . ويبدو من حديث المعقّين فى ذلك الوقت أنها كانت نفحة شعرية متنازة ، وإن لم يشجعه ذلك على الاستمرار فى مثل هذا النوع من الإنتاج الأدبى . ثم ما لبث أن ظهر كتاب « مسخ الكائنات » الذى تقدم ترجمته العربية هنا .

ولقد نفى الإمبراطور أوغسطس أوفيد إلى مدينة توميس على البحر الأسود جزاء له على تأليف كتاب « فن الهوى » ، وكذّب شاعرنا هذا ، وقال إنما نفى لإذاعته سراً من الأسرار لا لهذا الادعاء .

ومما يَذكر عن أوفيد أنه نتيجة لغضبه وحزنه معاً في لحظة فراقه لعاصمته المحبوبة قد ألقي بكتابه كله عن « مسخ الكائنات » في النار معبراً بذلك عن يأس قاتم حيال مستقبله الشعري . ولعله كان يحاول تقليد الشاعر فيرجيل الذي مات قبل أن يهتم ملحمة « الإنيادة » ، وإذ لم يكن راضياً عنها كل الرضا حاول التخلص منها ولكن جيل بينه وبين ذلك . غير أن أوفيد كان واثقاً من وجود نسخ أخرى من هذا الديوان لدى الكثيرين من أصدقائه مما يؤكد أن محاولته لم تكن عن رغبة حقيقية في التخلص من الكتاب .

وواصل أوفيد بعد ذلك الكتابة من منفاه ، فدوّن أشعاراً كثيرة جميلة مصقولة ملتصا العفو والغفران ، وسجّل في أشعاره كل ما شهدته في منفاه من صور الهول والفرع . ولكن مضت الأعوام ولم ينل العفو الذي كان يرجوه ، وظل يواصل كتابة أشعاره ، وإن كان قد بدأها مثقلة بالأسى والاكئاب في كتابه « المنظومات الحزينة » و« رسائل من بونتس » ، ثم ما لبث أن تخلّى عن هذه الكآبة التي انتابته أول الأمر ، وإن لم تكن مع ذلك نخطيء نعمة الحنين التي ظلت واضحة في كل أشعاره أو نبرة الشوق العارم إلى العاصمة ، فقد طبعنا كل ما نظمته من القصائد في منفاه ، لأن شاعرنا ظل إلى آخر يوم في حياته مشدود الفكر إلى مدينته الأثيرة مشوقاً للعودة إلى ربوعها الحانية .

وقد استهل « أوفيد » أعمال منفاه بمدينة « توميس » بكتاب « المنظومات الحزينة » Tristia الذي يصوّر عنوانه مضمونه المثقل بأسى الوحدة وشقاء الغربة ، وقسمه إلى خمسة أجزاء وجه ثانياً إلى الامبراطور أوغسطس يدفع فيه عن نفسه التهم التي ألصقتها به بعضهم بعد نشره كتاب « فن الهوى » الذي اعتبر تحريضاً على الفسق والفجور ، ويستعطف الامبراطور أن يخفف من قسوة عقابه وأن يبدله من « توميس » مدينة أرحب وأفسح لمواهبه الأدبية .

أما أجزاء الكتاب الأخرى فهي مجموعة من الرسائل الشعرية وجهها لأصدقائه دون أن يذكر أسماءهم خوفاً عليهم من بطش الامبراطور الغاضب عليه ، وتقطر هذه الرسائل مرارة تثير الشفقة عليه في محنته التي كانت تطحنه بلا رفق .

وكأنما لم يخفف كتاب « المنظومات الحزينة » شيئاً من وحدة أوفيد ، فوضع كتاباً ثانياً أسماه « رسائل من بونتس » Epistulae ex Ponto يضم أربعة كتب تحوى رسائل شعرية وجهها هي الأخرى إلى أصحابه ، لكنه في هذه المرة صدرها بأسماهم الحقيقية . وتفيض هذه الرسائل بالشكوى مما يحمله من عذاب تدوُّب له القلوب ، لولا ما فيها من إسهاب يهون من وطأة أساه في نفس القارئ .

ولم تكن كتابات أوفيد في منفاه كلها حزناً وشكوى ، فقد كتب مقطوعة طويلة أسماها « إيبس » Ibis أي طائر أبو منجل المائي المعروف باسم أبي قردان ، وفي هذا الكتاب يصب جام غضبه على رجل لم يُسمه متهماً إياه بمحاولة الاعتداء على زوجته وأمواله في غيبته . ولعل هذا الكتاب أعرق موسوعة في السباب لأنه

يضم مجموعة نادرة من اللعنات والشتائم المستخلصة من أقدم كتب التاريخ والأساطير والحكايات الشعبية .

ومات أوفيد بمنفاه عام ١٨ ميلادية دون أن يحقق الحلم الذى ظل يراوده حتى آخر حياته .

* * * *

وقد اخترت أن أنقل هذا الكتاب إلى العربية لأسباب عدّة :

أولها : إحساسى بحاجة اللغة العربية إلى مادة تتمثّل فيها الأساطير وتشيع فيها الحكايات الخرافية التى تجلّو لنا ما كانت عليه آلهة الإغريق والرومان وغيرهما من أبناء الحضارة القديمة .

ثانيا : أن هذا الكتاب يروى قصة هذه الأساطير بأسلوب شعرى متدفّق وبلغة عذبة رقيقة لا تنفّر القارئ وترسخ أسماء الآلهة والأبطال فى ذهنه ، مما يجعلها قريبة إلى ذاكرته حين تصادفه مرة أخرى فى قراءته للآداب القديمة أو الآداب العالمية التى تواصل استخدامها للرمز والإيماء إلى أدوار محدّدة أو وقائع معيّنة .

ثالثها : ما كان لهذا الكتاب من أثر كبير فى تاريخ الأدب العالمى عامة وعند الرومان خاصة ، فلم يحظ كتاب آخر بمثل ما حظى به هذا الكتاب من التأثير فى القراء سواء لما تميّز به من أسلوب أدبى رائع أو لما اختص به من موضوع جدّاب .

رابعها : أن دراسة المنجزات الفنية على مرّ التاريخ وتذوّقها باتت تحتاج إلى حد أدنى من الإلمام بالأساطير الإغريقية والرومانية .

فالشاعر أوفيد يعنى هنا بموضوع واحد يخلص عن طريقه إلى التأليف بين عدد من الأساطير والحكايات الخرافية ذات السمة المميزة ، وهو موضوع تغير صور الكائنات الحيّة وأشكالها وتحوّلها من شكل لآخر أو من طبيعة إلى أخرى . ويتابع الشاعر قصص هذه التحوّلات ويرويها عن أصلها مع ما يضيفه على أسلوبها من الأداء الأدبى الممتاز ومن الشاعرية الملهمّة ، مما جعل كتابه من أبرز الأعمال الأدبية التى أنتجها الأدباء والشعراء الرومان .

وقد وردت معظم هذه الحكايات الخرافية فى مؤلفات شعراء الإغريق الأقدمين التى كان لها دور أساسى هام فى تثقيف الرومان أنفسهم وفى تربيّتهم خلال المراحل الأولى . ولكننا لا نملك بعد قراءتها إلا أن نعتزف بقيمة المجهود الفدّ الذى بذله الشاعر أوفيد حين أقدم على اختيار هذه الأساطير القديمة وبعث فيها الحياة من روحه الشاعرية ، مُعيداً روايتها فى رشاقة ويُسرّ حتى صار يُضرب بها المثل فى الأخذ بمجامع القلوب والاستحواذ على لبّ كل من يقرؤها أو يستمع إليها .

ومن هنا نرى أن العالم قد كسب بهذا الكتاب مصدراً أدبياً ثراً يعدّ كنزاً حافلاً بالأساطير والحكايات الخرافية ، لا يزال يقرؤه ويتطلّع إليه الجميع في كل اللغات بشغف كبير حتى يومنا هذا . وظل هذا الزاد الضخم من الحكايات منبعاً تستقى منه الآداب الغربية الإلهام في فنونها المستحدثة ، كما تستمد منه الحضارات الحالية قوة روحية فريدة . ومع ما يفيض به هذا الشعر من ألوان البلاغة والتعبير البياني فهو ينبض بنضارة العالم الأسطوري الذي يصفه شعره القصصى الجذاب .

وقد وصف كوينتيليانوس هذا الكتاب بأنه ملحمة شعرية ، وإن لم يعدّه بعض النقاد ملحماً لخلوّه من التكوين الموحد الضروري في حالة الملحمة . وفي الحق إن أوفيد قد نجح في أن يخلط من هذا العمل الشعري الذي يتألف من خمسة عشر فصلاً مُصاغاً في وزن سداسي التفعيلات بناءً محكماً أتاح للقارئ الانتقال من قصة لأخرى دون أن يشعر بأى انفصال أو خلط في ترتيب الكتاب .

وفي هذا الكتاب يبدأ الشاعر بالثناء على الآلهة وحمدها على ما أسدت من خير للوجود ، ثم يمضي فيتحدّث عن أصل العالم ومراحل نشوء الكون منذ العباء إلى انبثاق الحياة ، ثم تتابع الأجيال جيلاً بعد جيل وعصر بعد عصر إلى ما انتهى إليه الكون من نظام . وإذا هو يُقسّم تلك العصور إلى أربعة : العصر الذهبي والعصر الفضي وعصر البرونز ثم عصر الحديد الذي تجلّى فيه للبشرية وجودها الكامل . وكان چوبيتر [زيوس] هو الذي أمهى إلى سائر الآلهة بتحوّل أول آدمى إلى حيوان ، وهو ليكاوون ، وكانت تلك العقوبة على ما كان له من شرور وأثام . وعندنا شرع العاقلة في هزّ عرش الآلهة إلا أن چوبيتر كبير الآلهة وربّ البشر استطاع أن يقضى على محاولتهم . وما لبث أن عقد العزم على إفناء العنصر البشري بأكمله فاصدأ إنهاء عصر ويده آخر ، فراح يرسل سيولاً وفيضانات متلاطمة الأمواج لإغراق الأرض ، فلا يبقى سوى ديوكاليون وبيرا لتعمير الأرض من جديد بعد الطوفان .

وقد بدأت أول ما بدأت قصائد الكتاب بوصف هذا الحادث ، ثم استرسلت بعد هذا ، فنرى أبوللو وهو يفتك بالأفعوان يثون الهائل ، ثم إذا هو يقع في غرامه بدافنى . ومن هنا أخذت تبدو غراميات الآلهة وغدت تتوالى في صور مختلفة وصفها أوفيد خلال الكتب الخمسة الأولى [أى الفصول الخمسة] في كتابه عن مسخ الكائنات حتى منتصف الفصل السادس ، ليتنقل بعد ذلك إلى موضوعات تتصل بأبطال اليونان القديمة مثل چاسون وثيسبيوس وأضرابها حتى حرب طراودة .

ويستمر أوفيد على هذا النحو في سرد البطولات الخالدة ابتداءً من شخصية أينياس إلى أن يصل إلى رواية قصص إيطالية ورومانية قديمة تتصل بحياة الملوك . وفي نهاية الكتاب ترد على لسان أوفيد قصة تحول يوليوس قيصر إلى كوكب وانتسابه إلى الآلهة ، التي كتبها على سبيل الإطراء للإمبراطور الحاكم واستدراار لعطفه .

ولقد تميّز هذا الكتاب « مسخ الكائنات » في مجموعه بحشد هائل من القصص الخرافية المصوغ في أسلوب شعري توفّرت له كل وسائل الخيال والحسّ والعاطفة والمشاعر الوجدانية الدافئة . ولا يكاد المرء

يطالع أبيات شعره عن شخصية من الشخصيات من أمثال بيجاليون أو كاليستو أو فينوس حتى يلمس القدرة الفنية العالية والبراعة في تصوير مواقف العشق والغرام مع ذكاء كبير في النفاذ إلى الطبيعة البشرية في خضم المعارك اليومية .

وليست أحداث الأساطير كلها التي جاءت على لسان أوفيد ذات صلة بالتحوّلات الخَلْقِيَّة وحدها ، بل كان الكثير مما يرد في غضون رواياته مواقف تشير إلى الرغبة في بعث السرور في القلوب ، من ذلك ما رواه عن أورفيوس وقد هدّه العشق والهوى . ويمضى أوفيد فيربط بين هذه القصة وبين قصة الإله سيريس وپروسيرينا [پيرسيفون] رغبة منه في إحداث تأثير ما في نفسية القارئ بما امتلأت به هذه القصة من ألم دافق وحزن عميق على الرغم من أنها لا تتصل عن قرب بموضوع مسخ الكائنات .

وهذه الفكرة في انتقاء مجموعات من الحكايات الخرافية والأساطير لم يكن أوفيد مبتدعها بل سبقه إلى ذلك شعراء العصر المتأخر ، فقد شاعت بينهم مجموعات خرافية تتناول موضوع تحوّل الأدميين إلى طيور ، كما وُجِدَت مجموعات أخرى لأساطير مشابهة في اليونان القديمة . ولا شك في أن أوفيد لم يكن السابق إلى هذا العمل كما لم يبتكره ، لأن فكرة المجموعات الأسطورية من هذا القبيل عُرفت من قبله ، ولكن من العسير أن نعرف إلى أي حدّ كانت هذه المجموعات السابقة ذات تأثير على عمله . غير أنه مما يبعث على الإعجاب بشخصية أوفيد طريقته الفنية الحاذقة في ربط هذه الحكايات بعضها ببعض الآخر ، فليس ثمة رباط بين الحكايات التي يرويها أوفيد ، ولكنه استطاع بما أوتيّه من المهارة أن يصل فيما بينها بطريقة بارعة ، بحيث يقرن بين طابع شخص وشخص أو بين اسم واسم أو بين موقف وموقف . فيستغل أوفيد هذه المشابهات في إلحاق قصة بأخرى على أساس الانتقال من موضوع إلى ما يشبهه ومن صفة إلى ما يماثلها ، وليس فيما بين هذا الربط الفني تلفيق أو تكلف إلا في القليل النادر . ومن هنا تجلّت في الكتاب وحدة جامعة ، خاصة أنه عمد إلى الربط بين الأحداث ربطاً درامياً سليماً . لقد استطاع أن يربط بين الأساطير بطريقة شاعرية كى يبعث في نفوس المستمعين إحساساً واضحاً بالصلة العميقة القوية بين حياة البشر والوجود الطبيعي من حولهم الذي يضم سائر الكائنات الموجودة من إنسان وحيوان ونبات وجماد في وقت واحد ، تلك الرابطة التي تصل بين الإنسان والكون المحيط به ، وهى الأساس الذي بنى عليه هذا الموضوع ، وأصبح عاملاً مشتركاً بين هذه الحكايات الخرافية الواردة بين دفتي الكتاب ، وإن كانت الرابطة بين الحيوان والإنسان في عالم الطبيعة الحيّة هي الغرض المنشود من إثارة هذه الحكايات وروايتها في هذا الأسلوب العذب الجزل .

ويتكرر ورود أسماء الألهة لأنها تكاد تشترك في معظم الأحداث ، فجوبيتر هو مصدر التهديد الدائم للمحوريات من ناحية وللعداري من ناحية أخرى ، كما يرد دائماً ذكر أبوللو وميروكوريوس دون أن يُحاطا خلال الأقاليم التي يرويها أوفيد بهالة القدسية والتقدير . وليس هذا الموقف مستحدثاً فقد جرت العادة على ذلك منذ أقدم العصور كما هي الحال مع هوميروس الذي لم ينظر دائماً نظرة الإجلال إلى آلهة

الأوليمبوس الذين يرتكبون كل الخطايا التي يرتكبها البشر ، ويلهون مثل الناس ويقعون أحياناً فريسة للغيظ والحسد والحقد والكراهية والطمع والشراسة . وهو ما أتاح لأوفيد أن يستغل خياله في تصوير هذه الأحداث المتصلة بالألهة ، وأن يستفيد من هذا المجال الرحب لإثارة المشاعر المختلفة – فضلاً عن السخرية – لدى قرائه ومستمعيه . فَيَرِدُ كلام الألهة كما يَرِدُ كلام البشر على لسانه وكأنهم معاً أبطال في مسرحية كبيرة يعدّها القدر ، ويرسم خطوطها المصير المحرّك لكل ما يجري في الكون من أحداث ، ويسيرها القضاء المحتوم بإرادته ، ويخضع لها الصغار والكبار بما في ذلك الألهة والأبطال على السواء .

واعتماد أوفيد أن يكرّر بعض الأبيات من حين لآخر وسط أشعاره دون أن يستشعر القارئ غضاضة في ذلك ، بل قد يجد في هذا التكرار نوعاً من الأناقة والطرب المستحبّ ، فلم يكن ينقص أوفيد براعة الاستهلال أو القدرة على تغيير النغم والأسلوب في بعض الأحيان .

ولم يتخلّف أوفيد عن أن يسمو بعباراته إلى أرفع المراتب باستخدام الفقرات الشعرية ذات الوقع الجميل المرهف . فيبدأ الفصل الأول – كما أسلفت – بعبارات عليها مسحة من جلال إذ هي تتصل بقصة خلق العالم ووصف أحداث الكون وهو في مرحلة النشوء والتطور ، ولهذا فقد امتاز هذا الفصل بطابع أشعار الملاحم بما لها من جلال ورهبة ، وهو ما يصدق أيضاً على الفصل الخامس عشر ، لأنه أكثر جنوحاً إلى الأفكار الفلسفية . ومن هنا تهلّز الأنغام قوية التأثير عندما تعمد إلى وصف ربح الشبال ، ثم تعانق النشوة الغنائية عند ذكر باكخوس [ديونيسوس] إله الخمر ، وفيما بين هذا وذاك تمضي الألفاظ والعبارات رقيقة هادئة وديعة حتى تكاد تبلغ في عذوبتها همس الموسيقى .

ويسرد أوفيد في الفصل الخامس عشر حديثاً مُسهباً للفيلسوف اليوناني پيثا جوراس ، متبنيًا فلسفته الشاعرية الحاملة معارضاً بها الفلسفة الأبيقورية التي كانت شائعة في وقته . وقد أورد قبل ذلك بعض الآراء التي تدور حول نظرية تناسخ الأرواح التي قال بها پيثا جوراس خلال حديثه عن مسخ الكائنات ، كأنما يلتمس فيها تعضيداً وتبريراً لما يتعرّض له موضوعه الشعري في هذا الكتاب وهو مسخ الكائنات من حال إلى حال ، وتناسخ الأرواح كما نعرف هو انتقال روح الميت بعد وفاته إلى كائن آخر حيواناً كان أم نباتاً . ولكنه لم يستطع أن يجلو هذا الأمر حتى جلالته لغلبة الروح الشاعرية والبلاغية عنده على قدرته الفكرية ، ثم ما كان منه من عدم ميل إلى أن يضمحى باناقة العمل الشعري من أجل بسط بعض الأفكار الفلسفية أو بعض الأحداث التاريخية ، وكان أوفيد يتجنب دوماً أن تغطي الأفكار أو الموضوعات على التعبير الشعري أو على جماله وإبداعه . وهذه الميزة في الواقع هي التي عملت على وقاية شعره من الإسفاف ومن التحوّل إلى نظم تعليمي فحسب خال من روح الشعر .

وانساب أثر ذلك كله على مجموعة أعمال أوفيد الشعرية فامتألت بوصف نادر للطبيعة وجمالها وروعها . ولعلنا لا نبالغ كثيراً إذا قلنا عن أوفيد أنه كان من أبرع الشعراء الذين وصفوا الطبيعة بخصوبة خيالهم الخلاق . وستظل أوصافه للطبيعة نمطاً فذاً لشعر الوصف بين كل الشعراء الأقدمين والمحدثين ،

فلقد أدت هذه البراعة إلى تحويل المشاهد الخيالية إلى مشاهد ناطقة بحكم ما تميز به من دقة التعبير ومن القدرة الحارقة على الأداء الشعري . وهكذا نال شاعرنا تقدير كل من دانتي وشكسبير ، وحسبنا شهادة مثل هذين الشاعرين دليلاً على بلوغه المستوى الأعلى في كتابة الشعر . فهذه الأبيات تحدّث دانتي عن أوفيد :

سمعت وقتئذ صوتاً يقول : « مجدوا الشاعر الأعظم : فطيفه يعود بعدما ارتحل » . وبعد أن توقّف الصوت وسكت ، رأيت أشباح عظمة أربعة قادمين نحونا لم يكن لهم مظهر الحزن ولا السعادة . بدأ أستاذي الطيّب يقول « انظر إلى من حمل بيده ذلك السيف ، ويتقدّم ثلاثة كأنه السيّد . ذلك هو هوميروس أمير الشعر ، والثاني الذي يأتي بعده هو هوراتيوس الساخر ، والثالث أوفيدْيوس والأخير لوكانوس . ولأن كلا منهم يشترك معي في الاسم الذي نطق به الصوت الوحيد ، فهم يشرفونني ، وبذا يحسنون صنعا» (٣) .

لقد ظل شعر أوفيد مثلاً فريداً في الأداء الفني ، وأمكن للكثيرين ممن درسوه وتعمّقه وفهموه أن يجدوا في قراءته متعة حقة وأن يتبيّنوا في ثنايا أعماله فناً أصيلاً ملك قلوب الناس في كل البقاع وفي كل اللغات . ولعلّ أسهم هنا إسهاماً ما في إتاحة هذه المتعة لأبناء لغتنا حتى يشاركوا أبناء العالم أجمع في الاطلاع على هذا الكنز النادر .

وقد تناول الكثيرون كتاب « مسخ الكائنات » بالدراسة والنقد العميقين ، وتعدّ الدراسة التي عرضها الأستاذ هرمان فرانكل في كتابه « أوفيد شاعرٌ بين عالمين » من أهمّها جميعاً ، ونستطيع أن نوجز ملاحظاته في أمور ثلاثة :

أولها : أن هذه الملحمة أول محاولة لأوفيد يقصّ فيها قصصاً بطريقة فنية متصلة بحيث يكون لها بداية ووسط ونهاية ، وبحيث تتناسب مع قواعد كتابة الملحمة التي تتطلب من الشاعر التزام البيت الطويل ذي التفعيلات الست والاسترسال في القصّ خلال ملحمة طويلة ضمّت أكثر من إثني عشر ألف بيت في خمسة عشر فصلاً [أو كتاباً] . فقد فرض عليه تسلسل القصص في ملحمة أن يربط بين أجزائها بروابط لا يحسّ معها القارئ هذا الربط فلجأ إلى حيل شتى ، وذلك بأن تكون ثمة صلة بين شخصيات القصص أو بأن يكون ثمة تشابه بين موضوع القصص ، إلى غير ذلك من وسائل مماثلة .

ثانيها : أن اختيار موضوع التحوّلات أو مسخ الكائنات الذي تناوله الشاعر يرجع إلى نظرة له في الكون اكتسبها من شغفه بالقصص الأسطوري بما فيه من فتنة وإثارة للخيال يستطيع أن يسبغ بها على ما يرويه منطقاً لا يرتبط بالواقع في شيء ، حيث يبدو الموت وكأنه لا وجود له في ذلك العالم السحري الذي لا يموت فيه كائن بل يتحول من شكل إلى شكل ، وفي هذا سلوان للنفس ، على حين أن الواقع ينطق بغير هذا ، إذ فيه فناء كل شيء لاسيما في عصر عنفوان الدولة الرومانية المؤسسة على القهر والطغيان . ومن

(٣) الكوميديا الإلهية لدانتي : الجحيم . النشيد الرابع ٩٠ . ترجمة حسن عثمان . دار المعارف ١٩٥٩ .

ناحية أخرى يكشف أوفيد عن إيمان بـ « وحدة الروح » فيذهب إلى أن الروح تنقسم على نفسها وتزدوج ، وينصب كل جزء منها في كائن آخر غير الذى فى ، وفى هذا ما يدل على وحدة الروح الخالدة . وهذا يفسر لنا اهتمامه فى الجزء الخامس عشر بخطبة بينا جوراس حين يناشد الناس أن يتجنبوا ذبح الحيوان لأن فيه إهدار للروح وحيلولة بينها وبين الخلود ، ويمكن اعتبار هذه الخطبة أساساً فلسفياً لانجاء أوفيد فى قصص هذا الكتاب .

ثالثها : أن عقيدة أوفيد الدينية كانت أقرب إلى اللا أدوية منها إلى الإيمان الإيجابي ، وهو ما يكشف عنه بيت فى الكتاب الأول من منظومة « فن الهوى » حيث يقول : « حقاً إنه من الخير أن يكون ثمة آلهة . فلنؤمن إذن بوجودهم » . غير أن القراءة الدقيقة للنص تبين أنه يقرّ عبادة الآلهة بل يجدها بشرط ألا يظن الناس - كما ظن الفلاسفة الأبيقوريون - أن الآلهة فى علاهم لا يكثرثون بما يحدث على الأرض . فأوفيد يعتقد أن الآلهة يشغلون بأمور البشر من وقت لآخر ، ومن ثم يجعل بنا عبادتهم فى خشوع ، فهم من يمنحون جزء البر والثواب لمن لا يعتدى على غيره . والراجح أن أوفيد كان يعتقد أن الإنسان لا يستطيع أن يحيا حياة صالحة إن لم يؤمن بأن ثمة قوة عليا تراقبه وتحاسبه على سلوكه . ولم تكن الديانة التى يعتنقها أوفيد هى تلك الديانة البدائية المرتبطة بالعبادات اللاتينية العشائرية المحلية ، بل هى الديانة الإغريقية العامرة بالأساطير الذكية اللامحة الرامزة لحياة النفس وحالات الطبيعة ، باستثناء ربة الحظ « فورتونا » فى الديانة المحلية القبلية التى لم ترق إلى مستوى الآلهة وإن كانت تنفذ إرادتهم فى أمور الدنيا . ولقد انعكس هذا الميل نحو الديانة الإغريقية القديمة بالمثل على الإمبراطور أوغسطس لما فى الديانة القديمة من توفير لفكرة النظام وتوطيد للاستقرار بالرغم من تقلبات الدهر والطبيعة . ولذلك عدت الديانة الرسمية فى روما الإمبراطور ممثلاً شخصياً لرب الأرباب جوبيتر على الأرض ولقبتة « بالاله المائل بيننا » . هكذا أصبحت الديانة الرسمية وسيلة لربط الأمة بولاء ديني موحد ومشارك لا يهتم بتعاليم خاصة دون أخرى وإنما يفتح المجال للديانة الإغريقية القديمة الموحد فغداً الآلهة حلفاء للدولة ، والدولة حليفة الآلهة . وقد حاول أوفيد مجازاة العقيدة الرسمية السائدة وإن كان فى قرارة نفسه لم يهتم كثيراً بأمور السياسة والمُلك ، فهو لا يؤمن إلا بأمرين اثنين : الفن والإنسان . وكان اهتمامه بالأساطير من مظاهر إيمانه بالفنون والآداب لا لإيمانه بمعتقدات دينية بعينها .

ومن حيث تكوين الملحمة لاحظ الأستاذ فرانكل شيتين هامين :

أولهما : التوازن بين الكتاب الأول والكتاب الخامس عشر ، فى الأول وصف لبدء الخليقة من حيث هو تحوّل من حالة فوضى وانقسام إلى حالة نظام وانسجام . وفى الكتاب الأخير وصف لتاريخ روما من حيث هو تحوّل من مغامرات فردية إلى نظام سياسى يصبح فيه الإمبراطور الها ، فعلى حين كان الآلهة فى الكتاب الأول هم خالقى النظام الكونى ، إذا « النظام السياسى » فى الكتاب الأخير هو الذى رفع قيصر من البشرية إلى الربوبية .

ثانيها : أنه على حين تحتفظ الملحمة بأسلوبها القوي في الأحد عشر جزءاً الأولى ، تفقد قدرأ من حيويتها في الأربعة الأخيرة .

٥

وبالرغم من أن أوفيد قد أنهى حياته في المنفى بعيداً عن جمهور قرائه في روما ، وبالرغم من أن كتاب « فن الهوى » الذي كان قد ألفه قد حُرِّمَ تحريماً قاطعاً ، وأن كتاب « مسخ الكائنات » كان قد أُلقي به صاحبه في النار ، إلا أن نسخاً من هذين المؤلفين كانت في متناول القراء في روما نفسها أثناء السنين الأولى من الامبراطورية . وهناك شعراء من القرن الأول الميلادي من أمثال مارتياليس وستاتيوس جوفيناليس كانوا يطالعون دواوين أوفيد بحماس ، وكذا تحدّث عنه الناقد كويتيليانوس في كتبه كما أسلفت على أنه شاعر ملحمي وغنائي ومسرحي وامتدحه وإن أخذ عليه الانطلاق على هواه ، كما لم يؤمن أن الكتاب كله يستحق التقرّيز بل بعضه . ثم ما لبث ذوق العصر أن تغيّر وأخذ قراء أوفيد ينقصون شيئاً فشيئاً إذ كانت العصور الأولى للمسيحية عصر انكماش لأوفيد ، فلقد تعمّد الكتاب المسيحيون الأزل الحطّ من كافة الكتاب الوثنيين وخاصة الشعراء منهم بوصفهم أشدّ الكتاب خطراً على عقول القراء ، إذ تزخر مؤلفاتهم بقصص ماجن عن آلهة الوثنية كما تنطوي على عريضة واستهتار . وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على تحوّل رجال الدين من أثر هذه الكتب في نفوس المؤمنين لما فيها من جاذبيّة وتشويق . وبالرغم من ذلك كله مضى النسخ ينقلون شعره سرّاً فيطالعه الناس من جميع الطبقات في الخفاء . بل إن بعض رجال الدين أنفسهم كانوا يطالعونه ، إذ يشير عالم اللاهوت المشهور « لكتانتوريوس » إلى كتاب « مسخ الكائنات » مستشهداً ، ليبرهن على أن إلهاً واحداً قد خلق العالم ، حتى وإن جاء ذلك على لسان شاعر وثني !

فلقد وصلت إلينا بعض المخطوطات من القرن السادس كتبها عالم لغوي اسمه « لكتانتوريوس بلاكيدوس » تحوى ملخصات نثرية لبعض الأساطير التي ذكرها أوفيد ، وأغلب الظن أن هذه الملخصات كانت تدريبات لغوية مدرسية لطلاب اللغة اللاتينية . وفي عصر الامبراطور شارلمان قرّطه « ثيودولفوس » أسقف أورليان - وكان من أهم رعاية التعليم في بلاط الامبراطور - تقرّظاً مُعجِجاً ، هذا إلى أنه ذكره بين كتّاب اللغة اللاتينية الذين ألف قراءة ما يكتبون طوال حياته . ثم أضاف قولاً له شأنه ، هو أن مطالعة كُتب أوفيد لا شك تفيد القارئ لأن ما يليق منها يتضمّن حقائق عميقة كامنة وراء قناع الخيال .

ومع ذلك كان فرجيل هو الشاعر الأشهر ، ولم يرق أوفيد إلى درجته ليحلّ محله في كافة أنحاء أوروبا إلا مع بدء العصور الوسطى . وكان ذلك التطور طبيعياً بالنسبة لعصر مولع بقصص الخيال والمغامرات . ويبدو أن شعره الغزلي قد اجتذب جمهوراً كبيراً ، فعنّه شعراء « الجوليارد » وهم الطّلاب الرّحل ناظمو

الشعر الماجن راعيهم . وما لا شك فيه أيضاً أن شعراء التروبادور والمينيزنجر قد وجدوا في أعماله ينبوعاً ثراً للإلهامهم أشعارهم .

وقد ورد اسم أوفيد في القرن الحادى عشر ضمن قوائم كتب المطالعة المدرسية في مدن ألمانيا . كذلك ظهر اسمه في فرنسا خلال القرن الثانى عشر ، فوضع « ألكسندر نيكام » أستاذ الآداب بجامعة باريس وأكسفورد كتاب « مسخ الكائنات » لأفيد ضمن الكتب المقررة في منهجه الدراسى . وقد سُمى البعض القرنين الثانى عشر والثالث عشر « بالعصر الأوفيدى » Aetas Ovidiana ، إذ ظهرت ترجمة ألمانية لكتاب « مسخ الكائنات » صدرت في فجر القرن الثالث عشر إلا أنها لم تصل إلينا . كذلك كان لهذا الكتاب تأثير كبير في إسبانيا خاصة في « ملحمة الإسكندر » Libro de Alexandre الشهيرة في أواخر القرن الثالث عشر . وفي فرنسا ترجم « كرتيان دى تروا » أول شاعر فرنسى جدير بالذكر إبان القرن الثالث عشر أجزاء من كتاب مسخ الكائنات ، كما نُسبت إليه معالجة موسّعة لأسطورة فيلوميلّا عنوانها « فيلومينا » . وثمة معالجات بالشعر الفرنسى القديم ترجع إلى نفس العصر لأسطورة نارسيسوس وأسطورة بيراموس وثيريزى ، والثابت أن أوفيد هو أول من دوّن الأسطورة الأخيرة للآداب اللاحقة على عصره .

وكذا نتبين لكتاب مسخ الكائنات في المنظومة المشهورة المسماة « قصة الوردة » Roman de la Rose وهى من روائع الأدب الفرنسى القديم التى يتجلى فيها تأثير أوفيد الغزلى . وهناك أيضاً قصيدة بلغة بروفانس في القرن الثالث عشر عدداً من القصص التى ينبغى على كل شاعر أن يتعرف عليها ، منها قصص كثيرة لم ترد في غير كتاب مسخ الكائنات ، وفي الوقت نفسه تقريبا حدث تحول غريب لكتاب مسخ الكائنات نفسه ، فلكى تتاح للقارئ فرصة الاطلاع على الكتاب دون المساس بقيمه الأخلاقية جُمعت بعض نصوصه مع تفسيرات رمزية مسهبة لمغزى الأساطير تربط كلما أمكن بين حكايات أوفيد وقصص الكتاب المقدس حتى لقد استُغلت قصة الخلق والطوفان على سبيل المثال استغلالاً دينياً وأخلاقياً بارعاً . بل لقد ذهب بعض الكتاب إلى أبعد من ذلك فاستخلصوا من الأساطير غيراً لو وصلت إلى علم أوفيد لأصيب بالدهشة والعجب . وثمة نص فرنسى قديم من أوائل القرن الرابع عشر فيه تأويل رمزى لما جاء على لسان أوفيد Ovid Moralise فإذا هو يربط قصة الطوفان التى جاءت في التوراة بنظيرتها في « مسخ الكائنات » ويجعل من حديث أوفيد ما يدل على أن الطوفان عنده لا يُراد به غير طوفان الخطيئة التى يغرق فيها الأثمون ، كما ذهب إلى أن مُراد أوفيد بالأفعوان ييثون هو الشيطان ، وأن مراده بأبوللو الذى قضى عليه هو المسيح ، واحتملت أسطورة أبوللو وادفنى ما لا يقل عن خمسة تفسيرات رمزية مختلفة . وثمة أيضاً كتاب إيطالى لمؤلف مجهول من القرن الرابع عشر يحاول أن يفسّر فيه بعض الأساطير تفسيرات لا أساس لها ، فوصف أكتايون بأنه صياد يذهب إلى أن الصيّد لون من ألوان الجنون ولذا هجر الصيّد ، غير أنه رحمة بكلاب الصيّد احتفظ بهم ، فإذا هذه الكلاب تكثر عليه بمطالبتها الشره ، وإذا هو يعجز عن الاستجابة لها فتجتمع عليه وتنهشه . وقد شاع هذا النوع المؤوّل من التفسيرات شيوخاً كبيراً وقتذاك .

وفي القرن الثالث عشر تُرجم كتاب مسخ الكائنات إلى اللغة اليونانية ، وهي اللغة الأصلية لأغلب هذه الأساطير ، وبقيت هذه الترجمة الهامة التي قام بها الراهب البيزنطي « بلانوديس » حتى يومنا مرجعاً أساسياً في تحقيق الأعلام الجغرافية .

وفي إيطاليا نفسها جاءت ملحمة دانتي العظيمة عامرة بالإشارة الدالة على مدى إلمامه بمؤلفاته أوفيد وإعجابها بها . ولا شك أن كتاب مسخ الكائنات كان أهم مصدر لدانتي لما جاء في ملحمة عن الأساطير الكلاسيكية ، بل إنه يتحدى أوفيد في أحد مواضع ملحمة بأنه سيئز به في حقل اختصاصه ، بأن ابتكر نمطا مزدوجاً من التحول هو مسخ الإنسان إلى ثعبان ثم تحول الثعبان إلى إنسان من جديد . وكان « بوكاتشيو » أيضاً من الملعبين بأوفيد ، ففي قصيدته الطويلة « الرؤيا العاشقة » *Amorosa Visiona* يعيد سرد قصص كثيرة من قصص أوفيد ومن بينها الأسطورة الشهيرة لبيراموس وثيزبي .

وإن لم يكن كتاب ديكاميون « الأيام العشرة » لبوكاتشيو قد أخذ عن أوفيد مباشرة فهو في إطاره العام يوحى بأسطورة من أساطير أوفيد ، فقصص ديكاميون هي مسامرات لبعض الأشراف للتحفّف من ملل حياة الريف بعد أن هربوا من طاعون كان يعمّ المدينة ، مما يذكّرنا بأسطورة بنات مينياس في كتاب مسخ الكائنات اللاتي أخذن يتسامرن على حين كانت سائر النساء قد اختلفن إلى مهرجان باكخوس .

وكان أوفيد حاضراً في أذهان الأدباء الإنجليز أيضاً منذ القرن الثاني عشر ، فذكره المؤرخ « وولتر ماپ » ، غير أن « تشوسر » في القرن الرابع عشر هو الذي تأثر تأثراً كبيراً بشاعرنا الروماني ، وأغلب الظن أنه قد تعلق بأوفيد أثناء وجوده في فرنسا . ففي قصيدته الطويلة « دار الشهرة » *The Hous of Fame* كرّس أحد أعمدة الدار لأوفيد « أديب فينوس » . ولا شك أن لشعر أوفيد الغزلي تأثيراً كبيراً على كتابات تشوسر إلى جانب شعره القصصي ، ففي « أسطورة الفاضلات » *The Legend of good Women* نجد قصة بيراموس وثيزبي شديدة الصلة بالأصل الأوفيدى ، كما نتبيّن أيضاً بعض القصص الأخرى المستمدة من كتاب مسخ الكائنات . ولا شك أيضاً أن أروع ما كتبه تشوسر وهو « قصص كانتربرى » *Canterbury Tales*^(٤) كان متأثراً فيها إلى حد بعيد بأوفيد . وفي الوقت نفسه روى الشاعر جاوار بعض أساطير أوفيد في منظومته الكبرى « اعتراف عاشق » *Confessio Amantis* .

وما لا شك فيه أن شهرة أوفيد بلغت ذروتها فيما بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر . ومع ذلك فقد استمر عالماً بأذهان القراء حتى بعد ذلك العصر باعتباره من أشهر كتاب العصر الكلاسيكي ، إذ أخذت ترجمات كتاب مسخ الكائنات تكثر شيئاً فشيئاً في لغات أوروبية مختلفة على الرغم مما شاع في بعض هذه الترجمات من خروج على النصّ وتأويلات رمزية خلقية ، فظهرت ترجمات عدة في القرن السادس عشر بالإنجليزية والألمانية والإيطالية والإسبانية والفرنسية . والمعروف أن الشاعر الايطالي « أريوستو » كان مولعاً

(٤) انظر « حكايات كانتربرى » لتشوسر : ترجمة د. مجدى وهبه و د. عبد الحميد يونس . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣ .

بأوفيد وينسج في شعره على منواله ، وأن الفيلسوف الفرنسي « مونتيني » قد اعترف بأنه التهم كتاب مسخ الكائنات من قبل أن يلتحق بالمدرسة . وظهر تأثير قصص أوفيد واضحاً في كتابات « ثيرفانتيز » ، وبصفة خاصة في مسرحيات الكُتّاب المسرحيين الإسبان في القرن السابع عشر . وقد ترجم الشاعر الفرنسي لافونتين بعض أساطير أوفيد في كتابه « القصص » ، بل استخدم أسطورتين من كتاب مسخ الكائنات في مرثيته عن أدونيس . وكانت أول أوبرا ظهرت في العالم والتي قدمت في فلورنسا عام ١٥٩٤ هي « دافني » المشتقة من أسطورة بنفس الاسم في كتاب مسخ الكائنات .

وترجم كتاب مسخ الكائنات في إنجلترا خلال القرن الخامس عشر وطبعه وليام كاستون عام ١٤٨٠ على أول مطبعة صنعت في إنجلترا . أما أول ترجمة هامة لهذا الكتاب فهي ترجمة آرثر جولدنج التي نُشرت عام ١٥٦٧ . وكان شعر أوفيد يُقرأ إما كاملاً أو كمنتخبات شعرية في كافة مدارس إنجلترا حتى قبل ترجمة جولدنج .

واقبس « إدموند سبنسر » الكثير من كتاب مسخ الكائنات في ملحمة « ملكة الجان » The Faerie Queene . أما شكسبير فأغلب الظن أنه قرأ بعض أوفيد في الأصل اللاتيني غير أنه من المؤكد أنه قرأ ترجمة جولدنج كاملة . وذهب ناقد معاصر له يدعى فرانسيس ميرز إلى « أن نفس أوفيد العذبة الذكية مازالت حية عند شكسبير ذى اللسان المعسول » ، وأغلب الظن أنه كان يشير إلى روح أوفيد أكثر مما يشير إلى موضوعات مؤلفاته . ومع ذلك فثمة مواضع في أعمال شكسبير تدل على التأثير المباشر بموضوعات أوفيد . وقد تكون أشهر الأمثلة ذلك التقليد الساخر لقصة بيراموس وثيزبي التي أدخلها شكسبير في مسرحيته « حلم ليلة منتصف الصيف » . وثمة مثل آخر في مسرحيته « العاصفة » حيث تبيّن أن دعوات بروسبيرو لأرواح الجان شديدة القرب من تعاويد ميديا في الكتاب السابع من مسخ الكائنات ، وتحكى أول قصيدة كتبها شكسبير وهي « فينوس وأدونيس » حكاية واردة عند أوفيد .

ومع أن شعر ميلتون كان أقرب ما يكون إلى شعر فيرجيل أسلوباً غير أنه أولع بكتاب مسخ الكائنات ولعاً شديداً ، حتى لقد كتب بعض الأشعار باللغة اللاتينية يُدبّل بها مجموعة من الصور المطبوعة على لوحات محفورة تمثل بعض مواقف كتاب مسخ الكائنات .

وظهرت في عام ١٦٢٦ ترجمة ثانية مشهورة لكتاب مسخ الكائنات « لجورج ساندز » بعنوان طويل هو « مسخ الكائنات لأوفيد مترجمة إلى الإنجليزية ومعالجة علاجاً أسطورياً ومزودة بصور تفسيرية » . وفي أواخر القرن السابع عشر ترجم الشاعر الإنجليزي « جون درايدن » أجزاء كثيرة من مسخ الكائنات وكان الجزء الخامس عشر يعدّ أرفعها شأنًا ، ونشر هذه الترجمات إلى جانب ترجماته الشعرية لقصص من هوميروس وتشوصر ويوكاتشيو تحت عنوان « حكايات قديمة وجديدة » .

وفي القرن الثامن عشر كان الإلام بكتاب مسخ الكائنات لأوفيد جزءاً من تربية كل مثقف . وكان كتاب ذلك العصر كثيراً ما يترجمونه إلى الشعر الإنجليزي ، وذكر « ألكسندر بوب » أنه ترجم أكثر من ربع

كتاب مسخ الكائنات كممارسة أدبية ولكنه لم يُعدّ للنشر إلا مقطوعتين هما قصة « دريويى » وقصة « بومونا وفيرتومنوس » . وبعد القرن الثامن عشر أخذت شهرة أوفيد في الأضمحلال ، فلم يتحمس له شعراء العصر الرومانسى ولو أن استلهامه واضح بعض الشيء في شعر كيتس وشيلى وبايرون وبراوننج .

٦

وإذا كان لعبقرية أوفيد التصويرية في شعره أثر كبير في آداب أوروبا الغربية منذ فجر العصور الوسطى حتى أوائل القرن التاسع عشر فلا شك أنه كان لشعره أيضاً الأثر نفسه في الفنون التشكيلية . وكانت موضوعات الفن التشكيلى في أوروبا الغربية منذ أوائل العصور الوسطى تختلف بين اثنين : قصص الكتاب المقدس من ناحية مع الاهتمام خاصة بحياة المسيح وموته ، ومشاهد الحياة اليومية المعاصرة من ناحية أخرى . كذلك اختلطت التصاوير الذاتية التى بدأت تظهر في ذلك الحين لرعاة الفنون من الحكام والأثرياء بتصوير الموضوعات المقدسة أو بتصوير الحياة اليومية .

وقد شهد بدء عصر النهضة في إيطاليا مصدراً جديداً للفن هو العنصر القصصى في شعر أوفيد الذى غدا موضوعاً جديداً يُصوّر بجانب الموضوعات الدينية والاجتماعية ، وذلك بعد أن تحول رجال الكنيسة عن تحريمهم الأول لموضوعات أوفيد لما تحويه من زندقة ودينونة بالحسنة . وقد سائر هذا الاتجاه الجديد في الفن نهضة العلوم والآداب الإغريقية واللاتينية القديمة المعروفة بـ « المذهب الإنسانى » التى تُعدّ عند كثير من المؤرخين الأساس الفكرى والدُوفى لما يسمى بعصر النهضة في أوروبا .

وكان « لمسخ الكائنات » بطبيعة الحال أثر كبير في تزويد خيال الفنانين بموضوعات شتى تتجاوز نطاق ما ألفوه من قبل ، وخاصة أن تعدد الترجمات لهذا الكتاب قد ساعد على ذبوعه بين العامة والخاصة على السواء ، فضلاً عن أنه بالنسبة للدارسين والمثقفين كانت اللغة اللاتينية أكثر شيوفاً من اليونانية ، وهو ما أفسح المجال أمام قرائه . كما أن وجود الأساطير مجتمعة في كتاب واحد قد أعان كثيراً على استيعابها في سهولة ويسر .

وعلى سبيل المثال نستطيع القول بأن أسطورة « بيرسيوس » وانتصاره على الجورجونة ميدوسا قد كتبت لها الحياة في خيال العصور التالية لعصر النهضة في تمثال برونزى « لِنِفَنوتو تشللىنى » ، وأن أسطورة مسخ « دافنى » شجرة غار قد كتبت لها الحياة هي الأخرى في تمثال « برنبنى » المرمى ، وأن الأسطورة المشهورة لاختطاف « أوروبا » لا تصوّرُها إلا من خلال لوحات « بُولُو فيرونيزى » و « كُورِجيو » و « بيرو دى كوزيمو » . أما قصة مغازلة « فيرتومنوس لهومونا » فقد أصبحت ترتبط في أذهان الناس بتصويرها في النسيجيات المرسمة التى أنتجتها مناسج بروكسل في القرن السادس عشر .

ومن أدلة ذبوع كتاب « مسخ الكائنات » ما قاله أحد نقاد الفن واسمه كارلوريدلفي في كتاب له عن فنون عصره سماه « روائع الفن » (١٦٤٨) من أن فناني عصره باتوا لا يستطيعون العثور على مصدر أكثر إثارة لخياهم من كتاب « مسخ الكائنات » لأوفيد لا لأنه موسوعة أساطير قديمة فحسب ، بل لأن أوفيد في شعره الواصف يهْدِي الفنان إلى الطريقة المثلى لتصوير الموضوع من خلال دقة تجسيده اللفظي لمواقف الأساطير المختلفة .

ولا مجال هنا لأن أستطرد في اختيار نماذج التصوير أو النحت التي استوحاها أعلام الفنانين على مسرى السنين من كتاب « مسخ الكائنات » وإلا لاقضى ذلك مجلداً بأكمله ، ولذلك فقد اجتزأت بانتقاء أهم هذه الأعمال وجمعتها في دليل ألحقته بهذه الترجمة^(٥) . وأغرائي هذا البحث عن تأثر الفنانين التشكيليين بأعمال أوفيد على أن أضيف دليلاً آخر يضم أسماء المعزوفات الموسيقية والغنائية والراقصة التي استوحاها مؤلفوها من المصدر نفسه^(٦) .

يقول كنيث كلارك في كتابه « المناظر البرية تتحوّل إلى فن » : هناك شاعران فحسب من العصر القديم هما أوفيد وفرجيل اللذان ملا مخيلة الفنانين في عصر النهضة . وعلى حين كان أوفيد أحب الشعراء إلى مصوّري الشخصيات لما في شعره من وصف واضح وتفصيلي للقصاص الخرافية كان فرجيل هو مصدر الوحى لمصوّري المناظر البرية .

ويقول إروين بانوفسكى في كتابه : [مشاكل إيقونوغرافية متعلّقة بتسيانوا] : « كلما أراد تسيانوا أن يقصّ حكاية حقيقية كان يستوحياها من كتاب « مسخ الكائنات » لأوفيد باستثناء موضوع لوكرتسيا الذى كثيراً ما اجتذبه ، إذ أنه كان قليل الاهتمام بالموضوعات الكلاسيكية التي لا تمتّ إلى الأساطير بصلة . وحسبنا في هذا الصدد أن نقدر جهد أوفيد حتى قدره الذى بدأت الدراسات الإنسانية الغربية تعنى به منذ حوالى عام ١١٠٠ إلى يومنا هذا . فليس ثمة كاتب كلاسيكى آخر تناول مثل ما تناول هو من موضوعات أسطورية ، وليس ممن كتبوا في هذا الموضوع من يضارعه في إقبال الناس على أعماله بالقراءة والترجمة والتفسير والتعليق والتصوير . وليس في هذا ما يدعو إلى العجب ، فلم يكن عبثاً أن طُبعت طبعات عديدة من كتاب « مسخ الكائنات » لأوفيد والتعليقات عليه كما ذكرنا قبل ، وقد تضمّن عنوان أغلب هذه الطبعات عبارة « إنجيل الشعراء » بين الفرنسيين و « إنجيل المصوّرين » بين الألمان .

وكانت صلة تسيانوا بهذا الشاعر الذى « عاش بين عالمين » كما كان يدعى صلة خاصة ، فمما لا شك فيه أنه أحسّ بالوشائج القوية التي تربطه بكاتب يتميّز بالعمق وبسرعة البديهة وبالنزعة الحسية في الوصف ، كما يتميّز أيضاً بإيمانه بمسألة خضوع الإنسانية لنواميس القضاء والقدر . وكانت هذه الصلة الروحية هي التي أتاحت لتسيانوا أن يؤوّل نصوص أوفيد تأويلات تجمع إلى الحرفيّة التصرف ، كما كان

(٥) انظر الملحق الأول : دليل المنجزات الفنية التشكيلية المستوحاة من كتاب « مسخ الكائنات » لأوفيد .

(٦) انظر الملحق الثانى : دليل الأعمال الموسيقية والغنائية والراقصة المستوحاة من كتاب « مسخ الكائنات » لأوفيد .

يُعدّ عناية كبرى بالتفاصيل كأن يُطلق العنان لروح الابتكار تشيع في جوانبه دون كبت . وليس ثمة فنانٌ كبير مثله اهتم بالقصص الأسطورية واعتمد أكثر ما اعتمد هو على أوفيد ، فهو يستطيع من جملة واحدة في النص أن يصورها وقد أودع فيها انطباعات شتى لها شأنها . ومع ذلك فلم يقتصر اقتباسه على نص أوفيد وحده بل كان شأنه شأن غيره من كبار الفنانين يعود إلى مصادر أخرى يستمدّ منها إلهامه ، باستثناء حالة فريدة استطاع فيها أن يغيّر من دلالة النص تغييراً جوهرياً . فلا عجب إذن إذا كان تيسانو بوصفه مترجماً لأوفيد قد كانت له الحرّية المطلقة في استخدام جميع أنواع النماذج الميثية القديمة كانت أم حديثة ، غير متأثر بالتيار التصويري في هذا المجال الذي ازدهر من حوله في كثير من الطبقات المصوّرة والترجمات والتفسيرات المرفّقة لكتاب مسخ الكائنات .

وكنّت قد ضممتُ إلى مقدّمة الطبعة الأولى من هذه الترجمة تسع عشر لوحة للفنان تيسانو تمثّل بعض الأساطير التي جاءت بالكتاب ، وكذا مائة وتسع وعشرين تصويرية إيضاحية أبدعها الفنان ب . بيكار يعاونه فنانون آخرون في طبعة قديمة لكتاب « مسخ الكائنات » صدرت عام ١٧٣٢ بأستردام باللغتين اللاتينية والإنجليزية وبتعليق باللغة الفرنسية للأب بانيه ، وقد طبعت على أصل حجري محفور^(٧) . وهو كتاب من القطع الكبير فيه النص اللاتيني في نهر ، وفي نهر أمامه ترجمة شعرية بالإنجليزية بعضها للشاعر الكبير چون درايدن (١٦٣١ — ١٧٠٠) والبعض الآخر للشاعر الشهير ألكسندر پوپ (١٦٦١ — ١٧٩١) . وقد كانت هذه الصور التي ضممتها إلى تلك الطبعة من الكثرة بمكان مما زاد في ضخامة هذا الكتاب ورفع سعره فعزّ اقتناؤه على الجماهير ، وهو ما دفعني إلى أن أستبدل بها في الطبعتين الثانية والثالثة مجموعة أخرى من الصور أقل عدداً وإن كانت لا تقلّ قدراً ، فجاءت في ثلاثين تصويرية خطية نادرة للفنان بابلو بيكاسو رسمها خصيصاً لكتاب « مسخ الكائنات » ، وتفضّلت دار الكتب القومية بباريس فسمحت لي بنقلها عن نسختهم الفريدة ، هذا إلى رسم آخر للفنان نفسه يمثل أسطورة موت أورفيوس بالفصل الحادي عشر .

وكان بيكاسو قد أخذ حوالي عام ١٩٢٣ في رسم بعض اللوحات المستقلة التي تصوّر رؤوس رجال ونساء تضم معاً وجهين متراكبين أو متجاورين على جسد واحد ، ضارباً صفحاً عن المظهر الحقيقي المرئي للشخص طاملاً أبناء لا نستطيع أن نرى سوى جانب واحد منها . غير أن بيكاسو الثائر المتمرّد لم يلبث أن

(٧) Lithography الطباعة بواسطة الحجر هي استنساخ اللوحات بعد رسمها بقلم سمعي أسود على سطح الحجر الجيري الأملس الدقيق الذرات والمسام ، ثم يُغمّر الحجر في الماء حتى يتشبع به ، مع ملاحظة أن السطح المغطى بالشمع يطرد الماء على حين تمتص المسام الحجرية عن الشمع الماء ، فإذا دارت الأسطوانة المشبعة بالحبر على سطح الحجر استقر الحبر على الأسطح المغطاة بالطبقة الشمعية التي مرّ عليها القلم ، على حين لا يلتصق الحبر بالأجزاء المبلّلة ، حتى إذا تم بسط الورق على الحجر بعد تحميّره والضغط عليه انطبعت الصورة عليه بشكل عكسي بنفس الدقة التي رُسمت بها بالشمع على الحجر . وقد ابتكر هذه الطريقة سويسري يُدعى سينفلدر سنة ١٧٩٦ فعدت من أكثر وسائل طبع اللوحات المرسومة إتقاناً [المعجم الموسوعي للمصطلحات الثقافية . لوندجان ١٩٩٠ م . ص ٤٠٠] .

عدل عن هذا الاتجاه ، مُهْملاً تصوير الوحدة المظهرية للشيء المرئى إليه ، مهتماً بتصوير مظاهره المتعاقبة ، محققاً بذلك نوعاً من الحركة الزمانية - المكانية للموضوعات المختلفة في الفراغ . ثم عاد في عام ١٩٢٧ فهجرت هذا الأسلوب متمسكاً بأهداب التقاليد الفنية ، وخاصة في لوحاته التي استخدم فيها طريقة الحفر الحمضي Eau - Forte على الزنك أو النحاس لطباعتها بعد ذلك على الورق^(٨) ، مضمّناً رسومه نماذج لنساء عاريات أو مكتسيات ولشخص تُوعد إرهاباً للأسلوب الموفق الذي استخدمه في رسومه الثلاثين الخطية^(٩) لكتاب « مسخ الكائنات » وغيره من الروائع .

وفي عام ١٩٣١ طبع ألبرت سكيرا في لوزان ثلاثين لوحة من تصاوير بيكاسو مع النص الكامل لكتاب « ميتامورفوزس » في نسخ محدودة هي الآن مبعثرة في جهات مختلفة من أنحاء العالم ، وصفحاتها متنازعة بين المتاحف وبين أيدي الهواة ، وأصبح جمع هذا الشّتات اليوم من الصعوبة بمكان . وقد استطعت بعد تذييل مصاعب جمّة الحصول على مجموعة الصور كاملة نشرتها في الطبعة الثانية من هذا الكتاب ، وأعيد نشرها هنا في الطبعة الثالثة^(١٠) .

وأغلب الظن أن بيكاسو قد أتم هذه الرسوم دفعة واحدة ، وهي تستمد قوتها وأناقتهما - كما يلمس القارئ - من الخطوط المحوّطة^(١١) النابضة بقوة التعبير ، ومن تلقائية الفنان الجياشة ، ومن تركيزه الذي كان يقصد فيه إلى الاهتمام بمواضع من الجسد أكثر من غيرها .

وقد أصاب بيكاسو التوفيق في الإفصاح عما أحسّه وتخيّله ، فالرسم - فيما أظن - إذا خلا أحياناً من التحوير كان رسماً جامداً لا ينبض بانفعال أو تعبير . ومن هذا المنطلق شاع الزعم بأن ثمة صلة بين بيكاسو وأنجر مصور القرن التاسع عشر الذي عمد إلى الخروج على الواقعية بخطوطه الأرابيسكية^(١٢) المنحنية النابضة بشهقة أوتار الكيان حين تعلق على أنغام جوقة الأوركستر ، فأضاف فقرات إلى العمود

(٨) Etching الطباعة بطريقة الحفر بالإبرة (الخربشة) على سطح معدن . هي نوع من أنواع حفر الرسوم على صفحات معدنية من الزنك أو النحاس بعد تغطيتها بطبقة شمعية أو برنيقية تشقها أداة الحفر ، وهي سن مدببة رفيعة . ثم تغمر الصفحة بطناً لوجه في الحامض الذي يتخلل الحُدوش فينفذ إلى السطح المعدني ليخور في مواضع تلك الأخاديد . وينزع الفنان الطبقة الشمعية ويغسل الصفحة لإزالة آثار الحامض ، ثم تُمرّر الأسطوانة المشبّعة بالحبر على الصفحة للمعدنية حتى تمتلئ الفجوات الغائرة بالحبر الذي يبقى فيها . وبعد ما يجفّف السطح الخارجى ، وهذا تصبح الصفحة صالحة للطباعة فتوضع في المكبس لتنتج الأخاديد المشبّعة بالأحبار على سطح الورقة [م.م.م.ث] .

(٩) Linear التشكيل الذي يعتمد في تأثيره على المشاهد على الأشكال المكونة بالخطوط أكثر من اعتماده على الكتل اللونية والتظليل [م.م.م.ث] .

(١٠) ظهرت هذه اللوحات في طبعة سكيرا في غير أماكنها من فصول الكتاب ، ولقد حاولت جهدى أن أضعها في أماكنها الحقّة من فصول الكتاب في هذه الطبعة مستعيناً بالنص .

(١١) Outlines أو الحواف المحوّطة أو الحدود الخارجية ، وهي ما يحيط بجسم أو مساحة ما من حدود تكون فاصلة بين أى منها وبين الفراغ رسماً وتصويراً سواء أكانت فواصل خطية أو فوارق لونية [م.م.م.ث] .

(١٢) Arabesque الخط الرشيق المتأوّد المتسّق المنغم [م.م.م.ث] .

الفقرى وأسبغ انتفاخاً على العنق ، كما هي الحال في لوحة « المحظية » المشهورة بمتحف اللوفر ولوحة « إيفيجينيا وثيتيس » بمتحف إكس ، وهكذا انتصر الخط المتعم (الأرابيسك) وانحنت الواقعية أمامه مستسلمة . فأنجر لم يبال بأى تحريف تشريحي حتى يتيح لخطوطه البروز بكاملها كله للتعبير عن خط متناغم لا يعنى بمطابقتها للواقع ، فكان قصاره أن يحفظ لهذا الخط المحوَّط تأثيره النوراني ، وجاء من بعده بيكاسو فاستعار هذا الخط النوراني في رسومه كافة . ولا ندرى أكان أشد تمسكاً بإبراز طرافة المشهد بتسجيل جوهره المحرك للعواطف ، أم أنه استوحى الفن الإغريقي في تمسكه بإظهار جمال الجسد ورفضه التعبير عن التفاصيل التي قد تهوّن من شأنه ؟

على هذا النحو استطاع بيكاسو بمهارة أن يقدم لنا المثالية الإغريقية بلغة عصرية . ويتجلى لنا هذا الجهد في هذا الإنسجام الذي بلغ أقصاه وكذا جمال الخط في لوحة « يورديكي » بعد أن لدغت الأفعى كاحلها [الكتاب العاشر] ، فقد كان هذا المضمون كفيلاً بأن يثير في الصورة الجزع والهلع ، غير أننا لا نرى في التصوير غير جسد بديع يتهاوى في رفق يُعدّه خطٌ منحني لطيف يفيض حسية زائراً يعطف تابعتها وهن يُهرعن إلى حملها وامتصاص السم من موضع اللدغة . ويخلو الرسم مما يشير إلى أن ثمة انزعاجاً ما باستثناء تلميحاً جاءت غاية في البساطة لأمراة تستدير بجسدها طلباً للنجدة .

وثمة عناصر في هذه التصاوير تشترك كلها في الإيجاء بقلة اكتراث الفنان بما يمس دخيلة نفوس الشخص المصوّر ، كالوجوه التي يغشاها السكون والدعة ، ومجموعات النساء والرجال التي تضمّ - فيما تضمّ - الرواة والمستمعين . وهو ما يدفعني إلى مناقشة القارئ ألا يعبأ كثيراً بخروج بيكاسو على النص منساقاً وراء استقلاليتيه في رؤيته الفنية الذاتية . ويصل بيكاسو قمة البلاغة الخطية في لوحة مطلع الكتاب الرابع عشر حيث يصور ردف أنثى فيها لا يجاوز أقواساً أربع تحوى كل ما يمكن أن تنطلق به مشاعر الإنسان الغريزية أمام هذه المتعة المشتهاة .

ويستعين الفنان لما يائز الملبس ببعض الوحدات الزخرفية البسيطة أو الخطوط المستقيمة ، أو بالإيجاء باستخدام درجات الضوء الثلاثة ، كما هي الحال في لوحة مطلع الكتاب التاسع ، حيث يعبر عن الضوء والغضب والعمّة بالخطوط الطولية تارة وبالشبكية تارة أخرى .

غير أن كافة الرسوم تجلونا ثقة الفنان بنفسه وتَشْبُعُه بالإحساس بالموضوع المصوّر ، وعدم التردد في إسقاط الخطوط على اللوحة ، وتعمده تجنّب استخدام الظلال ، مانحاً التفرّد بالبطولة للخط في التعبير ، مما يُكسب اللوحات شفافية أثرية تربطنا بأساطير الماضي . وبالرغم من السكينة التي يوحي بها الخط إلا أنه في تحويه يُعرب عما يعتلج في نفوسنا من أحاسيس دفينية .

وكلمة « ميتامورفوزس » التي هي عنوان الكتاب تعني حرفياً الانتقال من حال إلى حال لا يُشترط فيها حال دنيا ولا حال عليا . وإذ كان الكتاب كله تحوُّل من مرتبة عليا إلى مرتبة دنيا غير حالات أربعة : هي تحوُّل رومولوس وأينياس مؤسسي روما إلى الألوهية ، وهذا ضرب من إضفاء الهيبة على الدولة بتمجيد زعمائها الأسطوريين ، ثم حالتا تآليه يوليوس قيصر وابنه بالتبني قيصر أوغسطس ، وكان ذلك فيما يبدو نوعاً من التملق للإمبراطور ولم يجر مع الأسلوب الذي ألف المؤلف الكتاب من أجله أو مع مساق سائر حديثه . من أجل هذا حين آثرت أن أسمي الكتاب « مسخ الكائنات » لا تحوُّلها أو انتقالها غير ملتزم في ذلك بما جرى عليه من ترجم هذه الكلمة ، جنحتُ إلى ما عليه الغالب من أساطير الكتاب من التحوُّل من الحالة العليا إلى الحالة الدنيا ، ثم مسترشداً بما جاء في القرآن الكريم من استخدام هذه الكلمة التي توحي بأن المسخ كان من أعلى إلى أدنى . يقول الحق : « ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضياً ﴿ يس ٦٧ ﴾ » . ومن هذا كله أجدني لم أحد في ترجمتي لهذا العنوان حين جعلته المسخ لا التحوُّل ولا الانتقال ، وغاية ما فعلت أني استوحيت الترجمة من معنى الأساطير الواردة في الكتاب ولم أقف جامداً عند حرفية اللفظ .

كذلك يرى أصحاب التناسخ أن « النسخ » هو نقل الروح إلى جسم أرفع ، و « المسخ » هو نقل الروح إلى ذوات الأربع ، و « الفسخ » هو نقل الروح إلى الحشرات ، و « الرسخ » هو نقل الروح إلى النبات والجماد^(١٣) .

وفي هذا المعنى يقول أبو العلاء المعرّي^(١٤) في التناسخ :

تَعَوَّذْ بِالْإِلَهِ مِنَ الْمَسُوخِ وَسَلَّهُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَسْمُوحِ
لَقَدْ خَابَ امْرُؤٌ يَمْسَى وَيُضْجِي يُنْقَلُ فِي فَسُوخٍ أَوْ رَسُوخِ

* * * *

وترجمتي هذه تعتمد على الترجمة الإنجليزية للنص التي قام بها الأستاذ « ميلر » في مجموعة « لوب » الكلاسيكية التي ظهرت باللغتين اللاتينية والإنجليزية وصدرت في مجلدين ، ثم على ترجمة إنجليزية ظهرت

(١٣) لزوم ما يلزم . الجزء الأول . صفحة ٢٢٤ . الطبعة الثانية ١٩٣٠ .

(١٤) لزوم ما يلزم . الجزء الأول . صفحة ٢٢٥ . الطبعة الثانية ١٩٣٠ .

في مجموعة پنجوين للسيدة « ماري إينيس » فيها شيء من التصرف ، إذ ثمة فقرات جاءت نثراً مسروداً مبسّطاً وهي في الأصل فقرات خطابية . كذلك اعتمدت على ترجمة فرنسية حرفية للأستاذ « شامونار » ظهرت في مجموعة الإخوان جازنييه لترجمات روائع الأديين اللاتيني واليوناني ، في مجلدين باللغة اللاتينية والفرنسية في صفحات متقابلة . واستعنت بالمثل بترجمة فرنسية أخرى للأستاذ جورج لافاز في سلسلة « مجموعة جامعات فرنسا » نشرت بباريس عام ١٩٢٨ في ثلاثة مجلدات . وقد أثرت الاحتفاظ بأسماء الآلهة كما وردت في النص الأوفيدى ، وهي الأسماء اللاتينية ، مضيفاً إلى أهمها بين قوسين مقابلها اليوناني .

وكانت الرغبة التي استأثرت بوجودي طوال صياغتي لهذه الترجمة هي أن أقدم نصّاً يتميز إلى جانب أمانته بالنسبة لفكر المؤلف بالبساطة والوضوح اللذين يجتذبان القارئ ويشيعان في نفسه الإحساس بالمتعة التي يجدها قارئ النص الأصلي في لغته اللاتينية . وقد واجهتني خلال هذه المهمة عقبتان : كانت أولاهما هي ازدحام النص بأسلوب الالتفات ، وهو الانتقال المفاجيء من صيغة المتكلم أو الغائب إلى صيغة الخطاب أو عكس ذلك ، وهو أسلوب لا يشيع في العربية بقدر ما يشيع في الشعر الملحمي اللاتيني . وقد حاولت قدر جهدي أن أقلل هذه الانتقالات حيث يصعب فهمها أو تكون مصدرراً لبلبله القارئ . وكانت ثانيتهما إفراط المؤلف في الاستشهاد بأسماء الآلهة وأبطال الأساطير اليونانية والرومانية التي كانت معروفة أيامها للقارئ العادي في حين أنها لا تعطى نفس إيجاءاتها ودلالاتها للقارئ العربي المعاصر الذي لم تتح له قراءة معقّمة في الكلاسيكيات والأساطير القديمة . ومع أني قد أضفت في نهاية كل فصل تعقيبات وشروحاً تناولت عدداً كبيراً من أسماء الآلهة والأبطال وشبائلهم إلا أنني سمحت لنفسي أن أقحم هنا وهناك عبارة مفسّرة قصيرة وراء بعد الأسماء أو الأماكن أو الأحداث حتى لا أقطع على القارئ متعته حين يجد نفسه مضطراً لتقليب الصفحات والبحث بين التعقيبات عن تفسيرات لما يقرؤه . ولعل أكون بذلك قد أعنت القارئ غير المتخصّص على مواصلة المطالعة الميسّرة ، دون أن أكون قد أثقلت القارئ المتخصّص بوقفات هو في غير حاجة إلى التريث عندها .

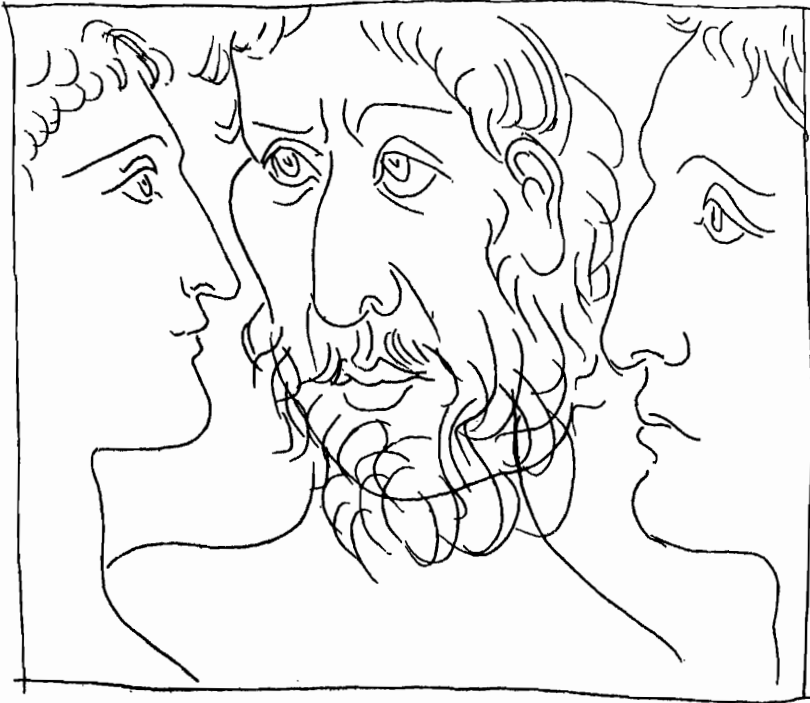
وقد قام الأستاذ الدكتور مجدى وهبه بجهد العالم المدقق الأمين مشكوراً بمقابلة النص اللاتيني لضبط الترجمة وهو النص المطبوع في مجموعة « جيوم بوديه » بباريس ١٩٢٨ والمأخوذة عن المخطوطة الشهيرة « مارسيانوس ٢٢٥ » المحفوظة بمكتبة « لاورنتيانا » بفلورنسا ، كما رجعت في حالات اللبس إلى الطبعة التي حققها الأستاذ « ميركل » في لاينز ، وهي الطبعة الثانية عام ١٨٧٥ .

وحيث فكرت في طبع الكتاب طبعة ثانية رأيت ألا ألتزم بالصياغة الأولى ، فأحوّرها بعض التحوير ولا أساير النص بحرفيته كما فعلت أولاً بل أنفذ إلى روحه ، فهذا أجلى للقارئ العربي الذي سيجد أنه ليس ثمة خروج عن روح النص لا بقليل أو كثير ، وكما فعلت مع الطبعة الثانية فعلت مزيداً في الطبعة

الثالثة . وبعد أن راجعها الأستاذ الدكتور مجدى وهبه استأنست بالأستاذ الدكتور أحمد عثمان الذى له هو الآخر ضلوعته فى اللغة اللاتينية حرصاً منى على أن أكون كما قلت قبلاً مسائراً للنص بشاعريته . وكم أسعدنى أنه رأى على الجادة لم أنحرف قيد أنملة ، فله منى جزيل الشكر .

ثروت عكاشة

فولياغمينى فى ١٧ يوليه ١٩٩١



بيكاسو

الكتاب الأول

ها أنذا أخذُ في الحديث عن تحوّل لكائناتٍ كانت على صورة ثم إذا هي صوراً أخرى . وإن أبتهلُ إليكم أيتها الألهة - وإليكم زمام ما يجرى في الكون من تحولات - العون على بلوغ مقصدي بوحى من إلهامكم أقوى به على أن أنسخ في قصيدي هذا خيطاً من الشّعْر لا ينقطع ، تنتظم بين طرفيه أحداث الكون منذ بدء الخليفة حتى عصرنا القائم .

أصل العالم

قبل أن تكون أرضٌ ، وقبل أن تكون بحارٌ ، وقبل أن تكون سماء تُظَلّ هذا الكون أجمع ، كان ثمة عماء يلفّ العالم كله بردائه ولا يستبين منه غير شكل واحد لا سواه . فكان كتلة مضطربة لا شكل لها ، جماداً لا حياة فيها ، أو جملة من بذور مختلفة لعناصر الأشياء ، ليس ثمة بينها صلة ولا رابطة . ولم تكن ثمة

شمس « تبتان » يفيض نورها على العالم ، كما لم يكن ثمة قمر « فُيبي » له مع كل يوم وجهٌ جديد ، يكملُ ثم يعودُ ناقصاً كما بدأ . ولم تكن الأرض بعدُ قد ضمَّها الفضاء تهادى فيه بثقلها ، كما لم تكن المياه « أمفرتي » قد بسطت ذراعيها على شيطان البرِّ ، فلقد كانت الأرض والبحر والفضاء كلها ممتزجة لا انفصام بينها . وكانت الأرض تُعوِّزها الصُّلابة والبحر تُعوِّزه السيولة ، كما كان الفضاء في عَوَزٍ إلى الأضواء . لم يكن ثمة شيء له شكلٌ مميِّز ، وكانت هذه العناصر رغم اختلافها لا تنافر بينها . ثم إنَّها مع كونها كتلة واحدة كان ثمة صراع بين الحرارة والبرودة ، وبين الوَمد والجفاف ، وبين الليونة واليبس ، وبين الخفة والثقل . وكان لابد لهذا الصراع من حاسم ، فتجلَّى الإله — أو الطبيعة الأكثر طواعية — كى يفصل بين الشيء ونقيضه ، ففصل ما بين السماء والأرض ، وما بين الأرض والماء ، وخلَّص الهواء الكثيف من الأثير الشَّفيف .

وما إن تم له فصل هذا كله وخلَّصه من فوضى الكُتلة حتى غرس الوثام والسلام بين هذه العناصر فخصَّ كلُّا بمكانه المميِّز ، فإذا اللهب المتأجِّج المدموم الوزن يجتَل قبة السماء ويتلألا في ذروة بناء العالم ، وإذا الهواء الذى يضارع اللهب المتأجِّج خفةً يجتَل مكاناً إلى جواره ، وإذا الأرض وهى أكثف منها ممَّا تشدُّ إليها العناصر المتناسكة فتتراكم بعضها فوق بعض ، وإذا الماء الذى كان يحيط بكل شيء يجتَل ما خلا في الوجود ويلفُّ تلك الكتلة الصلبة الأسطوانية .

وما إن فرغ الإله — أى إله كان — من هذا التقسيم والتنسيق لتلك الكتلة المتراكمة التى لم تكن على شكل ما ، حتى أخذ يجمع بين هذه الأجزاء المختلفة في تماسك كى يجنَّب الأرض أن يجتَل أى قطر منها ، من أجل ذلك سَوَّاهَا كرويةً ضخمة . وكان أن امتدت مياه البحر بفعل أنفاس الريح الهوجاء ، فإذا هى تُمنطق الأرض . ولكى يبلغ الأمر مداه فَجَّرَ الينابيع وأفاض المستنقعات التى لا حصر لها ، وشقَّ البحيرات ، وجسب الأنهار بين ضفافها كما ورَّعها على سطح الأرض . فمنها ما يُفضى إلى بحر فتختلط مياهها بمياهه وتنفى في ذاك الخضم ، ثم تعود نائرة فترتطم بالبرِّ ، ومنها ما لا ينتهى إلى بحر وتبتلعه الأرض في جوفها . كما بسط السهول وخذد الوديان ، وجعل الغابات تُونع بأوراق الأشجار الوارفة ، ورفع قنن الجبال الصخرية . وإذ كان قد قَسَمَ السماء مناطق : اثنتين إلى اليمين واثنتين إلى اليسار ، وبين هاتين وهاتين خامسة أشدَّ حرارة ، كذلك قَسَمَ الأرض التى تُظَلُّها السماء مناطق بأمره تتناسب مع مناطق السماء عدداً ، فالوسطى لا حياة فيها لشدة قِيظها ، وغَطَّت الثلوج منطقتين من هذه المناطق ، وبقيت الوسطيان بين هذين الطرفين تستمتعان بمناخ بين البرودة والحرارة^(١) .

وفوق هذا كله حلَّت الهواء بما رُزق من خفةٍ لم تُرْزقها الأرض والمياه بثقلها ، وكانت خفةً الهواء دون خفة النار . وأقرَّ هذا الإله الضباب والسحاب مقرَّهما في الهواء ، كما جعل للرعَد مقرّاً ، هذا الرعد الذى يثير الخوف في أفئدة البشر . وكذلك جعل للرياح مقرَّها ، تلك الرياح التى تتحد مع الصواعق فينفذ من خللها البرق . غير أن هذا الإله مهندس الكون — حرصاً على بقاء العالم — لم يترك تلك الرياح تجرى على

اعتُهِتْ تهبُّ من حيث تشاء وكيف تشاء بل جعل لكل ربيع مهابها ، على الرغم من أنها إلى اليوم عصية على أن تخضع لنظام في مهابها ، إذ أن ثمة تنافر شديد بين الرياح الإخوة : فريح « إيوروس » تهبُّ من مناطق ربة الفجر وملكة النبط في بلاد الفرس ومن سلاسل الجبال التي تكفل أشعة الفجر قمعها . وريح النسيم « زفيروس » تهبُّ من مكان نجمة الليل والشيطان التي تشعُّ عليها الشمس في غروبها فتخلّفها دافئة . أما ٦٠ .
الريح اللافة « بورياس » فهبُّ من بلاد السكوثيين [السكيثيين] وشتى نواحي الشمال . وريح « أوستير » على غير مهاب الرياح كلها وتجلب إلى الأرض سُحْباً لا تفتأ ممطرة في غزارة . ثم خلق الإله الأثير الذي لا وزن له ولا تعلق به شائبة من شوائب الأرض . وما كاد يفصل بين هذه العناصر أجمع ويجعل لكل منها حداً حتى أخذت الكواكب تتألق في رقعة السماء بعد احتجابها طويلاً في طيات الكتلة التي كانت تُكنّها .

ولكى تستمتع الكائنات الحيّة بوجودها أجرى الكواكب في فسيح السموات في رعاية آلهة مجسّدة . واتخذت الأسماك بحراشفها البراقة المياه مسارب لها ، واحتضنت الأرض الحيوان منذ نشأته الوحشية الضارية ، كما احتضن الهواء في تموج الطير . وكان ثمة كائن غاب عن هذا كله ، على الرغم من أنه كان أكثر المخلوقات انطباعاً بطابع الآلهة ، هذا إلى ما تميّز به من ذكاء مفرط فرض به سلطانه على سائر المخلوقات ، فكان الإنسان . ومن يدرى لعل إله هذا الكون الذي صوّر العالم على تلك الصورة البديعة هو الذي خلق الإنسان من بذرته ! أو من يدرى لعل الأرض في عفوانها حين نبذت عنها طبقات الأثير كانت قد انطوت على بذرة من صلب أخيها ربّ السماء ! ثم أتى پروميشيوس بن ياپيتوس^(٢) فقبض قبضة من تراب الأرض وعجنها بماء المطر وسوّاها إنساناً على صورة الآلهة المهيمنة على كل شيء . وعلى حين خلق الحيوان مكباً بوجهه على الأرض لا يطالع سواها ، خلّق الإنسان مشربياً بوجهه إلى السماء متأملاً فيها داعياً ربه أن يشدّ بصره بالكواكب . وهكذا تحوّلت الأرض من كتلة غليظة غير مميّزة إلى أشكال جديدة ، هي أشكال البشر .

وكان ثمة عصر ذهبي في بدء الخلق أظّل قوماً على إيمان عميق ومبادئ سامية ، لم يشرع لهم قانون يلزمون حدوده أو يخافون عقابه ، وعاشوا ليس لهم وازع غير الضمير : فلا قضاة يفصلون بينهم ، ولا حكام يجازونهم ، إذ لم يكن ثمة نزاع أو عدوان ، وكان الناس حيث هم : لا هجرة ولا نزوح عن أرضهم . ولم يكن جذع شجرة الصنوبر قد اقتلع بعد من مكانه فوق الجبال ليطفو فوق الخضمّ المائج ويطوف حول العالم ، ولم يكن البشر على علم بغير تلك الشواطئ التي نشأوا عليها . ولم تكن القلاع تحوطها الخنادق المغورة بالمياه ، ولم تكن قد ظهرت تلك الأنابيب النحاسية التي أخذت بعد أبواقاً مستقيمة ولا القرون المعوجة . ولم تكن ثمة خوذات ولا سيوف ، إذ كان الناس آمنين لا تفرعهم حروب ، ولا هم في حاجة إلى جيوش تدفع عنهم شرّ المعتدين . وكانت الأرض تؤقّ أكْلِها دون عرق أو حرث والناس بما لديهم من طعام قانون . فهم وادعون لا يكتون ولا يعملون ، يأتيهم رزقهم رغداً من بلوط هوبيتير^(٣) ١٠٠
المتددة فروعه ، ومن ثمار الشجيرات ، وتوت الجبال ، وأعنان البراري العالقة بالغصون الشائكة . وكانت

النسبات الرّخية تحمل عقب الزهرات في ربيع لا ينتهي فتنشر في الجوّ أريجها . . ومَرّت الأيام ، فإذا الأرض تكسى بعيان القمح ، وإذا سنابله الثقيلة البيضاء تحمّل رقعة الأرض ناصعة ، وساد الربيع الأعوام فلا برد ولا مطر ، وفاضت الأنهار لبنا ونكتارا [شراب الآلهة] ، وسالت الأشجار شُهداً ذهبيّ اللون .

ووقع ساتورن⁽⁴⁾ [كرونوس] أسيراً في يد جوبيتر [زيوس] فألقى به في ظلام تارتاروس وانفرد هو بحكم العالم ، وكان من هذا بداية العصر الفضي الذي حلّ محلّ العصر الذهبي وإن كان مع ذلك في مرتبة أدنى منه وأرقى من عنصر البرونز المُصْفَرّ السُمرة الذي تلاه . واختصر جوبيتر فصل الربيع الذي كان يمتد على مدار السّنة في العصر السابق ، وقسّم السنة إلى فصول أربعة : شتاء وصيفا وخريفاً متقلّباً وربيعاً قصير الأمد ، وجعل الهواء بين بارد وحار ، وظهرت الثلوج بين الأعاصير العاتية ، وأخذ الناس يبحثون عن مأوى يقيهم المطر ، فلجأوا إلى الكهوف والأدغال . ومضى الناس يكذّون في فلاح الأرض وحرثها ، ويبدون فيها حبوب الحنطة التي جادت بها عليهم سيريس [ديميتر عند الإغريق] ، وأخذت الثيران تنن تحت نير المحارث .

ثم كان العصر الثالث ، وهو عصر البرونز ، الذي طُبع الناس فيه بطابع من الغلظة والقسوة فاستسلموا للمنازعات وشاعت بينهم الخصومات ، غير أن الشرّ لم يكن قد غلبهم على كل أمورهم .

ثم كان أخيراً عصر الحديد الصّلب الذي اشتق اسمه من معدن أقلّ قدراً ، حين برزت الجرائم في أشنع صورها وغاب الحق وانمحى الصدق وؤدّد الوفاء واختفت الطاعة وطفغت الغطرسة والحيانة وساد الطمع والخداع وتفشّت القسوة . وأعدّ البحارة أشرعة ينصبونها للريح وهم بعدّ على غير معرفة معمّقة بالسفن وأشرعتها ، واصطنعوا من الأشجار التي كانت تُزحم سفوح الجبال الشاخبة سفناً تمخر عباب البحر بفعل قلاعها المنتفخة وأثر الرياح ، تتقاذفها أمواج المحيطات وتأخذها بعيداً بعيداً عن موطنها . وتجزّأت الأرض وراء حدود بعد أن كانت ملكاً مشاعاً بين الجميع يستمتعون بها استمتاعهم بالشمس والهواء ، وجرى الناس يكذّون بحثاً عن القوت ، ويحفرون الأرض منقبين عن معادنها المخبوة في أحشائها ، وامتد بحثهم حتى أدركوا مملكة الظلال قرب نهر ستيكس ، وانتزعوا من أعماق الأرض تلك الأشياء التي غدت مصدر الأمام ، فاستخرجوا الحديد وكانت معه الويلات ، وأتبعوه بالذهب وكان أشدّ من الحديد ويلاً ، إذ كان كل من الحديد والذهب عوناً لهم على الحرب والقتال . وبالأيدي الأثمة شهّرت السيوف لتلقى السيوف مصلصلةً مجلجلة .

وعاش الناس على السلب والنهب لا يأمن الضيفُ مضيّفه ، ولا يطمئن الزوجُ لحميه ، ولا يثق الأخُ بأخيه ، وغاض الوُدّ من صدور الناس ، وأصبح كل من الزوج والزوجة مصدر شقاء للآخر ، وغدت زوجات الآباء تدسسن السّم في الطعام لأبناء أزواجهن ، والأبناء يتآمرون على موت آباؤهم وعلى الخلاص منهم ، وحلّ العقوق بالوالدين محلّ البرّ بهم ، ولم يعد للتقوى مكان في القلوب ، كما خرج الناس على

طاعة ألهتهم ؛ فعمّ الأرض البلاء وسالت الدماء ، فهجرتها أسترايا العذراء^(٥) آخر من كان على الأرض من أرباب السماء .

العَمَالِقَة

وتطلعّ العمالقة إلى الأثير لا يبعون أن يكون أمناً كما لم تعد الأرض أمناً ، ولكي يغيروا ملكوت السموات جعلوا الجبال جبلاً فوق جبل حتى يرقوا إلى حيث النجوم . وعندما أرسل عليهم سيّد الكون القدير صواعقه : فتداعى جبل أوليمبوس ، وتزحزح جبل پيليون من فوق جبل أوسا ، وإذا تحت ذلك الركام الهائل جثث العمالقة هامة ، وإذا الأرض قد غطيت صفحتها بدماء أبنائها العمالقة . ١٦٠

ولكى تبقى الحياة متصلة ، قيل إن الأرض قد نفثت من روحها في هذا الدم الدافئ فكانت مخلوقات لها سمات البشر عمرت الأرض من جديد . غير أنه سرعان ما خالف هؤلاء أمر الآلهة وثارَت فيهم نائرة ذلك الدم المسفوح الذى خلقتهم الأرض منه ، فغلظت قلوبهم وعدا بعضهم على بعض^(٦) .

ليكاوون

ورأى ربّ الأرباب ، ابن ساتورن ، ما حاق بالأرض فثار مغضباً وزفر زفرة مدوية وقد تمثّلت في ذهنه وليمة ليكاوون الرهيبة التى لم يكن يعلم علمها أحد من أفراد ملكوته ، فدعا الآلهة إلى مجلسه واستجابوا له طائعين ، سالكين سبيل المجرة التى ترى وضاءة عندما تكون السماء صافية حتى انتهوا إلى حيث يقيم ربّ الصواعق الجليل . وكانت من حواليتهم إلى اليمين وإلى الشمال بيوت كبار الأرباب الغاصّة بهم ، وهو المكان الذى لا أجد حرجاً لو أوتيت شيئاً من الجرة فى أن أطلق عليه اسم بالاتينوس السموات العلى^(٧) ، على حين كانت دور صغار الأرباب موزعة هنا وهناك مختلفة عن تلك كل الاختلاف . وفى قاعة من الرخام انعقد مجلس الأرباب ، وقام كبيرهم على منصته معتمداً على صولجان من العاج ، وهزّ خصلة شعره الرهيبة مرات ثلاثاً أو أربعاً فارتجت الأرض واضطربت النجوم ، ثم خطبهم بقوله : « لم أحسّ قط بمثل ما أحسّه اليوم من قلق على ما يسود النظام العالمى من اضطراب ، حتى ولا يوم حاول العمالقة ذوو أذبال الأفاعى أن يلفّ كلّ منهم أذرعته المائة حول السماء لكي يستولوا عليها ، ولقد كادوا يفعلون لولا أنهم كانوا قلة ولم يكن ثمة من يشاركتهم هذا الشرّ . وإن أخوفّ ما أخافه أن يمتدّ هذا الشرّ إلى غيرهم فيستفحل الخطب ، لذا كان لا معدى عن إفناء البشر كافة فلا يبقى منهم أحد فى العالم الذى تحيط به تلك البحار الصاخبة . أقسم بأنهار العالم السفلى التى تسرى فى غيضة ستيكس المندسة فى أعماق الأرض أنى قد

جهدت في أن أقوم أمرهم ما استطعت ، غير أن ذلك لم يُغن شيئاً وكان لزاماً أن يُجِثَّ الشرُّ من جنوره . غير أن أنصاف أرباب وأرواحاً وحوريات وسائيرا وجاناً في الغابات والتلال^(٩) لم تكن قد أفسحنا لهم مكاناً في السماء ، لذا كان علينا أن نهيء لهم حياة على الأرض ، وما ظنّي بأنهم ناجون من شرِّ ليكاوون الذي أعقب خمسين من الجالحين وحاك الدسائس من حولى ، وأنا ربُّ الصواعق وزمامها في يدي ، بل وربكم أيضاً .

٢٠٠ وهمهم الأرباب وزمجروا وغمرهم شعور من الذعر أشبه بذلك الذي غمر الناس حين حاولت فئة متمردة لإخاد شعلة روما عندما انتهى إليهم خبر مقتل قيصر^(٩) ، فلقد ألقى في روعهم أن ثمة دماراً سيحيط بالعالم يهزه من جميع أركانه . من أجل هذا نادى الأرباب بإنزال العقاب على من كان سبباً لهذا البلاء . وكما أن ولاء رعاياك يُشيع السرور في قلبك يا أوغسطس ، فكذلك كان يسعدُ چوپيتر بولاء أتباعه من الأرباب . ولكن چوپيتر ربُّ الأرباب ردهم إلى سكوتهم بإشارة منه ثم قام فيهم خطيباً فقال : « لقد نال جزاءه ولم يعد يُحشى بأسه ، وإليكم ما فعل وما ناله على ما فعل . فلقد انتهى إلى أن ثمة مرجفات تؤذن بنذر في هذا الزمان الذى يُظلنا فهبطت من عليائه في الأوليمبوس على الأرض في صورة آدمى ، ورأيت ، ويا هول ما رأيت ! فلقد سمعت دون ما وقع عليه بصرى . وحزّت جبال ماينالوس إلى بلاد تعجّ بالحیوانات المفترسة ، ومنها إلى كيلينيه ، ثم إلى ليكاويوس القارسة البرد حيث غابات الصنوبر^(١٠) . وما إن أذنت الشمس بمغيب وأوشك الليل أن يرخى سدوله ، حتى كنت على باب منزل ليكاوون طاغية^(١١) أركاديا . وعندها خلعت عنى صورة الأدمى وعُدت إلى ألوهيتى . وما إن رأى الناس حتى ازدحموا حولى مصليّن خاشعين ، فأثار ذلك سخرية ليكاوون وقال للناس غاضباً : سترون إن كان من التفقتم حوله إلهاً أم غير إله ، وكان في عزمه أن ينقضّ علىّ على غرة منى فيقتلنى وأنا نائم ، وكان يريد أن يجعل من هذا دليله على بطلان ألوهيتى وأنى من البشر . وكانت ثمة رهائن بين يديه من شعب مولوسوس^(١٢) ، فإذا هو إمعاناً في فجوره وجبروته يقطع رقبة أحدهم بسيفه البتار ، ويلقى بجسده وهو لا يزال ينبض بالحياة في النار ، يجعل منه شواء . وأعدت المائدة وصبّت الصحف وجلس يلتهم ما فيها في نهم وشره . فنقمت عليه فعله وأرسلت على بيته شواظاً من نار أحرق البيت بما فيه من تماثيل لأسرته نصبها آلهة زوراً وهبتاناً . غير أن ليكاوون استطاع أن ينجو ، ففرّ هارباً إلى الريف وهو نائر غاضب . وهناك وجد نفسه أحرص لا يستطيع تحريك لسانه بكلمة ، وألقى ما عليه من ثياب قد استحالت شعراً شائكاً ، وإذا ذراعاه قد استحالتا ساقين ، وإذا هو قد مُسِخَ ذئباً من أشرس ما تكون الذئاب ، فعدا فاغر الفم إلى حيث قطعان الماشية ينهشها نشأً ويقتلها تقتيلاً . وكان على الرغم من صورته تلك التى استحال إليها لا يزال يحمل شيئاً من ملاعجه الأولى ، فلقد بقى له شعره الأشيب كما بقى له وجهه الجهم البغيض بشراسته وقسوته ، وكذا بقى له بريق عينيه وما فيها من نظرات مرهوية . ولم تحرق الصاعقة التى أحترقت داره غيرها من دور الفساد ، وهكذا سوف يظل في أنحاء الأرض أثر لربة الانتقام^(١٣) التى لا تمارس غير القسوة . ألا إن ما صادفته لم يكن غير مؤامرة من مؤامرات الإجمام ، لذا قرّ قرارى الذى لا رجعة فيه أن يوفى كلّ جزاءه .

وهنا صاح بعض الآلهة مناصرين جوبيتر فيما قرّر مطالبين إياه بالزيد ، على حين لزم آخرون الصمت . غير أنهم قد ساءهم جميعاً ما سوف يلقي البشر من عذاب ، وما سوف تكون عليه الأرض بعد أن يقضى على هذا الجنس البشرى كله ، وما سوف تكون عليه معابدهم في الأرض بعد أن لن تعبد منهم من يختلف إليها مقدماً القرابين ، وخال الأرباب أن الأرض بعد أن ينفذ فيها حُكْم جوبيتر سوف تكون مرتعاً للوحوش الضارية . وأحسّ ربّ الأرباب ما يساور أربابه من خوف فأعلن فيهم أن الأمور سوف تجري دون إضرار ، وأنه سوف يخلق بشراً غير البشر يختلفون عنهم الاختلاف كله ، وسيولدون من أصل سوف يكون معجزة من المعجزات .

وكان جوبيتر على وشك أن يرسل صواعقه على الأرض لتأتى على من فيها أجمع ، لولا أنه خشى إن هو أطلق صواعقه الملتهبة أن تشبّ النار في طبقات الجو العالية التي يسودها الصفاء وتنتقل منها إلى قبة السماء كلها ، كما ذكر ما جاء في لوح القدر من أنه سيكون وقت تشتعل فيه الأرض والبحار وقبة السماء وينهار الكون أجمع ، فعدل عما كان سيأخذ فيه من استخدام وسائل الدمار التي أعدها « الكيكلويس »^(١٤) ، ورأى أن يعمّ العالم بسيول جارفة تأتي على البشر أجمع . فحشد رياح الشمال في كهوف أيولوس ، وضمّ إليها الأعاصير التي تبدّد السحب الكثيفة ، ثم أرسل رياح الجنوب من محبسها ، فثارت تضرب بأجنحة مبتلّة في غياهب الظلمات وثيدة للقل ما تحمل من أمطار تتساقط من خصلاتها البيضاء ومن حولها الضباب يُنذر عمقدها ، ثم ما لبثت أن ألقت فيها سيلاً متدفقاً عمّ الأرض وفاض في أرجائها . وكانت إريس رسولة جونو [هيرا] وراء هذا في ثوب يجمع بين ألوان قوس قزح تنشئ السحب الأولى إنشأً وترسل بها مدداً في إثر بعضها ، فإذا ما على الأرض من زرع وشجر يُقتلع ، وإذا المزارعون يصلون من أجله طويلاً ويبكون في حسرة لذهاب جهدهم طوال العام سدى . ولم يقنع جوبيتر بما تحث يديه من عوامل الدمار التي يسخرها حسب هواه في مملكته بل طلب إلى شقيقه نبتون [پوزيدون] أن يرسل هو الآخر أمواجه اللازوردية على الأرض ، فإذا البحار والأنهار والسماء بما ترسل من أمطار كلها حرب على الأرض لم تترك فيها ركناً مشيداً ولا بُنياناً قائماً إلا أتت عليه ، وإذا صفحة الأرض كلها مغمورة بالمياه .

وأرسل كبير الآلهة يستدعى الأنهار ، وما إن مثلوا أمامه في قصره حتى ابتدرهم قائلاً : « ليس أمامنا وقت نبذّه الآن في مُسهب العظّات ، فأمامكم مُهمّة عاجلة : أن تمارسوا كل ما تملكون من طاقات وأن تندفعوا بكل سطوتكم مرتدين إلى أوطانكم تكسحون ما بها من أسوار ، مُطلقين لمياهكم الجارية العنان » .

هكذا كانت أوامره ، فعادت الأنهار إلى مواطنها ، وبعد أن فتحوا أفواه ينابيعهم انطلقوا بعنف صوب البحر في سيول عاتية .

وضرب نبتون الأرض بعصاه الثلاثية [صولجانه ذى الشُعَب الثلاث] فارتجفت واهترت ، وانشقّت مجار للمياه تدفقت فيها وفاضت على الجانيين ، فإذا هي تقتلع النباتات من جذورها ، وتُغرق المحاصيل

٢٨٠

والكروم والناس والماشية ، وتهدم البيوت على من فيها والمعابد على المصلين بها ، وتسوق الكتل العاتية لأصنام الآلهة سَوْفًا ، وتغمر الشاهقات فلم يعد يُرى منها غير قممها . ولم يقلت مبنى من هذه الكارثة إلا دمرته موجة أعنتى من الأولى فتهاوى سطحه تحت الماء ، واختلط الأمر فلم تعد ثمة حدود بين الأرض والبحر ، بل غدت الأرض كلها بحرًا بلا شطآن . وهرع نفرٌ إلى قمم الجبال يجدون فيها عاصمًا من الغرق ، ونفرٌ إلى السفن ذوات الخيازيم^(١٥) المقوسة يضربون بالمجاديف فوق أرض كانوا يخطفون فيها بالمحارث ، وأقلع آخرون بقواربهم وسط المياه التي غمرت الحقول وكانت تعجج بالأمس بحنطتها والبيوت التي كانت فيها مضي مأواهم . وهنا وهناك كانت عيونهم تلمح أسراب السمك عالقة بغيصون أشجار الدردار . وأرسي بعض الملاحين سفنهم حيث كانت المراعى الخضراء ، وأحيانًا كانت السفن المسطحة القاع تمس الكروم التي ترقد تحتها . وفي الأماكن التي كانت قطعان الماعز ترعى الأعشاب فيها أمنة انسابت كلاب البحر القبيحة تشق طريقها بين الأمواج ، وانتابت الدهشة حوريات النيريديس حين رأين الفيضات والمدن والدور مدفونة تحت المياه ، واحتلت الدلافين الغابات تلوى الأغصان العالية وتهنئ جذوع أشجار البلوط التي ترتطم بها . وسبحت الذئب بين قطعان الماعز ، وحملت الأمواج النمر والأسود المصفرة السمرة . أما الخنازير البرية فلم تُغن عنها أنيابها القاطعة ، كما لم تسعف الأوعال سيقانها القوية على العدو ، فإذا الفيضان قد ابتلعها جميعًا . وحلقت الطيور في الجو ما شاءت أن تحلق حتى كادت أجنحتها فهوت في ذلك الخضم ، وإذا هذا الفيض قد غطى التلال وبلغ ذروة الجبال ، وإذا الجنس البشرى قد فنى أكثره ، ومن نجا منهم من هذا الفيض أهلكه الجوع^(١٦) .

ديوكاليون وبيرا

وكان فيها غمر الماء أرض فوكيس^(١٧) الخصبة التي كانت حدًا فاصلاً بين حقول بويوتيا وحقول أويتا . وكان ثمة جبل شامخ هو جبل پارناسوس له قمتان توأمان تكادان تلمسان النجوم وتخترق سطحه السحب ، رسي عليه الفلك الذى كان يحمل ديوكاليون وزوجته . وكان ديوكاليون بن بروميشيوس^(١٨) خير البشر وألزمهم للطريق السوى ، وكانت زوجته بيرا ابنة إيبيميشيوس أكثر النساء إجلالاً للآلهة . وكان أول شيء فعله الزوجان أن أُنجها بالشكر إلى ربّات الجبل حوريات كوريكيا ، وإلى ثيميس ربّة الوحى الكاشفة عن الغيب ، فقاما يصليان لمن من أجل نجاتها . ورأى چوييتير الأرض وقد غطتها المياه الآسنة ، وأنه لم يبق من الرجال الذين بلغت عُدتهم آلافًا غير واحد هو ديوكاليون ، وأنه لم يبق من النساء اللاتي بلغت عدتهن آلافًا غير واحدة هى بيرا ، وكانا من عباد الآلهة المخلصين لذلك نجوا من الهلاك وسلمت لها حياتها .

وأطلق چوييتير رياح الشمال من محبسها فبددت السحب بدداً ، وانقشع الضباب فبدت صفحة السماء صافية وظهرت رقعة الأرض مبسوطة ، وسكنت الأمواج وهدأت ثورة البحر بعد أن ألقى ربّ البحار والأمواج صولجانه ذا الشعب الثلاثة من يمينه . وكان نبتون قد طلب إلى تريتون أن ينفخ في صورهِ

الجلزوني ، ذلك الصُور الرنان الذي يتسع شيئاً فشيئاً حتى يبلغ غُرج الصوت . وما إن جُلجل صوته حتى ارتدت مياه البحار والأنهار منحسرة عن الأرض ، وهدأت الأمواج وسكنت ثورتها منذ أن مسّ فمه الصُور إلى اليوم . ثم ضمّ تريتون شفّيته على الصُور ثانية ، فصدر عنه صوت غمر الشيطان التي يطلع عليها ٣٤٠ فوبيوس إله الشمس مع مستهل رحلته اليومية في الفضاء ومنتهاها . وتثنّت لحية تريتون ربّ البحار والأمواج والماء يقطر منها وأمر المياه بالانحسار ، فإذا مياه الأرض كافة ، ومياه السهول التي لم تنحسر والأمواج في أنحاء الكون تستجيب لهذا الأمر السامى . واستقرت الأنهار في مجاريها والبحار في هداتها ، وبدت تربة الأرض نديّة ، وبرزت التلال والجبال ، وكلما تراجعت المياه اتسعت مساحة الأرض ، ومضت أيام طويلة قبل أن تنفض الأشجار الطين عنها . وعادت الحياة سيرتها الأولى .



بيكاسو : ديوكاليون وبيرا

ونظر ديوكاليون فرأى نفسه وحيداً ، ليس إلى جواره في الفضاء الممتد غير بيررا فجزع ، وإذا عيناه
تدمعان ، فقال إلى بيررا يقول لها « يا ابنة عمى وزوجتى ، أيتها المرأة الوحيدة التى قُدر لها أن تبقى بعد فناء
النساء كلهن ، إليك أفزع فزع القريب إلى قريبه والزوج إلى زوجته . لقد جمعت ما بيننا الأهوال ، فليس
ثمة على الأرض غيرنا ولا تطلع الشمس غيرنا فى مطلعها ومغيبها بعد أن ابتلع اليم البشر . وإنى على ذلك
غير مطمئن فقد يصيبنا ما أصاب أخوتنا بالأمس ، فلازال خيال السُحب فى تخيلتى يروعنى . تُرى ، على
أية حال كنا سنكون لو قُدر لنا ألا نلتقى ، وهل كنت ستقوين على مغالبة المخاوف وحدك ، ومن كان
سيقف إلى جنبك ليعينك على المخاطر ؟ أقسم لك غير حانث أن أراك بحياتى ، وأنى لا أملك غير أن
أقذف بنفسى فى اليمّ لو عجزت عن أن أدفعه عنك ورأيتك يتلعلك يا زوجتى الحبيبة . كم أتمنى لو أنى أعدت
العالم عامراً كما كان ناهجاً النوح نفسه الذى انتهجه أبى ، وكم أتمنى لو استطعت أن أنفخ فى الصلصال
الذى تصنعه يداى روحاً . إن بقاء الجنس البشرى أمره إلينا وحدنا ، ولهذا جمعت بيننا مشيئة الآلهة .

وبكت بيررا لكلمات ديوكاليون ، ثم وقفت إلى جانبه يضرعان إلى الربّ أن يلهمها العون . ثم مضيا
إلى مياه نهر كيفيسوس [فى بويتيا] التى كانت ماتزال تنساب فى قنواتها قبل أن يعاودها صفاؤها القديم ،
فغسلا بيمياه رأسيهما وملابسهما ، ثم تقدما إلى مذبح الإلهة المقدسة ثيميس ، وكان سقفه المسنّم قد أحالت
لونه الأعشاب المتخلّفة عن المياه المنحسرة وساد الظلام هيكله ، فركعاً ولثماً أرضه التّدية خاشعين وتوجّها
إلى الإلهة ثيميس قائلين : « هل من مطعم فى أن تستجيب الإلهة إلى صلواتنا الخالصة فترفع عنا غضبها ،
ألهميننا يا ثيميس كيف نقوى على إصلاح ما حاق بالجنس البشرى ، أيتها الربّة الرحيمة كونى لنا عوناً فى
محتتنا . وأخذت الربّة الشفقة بهما فتمتت بهذه النبؤة : « اخرجوا من مبعدى ، وضعا على رأسيكما
غطاء ، وتحففاً من تلك الأحزمة التى تشدّ ملابسكما ، واتركا وراءكما عظام أمكما الجليلة »^(١٩) . وكان
كلام الربّة غير بين فتملكها العجب ، وعزّ على بيررا أن تستجيب لأمر الربّة خشية الإساءة إلى طيف أمها
إذا هى أزعجت عظامها فى مرقدها ، ولكنها لم تلبث أن عاودتها طمأنينة أطلقت شفيتها الراجفتين بالدعاء
للربّة أن تغفر ترددها . غير أنها أخذت يتدبران كلمات الربّة الغامضة ، وانتهى ديوكاليون بن پروميشيوس إلى
أن قال لبيررا ابنة إيميشيوس : « إن الربّات على حق ، وهن لا يُشِرْنَ بما لا تُحمد عقباه ، وإنى لأخال أن
الأم الجليلة التى جاءت على لسان الربّة ليست غير الأرض ، وأن تلك العظام ليست غير الأحجار التى فى
باطنها ، وأن علينا أن نترك هذه الأحجار وراءنا » .

وأمّنت بيررا بما خال ديوكاليون ، غير أنها بقيت يخالجه شىء من الشك فيها أشارت به الربّة ، وكان
لا بد لها من أن يمضيا فى التنفيذ ليبين لها صدق ما قالت . فهبطا من على رأس الجبل ورأسهما مغطيان ،
وقد تحففاً من تلك الأحزمة التى تشدّ ملابسهما ، وأخذتا يُلقيان بالأحجار وراءهما كما أشارت الربّة . من
يصدّق ما حدث بعد ذلك لولا أن التاريخ الخالد يشهد به ؟ فإذا الأحجار تلين ، وإذا هى تتشكّل
أشكالاً ، وإذا هذه الأشكال على صور هياكل آدمية رغم أنها لم تكن ذات سيات واضحة بل كانت أشبه
بتأثيل من الرخام لم يكتمل نحتها ولم تُصقل بعد . ثم ما لبث أن استحال الحجر لحماً فكسا تلك الهياكل

العظمية ، كما استحالت العروق التي كانت تتخلل الصخور عروفاً في تلك الأجسام الأدمية ، وكان كل حجر يُلقيه ديوكاليون يأخذ صورة الرجل ، كما أن كل حجر كانت تُلقيه پيرا يأخذ صورة المرأة .
وإلى هذه النشأة القاسية الصلبة يُعزى كل ما في الجنس البشرى من عنف وغلظة وقسوة ، فكما نشأ كان .

پيثون

عندما أطلقت الشمس المشرقة أشعتها بالدفء تُبَدِّدُ الوَمَدَ المتلبث من عهد بعيد أخذت الأرض تنشق عن حيوانات جديدة مختلفة الأنواع ، وبدأت الوحول والمستنقعات الندية تعلقو لتفسح للبدور الدفينة أن تطلق سيقانها بعدما تنشق باطن الأرض الذي كان أشبه بالرحم يضمّ الجنين إلى أن يكتمل نضجه ، ٤٢٠ ومع مرور الزمن تعددت تلك النباتات ألواناً وأصنافاً . وإنا لنجد شيئاً من هذا مع فيض نهر النيل ذى المصبّات السبعة حين يفيض تاركاً على الأرض الغرين ، فما يلبث ذلك الغرين بعد أن تُرسل عليه الشمس أشعتها أن ينفرج عن هوام كثيرة يجدها الزارعون حين يقلّبون الأرض بفؤوسهم ، منها ما اكتمل نموه ويات على وشك أن ينبض بالحياة ، ومنها ما دبّت الحياة في عضو واحد من أعضائه بينما بقيت الأخرى صلصالاً لم يتشكّل بعد . ثم ما تلبث الهوام أن تتدرج في سلّم الحياة بين الدفء والوَمَدَ وهما قوام الحياة ، كما هي الحال في النار والماء ؛ فعلى الرغم مما بينهما من تضاد ، فمرّة حياتنا إلى دفء هذه ونداوة ذلك . وهذا التواؤم القائم على التضاد بين الدفء والنداوة هو سرّ الحياة على الأرض^(٢٠)

وحين بعثت الشمس الحانية في السموات بالدفء إلى الأرض الموحلة بفعل الطوفان انبثت على الأرض ذراري كثيرة ، منها ما جاء على أنماط ما كان ، ومنها ما جاء على أنماط جديدة لا عهد للأرض بها ، ومنها پيثون المهول الذي ظهر للوجود على الرغم من إرادة الأرض . ولقد جاء على صورة خارقة تبعث الرعب في قلوب الجنس البشرى الجديد ، فقد كان في جسم الزواحف هائل التكوين يكاد يفترس سفح الجبل أجمع ، فهالت أبوللورامي السهام ضخامته وخافه على الموجودات التي على سطح الأرض . ولم يكن أبوللو يُطلق سهامه قبل ذلك إلا على شارد الظباء أو مخلوع الفؤاد من قطعان الأغنام البرية ، غير أنه ما إن وقعت عيناه على هذا الأفعوان الرهيب حتى سدّد إليه سهامه كلها لم يُبق منها سهماً ، فإذا هذه السهام تنفذ في جسمه وتمزّقه جميعه ، وإذا الدم يتدفق غزيراً من جراحاته العديدة أسودّ قائماً . وخُلِدَ الإله ذلك النصر بإقامة مهرجان تدور فيه ألعاب تسمى الألعاب البيثونية^(٢١) نسبة إلى هذا الأفعوان الذي قهره . وكانت ثمة تيجان من أغصان شجر السنديان تمنح للفائزين في تلك المباريات التي كانت تنتظم ألواناً من العُلو والمصارعة وسباق المركبات ، ولم يكن الغار قد عُرف بعد . ومن ثم مضى فويبوس [أبوللو] يبحث عن

شجرة تزوده بإكليل من أغصانها الحانية يحوط رأسه ويتوج هامته ذات الشعر السُّبُط المسترسل ، وكانت السنديانة أول شجرة صادفته فانتزع منها أوراق الإكليل .

دافنى

ووقع فوبيوس لأول مرة في غرام دافنى ابنة إله النهر بينيوس^(٢٢) ، ولم يكن هذا شيئاً عارضاً بل كان ذلك من تدبير كيوييد الذى شاء أن يثار من أبوللو لسخريته منه ساعة أحسن الزهو لفتكه بالثعبان بيثون ، ورأى كيوييد يجتذب قوسه المشدود فقال له : « فيم تطاولك أيها الصبى العرييد باستخدام أسلحة المحاربين ؟ إن كنتى وحدهما هما اللتان خلقتنا لحمل مثل هذه السهام ، إذ أنا وحدى الذى يقوى على أن يصيب فيضمي من يعترضه من الحيوان الضارى أو يناوئه من بنى الإنسان . وحسبك شاهداً على ذلك آثار سهامى العديدة النافذة في جسد بيثون السام ، ذلك الثعبان الذى كان يفتش المساحات الفسيحة . دع عنك السهام واقنع بشعلتك وسيلة تؤجج بها الهوى ، فما أقصر باعك عن أن تبلغ حظى من الثناء » . فردّ عليه كيوييد بن فينوس قائلاً : « على رسلك يا أبوللو ، فأنت إن قويت على أن تصيب بسهامك الحيوان والإنسان فإنى بقوسى وسهامى قادر على أن أصيبك فلا أخطئك ، فأين مجدك أنت حين تصيب الحيوان من مجدى أنا حين أبلغ بسهامى الآلهة ؟ » .

وما إن فاه كيوييد بقوله هذا حتى انطلق طائراً يشقّ أجواز الفضاء ، وإذا هو يحطّ على قمة جبل پارناسوس . عندها نثر كنانته واختار سهمين : أحدهما ذهبى اللون محدد الطرف يُشعل جذوة الحب في القلوب ، وثانيهما رصاصى اللون تلم الحدّ يخمدها . وسدّد كيوييد هذا السهم الأخير إلى دافنى ابنة بينيوس ، على حين رمى أبوللو بالسهم الأول فنفذ في لحمه إلى النخاع ، فإذا أبوللو قد هام حُباً ، وإذا دافنى تفرّ هاربة إلى الغابات وقد ضمّت شعرها بشريط كما فعلت الإلهة ديانا حين أبت أن تستجيب للحب .

ومن قبلُ هام كثيرون بدافنى ابنة بينيوس وهى لا تفتأ تجول بين الأشجار غير مُلقية بالا لما يدور حولها من هيام الرجال بها ، وما دار في خلدها شيء عن الحب أو عن الزواج . وما أكثر ما لامها أبوها على عزوفها عن الرجال وتمنى عليها لو تزوجت وأعقبت بنين وبنات ، وكم كان وجهها يجمّر خجلاً حين كان يحدثها في شيء من هذا لأنها كانت تعدّ مثل هذا الحديث جُرمًا ، وكم توسّلت إليه أن يكفّ عن الاسترسال في موضوعه الأثير ، إذ كانت تُؤثّر أن تعيش حياة عذرية كما عاشت ديانا ابنة جوبيتر منذ الأزل . ولم يجد الأب بدا من أن ينصاع لرغبة ابنته فأمسك عن مفاتحتها في هذه الأمور ، غير أن جمالها الفتان وشبابها الطاغى ما لبثا أن غلباها فقاداها إلى غير ما تنشد وتريد . وكان أن وقعت عينا فوبيوس على دافنى فإذا هو يهيم بها وإذا هو يتحرّق شوقاً إلى أن يبنى بها ، وأخذ يسعى سعيه لأن يظفر بقلبيها إذ كان

٥٠٠ حبها قد ملأ عليه قلبه كله وملأ عليه جوانحه . فكان إذا نظر إلى شعرها متهدلاً على جيدها إلى كتفها غمى أن لو كانت عقصته حتى لا توله ، وكذلك كانت تُسببه عينها البرأقتان بريق النجمتين الساطعتين ، وتُغريه شفتاها الحمراء ، وتفتنه أناملها الدقيقة ، ويدها البضتان ، وذراعاها العاريتان ، كما كانت تشغل خياله مفاتنها المحجبة عن الأنظار .

وما إن أحست دافني متابعة فويوس لها حتى ولت الأدبار في سرعة الريح ، ولم تتلبث لحظة لتستمع إلى توسلاته وهو يناجيهما قائلاً : « أيتها الحورية يا ابنة بينيوس لا تفرى منى فما أنا بعدو تخشيشه . رفقاً بى ، ولا تفرى منى فرار الحَمَل من الذئاب ، أو الغزال من الأسد ، أو الحمامة من الصقر ، فما يحفزنى إلى ملاحظتك غير الحب الذى يتأجج فى صدرى . كم أشفق عليك وأنت تفرين أن نزل بك قدماك فتدئبها الأشواك وأكون أنا الذى جررتك إلى هذا المصير . رفقاً ولا تسلكى سبيلا غير سوية ، وقرى حيث أنت ، وإنى أعدك أن أقصر سُطاي وألأ أسرع . وما عليك إلا أن تسألنى نفسك : من هذا الذى خلبت لبه وسحرنت قلبه ؟ فلست فلاحاً يعيش فى الوديان ، ولا راعياً يرعى أغنامه بين هذه المراعى . أيتها الفتاة الغريبة ، إنك لا تعرفين من تهريين وإلأ لما هربت . . إننى سيدٌ دلفى وكلاروس وتندوس وقصر پاتارا^(٢٣٦) ، أنا ابن جويترى . بدهاى أعرف ما كان وما يكون وما سيكون ، وبقدردى تردد أوتار القيثارة أنغام الموسيقى . إن سهامى لا تطيش على الرغم من أن ثمة من هو أقدر منى على التسديد . أنا الطبيب الأسى ، والطب أنا ابتدعته ، وما من خاصة لعُشب تبدو لإ وعندى علمها . ولكن وأسفاه ليس ثمة من الأعشاب ما ينفع فى شفاء الحب ، وما أشقانى بقدردى إذا ما أعجزتنى عن عون نفسى على حين أقدر على عون الآخرين » .

وكان فويوس على وشك أن يسترسل فى قوله ، غير أن ابنة بينيوس ولت عنه فراراً حياءً وحذراً وخلفته حيث هو ، ولم تتح له فرصته ليقول ما يريد ، وعبثت الرياح بثوبها فجعلته يعص بجسدها فيجسدُ مفاتنها ، كما عبثت بشعرها فإذا هو يتهدل متموجاً ، وإذا هى بهذا وذاك أبهى ما تكون . ولم يقنع الإله الشاب بهذا الغزل ، فدفعه الهوى إلى أن يسرع خطاه ويطاردها ، مثله فى ذلك مثل كلب بلاد الغال^(٢٤) الذى يلمح أرنباً برياً عن بُعد وهو يعدو فى حقل أجرد فيعدو فى إثره ويلاحقه ، وكلما خال أنه أدركه ومدّ خطمه ليمسكه إذا هو قد أفلت منه ، وهكذا يمضيان لا يدرك أحدهما الآخر . وكانت هذه هى حال الإله والفتاة .

٥٤٠ وما إن أحسَّ الإله الشاب انفلاتها من بين يديه حتى خفت فى إثرها ، وإذا هما يعدوان ، كلٌ يريد تحقيق هدفه ، العذراء يحدوها الأمل فى أن تنجو ، والإله يملؤه الخوف من أن ينفق . وكان الإله أسرع عدواً لأن أجنحة الحب كانت تعينه ، فإذا أنفاسه تقع على شعرها للمتطاير ، وإذا هى تكل ولا تقوى على العدو ، فتقع خائفة القوى إلى جانب مياه بينيوس تصرخ قائلة : « أمدد لى يد العون يا أبته ، ودع مياهك — إذا كانت لها تلك القدرة القدسية حقاً — أن تمسخ جمالى هذا الذى أثار الإعجاب فى بى قلوب الجميع » . وما إن أتمت كلماتها حتى استرخت ، وإذا صدرها قد استحال جذع شجرة ، وإذا شعرها

أوراقاً ، وإذا ذراعاًها أغصاناً ، وإذا قدماها جذوراً ، وإذا وجهها قمة تلك الشجرة ، ولكنها على هذا بدت رائعة .

ولم يُثَن هذا المصير فويوس عن حبّه لها ، فتحسّس بيده جذعها يتلمّس مكان قلبها الذى ما فئء ينبض تحت اللحاء ، وأخذ يحتضن الأغصان ويفرق الشجرة بقبلاته ، فإذا هى تتضاءل وتضمّر فصاح بها قائلاً : « إذا كان ثمة ما يحول بينك وبين أن تكونى عروسى ورفيقة حياتى ، فابقى لى كما أنت شجرة أهيم بها وأطوف ، ولسوف يكون شعرى فى وصفك ، ولسوف تتغنى قيثارتى بمدحك ، كما سوف تكون سهامى فى الذود عنك ، ولسوف أجعل من أغصانك تيجانا لهامات المحاربين عندما يشهد الكايبوتولينوس فى روما مواكب النصر ، ولسوف تقفين أنت على أبواب مدينة أوغسطس تحرسينها وفيّة مغلصة ، كما سوف تذودين عن أكاليل أوراق البلوط العالقة بها . وكما سيبقى رأسى يزينة الشباب ، فكذلك سيظل رأسك تجلّله الحضرة التى لن يعترها ذبول . »

وما إن انتهى الإله من حديثه هذا حتى طأطأت شجرة الغار رأسها وأرخت غصونها ، وكأنها بهذا رذاك تعلن عن رضاها بكلامه وقبولها لمطلبه .
ولم يعد بعدها عند الإله المخلص أبوللو ما يقوله .

إيو وأرجس وسيرينكس

وثمة غيضة فى بلاد هايمونا^(٢٥) تكتنفها من كل جانب منحدرات عامرة بالغابات تسمى تيمس . وعلى تلك المنحدرات تفيض مياه نهر بينيوس فتخلف على صفتها زبداً رايباً . وهذا النهر تتجمع مياهه أول ما تتجمع من تساقط الأمطار على جبال بندوس ، ثم تنصبّ منحدره على سفوحه فتستحيل أبخرة ثم سحباً متكاثفة سرعان ما تتساقط قطراتها على تلك الغابات ، فإذا لها صوت مدوّ يصم الأذان ويتردد صدها فى الأرجاء البعيدة . وفى هذا الموقع الذى كان ينبع منه هذا النهر ، كان ثمة كهف قد شقّ فى الصخور يعدّ محراباً لهذا النهر الكبير ، ومنه تنطلق كلمته لمياه الأنهار جميعها قبل أن يجرى كل نهر إلى حيث كتبت له ويقضى بين الأمواج كما يقضى بين الحوريات اللاتنّ يقطنن مجراه . وإلى هذه البقعة وفدت أنهار بلاده : نهر سيرخيوس الذى تحفّ به أشجار الحور ، ونهر الإنيبيوس ذو المياه الفائرة ، ونهر أيبيدانوس العجوز ، ونهر الأفريزوس الهادى ، ونهر أياس وغيره من أنهار أخرى ، لا يدرى أىّ منهم هل يتقدم إلى نهر بينيوس والد دافى مهنتاً أم مواسياً . ثم جاءت بعد ذلك الأنهار والجداول الأخرى التى تجرى كلها متدفقة لتلقى بأحمالها إلى البحر بعد رحلاتها الشاقة . ولم يتخلف من هذه الأنهار كلها غير إيناخوس فقد قبع فى الكهف لم يغادره ، ولبث يغدّى مياهه بقطرات دموعه التى ما فتئت تنهمر منذ أن غابت عنه ابنته إيو وغابت عنه أخبارها ، فلم يعد يعرف لها مقراً ولا يسمع عنها كلمة ، ولم يعد يدرى أمع الأموات هى أم مع الأحياء .

ولقد كان من قصة إيو هذه أن رآها چوييتر مرة وهي آبية من شاطيء نهر أبيها إيناخوس ، فتصدى لها يقول : « أيتها العذراء ، إنك لست أهلاً لغير چوييتر ، وسوف يسعد بك من تكوينين له ، ولكن ترى من سيكون هذا السعيد ؟ تعالی غمض معاً في ظلال تلك الغابات الباسقة ناعم ونهناً . ألا ترين إلى الشمس وقد توسّطت كبد السماء وأرسلت شواظاً من نار أهدبت به وجه الأرض فلم تعد تقوى على مسّه قدم ؟ هنالك في ظلال أشجار الغابة سوف تجدین من نفحات الهواء ما يعوّضك عن لفتح الشمس ، سوف تجدین من تربتها النديّة موطنًا سهلاً ، ولكن حذار أن تمضی إلى الغابة وحدك فإني لا آمن عليك من شرّ الحيوانات الضارية . أما في صحبتي فسوف تكونين في رعاية إله ليس كغيره من عامة الآلهة ، بيده مفاتيح السماء ، فهو الذي يطلق الرعد والبرق ، تعالی إلیّ ولا تحاولي أن تهربي مني » .

وما إن سمعت إيو كلمات چوييتر حتى ولّت هاربة تطوى مراعي ليرنا ثم حقول لوركيون الزاخرة بالأشجار . غير أن چوييتر ما لبث أن أرسل السحب فغشّت وجه الأرض فإذا هي ظلام كلها ، وإذا إيو ٦٠٠ أعجز ما تكون عن أن تمضی في هربها فوقعت فريسة لچوييتر ، وإذا هو يعدو عليها .

وتطلّعت چونو زوجة چوييتر من مكانها في السماء إلى أرجوس ، ودهشت إلى هذه السحب التي أحالت النهار ليلاً فعمجت ، وزاد من عجبها أن هذه السحب لم تنشأ عن مياه النهر ولا عن نداوة الأرض . وإذ كانت على علم بما يرتكبه زوجها من خيانات بعدما أوقعته مراراً عدة مثلثساً بما لا ينبغي له أن يقترفه ، ولمّا لم تجده حولها في السماء ساورتها الظنون بأنه لا بد مرتكب شيئاً إداً ، فهبطت من الأثير إلى الأرض وأمّرت السحب أن تنقش ومضت تبحث عن زوجها فيها حولها . وكان چوييتر قد توقع أن زوجته لا بد قادمة ، فمسخ إيو ابنة إيناخوس بقرة ذات أرداف وضّاءة ، غير أنها على الرغم من هذا التحول ظلت جميلة فاتنة .

وتقدمت ابنة ساتورن إلى البقرة تطربها زيفاً وتمتدح جماها وكأنها لا تعلم من الأمر شيئاً ، وساءلت چوييتر قائلة : « أني لك بهذه البقرة ، وإلى أية فصيلة من البقر تنتمي ؟ » . ويفطن چوييتر إلى ما أرادت إليه ابنة ساتورن ، ويسعى إلى الخيلولة بينها وبين الخوض في الموضوع فيقول لها كاذباً : إنها ابنة الأرض . ولكن ابنة ساتورن كانت أدهى منه ، فطلبت إليه أن يعطيها البقرة هدية . ويغمّ الأمر على چوييتر ، فهو إن نزل عن البقرة فقد ضحى بأعز ما يملك ، وإن هو ضنّ بها على زوجته أثار شكوكها وكان غير بارّ بها إذ لم يسعفها بحاجتها . وتنازعه عاملان ، عامل الحب يُثنيه ، وعامل الوفاء لزوجه التي تعقد بينه وبينها صلة من دم ومولد ، غير أنه أثر ثانيهما ووهب زوجته - التي هي شقيقته في آن معاً - البقرة حتى لا يكون ٦٢٠ عاقاً ، وجرحصاً على الأيّس في نفسها شكّاً بأنها كائن أسمي من مثل هذه البقرة .

وتلقت الزوجة الإلهة الهدية في شيء من الخدر ، فلقد كانت تخشى أن يكون چوييتر قد بيّت شراً وأن قد يعود فيسلبها إياها . من أجل ذلك وكلت إلى ابن أريستور ، وكان يدعى أرچس حراستها . وكان لأرچس مائة عين تستريح منها اثنتان على التوالي على حين تبقى ساثرها يقطلة ، أي أنه كانت من تلك

العيون المائة ثمان وتسعون عينا يقظة دوماً . وكانت تلك العيون تمتد إلى كل مكان فترى ما بين يديه وما خلفه ، وما عن يمينه وما عن يساره . وهكذا ظَلَّتْ إيوفى محيط بصره استقبلها أو استدبرها . وكان يدعها مع النهار ترعى من أوراق الأشجار والأعشاب المرّة ، حتى إذا ما غربت الشمس حبسها ووضع في رقبها رباطا .

وكانت إيوفى إذا ما عنّ لها أن تستريح افترشت أرضا لا عُشب فيها ، وكان شرابها من مياه كدرة . وكم حاولت أن تشكو إلى أَرْجُس غير أنها لم تكن تملك ذراعين ترفعها إليه بالشكوى ، فكانت ترسل في الجو خوارا تنزعج هي نفسها له . وحين قصدت يوماً إلى شواطئ إيناخوس حيث كانت ترتع وتلعب فيها مضى ، هاها ما عكسته صفحة الماء من خطم وقرنين فولّت خائفة مذعورة . ولقد أنكرتها جنّيات البحر وما عرفها كما أنكرها إيناخوس ولم يعرفها . وبقيت مثار إعجاب الأب ودهشة شقيقاتها ، يُطعمها الأب بيديه الأوراق التي يقتطفها فتلثم يديه بنفها وتلعقها بلسانها ، وهي لا تملك أن تُفصح عن شيء ، وتلمس هذا العجز من نفسها فتهمر دموعها . واهتدت أخيراً إلى أن تخطّ على الأرض قصتها ، ويطلع إيناخوس ما خَطّت فيعرف أنها ابنته ، فيتعلّق بقرونها وروقيتها وهي ترتجف بين يديه فيناجيتها قائلاً : « ما أشقائي ، أنت ابنتي التي مازلت أطلبها في كل مكان ؟ لقد كان ففدك أهون عليّ من أن أراك على تلك الصورة ، إنك لا تقوين على الكلام ولا تستطيعين أن تُجيبيني ، وكل ما أسمع منك تهديدات تصدر عن صدرك المحزون ، ثم ذلك الخوار الذي يذكرك بخوار البقر . لقد كان همّي أن أركك إلى زوج وأن أرى لك بنين وبنات ، وأن أهيمّ لك بيت عُرسك بفراشه ومشاعله ، أما الآن فلن يكون لك زوج إلّا من أبناء جنسك ولن تلدى غير ذرية من البقر . لو لم أكن إلها لأثرت الموت هرباً مما أرى . وعلى هذا النحو سأظل في غمرة الحزن إلى الأبد . »

وبينا كان الاثنان في حزنهما يبثّ كل منهما لواعجه للآخر ، طلع عليها أَرْجُس برأسه ذى الأعين المائة ، وانتزع الفتاة من يدي أبيها وساقها أمامه إلى المرعى ، وارتنق جبلاً حتى بلغ قمته وأخذ يتطلّع هنا وهناك .

ولم يعد سيّد الآلهة يطيق احتمال كل هذه الآلام التي ألّت بحفيدة فورونبوس ، فصاح بابنه ميركوربوس [هرمس] من مايا لإحدى نجوم الهلياديس المتألّقة وأمره بأن يقضى على أَرْجُس . وسرعان ما لبّى الابن أمر أبيه فضمّ جناحيه إلى رجله وأخذ صولجانه في يديه ، ذلك الصولجان الذي يُغرق من مسّه في نوم عميق ، كما ألقى على رأسه غطاءه ، حتى إذا ما أشرف على المكان الذي يضمّ أَرْجُس رفع غطاءه عن رأسه وفكّ جناحيه وهبط إلى الأرض يحمل صولجانه في يده وشقّ طريقه فوق دروب متعرجة متنكراً في صورة راعٍ من الرعاة يهشّ على غنمه ، وأخذ يفتخ في مزماره فانصرفت إليه الأغنام مجذوبة بما تسمع ، كما شدّه بها أَرْجُس فناده قائلاً : « إلى يا هذا ، ولتكن من تكون ، فليس ثمة مكان تستطيع أن تجلس عليه غير هذه الصحرة ، كما أنه ليس ثمة مكان أخصب من هذا المكان تقع فيه الأغنام على عُشب وفير ، كذلك

لن يجد الرعاة مكاناً ظليلاً غيره . وجلس حفيد أطلس يحدث أَرْجُس حيناً وينفخ في مزماره حيناً ، علّه بتلك النغمات الرتيبة يجعل أَرْجُس يجمع فينام ويغمض عينونه . وغالب أَرْجُس النوم ما استطاع ، يغمض بعض عينونه ويفتح بعضها ، وأخذ يسائل رفيقه عن ذلك المزمار كيف اُبتدع إذ لم يكن له عهدٌ به . فأخذ رفيقه يحدثه ويقول : « ثمة في جبال أركاديا الباردة وبين الهامادرياد^(٢٦) في نوناكريس^(٢٧) حورية مشهورة بين الحوريات تدعى سيرينكس ، كثيراً ما كانت تغلت من مطاردة الساتير والجان الذين يسكنون الغابات الظليلة والحقول الخصيبة ، وكانت تدين بلهة أورتيجيا [ديانا] تحاكيها في عفتها ومسلكها ، كما كانت أشبه ما تكون بابنة لاتو [ديانا] في تشمير دائها بحزام ، ومع أن قوسها كان من القرون وقوس الإلهة كان من الذهب غير أن اللبس بينها كان ممكناً . وذات مرة حين كانت هابطة من مرتفعات ليكييوم ، رآها بان ٧٠٠ وعلى رأسه إكليل من الصنوبر .

وانبرى ميركوربوس يروى قصة هرب الحورية التي لم تحفل بتضرعات بان وفرارها إلى ضفاف لادو^(٢٨) . وهناك حيث تفيض المياه على الرمال فتصفو وتسكن توصلت سيرينكس إلى أخواتها حوريات المياه بأن يمسخها ، وذكرت لمن كيف كان بان يمسك بقصبات المستنقعات وهو يخال أنه قد أمسك بها ، وكيف أن القصبات كانت تنقل صدى أشجانه وترسلها في الهواء أنثت رقيقة حزينة . وفطن بان بحسن ما يسمع من أصداء فصاح مشدوها : « فليبقين حديثي معك على هذا النحو إلى الأبد . وهكذا خلد اسم سيرينكس بفضل تلك القصبات المتفاوتة طولاً ، والتي ضُمَّ بعضها إلى بعض برباط من الشمع .

وحين أخذ ميركوربوس يتهيأ لاستكمال قصته وجد أَرْجُس قد استسلم للنوم وأطبق جفونه كلها ، فأمسك عن الحديث ، وأخذ النعاس يشتد شيئاً فشيئاً بأَرْجُس حين مسه بصولجانه السحري . وما إن رآه قد غلبه النوم حتى حمل عليه بسيفه المقوس فأطاح برأسه وطوح به بعيداً والدماء تسيل منه على صخرة عالية فتلطخت الصخرة كما تلطخ سطح الهاوية ، ثم وقف يقول : « ها أنتذا الآن يا أَرْجُس جثة هامة بلا ٧٢٠ حراك ، قد ذُبل خذاك فلم تعد لها نضرتها ، واظلم نور عيونك المائة وكانه عليها غشاوة . غير أن ابنة ساتورن جمعت بعد تلك العيون المائة ورصعت بها ريش طاووسها كما رصعت ذيله بجملته من الأحجار البراقة^(٢٩) .

وتصدت نچونو لغريمها الأرجوسية وهي أشد ما تكون غضباً ، فوكلت بها إحدى « الإيرينات » ربات الانتقام ، وزودت البقرة بمنخاس خفى في صدرها يدفعها إلى الهرب دائماً مصطحبة دُعرها أنى حلت . وبقيت أنت أيها النيل آخر المطاف لرحلة إيو الشاقة المتواصلة . وما إن انتهت إيو إلى النهر حتى خرّت ساجدة على شاطئه ، رافعة رأسها متجهة إلى السماء - وما كانت تملك غير ذلك - وعيناها تذرّفان الدمع ، وهي تطلق خواراً شديداً ، وكأنها تجار إلى چويتتر ضارعة أن يجعل لهذه الألام نهاية . وطوّق الإله بذراعيه عنق زوجته متوسلاً إليها أن تستجيب لها وهو يقول بعد أن أشهد على نفسه مستنقعات نهر ستيكس : « لا تخشى بعد هذا اليوم منها بأساً » . واطمأنت الإلهة إلى ما قطعته الإلهة على نفسه ، وعادت ٧٤٠

إيو إلى صورتها الأولى ، فتساقط ذلك الشعر الذى كان يكسو جلدها ، وغابت القرون شيئاً فشيئاً ، وارتدّت عينها إلى استطالتها بعد أن كانتا مستديرتين ، وأخذ فمها يصغر ، واستوت لهلكتها ويدها ، وانخلعت عنها حوافرها وحلّت مكانها أصابعها الخمس بأظافرها ، ولم يتبق من صورتها وهى بقرة غير بياضها الناصع . عندها هبت وإففة على قدميها وهى تردّد في فيها بعض الكلمات تختبر بذلك صوتها مخافة أن يكون كما كان حواراً ، وحين اطمأنت إلى أنها استردّت صوتها أخذت تستعيد قدرتها على الكلام ، وغدت إلهة بين الإلهات الشهيرات ، تُقدّم إليها القرابين حشوداً من الناس قد التفتوا بأردية من الكتان^(٣٠) .

فايثون

ووضعت إيوا إبناً هو إيبافوس^(٣١) يقال إنه كان ثمرة اجتماع چوبيتر الجليل بها ، ونجد معابده تقام إلى جوار المعابد التى لأمّه . وكان فايثون ابن إله الشمس أشبه بإيبافوس طبعاً وأقرب إليه سنّاً غير أنه كان معتزلاً بأبيه فويبوس ، فجرّه ذلك يوماً إلى الزهو على إيبافوس الذى لم يعد يحتمل هذه الخيلاء فقال له : « أيها المخدوع يا من يثق بكل كلمة تقولها له أمّه ، ويا من أوهموك فاصطنعوا لك أبا عزوك إليه . فاحرّ وجه فايثون خجلاً وكنتم غيظه في نفسه ، وسارع إلى أمه كليمينيه وأخبرها بما قاله له إيبافوس ، ثم أردف قائلاً : « جديرٌ بك أن تألمى لما أصابنى من هوان ، وإنه لعزيز على أن ينالنى ما نالنى وأنا صامت لا أفوه بكلمة ، فقد كنت أخشى أن يكون إيبافوس صادقاً فيما رمانى به ، وعليك أنت وحدك إن كنت حقاً من السماء انحدرت أن تعطينى الحجّة على ذلك . عندها سوف نسمح عنا معاً هذا العار الذى لحقنا » . وانكفاً على أمه يطوّق جيدها بذراعيه ، ويستحلفها بحقّه وحق ميرويس^(٣٢) ويشعلات أفراس أخواته ألا أخبرته عن أبيه من هو ؟ وأحفظت هذه الكلمات كليمينيه وأثرت في نفسها توسلاته ، وانجّمت إلى قرص الشمس الوضاء رافعة ذراعها في الفضاء لتقسم وتقول : « أقسم لك يا بنى بحق هذا الكوكب الذى يبهرنا بضوئه والذى هو على ما أقول شهيد ، إنك ابنٌ لإله الشمس هذا الذى يسمعون ويرانا والذى إليه مدار حياة العالم . وإن كنت كاذبة فلتعش الشمس على بصرى فلا أعود أتطلع إليها ، ولتكن هذه نظرك الأخيرة إليها . وما عليك يا بنى كى تعرف أسلافك من الآلهة إلا أن تمضى غير بعيد حيث موطن هذا الإله الواقع على حدود بلادنا فتسأله عن كل ما تريد » . وملاً الاطمئنان قلب فايثون وعمّه الفرح عند سماعه قولها ، وإذا هو فوق الأثير يقصد ذلك المكان الذى يطلع منه أبوه ، مجتازاً إثيوبيا موطن شعبه ، وبلاد الهندو القريبة من قرص الشمس الملتهب .

التعقيبات

- (١) كان القدماء يفرّقون بين المناطق الشديدة الحرارة الواقعة داخل المدارين والمناطق المعتدلة الحرارة شمالها وجنوبها مباشرة والمناطق الجليدية حول القطبين . وذكر فرجيل في كتابه « فن الفلاحة » هذا التقسيم للأرض إلى خمس مناطق تقابل خمساً أخرى في السموات .
- (٢) ياپيتوس أحد المردة التيتان أبناء جيا وهو والد أطلس وپروميثيوس ، وكان الأخير يُعدّ راعي البشر وحاميهم من غضب الآلهة ومانحهم خيرات الحضارة وأهمها النار ، ويقال إنه قد خلق الإنسان من تراب .
- (٣) كان القدماء يتصورون أن الشّهد فطرات ندى تساقط من السماء ثم يجمعا النمل من ورق شجر البلوط الذى كان مكرّساً للإله چويتر .
- (٤) ساتورن الذى يتحدث عنه أوليود يقابل كرونوس اليونانى الذى خلقه ابنه چويتر « زيوس » عن عرشه وألقى به في نهر تارتاروس بالعالم السفلى . أما ساتورن للإله الذى كان يعبده الرومان فمختلف كل الاختلاف عن كرونوس لما يتحلّى به من صفات طيبة ومن خلق ينجح إلى السلم .
- (٥) هى بنت زيوس وثيرميس ، وكانت قد عاشت في الأرض بين البشر طوال العصر الذهبي إذ كانت تمثّل العدالة ، وقد ذكر فرجيل نفس الحادث في كتابه « فن الفلاحة » .
- (٦) الهالقة كائنات بشمة كثيراً ما يختلط الأمر بينهم وبين المردة . وذكر هزودوس أن الهالقة أبناء جايا ربّة الأرض أنجبته من الدم الذى انتثر من جرح أورانوس « السماء » الذى ألحقه به ابنه كرونوس . وقد جمع عالم لغة يوناني في القرن الثاني قبل الميلاد اسمه أبوللودوروس كل ما يتعلق بقصة صراعهم ضد الآلهة . وكانت هذه القصة من أحب الموضوعات إلى الفنانين الإغريق والمتأخرين ، الأمر الذى نلمسه بوضوح على إفريز منبج براجامون الكبير .
- (٧) كان الإمبراطور أوغسطس يعيش فوق تل البالاتينوس في روما ، وهو التل الذى شيدت عليه بعد ذلك قصور غيره من الأباطرة أمثال ستيوس سيفيروس وفلافيانوس . ويبدو من هذه العبارة مدى التعلق الذى ذهب إليه أوليود .
- (٨) أغلب هذه الكائنات من الآلهة اللاتين المحليين ولا صلة لهم بأولئك الذين عهدناهم في عصر الإغريق .
- (٩) إشارة إلى مقتل قيصر بواسطة بروتوس وكاسيوس عام ٤٤ ق.م .
- (١٠) أساء جبال ثلاثة في أركاديا بالمورة وكان لجويتر معبد مشهور في ليكاويس .
- (١١) أطلق اسم الطاغية Tyrant على الملوك الذين اعتلوا العرش في المدن اليونانية التى خضعت لنظام حكم القلة « الأوليجاركية » بغير نظام الوراثة كما كان متبعاً خلال القرنين السابع والسادس ق.م . وأطلق على عهدهم اسم عهد الملوك الطغاة . غير أن حكمهم لم يكن بالضرورة متصفاً بالطغيان والإرهاب ، فقد التصق هذا المعنى المستهجن باللفظ فيما بعد ، خاصة في عهد دولة المدينة « بوليس » الديمقراطية في القرن الخامس ق.م . حيث ظفر قلة الملوك الطغاة بالتنميد والتكريم . كذلك جاء أفلاطون فساعد على إضفاء دلالة مستهجنة على هذا اللفظ حين وصف هذا النظام في « الجمهورية » بأنه أسوأ نظم الحكم الممكنة .
- (١٢) كان الرّيون يقطنون منطقة جبلية شمال شرق اليونان ، ويقال إن نيوپترليموس بن أخيل كان قد أدرك شواطئ مولوسيا « إبيروس الآن » أثناء عودته من طروادة بصحبة أسيرته أندروماخي أرملة هكتور .

- (١٣) كانت ربات الانتقام المسماة « إيرينيس » عند الإغريق و « فوريباى » عند الرومان مستولات عن عاقبة كل مخالفة للقوانين الإلهية وغيرها من مبادئ الأخلاق والقوانين الوضعية البشرية . ويقصد أوفيد هنا أنهن يعاقبن المذنبين ببث الجنون فيهم ، الأمر الذى يدفع إلى الإفراط فى ارتكاب الجرائم .
- (١٤) الكيكلوبيس الثلاثة هم بروتس وستيرويس وأرجيس وهم أبناء جايا وأورانوس ، وكانوا حلفاء لجوبيتر فى قتاله ضد الصالحة بل هم الذين زوّدهم بالرعد والصواعق .
- (١٥) جمع حيزوم وهو صدر السفينة .
- (١٦) شاعت فكرة أن الطوفان عقاب للبشر لورودها فى الكتب السابوية . وكانت الأساطير الشرقية تتضمن نفس قصة الطوفان كما نرى فى ملحمة جلجامش الكلدانية حيث نجد البطل يسمع قصة الطوفان على لسان جده الذى نجا وحده من الغرق بتشبيده سفينة بأمر الإله « إيا » .
- (١٧) تفصل فوكيس بين بويوتا وأويتا جنوب نيساليا . وكانت لجبل پارناسوس قمم كثيرة تصل أهمها إلى ارتفاع ٢٤٥٧ متراً فوق سطح البحر .
- (١٨) كان ديوكاليون بن عم پيرا ابن پروميشيوس وهى ابنة ليميثيوس شقيق پروميشيوس . وثمة أسطورة تقول إن ديوكاليون وپيرا قد وضعا فى صندوق مغلق أرسته المياه على قمة جبل پرناسوس ، وقيل إنه جبل أوتريس أو إتنا أو أثوس .
- (١٩) يذكر هرمان فرائكل فى كتابه عن أوفيد صحيفة ٧٦ أن المقصود من الأم هنا « جايا » الأم الأرض ، أما العظام فهى الصخور والحصى التى كان ديوكاليون وپيرا يقذفانها من وراء ظهرهما فيولد منها جنس جديد من البشر .
- (٢٠) استمد أوفيد هذه النظرية من فلسفة الرواقين الذين استمدوها بدورهم من الفيلسوف أنكساجوراس .
- (٢١) كان الثعبان عند الإغريق تمسيداً لآلهة الخصوبة . وكان فوز أبوللو على پيثون رمزاً لخلع جايا من الألوهية . والمعروف أن عبادتها ظلت فى پيثو ، وهو الاسم القديم لدلفى إلى أن وفدت عبادة خليفتها أبوللو على نفس المكان ، وأغلب الظن أنها عبادة كريتية الأصل . وكانت الألعاب البيثوية التى تقام فى دلفى تكريماً لأبوللو مجرد مباراة موسيقية فى بادئ الأمر ، ثم تحولت فى عام ٨٥٢ ق.م. إلى مهرجان يضم مباريات فى الفروسية وألعاب القوى كما كانت الحال فى الألعاب الإغريقية الأخرى .
- (٢٢) يجتاز نهر پيتيوس إقليم نيساليا ويجتاز عند نهايته وادى تمهى المشهور .
- (٢٣) كانت كلاروس على شواطئ « أيونيا ، وتنتيدوس جزيرة فى مدخل الملبسبونت ، وباتارا مدينة كبيرة على شواطئ لىسيا وكلها تضم معابد أبوللو .
- (٢٤) اشتهرت كلاب الغال بسرعة العدو .
- (٢٥) هاهونيا اسم آخر لنيساليا .
- (٢٦) حوريات الأشجار .
- (٢٧) جبل بأركاديا .
- (٢٨) نهر فى أركاديا .
- (٢٩) كان الطاووس هو طائر جونو المقدس .
- (٣٠) كان الإغريق يخلطون دائماً بين إيويون إيزيس الإلهة المصرية المثلثة دائماً بقرن بقرة . وكانت عبادة إيزيس قد انتشرت فى أنحاء العالم الإغريقى منذ تأسست مدينة الإسكندرية ثم انتشرت عبادتها فى الدولة الرومانية مع الأباطرة الأول ، كما كان المصريون يرتدون ثياباً من الكتان فى حين يرتدى الإغريق ثياباً صوفية . ويروى أيسخولوس قصة مسخ إيويو فى مسرحيته « الضارعات » وفى « پروميشيوس مغلولاً » . أما المؤرخ هيرودوتس فيقرر أن إيويونت إيناخوس ملك أرجوس قد اختطفها تجار فينيقيون وأبحروا بها إلى مصر .
- (٣١) اعتبر الإغريق إيبافوس هو العجل أيبس المصرى .
- (٣٢) كليمينيه هى بنت أوقيانوس وتيثيس ، وهى زوجة ميرويس ملك إثيوبيا « النوبة » ، وكانت قد أنجبت من هليوس إله الشمس قبل زواجها فايون والميلياديس بنات الشمس .



بيكاسو

الكتاب الثاني

فايشون

كان قصر الشمس شامخ الأعمدة متألقاً ببريق ذهبه وبرونزه وأسطحه العاجية المصقولة ، تنعكس الأضواء من أبوابه الفضية ذات المصراعين التي كانت صنعتها أكثر قيمة من جواهرها ، فقد نقش مولكيبير^(١) [فولكانوس أو هيفايستوس] فوقها البحار وهي تضم الأرض بين أحضانها ومن فوقها السماء . وفي خضمّ الموج ظهر آلهة البحر : تريتون^(٢) الشادى ، وپروتوس^(٣) ذو الأشكال المختلفة ، وأيجيون^(٤) المتكىء بلذاعيه على ظهر حوتين ، ودوريس^(٥) وبناتها بين سباحة في الماء أو منطوية ظهر سمكة أو جالسة على صخرة تجفف شعرها الذى كساه البحر من زرقته ، وكُنَّ على الرغم من تحالف ملامهن يربط بينهن ما يشبه الأخوة . وظهرت فوق الأرض جماعات البشر والمدن والغابات والوحوش والأنهار والحيوريات وجنّيات

الريف ، تُظلم جميعاً السماء بيروجها الإثني عشر^(٦) ، ستة على المصراع الأيمن للباب ، والأخرى على مصراعه الأيسر .

٢٠ وأصعد ابن كليمنييه إلى قصر ذلك الإله وهو يسائل نفسه أية قرابة تلك التي بينه وبين إله الشمس ؟ وتقدم إلى أبيه ، غير أنه لم يقو على أن يقترب منه فقد بهر بشدة نوره . وكان إله الشمس جالساً في ثوب أرجواني على عرش يتألق بزمرد ، واصطفقت إلى جانبه على مسافات متساوية ربّات الزمن : « اليوم » و « الشهر » و « السنة » و « القرون » و « الساعات » . وهناك أيضاً كان الربيع الغضّ مكلّل الرأس بالزهور ، والصيف الأجرد حاملاً سنابل القمح بيمينه ، والخريف بقدميه المبلّتين بعصير الكرم الأرجواني الذي هرسه ، والشتاء القارس الأشهب بخصلات شعره البيضاء .

وتملّكت الصّبي رغبةً دَهلاً من غرابة ما يراه ، واستدار إليه الإله الشمس وهو في جلسته بين حاشيته وحده بعينه التي ترى كل شيء ، وسأله : « فيم جئت ؟ وما قصدك من زيارة هذه القلعة يا فايثون ، يا من لا يقوى أبوك على أن ينكر بنوتك » ، فأجابه قائلاً : « أبى ، أيها الإله فوبيوس ، يا من يهنا كل ما في الكون الفسيح بنورك ، إذا كنت قد أجزت لي أن أناديك « أبى » ، وإذا كانت كليمنييه لا تكذبني ولا تُخفي عنى أسرار خطيئة ارتكبتها ، فلتنقذ لي دليلاً على صدقها وبرهاناً يُثبت بنوّك لك ويبدد كل شكوكي » .

٤٠ وما إن انتهى من كلماته حتى طرح الأب عن رأسه وهج أشعته وسأل ابنه أن يقترب منه ، وما كاد يفعل حتى احتضنه قائلاً : « إنك حقيق بأن تكون ابناً لي ، وقد صدقتك كليمنييه فيما حدثتلك به عن نسبك ، وسوف أستجيب إلى أى طلب لك كي أبدد شكوكك مُشهداً على ذلك تلك البحيرة التي يُقسم عندها الآلهة ، والتي لم يقع عليها بصرى قط » .

٦٠ وأسرع فايثون فطلب من أبيه أن يتخلّى له يوماً عن مركبته ليركبها ويدفع خيولها المجنحة الأقدام . عندها ندم إله الشمس على وعده ، وهز رأسه المتألّقة مرات ثلاث ، وقال : « إن استجابتي لطلبك تكشف عن اندفاعي وتسرعى ، وكم وددت لو نقضت ما وعدت . ولتعلم أن هذا الذي تطلبه منى هو ما أباه عليك وأحول دونك ودونه ، فأنت مُقدم على عمل خطير تقصّر عنه قوتك ويعجز عنه شبابك الغض . وهل أنت غير بشر ، وما في قدرة البشر الفاني فَعَل ما تريد ، وإن جهلك بالأمر هو الذي يجعلك تطمع فيها لا يناله الآلهة أنفسهم ، فهم على ما بلغوا من قوة لا يشاركوني ارتقاء هذه المركبة النارية التي لا يقوى على قيادتها كبير آلهة الأوليمپوس نفسه رغم بأسه وامتلاكه الصواعق يطوح بها بيده العاتية ، فمن تراه يفوق جويتر قوة ؟ والخليل لا تقوى على ارتقاء الطريق الصاعد إلا بجهد حتى في الصباح وهي ماتزال في عنفوانها ، وكم أصاب أنا بالهلع ويخفق قلبي حين تبلغ المركبة سمّت السموات العليا وأطل على الأرض والبحار . ثم إن الطريق ينحدر هابطاً بعد ذلك فتغدو قيادة الخليل في حاجة إلى يد قوية وصلابة وثبات ، وما أكثر ما كانت الإلهة تيثيس^(٧) التي تستقبلني في مياها تخشى أن أسقط من علّ . هذا إلى ما كان يعتمل في

السياء من حركة أبدية تدفع بها النجوم في دورتها العجلة في الأفلاك^(٨) . وكان على أن أشقّ طريقى وسطها دون أن تهوى بها عند صدامها بي ، فأنا وحدى القادر على السير ضد مدار الكواكب الدائرة في أفلاكها . وماذا تملك أن تفعل أنت لو أسلمتكم المركبة ؟ أترك قادراً على الصمود أمام دورة القطبين العنيفة دون أن تقذف بك بعيداً قُبّة السماء الدوّارة ؟ هل تحال السياء ملأى بالغيضات المقدّسة ومُدّن الآلهة والمحارِب التي تفيض ثراء ؟ ما أبعد ذلك عن الواقع يا بئى ، إن عليك أن تشقّ طريقك وسط شرك خطر وحياة ضارية ، ولو قُدّر لك أن تسلك طريقك السويّ دون أن تنحرف هنا وهناك ، فسوف يكون عليك أن تتجنب قرن برج « الثور » الخطير وقوس برج « الرامى » وأنياب الأسد الهائج ، وأذرة العقرب التي قد تُطَبّق عليك من ناحية على حين تهدّدك أذرة السرطان من ناحية أخرى^(٩) . ثم كم ستثقل عليك قيادة خيلى حين تشتعل النيران المختزنة في صدورهما وتنفضها من خطمها وخياشيمها ، فهي لا تكاد تطبق كفى ساعة تثور حماسها ولا تستسلم رعوسها لأعنى . إننى أحذرك خشية أن يكون في استجابتي لطلبك ما يجرّك إلى الهلاك ، وإن الفرصة لاتزال سانحة بين يديك أن تطلب ما تشاء عوضاً عما منحتك إياه مما ينفك . فليس ثمة دليل على أبوق لك أوضح من لهفتى عليك ، وخوفى عليك شاهد أبوق ، فلتسلطع إلى وجهي لعل عينيك تستطيعان النفاذ إلى أعماقى ورؤية ما يختلج فيها من قلق عليك . تلفت إلى خيرات الكون حواليك وتشه ما شئت من طبيبات الأرض أو البحار أو الأجواء فلن أضنّ عليك بشيء منها ، واعلم أنى لن أرجع عما وعدت به ، غير أنه لن يكون تكريماً لك بل عذاباً تشقى به . فإذن معانقتك لى تستعطفنى وأنت لا تعى كنه طلبتك ؟ ولكن على الرغم من هذا فلا تخشى ألا أحقق لك ما طلبت فقد أقسمت على الوفاء بنهر ١٠٠ ستيكس ، ولكنى أريد منك أن تتعم النظر فيه .

وضرب الابن بتحذيرات أبيه ونصائحه عرض الحائط ، فقد كان تواقاً إلى قيادة مركبة إله الشمس . وحين أحسن الأب ذهاب محاوراته عبتاً في أن يُثني ابنه عن عزمه أخذه إلى مركبته الهائلة التي صنعها له فولكانوس وصاغ من الذهب محاورها وعريشها وأطر عجلاتها ، كما جعل أقطار العجلات من الفضة ، ووشى نيرها بالزبرجد ، ورصّ بها صفوفاً من الجواهر تُرسل بريقاً حين ينسكب عليها نور فويبوس . وحين أخذ فايثون الطُموح يتحسّس أجزاء المركبة في إعجاب كانت « أورورا » ربّة الفجر المشرق قد بدأت تفتح في أقصى الشرق أبواب قاعاتها المترعة بالورود ، فانسَلت النجوم تدفع صفوفها الطويلة نجمة الزهرة^(١٠) التي كانت آخر من تركت مكانها في السياء . وما إن رآها إله الشمس تغرب مع قرن القمر وسط السياء الوردية حتى أمر ربّات « الساعات » السريعة الخطى بشدّ الجياد إلى النير ، فاستجابت « الساعات » لأمره وأخرجت الجياد من الحظائر السهوية ، تنفث اللهب مُتخمة بما التهمت من الأمبروزيا [طعام الآلهة] ، وربطتها إلى المركبة .

١٢٠
وطلى الأب وجه ابنه بدهن مقدس كى يُعينه على احتمال وهج النيران ، وتوجّ رأسه بحزمة من أشعة الشمس ، وأطلق زفرة عميقة كشفت عما يترقبه من فجعية محزنة ، وقال : « فلتطع نصائح أبيك ما استطعت . كن مترقفاً في استعمال السوط ، واقبض على الأعنة بكل ما تملك من قوة ، ودع الجياد تمضى في

عَدُوها فالويل لك إن هي أبطأت ، وتجنّب الطريق المستقيم المار بمناطق السماء الخمسة ، واتبع الطريق المنحدر الدائري الفسيح المار خلال مناطق الكون الثلاثة الوسطى متجنباً القطبين الشمالي والجنوبي وعواصفها الشديدة البرودة ، وسوف تتبين في هذا الطريق آثار عجلات المركبة . ولا تنجح إلى طبقات الجو العليا أو السفلى ، ودع الدفاء قسمة عادلة بين الأرض والسماء ، فإنك إن ارتفعت عالياً أشعلت النار في قبة السماء ، وإن هبطت إلى أسفل أحرقت الأرض ، وإن آمن الطرق أوسطها . ولا تنحرف يمينا صوب كوكبة الأفعى الملتفة حول نفسها ، ولا يساراً نحو منخفضات كوكبة المجرة ، وكن بينها على بُعد وسط . وسوف أترك ما وراء ذلك لإلهة الحظ « فورتونا » سائلاً إياها أن تحيطك برعاية تفوق ما تملك أنت لنفسك ، وهياً الآن فقد بلغ الليل الشاطيء الغري وما في استطاعتنا أن نتلبّث ، وعلينا أن نبادر بالظهور فقد بدأ نور الفجر ينبلع وأخذت الظلمة تتبدّد . قبض بقوة على الأعنة ، برغم أني مازلت أمل أن تستجيب إلى نصحي ولا تُقدِّم على ركوب هذه المركبة ، فما برحت أنت قادراً على التراجع عن رغبة فيها هلاكك ، وما برحت قدماك ثابتتين على الأرض الصلبة . إنك مازلت قليل الخبرة ، وإذا شئت أن تتعم عينك بالنور وأنت آمن ، فدعني أسكبه لك على الأرض . غير أن فايتون اندفع في حماسة الشباب واعتلى المركبة التي لم تتؤ بجسده الغض ، وأخذ الأعنة من يد أبيه فرحاً ، واتخذ مكانه واقفاً ولسانه يلهج بشكر والده المحزون .

أخذت خيول إله الشمس الأربعة بيرويس ولييوس وأيثون وفليجون^(١١) تملأ الأجواء بصهيلها وأنفاسها المشتعلة ، وتضرب الحواجز بحوافرها ، وسرعان ما أزاحت الإلهة تبيثس الحواجز من طريق الخيل وهي تجهل المصير الذي ينتظر حفيدها ، فتفتحت أبواب السماء أمام الجياد التي اندفعت صاعدة في الفضاء بحوافرها المجنحة متخطية رياح الشرق العاصفة في مهادها . وأحسّت الجياد بالمركبة أكثر خفة مما كانت حين كان يعتليها إله الشمس ، وبدت المركبة كالسفينة التي يتلاعب بها الموج لحفتها ، فأخذت تتأرجح وتعلو وكأنها فارغة ، وما إن أحسّت الجياد بذلك حتى انحرفت عن طريقها وتخلّت عن اتجاهها المعهود . واستولى القلق على قائد المركبة الذي كانت تعوزه المهارة في القبض على أعنة الخيل فانفلت زمامها من يديه ولم يعد يعرف طريقه ، ولو قدّر له أن يعرفه فلن يُقدّر له أن يملك السيطرة على الجياد . عندها التهبت كوكبة الدب الأكبر الثلجية للمرة الأولى ، وعبثاً حاولت أن تبترد في مياه البحر المحرّم عليها ، ودبت ثورة محمومة في كوكبة الثعبان التي كانت برودتها تثبط من حركتها ، ويقال إن كوكبة « راعي الشاء » قد ولت فرازا وقلبها مشحون قلقاً رغم ببطء حركتها ورغم كونها أسيرة مركبتها المتهادية .

ووقع بصر فايتون التعمس من السماء الشاهقة على الأرض التي على بُعد سحيق ، فعلا وجهه الشحوب وارتجفت أطرافه رعباً ، وغشى الوهج عينيه ، وتمنى لحظتها لو لم تمس يدها قط جياد أبيه ، وعراه الندم على محاولته تعرّف نسبه وعلى استجابة أبيه لرغبته ، ووّد لو كان ابناً لميرويس بدلاً من فوبوس^(١٢) وقد أخذت المركبة تهتز كسفينة جرفتها رياح الشمال العتية ، فأسلم ربانها لها القيادة تاركاً رعايتها للآلهة يضرع إليها بالدعاء . ماذا ترى فايتون فاعلاً ؟ لقد قطع مسافة شاسعة من السماء وكانت

ثمة مسافة أبعد مدى عليه أن يقطعها ، وأخذ ينظر إلى الغرب الذى لن يبلغه ثم إلى الشرق وراءه ، وهو بينها حائر عاجز عن إرخاء العنان وجذبه والسيطرة على الجياد التى كان يجهل حتى أساءها .

وزادته خوفاً تلك الوحوش الضخمة التى وقع بصره عليها متناثرة على صفحة السماء المرصعة بالنجوم ، ورأى العقرب يمدُّ إليه مخالبه على شكل قوسين مُرَّخياً ذيله ، باسطاً أذرعَه المستديرة على جنبيه فوق نجمين . ولم يكد الفتى يراه فى صورته البشعة يتقاطر منه السم القاتل حتى جُمِدَ الدم فى عروقه وعراه فزع أسقط من يده العنان على ظهور الجياد التى وجدت نفسها طليقة مُرسلة الزمام ، فانحرفت عن طريقها المألوف وانطلقت على هواها خلال أجواز الفضاء تطرق دروباً مجهولة ، وانجهمت إلى النجوم العالية تجر المركبة وراءها منتقلة من هوة إلى أخرى ، صاعدة المرتفعات تارة وهابطة المنحدرات تارة أخرى حتى اقتربت من سطح الأرض . وأمسك العجب بـ «لونا» ربّة القمر وهى ترى جياد أخيعها تهوى والدخان ينطلق من السحب المحترقة والنيران تلتهم مرتفعات الأرض فتشقق وتبرز فيها الأخاديد لجفاف تربتها وتلتهم المراعى فتقلب هشيماً ، وألسنة اللهب تأكل الأشجار وأوراقها متخذة من حصاد الحقل وقودها . ولم يكن هذا كله غير شئء هين إلى جانب اندثار المدن الكبرى واحترق الأسوار وتهدمها وتحول شعوب بأسرها إلى رماد ، واشتعال الغابات على سفوح الجبال . وقد أكلت النار جبل آثوس^(١٣) ، وجبل الثور^(١٤) فى سيليسيا وجبل تيمولوس^(١٥) ، وجبل أويتا^(١٦) ، وجبل إيدا^(١٧) الذى كانت ينابيعه دائمة الشهرة قبل جفافها ، كما أتت النيران على جبل هيليكون موطن ربّات الفنون ، وجبل هيموس^(١٨) الذى ارتبط اسمه بعد ذلك باسم أرفيوس ، وتأنججت نيران بركان إتنا^(١٩) فتطاوت ألسنتها إلى آفاق عالية . واشتعلت القمم التوائم بجبال بارناسوس ذات القمّتين وإيريكس^(٢٠) وكيتوس^(٢١) وذاب جليد جبال أوتريس^(٢٢) ووردوى^(٢٣) ومياس^(٢٤) ودنديما^(٢٥) وميكالى^(٢٦) وكثايرون^(٢٧) مهد الطقوس الدينية ، ولم يجم الصقيع جبال سكيثيا من أن تلتهمها النيران ، وكذلك كان مصير جبال القوقاز^(٢٨) وأوسا وبيندوس ، وتوهج اللهب فى الأوليمپوس^(٢٩) أعظم هذى الجبال شأنا ، وبلغت الجرائق جبال الألب الشاهقة الارتفاع وسلسلة جبال الإبين التى تتوج السحب قمتها .

ورأى فايثون العالم كله مشتعلًا بالنار فغشيته حرارة عجز عن احتماها وأرسل زفرات حارة كتلك التى تطلقها الأفران المشتعلة ، يحاصره وهج مركبته فيضيق بالشرّ المتطاير منها ، ويلقه الدخان الساخن وتعميه الظلمة الخالكة فلا يدرى أين هو ولا أين يسير ، تجمع خيوله العجل على هواها حيث تقودها أقدامها المجنحة . وشاع بين الناس أن بشرة الإثيوبيين قد استحالت سوداء فى هذه اللحظة إذ انبثق الدم إلى بشراتهم . وفى هذه اللحظة أيضاً جففت الحرارة مياه ليبيا فغدت صحراء ، وأخذت الحوريات يتزعن شعورهن ناتحات على ينابيعهن وبحيراتهن المفقودة ، وعبثاً حاولت بروتيا البحث عن ينبوع دىركى^(٣٠) بين ظهرانيها ، وأرجوس عن ينبوع أميمونيه^(٣١) ، وإفيري^(٣٢) عن مياه پيرفى .

ولم تسلّم مياه الأنهار المتدفقة فى مجراها السوى من لفح النيران الذى جفّف الينابيع ، فقد تبخرت مياه نهر تانائيس^(٣٣) حتى بدا جافاً ، كما جفّ نهر بينيوس^(٣٤) العتيق ، ونهر كايكوس^(٣٥) فى ميسيا ، ونهر

إسمينوس^(٣٦) السريع الجريان ، وحق المصير نفسه بنهر إيريمانثوس بأركاديا ، وبنهر زانروس^(٣٧) الذى غاص ماؤه بعد . وكذا نهر ليكورمارس^(٣٨) الأصفر ، ونهر مياندرا^(٣٩) الذى يتلوى مجراه فى منحنيات شبيهة بالدوائر ، ونهر ميلاس بطراقيا ، ونهر إيروتاس بأسبرطة ، وكذلك نهر القرات بيبابل ، والعاصى بسوريا ، وثرومودون^(٤٠) الجياش ونهر الجنج بالهند ، وفازيس^(٤١) ، وهيستر^(٤٢) وغلت مياه نهر أليوس^(٤٣) والتهمت النيران شواطئ نهر سپيرخيوس^(٤٤) ، وذاب الذهب المكنوز بأعماق نهر تاجه ، واحترقت طيور نهر مايونيا^(٤٥) وطيور نهر كايستر^(٤٦) التى أضفى تغريدها على شواطئه ذيوغاً لصيبته ، وأمسك الذعر بنهر النيل فولئ هارباً وأخفى رأسه فى أقاصى الأرض حيث استقررت هناك ، وخلف مصابئ القنوات السبع جافة لا يغمرها غير التراب ، وبقيت سبع وديان بلا مياه . وحق هذا المصير بنهرى الهيبير^(٤٧) ، وستريمون^(٤٨) الواقعين فى بلاد الإيزماروس^(٤٩) ، وكذلك أنهار منطقة هيسپيريا^(٥٠) وهى الراين والرون وپو والتير الذى وعدت الآلهة بأن يسود الكون .

٢٦٧ أخذت الشقوق تغشى الأرض ويتسرب من خلالها الضوء حتى بلغ تارتاروس ، مُلقياً الرعب فى قلوب عاهل العالم السفلى . وتقلصت المحيطات مخلقة مساحات شاسعة غطتها أكوام الرمال ، ومُبرزة جبالاً كانت مستورة تحت المياه العميقة^(٥١) ، فتكاثرت سلاسل المرتفعات المنتشرة فى العالم ، وانقلبت الأساك تغوص فى أعماق المستنقعات ، وجبن الدرفيل عن القفز فى الهواء كعادته ، وطفت جثث عجول البحر فوق سطح البحار ، وقيل إن نيريس وزوجته دوريس وبناتها قد استشعروا وهج الحرارة وهم فى أغوار كهوفهم ، وعجز نبتون عن إخراج رأسه وذراعيه من مياه البحر بعد أن حاول ذلك مرات ثلاث لاشتعال الهواء خارج البحار .

٢٨٠ وحينما نفذت مياه البحار والمحيطات المحيطة « بالأرض » إلى أحشائها وملأت جوفها المعتم أخرجت « الأرض » رأسها من بين الرماد وأحاطتها بيديها أتقاء للفحات الحرارة ، فاهتز كل شيء اهتزازاً عنيفاً ، وهوت الأرض عن مكانها المعتاد وهى تنبث فى ألمٍ مهممة : « إذا كانت هذه هى مشيئة القدر ، وإذا كان هذا مصيرى ، فلم لا تعجل أيها الإله القادر بإرسال صواعقك لأهلك على يديك إن كان قد قُدر لى أن أهلك بالنار ، فأية كارثة تعبت بها أنت يهون على حملها » . وكانت حرارة الأجواء تلسع حلقيها حين تتحدث ، فأردفت تقول : لكم يشق على أن أفتح شفتى لأتحدث . وها هو ذا شعرى قد احترق ، وانساب الرماد إلى عيني بعد ما غطى وجهى . أهذا هو جزاء خصوبتى ؟ أهذا هو التكريم الذى أناله على خدماتى ؟ أمن أجل هذا احتملت الجراح التى شققتها فى جسدى المحارث والفؤوس دون أن أنال قسطاً من الراحة طوال العام ؟ أهذا ما أجازى به عن تدبيرى الأوراق والأعشاب الرطبة للماشية ، والغلال للبشر ، وانبثاق الأخشاب العطرية التى تُحرق من أجلكم بخوراً أيتها الآلهة ؟ . وإذا كنت مستحقة للمهلك ، فأى ذنب جنته المياه ؟ وماذا جنى أخوك حتى تتضاءل البحار التى منحها ساعة تقسيم الكون ؟ . فإذا لم تكن بى مُشفقا ولا بأخيك ، فلتلتفت حواليك ولتشفق على مملكتك السأوية ، لقد أمسكت النار فى القطين ولو أتت عليهما لانهدم قصرك . ولتنظر إلى أطلس^(٥٢) يعانى مُثقلاً بحمل السماء المشتعلة فوق كتفيه ، وتذكر

أنه لو هلكت الأرض والبحار والسماء لانتهى الأمر بنا جميعاً إلى الفوضى الشاملة . فبادر إلى إنقاذ ما يسعك
إنقاذه من الدمار أيها الإله الأجل ، وأدرك الكون واكتب له النجاة .

٣٠٠

ولم تكذنته ضراعة إلهة الأرض حتى حنت رأسها ودفنتها في الكهوف المتاخمة لعالم الموت عاجزة عن
احتفال مزيد من الحرارة . ودعا رب الأرباب الألهة إليه ومن بينهم إله الشمس الذي أسلم مركبته لولده
فايثون ، وبعد أن أشهدهم جميعاً على أن نجاة العالم من الفجيعة رهن بمعونة فويبوس صعد عاليًا في السماء
إلى ذلك المكان الذي اعتاد أن يُطلق منه الغيوم والرعود والصواعق الخاطفة ، غير أنه لم يرسل سحبا ولا
أمطاراً وإنما أطلق رعداً مدوياً ، ورفع بيده الصاعقة قريباً من أذنه اليمنى ثم صوّبها إلى قائد مركبة الشمس
فأفقدته توازنه وحياته معاً . وكان لهيب الصاعقة أعظم أثراً من نيران مركبة الشمس فأحرقت المركبة
وانطلقت خيولها مولىة الأدبار على غير هدى ، وتناثرت أجزاء المركبة فراحت عُدّة الجياد يُمنه بينها ذهب
عريش المركبة يسرة ، وهنا وهناك برامق العجلات وحطام المركبة . وهوى فايثون في الفضاء والنار مشتعلة
في خصلات شعره تتلوى خلفه كأنها نجم لامع في السماء الصافية ، حتى هبط في بقعة قصية من الأرض
بعيدة عن مسقط رأسه ، وتلقاه نهر إيريدانوس^(٥٣) العظيم قبلل وجهه المحترق بمياهه ، وقامت الحوريات
الإيطاليات بدفن رفاتة التي التهمت النيران ذات الألسنة الثلاثة ، ثم نقشن على شاهد قبره هذه الأبيات :

٣٢٠

« هنا يثوى فايثون قائد مركبة أبيه .

وهو وإن لم يُكتب له النجاح في قيادتها

إلا أنه قضى نجه شهيد شجاعته الحارقة » .

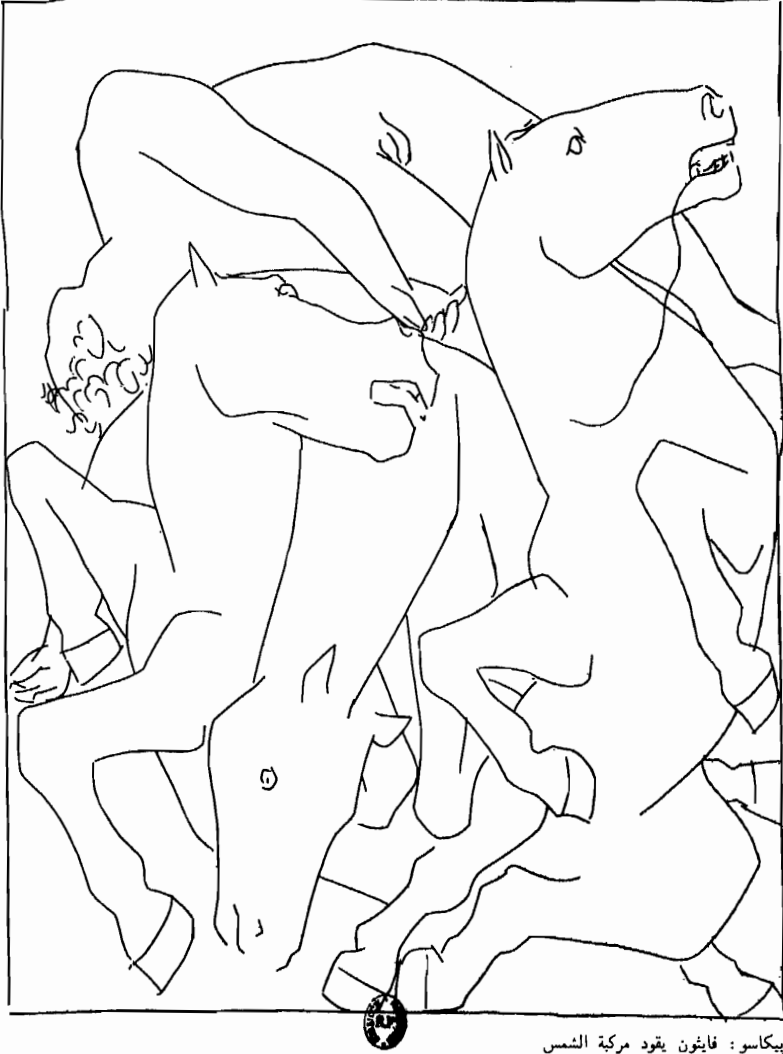
وأدت الحوريات هذا الرثاء عن أبيه التعس الذي أمضه الأسى فغطى وجهه وأخفاه عن جميع
الأنظار .

وإذا كان حقاً ما يقول الراوى ، فقد احتجبت الشمس في ذلك اليوم فأضاعت النيران المشتعلة
العالم ، وهكذا كانت لكارثة فايثون حسب هذا الرأى نفع ما .

وكانت كليمنيه أم فايثون أول من بكاه بكاء زاد من هول المأساة ، فلقد أفقدها حزنها وبعيا فشقت
ثوبها عن صدرها ، وراحت تضرب في الأرض على غير هدى بحثاً عن جثة ولدها حتى وجدت مدفونة
بشاطيء ذلك النهر البعيد ، فاحتضنت الصخرة التي نقش عليها اسمه وتللتها بدموعها مُلصقة صدرها
العارى بها^(٥٤) .

٣٤٠ ولم يكن حزن بنات الشمس على أخيهن أقل من حزن أمهن عليه ، فاستسلمن للبكاء والعويل ،
وضربن صدورهن بأكفهن وألقين بأنفسهن على قبر فايثون ينادينه ليل نهار دون أن يسمع صراخهن .
ومضت أشهر أربعة وشقيقات فايثون مقييات عند القبر يؤذنين طقوس الحداد التي أصبحت من كثرة
تكرارها إحدى العادات . وفي أحد الأيام تماوت على الأرض كبراهن فايثوزا وشكت عجزها عن تحريك
قدميها ، فخفت لنجدتها أختها الشقراء لامپتية ، غير أنها وقعت في قبضة جذور شجرة نبتت فجأة ،

واكتشفت الثالثة وهي تشدّ شعرها أنها تقطف من رأسها أوراق شجرة ، وأطبق جذع شجرة على ساقى
واحدة ، بينما تحوّل ذراعاً أخرى إلى غصنين طويلين . وعلى حين أخذت من الدهشة بما يجري لمن كان لحاء
الأشجار يلتف حول أنفخاذهن ويغطي أجسادهن شيئاً فشيئاً فكسا أرحامهن وأنداءهن ثم أكتافهن
وأبدين ، ولم يبق غير شفاهن التي كانت تنادى عبثاً أمهن .



بيكاسو : فايثون يقود مركبة الشمس

ولم يكن يوسع هذه الامتلاء غير أن تهرول هنا وهناك تدفعها أحاسيسها كي تختلس من بناتها القبلات ما أمكنتها ذلك . لقد حاولت في أوج ثورتها تمزيق أجساد بناتها وإيقاظهن من جذوع الأشجار ، وهشمت الأغصان غصناً غصناً ، وكانت كلما هشمت غصناً انسكبت منه قطرات دم كأنه جرح يتزف ، وصاحت إبنة لها وهي تكسر غصنها قائلة : « رفقا بي يا أماه ، ناشدتك ألا تؤذيني بما تفعلين ، إنك تصيبين بالأذى جسدى الذى يستحيل إلى شجرة ، فوداعاً يا أماه » .

٣٦٠

وما لبث لحاء الشجرة أن انطبق على هذه الكلمات الأخيرة ، وانسابت دموع جمدتها الشمس فإذا هي كهريمان^(٥٥) أخذ يتساقط من الأغصان الجديدة على صفحة النهر الوضاء ، فتحملها مياهه بعيداً كي تصبغ في الأيام القرية زينة عرائس الرومان .

سيجنوس

وشهد هذه المعجزة سيجنوس [كيجنوس] بن سثينيلوس الذى كان أكثر قرباً إلى فايتون بعواطفه منه بقرابته ، وكان قد بسط سلطانه على شعوب ليجوريا^(٥٦) ومدائنهم العظيمة ، غير أنه ترك مملكته ليردّد نهر إيريدانوس^(٥٧) وشطآنه الحضر صدى أناته وأحزانه ، ولتمتلئ بعويله الغابات التى كثرت أشجارها بعد أن استحالت شقيقات فايتون أشجاراً ، ويحّ صوته من طول نحيبه فهزل جسمه ، وتحول شعره ريشاً أبيض ، واستظالت رقبته ، واحمرت أصابعه وغما فيها بينها غشاء ، وبرز من جنبه جناحان ، وتحول فمه إلى منقار غير مدبّب . وما لبث سيجنوس أن تحول إلى نوع جديد من الطيور هو طائر البجع ، ولم يعد يثق بالسماه أو بجويتير ، وظل يذكر في أسى إرسال چويتير لصاعقته ، ولشدّة بغضه للثيران أثر بعد ذلك أن يعيش في الأنهار والبرك والبحيرات الفسيحة على أن يملّق في السماء .

٣٨٠

وارتدى والد فايتون ثياب الحداد وانطقاً بريقه المألوف وكأنما غشاه الكسوف ، وسخط على الضيياء وكره نفسه كما كره نور النهار وأسلم نفسه لأحزانه وأقعده الغضب عن أن يطالع العالم بنوره ، وأخذ يحدث نفسه قائلاً : « لشدّة ما سئمت عملي المحدّد الرتيب الذى حرمت معه الراحة منذ بداية الكون ، وتولّانى الإرهاق من عمل لا نهاية له وجهود لم أنل عليها تقديراً . إذن فليقم غيرى بمن يعينهم الأمر بقيادة مركبة القضاء ، فإن أحجم الألهة عن القيام بهذا الواجب ولم يتقدم لها متطوع فليقدّمها چويتير نفسه ، وهو إن تصدّى لقيادة مركبتي والسيطرة على زمام جيادى فلسوف يعزف عن إرسال تلك الصواعق التى تحرم الآباء من أبنائهم ، ولأدرك وهو يمسك بأعنة هذه الجياد النارية الأقدام الشديدة البأس أن الموت لا يجعل أن يكون جزء من يعجز عن قيادتها » .

وتحلّق الألهة حول إله الشمس يلحّون فى الرجاء ألا يدع العالم أسير الظلمة ، واعتلر چويتير عن

٤٠٠

إرساله الصاعقة ، وشارك بدوره فى الرجاء المشوب بالوعيد على غرار ما يفعل الملوك . وتقدّم فويوس

فأمسك بزمام جياده التي كانت ماتزال تُرْعَدُ خوفاً فأهلب ظهورها بسوطه ، ووخرها وهو في غمرة الحزن ووقدة الغضب وكانها المستولة عن تلك الفاجعة التي نزلت بولده .

كاليستو

وهبَ كبير الألهة الواسع القدرة يطوف حول أسوار السموات يتعرّف الأضرار التي ألحقتها بها ضراوة النيران ، وحين اطمأن إلى أنها لاتزال على حالها صلبة مدّ بصره فوق الأرض يتأمل ما صنعته أيدي البشر . وحرّكت أركاديا^(٥٨) التي يؤثرها قلقه ، فأسرع يعيد المياه إلى الينابيع والأنهار التي كانت قد كفت عن الجريان ، وكسى الأرض بالخرصة وأنبت الأوراق في الأشجار ، وبثّ النماء والخرصة في الغابات المحترقة من جديد .

وخلال تطوافه وقع بصره على حورية أركادية فإذا هو يجمّد أمامها وقد احتدمت في نفسه الرغبة . ولم تكن فتاة من غازلات الصوف الناعم أو المُفرّجات بتصفيفات الشعر المتنوعة بل كانت إحدى تابعات الربّة فوبييه [ديانا] ، رداؤها فضفاض تُبْتُ بمشبك ، وشعرها المنسدل على ظهرها يضمّه شريط أبيض ، وقد أمسكت في يدها رمحاً أو قوساً ، وكانت أحبّ حوريات جبل ماينالوس إلى قلب ربّة « مفترق الطرقات » ، ٤٢٠ غير أن الحظوة لا تدوم طويلاً^(٥٩) .

ومالت الشمس قليلاً عن كبد السماء ، ودلفت الحورية إلى أجمة لم تمسس أشجارها فأس حطّاب ، وحطّت جعبة سهامها عن كتفها وأخرجت منها قوسها الطّبع وتمدّدت على العُشب مُسنّدة رأسها إلى جعبتها الصارخة الألوان ، وأبصرها چوييتير في هذا الوضع عزلاء فحدّث نفسه قائلاً : « سيكون لي معها أمر لن تعرف به زوجتي ، ولو فرض أنها عرفته فسوف يكون كِفَاءة ما أناله من تأنيب » . وأسرع فتقمص شخصية ديانا مرتديا رداها ، ومال على الفتاة يحدثها قائلاً : « يا أحبّ رفيقائي إلى نفسي ، أين كنت تبحتين عن صيد ؟ أي جبل عبرت سفحه ؟ » فهضت الحورية وهي تصيح فرحة قائلة : « لك يا سيدتي الربّة تحياتي ، إنني أراك أعظم من چوييتير ، وما أخشى أن يسمع ذلك مني . » وضحك چوييتير سعيداً بتفضيلها له في صورته هذه على صورته الحقّة وقبّلها قبلة لا براءة فيها ولا تُقبّل بها فتاة من بنات جنسها . وحين أخذت تقصّ عليه مغامرات صيدها في الغابة لم يمهلهما فضّمهما إليه محاولاً أن يغشاها فافتضح لها أمره ، وتآبّت الحورية عليه وقاومته بكل ما تملكه أنثى ، وباليك كنت شاهديتها يا چونو . يقيناً كان غضبك سيخفّ ، ولكن كيف لفتاة مهما أوتيت أن تقهر رجلاً ، ثم من ذا الذي يستطيع أن يغلّب چوييتير على أمره ؟ ونجح چوييتير في أن يظفر بها حتى إذا ما نال مأربه منها عاد أدراجها إلى السموات العُلى . وصبّت الحورية لعناتها على الغابات والغيضات التي شهدت اغتصابها ، كما أنسيت جعبة سهامها وقوسها وكانت قد علّقتها حيث افترشت الأرض . ٤٤٠

ورأت ديكتينا^(٦٠) وهي تسلق جبل ماينالوس الشاهق الفتاة الأركادية فنادت، فوَلَّت الفتاة هاربة وهي تخالها چوبيتر وقد عاد متقمصاً شخصية ديانا ، غير أنها حين رأت تابعت سيدتها محطن بها اطمانت إلى أنها الربة حقاً وأن الأمر ليس حيلة من حيل كبير الآلهة ، فعاتت أدراجها لترافق الإلهة وتابعها . ما أشق أن يخفى المرء إحساسه بالخطيئة ، فقد عجزت الفتاة عن رفع عينها عن الأرض ولم تدن من الربة على غرار ما كانت تفعل من قبل ، وتخلّفت عن زميلاتها والتزمت الصمت ، وأخذ الخجل مما ارتكبت من خطيئة يغشى وجهها ، ولو لم تكن ديانا إلهة عذراء لاستطاعت كشف سرّها بتلك الأمارات العديدة التي بدت عليها . ويحكى الرواة أن زميلاتها فطنَ إلى ما تكتن من أمرها .

وهلّ القمر بداراً مرات تسعا ، وأوت ديانا — بعد جولة صيد مرهقة وسط حرارة الشمس اللافتة — إلى أجرة رطبة الأسنام يجرى وسطها جدول هامس يتموج ماؤه فوق رمال القاع الأملس . ولم تكد الربة تبلغ هذا الجدول حتى غلبتها الغبطة ، فغمست قدميها في الماء ، ونادت تابعاتها قائلة : « طالما أن العيون ٤٦٠ لا تصل إلينا هنا ، فلنخلع ثيابنا ولنستحم في هذا الجدول » . وحين خلعت الثياب ثابهن وقفت الفتاة الأركادية مُحجّمة وقد احمرّ وجهها خجلاً ، فتقدّمت زميلاتها ونزعن عنها ثوبها وكأتهن حين كشفن عنها ثوبها كشفن عن خطيئتها ، وعندها صرخت ديانا فيها قائلة : أعزبي عني ، ولا تدنسي مياه هذا الجدول المقدس » ، وأمرتها بالانسحاب من حاشيتها .

ولم يخف الأمر طويلاً على زوجة إله الرعد الجبار ، فاعتزمت إنزال عقاب قاس بغريمتها ، ولكنها ظلّت تتخير اللحظة المواتية حتى وقع ما يستحيل معه الانتظار ، فلقد وضعت غريمها ابنها أركاس ، وأخذ مرأى هذا الطفل يملأ قلبها وعينيها غضباً فصرخت في أمه قائلة : « لم يكن ينفصك إلا أن تضعي هذا الطفل أيتها الزانية لكى يُشيع إهانتى ، ولكى يغدو دليلاً على خطيئة زوجى الشائنة . . إننى لن أترك دون عقاب ، وسوف أسلبك هذا الجبال الذى أغرى بك عاشقك أيتها الفاسقة » .

ومدّت يدها إلى جبين الفتاة وقبضت على شعرها واجتذبتها في قوة أسقطتها على الأرض . وحين بسطت كالستو ذراعها متوسّلة تطلب الغفران ، إذا بهما تكتسيان بشعر أسود خشن ، وإذا كفأها تستديران وتتهيان بمخالب معقوفة وتغدوان قدمين أماميتين ، وإذا وجهها الذى أسر بجمالها من قبل چوبيتر يتشوّه وينفجر فيه فكأن عريضان . ولكى تقضى الإلهة على توسّلاتها حرمتها القدرة على الكلام فصار حلقها يصدر زمجرة مخيفة ، غير أنها تركت لها إدراكها كما كان رغم تحوّلها إلى دبة ، فأخذت تبث حزنها بأنين متصل ، وتفزع للساء برفع يديها بعد تحوّلها إلى قدمين . وأحسّت جحود چوبيتر دون أن تستطيع الإفصاح عمّا يدور بخلدّها ، وكم ثقلت عليها الإقامة في الغابة فراحت تحوم حول دارها مقترية من مقرها القديم ، وكم من مرّة أخذت تطاردها الكلاب بنبحها إلى أن تعود أدراجها بين الصخور ، وهكذا باتت صيادة الأمس تلتمس الهرب من الصيادين . وما أكثر ما كانت تغيب عن ذهنها صورتها الجديدة فتختبئ عند رؤية الوحوش الضارية . ومع أنها مُسبّخت دبة إلا أنها كانت تخشى رؤية الذئبة في مكانها بالجبال ، كما كانت تُصاب بالذعر أمام الذئاب رغم أن أباهما كان واحداً منها^(٦١) .

أركاس

٥٠٠ يبلغ أركاس الخامسة عشرة من عمره دون أن يدري ما حدث لأمه ابنة ليكاوون . ومضى يوماً يتعقب آثار الحيوانات المتوحشة في الغابات ويتعرف أفضل الأماكن لصيدها وينصب شباكه في غابات إيريمانوس^(٦٣) ، فإذا هو أمام هذه الدبّة التي توقفت محذقة فيه مُطيلة النظر إليه دون أن تحوّل عينها عنه . وحين دفعها تشوّفها الشديد إليه إلى محاولة الاقتراب منه أسرع برفع يده برمحه المميت ليمزق أحشاءها به ، فإذا چوبيتر الجبار يمسك بيده ليحول بينه وبين ارتكاب جريمة ، مُبعداً الإبن عن الأم . وما لبثت أن حملتها معا ربحُ خلال الفضاء ليجعل منها كوكبتين متجاورتين^(٦٤) .

٥٢٠ وحين رأت چونو غريمته تتألق وسط نجوم السماء تولّاهما غضب عاصف ، وخاضت البحار العميقة لتقابل تيثيس الشيباء وزوجها العجوز أوقيانوس لما لها من مكانة بين الآلهة الأخرى . وحين سألهما كلاهما عن سرّ زيارتها أجابت قائلة : « تسألان أنا ملكة الآلهة لماذا تركت مكاني في السماء وهبطت إلى هنا ؟ لقد فعلت ذلك لأن ملكة أخرى أخذت مكاني في السماء ، فإذا ما نشر الليل ظلاله فوق الكون انظرا فسوف تريان كوكبتين حلّتا لتوهّما في السماء محاطتين بإجلال يُلجقُ بي الهوان ، إذ تتألقان في أعلى مكان بالسماء وفي المنطقة التي تحيط فيها آخر الدوائر بالطرف الضيق من محور العالم . وهل ثم من لا يلعنني حين يراى لا أنال منها ؟ ماذا جنيتُ أنا ، وما أعظم ما أملك من قدرات ؟ لقد شئت تجريدها من إنسانيتها فإذا هي تتحوّل إلى ربّة ، وإذا هذا هو العقاب الذي أردت أن أنزله بالمذنب ! وكان هذا أقصى ما أملك ، فليردّ چوبيتر إليها جمالها المسلوب وليحررها من صورتها البهيمية كما فعل من قبل مع إيو الأرجوسية ، ولم لا يخطو إلى أبعد من ذلك فيطلق چونو ، ويتزوّج من هذه الحبيبة الجديدة ويضعها في فراشي ويتخذ من ليكاوون صهراً له ؟ إذا كتبتا تحسان بأن ما نلته من امتهان يمسكها وأنا التي ربّيتها صغيرة ، فاعملا على أن تدفعا عن أمواجكما الزرقاء هاتين الكوكبتين [الدبّ الأكبر والدب الأصغر] اللتين لم تُرفعا إلى السماء إلا تكفيراً عن سلوك فاضح ، ولا تتيحا لامرأة زانية أن تستحم في مياه بحاركما النقية » .

٥٤٠ وأقرّ لإله البحر ما قالته كبيرة الآهة ، وانطلقت چونو ابنة ساتورن وسط الأثير بعربتها السابحة التي تجرّها الطواويس المُشرقة الألوان بريشها الجديد الذي نبت بعد وفاة أرجس ، والذي يذكرنا بريشك الناصع البياض قبل تحوّلِهِ إلى أسود داكن أيها الغداف الثرثار ، فقد كان ريشُ هذا الطائر في الماضي في بياض الفضة أو الثلج ينافسُ البمام الخالص البياض ، ولم يكن يقلُّ بياضاً عن الإوز الذي قدّر له أن يُنقذ الكايتولينوس^(٦٤) يوماً بضحيّاته اليقظي ، ولا عن البجعة عاشقة المياه . غير أن لسان الغداف كان سبب مأساته ، فقد كانت ثرثرته سرّ فقده لونه الأبيض وتحوّله إلى اللون الأسود .

كورونيس

لم تكن في أنحاء نيساليا كلها فتاة أجمل من كورونيس مواطنة مدينة لاريسا . وكم حرّكت إعجابك يا ربّ دلفي ، وكان ذلك لاحتفاظها بعفتها أو لاحتفاظها بأمرها مستوراً عنك حتى رآها يوماً الغداف طائر فويبوس ترتكب جريمة الزنا ، وأسرع إلى مولاه على عادته في نقل الأخبار معترماً كشف سرّها ، غير أن الغراب الذي لا يقل عنه ثرثرة تعقب الغداف مسرعاً متلهّفاً لالتقاط الأسرار ، حتى إذا أحاط علماً بسبب الرحلة قال للغداف : « ما أسوأ الطريق الذي تسلكه ! خذ حذرک ولا تهوّن من نصيحتي ، واعتبر بما حدث لي ، فلو بحثت عن سرّ تحوّل لوجدت أن إخلاصي هو الذي أودى بي : لقد أخذت باللاس يوماً إيرينثونيوس الطفل الذي وُلد بلا أم ، وحبسته في سلّة مجدولة من خيزران أكتيا^(٦٥) ، وعهدت بالسلّة إلى بنات الملك كيكرويس^(٦٦) اللاتي لم يكن قد تزوّجن بعد ، وكان نصف الملك الأسفل على هيئة ثعبان ، وعاهدتهن على ألا يفتحن السلّة لمعرفة سرّها ، ثم اختبأت بعد ذلك وسط أغصان شجر الدردار المورق لمراقبتهم ، وكانت باندرسوس وهيرسي أميتين على السلّة بينما أخذت ثالثهن أجلاوروس تستشير شقيقتها فتهّمها بالجن ، وما لبثت أن فكّت رباط السلّة فإذا في داخلها طفل بجانب ثعبان منبسّط . ٥٦٠

وحين قصصت ما حدث للإلهة منيراً كان جزائي على ذلك طردى من عملي ورفع حمايتها عني ، وصرت أدنى مكانة من طائر الليل^(٦٧) . وما أجدر ما نالني من عقاب بأن يكون تحذيراً للطيور عن ارتكاب جريمة الوشاية ، فانا لم أسألهما جزء ما فعلت من أجلها ، بل كان طردى عن إرادتها . وما عليك إلا أن تسأل باللاس فإن غضبها مهما احتدم لن يؤثّر بها إلى إنكار الحقيقة .

ولسوف أروي قصة يعرفها الجميع . لقد أنجبني كورونيس الشهرير في بلاد فوكيس ، فلا تستهن بأمرى . وإن دماء ملكية تسرى في عروقي ، وكثيرون من الأثرياء جاءوا يسعون لخطبتي . ولقد كان جمالي مصدر مأساتي ، فبينما كنت أخطر كعاقق فوق الرمال الناعمة أبصرني إله البحر فحرّكت إعجابيه ، وجعل يغازلني ويتوسّل لي برفيق الكلمات ، وحين تبين له أنه لن يجني من وراء ذلك شيئاً أخذ يخطّط لاغتصابي وتملّكي بالقوة ، فهربت منه وخلفت الأجزاء الصلبة من الأرض بينما أمرق عبثاً وسط الرمال اللينة ، ومضيت أسير في غير اتجاه معين وصرخت منادية الألهة والبشر لنجدتك فلم يصل ندائي إلى أذن بشرية ، بينما تحرّكت الشفقة في قلب ربّة العذارى على واحدة من العذارى فمدّت لي يد العون . وحين رفعت ٥٨٠ ذراعي نحو السماء أسودّ لونها وأصبحت جناحين خفيفين ، وتحوّل ردائي وأنا ألقيه وراء كتفي إلى ريش تضرب جلنوره العميقة في جلدي ، وحاولت ضرب صدرى العارى بيدي غير أنني اكتشفت أن صدرى كيدي لم يعد عارياً . وحين عدت أعدو لم تنص قدمي في الرمال كما كان يحدث من قبل بل وجددتني أعلو مسرعة فوق سطح الأرض ، وأخذت أحلق عالياً في السماء وصررت رفيقة طاهرة للإلهة منيراً . لكن ما جدوى ذلك الآن إذا كانت نيكتيميניה^(٦٨) التي تحولت إلى طائر جزء خطيبتها البشعة قد انتزعت مني شرف

هذا المنصب ؟ ألم يصل إلى سمعك نبأ تلك القصة الشائعة في أرجاء ليسبوس عن تدنيس نيكتيميديه لغراش أيتها ؟ إنها هي الأخرى طائر ، إلا أن إحساسها بالخطيئة جعلها تهرب عن عيون الناس ومن ضوء النهار مخفية عارها في ظلمات الليل ، بينما يتربص بها الجميع في أرجاء الفضاء .

وأجاب الغداف على الغراب قائلاً : « لن تنجح محاولتك في إثنائي عن القيام بواجبي ، وإنني لأسخر بكل نبوءاتك العقيمة » . وواصل رحلته دون تلبّث قاصداً مولاه فويوس ، فلما جاءه أبلغه نبأ رؤيته كورونيس تضاجع شاباً من ئيساليا . وما كاد عاشق كورونيس يعرف قصة هذه الحياثة حتى سقط لإكليل الغار عن رأسه وتبدّلت قسماً وجهه وتغيّر لونه وسقطت ريشة العزف من يده ، واحتدم الغضب في نفسه فقبض على قوسه وأطلق منها سهماً لا يملك أحد الهرب منه ، فإذا هو ينفذ في الصدر الذي طالماً نعيم بضمّه إليه . وتأوتت كورونيس ألماً ، وانتزعت السهم من جسدها فتدفّق الدم القاني غزيراً على أطرافها الجميلة البيضاء ، وصرخت قبل لفظ أنفاسها الأخيرة مع آخر قطرة من دمها ، وسرت في جسدها قشعريرة الموت وقالت : « أما كان الأجدر أن تنزل بي عقابك بعد أن أضع حملي منك ، فلقد قضيت بصنيعك على ضحيتين معاً ؟ » . وما أسرع ما أحسّ العاشق بالندم على عقابه القاسي ، ولكن الأوان كان قد فات . وحقّق على نفسه لإنصاته للوشاية ولتركه الغضب يتسلط عليه ، وكره الطائر الذي قاده فضوله إلى كشف خطيئة كورونيس التي حرّكت سخطه عليها ، ولعن يده وقوسه وسهامه التي قدّفت بها . وضمّ جسد كورونيس المسجّى أمامه محاولاً وقف إرادة القدر ، فذهبت أدراج الرياح محاولته شفاء جرحها بعد أن فات الأوان .

٦٠٠ وحين رأى المحرقة مشتعلة والنار موشكة على التهام أطرافها وأيقن بفشل كل محاولاته في إنقاذها ، عصره الألم دون أن تدع عيناه لأن الألهة لا تدع ، وفزع كما تفزع البقرة وهي تلمح ساطوراً قد رفع بها القصاب يده ليهوى به على الجيين المنبطح لوليدها الذي ترضعه . ثم أخذ يصبّ على كورونيس العطور الجنائزية التي لم تعد تقوى على الاستمتاع بها ، وضمّمها إلى صدره ضمّة أخيرة ، وقدم لها طقوس الموت المحتومة . وإذ لم يحتمل أن تحيل هذه النيران فلذة كبده إلى رماد انتزع ابنه^(٦٩) من أحشاء أمه منقداً إياه من اللهب وحمله إلى كهف القنطور خيرون^(٧٠) .

٦٢٠ ووقف الغداف منتظراً جزاءه على إخلاصه ، ففضى فويوس بإقصائه من بين الطيور البيضاء الرّيش .

أوكيرويه

وسعد القنطور باصطفاء الإله له لرعاية ابنه وأفعم قلبه فرحة بهذا التشريف وتلك المسئولية . وفجأة ظهرت ابنته أوكيرويه^(٧١) التي أنجبها من الحورية خاريكلو^(٧٢) ذات الشعر الذهبي الضارب إلى الحمرة

المسدل على منكبيها ، والتي أعطت ابنتها اسم النهر الذى وضعتها على ضفافه . وكانت هذه الفتاة تحمى فنون أبيها وأضافت إلى ذلك قدرتها على التنبؤ وكشف أسرار الغيب . ٦٤٠

وحين رأت أوكيرويه الطفل الإلهى خفق قلبها حماسة وتولتها حمى التنبؤ وقالت : « فلنشَبَّ أيها الطفل ، فإن الأقدار تدخرك لإنقاذ العالم ، وسوف يدين لك البشر بحياتهم يوماً ، وسوف توهب القدرة على إعادة الروح بعد انتزاعها من أجسادها ، وسوف تثير يوماً غضب الآلهة حين تجرؤ على إحياء الموتى ، فتجرّدك صاعقة جدك^(٧٣) من قدرتك على منح هذه الهبة مرة أخرى . وعندها ستحوّل من جسد إلهى إلى جسد بشرى ثم تُبعث إلهاً ثانياً ، فتبدّل مصيرك مرتين .

خـيـرون

أما أنت يا أبى الحبيب ، وقد قدّر لك أن تحيا إلى الأبد لأنك واحد من الخالدين ، فسوف تشق الموت يوم يسرى فى جسدك سمّ الأفعوان عبر جراحك ، وتظل تشقى عذاباً حتى يستردّ الآلهة ما تستمتع به من خلود ، فتحلّ الربّات الثلاثة خيوط قدرك لتموت^(٧٤) .

وهنا ظفرت الدموع من عينيها مبلّلة خديها واستطردت متهدّبة تقول : « إن الأقدار تمنعنى من أن أزيد على ذلك شيئاً ، فكلماتى محسوبة علىّ ، وقد كانت مقدرة على التنبؤ بعث غضب الآلهة علىّ حتى تمنيت لو أنى جهلت المستقبل . إننى أرى وكأننى قد فقدت شكلى البشرى وصار عُشب المراعى غذائى ، والرّكض فى السهول الفسيحة مُعتى ، وأستحالت صورق إلى صورة فرس ، وذلك أثر من آثار القرابة . ٦٦٠ ولكن لماذا أغدو فرساً خالصة ، بيننا والذى نصف بشر ؟ .

حلت كلماتها الأخيرة شكاة غامضة وحديثاً مبهماً ، ولم تعد كلماتها كلمات ولا هى سهيل فرس بل كانت أشبه ما تكون به ، وما لبثت أن سهلت سهيلاً حقيقياً ومدّت ذراعيها إلى العُشب ، وإذا أصابعها تلتئم ويحيط بها حافرٌ ناعم يُعشى أظفارها الخمسة ، وكبر رأسها واستطالت رقبتها ، وتحوّل طرف نوبها إلى ذيل طويل ، وصار شعرها المسدل على كتفيها معرفة تتدل على كتفها الأيمن واكتمل تحوّل صورتها وجسدها ، وأخذت مع هذا التحوّل المعجز اسماً جديداً هو المُهرة .

بـاتـوس

وذهب بكاء ابن فيليرا – وكان من أنصاف الآلهة – وتضرّعه لأبولولو كى يخلص ابنته من آثار هذا التحوّل أدرج الرياح ، فلم يكن أبولولو يملك تغيير إرادة چويتر الجبل ، ولو قدّر له أن يملك شيئاً من ذلك فقد كان عندها بعيداً فى مدينة إيليس^(٧٦) وحقول مسينيا^(٧٧) حيث يقم ، وكان هذا التحوّل قد جرى وهو ٦٨٠

مرتد ثياب الرعاة ممسك في يده اليسرى بعضاً من غصن شجرة ، وفي يده اليمنى مزاربان ذى القصبان المتفاوتة الأطوال .

ويحكى الرواة أنه حين شرد في دنيا غرامه وهام مع موسيقى زمماره قد غفل عن أبقاره فضربت في حقول بيلوس^(٧٨) ولمحها ميركوروس بن مايا ، واستطاع بدهائه المعروف أن ينحرف بها ويخفيها خلال الغابات دون أن يراه سوى شيخ كان سكان المناطق المجاورة يسمونه باتوس ، وكان الثرى نيلوس قد عهد إليه بحراسة غاباته وقطعان خيوله الأصيلة ومراعيها . وخشى ميركوروس أن يكشف باتوس أمره فانتحى به جانباً وتودد إليه قائلاً : لست أدري من تكون أيها الغريب ، ولكني أسألك أن تُخفي أمر هذا القطيع إن سألك عنه سائل ، ولست ناسياً لك جميلك ، وإليك هذه البقرة السمينية مكافأة لك . فأخذ باتوس البقرة وقال له مشيراً إلى أحد الأحجار : « امض ولا تحشى شيئاً ، غير أن هذا الحجر هو الذى سيسبقني إلى فضح سرقتك » .

وتظاهر ابن چوبيتر بالمضى في طريقه ، ثم ما لبث أن عاد متخفياً في هيئة رجل آخر وسأل الحارس بصوت مختلف عن صوته : « أيها الفلاح ساكن هذه الحقول ، إن كانت بقراي قد مرّت أمامك فلتقدّم لي يد العون ولتكشف لي سرّها الغامض بعد أن مضى بها أحد اللصوص . ولا كافئتك على ذلك بإعطائك بقرة وثورها » . وأغرّت المكافأة المضاعفة الفلاح الشيخ فقال : « إنها هناك أسفل هذا الجبل » ، وقد كانت هناك حقاً عند سفح الجبل ، فأمسك الضحك بميركوروس وقال للشيخ : « أهكذا تشي بي إلى نفسى أيها المخادع ! » ، ثم حوّل هذا القلب الذى نكث عهده إلى صخرة صلبة مازالت تُسمى حتى اليوم « الواشية »^(٧٩) ، ارتبطت بها ذكرى هذه الوشاية التى شاعت عن هذه الصخرة البريئة .

أجلوروس

وحلّق الإله بأجنحته في الأفاق حاملاً صولجانه ، وأخذ يتأمل حقول مونيتشيوس^(٨٠) ، والأرض التى تباركها منيرفاً ، وأشجار ليسيوم^(٨١) المتألقة ، وكان يقام في ذلك اليوم مهرجان باللاس الذى تقضى تقاليده بأن تسير فيه العذارى العفيفات حاملات فوق رؤوسهن سلالاً مكلّلة بالزهور زاخرة بمرمز طقوس باللاس لإيداعها معبد الرتبة . وقد أبصرهن الإله المجنّح أثناء عودتهن إلى دورهن فتلبّث عن متابعة رحلته ، وأخذ يدور حولهن كالصقر الذى يسبق جميع الطيور حين يلمح أحشاء الذبيحة ، غير أن فزعه من رؤية الكهنة المحيطين بالقربان يحمله على أن يدور في الأجواء دون أن يقرّ قراره على الابتعاد ، ويظل يدور نهماً ينفق بخناحيه حول الفريسة التى يشتهي الظفر بها . وكذلك كان الإله الرشيق يفعل فوق قلعة أكتي^(٨٢) ، مهدّثاً طيرانه محدّداً دورته في الأجواء التى تعلو القلعة . وكما يفوق نجم الزهرة « لوسيفر »

النجوم الأخرى ببريقه ، وكما يبرز القمر الذهبي « فوييه » نجم الزهرة بلمعانه ، فقد كانت هيرسي أجمل فتيات الموكب تزدهى على الأخرى بروعة جمالها ، وقد راق جمالها ابن چوپيتر فتأجج قلبه بنار حبها ، وصار وهو في الأجواء شبيهاً بطلقة قذف بها مقلع من مقاليع جُزُر البليار أحسّت في السحب حرارة لم تحسها من قبل . غير الإله طريقه وهجر السماء واتخذ سبيله إلى الأرض دون أن يتخذ شكلاً آخر غير شكله فقد كان واثقاً من وسامته . ورغم ذلك فقد حرص على أن يضيف إلى وسامته لمسة جمال ، فصنّف شعره وأصلح عباءته لتتسدل على جسده في أناقة تبرز الخوافي المطرزة والزخارف الذهبية ، وجلا صولجانه الذي يحركه بيده اليمنى ليُلقي به النوم في العيون^(٨٣) أو ليطرده عنها ، واعتنى بأن يصقل نعليه المنجّنين فوق قدميه المساوين .

وكانت ثمة حجرات ثلاث في داخل القصر مزدانة بالعاج والدُّبُل^(٨٤) : اليمنى حجرة پاندروسوس واليسرى حجرة أجلاوروس والوسطى حجرة هيرسي . وكانت ساكنة الغرفة اليسرى هي أول من وقع بصرها على ميكوروريوس ، فتقدمت في جرأة وسألته عن اسمه وعن سرّ مجيئه ، فأجابها قائلاً : « أنا حفيد أطلس وپليونييه . أنا ابن چوپيتر الذي يحمل أوامر أبيه عبر الأجواء . لن أحاول انتحال أعدار وهمية لمجئتي ، ولكنني أصارحك أني قادم من أجل أختك هيرسي ولأنشدك أن تُدْخِي في فؤادها حبي حتى تصبّحى أنت خالة لإبني » . وما لبثت أجلاوروس أن حملت بنظرة جشع وفضول ، وهي النظرة التي تطلّعت بها يوماً إلى السلّة الخيزرانية لمنيرفا الشقراء^(٨٥) ، وطلبت فنطاراً من الذهب مقابل أداؤها المهمة التي يريدتها ، ودفعته خارج بابها على ألا يعود إلا محملاً بالذهب .

ونظرت الإلهة المحاربة منيرفا إلى أجلاوروس نظرة غاضبة ، وزفرت زفرة انتفخ معها صدرها فعلاً بها الترس الذي كان يغطيه ، وتذكرت كيف كشفت أجلاوروس الجاحدة سرّ السلّة حين نكثت بوعدها وتطلّعت إلى ابن إله ليمنوس^(٨٦) الذي لم تلده أم ، كما ذهب تفكيرها إلى أن أجلاوروس سوف تظفر بعرفان الإله ميكوروريوس ويعرفان أختها الشقيقة وبثروة ضخمة أيضاً حين تتلقى الذهب الذي دفعته شراحتها إلى أن تطالب به ، فتوجّهت الإلهة إلى دار ربّة « الحسد » ، تلك الدار الحقيرة المعتمة الكريمة^(٨٧) الرائحة الرطبة التي لا تشتعل فيها نار قط ، ويحيم عليها الظلام الكثيف من حوالها ، حتى إذا بلغت الإلهة المحاربة الدار وقفت أمامها ، إذ لم يكن لها أن تستظلّ بسقفها^(٨٧) ، وطرقت الباب بطرف رمحها فانفتح على مصراعيه وظهرت ربّة الحسد التي كانت منهمكة في التهام وجبة من لحم العالين ، وهو طعامها الوحيد الذي كان غذاء لروحها الشريرة . وأشاحت منيرفا بوجهها عند رؤيتها ، ونهضت ربّة الحسد على قدميها متراخية تاركة بقايا جثث الأفاعي وتقدمت بخطوات متناقلة ، فلم يكدها بصرها يقع على الإلهة بسحر جمالها وبريق دروعها حتى زفرت زفرة عميقة وقطبت جبينها . وكان وجهها شاحباً وجسدها مهزولاً ، وثمة حَوَل في عيناها يحرف نظرهما إلى الأشياء ، وأسنانها مهشمة حائلة اللون ، تنفث من صدرها نفاثة خضراء ، ويقطر لسانها سماً زعافاً ، لا ترتسم على شفيتها بسمه إلا حين تشهد آلام الغير ، لم تلق في

حياتها طعم النوم المريح ، فقلقها وهمومها تركها ساهمة ، وتزداد هزالا كلما وقعت عينها الزائغتان على أحد يزداد ثراء . كانت شقاء على نفسها كما كانت شقاء على غيرها ، وكان ذلك عذابها الدائم . ٧٨٠

ومع أن تريتونيا^(٨٨) كانت لا تأبه بها فقد اتجهت إليها قائلة في إيجاز : « إن ما أريده منك أن تنفسي سُمك في صدر أجلاوروس إحدى بنات كيكرويس » ، وضربت الأرض برمجها دون أن تضيف كلمة واحدة وحلقت عالياً في الأجواء تاركة الأرض . ونظرت ربة الحسد إلى الإلهة شزراً وهي محلقة حتى غابت عن نظرها ، وهممت حاقدة على ما سوف تحققه هي لمنيرفا من توفيق ، وتناولت عصاها المحاطة بالشوك والتفت بالغيوم المعتمة وانطلقت ، فإذا الحقول التي مرّت بها قد غابت نضرتها ، وإذا الأعشاب تصبغ هشيماً ، وإذا الأشجار قد ييست أوراقها ، وإذا البشر تحس بتعاستها ، وإذا مدنهم ودورهم خراب ، إلى أن انتهى بها المطاف إلى القلعة الأثينية ، حيث المواهب والثروات والأمن وحيث القلوب فرحة مطمئنة . وكانت كلما نزعت نفسها إلى البكاء كبتت تلك النزعة في نفسها لأنها لم تر من الأحران بعد ما يكفي لأن يبعث في عينيها الدمع .

٨٠٠ وحين دخلت على ابنة كيكرويس حجرتها لتقوم بأداء مهمتها لمست صدر الفتاة بيدها الصدئة^(٨٩) ، وملأت قلبها بالأشواك الواخزة ونفثت سباً زعافاً في أنفاسها ما لبث أن سرى في عظامها ورتبتها ، وصوّرت لها - كي تثير شقاءها - أختها سعيدة بزواجها من الإله الذي أضفت عليه صفات الجمال كلها حتى تثير غيرتها . وأحسّت ابنة كيكرويس غيرة خفية تنهش قلبها ، وأصبحت تعاني العذاب آناء الليل وأطراف النهار وتزفر زفرات متصلة ، وما لبثت تعاستها أن أصابتها بالذبول فأخذت تذوب كما تذوب الثلوج تحت وهج الشمس المختفية وراء الغيم . وكانت سعادة هيرسي تفعل بأجلاوروس فعل الجذوة أو النار الدفينة دون أن يظهر لها بريق . وكم تمت الموت حتى لا تشهد عينها سعادة أختها ، وخطر لها أن تشي بسرّ أختها لأبيها الصارم وكأنه جريمة تستحق العقاب ، ثم افترشت أخيراً عتبة أختها لتحول بين الإله وبين الدخول . ومضى الإله يتملقها بعبارات كلها إطراء ورجاء ، ولكنها لم تلقّ بالا لقوله وصاحت به : « كفى ، فلن أترك مكانى حتى أحملك على البعد من هنا » . وأجابها الإله قائلاً : « ليكن ما تشاءين » ، ثم ما لبث أن لمس الباب بعصاه السحرية لمسة فانفتح له . ٨٢٠

وحاولت أجلاوروس النهوض فإذا هي تجد أطرافها قد خُدرت وباتت ثقيلة فلم تستطع أن تنهض من جلستها . وعبثاً جاهدت كي تقف لكن رُكبتها كانتا خامدتين ، وسرت في جسدها برودة شملت أطراف أناملها وجمد الدم في عروقها فشحب لونها . وتسَلَّلت إلى جسدها شيئاً فشيئاً برودة الموت ، فهمدت أنفاسها ولم تعد تستطيع الكلام ، واستحالت تمثالاً من الحجر فقدّ بياضه الناصع وغشاه سواد كالح أضفته عليه روحها .

أوروبا

ويعد أن أنزل حفيد أطلس العقاب بأجلاروس على ما كان منها رحل عن البلاد التي اشتقت اسمها من اسم باللاس ، وحلّق عاليًا في السماء يضرب بجناحيه في الهواء . وناداه أبوه إلى جواره دون أن يفصح له عما يَكِنه له من حب ، وإنما قال له : « انطلق يا ولدى ورسولي الأمين هابطًا إلى الأرض بما تملك من سرعة ، واقصد البلاد التي إلى يسارنا والتي ترفع أبصارها إلى نجم أمّك^(٩٠) ، والتي يُطلق عليها سكانها اسم مدينة « صيدا » ، وسوف تلقى قطعياً من ماشية الملك يرعى حشائش الجبل على مسافة بعيدة ، فسُق هذا القطيع الملكي إلى الشاطيء » .

وما إن انتهى من حديثه حتى كانت الثيران قد أبعدت عن الجبل واتجهت كما أمر صوب الشاطيء ، حيث كانت ابنة الملك الشهير قد اعتادت أن تمرح مع رفيقاتها عذارى مدينة « صور » .

الملك والحُب لا يتواءمان ويستحيل أن يشارك أحدهما الآخر مكانه . من أجل هذا تخلى أبو الآلهة وحاكمها عن وقار صولجانه ، وهو حامل الصاعقة ذات السنة الثيران الثلاثة في يده ، وهو من يهتز الكون كله بإشارة من رأسه ، وتخفى في صورة ثور واختلط بالثيران وشاركهم خوارهم ورعى معهم فوق الحشائش الغضة ، وكان لون جلده أبيض كالثلج الذي لم تطأه قدم ولم تبلّغه نفثات ريح الجنوب الرطبة . وكان عنقه منتفخ الأوداج ، وقرناه وإن كانا صغيرين إلا أنهما جميلان يتألقان تالِق دُرّتين حتى لتجزم أنهما مع صنع فنان ، لا تلوح الرهبة على رأسه ، ولا تحرك نظرات عينيه الخوف ، بل تشيع في وجهه الوداعة . وسرعان ما أعجبت ابنة أجيونور بوسامته ووداعته ، وكانت قد توجّست خيفة في مبدأ الأمر من لمسه رغم لطفه ، ثم ما لبثت أن اقتربت منه بعد قليل ، وقطفت زهوراً بيضاء قرّبتها من شفّيته . فبعث ذلك السرور في قلب عاشقها مرتقباً ظفّره بالمتعة التي يهفو إليها ، واجترأ بتقبيل يديها حابساً في نفسه ما يطمح إليه من نيل بغيته التي يتطلّع إليها ، وأخذ يلهو فوق الخضرة ويتقلّب على الرمال الصّفر بجسده الناصع البياض ، وأنسّت به الأميرة شيئاً فشيئاً ، وأخذ يقدم لها صدره تارة لتربت عليه بيديها البرييتين ، وقرنيه تارة أخرى لتكّللها بالزهور النضرة ، وغامرت الأميرة فاعتلت ظهره دون أن تدري ظهر من تعلق . وابتعد الإله بها عن الشاطيء شيئاً فشيئاً بادئاً بوضع حوافره التي كانت بعض مظاهر تنكره على سطح المياه ثم خاض بها البحر إلى أن بلغ وسطه ، وهنا تملك الفزع الفتاة ، وأمسكت يدها اليمنى بأحد القرنين بينما وضعت يدها اليسرى على عجزه ، تاركة ثوبها للريح تعبت بها كما تشاء .

التعقيبات

- (١) في الأصل مولكيبير وهو لقب من ألقاب فولكانوس .
- (٢) تريتون بن نبتون « بوزيدون » وأمفيتريتي ، وكان إله بحر من المرتبة الثانية مثل نيريس وبيروتيس ، وكان يصور على شكل إنسان حتى خصره ، ومؤخرته ذيل سمكة مزدوج .
- (٣) بروتيس حارس كلاب البحر للإله نبتون ، وكانت له ملكة التنبؤ كما كانت له القدرة على التشكّل في أى شكل يريد بما في ذلك النار .
- (٤) أيجيون بن أورانوس وجيا ساعد جوبيتر عندما حاول نبتون وچونو ومنيرفا تقييده بالأغلال .
- (٥) دوريس هي بنت أوقيانوس وتيثيس وزوجة نيريس وأم النيريديس الخمسين .
- (٦) كانت الشمس والقمر والكواكب وبقية السماء نفسها المرصعة بالنجوم الثابتة تدور كلها وفق نظرية بيناجوراس حول الأرض يومياً من الشرق إلى الغرب ، بينما الأرض ثابتة لا تتحرك . أما فكرة تقسيم النجوم إلى إثني عشر برجاً على الطريق الذي تسلكه الشمس فترجع إلى الفلكيين البابليين .
- (٧) تيثيس بنت جايا وأورانوس وزوجة أوقيانوس وأم الأوقيانيدس الثلاثة آلاف وكذلك الثلاثة آلاف نهر .
- (٨) كانت الشمس تسير وفق نظرية بيناجوراس في اتجاه مضاد لاتجاه الكون ، بدفع دورة الكون لها .
- (٩) يهدف أوفيد من ذكر أبراج الثور والرامي والأسد والعقرب والسرطان إلى إبراز للخاطر التي سيمر بها فايثون . وكان « الرامي » يصور عادة على شكل قنطور يرمي بقوسه . لذلك سمي بالقنطور الهاميون وهو اسم من أساء نيساليا ، الوطن الأسطوري للقنطور .
- (١٠) كان الشعراء منذ هوميروس يكتفون من ترديد اسمي نجمة الصبح « لوسيفر ؛ باللاتينية و « فوسفوروس » باليونانية أى حاملة الضوء ، مع أنها ليست في الواقع سوى كوكبة واحدة هي الزهرة .
- (١١) يعنى اسم الجواد إيروس « الشرقى » باللغة اليونانية نسبة إلى مشرق الشمس . أما الجياد الثلاثة الأخرى فتحمل كلها صفات الحرارة والبريق في آن واحد .
- (١٢) ملك إثيوبيا وزوج كليمنيه أم فايثون .
- (١٣) جبل أثوس في مقدونيا .
- (١٤) جبل تاوروس في جنوب آسيا الصغرى .
- (١٥) جبل تمولوس في ليديا بآسيا الصغرى .
- (١٦) جبل أويتا في جنوب نيساليا واشتهر بموت هرقل فوقه .
- (١٧) هناك جبلان يحملان اسم إيدا أحدهما في كريت حيث ترعرع جوبيتر ، والآخر بجوار طروادة .
- (١٨) جبل هيموس في طراقيا .
- (١٩) بركان إتنا في صقلية .

- (٢٠) جبل إيريكس في صقلية .
- (٢١) جبل كيتوس في ديلوس التي ولد بها أبولو وديانا .
- (٢٢) جبل أوتريس في جنوب نيساليا .
- (٢٣) سلسلة جبال رودوي في جنوب طرايا ، وهي الآن جزء من بلغاريا .
- (٢٤) جبل ميساس في شبه جزيرة تواجيه جزيرة خيوس .
- (٢٥) جبل دينديا في فريجيا .
- (٢٦) ميكالي شبه جزيرة تواجيه جزيرة صاموس .
- (٢٧) جبل كيثايرون يفصل بين أتিকা ويويوتيا وكانت تقام فيه طقوس الأسرار الديونيسية .
- (٢٨) جبال سكيثيا بالقوقاز .
- (٢٩) جبال أوسا وبيندوس وأولييموس في نيساليا . ويضيف أوفيد إلى هذه الجبال اليونانية جبلاً إيطالية هي سلسلة جبال الألب والإبين .
- (٣٠) ثمة بناييع كثيرة في بويوتيا تحمل اسم ديوكي زوجة ليكوس ملك طيبة اليونانية .
- (٣١) لجأت أميموني إحدى بنات دانالوس إلى أرجوس في فترة قحط واقتربت من نهر تشرب منه فحاول ساتير هتك عرضها فاستنجدت بپوزيدون الذي طرد الساتير وقذف برمحه الثلاثي الشُعْب إلى صخرة ما لبثت أن تفجرت منها المياه .
- (٣٢) إيري هو الاسم القديم لكورنثه حيث يوجد ينبوعان يحملان اسم بيريفي ، ويروى أن أحدهما نبع من ضربة حافر الجواد ييجاسوس المجنح .
- (٣٣) نهر تانليس هو نهر الدون الحالي في روسيا .
- (٣٤) نهر بينيوس في نيساليا .
- (٣٥) نهر كايكوس في آسيا الصغرى .
- (٣٦) نهر إسمينوس في بويوتيا بالقرب من طيبة .
- (٣٧) نهر زانتوس هو النهر الطرواى الذي ذكر هوميروس في الإلياذة أنه كان يهدد أخيل بالموت .
- (٣٨) نهر ليكورمارس في غرب اليونان .
- (٣٩) نهر مياندر في كاريا بآسيا الصغرى .
- (٤٠) نهر ثمودون بمملكة پونتوس الواقعة في آسيا الصغرى والتي تغل على البحر الأسود .
- (٤١) نهر فازيس في كوخيس على الشاطئ الشرقي من البحر الأسود حيث الكرج الآن .
- (٤٢) نهر هيستر هو نهر الدانوب .
- (٤٣) نهر ألفيوس أهم نهر في المورة .
- (٤٤) نهر سبيرخيوس في أواسط اليونان .
- (٤٥) نهر مايوتيا في ليديا بآسيا الصغرى .
- (٤٦) نهر كايستر في ليديا المشهور ببيجعه .
- (٤٧) نهر الهير هو نهر ماريستا في طرايا .
- (٤٨) نهر سترميون هو نهر ستروما في طرايا .
- (٤٩) جبل ليزماروس على الشاطئ الجنوبي لطرايا .
- (٥٠) تطلق كلمة هيسپريا على أوروبا الغربية ، من إيطاليا حتى شبه الجزيرة الأيبيرية .
- (٥١) هي جزر السيكلاذ .
- (٥٢) أطلس بن المرعة التيتان وكان قد أسر في حزمهم ضد زيوس فأمره الأخير بأن يجعل السماء فوق كتفيه إلى الأبد .
- (٥٣) نهر ليريدانوس هو نهر الرود في رأى البعض ، ونهر الهو في رأى البعض الآخر . ويقصد أوفيد هنا نهر الهو .
- (٥٤) اتخذ أوربيديس من أسطورة فايثون مأساة لم تنته إلينا إذ فقدت .

(٥٥) كان الكهرمان عند أرسطو وپلينيوس عصارة تسيل من بعض الأشجار مثل شجر الحور . ويرى غيرهما أنه بول متجمد لحيوان الوشق من فصيلة السنائير ، بينما يميل أوفيد إلى الرأي الأول كما يبدو من النص . وما يلفت النظر أن الكهرمان في روما كان بمنزلة الأحجار الكريمة .

(٥٦) كانت شعوب ليجوريا تغتن الشاطيء الشمالى الغربى من إيطاليا .

(٥٧) ليريدانوس نهر أسطورى اقترن أحياناً بنهر الهو وأحياناً أخرى بنهر الرون .

(٥٨) كان لچويتير معبد شهير فوق جبل ليكاوس في أركاديا .

(٥٩) ربة مفترقات الطرق المسماة تريفيآ هي في واقع الأمر هيكتان أخت ليتو ، وكانت إحدى الإلمات المتصلة بالقمع ، الأمر الذى أدى إلى الخلط بينها وبين ديانا التى كانت بدورها يخلط بينها وبين فوبييه ، والراجع أن أوفيد يقصد ديانا في هذا النص . أما جبل ماينالوس فهو جبل مقدس في أركاديا للإله بان إله الطبيعة .

(٦٠) ديكتينا لقب من ألقاب الإلهة الكرنتية بريثوماريس التى كثيراً ما كان الإغريق يخلطون بينها وبين أرميس « ديانا » .

(٦١) كاليستو هي ابنة ليكاوون الذى سبق أن عرفنا تحولته إلى ذئب في الكتاب الأول . وكانت الطقوس تقام له فوق جبل ليكاوس إلى جوار طقوس بان حتى حلت محلها عبادة چويتير وحده .

(٦٢) ليريمانوس سلسلة من الجبال في أركاديا اشتهرت قديماً بقتل هرقل للمخزير البرى فوقها . وأصبح اسم هذه الجبال يطلق فيها بعد عل كاليستو بعد أن تحولت إلى دبة ثم إلى ثريا في السماء .

(٦٣) هما الذهب الأكبر وحارسه الذهب الأصغر ويطلق عليها « السهاكان » .

(٦٤) إشارة إلى القصة المشهورة التى تمزق إلى الأوز الذى كان يرئيه جند قلعة الكايتيرلينوس الفضل في إيقاف الجند وتسيبهم بصياحهم عندما اقترب الأعداء البرابرة من القلعة .

(٦٥) كلمة يونانية عتيقة معناها الشاطيء أطلقت على أتیکا ، وهذا هو ما يعنيه أوفيد .

(٦٦) كيكرويس هو البطل الأسطورى لمدينة أثينا فهوابن إله الأرض ، ولذا يمثل على شكل حيوان نصفه إنسان ونصفه الآخر أفعى .

(٦٧) أى البومة طائر منيرفا المقدس .

(٦٨) هي بنت نكتيوس ملك جزيرة لسبوس ، واضطرت إلى الخضوع لشهوة أبيها الشاذة وقد حولتها الإلهة أثينا [منيرفا] إلى بومة رفقا بها وجعلتها تراقفها دائماً . وما يلفت النظر أن خطبة الغداف قد استوحاها أوفيد من خطبة مماثلة عزها الشاعر كاليهاوس إلى نفس الطير في قصيدته الطويلة « هيكاليه » التى نسب فيها الشاعر خطباً للطيور .

(٦٩) هذا الابن هو إسكليبيوس الذى سيروى أوفيد قصة رحيله من لينداوروس إلى روما في الكتاب الخامس عشر .

(٧٠) القنطور خيرون هو ابن كرونوس وڤيليرا بنت أوقيانوس . واشتهر بأنه تعهد أخيل وإسكليبيوس بالرعاية والرعاية ، وكان للقنطور وجه إنسان وصدرة فوق جسد حصان .

(٧١) معنى أوكيرويه باليونانية التيار الجارف .

(٧٢) خاريكلو هي بنت أبوللو .

(٧٣) كان مقدراً لإسكليبيوس أن يرد الحياة لهيبوليتوس [انظر الكتاب الخامس عشر] .

(٧٤) كان خيرون خالداً بطبعته غير أن هرقل قذفه بسهم مغموس في دم الهيدرا فأصابه بالأم مبرحة جعلته يناشد الألهة تجريده من الخلود ليستربح من عذابه فاستجابت الألهة له وحولته إلى كوكبة في السماء .

(٧٥) هومييه أى المهرة .

(٧٦) ليليس إقليم في غرب المورة يشمل مدينة أوليمبيا المقدسة حيث كانت تقام الألعاب الأولمبية .

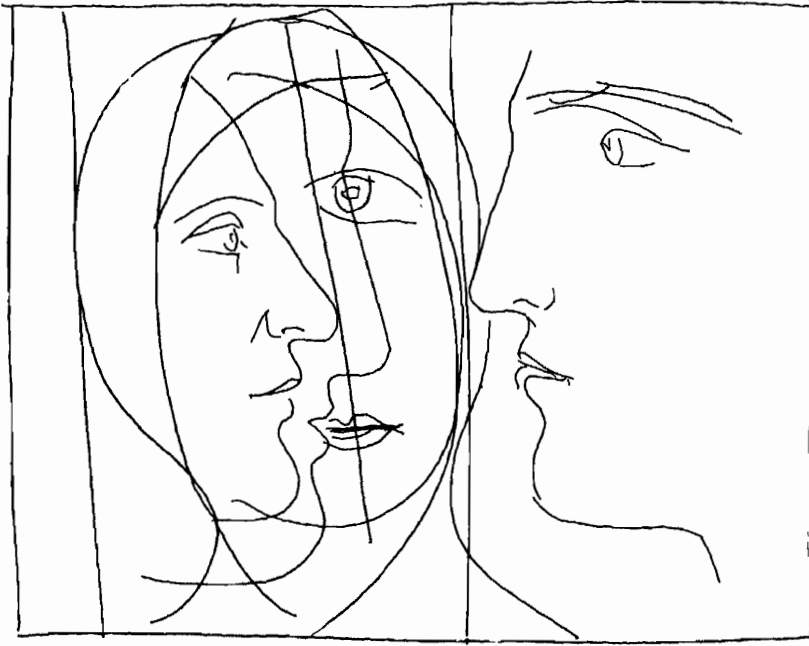
(٧٧) مسينا مقاطعة بشه جزيرة المورة .

(٧٨) پيلوس مدينة بشبه جزيرة المورة .

(٧٩) صخرة قائمة بجوار پيلوس . وقد ظن بعض الشارحين أن الإشارة هنا إلى حجر الفلاسفة الذى يدل على وجود الذهب .

(٨٠) أحد الموانئ الثلاثة لمدينة أثينا بجوار خليج فاليرون .

- (٨١) ممشى قرب أثينا على ضفاف نهر إليسوس كان أرسطو يلقي فيه دروسه الفلسفية ، وهو أصل كلمة « ليسيه » الفرنسية التي تعنى مدرسة .
- (٨٢) معناها أرض الشواطئ وهو اسم قديم لاتيكا .
- (٨٣) كان من صفات هذا الصولجان الشهير أنه يلقي النعاس في الناس ويثير الأحلام وفق مشيئة ميركوروس .
- (٨٤) كان الذئب المتخذ من درق السلحفاة مادة أساسية في الزخارف والترصيع وقتذاك .
- (٨٥) كانت أجلاوروس بنت كيكروبس ملك أثينا . ويقال إن منيرفا كانت ترعى إريخثونوس بن فولكانوس وأخفته في خزانة سلمتها إلى باندروسوس وأمرتها ألا تتطلع إلى ما تحويه فأطاعت باندروسوس ، غير أن شقيقتها أجلاوروس وهيرسي فتحتا الخزانة ، ولاحظتا الطفل بالخزانة تلتف من حوله الأفاعى أصببتا بالجنون ، وألقتا بنفسيهما من فوق الأكوپول .
- (٨٦) كان فولكانوس من أهل ليمنوس في الأصل .
- (٨٧) خشية أن يمسخها الضرر .
- (٨٨) تريتونيا لقب كثيراً ما يطلق على منيرفا . ويرى البعض أن التريتون جدول صغير في بويوتيا ترعرعت على ضفتيه الإلهة في صباها . ويرى البعض الآخر أنه اسم بحيرة في ليبيا .
- (٨٩) هو لون ذراعى ربة الحسد رمز كل ما هو شرير .
- (٩٠) كان ميركوروس هو ابن مايا بنت أطلس ، وتشكل أمه مع أخواتها كوكبة في السماء ، وعلينا أن نفترض أن جوبيتر يستطع أن يرى وهو يتطلع نحو الغرب مدن فينيقيا على يساره بالشرق .



بيكاسو

الكتاب الثالث كادموس

بين بساتين كريت جلس چويتير يستريح وقد تحلّى عن صورة الثور التي تنكّر فيها ليخدع الأميرة وظهر لها في صورته الحقّة . ولم يكن الملك أجينور قد عرف شيئاً عما حدث لابنته ، فعهد إلى ابنه كادموس بالبحث عن أخته المفقودة متوعداً إياه بالنفى إن عاد دونها . وبهذا كشف عن أنه إلى جانب كونه أبا يفيض قلبه حناناً كان أيضاً أبا قاسياً لا يرحم .

وراح كادموس يضرب في أرجاء العالم ، ولكن أنّ له أن يعرف ما يُخفي چويتير؟ ومضى بعيداً عن بلاده خوفاً من بطش أبيه ، ثم حجّ إلى معبد الهاتف الإلهي لأبوللو يضرع إليه أن يرشده إلى المكان الذي عليه أن يستقر فيه ، وأوحى إليه فويوس قائلاً : عليك بالمراعى النائية فسوف تقع عينك على بقرة لم يُشدّ

إلى عنقها نير ولم تضق بجرّ محرث معقوف ، فامض في إثرها واتبعها حيث تسير ، وحيثما تقف شديد أسوار
مدبنتك وسمها بويوتيا^(١)

وما كاد كادموس يتعد عن غار كاستاليا^(٢) حتى أبصر بقرة تتهادى بلا حارس وليس على عنقها أثر
لنير ، فقتبعها ومضى في أثرها بخطى متصلة وهو يتمتم بحمد فويوس الذي هداه إلى الطريق . وبعد أن
٢٠ عبر مخاضة سيفيسوس وحقول بانويي ، توقفت البقرة ورفعت نحو السماء جبينها الجميل المزدان بقرنين
طويلين وأرسلت خواراً تردّد صدها في الجو ، ثم تلفتت وراءها ترى من يتبعها وخرت على ركبتيها
واستلقت على العشب الناعم ، فاتجه كادموس إلى الآلهة شاكراً وقبل أرض الغربة ، وحيّاً الحقول والجبال
التي لم يكن له عهد بها من قبل وتأهب ليقدّم قرباناً لجويتر ، وأمر أتباعه بالذهاب إلى ينبوع دافق ليغترفوا
منه ماء يسكبه قرباناً للأرباب .

كانت ثمة غابة قديمة لم تمسسها بلطة ، يتوسطها غار تكسوه صفصافة كثيفة ، وتشكّل جدرانها
الصخرية قبوا منخفضاً يتدقّق من تحته ينبوع ثرّ . وكان بالغار أفعوان مارس الداكن الزرقة ، يعلو رأسه
عُرف ذهبي ، وتتوهج عيناه ناراً ، ويزخر جسده بالسّم الزعاف ، وفي فمه ثلاثة صفوف من الأسنان
ولسان ذو شعب ثلاث .

ودلف الرخالة القادمون من بلدة صور إلى الغار المشعوم ، وأخذوا يغترفون الماء بجرارهم ، فأزعجوا
٤٠ الثعبان الذي نفخ رأسه من غور الغار ، وفتح فحيحاً مخيفاً جعل الدم يجمد في أطراف الرجال فسقطت
الجرار من أيديهم المرتجفة من هول الفزع ، وأخذ الثعبان يزحف إليهم تتضام حي زحفه حلقات جسده
الحرشفي ثم تنفرج على هيئة الأقواس وكأنها أطواء الموج ، وانتصب قائماً على ذنبه فإذا هو قد أظّل على
الغابة كلها ، إذ كان جسده بطول كوكبة الثعبان الممتدة بين كوكبتَي الدين الأكبر والأصغر . وأسرع فهاجم
الفينيقيين الذين كانوا قد اختلط الأمر عليهم فلم يعرفوا بأيّتها يأخذون ، أيسدّدون حراهم أم يهربون ؟
وانطوى الثعبان على نفسه ثم قفز فصرعهم وتركهم بين ممزّق بأنياه أو معتصر بتلافيفه أو محترق بأنفاسه
المسمومة .

وحين توسّطت الشمس كبد السماء وقاربت ظلال الأشياء الزوال أخذ ابن أجينور يتساءل قللاً عما
أبحر رفاقه ، وراح يبحث عنهم مرتدياً جلد أسد حاملاً رمحه وحرته المتألقة النصل متقدماً في شجاعة لا
يعوزها سلاح . فلما دخل الغابة لمح جثث أتباعه والعدو الرهيب يشمخ مزهواً بانتصاره عليهم تنسكب من
لسانه قطرات الدم وهو يلحق جراحهم ، فصاح كادموس : « لا نتضمّن لموتكم أيها الأصدقاء الأوفياء أو
لألحقنّ بكم » . ومال على صخرة هائلة وطوّح بيمناه في قوة لو أنه ضرب بها سور حصن شامخ لزعزعت
٦٠ أركانها ، ولكنها لم تصب الثعبان القوى الجسد السميك الجلد بأذى ، إذ كانت حراشفه بمثابة الدرع
الواقى ، وارتد الحجر بعيداً بعد أن دفع به جلده الأسود ، فسدّد إليه رمحه فإذا هو يحترق الجلد وينفذ إلى
الأحشاء عند منتصف الظهر ، واستدار الثعبان وهو يثنّ ألماً ، ثم إذا هو بعد جهد جهيد يقوى على

استخراج فصل الرمح غير أنه لم يقو على استخراج التصل المستقر في عظمه ، وانتفتحت عروق الثعبان بالسم الذى طفق على فكّيه بزبدته الأبيض ، وأخذ يحك الأرض بحراشيفه وينفت في الجو أنفاسه التي تبدو ٨٠ وكأنها النهر في تدفقها ، ثم يخلق حلقات تبدل وتتشكّل ، فيبدو كالشجرة المنتصبة حيناً أو كالنهر المتدفق في جريانه ثمّة الأمطار حيناً آخر ، ويطيح صدره بالأشجار التي تعترض طريقه . وتراجع كادموس قليلاً إلى الوراء متلافياً هجّات الثعبان محتما بجلد الأسد الذى يرتديه شاهراً في وجه الثعبان حربته التي كان الثعبان يعضها عضات لا تنفذ فيها ، وما لبث الدم أن أخذ يسيل من فمه مختلطاً بالسم ملوّثاً الحشائش الخضراء . وأثنى الجرح الثعبان وتراجع حتى لا تنفذ الحربة إلى أعماق حلقة ، ولكن كادموس ظل يلاحقه يريد أن يلغمه حربته حتى اصطدم الثعبان بجذع شجرة بلوط عاقت فراره ، وأنفذ كادموس الحربة في حلقة فأثبت رأس الثعبان في جذع الشجرة التي انثنت تحت ثقله وصدر عنها صوت كالآنين تحت ضربات الثعبان لها بذيله التي كانت تشبه ضربات السياط^(٣) .

وبينما راح كادموس يرنو إلى خصمه الضخم المهزوم إذا هو يسمع صوتاً لا يعرف مصدره يقول له : مالك تمحلّق في الثعبان الذى أردتّه ، لسوف يأتي يوم يتطلّع إليك الناس فيه أيضاً وقد استحلّت ثعباناً^(٤) . وعندنا سرى الفزع في جسده وهرب الدم من وجهه وفقد وعيه وارتعدت أطرافه . وما لبثت ١٠٠ بالاس راعية كادموس أن ظهرت ، وطلبت إليه أن يحرق الأرض ويدفن بها أنياب الثعبان لتغذو بذور شعبه الجديد . وأطاع كادموس أمرها وشقّ بمحراثه أخاديد عميقة بذر فيها أنياب الثعبان . وحدث ما لم يكن في الحسبان ، إذ أخذ سطح الأرض يضطرب ، وبرزت البذور في شكل رموس رماح تعلق وسط الأخاديد ، وظهرت خوذات يهتز من فوقها الريش المختلف الألوان ، وتبعثها الأكتاف والصدور والأذرع حاملة الحراب ، وامتلأ الحقل بنبت من الجنود المسلحين بتروسهم . وفزع كادموس حين رأى هذا العدد المهول من الأعداء الجدد وشهر سلاحه مستعداً للنضال ، فصاح به أحد المحاريرين اللذين أنبتهم الأرض قائلاً : « لا تشهر سلاحك ، ولا تقحم نفسك في هذا الصراع القبلي » ، وسرعان ما أعمد هذا المتحدث ١٢٠ سيفه في جسد واحد من أخواته النابتين معه وكان قريباً منه ، وما لبث أن سقط هو الآخر صريع رمح سُدّد إليه من بعيد ، ولم يعيش قاتله طويلاً إذ أسلم بدوره الروح التي لم يكن قد مضى على نبضها في جسده لحظات ، وظل الجيش يصرع بعضه بعضاً حتى أفنى الصراع جميع الأخوة الذين لم يطل عمرهم أكثر من لحظات قصار ، ولم يبق منهم سوى خمسة أفراد ، بينما ظلت جثث الموتى تتلوى فوق صدر الأرض أمهم التي أدفأها دماؤهم الساخنة . وكانت بالاس قد طلبت إلى أحد الخمسة الباقين وهو « إخيون »^(٥) أن يضع سلاحه فاستجاب لها ووعدها ألا يقاتل وطلب إلى إخوته الأربعة أن يفعلوا فعله . وفي صبحه هؤلاء الرفاق الخمسة الباقين بدأ كادموس الوافد من فينيقيا يشيّد مدينته التي أوصاه الوحي بمعبد فويوس ببنائها^(٦) .

وشيّدت مدينة « طيبة » ، وفيها بدا لكادموس أنه قد ظفر بالسعادة في منفاه ، فقد بنى بالنبيلة هارمونيا ابنة الإله مارس والإلهة فينوس ، ورزق منها بأبناء وبنات ، أنجبوا له أحفاداً أعزّاء أقاموا تقاليد الأسرة وأرسوا روابط التأخي بين أفرادها ، وعاش حتى رأى أحفاده وقد شبّوا عن الطوق وصاروا رجالاً .

ولكن على المرء أن يتلَبَّث حتى آخر يوم من حياة الإنسان ولا يحكم عليه سعادة أو شقاء ، إلا بعد أن يموت ويوارى التراب .

أكتايون

١٤٠ كان أحد أحفادك يا كادموس هو مبعث أول حزن عانيت منه وسط السعادة التي رفلت في حُلْمها ، فقد نبت له قرنان في جبهته على غير مالوف الصورة البشرية ، وأنتم أيها الكلاب كنتم مصدر تعاسته حين ولغتم في دم سيدكم . ولو أنا أنعمنا النظر فيما حدث لوجدنا أنه قد ذهب ضحية القضاء والقدر ، وأنه لم يذهب جزاء جريمة اقترفها ، وهل ثمة خطأ اقترفه حين ضلَّ طريقه فتكون ثمة جريمة ؟

وقع ذلك الحادث فوق جبلٍ تمخَّضَ سفحه بدماء الحيوانات المفترسة المتنوعة ، وفي ساعة كانت ظلال الأشياء فيها قد انحسرت وتوسَّطت الشمس مدارها بين مشرقها ومغربها ، حين صاح أكتايون ابن شعب هياس^(٧) برفاقه الهائمين على وجوههم في الأدغال في رفق ولين « أيها الأصدقاء ، لقد لوَّثت دماء الوحوش التي اقتنصناها اليوم شباننا ولطَّخت سيوفنا ، وأصبنا من النجاح ما يكفيننا ، ولسوف نواصل قنصنا غدا حين تعلى أورورا ربَّة الفجر مركبتها الذهبية العجلات وتطالعا بيوم جديد . فلنكفَّ عن الصيد الآن ولنجمع شباننا الموثقة العَقْد ، فقد توسَّطت الشمس كبذ الساء وأخذت حرارتها تشقُّق أرض الحقول » ، ورحَّب صحابه بقوله فلم يُتابعوا الصيد المُضنى .

١٦٠ وكان ثمة واد تتزاحم فيه أشجار الصنوبر والسرُّو المدبَّبة ، وكانت ديانا إلهة الصيد ذات الرداء القصير تلجأ إلى هذا المأوى المسمى جارجافيه ، إذ كان بأعماقه غار لم تتناوله يدُ فنان بشري غير أن الطبيعة قد خلَّفت فيه ما يشبه الأعمال الفنية ، إذ نحتت قبوة طبيعية من حجر الخفاف البركاني وحجر التوفة المسامي . وكان إلى يمين الداخل ينبوع مياه صافية تنتشر على صورة غدير فسيح تحتضنه شواطئ سندسية . وما أكثر ما كانت الإلهة تفد إليه كلما نالها الإرهاق بعد جولة صيد في الغابات فتستحم فيه أو تنلِّي أطرافها العذرية في مائه النقي .

١٨٠ أوت الإلهة إلى الغار وأسلمت رمحها وقوسها وجعبة سهامها للحورية المكفَّفة بحمل سلاحها . وحملت حورية ثانية رداءها على فراعها ، بينما خلعت اثنتان أخريان نعلها ، وتقدَّمت وصيفة أشدَّ مهارة هي كروكالي ابنة نهر إيزمينوس فضمَّت ضفيري الإلهة المتدلَّيتين على كتفيها وعقدتها معاً خلف رأسها وتركت هي شعرها ينسدل مُرسلاً ، وانطلقت الحوريات نيفلى وهيال ورائيس وپسيكاس وفيالى يجلبن الماء في جرار كبيرة ويصبيَّنه على سيدتهن^(٨) .

وبينما كانت ديانا تستحم على عادتها في الغدير كان حفيد كادموس قد ترك الصيد وأخذ يخطو متردداً خلال هذه الغابة التي لم تسبق له رؤيتها حتى بلغ الغار ، وقاده القدر إلى مدخله فنفذ منه ، ولم يكد يصيبه

رذاذ الماء المتطاير ويشهد الأجساد العارية حتى ضربت الحوريات على صدورهن وملأن الغار بصراخهن ،
وتحلقن حول ديانا ليحمينها بأجسادهن غير أن طولها جعلها تبرز فوقهن جميعاً برأسها وعنقها . وحين تبينت
ديانا أن عين رجل غريب وقعت عليها وهى عارية اكتست وجتأها بحمرة السُحب التى تنعكس عليها
أشعة الشمس الساقطة عليها أو بحمرة الفجر ساعة يصطبغ بالأرجوان . ومع أن رفيقاتها المحيطات بها كن
يسترنها إلا أنها انزوت جانباً وأشاحت بوجهها ، وتمت لحظتها لو كانت ممسكة بسهامها ، فأخذت قليلاً
من الماء الذى تستحم به ونثرته فى وجه الشاب فعم شعره ، ومضت تتمتم منذرة إياه بمصير المشوم قائلة :
« رُح الآن وارو إن استطعت أنك شاهدتنى وأنا عارية بلا ثياب ؟ » ولم تضيف إلى قولها شيئاً آخر ، فنبت
٢٠٠ قرنا وغل معمر في جبهته التى ابتلت بالماء ، وطالت رقبته ودقت أطراف أذنيه ، وتمولت يدها قدمين
وذاعها إلى ساقين طويلين ، واكتسى جسده بجلد أرقش وحل في قلبه الرعب . وحين رأى الماء يعكس
صورة وجهه بقرنيه هم أن يأسى ، غير أن شفثيه لم تتحركا بكلمة فجعل يئن ، وكانت هذه هى لغته
الوحيدة التى بقيت له . وانهمرت الدموع من عينيه مبللة وجثتيه المسوختين ، وأخذ يفكر بعقله وكان هو
كل ما بقى له . ماذا تراه فاعلاً ؟ أيعود إلى القصر الملكى أم يجتئى في الغابات ؟ وبينما هو متردد فيها يفعل
خجلاً من العودة إلى القصر وخوفاً من البقاء في الغابات إذا كلبها ميلامبوس وإخنوباتيس المفردان بقوة
شمهما يحيطانه بناحهما ، وأولهما من سلالة اسبرطية وثانيتها من سلالة كريتية ، وجرت في إثرهما في سرعة
الرياح العاصفة سلالات مختلفة من الكلاب ، منها سلالة پامفاجوس ودوركيوس وأوريباسوس الأركادية ،
ومنها نيبروفونوس القوى وثيرون التوحش ولايلاس الشرس وبتراس السريع العدو ، وأجرى القوي
الشم ، وهيلابوس الذى أصابه خنزير برى بجرح ، ونابى الذهبى السلالة ، وبويمينيس حارسه القطعان
وكذا الكلبة هاريا وجرواها الصغيران ، ولادون الهزيل الوافد من سيكيون ودروماس وكاناسيه وستيكتي
وتيجريس والكى ، وليوكون الناصع البياض وأسبولوس الحالك السواد ، ولاكون الخارق القوة وأيلو
الذى لا يمل العدو ، وثويس وليكيكسى السريعة العدو وشقيقها القبرصى هاربالوس ذو العرة البيضاء ،
وميلانيوس ولاخنى الكثيفة الشعر ، ولبروس وأجريدوس وهما كلبان من سلالة مهجنة من أم كريتية وأب
٢٢٠ اسبرطى ، وهيلاكثور العالى النباح وكلاب أخرى يطول ذكر أسانها^(٩) ، وامتلات الكلاب حماسة لوقوعها
على فريسة ، فخاضت الرى والصخور التى لم يصل إليها أحد من قبل والثى يشق بلوغها . وأسرع أكتايون
هارباً من الكلاب التى تطارده مندفعاً فى الأماكن عينها التى كان يتعقب فيها صيده . ألا ما أتعسه . . . لقد
أصبح يئب من كلابه هو ، وتمنى لو ملك أن يصبح فيها : « أنا أكتايون ، ألا تعرفوننى ؟ » غير أن الكلام
لم يُسمع . امتلأ الجو بناحاً وأدركت ميلانختيس سيدها وكانت أول من عملت أسنانها في ظهره ، ثم
تبعها ثيريداماس ، وأنشب أوريزيتروفوس أسنانه في كتف سيده . ومع أن الكلاب الثلاثة كانت قد
خرجت متخلفة عن رفاقها لكنها سبقتها لولوجها طريقاً قصيراً ، وطرحت سيدها أرضاً بينما تجمعت بقية
الكلاب حوله وهصرت بأسنانها جسده فلم يتركوه إلا عمزقاً . وأخذ أكتايون ينتحب بصوت لا هو صوت
بشر ولا هو صوت وعل وقد ملأ نحييه الجبال ، وجثا على ركبتيه كما لو كان يركع متوسلاً ، ومضى يجئ
٢٤٠ رأسه يئمة ونيرة في صمت ضارع عاجزاً عن بسط ذراعيه ، بينما أخذ رفاقه الذين كانوا معه يصيحون في

الكلاب يستحثونها على الفتك بفرستهم جاهلين حقيقتها ، يصيحون باسمه باحثين عنه وهم لا يدرون أنه وسطهم ، وكل واحد منهم ينافس زملاءه في الصباح ، وغمرهم الحزن لأن قائدهم لم يشهد فريستهم التي أوقعتها الحظ بين أيديهم ! وكان أكتايون يدير رأسه كلها سمع اسمه متمنياً لو أن ذلك لم يقع له ، وأنه لم يكن فريسة أنياب كلابه النهمة ، بل وكم تمنى لو كان كغيره من المستمعين بذلك المشهد ، وقيل إن الكلاب ظلت محيطة به تنهشه بأنيابها حتى خمدت حياته فسكن غضب الربّة ديانا حاملة جعبة السهام^(١٠) .

سيميليه

وحيث بلغت القصة أسباع الناس اختلفوا بين ممدح طهارة ديانا وحفاظها على عفتها وبين أخذ عليها قسوة عقابها ، وكان لكل فريق من المتحاجين ما يسانده . وقد لزمت زوجة چوييت وحدها الصمت وأمسكت عن المدح أو القدح ، غير أنها كانت في أعماقها سعيدة بهذه الكارثة التي حلت بال أجينور ، ذلك أنها كانت تطوى صدرها على حقد دفين لأسرة أوروبا منافستها الفينيقية من مدينة « صور » .

ثم ها هي چونو تلقى حدثاً جديداً يضيف مزيداً إلى غضبها القديم ، فقد ثارت ثائرتها حين علمت أن سيميليه ابنة كادموس قد حملت ببذرة چوييت العظيم ، فأخذت تحدّث نفسها قائلة بلسان يتشوّف للنيل من الغير : « أية فائدة جنيتها من تأنيب زوجي المرّة تلو المرّة ؟ إن عليّ أن أنزل عقابي هذه المرة بالفتاة نفسها ، أو لست أنا چونو الشديدة البأس كما أعرف بحق ، أنا الجديرة بحمل الصولجان المرصع بالجواهر ؟ أو لست ملكة السموات وأخت چوييت وزوجته ؟ بلى إنني في الحق أخته ، ولكن لعل البعض يلتمسون العذر لغريمي بأنها قد قنعت بلقاءات حب في الخفاء ، وأنها لم تعتد على حرمة فراشي إلا في نزوة عابرة . ولكن هل كان ينقصنا هذا العار الجديد ؟ إنها تحمل في أحشائها دليل جرمها ، إنها تطمع في أن تصبح أما بفعل چوييت نفسه ، وهو ما عجزت أنا عن الظفر به . ألا ما أشد ثقتها بجهاها ! ولعمري لأثبتن لها ضلال ثقتها ، ولن أكون جديرة بأن أسمى ابنة ساتورن إن لم أجعلها تغموص في مياه نهر ستيكس مدفوعة بيد چوييت نفسه » . ثم نهضت عن عرشها وتلفعت بسحابة ذهبية واقتربت من عتبة دار سيميليه ، ولم ترفع عنها السحابة حتى كانت قد تحفّت في صورة عجوز يظهر الشعر الأبيض في فوديا وتغلا التجاعيد بشرتها وقد احدودب ظهرها واهترت خطاها وارتعش صوتها من أثر الشيخوخة ، وبدت في صورة شديدة الشبه بصورة بيروى الإبيداورية مزرعة سيميليه .

وانخرطت في حديث طويل مع سيميليه عرجت في نهايته على چوييت ، وزفرت زفرة عميقة وهي تقول : « لكمّ أتمنى أن يكون چوييت حقاً هو الذي منحك هذا الجنين فإن شكاً كبيراً يؤرّفني ، فكم من رجل تسأل إلى فراش فتاة بريئة متحلاً لنفسه شخصية الإله ، وأياً يكن فإن ادعاه بأنه چوييت لا يكفي

ولابد أن يقدم الدليل على حبه ، فاطلبى إليه أن يظهر لك في صورته مجللاً بهالة عظمته ومجده التى يظهر بها
لجوناو فى السماء ، ودعيه يضمك إلى صدره بعد أن يتلفع بمبائة الألوهية .



پىكاسو: جوبير وسيميليه

ونجحت چونو بحديثها في أن تستثير ابنة كادموس التي لم تشك في صدقها . وسألت الفتاة چوييترا أن يعدها بتحقيق طلب لم تكشف عنه ، فوعدها الإله قائلاً : « سلى فلن أرّد لك طلباً حتى أثبت لك أن بوسعك الثقة بي ، وإنني أشهد على ذلك أرباب نهر ستيكس الجارف الذي تهابه الآلهة أنفسهم » . وامتلاً صدر سيميليه بالفرحة لظفرها بوعده لا تدرى أن تحقيقه سيحمل لها الهلاك وقالت : « فلتظهر لي كما تظهر لچونو ساعة تطارحها الغرام » ، وحاول الإله إمساك شفيتها عن الكلام ، غير أن عبارتها العجلة كانت قد طفرت من فمها وانتثرت في الهواء ، فاشفق عليها چوييترا بعد فوات الأوان الذي كان يستطيع فيه ردها عن طلبها فلا يحقّ لها ما وعدّها ، وصعد في أجواء الفضاء مُثَقلاً بالحزن العميق ، وأوماً للضباب فتجمعت عليه السحب والبروق والرياح والرعود والصاعقة التي لا يفلت منها أحد ، على أنه حرص على حمل أقل قدر ممكن من قواه وتخفّف من حمل النيران التي أهلكت تيفويوس ذا المائة يد^(١١) ، مستبدلاً بها صاعقة أقل ضراوة من تلك الصواعق التي لا تبقى ولا تذر ، فقد كانت في حوزته صاعقة استطاعت أيدى الكيكلوبيس أن تدخل في تكوينها قدرأ أدنى من غضب الآلهة وقسوتهم ، وجعلها الآلهة من صواعق المرتبة الثانية . ودخل چوييترا بهذه الصاعقة إلى دار أسرة أجيثور ، غير أن جسد سيميليه البشري لم يقو على تحمل الإشعاعات التي تنبعث من صاعقة الإله فاحترقت وأصبحت رمداً بفعل هدية زفافها ، وأسرع الإله فانتزع الجنين الذي لم يكن قد اكتمل نموه وأخرجه من بطن أمه . وإذا كان لنا أن نصدّق ما يتناقله الرواة فإن أباه قد وضعه على فخذه وهو ما يزال مُضَغّة ثم خاطه فيها حيث بقي شهور الحمل ، ثم حضنته خالته إينو^(١٢) حتى عهدت به إلى حوريات نيسا^(١٣) اللاتي خبّأنه في غارهن وأخذن يغيّنه باللبن .

٣١٠

تيريزياس

وبينما كانت هذه الأحداث تدور على الأرض لوفّق نواميس القدر ، وبعد أن بات مهد باكخوس [ديونيسوس] بن سيميليه - المولود مرتين - في حراسة أمينة ، ثمل چوييترا بعد رشقات نكتاره الإلهي فحاد عن الجّد وبدأ يمزح مع چونو ساعة استرخاها ، وقال لها : « إنكن معشر النساء لتجدُن في لحظة الوصال نشوة تفوق تلك التي يجدها الرجال » . غير أن چونو لم تشاطره رأيه فاتفقا معاً على أن يجتكما إلى تيريزياس الحكيم ويسلما برأيه ، ذلك أنه عرف لذات الحب تارة وهو ذكر وتارة وهو أنثى . فقد كان يجول يوماً في غابة خضراء ورأى ثعباناً هائلاً يواقع أفعى رهيبه ففرق بينهما بضربة من عصاه . وفجأة ويا للعجب ، وجد نفسه قد تحوّل من رجل إلى امرأة ، وبقي سبعة أعوام وهو أنثى ، حتى كان العام الثامن وإذا هو يشهد نفس الثعبانين في نفس الوضعة التي كانا فيها قبل فحذّثها قائلاً : « لو أن هناك سحراً فعلاً قوياً يجعل من يضرّبكما من جنسه إلى الجنس الآخر فإنني مبادر بضرّبكما من جديد » ، وقام بضرّب الثعبانين مرة أخرى ، وما لبث أن استردّ رجولته الأولى وعادت إليه طبيعته التي وُلد بها . وذلك ما

٣٢٠

جعل جونو وجويتر يحتكان إلى تيريزياس بعد مجادلتهما المازحة . وقد أيدُ تيريزياس رأى جويتر ، فغضبت ابنة ساتورن غضباً فوق كل خلاف وقضت على تيريزياس بأن ينسدل جفناه على ليل سرمدي . ولما لم يكن في استطاعة إله إبطال عمل إله آخر فقد عوّض جويتر تيريزياس عن فقدته نور عينيه بمنحه قدرة التكهن بالمستقبل ، مخففاً بمنته تلك عنه ما أصابه من جونو من نقمة .

نارسيوس وإكو

وكانت إجابات تيريزياس على تساؤلات الناس دقيقة مسلّمة من الأخطاء فأشاع ذلك شهرته في مدن ٣٤٠
بويوتيا جميعاً . وكانت ليريوبي حورية النهر اللازوردية الشعر النادرة الجمال أول اختبار لصدق وحيه ، وكانت هي الحورية التي احتضنها ربّ النهر كيفيسوس وسط مجره الملتوى واغتنبها وهي سجنية بين أمواجه فانجبت طفلاً دعته نارسيوس ما لبث أن نال إعجاب الحوريات وحبّهن . وحين قصدت تيريزياس تسأله هل تطول حياة ابنها إلى أن يهرم أجابها العراف العليم بالغيوب : « نعم إذا فطن إلى حقيقة أمره » (١٤) .

وقد ظل هذا القول فترة طويلة وكأنه لا يحمل معنى حتى كشفت عن مغزاه الأحداث والوقائع التي تمثّلت في الهذيان الغريب الذي أمّ نارسيوس وفي طبيعة الميتة التي لقيها . ذلك أن ابن كيفيسوس لم يكد يبلغ السادسة عشرة من عمره حتى جمع بين الطراوة والرجولة معاً ، وأخذ يحرك الرغبة في صدور الفتيات والفتيات معاً ، غير أن نعومة جسده اللدن كانت تخفي صلفاً عنيداً لم يتح لأحد من الفتيان أو الفتيات التودّد إليه . وذات يوم فيما كان يدفع بعض الغزلان المذعورة نحو شباكه شدّ انتباه الحورية الثرثرة « إكو » التي لا تطيق الصمت حين يتحدث الآخرون فتردّد دائماً ما تسمع من حديث لكنها لا تبدأ الحديث أبداً ، وكانت وقتذاك مازال محمّظة بجسدها لم تتحوّل بعد إلى مجرد صوت . ومع ذلك فلم يكن ثغرها الثرثار قادراً على غير تكرار نهاية العبارات التي تقال أمامها . حدث هذا بلوادة جونو حين اكتشفت أن إكو كانت تعوق خطاها حين تذهب لمفاجأة زوجها جويتر وهو يضاجع الحوريات في الجبال ، إذ تنخرط معها في حديث لا ينتهي تتمكن خلاله الحوريات من الإفلات . وحين فطنت جونو إلى مسلكها ثارت قائلة : ٣٦٠
« لسوف أحرمك قدرة هذا اللسان الذي خدعني ، فلا تهنئين باستخدام صوتك إلا في أضيق مجال » . ونفذت جونو وعيدها ، ومن يومها وإكو لا تستطيع غير ترديد الكلمات الأخيرة من العبارات التي تسمعها .

ولم تكد إكو تلمع نارسيوس جائلاً في الحقول النائية حتى اشتعلت في صدرها الرغبة وأخذت تتبع خطاه خفية ، تزايد مع اقترابها منه النار التي تتأجج في أعماقها أسرع مما تشتعل النار في الكبريت الذي يغطي رموس المشاعل . وكم تاقت أن تتقرّب إليه بكلمات تطريه بها وتستعطفه غير أن طبيعتها لم تكن تتيج لها أن تبدأ حديثاً ، وإذ لم تكن قادرة إلا على تكرار ما تسمع فقد أخذت تترقب أصواتاً تستطيع ترديدها .

وحدث أن صاح الفتى حين أبعدته خطاه عن رفاقه الأوفياء قائلاً : « أما من أحد هنا ؟ » ، وأجابت إكو مرّدة الصدى « هنا » ، فتوقّف نارسيوس مذهولاً وتلقّت حوله ثم صاح بصوت عال : « هلمّ إذن » فردّدت إكو قوله ، فتلقّت وراءه فلم يجد أحداً ، فصاح من جديد : « ماسرّ هذا التخفّي مني ؟ » ، ولكنه لم يسمع غير كلماته تردّد إليه ، فألحّ في نداءه حتى ضاق بالصوت الذي خيّل له أنه يتجاذب معه الحديث فقال : « لنلتق هنا » . ولم يكن هناك ما يُدخل السعادة على الحورية أكثر من ترديد هذه العبارة ، فردّدت على الفور قوله : « لنلتق هنا » ، ودلّت على فرحتها بالخروج من مخبئها بين الأشجار وتقدّمت نحوه تعانق أملها المنتظر ، غير أنه أفلت منها صائحاً : « رُدّي ذراعيك اللتين تمديهن لعناني ، فإنني أفضل الموت على أن أستسلم لك » . ولم تردّد إكو إلا عبارة « أستسلم لك » ، غير أنها أحسّت بالمهانة فغاصت في أعماق الغابة ، وأخفت وجهها العابس بين أوراق الأشجار . ومنذ ذلك الحين وهي تسكن الكهوف الموحشة ، وعاش حبها مع ذلك نابضاً في قلبها ، يتزايد لهيبه تزايد آلام الصّد ، وحرورها قلقها النوم فأصابها الهزال وغطّت بشرتها التجاعيد وذبلت نضارة جمالها ، ولم يبق منها إلا صوتها وعظامها ، غير أن عظامها ما لبثت أن تحوّلت إلى حجر وظل صوتها وحده يتردّد . ومع بقائها مختبئة في الغابات فإن أحداً لم يعد يراها وإن بقي الجميع يسمعون صوتها في الجبال .

ولم تكن إكو الحورية الوحيدة التي سخر نارسيوس من عواطفها فقد أشاح بوجهه عن كثيرات من حوريات المياه والغابات كما فعل مع عشاقه الذكور ، غير أن إحدى الحوريات اللاتي صدّهن رفعت ذراعها متوسّلة إلى السماء أن يقع هو بدوره في شرك حب لا يخرج منه فائزاً . وسمعت نيميسيس^(١٥) ربة مدينة رامنوس ذلك الدعاء العادل واستجابت له .

كان ثمة غدير صاف تتألق مياهه الفضية لم يعرف الرعاة طريقهم إليه ، ولم تردّ مائه قطعان الماعز أو البقر التي ترعى العشب بالمراعى ، ولم يكن يقطع عليها هدوءها تغريد طير أو صباح وحش أو تساقط فروع الأشجار ، إذ أحاطت بها مروج كثيفة العُشب تسقيها المياه المجاورة فتمنحها إيناعاً دائماً متصلاً ، وتحميها من أشعة الشمس المحرقة غابات تلفّها بالأشجار الباسقة وتجعل أنسامها رطبة على الدوام .

سأقت نارسيوس خطاه إلى هذا النبع بعد ما أضناه الصّيد المنهك ووقدة الظهيرة ليسترخى في هذا الموقع الذي استهواه جماله وندى نسباته ، وقد مال على الينبوع ليطفئ ظمأه فإذا هو يحسّ ظمأً جديداً . ذلك أن صورته المنعكسة على الماء قد سحرت لُبّه فوقع في غرام طيف حسبه جسداً وهو لا يدعوا أن يكون ظلاً . وقد فتنته صورته فبقى يجملق في الماء بلا حراك ، جامداً كتمثال من رخام جزيرة پاروس . واضطجع على الشاطئ يتأمل عينيه الشبيهتين بنجمين وشعره المسترسل الجدير بأن يكون شعر باكخوس أو أبوللو ووجنتيه الملساوين وعنقه العاجي ووجهه الجميل الذي يتوردّ بياضه الناصع . وامتلات نفسه إعجاباً بتلك القسّات التي تحرك إعجاب الآخرين به . ودون أن يدري بات يولّع بذاته ويمتدح نفسه ويؤجّج في صدره التّباهي بطلعته ، فكان هو نفسه وقود تلك النار التي يضرّمها . وكم من مرّة حاول فيها

تقبيل ذلك الوجه المنعكس عن وجهه على صفحة الغدير ، وكم من مرة غاص بذراعيه إلى أعماق الماء محاولاً ضمَّ خياله الذي يترامى له إلى صدره فإذا هو أعجز ما يكون عن أن يحقق ما يحاول . أى شيء هذا الذى تقع عليه عيناه ؟ إنه لا يدري . غير أن هذا الذى يشهده هو مصدر الضنى فى نفسه ، وهذا الخيال الذى خلع عينيه هو الذى أثار الشوق فى نفسه إلى نفسه . أى نارسيوسوس ، أيها الصبى الساذج ، فيم حاولت الإمسك بصورة خادعة ؟ إن ما تبحث عنه ليس له وجود حسى ، ولو أنك استدرت لغاب عنك هذا الذى تهيم به ، إن ما تراه ليس غير خيال نشأ عن انعكاس صورتك على الماء . إنه ليس له وجود مستقل . إنه يحىء معك ويبقى ببقائك ثم يرحل برحيلك لو رزقت المرأة على الرحيل .

ولم تستطع شواغل الطعام ولا الحاجة للنوم أن تنتزع الفتى من مكانه فظل ممدداً على العُشب الكثيف يخملق فى الصورة الكاذبة بعينين لا تشبعان من إطالة النظر ، وعراه الشُرود من مداومته التأمل ، ثم وقف فى النهاية ويسط ذراعيه نحو الغابات المحيطة وصاح بها : « أيتها الغابات ، هل أحسن أحدٌ بحبِّ أشدِّ لوعة من حسى هذا ؟ إنك تعرفين الخبر اليقين ، فالمحبون يجدون فيك المأوى الأمين للقاءاتهم الخفية ، وقد طالت حياتك قروناً فهل تذكرين خلال سنوات عمرك الطويل أحداً ذاب مثل أسى ؟ إننى عاشق أتطلع إلى من أعشق ، غير أن هذا الكائن الذى أراه وأهواه يقعدنى العجز عن وصله وما أزال حتى هذه اللحظة مخدوعاً بحبه . وبما يضاعف من المي أن لا شيء يفصلنى عن حبيبى ، فليس بيننا محيط ولا طريق ولا جبال ولا أسوار مدينة ذات أبواب مغلقة ، ليس غير قليل من الماء هو الذى يحول بيننا . وما أشوقٌ حبيبى إلى عناقى ، فحين انشئت على صفحة المياه الصافية لأقبله رفع هو الآخر وجهه إلى وجهى محاولاً الاقتراب منى ، وخيلٌ إلى أن فى مقدورى أن ألمسه لولا تلك المياه الرقراقة التى تحول بينى وبينه . فلتقترب منى أيها الغلام الفريد فى جمالك كائناً من تكون . لماذا تراوغنى ؟ وأين تذهب كلما حاولت الوصول إليك ؟ إنك لا تتجنبنى دون شك لمظهرى أو سنى فالحوريات يعشقننى ، ثم إن نظراتك التى تفيض حناناً تبعث فى الأمل . كما أنك تمدّ ذراعيك لى كلما مددت ذراعى لك ، وتبتسم لى حين أبتسم لك ، وكثيراً ما تدفقت دمعاتك مع دمعاتى ، وبادلتنى إشارة بإشارة ، ولقد تتبعت جاهدأ حركات شفقتك الجميلتين وهى تنبس عن كلمات ما بلغت سمعى أبداً . ويلاه ، إن هذا الصبى الذى يترامى لى ليس غيرى ! وما أنذا قد فطنت للحقيقة . إن صورة وجهى لا تخدعنى ، إننى أحترق بنار حسى لنفسى ، وإننى أشعل بنفسى النار التى أشقى بها ، ماذا ترانى فاعلاً ؟ أتوسل إلى نفسى أو أتلبث حتى تتوسل إلى نفسى ؟ أى ضراعة تلك التى تمكنتى من أن أنال ما أحب ؟ فى حوزق ما أنتشوق إليه ، وثرائى هو سبب بلائى ، وكم وددت لو استطعت أن أنفصل عن جسدى ، وتلك أمنية ما أعسرها على العشاق . كم وددت لو كان حبيبى غير قريب منى . إن الحزن يعتصر قواى وليس أمامى من العيش إلا أيام معدودات ، إننى أنطفئ وأنا فى زهرة الشباب ، ولن أصارع الموت لأنه سوف يريحنى من الآلام ، وكم أتمنى لحبيبى أن يحيا طويلاً من بعدى ، غير أن وحدة قلبينا ستجعلنا نهلك معاً وتنتهى حياتنا مع زفرة واحدة .

وحيث أنهى حديثه عاد يحملق مذهولاً في الوجه نفسه وقد تساقطت دموعه على الماء فاضطربت صفحته وتموج سطح الغدير ، وانطمست صورته ورآها تختفي فصاح بصوت عال : « إلى أين تهجرني أيها القاسى القلب ، ابق ولا تهرب مني يجيبك ، دعني أتطلع إليك مادمت لا أملك لمسك ، دعني أشبع حبي السبيء الطالع بالنظر إليك » . ومزق من فرط حزنه طوق رداثه وأخذ يضرب صدره العارى بيده الناصعة البيضاء فتورد صدره من أثر الصفعات تورّد التفاح تحمراً بعض أجزائه وتبقى الأخرى مشرقة البياض ، أو تورّد العنب لم يكتمل نضج عناقيده بعد .

وحيث هدأت مياه الغدير تمثّلت على صفحتها مآسى ناريسوس كلها فلم يطق مزيداً ، وكما تذوب الشمعة مع الحرارة الهادئة ، وكما تتبدّد قطرات الندى مع دفاء الشمس أخذ يدوب بحارته الكامنة الخفية بعد ما أنهكه الحب وأضنانه ، وفقدت بشرته بياضها المشرب حمرة الورد وزايلته قوة شبابه ، واختفى جمال قسائمه الذى كان يأسر عينيه ، ولم يبق له شيء مما أحبته إكويوماً . وقد شاهدت إكوما وقع له ، ومع أن ذكرى صدوفه عنها كانت لا تزال ماثلة في أعماقها إلا أنها أحسّت بالخزن شفقة عليه ، وكلما زفر زفرة وقال « ويلاه » كانت تردّد وراءه هذه الكلمة . وكانت آخر كلماته وهو يحملق في الماء ، « واحسرتاه على الغلام الحبيب الذى ذهب حبي له سدى » ، أخذت إكوي تردّد صداها . وحين نادى « وداعاً » ، ردّدت إكوي أيضاً هذه الكلمة ، وتمالك بعدها فوق العشب ، ثم ما لبث أن أغمض عينيه اللتين طالما هامتا بجبال صاحبهما وسقط ميتاً . وحين احتواه عالم الموت عاد يتطلع إلى صورته على صفحة مياه ستيكس ، وحزنت عليه شقيقاته حوريات النبع وقصصن شعورهن إجلالاً له ، وحزنت عليه حوريات الغابة أيضاً ، وردّدت إكوي أصداها نواحيناً .

وكان حطب المحرقة والمشاعل التى تُهزّز بالأيدى^(١٦) قد أعدت لحفل إحراق جسده التى اختفت ولم يعثر عليها أحد ، وإذا زهرة النرجس قد ظهرت مكانها تحمل قلباً زعفرانى اللون تنبثق منه وُريقات بيض^(١٧) .

پنشيوس واكوييتيس

كانت أحداث هذه القصة مما أذاع شهرة الحكيم تيريزياس في كافة مدن اليونان ، وكان بها جديراً ، فلقد ظل اسمه بعد ذلك موضع التقدير والإعجاب .

وكان پنشيوس بن إخيون يزدرى الآلهة ، وكان الوحيد من البشر الذى اهتمن رسولهم وسخر من تحذيرات العراف العجوز تيريزياس . وحين عيّره بفقدان بصره هزّ العراف رأسه الأشيب وقال له لائماً محذراً : « لو أنك حُرمت نور عينيك كما حُرمته أنا لكنت أسعد حالاً ، فعندها لم تكن لتشهد طقوس باخخوس السرية . ولسوف يأتى ذلك اليوم ، ولا إخاله بعيداً - الذى يُقبَل فيه الإله الجديد ليبر بن سيميليه^(١٨) ، فإذا أنت لم تُوفّه حقّه من التبجيل في المعابد المقدّسة ، تمزّق جسدك إرباً إرباً ، وتناثرت

أعضاؤك هنا وهناك ، ولطخ دمك الغابات ولطخ أمك وشقيقتها . أجل ، سوف يأتي هذا اليوم الذى سَتُحجِم فيه عن تكريم الإله ، ولسوف تأسى على أننى وسط غياهب ظُلْمَة البصر قد استطعت أن أرى هذا كله ببصيرة نافذة . وحين سمع ابن إخيون هذه العبارات على لسان العرّاف ثار فطرده شرّ طردة ، ولم تلبث نبؤات تيريزياس أن تحققت ، وأقبل لير ، تردّد الحقول صيحات عابديه المحمومة احتفاناً به ، وخرج الشعب عن بكرة أبيه ، رجالاً ونساء وأبكاراً ، فتية وأشرافاً ودهماء ، واندفعوا جميعاً ليقبوا الشعائر الجديدة . غير أن پثيوس أخذ يعترضهم قائلاً : « يا سلالة التّنين ، يا أبناء مارس ، ما هذا الجنون الذى ذهب بعقولكم ؟ أو يمكن أن يكون لقرع النحاس بالنحاس ولِنَفخ المزمار المحدودب ولحيل السحرة مثل هذا الأثر ؟ أو يمكن أن يطغى ضجيج النسوة ونشوة السكر وجلبة أخدان العريضة والمجون وقرع الدفوف الجوفاء على الرجال الذين لا يهابون صليل السيوف في المعارك ونداء النفير الذى يدعو إلى القتال أو الكتائب التى تُشرع بين صفوفها الحراب ؟ من منكم يحق لى أن أدهش منه ؟ أنتم أيها الشيوخ الذين عبرتم فسيح البحار وجستم هنا لتشيّدوا مدينة « صور » الجديدة^(١٩) ولتقيموا بها معابد ألهتكم ثم تتركون غيركم يظفر بها دون قتال ، أم أنتم أيها الشباب يا من تفيضون حياة وتُقلربوننى سنًا ، إنه لأجلدر برءوسكم أن تحمل خوذات بدلاً من أكاليل الزهور ، وبأيديكم أن تحمل السيوف بدلاً من ثيرسوس باكخوس^(٢٠) . إنى أسألكم أن تذكروا أسلافكم وأن تحاكو ذلك الأفعوان الذى استطاع وحده أن يفتك بالعديد من المحاربين الشجعان مضحيان بحياته دفاعاً عن مياه ينبوعه ، وإنكم لتعرفون كيف تتأرون لكرامتكم ، فاطردوا إذن هذا العدو الجبار لتكونوا أمناء على مجد آبائكم . ولو كان مقدراً لطيبة أن تسقط سريعاً لتمنيت أن يهدم أسوارها أعداء شجعان برّجمات المجانق ومقارعة السيوف وأزير الذهب ، فنسلم ساعتها من اللوم مهما كان حظنا شقيًا ، ولن نكون بحاجة إلى إخفاء دموعنا التى لن تغسل عنا العار . اليوم يستولى على طيبة صبيّ خامل غير مفتون بالحرب وفرسانها وأسلحتها ، ولا تستهويه غير جدائل الشعر التى يفوح منها عطر المرّ ، وأكاليل الزهور والثياب الصارخة الألوان المطرزة باللّذهب . دعوه لى ولسوف أرغمه على الاعتراف بأنه هو نفسه الذى اختلق الخرافة القائلة بأنه إله مقدّس ، فإن طقوسه الدينية تدعو إلى السخرية ، فإذا كان أكرسيوس^(٢١) قد وجد الشجاعة الكافية لكى يُنكر عليه ألوهيته ويغلق فى وجهه أبواب مدينة أرجوس ، فهل يعقل أحد أن يُصيبنى هذا الأجنبي وسكان طيبة معى بالذعر ؟ . ثم استدار يأمر رفاقة قائلاً : « أسرعوا ، أسرعوا وجيثونى بزعم هذه العصاة مكبلاً بالأغلال ونفدوا أوامرى دون تحاذل ولا تضيّعوا الوقت » .

على أن جلّه أناماس وجميع أفراد أسرته قد لاموه وحاولوا عبثاً صدّه عن اندفاعه فزاده تحذيرهم إياه من ثورته ، ودفعته محاولاتهم إلى المبالغة فى تهوّه ، وزادت جهودهم فى كبح جماحه الأمر سوءاً ، مثله فى ذلك مثل السيل يهبط هادئاً لا تسمع له إلا خريراً هامساً فإذا ما اعترضت العقبات مسيرته وكذا الصخور أو الأشجار اضطرب واصطخب وتغلب على كل ما يعترضه .

وعاد مبعوثوه ملطخين بالدماء ، وحين سألهم سيدهم عن باكخوس أجابوا بأنهم لم يروه ، وأضافوا قائلين : « ها هو ذا واحد من أتباعه أسرناه حين كان يؤدي الطقوس السرية » ، وأسلموه الأسير التريفي^(٢٢) المتحمس لعقيدة باكخوس وبيده مقيدتان خلف ظهره . ونظر إليه بثيوس وعيناه تقدحان شرر الغضب ، وكان على وشك أن يبطش به ولكنه وجّه للأسير سؤالاً قائلاً : « إنك موشك على الموت ، ولسوف تكون بعد موتك عمرة وعظة لغيرك ، فتكلم إذن وافصح عن اسمك واسم أبويك ومكان مولدك وسر احتفالك بطقوس هذه العقيدة الجديدة ؟ » وأجاب الأسير دون تلثم : « اسمي أكويثيس ، وقد وُلدت في مايونيا من أبوين من أصل متواضع ، ولم أرث عن أبي حقولاً تحرثها الثيران القوية ، ولا قطعان ماعز تمدنى بالصوف ، ولا بقرة واحدة أرهاها ، إذ كان مثلي فقيراً ، وكانت مهنته طرح الشباك للأسماك واجتذابها بشبصه ثم رفعها من الأنهار متفضة على طرف قصبة من غاب . وكانت مهنته هي كل ثروته التي أورثها لي قائلاً : « امسك بهذه الثروة من بعدى وكُنْ خَلْفِي في هذه المهنة » . ثم مضى به الموت دون أن يترك لي غير المياه أبحت فيها عن صيد . ذلك كان كل ميراثي ، غير أني لم أشأ إثناء عمري قابلاً فوق الصخور ، فتعلّمت إدارة دفة السفينة وقياس المسافات بمواقع النجوم : نجمة عزة أولينوس دليل المطر^(٢٣) والثريا وقلائص كوكبة الثور والدين الأكبر والأصغر ، وألفت عيني اتجاهات مهابّ الرياح كما ألفت الموانئ الصالحة لرسو السفن . ويوماً ما وأنا مُبحر صوب جزيرة ديولوس اقتربت من شواطئ جزيرة خيوس وكان رجالي يجذفون في يسر قرب الشطّ ففترت من القارب فوق الرمل المبتل وأمضيت مع رجالي الليل هناك . حتى إذا أخذ الفجر يصبح السماء بجمرة كجمرة الورد استيقظت وطلبت من رفاقي أن يمضوا بحثاً عن مياه عذبة وأرشدتهم إلى طريق الينبوع ، ووقفت فوق ربوة لأستشف ما أتى به الرياح ، فناديت رفاقي وعُدت إلى سفينتي وكان أولفتيس أول من عاد من الرفاق مهللاً : « ها نحن أولاء » وكان قد اصطحب معه غلاماً تفوق وسامته جمال الفتيات ، وكان وحيداً في الحقل قد أثقلت جفناه الخمر والنعاس ، يتعثّر في مشيته ويتبع صاحبه متثاقلاً . وأنعمت النظر في فسات وجهه ومظهره وثيابه فرأيتني بين يدي مخلوق يسمو على البشر ، حتى إذا امتلأت ثقة بحكمي قلت لرفاقي : « ترى أي إله يستكن في هذا الجسد ؟ ما أعجزني عن أن أتبيّنه ولكنه إله على أية حال » ، ثم التفت إليه قائلاً : « ها أنذا أضرع إليك كائناً من كنت أن ترفق بنا وتمدّ لنا يد العون ، وأن تصفح عن رجالي » . وهنا صاح ديكتيس « لا حاجة بي إلى صلاتك » ، وكان أسرع الملاحين في تسلّق السارى صعوداً وهبوطاً ، ووافقه كل من ليبيس وميلانثوس الأشقر مرشد السفينة ، وكذلك الكيميلون وإيبويوس الذي كان يرفقه عن المجدفين بصوته الرخيم ويوافق بين إيقاع المجاديف . ثم حذت البقية الباقية حذوهم وقد أعماهم عن الحقيقة شغفهم بالغنيمة التي ظفروا بها ، فصحت فيهم : « لن أذن لكم أن تنالوا من نزيلنا المقدّس فتزل اللعنة على سفينتي ، وأنا صاحب الكلمة الفاصلة في هذا الشأن » ، واعترضت طريقهم إلى السفينة ، فأثار هذا ليكاباس أشدهم جراً وكان قد نفى من مدينة إتروسكية عقاباً لجريرة قتل بشعة ارتكبها . وحين أردت مقاومته قبض على عنقي بقبضته القوية ، وأوشك أن يلقيني في البحر لولا أني أسندت ظهري إلى أحد الحبال ، بينا كان الملاحون الحمقى يصفقون له على فعله . وأخيراً تدخل الصبيّ الذي لم يكن سوى الإله باكخوس نفسه وكأنما بدّد الصباح

غفوته وتيقظ من سكرة التبيذ ، وتساءل : « ترى أى شيء يقع هنا ؟ وفيم كل هذا الصباح ، أخبروني أيها الملاحون ماذا أتى بى إلى هنا ؟ وإلى أين تنوون الذهاب بى ؟ » فهتأ پرووريوس^(٢٤) من روعه قائلاً : « لا تخف ، وقل لنا أى ميناء تريد أن تبلغه ولسوف نرسو بك عند المكان الذى تختاره . » وأجاب ليير [باكخوس] « أريد أن أرسو عند ناكسوس ، فاتجهوا بسفيتتكم صوب هذه الناحية فهناك موطى ، ولسوف تجدون بها كل حفاوة » ، فأقسموا له يميناً كاذبة بإله البحر وبجميع الآلهة أن يذهبوا به إلى حيث يريد ، وطلبوا إلى أن أنشر الشراع لتدفع به الريح فأدرت الشراع إلى اليمين حيث تقع ناكسوس^(٢٥) فإذا بأوفيلتيس يصيح فى قائلاً : « ماذا تفعل أيها الغبى ؟ أى جنون أصابك ؟ » ، وصاح بى بعض الرجال ٦٤٠ « انصرف إلى اليسار . » وبينما أوما إلى بعضهم برأسه همس فى أذن آخرون بما يضمرونه ، ففزعت وقلت لهم : « فليتولّ الدفة أحد غيرى » ، ورفضت مشاركتهم فى خطتهم الإجرامية فتعقبوني باللعة متممين بالغضب ، وصاح إيثاليون : « أو تظن أمان السفينة موكولا إليك وحلك ؟ » ، وأخذ مكانى فى السفينة ومضى مخلفاً ناكسوس إلى وجهة أخرى منطلقاً بعيداً . وحينئذ سخر الإله منهم وكأنه لم يكشف خيانتهم إلا ساعتها ، ووقف فى مؤخرة السفينة وتطلع إلى مياه البحر متظاهراً بالبكاء ، وقال : « ليس هذا هو الشاطيء الذى وعدتم بإرسائى عنده أيها الملاحون ، وليست هذه البلاد التى رجوتكم التوجه إليها ، ما الذى فعلته بكم لتجاوزونى هذا الجزاء ؟ أى مجد يصيبه نفر من الكبار من التفرير بصمى وحيد ؟ . » وعندها انخرطت فى البكاء غير أن الملاحين الأشرار سخرخوا من دموعى وضاعفوا من حركة مجاديفهم ، وأقسم لكم الآن بذلك الإله نفسه [لأنه ليس هناك من هو أثبت منه وجوداً] بأن ما أقصه حق رغم استحالة تصوّره ، إذ ما لبثت السفينة أن توقفت وسط المياه جامدة وكأنها تقف على حوض جاف ، ٦٦٠ وتعجّب الملاحون وجدّوا فى الضرب بمجاديفهم ونشر جميع الأشرعة لييسروا للسفينة أن تندفع ، غير أن أعشاباً من البحر أخذت تلتف حول المجاذيف بمحاليقها الحلزونية فعوّقت حركتها والتفت عناقيدها الكثيفة على الشراع فجمدت السفينة مكانها ، وظهر الإله نفسه مزدان الجبين بعناقيد كروم شاهراً حربة مغطاة بأوراق عنب ، وتضطجع حوله أطياف وحوش من ثمر وفهود مفترسة مرقشة الجلود ، فهرع البحارة يلقون بأنفسهم إلى الماء جنوناً أو رعباً لست أدرى . وكان ميدون هو أولهم فقد اسودّت بشرته وانحنى ظهره كالقوس وأبصره ليكاباس فسأله قائلاً : « على صورة أى وحش تتحوّل ؟ » وبينما هو يتحدث إليه إذا فمه يتسع وخياشيمه تنفرج وجلده يتصلّب وتكسوه الحراشيف . وحين حاول لبيس جرّ مجدافه تقلّصت يداه وتحوّلتا إلى ما يشبه الزعانف . وحين حاول رجل آخر رفع ذراعيه ليتعلّق بالحبال المجدولة اكتشف أنه بلا أذرع ، فحنى جسده المتبور الأطراف وقفز إلى الوراء وسقط فى الماء وإذا هو قد نبت له ذليل على شكل ٦٨٠ المنجل القوس الذى يحكى قرنى الهلال . وأخذت هذه المخلوقات تقفز فى الماء هنا وهناك مثيرة الرّند وهى تغوص فى الماء وتعلو وكأنها جماعة من الراقصين تنفث المياه بخياشيمها الواسعة . ولم يبق من العشرين ملاحاً غيرى فوق السفينة وقد أمسك بى الذعر وعرتنى الرّعدة ، فهتأ الإله روعى قائلاً : « لا تخف » ووجّه السفينة إلى جزيرة ديا^(٢٦) ، حتى إذا بلغت بادرت بتأدية طقوس باكخوس السرية ، وصرت من يومها من المؤمنين به .

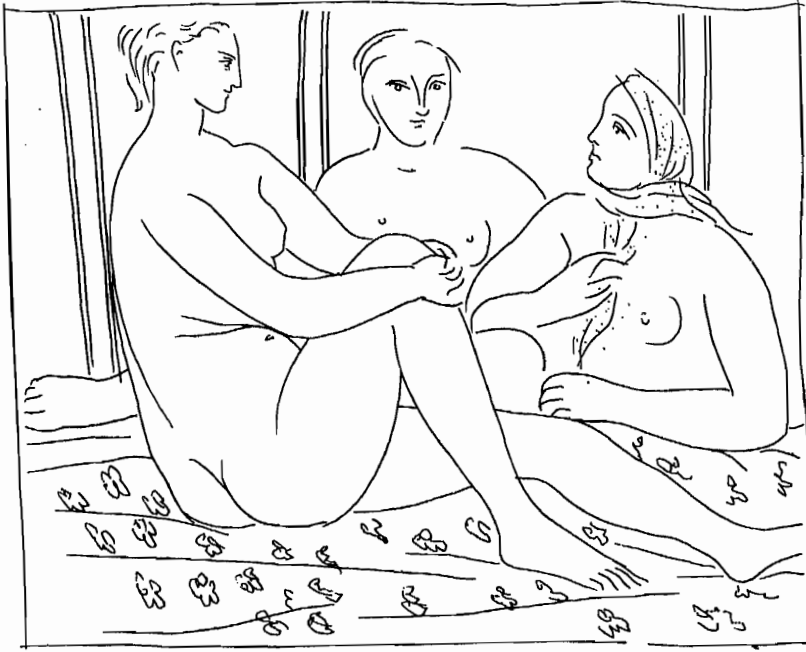
وعقب پثيوس على هذه القصة قائلاً : « إذا كنت قد أصخت لحكايتك الطويلة الملتوية فذلك كي أفسح لغضبي أن يهدأ ، خذوا هذا الرجل أيها الاتباع وصبوا على جسده جميع ألوان العذاب ، ثم ابعثوا به إلى عالم الموت في نهر ستيكس » . وما لبثوا أن اقتادوا أكويتيس التيريني بعيداً ، وحسوه في سجن حصين ، غير أن الرواة يحكون أنه حين أعدَّ الحديد والنار لتعذيبه ، انفتحت الأبواب على مصاريعها وتساقطت الأغلال عن يديه من تلقاء نفسها . وبقي ابن إخيون سادراً في غيِّه ولم يشأ إجابة أحد عنه ، بل توجه بنفسه إلى كيثايرون ، وهو الجبل الذي اختير لإقامة الشعائر الدينية ، وعليه ترددت الأغنيات وصيحات عابدات باكخوس التي غمرت أجواز الفضاء . وكالجواد الأبيّ في ساحة الحرب يسهل متهيباً للقتال ساعة يسمع صوت النفير يستنهض المحاربين للهجوم ، أخذت صيحات كاهنات باكخوس التي رددت الهوام صداها تهيج پثيوس وتزيد غضبه وتُشعل الضوضاء ثورته .

كان ثمة سهل منبسط في منتصف الطريق الصاعد إلى الجبل قفرٌ من الأشجار على الرغم من أن الغابات تكنته ويمكن للعين أن تحيط بجوانبه . ومن هذا المكان استطاع پثيوس أن يشهد الطقوس السرية بعينيه اللتين حُرمتا ومض الإيمان . وكانت المرأة الأولى التي رآها تندفع صوبه كالجنونة ، نعم . . . المرأة الأولى ، هي أمه أجافيه التي حقرت شأن ابنتها پثيوس وهوت عليه بالثيرسوس [صولجان باكخوس] صائحة : « إيو . إيو . (٢٧) أقبلًا لعوني يا أختاي فانا حريصة على أن يفتك سهمي بهذا الخنزير البري البشع الذي يهيم على وجهه طليقاً في حقولنا » . فأصاب رفيقاتها مس من جنون وانقضضن على الرجل الواقف بينهن وحيداً ، وأخذن يقطعن واحد يطاردن پثيوس الذي أمسك به الذعر وأرعدت فرائصه وزايله صلفه ، فاعترف بذنبه وأنحى باللائمة على نفسه ، وصاح رغم جراحه قائلاً : غوثا . . . خالتي أتونوي (٢٨) . هلا أثار فيك طيف أكتايون الرحمة يا ا . غير أن اسم أكتايون لم يحرك فيها ساكنا ، فبترت ذراعه اليمنى وانتزعت إينو ذراعه اليسرى فغدا بلا ذراعين يرفعها ضارعاً إلى أمه ، وكشف لها عن جسده المتور الأطراف الشبيه بجذع شجرة وشاح متوسلاً : « أترين يا أماه ؟ » فاطلقت أجافيه صرخات جنونية ، وطوّحت رأسها يميناً ويسرة وشعرها يتطاير في الهواء ، ثم انتزعت رأس ابنتها من بين كتفيه وأمسكت به مخضبا بالدماء صائحة : « إيو ، انظرن أيتها الصاحبات ، ألا إن هذا النصر من صنع يدي » . وأسرع من تساقط أوراق الأشجار السامة في الخريف حين تلعب بها الرياح - على الرغم من قطرات الندى التي تكاد تجعلها عالقة بالأغصان - فلا تلبث أن تعبت بها ، أخذت أطراف پثيوس تتناثر في أيديهن الوحشية . واتخذت نساء طيبة من هذا الحدث عبرة ، وغلدن يحتفلن بإقامة شعائر هذه العقيدة الجديدة فيحرقن البخور للإله ويكرمن محاربه المقدسة .

التعقيبات

- (١) يرث أوفيد كلمة بويوتيا إلى كلمة بوس اليونانية التي تعنى البقرة ، إلا أن الرأى الغالب أن هذه المنطقة قد سميت على اسم البطل بويوتوس بن بوزيدون .
- (٢) ينبوع فوق الجبل المقدس لاپوللو وريات الفنون ، أى جبل پارناسوس .
- (٣) وصف أوفيد قصة صراع كادموس فى أحد أناشيد الكوروس بمناسبة « الفينيقيات » ، وكثيراً ما صور الفنانون هذا الموضوع على الأوانى الخزفية .
- (٤) يروى أوفيد قصة هذا التحول بالتفصيل فى الكتاب الرابع .
- (٥) اشتق اسم إخيون من كلمة إخيس اليونانية التي تعنى الأفعى أو الثنين ، وقد حمل أحد المعالقة هذا الاسم كذلك .
- (٦) ثمة تشابه بين هذه القصة وقصة جاسون الذى أمره الملك أيبتيس بأن ينثر أنياب تين على الأرض ، وبعد أن فعل نبت منها جند تصارعوا وقتل بعضهم بعضاً [انظر الكتاب السابع] .
- (٧) هياس هو اسم بطل أطلق على شعب بدائي بأسره فى بويوتيا . ويقال إن كادموس قد طردهم من وطنهم ، وصارت كلمة هياس فيها بعد مطابقة لكلمة بويوتى .
- (٨) لا توجد هذه الأسماء فى غير نص أوفيد .
- (٩) يدل هذا السرد الطويل على المكانة التى كان الرومان يخصصون لها كلاب الصيد المريعة شأن العرب مع الخيل . ويلاحظ أن أسماء هذه الكلاب تحمل فى أصلها الإغريقي معنى يشير إلى سرعتها أو سلوكها أو لونها إلى غير ذلك .
- (١٠) ألمت أسطورة أكتايون منذ البداية الفنانين الإغريق ، فصورها بوليجنوتوس فى دلفى ، كما مثل أكتايون والكلاب فى أعقابها فوق حشوة منحوتات معبد هيرا فى سيلينوس من القرن الخامس ق.م . وكثيراً ما صورت مأساة أكتايون فوق الأوانى الإغريقية ، وثمة لوحة جدارية مصورة لنفس الأسطورة ببومى . هذا إلى لوحة الفنان تسيانو الرائعة خلال عصر النهضة بالبنديقية .
- (١١) تيفويوس هو أحد المعالقة الذين تحدوا جوبيتر .
- (١٢) إينو هى بنت كادموس وزوجة أتلماس .
- (١٣) ثمة مدن كثيرة فى العالم القديم تحمل اسم نيسا ، وأغلب الظن أن أوفيد لم يقصد موقعاً جغرافياً معيناً . فهناك أساطير تروى أن نيسا كان اسم تلك الحورية التى أرضعت ديونيسوس وربته ، وماتزال حقيقة هذه الأسطورة غامضة . أما مشهد مولد ديونيسوس فهو موضوع مألوف فى النقوش البارزة والأوانى الخزفية المصورة وبخاصة فوق المزاج « كراتيرون » الكبير الموجودة بمتحف نابلى .
- (١٤) أى إذا أدرك حقيقة صورته المنعكسة فى الماء فلا يجم بذاته حتى يهلك .
- (١٥) إحدى ربات القدر ، وهى تجسيد لنقمة الآلهة على غرور البشر عندما يبتسم لهم الحظ ، وكان من أعبائها توقيع العقاب على خطيئة العطرسة من غير وجه حق .
- (١٦) كانت المشاعر تُهز لتأجيج لهيها قبل إشعال المحرقة .

- (١٧) هي زهرة النرجس ومنها اشتقت كلمة «النرجسية» التي تعني الإعجاب المرضى بالذات .
- (١٨) لير إله إيطالي قديم حل محل ديونيسوس ولقب من القاب هذا الإله ويعنى «الحر» أو «المحرر» بوصفه إله النبيذ والنشوة .
- (١٩) هم الفينيقيون الذين أقاموا مع كادموس مدينة طيبة التي سبق ذكرها .
- (٢٠) ثيرسوس باكخوس أى صولجانة ، وهو عصا تتزجها حلية على شكل ثمرة الصنوبر وتلف حولها أغصان كروم دقيقة هي شعار باكخوس وأشباعه .
- (٢١) أكريسوس ملك أرجوس هو والد داناي . وهنا يخالف أوفيد الأسطورة القائلة بأن طيبة كانت أول مدينة يونانية يزورها الإله ديونيسوس ، حسب ما ورد بمسرحية عابديات باكخوس لأوريبيديس .
- (٢٢) تيرفى وإتروسكى كلمتان مترادفتان ، ويقال إن أصل الإيتروسكين من ليديا بآسيا الصغرى ، وكان الاسم الأصل لليديا مايونيا .
- (٢٣) نجمة عنزة أولينوس هي أهم نجمة في مجموعة «الحوزى» بجوار «الدب الأصغر» ، ويرجع اسمها إلى العنزة التي أرضعت الإله جوبيتر وهو طفل . وكثيراً ما يختلط أمر هذه العنزة بالهورية أمالثيا التي ظن البعض أنها ابنة أولينوس . وهناك رأى آخر بأن أولينوس مدينة قديمة في اليونان حيث أرضعت العنزة الإله جوبيتر .
- (٢٤) تعنى كلمة بروروس في اليونانية «المرشد» في مقدمة السفينة . وقد ذكره هوميروس كاسم شخص من بين الفياكيين [انظر الكتاب الثامن من الأوديسيا : ١١٣] .
- (٢٥) يؤخذ على أوفيد هنا نقص معارفه الجغرافية : إذ قال على لسان أكويتيس أن سفينته كانت تميل نحو الجنوب وهي تتجه نحو ديبلوس ، وأنها قد رست على الشاطئ الغربى من جزيرة خيوس ، فإذا كان حقاً يقصد بلوغ ناكسوس بعد ذلك من غرب خيوس لتحتتم عليه أن تتجه جنوباً لا شرقاً .
- (٢٦) ديا اسم لجزيرة ناكسوس .
- (٢٧) «إيو» هي صبيحة النشوة المحمومة لعابديات باكخوس ينادين بها الألهة ، وقد تكون أحياناً تعبيراً عن شدة الحزن .
- (٢٨) أتونوى هي أم أكتايون الذى مزّته كلابه كما مر بنا .



بيكاسو: بنات مينياس

الكتاب الرابع

بنات مينياس

عل أن الكيثوى بنت مينياس لم تكن بين هؤلاء النسوة المؤمنات ، إذ لم تشأ أن تلمّ بشيء من أسرار الإله ، إيماناً منها بأن تلك الطقوس الطائشة مما لا يجوز لقومها أن يباشروها ، كما أنكرت في إصرار بنوة باكخوس لجويتر ، وشاطرتها هذا التمرد الأثم شقيقتها .

وكان الكاهن قد أعلن ألا بد من إقامة احتفالات باكخوس وإعفاء الفتيات العاملات من مهامهن ، كما فرض عليهن أن يغطين هنّ وسيدات المدينة صدورهن بجلود الحيوان ، وأن يُرتخين عصابات شعورهن ، وأن يتوجن هامتهن بأكليل الزهور ، وأن يحملن اليرسوس الزدان بأوراق الكروم ، ثم

حذّره من عاقبة غضب الإله إن مسّه ما يشين . واستجابت السيدات والفتيات إلى نصائح الكاهن ، فهجرن أنوالهن وسلالهن وأعمالهن ولم يكن قد فرغن منها ، وأحرقن البخور للإله ، ودعون باكخوس باسم بروميوس وابن النار^(١) ، كما نادينه يا مَنْ وُلد مرتين ويا مَنْ له أمان ، ونادينه بأسماء أخرى مثل طفل نيسا ، وثيونوس ذى الضفائر المُرسلة ، وليناوس الاسم الذى لُقّب به لأنه زارع الكروم مصدر نشوتنا ، ونيكتيلوس ، وأبينا إيليلوس ، وإياخوس ويوهان ، ثم دعونه في آخر الأمر بالأسماء جميعها التى تتسمّى بها بين شعوب اليونان يا « لير »^(٢) : شبابك لا يذبل فأنت الطفل الخالد وأجل كائن تتجه إليه الأنظار فى السموات العلا . لرأسك جمال العذارى حين يُشرف علينا بلا قرون^(٣) ، سُدت الشرق إلى أطراف الهند حيث يفيض نهر الجنج على أرض شعبة الأسمر . ما أكثر من يعبدك من الناس أيها الإله ، يا من قضيت على پثيوس وليكورجوس المسلح بالبلطة ذات الحدين عقاباً على مروقها^(٤) ، وأغرقت اللدنيين فى البحار ، وأثقلت عتق التمرين اللذين يجران مركبتك بنيرين تزيناها أعتة مشرقة الألوان . فى إثرك تمضى كاهنات باكخوس العابدات والساتير والشيوخ الهرم الثمل الذى يعتمد على عصاه لضطراب خطواته^(٥) ولا يكاد يستقر على ظهر جحشه المحدوب . حيثما تمضى تهدر أصوات الفتيان ترحيباً بك ، وتردد أصوات النساء ، ويُسمع قرع الأكتف للدفوف وصكّات الصنوج المكورة ، ويرتفع صوت الناي الطويل الأنابيب المتخذ من قصبات الغاب ، ويتهل إليك نساء طيبة أن تُقبل عليهن برقّتك وعطفك ، ثم يؤدّين لك الطقوس الواجبة .

ولم يتخلّف فى بيته غير بنات مينياس اللاتي عكّرن صفو الحفل بقيامهن بالغزل والنسج — وهما أحب الأعمال إلى الإلهة منيرفا — فى غير وقتها المخصّص لهما ، فظللن يجدلن خيوط الصوف ويُدْرِنها بأصابعهن ويشدنها إلى أنوالهن وقد استنهضن الخادמות للعمل ، وانبرت إحداهن تقول لشقيقتها وهى تمجذب خيطها برفق : « ها قد انصرف غيرنا من الفتيات عن العمل وشغلن بأداء طقوس من العبادات الزائفة ، على حين قد خلّتنا نحن هنا الإلهة باللاس التى هى أجدر بالتكريم . فلنخفّف عن أنفسنا إذن من عناء هذا الجهد ولناخذ فى شجون الحديث ونحن نعمل بأيدينا ، ولتسامر فتقصّ كل واحدة منا قصة ممتعة لا نحسّ معها بطول الساعات » . وأمام إعجاب الشقيقات بهذه الفكرة اقترحن أن تكون هى البادئة بالحديث ، فأخذت تفكر أية قصة تختار من بين ما تعرفه من قصص كثير ، وتردّت هل تقصّ حكاية ديركيتيس البابلية التى يعتقد شعب فلسطين أنها تحوّلت إلى سمكة تسبح فى إحدى البحيرات بعدما اكتست أطرافها بالحرّاشف^(٦) ، أو تقصّ حكاية ابنة ديركيتيس التى نما لها جناحان فانتقلت إلى برج حمام أبيض تقضى فيه آخر سنوات عمرها^(٧) ، أو قصّة حورية الماء التى كانت تُحبل الرجال أسماكاً صباء بتعويذاتها وبأعشاب قوية الفِعل حتى حاق بها المصير نفسه^(٨) ، أو قصّة الشجرة التى كانت تُنبت توتاً أبيض فصار أرجوان اللون بعد أن اصطبغت بالدماء ؟ وكان هذا هو الموضوع الذى وقع عليه اختيارها ، إذ كانت قصته غير شائعة فراحت تروى أحداثها وهى تغزل بيدها خيوط الصوف :

پيراموس وثيريزى

كان پيراموس وثيريزى يعيشان معاً في دارين متجاورتين في تلك المدينة الشاهقة ذات الاسوار العالية التي قيل ان سميراميس قد شيدتها من قوالب الاجر . وكما كان پيراموس اكثر الشباب وسامة كانت ثيزى ٦٠
اجل نساء الشرق ، وقد نشأت بينها صداقة لم تلبث مع الأيام حتى غدت حباً أوشك أن يفضي بها إلى الزواج لولا أن حال أبواهما دون إتمامه . على أن ما لم يستطع أبواهما منعه هو تلك النار التي اتقدت في قلبيهما وأخذت تحرقهما بلهب الشوق . ولم يكن لهما صديق يبيّنه همومهما ، فكانا يتبادلان أحاديثهما بالإيماءات والإشارات ، وكلما أخفيا حبهما عن الناس تأججت نيرانه في قلبيهما . وكانت بالجدار الفاصل بين داريهما نُقْرة دقيقة خفيت على الأعين طوال السنوات العديدة التي تليت تشييد الدارين وكانا هما أول من تبيّناها ، وعين العاشق قل أن يخفي عليها شيء . وما لبثا أن جعلنا منها وسيلتهما ليتنجسا من خلالها بأعذب أحاديث الهوى والغرام مطمئنين آمينين . وما أكثر ما كانا يتحسّسان أنفاسهما وقد وقف كل منهما في ناحية ، وكما حدثا الجدار قائلين : « كيف تضيق أيها الجدار الغيور بعاشقين أن يجتمعا فتقف بينهما سداً منيعاً . ما أهون عليك أن تحقّق لنا ما ننشد . هلا أفسحت لجسدنا أن يتعانقا ، وإن ضمّت هذه فهلا انفرجت قليلاً فأنحت لشفتينا أن تلثم إحداهما الأخرى وسوف نكون على هذه من الشاكرين ، على أننا سوف لا ننسى صنيعك بما مهّدت لكلماتنا أن تبلغ آذاننا الواهة » . على هذا النحو كان يجري حديثهما اليائس عبر شقّ الجدار ، حتى إذا هبط الليل ودّع أحدهما الآخر ، وكانا لعجزهما عن تبادل القبلات يقبلان الجدار حيث يقفان .

٨٠

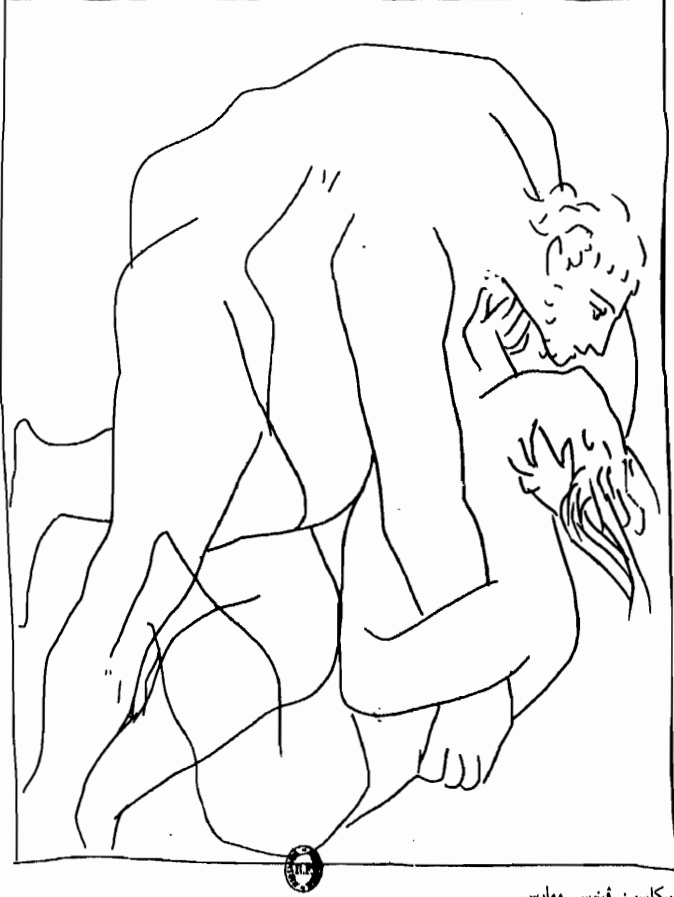
وذات صباح بعد أن طمست الشمس نجوم الليل بأشعتها وبعد أن جفّت الأعشاب بما عليها من ندى جاء إلى مكان لقاءهما الأليف ، وأخذنا يندبان حظهما متهايمين بشكاة تخنقها الزفرات ، ثم اتفقا على أن يحاولا التسلل من داريهما تحت جنح الظلام في مأمن من العيون ، وتواعدا حتى لا تضلّ خطواتهما في الريف الفسيح على اللقاء عند ضريح نينوس ، والاختباء في ظلال شجرة التوت المزدهرة ذات الأوراق الكثيفة والشمار البيضاء التي تجاور ينبوع العذب . ولقد ظلّا نهارهما بعد أن انتهيا إلى هذا القرار يستبطنان انتباهه ، حتى إذا ما غاب قرص الشمس في خضم الظلمات خرجت ثيزى من دارها خلسة دون أن يراها أحد من الحراس بعد ما فتحت الباب وأسدلت على وجهها نقابا وقصدت الضريح ، ثم جلست تحت الشجرة المتفق عليها وقد ملأها الحب جراءة ، وإذا لبؤة قد ظهرت لها فجأة تقصد إلى ينبوع لتشرب فمها يقطر بدم الثيران التي افترستها . لمحتها ثيزى في ضوء القمر وهي ماتزال بعيدة فهربت إلى كهف مظلم ، وكان نقابها قد انزلت على كفيها ثم سقط على الأرض وهي تمجى فخلّفته وراءها . وبينما اللبؤة تعود ١٠٠
أدراجها إلى الغابة بعد أن شربت وأنجمت ، وجدت النقاب الملقى على الأرض فمزقته وتركت على مزقه بقعاً من الدماء التي كانت عالقة بأنيابها .

وأقبل پيراموس بعد قليل فرأى آثار أقدام اللبوة ظاهرة في التراب الكثيف فُبَهِت ، ثم إذا هو يجد النقاب مخضّباً بالدم فيصبح : « فلتشهد هذه الليلة مصرعى كما شهدت مصرعها ، فقد كانت تُيزِيى أجدر بالحياة منى ، أنا المسمى يا فتاتى البائسة ، أنا من أوديت بك وحملتك على أن تأتى بالليل إلى هذا المكان المحضوف بالأخطار دون أن أسبقك بالمجىء إليه . إلى أينها الأسود التى تعيش فى هذا العرين من الصخور فمزقوني إرباً إرباً بأنيابكم القاطعة عقاباً لى على ما اقترفت من إثم ، ولكن كم أنا بالغ الجبن حين أقنع بتعنى الموت » . ١٢٠ والتقط نقاب تُيزِيى ومضى إلى ظل الشجرة التى كانا سيلتقيان تحتها ، وجعل يبكى ويقبل النقاب الأليف له ويناجيه قائلاً « فلتشرب أنت الآخر من دمي » . وما كاد يلفظ هذا القول حتى انتزع خنجره المشدود إلى خصره وأغمده فى جنبه ، ثم انتزعه من جرحه الدامى بعد لأى وهو مُلقى على الأرض يحترق ، فانفجر الدم من جرحه عالياً وكأنه أنبوية مثقوبة انبثق منها الماء ، وتدفق الدم عبر ثقب ضيق مرسلأ صغيراً يجلجلج فى الهواء^(٩) . وغطى دمه المتثور ثمار الشجرة بلون قان ، وشرب جذعها دمه فاصطبغت الثمار التندلية على الأغصان باللون الأرجوانى .

وكانت تُيزِيى رغم ما بها من الخوف الذى تملكها قد قفلت راجعة حتى لا يجرُك تأخرها خيبة أمل حبيبتها ، ومضت تبحث عنه بعيون ملهوفة وقلب مشوق لأن تروى له ما صادفها من أخطار وما فعلته للإفلات منها ، واهتدت إلى المكان كما اهتدت إلى الشجرة ، غير أن لون الثمار قد حرك الحيرة فى نفسها فتساءلت أكان هذا هو المكان نفسه أم لا ؟ وفيها هى حائرة وقع بصرها على جسد ينتفض مُسجى على الأرض المخضبة بالدماء ، فتراجعت إلى الخلف شاحبة مذعورة جامدة جهود خشب البقس ، مرتعشة كصفحة البحر حين تعبت بها لمسات النسيم العليل . ولم تلبث أن تعرّفت على حبيبتها ، وشرعت تولول بصوت عالٍ وتضرب صدرها وتمزق شعرها وتحتضن حبيبتها وتقبل وجته الباردين فى لفحة وعيناها على جرحه فيختلط سيل دمعها بدمه ، وتناجيه : « أى حدث وحشى هذا الذى اختطفك منى يا پيراموس ؟ أجبنى ، أنا حبيبتك تُيزِيى التى تناديك ! أنصت لى ، وارفع لى رأسك المتخاذل » . وسمع پيراموس صوت تُيزِيى ففتح عينيه اللتين أثقلها الاحتضار ثم ما لبث أن عاد فأغلقهما إلى الأبد . ولمحت تُيزِيى نقابها ورأت الغمد العاجى خالياً من خنجره فصاحت قائلة : « لقد قتلت نفسك بيدك وأودت بك حبيبتك ، فلا فعلن أنا أيضاً فعلك ، إن حى لك جارف كحيك لى ولسوف يمنحنى القوة على أن أغمد الخنجر فى جسدنى مثل ما أغمدت ، ولأمضى فى إثرك إلى عالم الموت ، ولسوف يقول الناس إننى كنت سبب بلائك وشريكك فيه أيضاً . لقد كان الموت هو وحده الذى يستطيع أن يتزعك منى ، أما اليوم فلن يستطيع أن يفصلنى عنك . وأنتا أيها الأوبان يا من كُتِبَ عليهما الشقاء ، كل ما أروجه منكمنا من فضل هو أن تدفنانا معاً فى قبر واحد مادام الموت والحب الصادق قد جمعنا بيننا . وأنت أيها الشجرة التى تظللين جثة واحدة عما قريب ستظللين جثتين ، فلتحملى إلى الأبد ذكرى موتنا بشارك التى تُثمرينها قانية اللون آسية ، كى يذكر الناس دوماً دمنا الذى نزنه معاً » . ١٦٠

ولم تكذ تيزي تفرغ من كلماتها حتى ثبتت سنّ الخنجر في صدرها وارتمت فوقه وهو مازال دافئاً بدم
پراموس . وبلغت دعواتها سمع الآلهة فحملتها إلى ذوبيا ، وغدت شجرة التوت تُثمر ثماراً تستحيل عند
نضجها أرجوانية قانية . وفي إناء واحد اجتمع ما بقي من رماد العاشقين بعد أن أخذت جلوة الحب
المتقدة .

فينوس ومارس . ليوكوثوي . كليتيه



پيكاسو : فينوس ومارس

وساد الصمت برهة بعد ما أنهت الراوية قصتها ، ثم انبرت ليوكوثوي تتحدث إلى شقيقاتها اللاتي
مضين يستمعن لها في صمت يزكيه الانتباه ، فقالت :

« إن ربَّ الشمس نفسه الذى يُسَقُّ كوكبه الساطع حياة الكون قد وقع بدوره في إسار الحب ، وسوف أروى لكنَّ كيف وقع في الشراك . فلقد كان ربَّ الشمس أول من شهد خيانة فينوس لزوجها مع مارس ، فهو الذى يرى كل شيء قبل غيره . وكان قد حنق على فينوس لسلوكلها فأنهى إلى زوجها فولكانوس [هيفايستوس] بن چونونبا هذا الاعتداء على حُرمة فراشه كما أنهى إليه المكان الذى يلوذ به العاشقان . فطار صواب فولكانوس وسقط من يديه الحديد الذى كان يشكِّله ، غير أنه بدأ لساعته في صياغة سلاسل برونزية دقيقة وشباك لا تكاد تلمحها العين أدقَّ من أدقَّ الأسلاك ومن خيوط نسيج العنكبوت العالقة بعوارض السقف ، وصاغها رهيفة حساسة تهتز لأخفَّ لمسة وأبسط حركة ثم نصبها بهارة حول الفراش ، فلم تكذ زوجته وعشيقها يذلفان إلى الفراش حتى أطبق عليها الفخ الذى ابتدعه الزوج ونصبه بحذق وبراعة وأوثقها معاً وهما متعانقان . وسرعان ما فتح فولكانوس ابن جزيرة لنوس الأبواب العاجية للغرفة ودعا الآلهة للدخول إلى حيث ترقد فينوس بين أحضان مارس ، ورأها الآلهة في تلك الوضعة الشائنة فلم يأسوا لها ، غير أن أحدهم تمخَّى لو ظفر بهذه المتعة مهما كان الثمن . وتضاحكوا جميعاً عالياً ، وبقيت القصة مثار تنذر بين الآلهة زمناً طويلاً بعد ذلك .

١٨٠

ولم تغفر فينوس سيِّدة كثيرًا هذه المكيدة لمن أفشى سرَّ حبِّها وهُدَّ غرامها المستور ، واعتزمت عقابه بإيقاعه في فضيحة غرامية مماثلة . فميم يفيدك الآن جمالك وروعتك وبيهاؤك المتلألئ ياربَّ الشمس يا ابن هيريون ؟ ها أنت ذا يا من تسطَّع الأرض كلها بنور لهيبك تلتاع اليوم بنار لهيب آخر . ها أنت ذا يا من ترى كل شيء في الكون توًّا قد علقت أنظارك بليوكوثوى لا غيرها ، على حين إن نظراتك من حق العالم كله ؛ فأنت تُشرِّق تارة مبكرًا في السماء وتتلبُّت تارة أخرى عن الغوص في خضمَّ المغيب ، وتُطيل أحيانًا ساعات النهار شتاء بسبب انغماسك في التأمل العميق ، ويصيب الكسوف في أحيان أخرى نورك حين يتسلَّل الفلق إلى نفسك فتغشاك تلك الغشاوة التى تثير الفزع في قلوب البشر ، وتشحب لا لشيء إلا لمرور القمر أمامك وهو أقرب كوكب للأرض ، هل ترى أحبك هو وحده الذى أشحب لونه ، فلقد اقتصرت عواطفك كلها على واحدة فلم تحسَّ وجود كليمينيه ولا رودوس ولا أم كيركى فاتنة بلاد آيا ولا كليتيه التى لم تياس من مقاسمتك الفراش رغم نفورك منها وشعورك وقتذاك بما خلفته في قلبها من جرح عميق^(١٠) . لقد أنستك هؤلاء جميعاً ليوكوثوى ، وقد ولدتها أمها يورونومي أجمل نساء الأرض التى تهبُّنا العطور ، والتى ما لبثت حين اكتملت أنوثتها أن أزرى جمالها بجبال أمها والجميلات الأخريات ، وكان أبوها أورخاموس ملك المدن الأخمينية سابع ملك في سلسلة أسرة بيلوس المؤسس الأول للمملكة^(١١) .

٢٠٠

تحت سماء الغرب تقع مراعى خيول مركبة الشمس التى لم تكن تغتلى بالحشائش وإنما بالأمبروزيا [طعام الآلهة] ، فيملؤها قوة وانتعاشاً بعد أن تنهكها واجباتها اليومية لكى تستطيع أن تستأنف نشاطها . وبينما كانت الخيول تلتهم غذاءها السامى والليل يحل محل النهار في السماء دخل ربَّ الشمس دار حبيته متخفياً في صورة أمها يورونومي . وكانت ليوكوثوى جالسة إلى جوار مصباح وسط خادماتها الاثنتى عشرة

٢٢٠ تلفت خيوطها الناعمة على مغزها الدوّار ، فلما رآها قبلها كما لو كان أماً تُقبّل ابنتها الغالية ، ثم قال لها : « لدى سرّ أريد الافضاء به إليك ، فلتتركنا أيتها الخاديات ولا تحرمن أماً من محادثة ابنتها على انفراد » . وفعلت الخاديات ما أمرن به ، ولما لم يبق في الحجرة سواهما كشف الربّ عن نفسه لليوكوثوى ، وقال لها : « أنا الإله الذى يقبس مسار السنة ، وأنا من يرى كل شيء ومن ترى الأرض بي كل شيء . أنا عين الكون ، صدّيقى يا ليوكوثوى فإنّ أهيّمْ بحبك » ، فاضطربت الفتاة وسقط المغزل من يدها التى جمدت من فرط فزعها ، غير أن فزعها أضفى عليها مزيداً من الجمال . ولم يطل انتظار الإله فاستعاد شكله الحقيقى وبريقه المألوف . ومع أن هذا المشهد المفاجىء قد حرّك الخوف فى قلب ليوكوثوى غير أنها انبهرت بجلال الإله واستجابت لعناقه دون أن تنبس بأية شكاة .

وإذ كانت كليتيه ماتزال تحبّ ربّ الشمس حباً لا نهاية له ، دفعته الغيرة والحقد على منافستها إلى أن تُشيع على الوجود تلك العلاقة الأئمة . ثم إذا هى نشئ بها عند أبيها أورخاموس فتنبى إليه سرّ تلك العلاقة ، وإذا هو ثور نائوته ويأبى أن يستمع إلى توسّلات ابنته وهى تقول مؤبولة : « صدّيقى يا أبى أنه اغتصبنى على الرغم منى » . وألقاها الأب الضارى فى حفرة عميقة وأهال عليها كوما من الرمال ، لكن ابن هيبيريون سارع بتشتيت الرمال بأشعته ، حتى فتح لك أيتها التمسعة ثغرة تطلّين منها بوجهك على ضوء النهار ، غير أنك لم تستطعى أيتها الحورية رفع رأسك المختنق تحت ثقل الثرى ، ولم تعودى غير جسد خال ٢٤٠ من الدم مُلقى في الحد .

وكان حزن إله الشمس قائد الجياد المجنّحة على مصير حبيبتيه أشبه بحزنه على احتراق ابنه فايثون بالصاعقة ، وقد حاول أن يعيد الحياة إلى أطراف ليوكوثوى الباردة بأشعته غير أن القدر حال بينه وبين محاولته الحارقة ، فاكفنى بأن أراق النكتار [شراب الآلهة] على جثتها وقبرها . وبعد أن رثاها طويلاً صاح : « لتصعديّن إلى السماء على الرغم من كل شيء » . وسرعان ما ذاب جسدها المضمّخ « بالنكتار » السابوى وغمر الأرض بأريجيه ، وشيئاً فشيئاً أخذ جذر شجرة البخور الذى استطلّ في الثرى يخرق القبر ويمدّ فروعه في الفضاء .

٢٦٠ أما كليتيه التى قد يغتفر لها الحب مشاعرها وتغفر لها مشاعرها وشايتها ، فلم يقف بصرها ثانية على إله الضياء ، إذ كفت عن مشاركتها متع الحب فدوّت ، وأذبلها الغرام الذى سلب عقلها ، ولم تعد تطيق رفقة الحوريات ، ومضت تقضى الليل والنهار جالسة على الأرض المترية تحت قبة السماء مُشعّنة الشعر . وعاشت تسعة أيام بلا طعام ولا شراب سوى قطرات الندى ، ولم تنهض من جلّستها قط بل بقيت على الأرض ووجهها مصوّب إلى ربّ الشمس تُديره أنى انجبه فى مساره المألوف . ولم تلبث أعضاؤها أن التصقت - كما قيل - بالأرض وتحول بعضها إلى جذع لا حياة فيه تكسوه زرقه شاحبة ، واصطبغ بعضها الآخر بلون أحمر هو رأسها الذى تحوّل إلى زهرة شديدة الشبه بالبنفسج ، تستدير فى اتجاه ربّ الشمس العزيز عليها رغم ارتباطها بجذرها ، وظلّت على حبّه وقيّة حتى بعد أن تحوّلت إلى زهرة رقيب الشمس^(١٢) .

سالماكيس وهز ما فرو ديتوس

وفرغت ليوكونوى من قصتها الغريبة التي اجتذبت أسمع رفيقاتها ، ينكرها بعضهن على حين يصدّقها البعض الآخر باعتبار أن الألهة الحقيقيين قادرين على كل شيء ، وإن كنّ جميعاً لم يعدن باخوس من بين هؤلاء الألهة . وحين ساد الصمت من جديد طلبت شقيقات الكيثوى منها أن تروى لمن بدورها قصة جديدة ، فبدأت تتحدّث وهي تدفع «مومها» عبر الحيوط المشدودة على النول وتقول :

« لن أروى لكنّ أقاصيص غرام دافنيس راعى إيدا التي يعرفها الجميع ، والذي مسخته إحدى الحوريات حين غضبت عليه لميله عنها إلى منافسة أخرى وحوّلته إلى صخرة»^(١٣) ، فما أعنف الأحاسيس التي تلتهب في نفوس العشاق . كما لن أروى لكنّ ما حدث من خروج على نواميس الطبيعة مع سيثون الذي كان تارة ذكراً وتارة أنثى ، ولن أقص حكايته يا كيليميس أيها الحارس الأمين لجوبيتر وهو طفل وقد مُسخت الآن كتلة من الفولاذ ، ولن أتحدّث عنكم أيها الكوريتيس يا أبناء الغيث الفياض ، ولن أذكر قصة كروكوس الذي تحوّل هو وسميلاكس إلى زهرتين دقيقتين . سأطرح هذه القصص جانباً لأنى عازمة على اجتذابكن بسحر قصة جديدة لا يعرفها الكثيرون^(١٤) . سوف أقصّ عليكن ماذا كان للسمعة السيئة التي لحقت بينوع سالماكيس ، وسرّ إثارة مياهه الضارة بأعصاب من يردونه فتثير الضعف والخدر في أطرافهم ، فبرغم معرفتنا الحقّة بخصائص هذه المياه إلا أن سرّ ذلك التأثير مازال خفيّاً .

أنجب ميركوريوس [هيرميس] من فينوس إلهة كثيراً طفلاً ربّته الحوريات في كهوف جبل إيدا ، جمعت قسائمه بين ملامح أمه وأبيه كما جمع اسمه هيرمافروديتوس بين اسميهما^(١٥) . وحين بلغ الخامسة من عمره ترك التلال التي وُلد فيها وغادر جبل إيدا الذي نشأ به ، وبدأت هوايته للأسفار فمضى يقصد البلاد البعيدة ويشهد الأنهار الغريبة لا تتفى الصعاب حماسه ، فبلغ في رحلاته مدن لسيا وبلاد الكارين القريبة منها ، واكتشف بهذه المنطقة بركة صفت مياهها فبان قاعها ، ولم تكن تحفّ بها أعواد الغاب ولا خلفاء الماء ولا النباتات الشائكة التي تنتشر حول المستنقعات ، بل تغطى شواطئها بالأعشاب الرطبة الخضراء ، وتسكن بها حورية غير ملرّبة على الصيد لا تحلق إطلاق السهام ولا سرعة العذو ، وكانت الحورية الوحيدة التي لم تلقها ديانا السريعة الخطو . ويروى أن شقيقاتها كثيراً ما كن ينصحنها قائلات : « اتخلدى لك ياسالماكيس ربحاً قصيراً أو جعبة سهام مزدانة بألوان فاقعة ثم انضمي إلى صفوف الصائدات ، وأضيفي إلى متع هواياتك جولات الصيد الشاقة » ، غير أنها لم تتخذ لنفسها ربحاً قصيراً ولا جعبة سهام ذات ألوان فاقعة ولا انضمّت إلى صفوف الصائدات ، ولا أضافت إلى متع هواياتها جولات الصيد الشاقة . وبقيت لا عمل لها غير الاستحمام في بركتها وتصنيف شعرها بمشط من كيتوروس^(١٦) ، محملة في الماء الصافي تتأمل على صفحته مفاتن جمالها ، ملتفة بغلالة رقيقة ، مستلقية على فراش من أوراق غضة

٢٨٠

٣٠٠

وأعشاب لينة ، ومن حين إلى حين تنهض لتقطف الزهور . وذات يوم وقع بصرها على الصبي هيرمافروديتوس ، فإذا هي مُحسّسة لهفة إلى الاستئثار به . وعلى الرغم من شوقها وتعجبها الدنوم منه فقد تباطت في أخذ زيتنها وإصلاح هندامها لتتجلى له في أبهى صورة ، ثم بادرت قائلة : « ما أجدرك أيها الفتى الجميل بأن تعُدَّ لها . وإذا كنت لها فلعلك كيويدي ؟ أما إذا كنت بشراً فلا شك أن أبويك مباركان وأن ٣٢٠ شقيقك سعيد وشقيقتك أكثر سعادة إن كانت لك شقيقة ، وسعيدة كذلك مرضعتك التي رعتك ، وأكثر من هؤلاء سعادة حبيبتيك التي ستخذ منها زوجة إن كانت لك خطيبة . فإن كانت لك خطيبة دعني أنعم بحبك سراً ، وإن لم تكن لك خطيبة فلست أتمنى إلا أن أكون عروسك التي تشاطرك الحياة إلى الأبد » .

ولم تكد الحورية تفرغ من حديثها حتى تورّد وجه الفتى الذي لم يكن قد عرف الحب بعد ، وزاد هذا التورّد من جماله فأضحت وجنتاه في لون التفاح الناضج المتدلّي من شجرة نغمها أشعة الشمس أوفى لون العاج المصبوغ بالأرجوان ، أوفى لون القمر تكسو الحمرة سطحه الأبيض ساعة تُصكّ الصنوج البرونزية لتدفع عنه الحسوف^(١٧) . وألّحت الحورية في تقبيله ولو قيلات أخوية ، وحاولت أن تضمّ عنقه العاجي بذراعيها فصاح بها : كُفّي عن عبثك وإلا مضيت بعيداً مخّلياً هذه الأرض بين مائتها » . فسرت في جسد الحورية رعدة وقالت له : « لا تبعدنّ عنك ولن أتفطّل عليك بعدُ أيها الغريب » ، وأدارت له ظهرها متظاهرة بعزمها على الرحيل بينما كانت تحظو وعيناها تتلفّتان إليه حتى إذا ما وارتها أشجار أكمة كثيفة ركعت على ٣٤٠ الأرض كي ترتبه . واطمأن الفتى حين أحسّ أنه وحده واقترب من البركة ومدّ قدميه إلى الماء كاشفاً عن ساقيه ، وأغراه الماء فخلع ملابسه . وما إن فعل حتى ذهب جماله العارى بلُّبّ سالماكيس ، فلمعت عينا الحورية لمعان قرص الشمس وهو يعكس على المرأة ، وعجزت عن أن تتمالك نفسها وتحرّقت عشقاً ورغبة عارمة في أن تضمّه إلى صدرها ، وكادت لا تقوى على إمساك زمام شهوتها المشبوبة . وبصفحة كَفّيه ضرب الغلام على خصره وقفز إلى الماء يسبح خابطاً الماء تارة بذراعه اليميني وتارة بذراعه اليسرى ، يُبرق جسمه من تحت الماء الصافي وكأنه تمثال من العاج أو زنبقة تحت لوح من الزجاج الشفاف . وخلعت هي الأخرى ثيابها مُطوّحة بها هنا وهناك وقفزت وراءه إلى البركة صائحة : هل أنذا قد ظفرت به . وأمسكت بالفتى الذي أخذ يقاومها غير أنها أفلحت في تقبيله عنوة ، وتسَلّلت يداها من تحتها فلمست صدره النافر ، وشرعت تحتضنه مرّة من جنبه الأيسر ومرّة من جنبه اليمين كما تلتف الأفعى حول النسر ملك الطير حين يلتقطها بمنقاره ويعلو بها محلّقاً في السماء فلا يسعها إلا أن تلتف حول رأسه ثم حول ساقيه حتى تستطيع ضمّ جناحيه بذيلها كي يهوى ، أو كما يلتف اللبلاب على جذع شجرة ضخمّة ، أو كما يشلّ الأخطبوط حركة فريسته في أعماق البحار بتطويقها بأذرعه من كل جانب . وقاوم سليل أطلس الحورية^(١٨) لا يريد أن يمنحها المتعة التي كانت تتوق إليها ، غير أنها أحكمت قبضتها وطوّقت به جسدها كله ملتصقة به صائحة : « قاوم ما شئت لكنك لن تُفَلّت مني أيها الوغد ، ولتمنحنى الآلهة أمنيقي فلا يأتي يوم ينفصل فيه هذا الفتى عنى أو انفصل عنه » . واستجابت الآلهة وحققّت لها أمنيقتها ، وأخذ جسداً الملتصقان وأصبحا شخصاً واحداً بعد ما كانا شخصين . وكما تنمو الشجرتان صنوين معاً لا يفترقان ، كذلك

التحمت أطراف الفتى بأطراف الحورية في عناق متلاصق ، فصارا شخصاً واحداً وإن بقيا بطبيعة مزدوجة لا ندرى أيهما ذكر أم أنثى أو أيهما شيء واحد معاً أو أيهما ليسا من هذا ولا ذلك .

٣٨٠
وحيث رأى هيرمافروديتوس أن الماء الصافي الذي نزل إليه ذَكَرَ قد أحاله آخر الأمر إلى نصف ذكر وأن أطرافه قد تخالفت ، رفع يديه إلى السماء متوسلاً بصوت لم يُعَدَّ صوت ذَكَرٍ : « أباه . أماه . ناشدتكما أن تُحَقِّقا أمنيّة ولدكهما الذي يجتمع اسمكما في اسمه ، وهى أن يخرج كل من ينزل إلى هذه البركة من الرجال . وقد غدا خُنثى ما بين رجل وأنثى » ، واستجاب الوالدان لضراعة ابنتها الذي صار ذَكَرًا وأنثى فلوثنا مياه البركة بسحر مَرَوِّع يصيب كل من ينزل بها .

٤٠٠
وحيث انتهت القصة كانت بنات مينياس لازلن منشغلات بأعمالهن ، مستخفّات بالإله ، مزدريات بأعياده ، حتى إذا علت فجأة دقات طبول خفيّة تصاحب أنغام مزامير مقوّس وصكّات صنوج نحاسية وانتشر في الهواء أريج مرّوزعفران ، أخذت الأنوال عندها تخضّر . والعجيب الذي يقرب من المستحيل أن النسيج نبتت به أوراق كأوراق اللبلاب وتحوّل جزء منه إلى كروم ، كما تحوّلت الخيوط إلى محاليق ، وأطلّت أوراق الكروم من سدّة النسيج وعلت عناقيد العنب الناضج حمرة الأرجوان واقترب النهار من الزوال ، وأطلّت عتمة لا تكاد نعرف أمين الليل هي أم من النهار ، وذلك حين اختلطت خيوط النهار المودّع بخيوط الليل المُقْبِل . وفجأة اهتزت جدران البيت وتوهّج زيت المصابيح ، وانطلق عواء وحوش ضارية في أنحاء الدار ، وسارعت الشقيقات فاختفن في مواقع مختلفة من دارهن التي ملأها الدخان ، هاربات من ذلك العواء وهذا الضوء المتوهّج الذي أخذ يزحف إلى الأركان المظلمة ، وأخذ غشاء رقيق ينمو فوق أجسادهن الضامرة ، وانطوت أزعهن في غشاء خفيف غدا جناحين . ولكن كيف فقدن أشكالهن الأولى ؟ إن الظلام غيَّب عنا تعرّف كنه ذلك . ومع أنه لم يكن هن ريش يطرن به فقد حلّقن في الهواء بأجنحة شفافة ، وحيث حاولن الكلام لم تنطلق شفاههن إلّا بألغاز واهنة ضئيلة ضالّة أجسادهن التي مُسخت خفافيش ، ولم يستطعن أن يُفصحن عن شكواهن إلّا بنعيق حاد ، وبدأن يتردّدن على الأطلال لا الغابات ولا يجلّفن إلا خلال الليل لكراهيتهن للضوء ، واشتق اسمهن « فسبيرتيليونيس » من اسم نجم أعماق الليل « فسبير » (١٩) .

أثاماس وإينو

٤٢٠
انتشرت عبادة باكخوس في أنحاء طيبة ، وراحت خالته إينو^(٢٠) تتحدّث عما يُروى من جبروت الإله الحديد ، وكانت الوحيدة من أسرته التي لم ينلها سوء ولم يُعزّبها شيء إلّا ما حاق بشقيقاتها . ورأتها چونو مزهوّة بولديها من أثاماس وبالإله الذي رعته في طفولته ، فضاق صدرها وناجت نفسها قائلة : « لقد مسخ ابن غريمقي الملاحين الليديين أسماكا وألقى بهم في البحر ، وأثار أمّا حتى مرّقت جسد ابنها إربا إربا ، ثم

غشى ثلاثة من بنات مينياس بأجنحة من نوع لم ير له من قبل مثل ، على حين أجدى أنا چونو جامدة لا أجد ما أفعله غير البكاء أمام إهانات وُجِّهت إلى دون أن أثار لها ؟ هل في هذا ما يُشبع رغبتى ؟ وهل هذا هو مدى قوق وجبروتى ؟ ألا إن باكخوس نفسه قد لقتنى درساً وما أهوب أن يتعلم المرء من خصمه ، فقد كشف لى عما يمكن أن يسفر عنه الغضب حين قضى باغتيال پيتيوس ، لماذا إذن لا تُصاب إينو بلسعة الجنون الذى حاق بدويها من قبل ؟ » .

وكان ثمة طريق تواريه ظلال أشجار الصنوبر ينحدر من التلال مؤدياً إلى العالم السفلى عبر مناطق ساكنة خرساء تغطّيها مائة نهر ستيكس الراكدة التى يعلوها الضباب ، وكانت أرواح الموتى^(٢١) تسلك هذا الطريق بعد أن تفارق أجسادها تاركة إياها فى مقابرها ، وكانت الكآبة والبرودة يجتبان فى هذه المنطقة المقفرة التى تصل إليها الأرواح حين تأتى للمرة الأولى إلى عالم الأموات ، أو تقصد قصر ديس [بلوتو] الملهم . وكانت هذه المدينة الفسيحة ذات الطرق الألف والأبواب المفتوحة فى جميع الجهات تستقبل أرواح الموتى كما يستقبل البحر أنهار الأرض جميعها ، لا تضيق بشعب من الشعوب ولا تغص بزحمة الوافدين . هنا وهناك تروح الأطياف وتحمىء بعدما تخلّصت من الدم واللحم والعظام ، يبول بعضها فى ساحات الأسواق ويبيم البعض الآخر حول قصر ملك العالم السفلى ، وتحاكى جماعة الحرف التى كانت تمارسها فى حياتها الماضية ، ويدوق آخرون العقاب على ما اقترفوه فى حياتهم من آثام .

غادرت چونو ابنة ساتورن مسكنها السهاوى لتزور هذه البقعة مستسلمة لغضبها وحقدّها فأنت عبنة العالم السفلى تحت ثقل جسدها المقدس ساعة دخولها ، ورفع كيريروس رؤوسه الثلاثة وقد نبحت ثلاث نبحات . وعندها نادى چونو « بنات الليل » [ربّات الانتقام] تلکم الشقيقات الرهييات الجالسات أمام أبواب سجن الجحيم الفولاذية يصفّفن شهورهن الثعبانية . وحين عرفن الإلهة برغم عتمة الضباب وقفن إجلالاً لها فى المكان المسمى « الديار الأئمة » [مقرّ الأشرار] حيث يرقد تيتيوس فوق أفدنة تسعة مُسلماً أحشاه للنسور تمزّقها ، وحيث يمسّ تانتالوس الظمأ ولا يستطيع أن يبلغ الماء ، كما يهفو إلى الشجرة المظلة عليه دون أن يستطيع قطف ثمارها ، وحيث يحاول سيزيفوس الإمساك بالصخرة أو دفعها وهى موشكة أبداً على السقوط ، وحيث يدور إيكسيون على عجلة حول نفسه ، وكان وهو تطويه العجلة فى دورانها كان بعضه يهيمّ بأن يلحق بعضه الآخر فلا يكاد يبلغه^(٢٢) ، وحيث تحاول حفيدات بيلوس الاعتراف من ماء لا يستطعن الاحتفاظ به عقاباً لمن على ما ذُبرن من اغتيال أزواجهن أبناء عمومتهن .

وحدجت چونو الجميع بنظرة صارمة ولاسيما إيكسيون ، ثم التفتت إلى سيزيفوس قائلة : « لماذا يلقى هذا الرجل عذاباً متصلاً ما هنا بينما يعيش أخوة أثاماس المتفطرس وزوجته فى قصر مُنيف على الرغم مما يبدو عليهما من ازدراء لى^(٢٣) ، ثم بدأت تُفصح عما تبتغيه وهو تخريب قصر كادموس وتخريض ربّات الانتقام على دفع أثاماس إلى ارتكاب الجريمة ، وتتابع من فمها الوجود تلتمس من الربّات العون ، حتى إذا أنهت حديثها هزّت تيسيفونى رأسها الشيباء وأزاحت عن وجهها الأفاعى التى كانت تغشاه ، وقالت : « لا حاجة بك إلى المزيد من الإيضاح ، ولتطمئننى إلى تحقيق كل ما أمرت به . فلتغادرن هذا المكان

الكئيب ولتعوى إلى السماء التي إليها تنتمين . وعادت جونو إلى مسكنها فرحة ، وحين أوشكت على النفاذ إلى السماء طهرتها إيريس ابنة ثاوماس بقطرات من رذاذ الماء نثرتها عليها . ٤٨٠

ومرغان ما أمسكت تيسيفونى القاسية بمشعلها المغمور بالدم وأتشحت بمعطفها الذى صبغه سيل من الدم بلونه الأحمر ، وتمتطقت بشعبان محوى حول خاصرتها ، وغادرت دارها فى صحبة ربأت الحزن والخوف والرعب والجنون الراعش القسيات ، ووقفت على باب بيت أيولوس حيث يسكن ابنه أثاماس ، فاهتزت أعمدة المدخل وشحب لون الأبواب المصنوعة من خشب الزان ، وهربت الشمس من مكانها المألوف فى السماء . وأفزعت هذه الإشارات المشؤمة زوجة أثاماس الذى لم يكن أقل منها فزعاً ، وحاولا الهرب من الدار ، غير أن ربة الغضب الرهيبة اعترضت طريقهما عند المدخل ومدت ذراعيها الملتصق حولها الثعابين ، وهزّت برأسها فأرسلت الأفاعى فحيجها وانفلت بعضها على كئيبها وبعضها على صدرها تفىء نفثاتها وتُصفر بيننا اندلعت ألسنتها المرعدة خفاقة . ثم انتزعت من ضفائرها ثعبانين طوّحت بهما فسقط أحدهما على صدر إينو والأخر على صدر أثاماس ، ونفثا فيها أنفاسها السامة ، ومع أن جسديهما لم يُمسأ بأى جرح فإن الضربة القاسية قد مسّت روحها . وكانت تيسيفونى قد أحضرت معها ضمن ما أحضرت سائلاً ساماً فتأكأ أعدته إحدى الساحرات من رغاء فكى الكلب كيربيروس ومن سمّ الأفعوان إخيدينا^(٢٤) ومن خليط من الجنون المصحوب بالهذيان ، ومن فقد الذاكرة الذى يُعمى العقل ، ومن الدموع والجريمة والسُّعار وشهوة القتل . وقد طحنت الساحرة ذلك كله معاً ونذّته بدماء حارة وطهته فى قدر برونزى بعد تقليبه بعضاً خضراء من نبات الشوكران السام . وألقت تيسيفونى هذا السم الذى يسلب العقول على الملك والمملكة وهما واقفان يرتعدان ، ثم أشعلت مشعلها وأدارته حولها مرات ومرات ، حتى إذا أدت المهمة التى عهدت بها إليها جونو واطمأنت إلى نجاحها عادت إلى مملكة أرواح الموتى التى يحكمها ديس ، ورفعت الثعبان الذى كانت قد تمتطقت به . ٥٠٠

وعندها أصيب أثاماس بن أيولوس بالجنون . ومع أنه كان لا يزال داخل أسوار قصره إلا أنه أخذ يصبح قائلاً : « إلى يا أصدقائى ! أنشروا شباككم فى هذى الغابات ! فقد لمحت الآن لبوء فى صحبة شبلها » . واندفع الأحمق فى إثر زوجته يطاردها وقد تخيلها وحشاً مفترساً ، ثم اختطف من بين ذراعيها طفله ليأرخوس الذى كان يتسم له ويسيط نحوه ذراعيه ، واستدار به ثلاث مرات ثم أطلقه كالمقلاع فهشمت رأس الطفل على الصخور . وجنّ جنون المرأة حزناً على ولدها أو تائراً بفعل السم الذى أفقدها صوابها ، وانطلقت تعوى هاربة مشعثة الشعر وعلى ذراعيها طفلها الرضيع ميليكيرتيه وتصيح : « إيويه يا باكخوس ! » . وسمعتها جونو تنطق باسم باكخوس فقهرت ساخرة وهى تقول : « عسى أن ينفعك ذلك الطفل الذى ربّيته ببركاته » . ٥٢٠

وصعدت إينو قمة تل صخرى يُشرف على البحر الذى أكلت أمواجه سفحه الأدنى لتمرّ المياه تحته بمنأى عن هطول الأمطار ، وكانت لصخور قمته أسنان حادة تمتد فى فضاء البحر . وكان جنون إينو قد أمدها بالقوة على تسلقّ القمة دون أن يشيها الخوف عن هدفها ، ومن القمة ألقت بنفسها هى والطفل الذى

تحمله في مياه البحر ، فأزبدت الأمواج في المكان الذي سقطا فيه . غير أن فينوس أخذتها الشفقة بحفيدتها البريئة فتوسّلت إلى عمها نبتون قائلة : « يا إله البحر العظيم الذي تلى منزلته مملكة السموات جلالاً ، سألتك أن تنعم عليّ بمئة كبرى فترفقَ بهذين العزيزين اللذين ترى الأمواج تلعب بهما في البحر الأيوني ولتضمّهما إلى حاشيتك من آلهة البحر . إن حقا إني من زبّد البحر خلقت ومن أعماقه المقدّسة انبثقت فكم أنا إليه مدينة ، وما زال اسمي اليوناني « أفروديتي » يذكّرني بهذا الأصل »^(٢٥) . واستجاب نبتون لرجائها ٥٤٠ فجردَ إينو وولدها من شخصيتيهما البشرية وأضفى عليهما جلال الربوبية وأعطاهما اسمين جديدين يناسبان شكليهما الجديدين ، وأسمى الإله الجديد بالايون وضمّه إلى حاشيته هو وأمه التي أسماها ليوكوثوي^(٢٦) .

وكانت وصفات إينو الفينيقيات قد اقتنيت آثار قديمها إلى أن غابت عنهن تلك الآثار عند حافة صخور تشرف على البحر ، ولم يساورهن شك في وفاتها فأسين لمصير أسرة كادموس ويكين عليها وضرين صدورهن ومزقن شعورهن وثيابهن ، ورمين جونو بالظلم لقسوتها البالغة على منافستها ، فامتلات الإلهة سخطاً عليهن لاتهامهن لها وتوعدهن قائلة ، « لسوف تَلْقَيْن جميعاً ما يذكركن بجبروق دوماً » ، وما أسرع ما نقلت وعيدها . وحين همت أوفى وصفات إينو بالقاء نفسها من أعلى الصخور في البحر وهي تصيح : « لسوف أتبع مليكتي إلى أعماق البحر » ، إذا هي تجهد نفسها عاجزة عن الحركة وقد جمّدت في مكانها ملتصقة بالصخور . وأحسّت ثانياً وهي تندب ضاربة صدرها تصلّب ذراعها حين حاولت رفعها . وجمّدت ثالثة كانت تشير بيدها نحو موج البحر ويقيت ذراعها ممدودة لياهاه ، كما جمّدت أصابع رابعة بين خصلات شعرها وهي تشلّه . وهكذا جمّدت كل واحدة منهم على الوضعة التي كانت تتخذها ساعة فاجأتها اللعنة التي صبّتها عليهن الإلهة ، وتحولت الأخريرات من نساء طبيه إلى طيور تحوم فوق البركة ٥٦٠ وتحفّ بأجنحتها على سطحها .

كادموس وهارمونيا

ولم يبلغ العلم بكادموس بن أجينور أن ابنته وحفيده قد تحوّلوا إلهين من آلهة البحر ، وكان الحزن قد أضناه بعد سلسلة الكوارث التي نزلت به وتملكه الفزع مما شهدته من نذر الشؤم ، فاعتزم الرحيل عن المدينة التي أسسها متخيلاً أن الشؤم الذي يعصف به مرته إلى شؤم المكان لا إلى شؤمه هو .

وبعد أسفار طويلة مع زوجته التي صحبتته في هجرته وصلا أخيراً إلى بلاد إليريا^(٢٧) وقد أحنت الشيوخوخة والأحزان ظهرهما . ومضيا يستعيدان في الحين بعد الحين أمجاد سلالتها وإذا كادموس يتساءل ذات مرة وهو يستعرض مأساة أسرتهما : ألم يكن حقاً أن ذلك الثعبان الذي صرعه برمحي مقدّساً ، ذلك الذي نثرت أسنانه قبل حين رحلت عن « صيدا » أول مرة على أنها نوع جديد من البذور فوق تربة الأرض ؟ فإذا كان موته هو الذي حرّك الألهة كي تنتقم مني ، فإني أتوسّل إليها أن تمسخني أفصواناً مثله فيمتدّ جسدي ويتحوّل كجسد الثعبان » . وفيها هو يتحدث بدأ جسده يتمدّد ويأخذ شكلاً متحلّقاً طويلاً

كالثعابين ، وتصلب جلده واصطبغ بلون أسود ، وظهرت عليه بقع زرقاء مخضرة تُلقي شيئاً من الضياء على لونه الداكن ، ثم سقط على صدره فانضمت ساقاه وأصبحتا ساقاً واحدة أخذت تستطيل وتدق حتى انتهت إلى ذيل مدبب ، لكن ذراعيه بقيتا على صورتها البشرية . وكذلك بقى وجهه الذى غمرته دموع عينيه فانبرى يقول : « هلمى إلى يا آنس الزوجات ، وتحسسى ما تبقى من صورتي البشرية ، خذى بيدي وهى ماتزال يداً قبل أن أتحوّل أفعواناً كاملاً » . وما لبث أن عجز عن مواصلة الحديث فقد انشطر لسانه فجأة إلى شطرين ، وخانه لسانه رغم رغبته العارمة فى الحديث ، وأصدر فحيحاً غريباً كلما حاول أن يندب حظه . وكان ذلك هو الصوت الوحيد الذى أتاحت له طبيعته الجديدة .

وضربت زوجته صدرها العارى بكفها صائحة : « ناشدتك ألا تهجرنى أيها الزوج المنكوب ، ولتخرج من هذا الشكل البشع يا كادموس . ماذا حل بك ؟ أين قدمك ويداك وكنتفاك ولون بشرتك وملاحمك ؟ لقد اختفت معالمك كلها وأنت تبادلنى أطراف الحديث . ألا فلتمسخني أيها القوى السهاوية بالمثل على صورة هذا الأفعوان » .

وجعل كادموس يلعق وجنتى زوجته منزلقاً بين أحضانها كما كان يفعل من قبل ، وانبرى يقبلها ويحاول التعلق بعنقها على غرار ما كان يفعل فى الماضى . وفرغ جميع أصدقاء كادموس وكانوا مازالون إلى جانبه ، بينما تربت زوجته على الرقبة الملساء للثعبان المتوج بريشة ، وما لبثت أن مسخت هى الأخرى وصارا ثعبانين يزحفان معاً ، وطوّق أحدهما الآخر حتى اختفيا فى غيضة مجاورة ، وبقياً منذ ذلك الوقت حتى اليوم ثعبانين مُستأنسين يأنسان بالبشر ولا يغيب عنها أنها كانا من البشر .

پيرسيوس . أطلس . أندروميدا

ووجد كادموس وزوجته عزاء كبيراً عن فقدان شكلهما البشرى فى حفيدهما الذى غزا الهند وقَدسه مواطنوها وألوهه كما أقبلت حشود الأخيين [اليونانيين] تصلى له فى المعابد التى شُيِّدت لتكريمه . ولم يشد إلا أكريسيوس بن أباس المنحدر من نفس السلالة التى انحدر منها باكخوس إذ بقى يصد الإله عن أسوار مدينة أرجوس ، ويحمل السلاح ضده رافضاً التسليم بمولد باكخوس الإلهى مثلما رفض التسليم ببنة پيرسيوس لچوبيتر الذى حملت به داناي بعد أن أخصبها چوبيتر حين أنها فى صورة شذوب من القطرات الذهبية (٢٨) .

غير أن أكريسيوس سرعان ما ندم على تفريطه فى حق الإله باكخوس وإنكاره ببنة حفيده پيرسيوس لكبير الآلهة ، فما أقدر الحقيقة على أن يكتب لها الفوز . وبينما الساء تستقبل الإله باكخوس كان پيرسيوس عائداً إلى وطنه يشق طريقه مخلقاً بجناحيه الرفافين فى أجواز الفضاء حاملاً معه رأس ميدوسا ، تلك الغنيمة الجلدية بالذكر التى ظفر بها فى صراعه مع تلك المخلوقة الغريبة ذات الرأس المكتسى بشعرٍ من

الأفاعى . وبينما هو يملق في سماء صحراء ليبيا سقطت بعض قطرات الدم من رأس الجورجونة الذى كان يحمله البطل الظافر فاحتضنتها رمال الأرض وأحالتها إلى أنواع مختلفة من الأفاعى ، وهذا سرّ امتلاء هذه البلاد بمختلف أنواع الثعابين الفتاكة . وأخذت الرياح الهوجاء بعد ذلك تدفع بيرسيوس فى أنحاء القبة السهوية الشاسعة وكأنه سحابة حُبلى بالمطر تتلاعب بها الرياح ، يطوف فوق الأرض ويتأملها من عل ، فرأى كوكبى الدب الأكبر والدب الأصغر الشديديق البرودة ثلاث مرات ، كما شاهد مغالب كوكبة السرطان مرات ثلاث ، وكم من مرة دفعت به الريح إلى الغرب ثم أعادته إلى الشرق .

وعندما أوشك النهار على الغروب لم يأتمن بيرسيوس ظلمة الليل فحطّ على قمم هيسبيريا فى مملكة أطلس^(٢٩) بالغرب ، وحاول الإخلاء للراحة حتى ينادى لوسيفر نجم الصباح^(٣٠) أضواء الفجر وتُسرح أورورا ربّة الفجر جياذ النهار . هناك كان يعيش أطلس بن ياپيتوس الذى كان جسده يفوق أجساد البشر ضخامة ، وكان يحكم أقصى أطراف الأرض ، ويمتد ملكه إلى تلك المياه التى تستقبل جياذ إله الشمس المكدودة ساعة تَأرى مركبته المرهقة إثر رحلتها خلال النهار ، وتزدحم مراعيه بالآلاف القطعان التى يملكها من الأغنام والماشية ، ويملك شجرة تتألق عليها أوراق ذهبية وتتدلّى من غصونها ثمار من ذهب . ٦٤٠

وحينها أوى بيرسيوس إلى هذا المكان قال لأطلس : « إذا كنت أبها الصديق من يهتمون بعراقة الأصل فأنا سليل جوبيتر ، وإذا كنت عن تستهويهم مآثر البطولة فإنك لا شك معجب بما فعلته ، ولقد جئت ملتسماً ضيافتك » . وسرعان ما تذكّر أطلس مشيئة الأقدار الغابرة التى كشفت له عنها يومائيمس من فوق جبل پارناسوس حين قالت له : ليسرقنّ ابن من أبناء جوبيتر الثمار الذهبية لشجرتك يا أطلس وينعم بها . فأحاط أطلس حدائق فاكهته - خشية تحقق هذه النبوءة - بأسوار منيعة ، ووضعها فى حماية أفعوان هائل وحزم أمره على منع الغرباء من دخول مملكته ، ولهذا ردّ بيرسيوس عنه قائلاً : أعزّب عنى وارحل من هنا ، وإذا حدّثتك نفسك باللجوء إلى قوتك فلن تمجديك نفعاً وإن استعنت بجوبيتر نفسه .

وحين تلكأ بيرسيوس فى الرحيل انتقل أطلس من التهديد إلى العنف ، وحاول الإلقاء به بعيداً فقاومه الآخر فى بسالة وهو يحاول كسب وقته بعبارات رقيقة ، حتى إذا أدرك ضعفه أمام أطلس [ومن ذا الذى يستطيع أن يدانى أطلس فى قوته ؟] صاح قائلاً : « إذن ، مادمت لا تعباً بالصدّاقة ، فأليك هذه الهدية » ، وأدار وجهه قبل أن يكشف بيده اليسرى عن رأس ميدوسا الشيع فتحول أطلس عندها إلى جبل عملاق كما كان عملاقاً بين البشر ، وإذا شعر رأسه وشعر لحيته أشجار ، وإذا يده وكفاه سفوح جبال ، وإذا رأسه قمة جبل ، وإذا عظامه صخور . وما لبث هذا الجبل أن امتدّت أطرافه فى جميع النواحي ، كما علا حتى بلغ عنان السماء ، وإذا النجوم العديدة فى قبة السماء ترتكز عليه . وكان هذا كله لوفى مشيئة الآلهة .

وبينما هذا يحدث كان أبولوس^(٣١) بن هيبوتيس قد حبس الرياح فى سجنها الأبدى ، وأشرق لوسيفر نجم النهار يتلألأ فى السموات العلّ مستنهضاً البشر للقيام بواجباتهم اليومية . وعاد البطل إلى جناحيه

وثبتهما على قدميه وتسَلَّح بسيفه المقوَّس وشقَّ طريقه في الهواء الشفيف بحركة من نعليه المجنَّحين ، وطار عابراً فوق عدد لا يحصى من شعوب الأرض كانت بلادهم تنبسط تحته في جميع الاتجاهات إلى أن وقع بصره على القبائل الإثيوبية^(٣٢) وحقول كيبوس حيث كان « چوپيتر آمون » قد أصدر أمره الجائر بأن تعاقب أندروميذا على تناول أمها بأحديتها المتباهية .

وعندما شاهد بيرسيوس الأميرة مكبَّلة الذراعين بالسلاسل مشدودة إلى الصخر الصَّلب ، خيَّل إليه أنها تمثال من الرخام لولا شعرها الذي كان يعبث به النسيم والدموع الحارة التي كانت تنهمر من عينيها ، وشدهه جمالها النادر فوقع في هواها على غير وعى منه ، وأنسى تحريك جناحيه في الهواء حتى إذا لامس الأرض بقدميه صاح فيها : « ليس لك أن تكبِّل بهذه السلاسل ، وأجدر بك القيود التي تُغَلِّ قلوب العشاق ! ناشدتك أن تذكرى لي اسمك واسم بلدك والسبب الذي من أجله شددت إلى هذه الأغلال » . ٦٨٠

ولزمت الأميرة الصمت في بادئ الأمر ، فما كانت لتجسر على مخاطبة رجل وهي فتاة عذراء ، ولولو لم تكن يداها مقيدتين لأخفت وجهها بكفَّيها استحياء ، ولكنها لم تكن تملك غير أن تذرف الدموع . وحين ألحَّ عليها بيرسيوس بأسئلته المرة تلو المرة خشيت أن يفسر صمتها على أنه اعتراف بذنب ارتكبه ، فكشفت له عن اسمها واسم بلادها ، وعن زهو أمها الفاتنة بجمالها . وقبل أن تُكْمَل قصتها ارتفع صخب مياه المحيط وبرز من بينها وحش يتهدَّدها وقد انبسط صدره على رقعة فسيحة من الأمواج فنذت عن الفتاة صرخة مدوِّية ، وكان والداها على مقربة منها وقد طواهما حزن عميق غير أن أمها كانت أشدهما حزناً . وكانا عاجزين عن تقديم أى عون لها لا يملكان سوى ذرف الدموع عليها والنحيب والتعلُّق بها وهي مكبَّلة بالسلاسل . وحين وقع عليها بصر الوافد الجديد ، قال لها : « قد يكون أمامكما فسحة طويلة من الوقت تسكبان فيها الدموع كما تشاءان ، غير أنكما لا تملكان غير وقت لا يطول إذا أردتما مساعدتها ، أنا بيرسيوس بن چوپيتر من داناى التي لَقَّحها بلذبه المُخْصِب بيننا كانت سجينة أحد الأبراج ، أنا بيرسيوس الذى قهر الجورجونة ذات الجداول الثعبانية . أنا من حلَّق خلال طبقات الهواء بأجنحتي المرفرفة . ولو أننى تقدمت لخطبة فتاتكم لأترننى على غيرى ، غير أننى آثرت أن أكون موضع الاختبار مرة أخرى كى أضيف إلى ما ذكرته لكما من أعجاب بطولته جديدة أحققها بعون الألهة لى . فلتعدان بأن تكون هذه الفتاة من نصيبى إذا قُدِّر لي أن أنقذها بجرأتى ، ولسوف أكون عند عهدى » . ورضى أبوها بهذا ، [ومن ذا الذى لا يرضى !] ٧٠٠

وتوسَّلاً إليه أن ينقذها ووعده بأن يمنحها مع ابنتها مملكتها هدية عرس له . وكان الوحش مقبلاً آنذاك يشق الأمواج بصدره مسرعاً وكأنه سفينة تمخر عباب الموج بمقدِّمها الحاد تدفعها قوة سواعد ملاحها المفتولة ، واقترب حتى لم يبق بينه وبين الصخرة سوى مسافة لا تتجاوز مرمى المقلع البليارى . وحلَّق بيرسيوس عالياً في السحب ، وانعكس ظلُّه على سطح الماء فشرع الوحش يهاجم هذا الظل في شراسة ، بينما انقض بيرسيوس على ظهره وأغمد سيفه في كفه اليمنى إلى مقبضه المنحني وكأنه نسر چوپيتر عندما يهاجم ثعباناً وقع عليه بصره وقد تحوَّى حول نفسه وسط حقل مقفر فيقبض عليه من الخلف ناشباً مغالبه الشره في عنقه ذى الحرافيش خشية أن يلتفت فيواجهه بأنياه السامة . وأخذ الوحش ينجور خواراً بعد أن ٧٢٠

أثار الجرح العميق فيه ألماً شديداً جعله ينتصب عالياً في الهواء ثم يغوص في المياه وكأنه خنزير برى مفترس حاصره رهط من الكلاب الضارية أثارته فزعه بنباحها . وانطلق البطل يبحر حول الوحش بجناحيه السريعين متوقفاً أنيابه النهمة ، ويلاحقه بضربات سيفه المقوس في أى جزء يلوح له منه ، فمرة يطعن ظهره المكسوي بابر مسننة من المحارات الجوفاء ، ومرة يمزق أضلاعه ، وأخرى يشطر ذيله الذى انكماش حتى صار كذيل السمكة ، ويطوح المرة بعد المرة بسيفه المقوس كالمنجل فيصق الوحش من فمه سيلاً أحمر مصطبغاً بدمه الذى بلل رذاذه جناحيه بيرسيوس وأثقلها . وإذ خشى مواصلة الاعتداء على ريشه بعدما ابتل ، لمح صخرة تبرز فوق سطح الماء ساعة هدأ لم يلحقها ساعة كان نائراً ، فتعلق بها وأمسك بيده اليسرى تنوءاتها المدببة وطعن بسيفه جنبي الوحش ثلاث ورباع حتى أجهز عليه ، فرددت شواطئ البحر ورياض السهائ أصوات التهليل والتصفيق وغمر الفرح كلا من كاسيوي وكيفيوس واحتفيا بصهرهما بيرسيوس منقذ الأسرة وحماهما ، وهكذا كانت أندروميذا مبعث بطولته الأخيرة وجائزتها في آن واحد . وهبطت الفتاة من الصخرة بعدما تحررت من قيودها ، وغسل البطل الفائز يديه في الماء الذى أتوه به من البحر ، وإذ خاف أن يجرح الصخر رأس ميدوسا بشرعها الثعباني وضعها على حشية ملساء من أوراق الشجر وغطاها بأشباب البحر . وعلى هذا النحو استقرت هناك رأس ميدوسا ابنة فوركيوس التى نفذ أثرها إلى النباتات النضرة فجمدت بملاستها ، واكتست أوراقها وفروعها صلابة عجيبة . وانبرت حوريات البحر يتكشفن هذه الظاهرة العجيبة على العديد من الغصون ، مبهتهجات كلما رأين غصناً جمد أمام أعينهن من جديد ، فمضين ينثرن بذور هذه النباتات فوق الأمواج ليحصلن على المزيد من هذه الماددة . وما يزال « المرجان » يتميز حتى اليوم بتصلبه عند ملاسته الهواء ، وهو ليس إلا نباتاً رخواً إذا كان تحت سطح الماء ، فإذا ما طفا أصبح صلباً كالبحر (٣٣) .

وقام بيرسيوس ببناء مذابح ثلاثة يكسو العشب أرضها ، يقع أحدها إلى اليسار تمجيداً لميركوريوس ، والثاني إلى اليمين تمجيداً لك أيتها العذراء المقاتلة ، والأخير يتوسطها تمجيداً لجوبيتر ، ثم قدم القرابين فذبح بقرة لمنيرفا وعجلاً لميركوريوس الإله المجنح القدمين ، وثوراً لجوبيتر أعظم الألهة وأجلها . ولم يلبث بعد ذلك أن طلب يد أندروميذا جائزة بطولته الأخيرة ، وعقد عليها دون أن يدفع مهراً ، ولوح كل من كيوييد وإله الزفاف بمشاعل العرس أمامها وغدّيا النار بفيض من البخور ، وتدلّت أكاليل الزهور من السقف ، وانطلقت الأناشيد ، وسُمع عزف الليرات وزمر المزامير في كل مكان تعبيراً عن السعادة التى تغمر القليلين المتحايين ، وفتحت الأبواب على مصاريحها ، وتبنتى القصر الذهبى بأكمله ، وجاء أشرف البلاط الإثيوبي إلى الوليمة الفاخرة التى مدّت ساطها .

وحين فرغوا من تناول الطعام ، وطافت الخمر التى جاد بها باخنوس هدية للعروسين فأخذت تلعب بالرؤوس ، تساءل بيرسيوس حفيد لينكيوس عن البلاد وعاداتها وأساليب معيشتها وتقاليدها وأخلاق سكانها ، فأجابه أحد المدعوين عما سأل عنه ، ثم إذا هو يسأل هو الآخر قائلاً : « هلا ذكرت لنا يا بيرسيوس يا أشجع الشجعان كيف قطعت الرأس التى نبثت فيها الثعابين بدل الشعر ، فذلك ورثى شئى »

يتطلب إقداماً وحذقاً ؟ » . عندئذ حدثهم سليل أسرة أجنون عن مغامراته ، فقال إنه ثمة مكان تحت سفوح جبال أطلس بمعزل خلف كتل الصخور الصلبة ، تقيم عند مدخله إبتا فوركيس الشقيقتان اللتان تشركان في عين واحدة تريان بها . واستطاع بيرسيوس بمهارته ودهائه أن يسلب هذه العين بحركة من يده أثناء انتقال العين بين الشقيقتين ، ثم سلك طرقاً نائية لم يسلكها أحد من قبله خلال البلاد الصخرية والغابات الكثيفة حتى بلغ دار الجورجونات . وشهد عبر الحقول وعلى جوانب الطرق تماثيل الرجال والوحوش التي حولتها مشاهدتها للجورجونة بعد أن كانت كائنات حية إلى كتل حجرية ، وحمق في صورة ميدوسا المخيفة المنعكسة على الترس البرونزي الذي كان يجمعه على ذراعه اليسرى ، وبينما كانت هي وأفاعيها تغط في نوم عميق جزَّ عنقها منتزعاً رأسها من فوق كتفيها . ومن دماء الجورجونة المتدفقة وُلد الجواد بيجاسوس ذو الجناحين السريعي الخفق ، كما وُلد شقيقه خريساوور^(٣٤) .

ومضى بيرسيوس يروي أحداث أسفاره الطويلة ومخاطرها رغم غرابتها ، وتحدّث عن البحر والبر كما شاهدهما من عل ، وعن النجوم التي صعد إليها بأجنحته المرفقة . ولما سكت عن الحديث ازدادت لهفة الحاضرين إلى المزيد ، وسأله أحد الأشراف ، « وكيف للثعابين قد التقت برأس ميدوسا دون شقيقتها ؟ » فأجابه بيرسيوس قائلاً : « مادمت ترى في ذلك قصة جديدة بأن أرويسها فهاكها وأصيحُ بسمُجك إليها : لقد اشتهرت ميدوسا في وقت من الأوقات بجمالها الذي أوقد نار الغيرة بين المتقدمين لخطبتها كل من يامل أن يظفر بها ، وكان جمال شعرها أبرز معالم فتنتها ، ولقد لقيتُ شخصاً يزعم أنه شاهدها عندما كانت تتمتع بهذا الحسن . وقيل إن إله البحار قد سلبها عُذرتَها داخل معبد مينرفا ، الأمر الذي أغضب ابنة جوبيتر فأدارت ظهرها وأنخفت وجهها الخفير خلف تُرسها ، وعاقبت الجورجونة على خطيئتها بأن أحالت شعرها إلى حيات بشعة ، ومن يومها ومينرفا ترتدى فوق صدرها تُرساً يحمل صورة تلك الأفاعى التي خلقتُها بمشيئتها كي تثير الرعب بين أعدائها^(٣٥) . »

التعقيبات

- (١) يذكر أوفيد بعض الألقاب التي كانت تطلق على ديونيسوس . وكان اسم باكخوس شائعاً بين القبائل اللاتينية وأغلب الظن أنه من أصل شرقي ، وانتشر في بلاد اليونان ابتداء من القرن الخامس ق. م ، وكان الإغريق يمتنون بها صفات الإله ديونيسوس العريضة الماجنة . أما بروميوس فهو لقب متعلق بهزيم الرعد ساعة مولده ، ويدل اسم ليبيوس على قدرة الإله على تخليص الناس من همومهم ، ويتعلق اسم ابن النار بطروف ميلاده [انظر الكتاب الثالث] .
- (٢) إشارة إلى ظروف ميلاد الإله [انظر الكتاب الثالث] وطفل نيسا [انظر الكتاب الثالث] وثيونوس نسبة إلى الكلمة اليونانية لينوس بمعنى معصرة العنب . ونكتيليوس هو لقب الإله الذي يحتفل بطوقسه الماجنة ليلاً ، أما إيليبوس ويوهان فمشتقان من صرخات النشوة المحمومة ، ويانخوس هو اللقب الذي أضفى على ديونيسوس في مدينة إليوسيس . أما ليزر فهو اسم أحد آلهة الخصوبة القدامى في العشاير اللاتينية ، واعتبره الرومان الإله ديونيسوس نفسه ، ومعناه «الحرق» أو «المحرر» .
- (٣) لأنه كان يتمثل أحياناً على شكل ثور .
- (٤) انظر قصة بتيثوس في الكتاب الثالث . أما ليكورجوس فكان ملكاً لطراقيا وعدوا لديونيسوس فأصابه الإله بالجنون ، الأمر الذي أدى به إلى قتل زوجته وابنه وإلى موته هو نفسه قتيلاً بعد أن سحلته نجيله .
- (٥) هو ميلينوس بن بان الذي تولى تربية ديونيسوس وكان رغم إيمانه الخمر معروفاً بالحكمة .
- (٦) ديركيتيس نسبة إلى الربة السورية ديركيتو التي تحمل أيضاً اسمى أترجاتيس وعشتاروت ، وكانت تمثل بجسم سمكة .
- (٧) أنجبت الربة ديركيتو - كما تقول الأسطورة - بنتاً هي سميراميس المشهورة التي تزوجت من نينوس ملك آشور الذي شيد لها حدائق بابل المعلقة . وقد أمرت سميراميس أن تسور المدينة بأسوار ضخمة وعليها مائتان وخمسون برجاً ، وفي نهاية حكمها علمت أن ابنها نينياس كان يتأمر ضدها فوهبت العرش بمحض إرادتها وتحولت إلى يمامة وطارت بعيداً .
- (٨) هي قصة الحورية بجزيرة نوسالا وكانت تجتلب بفتنتها الشباب ثم تحولهم إلى أسماك ، فعاقبها إله الشمس رب هذه الجزيرة بأن مسخها سمكة .
- (٩) كان الرومان يوزعون مائة القنوات الحجرية العالية بواسطة الأنايب بين الأبنية العامة والخاصة . وهنا يلجأ أوفيد إلى تصوير الأسطورة مستعيناً بمشاهداته الخاصة في حياته الواقعية .
- (١٠) كليمينيه ورودوس حوريتان إحداهما هي أم فايثون والثانية على قول البعض أم الميلياديس . أما كيركي التي سيقص أوفيد قصتها مع جلادوكوس وسكيللا في الكتاب الرابع عشر فكانت أمها برسيا بنت أوقيانوس . وسميت جزيرة آيا التي كانت تسكنها فيها بعد شبه جزيرة كيركي في إيطاليا . وكليتييه أيضاً هي بنت أوقيانوس .
- (١١) سعى عدة ملوك بهذا الاسم في آشور ، ويقال إن أحدهم كان جد الملكة ديدو القرطاجية وملك صور .

(١٢) أى أنها تحولت إلى زهرة اشتهرت فيها بعد باسم «عَبَاد الشمس» أو رقيب الشمس .
(١٣) كان دانفيس بن هرمس من إحدى الحوريات شقيقاً للراحة ، ويقال إنه مبتكر الأناشيد الرعوية ، وكثيراً ما يذكر ثيوكرتوس اسمه . وقد أحبت حورية اسمها ليكا أو ناييس ثم خانها ففقد بصره ومسح صخرة وصارت أسطوره ملتصقة بريف صقلية [انظر الكتاب الثانى] .

(١٤) كليمس هو أحد كهنة كوبيلى فى جبل ليدا . والكوريتيس هم أبناء الأرض مثل المردة التيتان ، وكانوا قد رعوا زيوس فى طفولته . أما كروكوس فهو الذى أحب سميلاكس حبا يائساً فمسخته الألهة نبات الزعفران ، كما مسخت سميلاكس زهرة من فصيلة الزنبق تسمى الفشاغ .

(١٥) يتكون الاسم من اسمى هرمس [ميركوريوس] وأفروديقى [فينوس] مجتمعين .
(١٦) كيتيروس اسم مدينة وجبل على الشاطئ الشمالى لآسيا الصغرى ، وقد اشتهرت بصناعة الأمشاط من الخشب .

(١٧) كان ثمة اعتقاد شائع بإمكان منع خسوف القمر بقرع الدفوف وضرب الصنوج البرونزية .
(١٨) كانت جدته مايا أم هرمس بنتاً للهارد أطلس .

(١٩) تحولت بنات مينياس إلى خفافيش ، وهى باللاتينية فيسهر تيليزيس نسبة إلى « فيسهر » نجم أوج الليل أى الزهرة فى ساعات الليل .

(٢٠) إينو هى صغرى بنات كادموس وشقيقة سيميليه ، وقد قامت بتثنية ديونيسوس عقب ولادته . أما زوجها أتاماس بن أبولوس فكان ملكاً لأورخوسينى فى بيوتريا وقد أنجبت منه ولدتين .

(٢١) لم تكن تحظى بالسكينة غير أرواح الموتى التى أدبت لها العلقوس الجنائزية .
(٢٢) أحب إيكسيون جونو وحاول اغترافها فأبلغت زوجها جوبيتر الذى شكّل امرأة على غرار جونو من السحاب ورفعها إلى المكان الذى كان سيلقى فيه جونو وضاح إيكسيون السحابة وأنجب منها فصيلة القنطورى ، ثم عاقبه جوبيتر بأن أرسله إلى العالم السفلى حيث شدّه ميركوريوس على عجلة تدور إلى ما لا نهاية .

(٢٣) سيزيفوس هو أحد الأبناء الستة لأبولوس ومنهم أتاماس .
(٢٤) إرخيونا وحش نصفه امرأة ونصفه ثمان . وكانت أم الكلب أورثوس الذى صارعه هرقل ، والكلب كيريروس ذى الرموس الثلاث والهيدرا والحيميرا وأسد نيبيا .

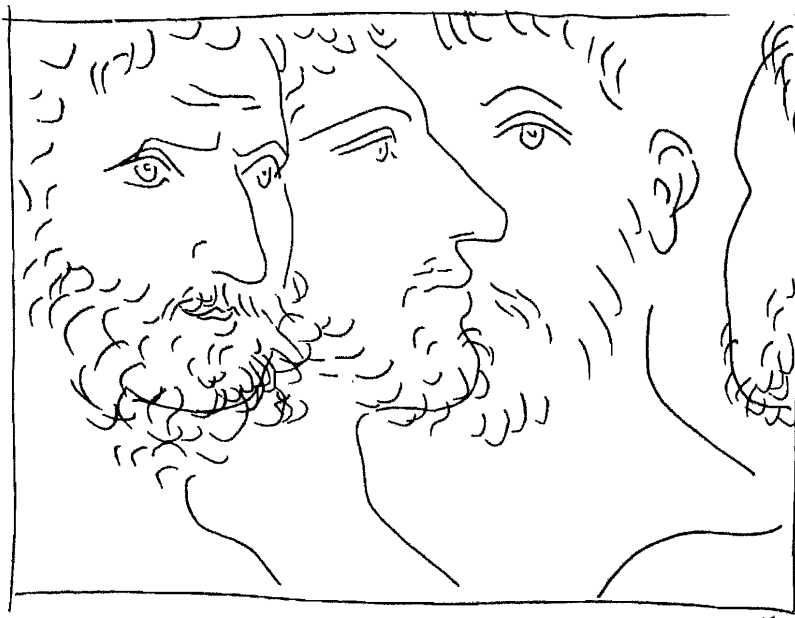
(٢٥) «أفروديقى» مشتق من «الهرمس» أى الزيد باليونانية .
(٢٦) تروى الأسطورة أن الطفل الرضيع ميليكيرتيه قد حمله درفيل إلى شواطئ كورنث ، وهناك تلقاه عمه سيزيفوس ودفنه ثم أقام الألامب التى سميت بالألامب البرزخية تكريماً للذكراه . أما ليوكوثوى [إينو] ويلايون [ميليكيرتيه] فقد اتخذا الهين فى روما بدلاً من الألهة الإيطالية القبلية ماتورتا ويورتونوس . وكان أيسخولوس وسوفوكليس قد عاجلوا هذه الأسطورة فى مأساتين بعنوان « أتاماس » لم يبق لنا منها شيء . كذلك قص أوربيديس نفس الأسطورة فى مأساة مفقودة بعنوان « إينو » .

(٢٧) ألبانيا الآن .
(٢٨) كان أباس ملك أرجوس وأب أكرسيوس أحد أقرباء كادموس ودانالوس وأيجيوس (انظر الكتاب الثالث) . وكان أكرسيوس والد دانائ قد أزرعه ما تكهن به العراف بأنه سيموت فتبلا بيد حفيده فحبس ابنته فى حجرة محصنة بالنحاس . واذ رآها زيوس منست شغاف قلبه فتسلل إلى معقلها من النافذة على شكل شؤب من الذهب فأنجبت منه بيرسيوس . وبعد أن سمع أكرسيوس صياحات الطفل بيرسيوس لم يصدق أن أباه كان رب الأرياب . واذ كانت نبوءة العراف ما تزال تؤرقه أغلق على الأم دانائ وطفلها بيرسيوس صندوقاً وقلد به إلى البحر حيث رسا على شاطئ سريفوس فالتقطه الملك پوليديكس . وقد عالج سوفوكليس موضوع هذه الأسطورة فى مأساة مفقودة اسمها «أكرسيوس» .

(٢٩) كانت مملكة أطلس تشمل أقصى غرب أفريقيا الشمالية وشبه جزيرة أيبيريا .
(٣٠) لوسيفر هو نجم الصباح أو كوكبة الزهرة التى تبلو قبيل الشروق .
(٣١) أبولوس هو رب الرياح .

- (٣٢) تعنى كلمة إثيوبيا بلاد ذوى البشرة المحروقة ، وكان الإغريق يطلقون هذا الاسم على كافة شعوب الجنوب حتى خط الاستواء . وقد ميز أيسخولوس بين نوعين من الإثيوبيين : ذوى الشعر المجعد وهم الزنوج ، وذوى الشعر السبط وهم الهنود .
- (٣٣) كان القدماء يجهلون الأصل الحيوانى للمرجان . واقتصرت هذه التسمية بعد ميروذوتوس (القرن الخامس ق.م .) على البلاد الواقعة جنوى مصر وهى النوبة والسودان وشمال الحبشة .
- (٣٤) خريساوور هو شقيق الجواد بيجاسوس ، وقد تزوج ابنة أوقيانوس وأنجب منها جريون الوحش ذا الرؤوس الثلاث الذى صارعه هرقل .
- (٣٥) رأس الجورجونة هى الشعار المنقوش فى منتصف درع الربة أثينا [منبرلاً] .

* * *



بيكاسو

الكتاب الخامس

بيرسوس [تتمة]

وبينا البطل ابن داناى يروى مغامراته لحشد من الإثيوبيين من أسرة كيفيسوس كان ثمة جمع صاخب من الجماهير الثائرة قد احتشد داخل القصر ، أخذوا يصيحون صيحات لا تتفق وتهليل الأعراس ولطفها ، بل تشويها ضراوة المحاربين . وسرعان ما ساد الحفل اضطراب يشبه فورة مياه البحر إذ تحركها العاصفة الهوجاء ، وكان فينبوس^(١) هو زعيم هذا الحشد الدخيل ومعرضهم على القتال . وقف شاهراً رجه البرونزى الحَدَّ المنحوت من خشب الدردار وانبرى يتوعد : « ها أنذا قد جئت لأنقم عن اختطف العروس التى وعدت بها ، ولن ينقذك منى جناحك ولا جويتير الذى تمثل على صورة قطرات ذهب خادعة » . وتأهب ليسد رجه فزجره كيفيسوس قائلاً : « ما هذا الذى تفعله يا أخاه ؟ وأية حماقة تلك التى تدفعك إلى أن تقدم على هذا الجرم ؟ أهكذا يكون جزاء من أسدى إلى معروفًا جليلاً ، أبهذا تكافىء من أنقذ حياة ابنتى ؟ إن بيرسوس لم يخطفها منك إنما خطفتها بنات نيربوس [حوريات البحر النيرباديس] الصارمات ،

٢٠ خطفها أمون ذو القرنين^(٧) والوحش الذى انطلق من البحر ليفترس أحشاءها . لقد اختلطت منذ تلك اللحظة التى كانت فيها مشرفة على الهلاك فوق الصخرة ، هذا إذا لم تكن أنت بقسوتك تريد لها الهلاك ، وتتخذ أنت من خوفنا عليها ما تتلهى به . فىا كان يحق لك أن تقف جامداً وهى مكبلة بالأغلال على مرأى منك ولا تمد لها يد العون وأنت عمها وخطيبها معاً ، أو يلقى بك بعد هذا أن تشكو وأن تحرم من أنقلدها جائزته . وإذا كنت حقاً تقدرها حتى قدرها أما كان الأولى بك أن تحملها بعيداً عن الصخور التى شدت عليها . وماذمت لم تفعل فلتدع من أنقلدها يظفر بما وعد به ويحني ثار ما قدم . لقد خلصنى من أن أروح تحت عبء شيخوخة أحرّم فيها حنان ابنتى ، ولتعلم باننا لم نؤثره عليك بل أثرتاه على الموت الذى كان يتهددها يقيناً .

٤٠ وارتج على فينيوس وراح ينقل نظراته بين الملك وپيرسيوس حائراً لا يدرى إلى أيها يسد رحه ، وبعد تردد لم يطل قذف پيرسيوس برمه بكل ما أثاره فيه الغضب من قوة ، غير أن رميته ذهبت هباء إذ نفذ السهم فى أريكة پيرسيوس الذى قفز من بين الوسائد مسدداً رحه إلى صدر خصمه ، ولكن ما أسرع أن احتفى فينيوس بالمحراب الذى منحه حماية لم يكن جديراً بها . ومع ذلك فإن الرمح لم يطش وإنما نفذ فى جبين روتنوس فسقط صريعاً يفرغ الأرض بكعبه ويخرج الرمح من جبينه فيتناثر دمه على الموائد . وعندها خرجت الجماهير الثائرة عن وعيها غاضبة وقذفوا الرماح هنا وهناك متنادين بقتل كيبيوس وصهره . ولكن كيبيوس كان قد بادر فغادر قصره مُشهداً آله الضيافة على أنه لا يد له فىما حدث وأنه كان حقاً صادق النية .

وأقبلت باللاس المحاربة وقدمت ترسها لحماية أخيها پيرسيوس فأذكت فيه الشجاعة . وكان أول من تصدى له هندى اسمه أنيس وضعت أمه « ليمناى » وهى إحدى حوريات نهر الجنج تحت مياهه الصافية . وكان صبيّاً أكمل السادسة عشر من عمره بهى الطلعة تزيده ثيابه الأنيقة وسامة ويرتدى معطفاً من معاطف « صور » وثى بأهداب من قصب ، ويحيط بعنقه عقد من الحليات الذهبية ، ويضم شعره المعطر بالمر مشط مقوس ، لا يخطىء رجه هدفاً مهما بُعد ويجيد استخدام القوس ، غير أنه ما كاد يبدأ فى شد قوسه المرن حتى ألقاه پيرسيوس بجمرة مشتعلة من جمرات المذبح فجندلته على الأرض وتهمشت عظام جمجمته ووجهه .

٦٠ وحينما رأى ليكاباس الأشورى أعز أصدقائه مجندلاً بكاه وهو يشهده يلفظ أنفاسه الأخيرة ، تُغشى الجراح ذلك الوجه الذى كان مفتوناً به وتجمعه بركة من الدماء ، فانزع القوس الذى كان أنيس قد شد إليها السهم وصاح : « لأنازلنك الآن بنفسى ، ولن أتركك تفرح بموت صبي لن يكسبك موته غير العار » . وانطلق السهم قبل أن يتم عبارته ، غير أن پيرسيوس أقلت منه فلم يصب غير طيات ثيابه ، ثم انطلق پيرسيوس شاهراً سيفه المقوس - الذى أطار به عنق ميدوسا - وأغمده فى صدر ليكاباس ، وحلق ليكاباس بعينيه الزائغتين فى أنيس ثم سقط بجواره مطمئن النفس لموتها معاً وذهابها سوياً إلى عالم الأشباح .

وحاول كل من فورباس الأسواني وأنتيميديون اللبيى الاشتراك في المعركة غير أنها انزلقا في بركة من الدماء الفاترة على الأرض فسقطا وصرعهما بيرسيوس حين أغمد سيفه في ضلوع أنتيميديون وفي حلق فورباس . وكان مصير إريتوس ابن أكتور مختلفاً ، لأن بيرسيوس لم يحاول الوصول إليه بسيفه ، إذ كان إريتوس مسلحاً بشاطور عريض الحد ، بل حمل بين يديه وعاء ضخماً ثقيلًا بارز النقوش ، وهوى به على رأس إريتوس فانبثق الدم غزيراً من فمه وسقط إلى الورا وارتطم رأسه بالأرض مهشماً فأخذ يعانى سكرات الموت .

وأؤذى بيرسيوس بحياة كل من پوليدييمون أحد أحفاد سميراميس ، وأباريس القوقازى وليستوس التيسالى ، وهيليكس المسترسل الشعر ، وفليجياس ، وكليطوس ، ثم انطلق يطأ حثث ضحاياه بقدميه . ولم يجسر فينيوس على منازلة خصمه عن قُرب بل قذفه برمحه عن بُعد فأخطاه الرمح وانحرف إلى جسد إيداس الذى كان قد نأى بنفسه عن القتال ولم يشأ الانضمام إلى أحد الفريقين فلم يُغته ذلك شيئاً ، لذلك حنق على فينيوس وصاح فيه قائلاً : « مادمت قد حملتى حملاً على أن أنحاز إلى أحد الفريقين وجعلت منى خصماً لك ، فلأصيبك بجرح لقاء ذلك الجرح الذى أصبتى به » ، وجعل يتزع الرمح من جسده وهمّ بقذف عدوه به غير أنه سقط على الأرض والدماء تنزف منه .

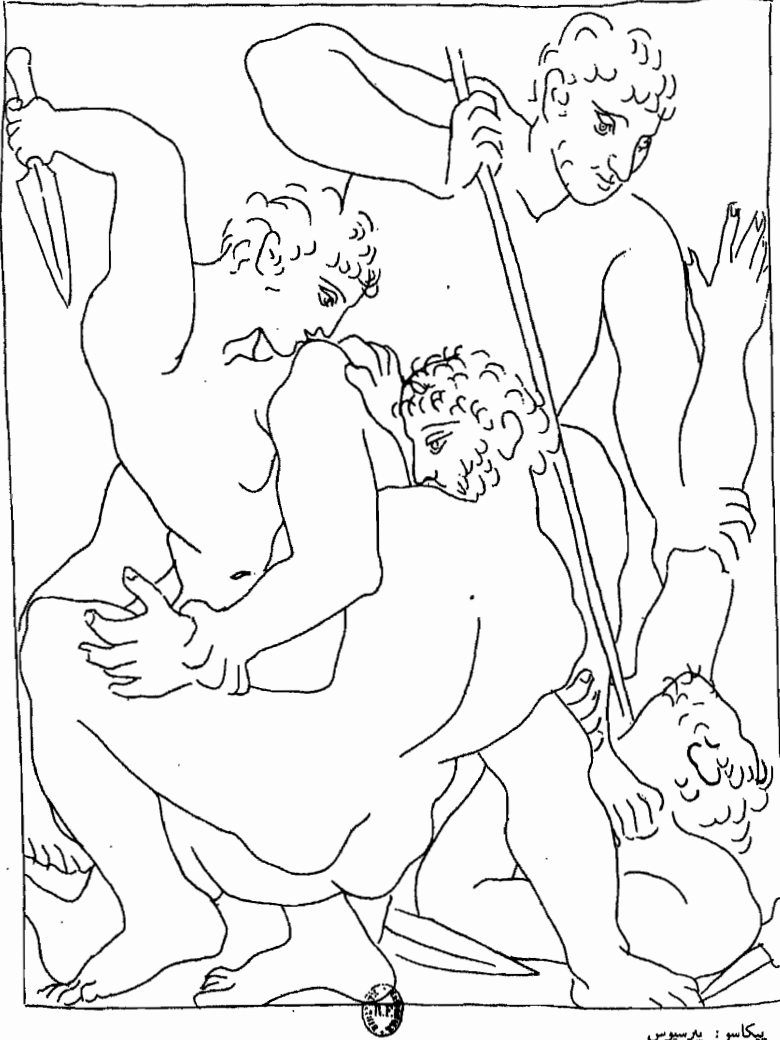
ومات هوديتيس - أعظم أبطال إثيوبيا بعد الملك - بسيف كليمنوس ، وصرع هيسبيوس پروثونور ، فتكفل بيرسيوس بذبح هيسبيوس . وكان بين الحاضرين رجل مُسنٌ عادل ودع هو إيتيون لم يشترك في القتال بسيفه لشيخوخته ، ولكن شارك بلسانه فمضى يصب لعناته على هذه المعركة الأثمة ، بينما يمسك المحراب بيده المرتعشة حين هوى عليه خروميس بسيفه وأطاح برأسه فسقطت على المحراب وظل لسانه يتحرك وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة وسط ألسنة النار . ثم سقط الشقيقان التوامان بروتياس وأمون ، وكانا لا يُقهران بفضل قفاز^(٤) المصارعة ، غير أنه لا حيلة للقفاز أمل صولة السيوف ففضى عليهما فينيوس بسيفه ، كما قضى على أيبكوس كاهن سيريس الذى كان يلفّ جبينه بعصابة بيضاء . كذلك خر لامپيتيديس صريعاً ولم يكن قد خلق للقتال ، وإنما كان مطرباً ، وكما كان غناؤه للسلام كذلك كانت قيثارته ، وكان قد دُعى ليعزف فواصل موسيقية وينشد بعض الأغاني خلال الحفل ، ورآه پتالوس وسط مجموعة رجال ممسكاً بريشة قيثارته العديدة الجدوى في القتال وصاح فيه « لنشد ما بقى من أغنيتك لأطياب العالم السفلى » وأغمد سيفه في وجنة لامپيتيديس اليسرى فسقط على الأرض وقد انطبقت أصابعه على أوتار قيثارته فأطلقت نغماً حزيناً . وثار ليكورماس الشجاع لموت الشاعر واندفع يثار له فخلع قضيباً ضخماً من الباب ودق به عنق پتالوس فخر صريعاً كما يخر العجل المذبوح قرباناً ، وحاول پتالوس وكان قادماً من شواطئ نهر سينيس^(٤) أن يخلع قضيباً من الباب الآخر فعاجله رمح كورثوس اللبيى فأثبت يده بخشب الباب ، وأدركه أباس بطعنة في جنبه مات على أثرها وظل معلقاً بمصراع الباب ، كما قتل ميلاتيوس أحد أتباع بيرسيوس ، وكذلك دوريلاس أغنى ملاك ناسامونيا^(٥) وأشهر أصحاب الضياع الفسيحة فيها وأكثرهم بلكا لأهراء التوابل ، فلقد طعنه هاليكونيوس البختياري برمح نفذ مثلاً في فخله فجرح

خصيته ، وراه أحدهم وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة زافع العينين فقال له : « حَسْبُكَ بعد تلك الأراضي الشاسعة التي تمتلكها ، هذه الرقعة الصغيرة التي ترقد عليها » . وسارع پيرسيوس بالانتقام لدوريلاس فانترع الرمح وكانت لاتزال به حرارة دمه وقذف به هاليكونيوس فمزق أنفه وربقته ونفذ من الخلف . وظل القدر يرمي يدي پيرسيوس حتى قتل الشقيقتين كليتيوس وكلايس اللذين وُلدا من أم واحدة وماتا بجرحين مختلفين ، فقد نفذ رمح پيرسيوس في فخذى كليتيوس بينما غاص في حلق كلايس وكأنه يعضه بأسنانه ، كما مات كيلادون من منديس^(٦) ، وأستريوس الفلسطيني الأم المجهول الأب ، ومات أيثيون الذي كان مع حذقه في التنبؤ جاهلاً بمصرعه ، وكذلك هلك تواكتيس حامل دروع الملك وأجرتيس الموصوم بقتل أبيه .

وكان على پيرسيوس بعد ما أبلى في هذا العراك أن يبذل جهداً فوق كل ما بذله ، فقد انفرد به المهاجمون للإتيان عليه ، وتكالبت عليه من كل حذب وصوب عصابات تبغى الأَمْضَى في تَبَلٍ ما وَعَدَّ به من حقوق . ولم يُغْنِ شيئاً وقوف الملك وزوجته والعروس إلى جانبه ، فلقد ضاع صباح الملك وصراخه وسط صليل السيوف وأنين القتل ، وكانت يبللونا ربة الحرب قد نثرت الدماء على آلهة الأسرة لتذكى نار القتال .

وحاصر فينيوس وأتباعه الألف پيرسيوس وحده ، وتهاوت رماحهم عليه تهاوى البرد في الشتاء أو أشد ، فأسند كتفيه إلى عمود حجري كبير يحمى به ظهره وواجه الخصوم صامداً لهجومهم . وكان يتربص له من جهة اليسار موليبوس الحاروني^(٧) ويواجهه من اليمين إيثيمون النبطي^(٨) ، وبدا بين خصميه كمنر جائع قد سمع خوار قطيعين من الأبقار في واديين مختلفين في آن واحد فلم يدر أيهما يهاجم أولاً ، وودّ لو استطاع أن يقفز إلى الاتجاهين في اللحظة نفسها . وأخذ پيرسيوس يُرَاوِدُ نفسه فيمن يبدأ بقتله ، وإذا هو يُعَايِلُ موليبوس بطعنة مزقت ساقه غير أنه لم يستطيع ملاحظته لأن إيثيمون لم يتركه بل أقبل عليه شارعاً سيفه على رقبته ، إلا أن السيف الطائش اصطدم بحافة العمود وانكسر وارتد نصله في حلق من أطلقه ، ولم يكن الجرح مميتاً لكن وقفته مرتجفاً أعزل أتاحت لپيرسيوس أن يُرْدِيه بسيف ميركوريوس . وأخيراً تيقن البطل من أن شجاعته تقصر أمام هذا العدد الغفير من الخصوم فصاح : « مادمتم تُكْرَهُونِي على الالتجاء إلى ما لم أكن أحب اللجوء إليه ، فلسوف أطلب العون ممن كانت لي خصماً ، ولْيُشِجْ بوجهه إذن من كان صديقاً » ، ثم ما لبث أن أخرج رأس الجورجونة وكشفها أمامهم . وانبرى له نيسكيلوس يسخر منه وهو يقول : « هل لك في غيرنا ممن تخدعهم جَيْلُكَ » ، وكان قد تاهب لقذف رمحه فإذا هو يجمد في وضعه ومكانه إلى الأبد إذ تحوّل تمثالاً من رخام ، وتقدّم في إثره أمبيكس محاولاً إغماء سيفه في صدر پيرسيوس الشجاع غير أن يده جمّدت ولم تعد تتحرك للأمام ولا للخلف وتحوّج على هذا الوضع . وحينئذ برز نيلبوس الذي كان يدعى زوراً انتسابه إلى النيل ذى المصبّات السبع ، ورفع ترسه المنقوشة عليه فروع النهر السبعة بعضها بالذهب وبعضها بالفضة ، وصاح : « تطلّع يا پيرسيوس إلى أين يمتد نسي ، ولسوف يُسرّي عنك أنك ذاهب إلى عالم الموت على يدي بطل مثلى » ، وهنا اختنقت كلماته الأخيرة في حلقه وبقيت شفتاه منفرجتين إلى الأبد وكأنه يتكلم ولكن بلا صوت . وصاح إيريكس مؤنباً المحاربين بقوله : « إنه الجين هو

الذى يملككم تجملدون وليس رأس الجورجونة ، هلموا معى للقضاء على هذا الفقى وسلاحه السحرى « ٢٠٠
ولكنه لم يكذب يندفع خطوة للأمام حتى يجد كتمثال من حجر .



پيكاسو : پيرسيوس

وإذا كان هؤلاء جميعاً قد استحقوا العقاب الذى نزل بهم ، فثمة محارب من أنصار پيرسيوس هو
أكونتيسوس كان قد وقع بصره على رأس الجورجونة فجمد هو الآخر على الفور ، وظن أستياجيس من

خصوم بيرسيوس أنه مازال حيًا فضربه بسيفه الطويل فإذا هو يسمع رنين ارتطامه بالحجر فوقف لساعته متعجبًا ، وإذا هو الآخر يتحوّل تمامًا حجريًا تملؤ وجهه قسبات التعجب .

ويطول سرد أسماء الجنود الدهماء الذين هلكوا في هذه المعركة ، فلم يبق حيًا منهم سوى مائتين ، تحوّل مائتان منهم إلى تماثيل حجرية بمجرد تطلّعهم إلى رأس الجورجونة . وفي النهاية امتلأ فينيوس أسى على ذلك القتال الذي بدأه ظلمًا ، لكن ما عساه يفعل الآن ؟ لقد رأى رجاله تماثيل في وضعات مختلفة ، وكان يبتئهم وينادهم بأسماهم طالبًا منهم العون غير مصدّق عينيه ، وأخذ يلمس أقرب الأجسام إليه فوجدها رخامًا صلبًا فابتعد عنها يائسًا مُقرًّا بالفشل ، ورفع ذراعيه متوسلًا إلى بيرسيوس وهو يتجنب النظر إليه قائلاً : « أنت الفائز يا بيرسيوس فانحس سلاحك الشبح عن الأنظار ، أخف رأس ميدوسا ، أخف ذلك الرأس الذي يحوّل الرجال إلى صخور ، ناشدتك أن تخفيه ، فلم تدفعني إلى القتال كراهيتي لك وحسبي للسيطرة بل هي الرغبة في العروس التي وعدت بها . لقد قمت لها بالكثير الذي يجعلك لها أملاً لكنني عرفتها قبلك ، ولن أخجل الآن من تسليمها إليك ، هب لي إذن شيئًا واحدًا أيها البطل العظيم ، هب لي حياتي وحدها وليكن لك بعد هذا ما تريد . »

٢٢٠

ولم يجرؤ فينيوس وهو يتكلم على التطلّع إلى الرجل الذي يتوسّل إليه ، فأجابه بيرسيوس قائلاً : « فينيوس يا أجبني الخليفة ، لسوف أعطيك ما أستطيعه وهو منحة عظيمة لو تعلم لرجل دنيء الطويّة مثلك . لا تخشى أن يصيبك سيفي بأذى ، فسوف أجعل منك تماثلاً منتصبًا في قصر حامي يبق على الأبد حيث لا يغيب عن نظر زوجتي التي كنت قد خطبتها يوماً » . ثم لوح برأس بنت فوركيس في الاتجاه الذي يتطلّع إليه فينيوس وقد ارتسمت على وجهه علامات الخوف . ولقد حاول الجبان أن يزيغ عينيه غير أن عنقه جمد ، وجمدت الدموع في عينيه واستحال صخرًا بقيت قسبات الرعب مطبوعة على وجهه كما بقيت يداه تعبران عن خضوعه ودلته .

وعاد « بيرسيوس » حفيد أكريسيوس بعد ذلك إلى موطنه منتصرًا تصحبه عروسه ، ودخل من باب مدينته حيث ولد . وبالرغم من أن جدّه لم يكن قد بذل ما يستحق عليه العون ، إلا أن بيرسيوس انبرى يأخذ بحق أكريسيوس وهو يعدّ الإهانة التي لحقت بجدّه إهانة له ، فهاجم « پرويتوس » الذي كان قد أرغم أخاه « أكريسيوس » بقوة سلاحه على الفرار واستولى على قلعته ، فلم تفلح الأسلحة ولا مقاومة القلعة المغتصبة في حمايته أمام بشاعة نظرة المخلوقة الغريبة ذات الشعر الثعبانى .

٢٤٠

أما أنت يا بوليديكتيس^(٩) ، يا من تولّيت مُلك جزيرة سيريفوس الصغيرة فما حرّك عطفك هذا الإقدام الذي أوتيه ذلك البطل الشاب ، ولا تلك البطولات التي شهدت بها مغامراته العديدة ، ولا الكوارث التي حلّت به ، ولكنك كنت تطارده عن كراهية لا تفرّ وغضب جائر لا حدود له ، فكنت تهوّن من بطولاته كافة وتدعى أن قتل ميدوسا لم يكن غير حديث كذب . وعندنا صاح به بيرسيوس : « لكى

أثبت لك صدق ما أَدعى ، فلتُشِحوا بوجوهكم جميعاً ، وسرعان ما حوّل وجه الملك إلى حجر دون أن يسكب قطرة من دمائه حين أخرج له وجه الجورجونة « ميدوسا » .

هيبوكريتي . ربّات الضن . بنات بيبروس

لم تفارق تريتونيا « منرفا » [تريتونيا نسبة إلى بحيرة تريتون بأفريقيا] طيلة الوقت أخاها البطل الذي أنجبه جوبيتر من خلال القطرات الذهبية . وما لبثت أن التفت بسحابة ورحلت عن سيريفوس مخلّفة وراءها كلاً من جزيرق كيثنوس وجياروس ، وسلكت أقصر الطرق عبر البحر إلى طيبه وجبل هليكون موطن ربّات الفنون التسعة حتى إذا بلغت الجبل خاطبت الشقيقات النابغات قائلة : « تمت إلى سمعي شائعة تقول بأن يتبعوا قد تفجّر من الأرض بضربة من حافر الحصان المجنّح « بيجاسوس » وليد « ميدوسا » ، ولذلك جثت لأشهد هذا ينبوع العجيب بعد أن شهدت الجواد وهو ينبثق من دماء أمه المسكوبة ، فأجابتها أورانيا : « مرحباً بك أيها الإلهة ، وأياً كان الغرض من زيارتك لديارنا فهي كفيلة بإضفاء السكينة على قلوبنا . أما قصة ينبوع فصحيحة لأن الجواد بيجاسوس هو الذي فجّره » . ثم قادت باللاس إلى ينبوع المقدّس ، فوقفت الإلهة برهة طويلة تمحلق دَهْشَةً في هذا ينبوع الذي فجّره ضربة من حافر جواد ، ثم جالت بصرها حول ينبوع مستعرضة الأجمات العريقة والكهوف والسفوح الخضراء المرصعة بالزهور العديدة . وهناك بنات « ميموزيني » على موطنهن الذي يفيض عليهن سعادة ويتفق وما يظلمهن به من رسالة نبيلة . فردّت عليها إحدى الشقيقات قائلة : « أيّا باللاس تريتونيا ، يا من كنت تنصبين واحدة منا لولا شجاعتك التي قادتك إلى حمل رسالةٍ أجلّ شأنًا . إن ما تقولينه هو الحق بعينه وإنك لعلّ حق في امتداحك دارنا ورسالتنا . إن حظنا لسعيد لو أتيج لنا أن ننعّم به في هدوء ، غير أن ما يلحق بنا من أذى الناس لا حدود له ، فالإنثاء بغير حراسة يعيشن في خوف مستديم ، وصورة « بيرينبوس » الشرس ماثلة دائماً أمام عيني وبقى الذعر مستولياً عليّ منذ تلك الحادثة . لقد كان محارباً عنيفاً استولى بعمونة جنده الطراقين على بلاد دوليس وحقول « فوكيس » ونصب نفسه ملكاً على الأراضي التي اغتصبها عنوة . وكنا نحن الربّات في طريقنا إلى معبدنا في جبل « البارناسوس » فرأنا ساعة مرورنا به وتظاهر بإجلال أشخاصنا الإلهية ، ودعانا لدخول داره لنحتمي من المطر قائلاً : « يا بنات ميموزيني ، أرجوكن أن تتلبّسن برُمةٍ وألا تتردّدن في الاحتياء بداري من المطر والمعاصفة ، فطلما دخلت الآلهة أكواخ أناس أشدّ فقراً مني » ، فحفزنا ترحيحه وكذا رداة الطقس إلى قبول دعوته ، وسرعان ما دفعت ريح الشمال ريح الجنوب وبَدَدت غيومها فبلت السماء صافية من جديد ، وهمنا باستئناف مسيرنا فإذا بيرينبوس يُغلق علينا داره ويشرع في الاعتداء علينا . لكننا تمكّنا من الإفلات منه باستخدام أجنحتنا التي حلّقنا بها عالياً ، فانطلق يصعد أسوار القصر مسرعاً وراءنا صائحاً فينا « أينما تذهبن سامضى في إثركن ! » ولكنه سقط في غمرة جنونه من البرج فهوى على الأرض وقد تناثرت عظام حجمته المهشّمة وخضبت الأرض بدمه .

ورفرت أجنحة في الفضاء خلال حديث ربّة الفن ودوّت من أعلى الغصون عبارات التحية ، فتطلّعت إبنة چوپيتر إلى أعلى لترى مبعث هذا الصوت ، وكانت الكلمات واضحة حتى ظنّت المتحدث إنساناً ولم يكن غير طير من الطيور . كانت هناك تسعة من طيور العقق التي تستطيع محاكاة مختلف الأصوات وقد حطّت على غصون الشجر ناعية مصيرها . وعندما بدت الدهشة على منيرفا أخذت ربّة الفن تفسّر لها الأمر وتقول : « هؤلاء أيضاً قد تحوّلن حديثاً إلى طيور بعد فشلهن في إحدى المباريات . وكان أبوهن « بيروس » أحد كبار أثرياء بيللا وكانت أمهن أوبي من « پايونيا »^(١١) قد ناشدت لوكينا ربّة الوضع العون تسع مرات ، وأعاتنها فوضعت تسع مرات . وكانت الشقيقات التسعة الحمقاوات قد تملّكهن الغرور لكثرة عددهن ومضين يتقلّن عبر بلاد « هامونيا » وآخايا . وحين وفدن على جبل هليكون استفزنا بقولهن ، « ألا توقفتن عن فرض أنفسكن على الجهلة بادعائكن أنكن منشدات رخيمات الصوت ، إن تكّن واقفات بمواهبكن فتعالين معنا يا بنات ثيسيباي^(١٢) المقدسات نتبار فلسنا دونكن في رخامة الصوت ولا في مهارة الإنشاد ، كما أننا نساويكن في عددكن ، فإذا خسرتن المباراة تركن الينبوع الذي فجّره ابن ميدوسا وينبوع أجنبي في بويوتيا . وإذا خسرنا نحن انسحبنا خارج سهول مقدونيا إلى پايونيا التي تكسوها الثلوج ، ولتقم الحوريات مقام الحكّم في المباراة » . ولقد كان عاراً علينا أن نبارهن ، كما كان من العار أن نتراجع ونسحب من المباراة . ثم كان اختيار الحوريات اللاتي أقسمن بأنهن من أن يكّن في جانب العدل ، واتخذن أماكنهن على كتل الصخر الصلّد . ولم نحتج للاقتراع فيمن يبدأ المباراة ، إذ أنشدت من استهلّت المباراة نشيداً يقص حروب سكان السهوات ونسبت المجد إلى العمالقة زوراً واستهانت بأجداد كبار الآلهة ، فروت كيف انطلق تيفويوس من أعماق الأرض ونشر الذعر بين سكان السهوات ، وكيف هرب منه جميع الآلهة وفرّوا حتى لاذوا بأرض مصر في وادي النيل ذى المصبّات السبع ، وطاردهم العملاق تيفويوس وليد الأرض في ماواهم فتنكر الآلهة في أشكال أخرى كي يجذعوه : تخفى چوپيتر في صورة كبش يقود القطيع ، وهذا هو السرّ في تصوير آمون اللببي^(١٣) حتى اليوم بقرون لولبية ، وتخفى أبوللو في صورة الغراب ، وتحول ابن سيميليه تيساً ، وشقيقه فوييوس قطّة ، وچونو عجلة بيضاء ، وفينوس سمكة ، بينما أخذ ميركورويوس إله كيليني أجنحة الطائر آيس . أنشدت الكثير من هذا القبيل على القيثارة متحدية بذلك ربّات الفنون . وقد لا يتسع وقتك للمزيد أيها الإله ، أو قد لا تدع لك مشاغلك وقتاً تستمعين فيه إلى أنشودة الربّات ؟ فأجابت باللاس « لا تخشى ذلك واخبريني بما أنشدته بدقائقه على ترتيب وقوعه » . ثم جلست باللاس في ظل الشجر الرّخّي ، وواصلت ربّة الفنون قصتها قائلة : « لقد اخترنا من بيننا « كاليوبي »^(١٤) لتمثّلنا جميعاً ، فهضمت واقفة وقد شدّت خصلات شعرها المسترسلة بإكليل من اللبلاب ، وغمزت أوتار قيثارتها الحانية بسبّابها ، وأنشدت :

٣٢٠

٣٢٠

سيريس وپروسيريدنا

« كانت سيريس أول من حرثت كتل الطين بمحراثها المقوس وأول من زرعت القمح وسائر الغلال ، وفرضت النواميس الأولى على العالم ، فنحن ندين بكل ما نملكه لسيريس ، وعلى أن أتغنى بها وليت نشيدى يكون جديراً بها ، فالإلهة يقينا جديرة بأغنيتى . »

أرسيت جزيرة صقلية الفسيحة فوق جسد العملاق تيفويوس الذى جرؤ وتطلع إلى الإقامة فى السماء ، وطالما صارع لينهض من تحت الجزيرة ، غير أن يده اليمنى لم تقو على الحراك تحت جبل بيلوروس القريب من أوزونيا^(١٤) ، كما جمدت يده اليسرى تحت جبل پاخينوس ، بينما شد وثاق ساقيه أسفل ليليبايوم^(١٥) ، واستقر بركان إتنا بثقله فوق رأسه بينما كان مستلقياً على ظهره تحته وهو يلفظ الحمم واللهب من فكّيه المخوفتين . وطالما حاول إلقاء عبء الأرض من فوق ظهره وطى المدن والتلال الضخمة التى تقيدته ، وعندما كانت الأرض تزلزل حتى خشى ملك الأشباح الصامته نفسه أن تشق الأرض عن فجوات واسعة تسمح لضوء النهار أن يتسرّب إلى مملكته فيُخيف أطياف الموتى القلقة . ودفعه الخوف من ذلك إلى مغادرة مملكته المظلمة فى مركبته التى تجرّها الجياد السود ، ودار بها حول الدعائم التى تقوم عليها صقلية ليطمئن إلى أنه ليس ثمة مواطن ضعف بها ، فلمحت سيدة إريكس [فينوس]^(١٦) التى احتضنت ابنها المجنّح [كيبيد] وقالت له : « أى كيبيد يا من أنت ساعدى وسلحى ويأسى ، خذ يا بُنى هذه السهام التى تخضع بها الجميع لسلطانك ، وارم بأسرها قلب ذلك الإله الذى يسود آخر مملكة من بين ممالك الكون الثلاثة . لقد أخضعت آلهة الأفاق العلوية بما فيهم جوبيتر نفسه ، وكذلك فعلت بألهة البحار دون أن تستثنى كبيرهم ، فلماذا تهمل شأن تارتاروس ؟ لماذا لا يمتد سلطان أمك وهو أيضاً سلطانك إلى العالم السفلى وهو ثلث الكون ، ولا تنس أن السماء قد بدأت تزدرينا لتراخينا ، وأخذ سلطان الحب يضمير ويضمير معه سلطانى ، ألم ترى باللاس وديانا ربّة الصيد يديران وجهيهما عنى ؟ كما أن ابنة سيريس ستظل عذراء إذا تركنا الأمر بيدها ، فتلك أمنيته . وإذا كنت تمحرض حقاً على مملكتنا التى نتقاسمها فاربط بين هذه الإلهة وبين عمّها »^(١٧) . ولما فرغت فينوس من حديثها ، فتح كيبيد جمعته وتخبر من بين سهامه الألف أمضاها وأطوعها لقومه كما شاعت أمه ، وشدّ قومه مستنداً إلى ركبته وأطلق السهم الذى أصاب قلب بلوتو وانغرس نصله فيه .

وكانت على مقربة من أسوار مدينة هتّا^(١٨) بحيرة عميقة الغور أطلق عليها اسم « بيرجوس » ينافس هديل بجعاتها الغناء الذى يطرب سمع نهر كايستر^(١٩) من بجعاته الشاذيات فوق مياهه الجارية . وكانت الأشجار تحيط بالبحيرة وتحميها بأوراق غصونها الكثيفة من أشعة فويوس وتكسوها بظلال رطبة ، وتنتشر المراعى الخصبية من حولها متأنقة بالأزاهير حتى باتت كالربيع الدائم .

كانت پروسيرينا هناك تلهو باقتطاف أزهار البنفسج والسوسن ثم تجمعها مرحةً مرح الطفولة البرىء في سلّتها أو بين طيّات ثوبها محاولة أن تَبْرَ ريفقاتها ، وقد وقع عليها بصر بلوتو حين أصابه السهم فإذا هو يقع في غرامها فاخطفها ، فما أشدّ لُفّة الحب ! وأخذت الإلهة المذعورة تبكي وتصيح مستغيثة بأما ويرفيقاتها وهي تمزّق صدر رداثها حتى سقطت الأزهار التي كانت قد جمعتها في ثناياها ، وتضاعفت حسرتها حين رأت خاطفها يستثير الخيول التي تجرّ مركبته منادياً كل جواد باسمه يستحثّه على مضاعفة جهده ، ويبرز أعنتها المصبوغة باللوان داكنة من فوق رقابها وأعرافها وهي تعدو فوق البحيرات العميقة الأغوار والبرك الكبريتية في بلاد الهاليكي^(٢٠) التي تنبتق مياهها من باطن الأرض وهي ساخنة تفور ، ثم مرّت بالبقعة التي شيدت فيها سلالة باكخاداي الوافدة من كورنثه ويرزخها^(٢١) أسوار مدينتها بين مينائين يكبر أحدهما الآخر .

كياني

وكان ثمة خليج في المنطقة التي تفصل بين بركة كياني وجدول آريثوزا الوافد من بيزا ، تتجمع فيه مياه البحر محصورة بين شاطئى المجرى الذى يزداد ضيقاً في عدّة مواقع . وكانت « كياني » أشهر حوريات صقلية التي أطلق اسمها على البركة تحمياً به ، وقد برزت حتى خصصها خارج المياه وتعرّفت على الإلهة المخطوفة فصاحت : « لن تذهب بابنة سيريس أبعد من هذا يا بلوتو ، ولن تتزوج بها إذا لم تكن هي راغبة في ذلك ، وكان أولى بك أن تخطفها بدلاً من اختطافها . ولو أحمّت لى فرصة لحدّثتك عن حادث مثل ، فلقد وقع أنايبس^(٢٢) في غرامى ، ثم أصبحت عروسه بعد أن نجح في استئالي بتوسلاته لا استسلاماً لمثل هذا الذعر الذى تحرّكه في قلب الصبية » . وما لبثت أن بسطت ذراعها خلال حديثها فسدّت الطريق أمام بلوتوبن ساتورن الذى لم يستطع كبح جماح غضبه فاستثار خيوله العابسة ، وقذف بصولجان ملّكه في قاع البركة فانشقت الأرض ممهّدة طريقاً إلى تارتاروس ، وانطلقت مركبته وغاصت إلى مملكته من خلال هذا الشقّ . ومضت كياني تندب اختطاف الإلهة حزينة على استهانة بلوتو بسلطانها على بركتها ، واستقر في قلبها جرح لا شفاء منه ، فبدأت تذى من فرط بكائها حتى تحلّلت تماماً في الماء الذى كانت في الماضى إلهته الجليلة وتحاذلت أعضاؤها فأخذت عظامه تتثنى وأظافرها تفقد صلابتها . وكانت أجزاء جسدها الدقيقة هي أول ما بدأ في التحلّل : شعرها الداكن الزرقة وأصابعها وساقاها وقدماهما . وما أسرع ما تحوّلّت هذه الأعضاء إلى أمواج باردة ، ثم اختفى كفافها وظهرها وردفاها ونهداها في سيولة الماء حتى تحوّل الدم الذى يجرى في عروقها إلى ماء سيال ، ولم يبق منها شيء تقبض عليه كفت إنسان .

وتسلّلت الهموم إلى قلب سيريس أم پروسيرينا وهي تجوب الأرض والبحار تحاول عبثاً العثور على ابنتها ، ولم تشاهدها « أورورا » ربّة الفجر ساعة يقظتها بصفائرها النديّة ، كما لم يشهدها هيسبيروس نجم

الليل وهى تأوى ساعة إلى الراحة ، فقد أشعلت يديها مشعلاً من خشب الصنوبر من بركان « إتنا » وطلفت به باحثة بين الظلمات القارصة البرودة ، فلم تكن تحس فارقاً بين شروق الشمس وبين غروبها حتى أضناها جهد السير وأذنتها آلام العطش . وقبل أن تعثر على ينبوع تُطفىء بياهه لبيب ظمئها ، وقع بصرها عَرَضاً على كوخ مسقوف بالقش قرعت بابه المتظان فخرجت منه امرأة عجوز ، وحين رأت الإلهة وعرفت أنها إنما جاءت طلباً للواء ، أعطتها شراباً عذباً مغشى بطبقة من دقيق الشعير المحمص . وحين أخذت سيريس تشرب تقدّم منها صبى معروق الوجه صفيق الملامح أخذ يعنفها ويصمها بالشراة ، فقذفت الإلهة الغاضبة وجهه بما بقى من هذا الشراب وانتثر عليه الشعير المختلط بالسائل ، فامتلاً وجهه بالبقع وحلّت قدماه محل ذراعيه ومال ذيل وتضائل حجمه وتدهورت قدرته على الإيذاء حتى أضحى أصغر من السحلية حجماً . ودهشت المرأة العجوز وبكت مائة يدها لتلمس هذا المخلوق الجديد الغريب ، فإذا هو يفرّ منها باحثاً عن مكان يختبئ فيه ، وكان يحمل اسم « ستليو »^(٢٣) الدال على لون جسده الذى انتثر به ٤٦٠ البقع هنا وهناك .

وما أكثر ما جابت الإلهة من بلاد وبحار مما يطول ذكره ، حتى إذا لم يُعدّ هناك مكان لم تبحث به فقلت راجعة إلى صقلية . وقد مرّت خلال جولاتها بالجزيرة بشواطئ بركة كياني ، ولولم تكن الحورية قد تحلّلت إلى مياه لاستطاعت أن تروى لسيريس تفاصيل ما حدث . وكانت كياني راغبة في الحديث إلا أنها لم تكن تملك فما ولا لساناً ولا أداة أخرى تتكلم بها ، ومع ذلك فقد استطاعت أن تعطى لسيريس إشارة تكشف لها عن أمر ابنتها ، إذ عرضت على سطح مياهها حزام بروسيريينا [بيرسيفوني] الذى كانت تتمنطق به والذى سقط منها في البركة المقدسة . وما إن رآته سيريس ، وكانت تعرفه حتى المعرفة ، حتى جعلت تمزّق شعر رأسها وكأنها لم تعرف بفقد ابنتها إلا ساعتها فقط ، ومضت تضرب صدرها بيدها . ومع أنها لم تعرف مكان ابنتها على التحديد فقد أنحت باللائمة على بقاع الأرض كافة ووصمتها بنكران الجميل وأنها غير جديرة بنعمة الحصاد التى وهبتها إياها . واختصّت جزيرة صقلية التى وجدت بها آثار فقيدتها بمزيد من اللوم ، وأخذت تحطم يديها في قسوة المحاربت التى كانت تقلّب الأرض ، وقضت في غمرة غضبها على الفلاحين والثيران العاملة في الحقول بالهلاك بالطاعون ، وأمرت الحقول بإفساد ما غرس فيها من بذور ، وصارت التربة التى كانت تباهى بخصوبتها في أنحاء العالم جدبة قاحلة فخيّبت الآمال التى وضعها فيها ٤٨٠ الناس ، وهلكت المحصولات عند ظهور بشائرها فقد كانت تتلفها حرارة الشمس المشتعلة أو يجرفها سيل من الأمطار أو تُبيدها موجات الريح العاصفة ، على حين كانت الطيور الشريّة تترص بالبذور ساعة بنزرها ، والأعشاب الضارة والأشواك المستعصية تأقى على المحاصيل .

ومن أعياق البركة برز وجه الحورية « آرثوزا » من إيليس التى هام بها أليفيوس^(٢٤) ، فأزاحت خصلات شعرها المبتلة عن جبينها ، وقالت لسيريس : « يا أم المحاصيل العظيمة ، يا من بحثت عن ابنتك العذراء في جميع أرجاء العالم ، هوّن عليك ما بذلت من جهد ، وخفّفى من غضبك على الأرض الوقية لك ، فليست الأرض هى الملوّمة حين انشقت لتدع المعتدى ينفذ عبرها . لقد فعلت ذلك مكرهه ،

ولست بذلك أذاع عن بلادى ، لأئنى وُلدت فى « ييزا »^(٢٥) ونشأت فى « إيليس » فأنا غريبة عن هذه البلاد . على أئنى أحب صقلية أكثر من أى بلد آخر رغم أنى لست من أهلها فهى الآن موطنى ، أقمت فيها تحت اسم آريثوزا^(٢٦) فكفكفى غضبك عليها وترفقى بها أيتها الربّة ، وسوف أقص عليك سبب تركى لبلادى وركوب هذا البحر حتى صقلية حين تسنح فرصة ، وبعد أن تكونى قد أخذت قسطاً من راحة البال ونعمت بشيء من البهجة . ويكفى أن أقول لك إن الأرض قد انشقت أمامى فنفتت عبر كهوفها السفلى إلى الأعماق ، ثم عدت ثانية إلى سطح الأرض هنا ورأيت النجوم التى طالما اشتقتها . وبينما كنت انساب فى مستنقعات ستيكس شاهدت ابتك برسيريينا بعينى وقد عصف بها حزن بالغ وارتسمت على وجهها علامات الفزع ، ومع ذلك بدت ملكة حقّة ، لها الهيمنة على عالم الأطياف ومشاركة حاكم العالم السفلى المطلق .

٥٠٠

ووقفت الأم عند سماع هذا الحديث جامدة ، وبقيت على هذا الحال لحظات طويلة وكأنها قد غابت عن رشدها ، ثم سرعان ما أخذت مغالبة الغضب تحل محل قسوة الحزن ، وانطلقت بمركبتها عالياً فى عالم الأثير ، وأمام چوييتير وقفت مقطبة الجبين منفوشة الشعر وقالت شاكية : « جئتك يا چوييتير متوسّلة أن تعيننى على حماية ابتك وابنتى ، فإذا لم يكن للأم سلطان عليك فلا أقلّ من أن تحرك ابتك عواطف الأبوة فى قلبك . لا تضنّ إذن بمحبتك على ابتك بدعوى أنها بنتى . لقد عثرت أخيراً على ابتك التى طالما بحثت عنها ، وما أظننى بذلك قد ظفرت بها إلا إذا كان فى معرفة مكانها ظفراً بها . لقد اختطفت وإننى لغافرة لمختطفها ذنبه إذا هوردها ، وليس لابنتك أن تتزوج من قاطع طريق ، حتى لو لم تكن بنتى . فاجابها چوييتير « إن ابتك موضع إعزازى كما هى موضع إعزازك تمنحها معاً حناننا ونهت معاً بشئونها . ولو أنك سميت الأشياء بأسمائها الحقيقية لما وجدت ثمة عار فى مصاهرته ، ويكفيه أنه شقيق چوييتير حتى لو لم تكن له ألقاب أخرى ، فأنا لم أتقدم عليه مرتبة إلا بالخط وحده . أما إذا كنت ملهوفة على التفريق بينها فمن اليسير على برسيريينا أن تصعد إلى السماء لو أنها لم تذق بشفتها أى طعام مما ينطوى عليه ذلك العالم السفلى ، فذلك وحده شرط ربات الأقدار . »

٥٢٠

أسكالافوس والسيرينات

ولم تحوّل كلمات چوييتير سيريس عن إصرارها على إنقاذ ابنتها ، غير أن الأقدار لم تسمح بذلك لأن الفتاة كانت قد قطعت صيماها عن حُسن نيّة وهى تتجوّل خلال حدائق العالم السفلى الجميلة التنسيق إذ قطفت رمانه من غصن شجرة دايّ ، وأخذت منها - بعد نزع قشرتها - سبع حبّات امتصت عصارتها ، وكان الذى رآها تفعل ذلك هو أسكالافوس الذى يقال إن الحورية « أورفينه » قد أنجبته من زوجها إله النهر أخيون منذ زمن بعيد فى غابات أفيرنوس الكثيفة الظلال ، فأذاع النبأ ساعة رأى برسيريينا تتناول

٥٤٠

حبات الرمان ، فحال بفعلته القاسية بينها وبين العودة إلى الأرض . وهنا أطلقت ملكة إريوسوس [العالم السفلي] زفرة يائسة ومسخت الواشى طائراً مشثوماً ، إذ نثرت على رأسه قطرات من ماء نهر فليجيثون الذى يجرى فى العالم السفلى وأنبت له منقاراً وريشاً وعينين واسعتين ، ففقد شكله الأدمى واكتسى بجناحين سمرابين ، وعظّم حجم رأسه ، وطالت أظافره وتحوّلت غنالب معقوفة ، وبدأ يجهد كى يحرك الرّيش الذى نبت على ذراعيه المتراخيتين . لقد صار طيراً تثير رؤيته النفور وتندّر بوقوع الكوارث هو طير البوم الكسول نذير الشؤم عند البشر .

ولقد بدا عقاب أسكالافوس جزاء وفاقاً لوشايته ، ولكن ماذا حدث حتى اكتست أجساد بنات أخيلوس بالريش وبرزت هن مغالب كالطيور بينما احتفظن بوجوههن البشرية ؟ أكان ذلك لغنائكن الرخيم فى رفقة پروسيرينا حينما كانت تقطف أزهار الربيع أيتها السيرينات الحكيمات ؟ فلما بحثنّ عنها فى ربوع الأرض سُدى توسلتنّ إلى الآلهة أن تزودكنّ بأجنحة تخففن بها فوق البحار حتى تُشهدنها على لهفتكنّ عليها . واستجابت الآلهة لتوسلكنّ ، وفجأة وجدتنّ أطرافكنّ تكتسى بالريش الذهبى ، ولكن بقيت أغانيكنّ المرثمة تُطرب الأذان ، وبقيت فى أفواهكن الألسنة البشرية بقُدرتها على الغناء ، فاحتفظتنّ بوجوه العذارى وبصوت الأناسى .

ومع ذلك تدخّل جوبيتر ليحكم بين أخيه وشقيقته الحزينة ، وقسّم العام إلى قسمين متساويين حتى تستطيع الإلهة التى بسطت نفوذها على عالمين ، أن تمضى مع أمها من العام ذلك العدد من الشهور الذى تقضيه مع زوجها . وما أسرع ما تبدّل وجه سيريس ومزاجها ، وأشرق جبين الإلهة الذى كان معتماً فى عينى بلوتو نفسه وتألقت الفرحة عليه ، وكأنه الشمس التى حجبتها السحب الحبلى بمياه الأمطار حينما تخرج منتصرة من بين الغيوم .

أريثوزا وتريپتوليموس

وبعد أن استعادت سيريس الحنون مرحها بعودة ابنتها عادت فسألت عن سبب هروب أريثوزا وتحوّلها إلى ينبوع مقدس ، فهدأت مياه الينبوع عندما أخرجت الحورية رأسها منه ، ثم جففت شعرها الأخضر بيدها وأخذت تروى قصة الشوق القديم لنهر إقليم إيليس قائلة :

كنت إحدى الحوريات الساكنات فى « آخايا » ، ولم تكن بينهن من تفوقى هياماً بالتجوال فى الغابات ونصب شباك الصيد . ومع التفاتى للعمل وقعودى عن البحث وراء الشهرة بالجمال إلا أننى كنت أنادى فى كل مكان بأريثوزا الجميلة ، ولم أكن أسعد بالمديح الذى كان يُكال لقسات وجهى عن طيب خاطر ،

وكنت أحجل من ذكر مفاتن الجسد التي كانت الفتيات الأخريات يفخرن بها ، بل كنت أعتقد أن من الجرم محاولة تحريك إعجاب الرجال .

وكنت ذات يوم عائدة من غابة « ستيمفالوس »^(٢٧) مرهقة وسط قيظ ضاعف من وطأة الإجهاد الذي نال مني ، فأويت إلى جدول هادئ كدت لأصفاء مياهه أن أعد حبات الحصى التي بقاعه ، فمياهه تجري بطيئة حتى يخيّل إليك أنها ساكنة ، وتظلّ ضفافه المنحدرة أشجار الصفصاف الفضية وأشجار الحور التي ترتوي من مياهه . واقتربت من الجدول وغمست قدمي في مجراه ثم ساقى حتى ركبتى ، ولم أفتح بذلك بل خلعت ثيابي وعلقتها على شجرة صفصاف متطامنة وألقيت بجسدي العارى في الماء ، وبينما كنت أسبح في دائرة محكمة أضرب الماء بساعدي حيناً وأدور حيناً آخر أحسست بزجاجة وسط البركة ألقت الرعب في نفسي فقفزت إلى أقرب مكان على الشاطئ ، وعندئذ صاح ألفيوس : « إلى أين تُسرعين بالمهرب عارية ، إذ كانت ثيابي معلقة على الضفة الأخرى ، فزاد لهيب شوقه إلى خلال مطاردته لي ، وقد ضاعف عُرْبِي من إغرائه فأصرّ على اغتصابي ، وكننت أعدو فيُسرِع في العُدو ورائي . وكأني حمامة تنطلق مرتجفة بين يدي صقر يقترب منها رويداً رويداً .

٦٠٠

وعدوتُ تحت أسوار « أورخومينوس »^(٢٨) وبيجوار مدينة « بسوفيس »^(٢٩) حتى بلغت جبل « سيليني » ثم مراعى جبل « مينالوس » وجبل « إريمانثوس » الندي ومدينة « إيليس »^(٣٠) ، واستمر يطاردني دون أن تقلّ سرعتي عن سرعتي ، غير أنني بدأت بعد فترة أفقد قدرتي على الاحتفاظ بسرعتي دون أن يفقد هو قدرته ، ومع ذلك ظللت أعدو على سفوح الجبال وفي بسيط الوادي وفوق الصخور والأحجار حيث لا طريق مُعبّد . وكانت الشمس ورائي فأريت ظلاً طويلاً يمتد أمام قدمي ، فحسبت الخوف هو الذي صوّر لي ذلك ، غير أنه كان من المؤكد أن وقع أقدامه كان يخيفني . وقد كان يلهث بشدة جعلت أنفاسه تحرك خصلات شعري ، حتى إذا حلّ بي التعب من جهد العُدو ناديتُ صائحة « أدركيني بعونك يا «ديانا» فقد أحيط بي ، أنقذني حارسة أسلحتك التي عهدت إليها المرة تلو المرة بحمل قوسك وسهامك داخل جعبتك التي قد شدت وثاقها » . وبلغت كلباتي قلب الربة فسأقت غمامة كثيفة ألقت بها عليّ ، وإذا غطّنتي الغمامة توقّف النهر حائراً لا يدرى أين اختفيت ، وصاح بي منادياً : « أريثوزا أين أنت يا أريثوزا » وكرّر نداءه لي ولكن هيهات ! يا للهزة التي اعترتني ساعتها . لقد كنت كالحمل يسمع عواء الذئب المحيطة بحظيرته ، أو كالأرنب البرّي المختبئ بين الأشواك يرقب أنياب خصومه من الكلاب دون أن يجسر على الحركة . ولم ينسحب ألفيوس من مكانه لأنه لم ير آثار أقدام تتجاوز هذا المكان ، وظل يرقب البقعة التي تغطّيها الغمامة . وانبثق العرق البارد يغطّي أطراف ويكسو جسدي كله بقطرات لازوردية ، وحيثما كنت أحرك قدمي كانت تنفجر من تحتها مياه ينبوع ، وتقاطر الندى من شعري ، وتحوّلت في أقصر من هذا الوقت الذي أقص فيه قصتي إلى ينبوع . غير أن النهر تعرّف من هذه المياه على أسرة قلبه فترع عنه صورته البشرية التي كان قد تمخّفى فيها واستعاد صورته السائلة لكي يمزج مياهه بمياهي ، غير أن عذراء

٦٢٠

ديلوس [ديانا] شقت الأرض من تحتى فألقيت بنفسى بين كهوفها المظلمة حتى وصلت إلى ٦٤٠ «أورتيجيا»^(٣١)، تلك البلاد العزيزة على لأنها تحمل اسم الربّة التي استطاعت قبل غيرها أن ترفعى من باطن الأرض إلى سطحها تحت قبة السماء» .

وبعد أن انتهت «أريثوزا» من قصتها ، شدّت ربة الخصوبة تينين إلى مركبتها وثبتت شكيمة العنان في خطميهما ، واندفعت إلى الفضاء بين السماء والأرض قاصدة مدينة «بالاس» حيث عهدت بمركبتها إلى تريبتوليموس ، وأسلمته بذوراً أمرته أن ينثر بعضها في الأرض البكر التي لم تفلح من قبل قط ، وأن ينثر الباقي في الأراضي البور ، فحلّق الصبي عالياً فوق أوروبا وبلاد آسيا ، ثم اتجه صوب مملكة سكوثيا حيث كان يرتقى عرشها الملك «لينكوس» . وحين دخل القصر الملكي سأله عن اسمه وبلده وعن مجيئه وسببه ، فأجاب قائلاً : «اسمى تريبتوليموس وموطنى «أثينا» ولم أجد بالبحر ولا البرّ فما سرت على قدمى ولا صعدت سطح سفينة ، وإنما كانت السماء طريقي . لقد جئت حاملاً معى هدايا سيريس التي ما تكاد تنثر فوق الحقول الشاسعة حتى تثمر حصاداً وثيراً وغذاء شهياً» . وسرعان ما أكلت الغيرة قلب ذلك الملك الملمحى الذى كان يأمل أن ينسب له منح البشرية هذه الهبة ، واستضاف الصبي تريبتوليموس حتى إذا أخذ يغط في النوم هاجمه بسيفه ، غير أنه لم يكد يُقدم على تمزيق صدر الصبي حتى مسخت سيريس هذا السّفاح فهداً جاحظ العينين^(٣٢) ، ثم أمرت الصبي الأثينى أن يعتل مركبته المقدسة ويمضى في رحلته عبر الأجواء» .

٦٦٠

هذه الكلمات ختمت «كاليوبى» أكبر ربّات الفنون من بيننا سنّا أنشودتها التي فرغت الآن من إلقاتها عليكن ، وأعلنت الحوريات مجتمعات فوز ربّات هليكون ، فأخذت غريمتنا المهزومات يقذفنا بالسباب ، فقالت هن كاليوبى : «إذ كنتن لم تقنعن بهزيمتكن التي كانت ثمرة تطاولكن ، وأخذتن تُضفن إلى خطئكن الاعتداء علينا بالسباب ، وإذ كان صبرنا ذا حدود ، فسوف نُنزل بكن عقاباً نُطلق فيه العنان لغضبنا عليكن» . فضحكت النساء المقدونيات ساخرات بهذا الوعيد والتهديد ، غير أنهن ما لبثن أن شاهدن الريش ييزغ من أظافهن ويغطى أذرعتهن ومازلن يثرثن ويسخرن ، ونظر بعضهن إلى بعض وبقين يرقبن وجوههن وهى تتقلص إلى مناقير صلية ، ويمسخن نشأت فصيلة جديدة أضيفت إلى طيور الغابات . وعندما حاولن ضرب صدورهن إذا حركة أيديهن ترفعهن إلى السماء محلّقات في الهواء . لقد تحوّلن إلى طيور العقق ناشرى المخازى وأحاديث الإفك في الغابات ، ومازلن بعد تحوّلهن إلى طيور محتفظات بقدرتهن على الكلام ، فما برحن يثرثن دون أن تشع رغبتهن الصاخحة في الكلام .

التعقيبات

- (١) فينيوس هو شقيق كفيوس وابن بيلوس [انظر الكتاب الثالث] . وهو غير فينيوس الذى حرره أهل أرجوس من طيور الماربيس (انظر الكتاب السابع) .
- (٢) كان آمون يعبد على شكل كبش ، وعندما وُحِد الإغريق بينه وبين « زيوس آمون » صُوِّره دائماً بقرى كبش .
- (٣) القفاز هو « الكايتوس » المكون من عدة سيور جلدية تنفذ منها مسامير برونزية يلفها المصارعون والمجالدون والملاكمون حول قبضاتهم . وكانت مباريات الكايتوس من أخطر الألعاب اليونانية وأهمها . ولا يعد أحد المصارعين فائزاً إلا إذا قضى على حياة خصمه . وثمة وصف لهذه المباراة في إلياذة هوميروس (٢٣ : ٦٥١ وما بعده) وفي إنيادة فرجيل بالكتاب الخامس (٤٢٦ وما بعده) .
- (٤) نهر سينيبس هو نهر صغير في طرابلس ببرقة إلى جوار مدينة ليبتس ماجتا [لبلدة الحالية] .
- (٥) فزان الحالية .
- (٦) أطلق اسم « منديس » على الجدى الذى يصور في النقوش عادة على هيئة كبش يشبه آمون . وحين جاء هيرودوتوس إلى مصر ظنه الإله بان واكتشف عبادة هامة له بمدينة منديس بشمالى مصر . وأصبحت منديس خلال العصر البطلمى من أهم مدن القطر ، فقد لقب بطليموس الثانى نفسه بأنه ابن الجدى الحى العظيم الذى يسكن منديس ، ساء وصفت الملكة أرسينوى الثانية بأنها عشيقه الجدى الحى العظيم ، الأمر الذى أدى إلى تأليبها . وقد عثر على نصب تذكارى تنص نقوشه على أن مقاطعة منديس كانت دون غيرها من المقاطعات معفاة من الضرائب ، بل لقد خصص كل دخلها لعبادة الإله الجدى .
- (٧) خاونيا في شمال اليونان [ليبيروس الآن] .
- (٨) الأنباط قوم من العرب قطنوا قديماً جنوب فلسطين في إقليم كانت عاصمته البتراء . وما أكثر ما استخدم الشعراء اللاتين هذا الاسم كناية عن الشعوب الشرقية .
- (٩) انظر الكتاب الرابع : كان بوليديكتيس قد وقع في غرام داناى وحاول أن يتخلص من ابنها بيرسيوس بأن يفرض عليه إتيان أفعال مستعصية منها قطع رأس الجورجونة . وسيريفوس جزيرة من جزر السيكلاديس = الكيكلاديس [جزر الأرخبيل] غربى جزيرة پاروس .
- (١٠) بيللا مدينة في مقدونية وأصبحت عاصمة لها في عهد الملك فيليب الثانى ، وباليونانية منطقة جبلية شمالى مقدونيا .
- (١١) ثيسبى مدينة جنوبى غرب طيبة في بيويتيا بها معبد مقدس لربات الفنون باق إلى اليوم .
- (١٢) يخلط أوفيد عمداً بين الآلهة الإغريق والآلهة المصرية ، فالعلاق تيفوبوس [تيفون] هو الروح الشريرة عند قدماء المصريين [سيث خصم أوزيريس] ، وزيوس هو آمون الإله الكبش ، وديونيسوس الإله الذى كرس له التيس هو منديس الإله الجدى ، وأرتميس هى باستت الإلهة القطعة ، وهيرا هى ليزيس ذات قرون البقر ، وهرمس هو تحوت الإله على شكل أبيس . وكان الغراب طير أبوللو ، وكانت أفروديتي تشبه عشتاروت الآشورية .

- (١٣) كاليوى هي ربة الشعر الملحمى وفنون الخطابة .
- (١٤) اسم لإيطاليا عند الرومان مشتق من أوزون بن أوديسيوس .
- (١٥) بيوروس وباخينوس وليليايوم هي الرؤوس الثلاثة البارزة من جزيرة صقلية ، يقع أولها في الشرق وثانيها في الجنوب وثالثها في الغرب .
- (١٦) قيل إن أينياس كان قد شيد لأمه فينوس معبداً بمنطقة إريكس غرب صقلية [وإريكس اسم مدينة وجبل في آن واحد] .
- (١٧) بيرسيفوني هي ابنة زيوس شقيق ملك العالم السفلى .
- (١٨) مدينة « هتا » في وسط صقلية وتدعى الآن « إنا » ، ويقال إن اختطاف هاديس لپروسيرينا قد وقع بها .
- (١٩) كان نهر الكاستر في اليا بأسيا الصغرى مشهوراً ببجعاته .
- (٢٠) الهاليكي هما ابنان توأمان لجويتر من الحورية ثاليا كانا يعبدان كبطلين في صقلية . أما برك الهاليكي الكبريتية فكانت بين قطانيا وسراقوسة شرقي صقلية .
- (٢١) سمى الباكخاداي على اسم باكخيس ، وكان في الزمن الغابر ملكاً على كورنث ، وقد هجرت هذه السلالة كورنثة إلى كل من صقلية حيث شيّدوا سراقوسة ، وإليريا حيث أسسوا أسرتهما المالكة .
- (٢٢) أنابيس اسم نهر صغير في صقلية جنوبي سراقوسة .
- (٢٣) ستليو هو نوع من السحالي : والنص غير واضح إذ أن الصفة المستخدمة بدلاً من الاسم تدل على أن البقع قد انتشرت فوق جسده وهو وصف دقيق للسحلية المدعوة ستليو ، وإن لم يذكر أوغويد اسم السحلية صراحة في النص .
- (٢٤) ألفيوس هو نهر مشهور في المورة يسرى جزء منه في قاع الأرض .
- (٢٥) بيزا بلدة في إيليس قريبة من نهر ألفيوس ومدينة أوليمبيا حيث كانت تقام الألعاب الأولمبية .
- (٢٦) عندما وقع نهر ألفيوس في غرام قناة أريثوزا فرت منه وسرت تحت الأرض في المورة بل تحت قاع البحر حتى انبثقت من جديد في صقلية .
- (٢٧) ستيمفالوس اسم مدينة ونهر وبحيرة في أركاديا اشتهرت بالطيور الجارحة ذات الريش الحديدى التي قضى عليها هرقل ضمن أعماله الحارقة .
- (٢٨) أورخومينوس مدينة في أركاديا غير مدينة في بويوتيا شهيرة بنفس الاسم .
- (٢٩) مدينة تحت سفح جبل إيزيمائوس على حدود أركاديا .
- (٣٠) سيليني ومينالوس وإريمانثوس جبال ثلاث في شمال وجنوب وغرب أركاديا على التوالي ، وكانت إيليس أشهر مدن مقاطعة إيليس على ضفاف نهر بينوس بالمورة بعد تدمير مدينة بيزا التي كانت أهم مدينة في إيليس .
- (٣١) كلمة تعني جزيرة السنان ، وهي أحد أساه جزيرة ديلوس التي ولدت بها « ديانا » .
- (٣٢) نوع من فصيلة النمر أصغر حجماً وأجحف عينا يسمى أيضاً الوشق .



بيكاسو: بالاس وأراخنى

الكتاب السادس بالاس وأراخنى

استمعت منرفا إلى هذه القصة مهللة لنشيد ربّات الفنون مُشيّدة بانتقامهن العادل ، ثم ناجت نفسها : « علينا ألا نقتنع بإطرائنا للآخرين ، ولنكن نحن كذلك جديرين بإطراء الآخرين ، وألا نترك أحداً ينال من الوهيتنا دون أن نُوقع به ما يستحقّه من عقاب » ، وذكرت وهي تناجى نفسها مصير

أراخنى ، تلك الفتاة اللبديّة التي تدعى أنّها لا تقبل مهارة في الغزل عنها . ولم تكن أراخنى عريقة الأصل غير أن مهارتها أكسبتها شهرة واسعة ، وكان أبوها إيدمون مواطناً من كولوفون يحترف صباغة الصوف التي كانت تعتمد على أرجوان الرُخويات البحريّة من فوكيا^(١) . كما كانت أمها التي قضت نحبها من أصل لا يختلف كثيراً عن أصل زوجها ضعة . ومع ذلك فقد نالت ابتهاجاً - التي وُلدت في كوخ بسيط بقرية من قرى هيبايا الصغيرة - شهرة طافت بأنحاء ليديا بفضل مهارتها في حرفتها ، حتى أن حوريات الغابات كن يتركن مكانهن الأثير وسط كروم تيمولوس^(٢) ليشهدن أعمالها معجبات بها . كما كانت حوريات الماء يتركن نهر باكتولوس^(٣) ليستمتعن بمشاهدة نسجياتها ، كما كنّ يتابعنها وهي تنسج ، فقد كانت شديدة البراعة في إعداد خيوط الغزل بفتلها بأصابعها وتخليصها من العهن المنفوش وتشكيلها خيوطاً تلتف على المغزل الرفيع وهي تديره بإبهامها في حلق ، وكذا كانت فائقة المهارة في تطريز النسجيات .

وكان من المعروف أن الفتاة لقتت حرفتها على يدي الإلهة باللاس ، غير أنّها كانت تنكر ذلك ، كما كان يغضبها أن يقال إنّها لقتت حرفتها عن معلّمة ما مها كانت مكاتها ، وتتحدّى الناس قائلة : « فلتأت باللاس ولتباريني ، فإنّ هي فازت علىّ كان لها أن تفعل بي ما تشاء » .

وتنكرت باللاس في صورة عجوز وخط الشيب خصلاتها المستعارة المدلاة على صدغها ، وتوكتت على عصا ومشتت في خطوات متثاقلة ، ثم بادرت أراخنى قائلة : « ليست الشيخوخة هي تلك الأعباء التي نضيق بها ، بل هي خيرة طويلة أفدناها على مرّ السنين ، وإنّ أهيّب بك أن تستمعي إلى نصيحتي : احرصي ما شئت أن يقال لك إنّك أكثر البشر مهارة في غزل الصوف ، ولكن احذري أن تعدّي طورك فتقرن نفسك في هذا الصدد بإلهة من الإلهات ، بل عليك أن تتوسّلي إليها لتغفر لك تطاولك عليها ، ولسوف تصفح عنك حين تطلين إليها ذلك » . وطرحت أراخنى النسجيّة التي كانت في يدها ، وحدجت المرأة العجوز بنظرة غاضبة وهي مقطبة الجبين وأجابت نائرة دون أن تعرف أنّها الإلهة : « أراك قد بلغت من العمر أردله ، وهذا ما يعيبك . لقد أوهنتك الشيخوخة وأضعفت مداركك ، فإنّ كانت لك بنات أو زوجات أبناء فاذخري لهن نصائحك لأنّ قادرة وحدي على رعاية مصالحهن ، ولا تخالي أن تحذيراتك سوف يكون لها أثر في نفسي فإنّني مازلت عند رأيي ، لماذا لا تأتيني باللاس نفسها فتطاولني ، ولماذا تهرب من مباراتي ؟ » وحينئذ صاحت الإلهة بعد أن خلعت عن نفسها صورة المرأة العجوز وتبدّت في صورتها الإلهية : « ها هي ذى الإلهة قد أتت » ، فركعت الحوريات ونساء ميجدونيا إجلالاً للإلهة وقد ملكهن الروح إلا أراخنى التي ظلّت في مكانها لم ترتع ، وإنّ كانت قد احمرت وجنتها فجأة غير أنّها ما لبثت أن انقشعت عنها تلك الحمرة ، كما يُقلّ الفجر عند بزوغه بالأجواء إذ يكسوها احمراراً لا يلبث أن يزِيلها فتصبح مع نور الشروق ناصعة البياض . وقد صمدت أراخنى متطلّعة إلى الفوز الذي صوّرت لها رعويتها أنّها ظافرة به ، ولم تضيف ابنة جوييتر تحذيراً بل قبلت التحدي غير مُرجئة البدء في المباراة ، وأخذت كلّ منها ، هي وأراخنى ، مكانها في أحد أركان الغرفة ، ويسطت كلّ منها السدى في التول بعد أن أسندت إطاره إلى عوارض السقف ، ثم فصلت الخيوط المشنودة إلى صفيّين بالدرق الخاص بتحريك السدى ،

- وأخذتا تقذفان الوشيجة [الموكك المدبب] بأنامل سريعة سرعة الطير المحلق في الهواء وتنسجان به خيوط اللحمة عبر خيوط السدى ، وكلما امتد خيط عرضي اندفع المشط بأسنانه الحديدية ليثبت مكانه . وكانتا قد جمعتا ثيابها بمنطقة فوق خصريهما ، بينما تخفى حركة أيديهما العجلى الإرهاق الذى تشعران به من فرط جهدهما المبذول فى سبيل الفوز ، واستخدمتا خيوطاً مصبوغة فى دنان « صُور » البرونزية باللون الأرجوانى وباللون أكثر قتامة يتمييز الواحد عن الآخر بظلال شاحبة ، كألوان قوس قزح التى تنعكس فى قبة السماء بعد هطول الأمطار والى تتقارب ظلالها لتشكّل أخيراً ذلك التنوع من الألوان الزاهية ، وتنتقل العين من أحدها إلى الآخر دون أن تمييز الفاصل بين كل لونين لتما تشابهها عند هذه الفواصل ، ومع ذلك فهى مختلفة متمايزة عند أطرافها . وقد أضافتا إلى النسيج خيوط القصب وأخذتا فى رسم الأساطير على نسجتيهما .
- ورسمت باللاس فى نسجيتها صخرة مارس تعلقو قلعة كيكرويس بأثينا والمباراة التى جرت قديماً لإطلاق اسم أثينا أو نبتون على هذه المدينة^(٤) . وأجلست الآلهة الإثنى عشر فى جلال وشموخ فوق عروشهم العالية يتوسطهم جوبيتر تحفه مهابة الملوك ، بينما يتميز كل منهم بخصائصه ورموزه . وأظهرت باللاس ربّ البحار نبتون واقفاً وقد شقّ جلاميد الضخر بحريته الطويلة ذات الشُعَب الثلاثة ، فانبثق الجواد الوحشى من بين الصخر آية استحقاقه تسمية المدينة باسمه . كذلك صوّرت باللاس نفسها فى النسجية مُسكبة بترسها ، حاملة رمحها الحاد واضعة خوذةها على رأسها ، مغطّية صدرها بزردا ، مثبتة شجرة زيتون شاحبة الأوراق حيث ضربت الأرض برمحها أمام الآلهة المأخوذيين بتلك المعجزة وهم يحملون معجبين ، كما صوّرت « ربة النصر » مكلّلة بها نسجيتها^(٥) .

وقد شاءت الإلهة إثارة الندم فى صدر منافستها على جسارتها الطائشة ، والإيحاء إليها بما ينتظرها من عقاب ، فأضافت إلى النسجية صور مبارات أربع أخرى ، جعلت كل واحدة منها فى ركن من أركان النسجية ، وجعلتها تمييز بالوان صارخة مع تصغير شخصوها : فصوّرت فى الركن الأول مباراة هاميموس ورودوبى من طراقيا ، وكانا من البشر وتسمّيا باسمى كبيرى الآلهة فتحولوا إلى جبلين^(٦) . وفى ركن ثان صوّرت المصير التمس الذى لاقته ملكة الأقزام^(٧) حين تحدّت الإلهة جونو فأذبتها وحولتها إلى طائر كركى وحكمت عليها أن تعلن الحرب على قومها^(٨) . وفى الركن الثالث صوّرت باللاس أنتيجونى^(٩) التى جرّوت على منافسة شريكة عرش جوبيتر العظيم فحولتها جونو إلى طائر دون أن يستطيع ردّ هذا القضاء عنها والدها لاوميدون ولا مدينتها طروادة ، وقد أنبتت لها الإلهة جناحين فى ظهرها ناصعى البياض فأضحت طائر لقلق تققع بشقى منقارها زهواً . وفى الزاوية الأخيرة طرّزت باللاس صورة سيراى^(١٠) بعد فقدته بناته محتضناً درجات سلم المعبد التى كانت فى الماضى أعضاء أجساد بناته ، وهوىكى جاثماً فوق الأحجار . وزيّنت باللاس حوافى النسجية بأغصان الزيتون المجدولة رمز السلام ، وكانت خاتمة عملها تصوير شجرة الزيتون المرتبطة باسمها .

أما أراخنى فقد صوّرت فى نسجيتها أوروبا حين خدعها جوبيتر متخفياً فى هيئة ثور ، وجعلت الحياة تنبض فى الثور والأمواج حتى ليحسبها الرائي أمواجاً حقيقية ، بينما استدارت أوروبا إلى الوراء نحو

الشاطيء الذى خلّفته وهى تصبح برفيقاتها وترفع قدميها فى براءة خوفاً من أن يبللها الماء المتدفق . كذلك صوّرت فى النسجية أستيرييه^(١١) وقد قبض عليها النسر بمخالبه وأخذ مقاومتها ، كما صوّرت ليدا مضطجعة تحت جناحى طائر البجع ، وأضافت صورة أخرى لجوبيتر متخفياً فى هيئة ساتير ليُخصب أنتيوى الأميرة الجميلة ابنة نيكيتوس توأمين اثنين ، ثم متنكراً فى ملامح أمفيتريون ليحتضنك يا ملكة تيرين ، ومتشكلاً فى شؤبوب قطرات الذهب ليُغرى داناي ، وفى صورة السنه لب من أجل ابنة أسويوس ، وفى شكل راع من أجل منيموزنيه ، وفى ثوب حية رقطاء من أجل پروسيرينا ابنة سيريس ، كما صوّرتك أنت كذلك يا نبتون وقد تخفّيت فى هيئة ثور مفترس تغطى إبنه أيولوس العذراء ، ثم وأنت فى صورة إينيبيوس تضامع زوجة الوبوس وتولدها توأمين ، وكذا وأنت تخدع إبنه بيزالتيس فى صورة كبش ، ثم وأنت فى صورة جواد تخنق على ربة الحصاد الحيرة ذات الشعر الذهبى ، وأخيراً وأنت على هيئة درفيل تضامع ميلانتو ، ثم فى هيئة طائر نلث معتلياً الأميرة ذات الشعر الثعباني أم الجواد المجنح . وكما صوّرت الشخصيات بدقة كذلك صوّرت الأماكن تتفق والأحداث ، حيث نرى فوبيوس فى ثياب فلاح ثم فى ريش صقر تارة وفى جلد أسد تارة أخرى ، وفى هيئة راع يغازل إيسيه ابنة مكاروبوس^(١٢) ، كما نرى باكخوس يفتصب إريجونى خادعاً إياها فى صورة عنقود من العنب ، ثم ساتورنوس [كرونوس] بعد أن تحوّل إلى جواد لينجب خيرون ذا الطبيعة المزدوجة^(١٣) . وقد طرزت أراخنى حوافى النسجية بزهور متشابكة مع أغصان لبلاب رخو .

لم تستطع باللاس ولا ربة الحسد أن تكتشفا عيباً فى نسجية أراخنى فتملك الإله العذراء الشقراء غضب عارم لتفوق منافستها ، فمزّقت النسجية التى تسجل نزوات الأرباب الأثمة ، ثم أمسكت بالشبيجة المصنوعة من خشب أشجار جبل كيتوروس^(١٤) وهوت بها مرات ثلاث على جبهة أراخنى إبنه إيدمون وأتبعها بضربة رابعة . وضاق صدر أراخنى بهذا الفعل المهين فلثت فى عنف حول عنقها حبلاً شنقت به نفسها ، ورأتها باللاس معلقة من عنقها فأشفقت عليها وقالت لها : فلتدومي حية ، ولكن معلقة فى الهواء إلى الأبد ، ولا تعقدى على أملأ بعد ، إذ سيكون هذا مصير أبنائك وأحفادك من بعدك . ثم أخذت فى الابتعاد بعد أن نثرت على أراخنى عصارة عشب مقدس لهيكتان ، وما كادت عصارة هذا العشب السام تلمسها حتى تساقط شعرها وضمير أنفها وأذناها ورأسها وبقيّة أطرافها وبرزت فى جنبيها أصابع دقيقة بدلاً من سيقانها ، ولم يبق منها إلا بطنها ينساب منها الخيط . وها هى ذى تصل نسيجها كما كانت تفعل من قبل ، وإذا هى تصبح عنكبوتاً .

نسيوى

أثار أهل ليديا نبأ هذا الحادث وأفرغهم ، ولم تلبث هذه المساة أن بلغت أسباع الناس فى أنحاء فريچيا ، وانتشرت حتى غدت حديث العالم كله .

وكانت نبوي تعرف أراخنى منذ زمن طويل وتعيش قبل زواجها في ميونيا على جبل سيبيلوس^(١٥) ، غير أنها لم تتعظ بما حاق بأراخنى التي لم تكن تقدس الإلهة حقّ التقديس . وقد جعلت هي الأخرى تتناول على الآلهة ، وكانت تملك الكثير من أسباب الغرور ، غير أنها لم تكن تفخر بمواهب زوجها ولا نبل محتده ومحتدها ولا بقوة مملكتها وعظمتها بل كان تباهيها بكثرة أبنائها ، ولولا جهرها بأنها أسعد الأمهات ما شاع عنها ذلك . وذات يوم اندفعت إلى الطرقات ماتو ابنة تيريزياس التي كانت تتنبأ بالمستقبل يجدها إلهام إلهي ، وأخذت تصيح : « يا نساء طيبة ، يا قاطنات شط نهر إيزمينوس ، توجن رءوسكن بالأكاليل ، ١٦٠ وتجمعن حول المحارب ، وقدمن القرابين وأحرقن البخور ، وتضرعن للربة لاتو وولديها الاثنين ، ذلك أمر إلهي أجرى على لساني » . وخرجت نساء طيبة متوجات الرأس إلى المحارب المقدسة يقدمن القرابين ، ويحرقن البخور ، ويتضرعن للربة لاتو .

وأقبلت نبوي في رهط من وصيفاتها ، مرتدية ثوبها الفريجي المنسوج من خيوط القصب الذي اجتذبت به كل الأنظر . وكانت وهي في ثيابها الفاخرة رائعة الفتنة لولا مسحة من الغضب تشوب جامها ، تلقى برأسها إلى الورا ، وتسدل خصلات شعرها طليقة على كتفيها ، ووقفت منتصبية القائمة تلقى بنظرة مترعة كبرياء وغضباً ، ثم صاحت : « ما هذا النزق ! ما لكنّ ولاءه من السماء — سمعتن عنها ولم تشهدنها — تقدمن لها كل هذا التكريم الذي يفوق ما تقدمته لمن ترونها بعيونكن . كيف تضرعن للربة لاتو أمام المحارب التي أقمته تكريماً لها ، وأنتن لم تحرقن حتى اليوم بخوراً لتكريم الوهيتي ؟ إن أبي تانتالوس هو وحده من بين البشر الذي أذن له بالجلوس على مائدة الآلهة ، وأمى شقيقة الهلياديس ، وجدى هو أطلس الجبار الذي يحمل قبة السماء على كتفيه ، وجدى الآخر هو چوبيتر الذي هو أيضاً والد زوجي . ثم إن شعوب فريجيا تدنن لي بالولاء ، وأنا أحكم مع زوجي أمفيون المدينة التي تجمعت أجزاء أسوارها بسحر ١٨٠ أنغام قيثاره زوجي^(١٦) ، وأنا كذلك سيدة قصر كادموس الملكي ، وأينما خطوت في دارى وقع طرفى على ثراء غير حدود . ثم إننى بعد هذا جميلة جمال الإلهات ، ولى سبعة أبناء وسبع بنات ، وعما قريب سيكون لى عددهم زوجات أبناء وأزواج بنات ، فهذا هو مجدى الذى أزهبه . أو تجرأن بعد ذلك على أن تفضّلن على ابنة مارديسمى كويوس^(١٧) ، تلك الربة لاتو التي تعرفن أن الأرض الفسيحة رفضت أن تمنحها رقعة ضئيلة لتكون لها ماوى حين أوشكت أن تضع جنينها . لقد نبذت السموات والأرض والبحار تلك الإلهة التي تعبدونها حتى أشفقت عليها [جزيرة] ديولوس وقدمت لها ماواها قائلة : « إنك تضرين في الأرض على غير هدى ، كما أضرب أنا في البحار » ، ومنحتها الجزيرة ماوى تستقر فيه حيث وضعت لاتو توأمين . ولقد أنجبت أنا سبعة أضعاف ما أنجبت ، فأنا سعيدة الحظ ، لا يمكن لأحد أن ينكر سعادتي ، وسأبقى سعيدة لا يملك أحد أن يشكك في ذلك . إن وفرة النعم التي أحظى بها تمنحنى أماناً وتحمينى من غوائل ربة الحظ « فورتونا » ، فستبقى لى دوماً أكثر مما تسلبنى ، وإننى أملك الكثير الذى لا يترك لى مجالاً للخوف . ولنفترض أنه أنتزع منى بعض أولادى ، فإن أنا فقدتهم فسيبقى لى أكثر من مجموع أسرة لاتو التي لا تتميز ٢٠٠ عن المرأة العقيم إلا قليلاً . ألا فلتكففن عن تقديم هذه القرابين ، ولتخلن عن رءوسكن هذه

الأكاليل . وأطاعت النساء فخلعن أكاليهن وانصرفن قبل إتمام الطقوس ، وإن لم تستطع نبوى أن تحول بينهن وبين أن يهمن بالشكوى والتضرع للربة لاتو .

استبد الخنق بلاتو فوفقت على قمة جبل سيتوس تستعدى ولديها أبوللو وديانا قائلة : « ها أنذا أمكما المزهرة بكما والثالية لچونو نفسها في المرتبة ، فأتى اليوم من يثر الشك حول ألوهيتى . ها أنذا يا ولدى أجد من ينحى عن المحارب التى عبدتنى فيها الأجيال إن لم تبادرا بتقديم العون لى . وليس ذلك وحده ما يثيرنى ، فقد أضافت ابنة تانتالوس إلى كفرها بالمقدسات إهانتى حين جرؤت وأدعت بأن أسرتها تعلقو شأننا عن أسرق وإتهامى بأننى عقيم [ألا فلتصبح هى العقيم] . لقد كشفت عن كفرها بالمقدسات كأبيها . وانطلقت لاتو تتابع شكواها وتواصل رجاءها لولا مقاطعة أبوللو لها بقوله : « كفى ! فكلمنا أرخيت لنفسك فى الشكوى عوقنا هذا عن المضى فى توقيع العقاب عليها » وكانت أخته معه على هذا الرأى ، فأسرعا محلقين فى الفضاء واختفيا فى السحب حتى بلغا قلعة كادموس .

٢٢٠ وكان هناك سهل فسيح خارج الأسوار تدب فيه الخيل فى حركة متصلة ، وقد أفسدت حوافر الجياد ومرور العربات العشب الأخضر النامى على سطح السهل ، وكان بعض أبناء أمفيون السبعة يمتطون ظهور جيادهم المظلمة المغطاة بأكسية من نسيج صور الأرجوانى ويقبضون على أعتة الخيل الذهبية . وكان الأمير إسمينوس أكبر أبناء نبوى يدور بجواده قابضاً عليه فى ثقة حين نددت عنه صرخة مدوية بيننا انغرس سهم فى صدره ، فسقط يقود الفرس من بين يديه وهو يثر قائلاً « يا ويلتاه » ، وعاجله الموت فانزلق عن صهوة الجواد حتى سقط على الأرض . وكان سييلوس الابن التالى قد سمع خشخشة جعبة سهام فأطلق العنان لجواده كما يفعل ربان السفينة حين يلمح سحب العاصفة فينشر أشرعه كلها حتى لا تقوته من الريح هبة . غير أن انطلاق سييلوس لم يمنع السهم من أن يصيبه فى أعلى عنقه وينفذ من حلقه ، فيسقط من فوق جواده ويتقلب بين حوافره الحادة ويخضب الأرض بدمائه الدافئة . وكان فيديموس التعس وتانتالوس الذى ورث اسم جدّه قد ذهباً إلى رياضتهما اليومية التى يتصارعان فيها وقد تعانقا داهنين جسديهما بالزيت حين أصابهما سهم واحد اخترق صدرهما معاً وهما ملتصقان ، فأخذاً يثنان ألماً وسقطا على الأرض متعانقين ولفظا معاً نفسيهما الأخيرين . وحين رأهما أخوهما ألفينور أسرع إليهما ، وما كاد يرفع ذراعيهما ليتبين الأمر حتى أصابه هو الآخر سهم انتزع قطعة من رتته فتدفقت من جسده الدماء . ولم يهلك داماسيخون الذى لا عهد لشعره بالمقص من جرح واحد شأن أخواته بل أصيب أولاً فى عضلة ساقه ، وبينما كان يحاول إخراج السهم باذلاً كل قواه إذا بسهم آخر يصيبه فى حلقه ويغوص فيه فتفجّر الدم وكأنه نافورة . وأخيراً رفع إيليونوس آخر الأشقاء ذراعيه إلى السماء محرّكاً شفثيه بتوسلات ذهبت أدرج الريح قائلاً : « أيتها الآلهة ناشدتك جميعاً الرحمة بى » [فقد كان يجهل عبث الابتهاج إليهم] . وتأثر أبوللو حامل القوس وأخذته الشفقة به بعد ما انفلت السهم الذى أصابه فجعل السهم رفيقاً قليل الإيلام لم ينفذ إلى أعماق قلبه .

وحملت الأحزان المرتسمة على الأوجه والدموع المناسبة من عيون الأقارب أبناء الكارثة المفاجئة إلى نبوى التى أذهلها أن يكون بين الآلهة من يملك مثل هذه القوة الجبارة ويجسر على استخدامها على هذا

النحو ، وانتهت الكارثة بأَمْفيون وقد شهر سيفه وأغمده في قلبه ليكون الموت خاتمة لحزنه على أبنائه .
ويلاه . كم تغيرت نيوي بعد النكبة ! أهذه نيوي المغرورة التي كانت تفضّ الناس من حول محارِب
لاتو ، وتحمي مختالة وسط المدينة تشعل قلوب مواطنيها حقداً وضغينة . لقد عدت موضع الرثاء حتى من
خصومها بعدما انحنت فوق جثث أبنائها التي غشيها برد الموت وأخذت تقبلهم الواحد بعد الآخر ، ثم
رفعت ذراعها الشاحبتين إلى السماء وصاحت : « يحق لك أن تسمى بي يالاتو القاسية ، ولترو قلبك من
٢٨٠ دمعى ، افرحى ملء قلبك الوحشى ، فهذه الجنائزات السبع ستوردن إلى المحرقة مرات سبع . افرحى
بنشوة النصر على غريمك ، ولكن ما إخالك انتصرت فإزلت رغم كل شقائى أكثر ثراء منك ، وحتى مع
فقدى من فقدت من أبنائى فإزال عندى المزيد » .

ولم تكد تنتهى من كلماتها حتى سُمع هزيم وتر قوس فرج الجميع له عدا نيوي التي ضاعفت الكارثة
من جسارتها . وكانت شقيقات الفتيان الموق واقفات أمام النعوش في ثياب الحداد بشعرهن المرسل على
أكتافهن ، وإذا سهم يجترق أحشاء إحداهن ، وحين حاولت انتزاعه انكفأت فائدة الروح فوق جثة
شقيقها ، وكانت ثانية تواسى أمها فإذا هى تُصاب بطعنة خفية تفقد معها القدرة على النطق وينحنى عودها
وتموت مطبقة شفيتها . وحاولت ثالثة الفرار فأدركها سهم أهلكتها . وبينما احتمت شقيقة بأختها أدركها
الموت معاً ، وأخذت أخرى تحترق مرتعشة . ومزقت نيوي ثوبها بعد موت ستة من بناتها وحاولت حماية
ابنتها السابعة بجسدها وصاحت : « فلتبقى لى واحدة هى صغرى بناتى اللاتى فقدتني ، دعى لى هذه
الصغرى فهى واحدة فحسب » . غير أن ابنتها الباقية أخذها الرضى قبل أن تفرغ نيوي من توسلاتها .
٣٠٠ وحين أصبحت نيوي وحيدة تحيطها جثث أبنائها وبناتها وزوجها أحالها الحزن إلى حجر ، ولم يعد النسيم
يحرك شعرها ، واختفى الدم من وجهها الذى فقد لونه ، ولم تعد ذراعها ولا ساقيها تتحركان ، وجدت
عينها فى مجربها ، والتصق لسانها بحلقها ، وانغلق فمها صمتاً ، وتوقف النبض فى عودها ، وكذا
تجمدت أمعاؤها ، غير أن دموعها بقيت تجري كما كانت . وهب إعصار عنيف فحملها إلى موطنها^(١٨)
حيث حطت فوق قمة جبل وأخذ الماء يتدفق منها . وماتزال هذه الكتلة من الرخام تسكب الدموع حتى
اليوم .

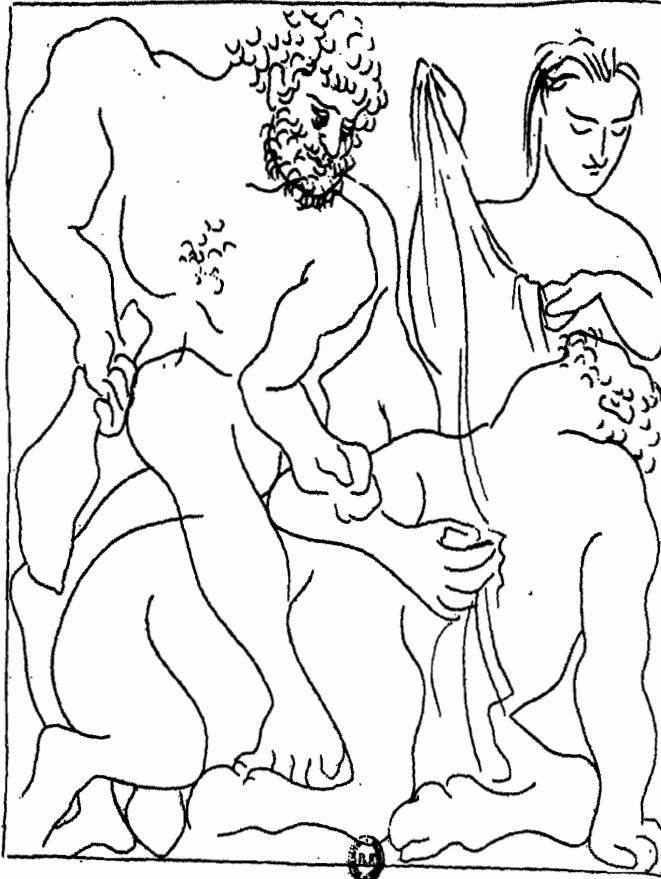
فِئَلَاو لِيكِيَا

وأصيب الرجال والنساء بالدعر خوفاً من غضب الإلهة وأقبلوا خاشعين على عبادة لاتوأم التوامين ،
وأخذت هذه الحادثة تُحصى على ألسنتهم أفاصيص أحداث قديمة مشابهة كانوا قد أنسوها . وحكى
أحدهم : « كان يجيا فى قديم الزمان على أرض ليكيا الخصبية جماعة من الفلاحين الذين لم يقدموا للإلهة ما
هى جديرة به من تكريم ، مثلهم فى ذلك مثل نيوي فنالوا هم الآخرون جزاءهم . وقد بقيت قصتهم رغم

٣٢٠ غرابتها مجهولة إلا من قليل من الناس ، ولعل سبب ذلك هو وضعة أصل أبطالها . غير أنى كنت قد ذهبت إلى المستنقع الذى حدثت عنده المعجزة يوم طعن أبى فى السن ووهنت قواه ولم يعد يتحمل الأسفار فعهد إلى باجتلاب بعض الأبقار المنتقاة من تلك البلاد ، واختار لى قبل الرحيل دليلاً من أهلها ، وقد وقع بصرى فى أثناء مسيرى خلال المراعى بصحبة هذا الرجل على محراب قديم قائم وسط بحيرة ، نبتت حوله أعواد الغاب التى علاها السواد المنبعث من دخان النيران التى كانت تُشعل منذ القدم لطفى القرايين الدبيحة ، فتوقف الدليل وتمتم هامساً همس المؤمنين بالخرافات : « هلا رحمتى » فانبرت أردد همسه متعجباً ، ثم سألته عما إذا كان هذا المحراب قد أقيم تكريماً لحوريات الماء أم لفاونوس [بان] إله الغاب أم لغيره من آلهة المنطقة فروى لى دليلي القصة التالية :

٣٤٠ لم يُشيد هذا المحراب من أجل إله من آلهة الجبال أيها الفتى ، وإنما أقيم من أجل الإلهة التى منعتها چونوزوجة كبير الآلهة من الاستقرار على الأرض اليابسة ، ثم أشفقت عليها جزيرة ديلوس العائمة وقبلت إيواها . وحين بلغت لى أتوا استندت إلى جذع نخلة وأعانتها شجرة زيتون الربة بالاس على وضع طفلها التوأمين رغم كيد چونوزوجة أبيهما . ولم يكد الطفلان يخرجان للحياة حتى أكرهت چونو الغاضبة لى على ترك مأواها حاملة طفلها الإلهين على صدرها . وانتهى الأمر بلى أن وجدت نفسها تتجول فى بلاد ليسيا موطن الخيماير^(١٩) ، حيث الشمس تحرق الحقول بأشعتها اللافتحة وقد أنهكتها حرارتها وطول المرحلة وأحسّت بالظلمة هى وطفلها اللذان كانا يسكان نديهما ويمتصانها فى لفة إلى آخر قطرة فيها . وما لبثت أن لمحت بركة غير فسيحة بعيداً فى بطن الوادى كان على مقربة منها جماعة من الفلاحين يجمعون أعواد الغاب والسعدى الغزيرة النمو فى مياه المستنقع . وحين اقتربت من البركة وانحنت عليها لتروى ظمأها من مائها الندى حاول الفلاحون منعها فلم ترض الإلهة منهم ذلك وقالت لهم محتجة : « كيف تمنعوننى أن أردّ هذا الماء وورود الماء حقّ للجميع ؟ وما شاءت الطبيعة أن تحصى واحداً دون الآخر بالشمس والهواء والمياه الجارية . لقد جئت لأستمتع بخير هو للجميع ، ومع ذلك فهأنذا أركع متوسلة إليكم أن تمنحونى شيئاً من الماء ، فلست أنطلع إلى الاستحمام أو غسل أطرافى المرهقة فى هذه البركة ، وكل ما أرجوه هو إطفاء ظمئى ، فقد جفّ حلقى حتى لم أعد قادرة على الكلام وما يكاد صوتى ينطلق من حنجرتى ، وسوف تكون جرعة الماء عندى بمثابة « النكتار » الإلهى وسوف أدين لكم بإنقاذكم حياتى ، ولتأخذكم الشفقة بهذين الطفلين اللذين يمدان أيديهما هما الآخرى متوسلين لكم ؟ [وكان الطفلان قد مدّا بالفعل ذراعيهما] . ومن ذا الذى لا تؤثر فيه توسلات الإلهة ؟ ومع ذلك بقى الفلاحون رغم توسلاتها متمسكين بمنعها عن الماء بل إنهم هدّدوها بما يروّعها ويرغمها على الخروج من المنطقة ، وكالوا لها الكثير من السباب ، ولم يقفوا عند هذا الحد بل أخذوا يعيشون فى ماء البحيرة بأيديهم وأقدامهم ويعكرونه بإثارة الطين الراكد فى قاع البركة ، مدفوعين إلى ذلك بما فى طبعهم من حب للأذى . عندها غلب غضب لى على عطفها ، ولم تعد راغبة مع سورة غضبها أن تبدّد وقتها سدى فى استعطاف قوم لا يرقّ عندهم أو فى استجدائهم شيئاً ما ، ورفعت يديها إلى السماء وصاحت بهم قائلة : « إذن فلتعيشوا إلى الأبد فى هذا

المستنقع . واستجابت السماء لدعائها ، وإذا الفلاحون يقعون أسرى رغبة الغوص إلى أعماق الماء ثم
الطفو على سطحه ، أو إخراج الرأس أو القفز حول الشط . ومع بقاء السننهم سليطة اخشوشنت أصواتهم
وانتفخت حلوقهم واتسعت أفواههم التي أطلقت السباب واختفت أعناقهم واتصلت رؤوسهم بأكتافهم ،
واخضر لون ظهورهم بينما ابيضت بطونهم التي صارت أكبر أجزاء أجسادهم ، وتحولوا إلى ضفادع تقفز
حول المستنقع المليء بالأوحال (٢٠) .



بيكاسو : أبولو يسلم مارسياس

مارسياس وپيلويس

وإذ انتهى الراوى - الذى أجهل اسمه - من سرد أحداث هذه الكارثة التى حاقت بأهل ليكيا ، بدأ راوٍ آخر يسرد قصة « الساتير » الذى أودى به مزار منيرفا ذو القصبات^(٢١) وعاقبه ابن لاتو [بسلخه حياً] فصاح به مارسياس : « لماذا تنتزعنى من سِلْجى ؟ كم أنا نادم على ما كان ، وهل تساوى هذه المنافسة فى نفخ المزمار هذا كله ! » . وبينما كان يصرخ جعل القوم ينتزعون جلده حتى تعرّى لحمه وأخذ يتزف دما ، وتبدت عضلاته عارية للأعين كما ظهرت العروق نابضة بالدماء ، وانكشفت جميع أعضائه الداخلية وهى تخفق حتى بات من اليسير إحصاؤها ، وتخلل الضوء رثيته ، وحزن عليه جان الغاب وأخوته الساتير والحوريات بل وأوليمپوس نفسه الذى ظل رغم كل شيء يحتفظ له بمكانته من قلبه ، وجميع رعاة الأغنام والأبقار . وارتوت الأرض الحصبة من الدموع التى سالت عليها فتشربتها حتى تفجّر من باطنها نبع تنبثق مياهه عالية فى الهواء ، ثم يهوى فيحفر لنفسه مجرى نهر جديد يتدفق منحدرأ بين شاطئيه حتى يصب فى البحر المضطرب الموج . وقد عُرف هذا النهر الجديد باسم مارسياس أصفى أنهار فريچيا . ٤٠٠

ولم يلبث الناس بعد سماع هذه الأقاصيص أن عادت إلى الكارثة المستولية على شعورهم باكين أمفيون الذى مات ومعه أفراد أسرته جميعاً وليس فى نفوسهم غير الغضب على الأم رغم بقائها وحيدة وسط جثث أبنائها وزوجها . ويروى البعض أن واحداً فقط من الرجال قد ذرف دون غيره الدمع من أجلها . وكان هذا الرجل هو پيلويس الذى انتحب وشق ثوبه عن صدره حتى انكشف كتفه الذى صنعتة الآلهة من عاج ، يوم هشّم أبوه أعضاء جسده ومزّقها إرباً إرباً وطوّح بها فجمعتها الآلهة بعد أن عثرت عليها جميعاً ، عدا تلك العظمة الممتدة بين العنق وأعلى الذراع ، فوضعت محلها قطعة عاج اكتمل بها جسد پيلويس ، وإن أسفر ذلك عن اختلاف لون أحد كتفيه عن بقية أجزاء جسده .

پروكنى وفيلوميل

وكان أن طالب سكان المدن القريبة حكاهم بالتوجه إلى طيبة لتقديم العزاء ، فتوافد عليها أمراء البلاد المجاورة من أرجوس واسپرطه وموكنائى موطن أسرة پيلويس ، وكاليدون التى أثارى فيها بعد حقد ديانا القاسية ، وأورخوميونوس الحصبة وكورنثه الغنية بالبرونز ، وميسينى الجبارة وپاتراس وكليونائى المقهورة وپيلوس مدينة نيلبوس ، وترويزن التى لم تكن قد خضعت بعد لپيئوس ، ثم المدن الأخرى المعزولة وراء البرزخ القائم بين بحرین ، والمدن التى عند البرزخ . وما كان أحد يخال أن أثينا هى وحدها التى تتخلف عن الملقى ، فقد حالت الحرب بينها وبين أداء هذا الواجب ، إذ كانت جحافل البرابرة القادمة عبر البحر ٤٢٠

تحاصر أسوارها وتلقى الرعب في قلوب أهلها ، حتى خف لنجدتهم تيريوس من طراقيا وتعقب بجيوشه العدو محققاً شهرة واسعة بالانتصار عليه .

وما إن اطمأن بانديون ملك أثينا إلى ثراء تيريوس وقوته وانحداره من سلالة الإله مارس الجبار حتى زوجة من ابنته ، غير أن ربات الحسن وهيمين [إله الزواج] وچونوالموكول إليها مباركة الزيجات لم يحضرن حفلة الزفاف ، بينما أعضاء الصافحات [ربات الانتقام] طريق العروسين بمشاعل سرقتها من موكب جنازتي ، ثم هيآن مخدع العرس . وأقبلت البومة المشثومة فحوّمت حول الدار وحطّت فوق سطح حجرة العرس ، وهكذا حلّ الشؤم عندما زُفت بروكني إلى تيريوس وأصبحت أبوين .

وابتهجت طراقيا - التي لم تكن تدرى بعد ما يتهددها - ، ورفع ملكها الشكر للآلهة ، وغدا يوم بناء ابنة بانديون بملك طراقيا ويوم ميلاد ابنها إيتيس عطلة رسمية . ألا ما أكثر ما يغفل الناس عما سيحيق بهم ! . وبعد انقضاء خمسة أعوام سألت بروكني زوجها متلطفة : « إن كنت تحبني حقاً دعني أمضي لأرى شقيقتي ، وإلا فجيء بها إلى هنا وعدّ أبي بأن بقاءها لن يطول بعيداً عن بلادها ، فلسوف تكون رؤيتي فيلوميلاً خير ما تهديه لي » .

وأصدر تيريوس أوامره بإنزال سفينة إلى البحر يجرّكها الشراع والمجداف ، ومضى بها حتى بلغ ميناء كيكرويس [أثينا] ونزل على شاطئه بيرايوس . وحينما دخل على حميه الملك وحياً أحدهما الآخر ذكر تيريوس ما جاء من أجله وأخبره حديث زوجته ووعدتها بأن غيبة شقيقة زوجته لن تطول إن أذن لها بزيارتها . عندها ظهرت فيلوميلاً بجهاها الأسر مرتدية ثوباً فاحراً أشبه ما تكون بحوريات الماء وحوريات الغابات ، وما إن وقع بصر تيريوس عليها حتى اشتعلت الرغبة في جسده واضطربت في فؤاده نار تحرق الغلال الذابلة أو أوراق الشجر الجافة أو مخازن التبغ . والحق إن جمال فيلوميلاً كان آخاذاً ، وضاعف من نزوة تيريوس فرط هذا الجمال ، فهو من بلدة يتميز أهلها بالضعف أمام إغراء مُتّع فينوس . وقد خطر بباله - خلال لهفته - أن يرشو وصيفات الفتاة للحدّ من ولاء خادماتها الخاصة فيستعين بها كي تساعد في إغوائها بهداياه الفاخرة ووضع كنوز مملكته تحت قدميها ، أو من يدرى فلعلها تيسر له اختطافها والتزوج بها بعيداً ، وعندها يستطيع أن يدافع عن غنيمته بكل ما يملك من أساليب ضارية ، وهو المتأهب دائماً لسحق أي شيء يعترض طريق رغباته الجاهمة . وأحس أن قلبه أعجز ما يكون عن احتواء ما يتأجج فيه من لهيب ، وأحس من فرط لهفته تباطؤ الزمن ، وراح يكرر خلال حديثه رسالة زوجته ملحقاً في الرجاء على أنه رجاء زوجته وقد أكسبه الحب طلاقة لسان . وكان كلياً تخطي في حديثه الحدود اعتذر بأن تلك هي إرادة زوجته بروكني ، وشفع حديثه بالدموع وكان امرأته قد أوحث إليه بذلك . أينها الآلهة ، ما أشد ما يعنى البشر ، لقد خال القوم في إلحاحه الذي مكّنه من تحقيق خطته الشريرة لونها من الوفاء لزوجته فامتدحوا فيه سلوكاً لم يكن في الواقع إلا جُرمًا . على أن فيلوميلاً كانت هي الأخرى تشاركه اللهفة ، وحين رآها تعانق أباهاً مداعبة وتلفت عنقه بلذراعيها وتغمره بقبلايتها وتطلب منه أن يأذن لها بزيارة أختها ،

٤٨٠ أخذ يتخيلها وكأنها تحتضنه هو وتقبله فإذا نيران رغبته تزداد اشتعالاً حتى أنه تمنى لو كان هو الوالد في هذا الموقف . ولو أنه كان والدها ما كان إثمه يُرى على ما اقترفه بعد ذلك (٢٣) . وحين نزل الملك على إرادة ابنته غمير الفرح فيلومبلا فشكرت أباه ، وقد ظنت الفتاة البريئة أن قرار أبيها كان استجابة لرغبتها هي وأختها ، بينما كان مقدرًا لهذا القرار أن يودى بها معاً .

ومالت الشمس نحو المغرب حيث كانت جياها تَجَرُّ مركبتها على منحدرات الشفق ، ونُصبت الموائد الملكية ، وامتلات الكؤوس الذهبية بالخمر وانصرف المدعوون في نهاية الحفل ليستسلموا للنوم هادىء ، عدا ملك طراقيا الذى بقى مؤرق الجفنين في فراشه مصاباً بحمى حبه للأميرة ، مستعرضاً في ذاكرته طلعتها ولقائتها وذراعيها ، ذاهباً بخياله إلى تصوّر ما خفى من مفاتن جسدها .

٥١٠ وحينما انبلج نور الفجر ، وتأهب تيروس للرحيل شدّ پانديون على كَفِّه داعم العينين موصياً إياه برعاية رفيقته في السفر بقوله : « بنى العزيز ، لقد كان لرجائك الحارّ لى ما لم يدع أمامى فرصة للخيار ، وهأنذا أعهد إليك بابتى استجابة لرغبتها ولرغبتك ، وإن مستحلفك بشرفك وبحق الآلهة وبحُرمة ما بيننا من روابط أن ترعاها رعاية الوالد ، وأن تعيدها لى في أسرع وقت ممكن ، فهذه الفتاة الغالية هى مبعث بهجتي أيام شيخوختى ، وسوف تطول ساعات غيابها على نفسى . وأنت يا فيلومبلا عَجَلْ بعودتك إلى إن كنت تحيينى ، وكفاني بُعد شقيقتك عنى » . ثم ختم وصاياها وقَبَل ابنته قبله الوداع باكياً في صمت وضمّ يدها بيديه وكأنه يستوثق بوفائها بالعهد ، وحملها تحياته لابنته الغالية وحفيده الصغير ، وخنقت العبرات صوته فلم تعد كلمات وداعه تبيّن واختلطت أفكاره بنذير طالع مشئوم .

ولم تكد السفينة المزدانة بمختلف الألوان تتعد عن الشاطئء حاملة فيلومبلا على سطحها حتى صاح الملك تيروس : « يا للنصر الذى حققته ، ها أنا ذا أحمل معى تلك الفتاة التى طمعت فيها » ، وجعله إحساسه بالزهو يضيّق بانتظار أفراحه ، ولم يستطع هذا الملك المهمجى أن يرفع عينيه عن غنيمته ، شأن النسر القابض بمخالبه على أرنب برى يودعه وكره العالى ، ومضى القناص يحمق بعينيه في فريسته التى سُدَّت أمامها منافذ الفرار .

٥٢٠ وأهنت السفينة رحلتها ، ونزل الملاحون إلى شاطئء وطنهم منهكين ، وأسرع الملك باقتياد ابنة پانديون إلى حظيرة تحيط بها أسوار عالية تحفيها عن الأنظار وسط غابة عميقة حيث حبسها هناك . وأخذت الفتاة تسأله عن مكان أختها وقد غلبها الدعر وشحب وجهها وتولتها الرعدة وهى تتوقع أن تحمل بها المأسى ، ولكن تيروس لم يحدّثها عن شقيقتها وإذا هو يكشف لها عن نواياه الدنسة ، ولم تستطع الفتاة العزلاء أن تقاوم ضراوته فأخذت تستغيث ولا مغيث صارخة باسم أبيها وأختها وكبار الآلهة وترعد خوفاً رعدة حمل صغير أنزع من بين أنياب الذئب ذى الفروة الداكنة ودمه لا يزال ينزف وهو غير مصدق أنه بات بأمن ، أو كاليامة رأت على ريشها دماً فغشيتها الخوف وتزايد هلمها من الشرك الذى كان محققاً بها . وحينما عاد إليها رشدها بعد قليل جعلت تمزق شعرها المنفوش وتضرب يديها على صدرها كالمعولة على فقد

عزیز ، ثم مدت يديها صائحة فيه : « أيها الهجومي ، هل بعد هذا ذنب لم تقترفه أيها الوحش ، ألم تهز مشاعرك وصايا أبي التي بئك إياها دامعاً وهو يسلمني إليك لأرحل معك ، ألا تشغلك ذكرى شقيقتي ولا جُذرتي ولا روابط الزوجية . لقد كفرت بكل شيء ، وها نحن أصبحنا : أنا ضرة لشقيقتي ، وأنت زوج لشقيقتين ، وإنني لجديرة بالعقاب بعد أن غدوت أئمة في حق أختي . لماذا لا تسلبني الحياة أيضاً لتتم بذلك جريمتك ؟ كم أتمنى لو أنك قضيت عليّ قبل إقدامك على اغتصابي الذي جعلني حظية لك ، إذن ٥٤٠

لذهبت إلى عالم الأرواح بلا خطيئة . وإذا كانت آلهة السماء تشهد كل ما حدث وكانت قادرة حقاً ، فلن يضيع شيء عبثاً كما ضاعت عفتي ، فلسوف تدفع ثمن فعلتك يوماً طال الزمن أو قصر ، ولسوف أدخل عني إزار الحياة وأشهر بفعلتك أمام الملأ ، ولو أن الفرصة واتتني يوماً لتقدمت إلى شعبك ورويت عليه قضيتي معك . أما إذا أبقيتني سجينة في هذه الغابة فلسوف أملؤها صراخاً حتى أستدر عطف صخورها التي شهدت إذلالاً ، وحتى تسمع السموات صيحاتي وتستجيب الآلهة إن كانوا شهوداً ، أو إن كان قد شهد هذا واحد منهم » .

وأثارت كلماتها غضب الطاغية الفظ وملأته خوفاً لا يقل عن غضبه ، فأخرج سيفه من غمده المعلق في خاصرته وأمسك بشعر فريسته ولوى ذراعها في عنف خلف ظهرها . ورات فيلوميلا السيف فازدادت أملاً في الخلاص بالموت وكشفت له عن نحرها وهي لا تكف عن لعنه والاشمئزاز منه دون أن تسعفها الكلمات ، فإذا هو يمسك لسانها بمقبض ثم يهوى عليه بالسيف فيشطره ، وإذا الشطر الباقي يرتجف في حلقها على حين كان شطره المتور يتلوى فوق الأرض الداكنة كما يتلوى ذيل ثعبان بئر من لحظات ثم انتفض انتفاضة قوية ، وكأنه شاء أن يلحق بقدمي صاحبه قبلما يعاجله الخمود إلى الأبد . ولقد قيل — وإن كنت لا أستطيع تصديق ما قيل — إن الملك ظلّ بعد هذا الحادث الشبح يصل استمتاعه بجسد فيلوميلا المشوه فواقعه مرات ثلاثاً أو أربع . ثم إذا هو بعد هذا كله لا يبالي بما كان فيعود إلى زوجته بروكني يحكي لها حين سألته عن أختها قصة مُلْفَقة يدعى فيها وفاتها متظاهراً بالجزن والأسى حتى أقنع بدموعه الحاضرين . فمزقت بروكني ثيابها النفيسة الذهبية الأطراف من فوق كتفها وارادت ثوباً أسود ، وشيدت لشقيقتها قبراً خاوياً أخذت تقدم عنده القرابين لروح فقيد لم يمّت بعد ، وتبكي مصير أختها التّيس وما قاسته من عذاب قبل موتها ، وإن يكن عذاباً مختلفاً عما قاسته حقاً .

ومرّ عام كان إله الشمس قد مضى فيه بمركبته عبر البروج الإثني عشر . ترى ما الذي كان باستطاعة فيلوميلا أن تفعله ؟ لقد كانت تحت حراسة قوية تمنعها من الهرب ، وكانت الجدران المحيطة بالحظيرة عالية ضخمة مشيدة من أحجار صلدة ، وكانت شفتاها الحرساوان تحولان بينها وبين الإفصاح عما ألمّ بها ، غير أن الحزن والألم قد شحذا عقيرتها ، والحاجة تفتق الحيلة ، فجلست إلى نول بدائي نسقت عليه الخيوط بدهاء ، ونسجت عليه نسجية بيضاء صوّرت عليها مأساتها بخيوط حمراء ، ثم أسلمتها حين أنهتها إلى خادمة شرحت لها بالإشارة أن ترفعها إلى الملكة . ونفذت الخادمة ما أمرت به ، وسلّمت النسجية إلى بروكني دون أن تعلم شيئاً عن حقيقة ما فيها . وما إن بسطت زوجة الملك الطاغية النسجية حتى طالعت ٥٨٠

فيها قصة شقيقتها ومأساتها المشؤمة ، فلم تنس بينت شفة ويدت رابطة الجأش إلى حد يصعب على العقل تصديقه ، إلا أن حزنها العميق أعجزها عن الكلام ، وحين حاولت الحديث لم تجد من عبارات الأسمى ما يكشف عن شقاتها ، وتماسكت حتى لا يضيع الوقت في ذرف الدموع ، لكنها عادت تفكر في خطة تنتقم بها من زوجها لا تلتزم فيها بقوانين الخير والشر .

وخلال الأعياد الكبرى التي تحتفل فيها صبايا طراقيا كل ثلاثة أعوام تمجيداً للإله باكخوس يؤدين فيها طقوسه السرية تحت ستار ظلمة الليل فيضج جبل رودوي بقرع الصنوج ، خلّفت الملكة قصرها متأهبة لأداء طقوس تكريم الإله ، حاملة معها الصولجان الذي كان يُلوح به أثناء شعائر العريضة ، متوجهة رأسها بإكليل من أوراق الكروم ، مسدلة على جنبها الأيسر جلد وعل ، معلقة ربحاً دقيقاً على كتفها . ومضت عبر الغابة متقدمة وصيفاتها ، تضطرم جوانحها بما أصابتها به المأساة من جنون ، متظاهرة بأن شيئاً لم يبعث الاضطراب في أعماقها غيرك أنت يا باكخوس ، إلى أن بلغت الحظيرة فحطمت رفيقاتها بابها وسط ضجيج الاحتفلات بباكخوس وصراخهن ، واصطحبت بروكني أختها والبستها ثياب إحدى المحتفلات بباكخوس ، وغطت وجهها بأوراق اللبلاب وعادت بالفتاة المدهولة إلى القصر .

٦٠٠ ولم تكذ فيلوميلاً تدرك باب الدار الملعونة حتى ارتعدت فزعاً وكسا وجهها شحوب الموت ، غير أن بروكني بعد أن دخلت دارها خلعت عن أختها المنكوبة ثياب حفل باكخوس وكشفت عن وجهها المصبوغ بحمرة الخجل وطوقتها بذراعها ، فلم تقو فيلوميلاً على رفع رأسها حتى لا تتلاقى عيناها بعيني أختها اللتين غارتا حزناً من أجلها ، ورنّت ببصرها نحو الأرض ، وعبرت إيماءاتها عما لم يستطع صوتها البوح به ، فقد كانت ملهوفة إلى القسم بالآلهة بأن العار الذي لحقها إنما كان نتيجة هتك عرضها قسراً . واحتدم غضب بروكني وأوقفت نجيب أختها بقولها : « ليس ثمة وقت للدموع ، بل للسيف أو لما هو أفضى إن كان لديك مثل هذا السلاح ، فقد بثّ متهيبته للانتقام على أية صورة كان هذا الانتقام يا أختاه . فإما أن أشعل النار العاتية في القصر حتى يحاصر لهيبتها تيروس المخادع من كل جانب ، وإما أن أقطع لسانه أو أفتق عينه أو أجبّ عضوه الذي سلبك شرفك ، أو أجعل روحه الأئمة تخرج من جسده عبر الف جرح غائر . نعم ، يجب أن نعدّ العدة للانتقام رهيب ، بيد أني مازلت عاجزة عن الاهتداء إلى خطة محكمة التدبير . »

٦٢٠ وبينما كانت بروكني مسترسلة في التعبير عما يحتمد في وجدانها أقبل عليها ابنها إيتيس فأوحت لها رؤيته بالانتقام الذي يمكن أن تقدم عليه ، فتطلعت إليه بعينين يفتقدان الحنان متممة « كم يشبه أباه ! » ولم ترد على ذلك . وغلا الغضب الصامت في صدرها وقد عقدت العزم على انتقامها الرهيب ، غير أن ابنها اقترب منها وطوق عنقها بذراعيه الدقيقتين وقبلها وهو يثرثر في رقة هزّت فيها مشاعر الأمومة ، فزايها غضبها وترقرت عيناها ، واكتشفت أن حبها لولدها يوهن من عزمها على الانتقام فتركته والتفتت نحو أختها . وعلى حين كانت تتنقل ببصرها بين طفلها وأختها أخذت تعتنف نفسها قائلة : « أنى لهذا الطفل أن يخاطبني بمثل هذه الكلمات الرقيقة التي تعجز عن مثلها هذه الأخت المبتورة اللسان ، وكيف له يدعوني يا أماه وهي

لا تستطيع أن تدعوني يا أختاه ! تأملّي يا إبنة پانديون أى صنف من الرجال تزوجت ، إنك لا شك تأتمين بحفاظك على عهود الزواج من مثل تيروس ؟ » .

٦٤٠ ولم تتلبّث پروكنى بل أخذت إيتيس من يده وذهبت به إلى مكان قصي من القصر الفسح كما تجرّ النيرة الطيى الرضيع بشواطىء نهر الجنج خلال الغابة الكثيفة ، وأدرك الطفل ما سوف يحلّ به فمدّ يديه صارخاً « أماه ! » وحاول أن يلف عنقها بذراعيه ، لكنها أغمدت السيف في جنبه غير بعيد من قلبه دون أن تحوّل بصرها عنه . ومع أن هذه الطعنة كانت كافية لإخاد أنفاسه غير أن فيلوميلا هوت بالسيف على حلقة ، ومضت الشقيقتان تقطعان الأطراف التي كانت ما تزال تنبض بالحياة حتى امتلأت الحجرة بالدماء ، فأخذتا بعد ذلك لحمه وسلقتا بعضه وشوتا البعض الآخر على السياخ ، ثم دعت پروكنى زوجها إلى هذه الوليمة وقالت له بعد أن صرفت الخدم إن طقوس بلادها تقضى بأن يجلس الزوج وحده إلى المائدة . فجلس تيروس والتهم ما بين يديه ، وما خال إنه يأكل فلذة كبده . وبعد أن فرغ من طعامه التفت لزوجته قائلاً : « أين إيتيس ولدنا ؟ » . عندها لم تستطع پروكنى أن تخفى فعلتها النكراء ولا أن تردّ هفتها لأن تكون أول من يُفضى إليه بنياً هذه الضحية التي ذبحتها ، وإذا هي تقول له : « إن من تطلبه ليلقاك قد استقرّ في جوفك » . وإذا هو يجيل بصره فيها حوله ويسأل : « أين ابني ؟ » ، وبينما هو يصرخ باسم ولده المرّة بعد المرّة إذا فيلوميلا تهرول إلى القاعة بهيبتها الرثة وشعرها الأشعث الذي خضبته دماء الطفل ، وكانت قد شاركت في قتله ، وإذا هي تلقى برأس إيتيس بين يدي أبيه . ولم تكن ثمة لحظة أمتع لها في التعبير عمّا تكن أمتع من تلك اللحظة . وبصرخة عارمة دفع الملك الطراقى مائدة الطعام واستغاث بالشقيقات الغافيات في أعماق نهر ستيكس ذوات الرؤوس الشعبانية ، وحاول بحركة لا إرادية أن يشقّ بطنه ليُفرغ ما فيها من طعام غير مُستمرأ ، وانطلق ينوح منهاراً ، تارة واصفاً نفسه بأنه بات مقبرة لابنه التمس ، وتارة أخرى يطارد ابنتي پانديون شاهراً سيفه العارى عن غمده ، غير أنهما كانا في سرعتها أشبه بطائرين مجنحين بعد أن نبتت لهما أجنحة ، فحلقت إحداهما هاربة صوب الغابات ، بينما تعلقت الأخرى بطنف الحجرة وماتزال آثار الذبيحة عالقة بصدرها ، إذ كان ريشها أحرّ نخبياً بالدماء المُرّاقَة^(٢٤) . وتحوّل الملك هو الآخر من فرط حزنه وتعطشه للانتقام إلى طائر يعلو رأسه عُرف ويمتد في فمه منقار حاد طويل بدلاً من السيف ، وهو الطائر الذي سُمّي بالهدهد والذي يبدو وكأنه قد ارتدى عُدة القتال .

بورياس وزيتيس وكالايبس

وحينما بلغت القصة أسماع پانديون غاصت به أحزانه في ظلمات تارتاروس قبل أن يجين أجله الذي كان مُقترراً له .

٦٨٠ وحمل إيرينثيوس صولجان بانديون من بغده وانتقل إليه حكم البلاد ، وكان بعدالته وبراعته في استخدام السلاح قوياً مرهوباً ، وكان له من البنين أربعة ومن البنات مثلهم عدا ، وقد تميّزت من بناته اثنتان بالجمال ، سعد كيفالوس حفيد أيولوس بإحداهما واسمها پروكريس ، ووقع بورياس في حب الثانية التي كانت تسمى أوريثيا ، غير أنه ظل طويلاً يخطب ودها عبثاً وكان ينبغي أن ينجح في إقناعها باللين لا بالقوة ، غير أن ذكرى بنى وطنه الطراقيين وبخاصة ملكهم تيريوس بقيت عقبة في سبيل زواجه . وحينما لم يُجده تودّده إليها ولم يَحَقِّقْ له مآرياً تملكته عاصفة من الغضب الذي كان سريع الوقوع في أسره لسبب أو لآخر ، فناجى نفسه قائلاً « إن سلوكي جدير بهذا الصّد . كان الأولى بي أن أستخدِم أسلحتي وأن أكشف عن الغضب والعنف والوعيد ، وما كان لي أن أتشفع بالرجاء الذي ليس من طبيعتي . العنف شيعتي ، به أستطيع أن أبدد السحب الكثيفة وبه أشيع الاضطراب في البحر ، وأحطّم أضخم أشجار البلوط ، وأحفظ الثلوج جامدة ، وأجلد الأرض بسوط من البرد . وحينما أنزل إخوت في الفضاء الكوني [الذي يمثّل حلقتي] يمتلئ الجو بصخب عراكنا ويومض البرق من بين أعماق السحب . وحين أدخل الكهوف المقدّسة في أعماق الأرض وأدفع بظهري أدنى قبائها يهتّر الكون كله ويشيع الاضطراب حتى بين أرواح الموت وفي أرجاء عالم الأحياء ، لقد كان عليّ أن أطلب يد الأميرة لا رجاء واستعطافاً بل بقسر إيرينثيوس على أن يصبح صهراً لي » .

٧٠٠ وبهذه الكلمات المتعالية ضرب بورياس بجناحيه ليشقّ بهما طريقه في الهواء ، وسرعان ما جعل خفقان جناحيه الرياح تعصف فوق الأرض كلها وتبعث الاضطراب في مياه البحر . ونشر فوق قمم الجبال عباة محمّلة بالغبار ، ثم اندفع نحو الأرض محتفياً في غيمة ، وأطبق ظلام جناحيه على أوريثيا التي تملكها الفزع ، ولم يكد يطير بها حتى تفجّر لهيب شوقه وثار نيران لهفته ، فأسرع مطلقاً العنان لنفسه خلال الأجواء حتى بلغ بغنيمته أسوار المدينة التي يقطنها شعب الكيكونيس^(٢٥) . وفي هذه المدينة غدت فتاة بلاد أكتيا زوجة لهذا المستبد البارد المشاعر ، وحملت منه فأنجبت له توأمين من الذكور هما كالايس وزيتيس^(٢٦) وكانا يشبهان أمهما في كل شيء عدا أنه كان لهما جناحان مثل أبيهما . على أنها لم يولدا بالجناحين ، بل لقد بقى كل منهما ولا أجنحة له قبل أن يُشَبَّأ عن الطُوق عندما كانت وجنتاهما ملساوين لم تخضراً . وحينما بدأ الزغب الأشقر يغشى ذقنيها بدأ الريش في الوقت نفسه ينبت فوق كتفيها وكانها طائران ، حتى إذا كبرا وبلغا مبلغ الرجال انضما إلى أهل مينياس^(٢٧) في الطواف بالبحار المجهولة في أول سفينة شيدت للبحث عن الفروة الذهبية .

التعقيبات

- (١) هي فوخيا الآن وكانت ميناء ذات بوغازين في آسيا بين أزمير وكوماى .
- (٢) تيمولوس اسم في ليديا يفصل بين حوضى نهر هرموس وكايستر .
- (٣) باكتولوس أحد روافد نهر هرموس اشتهر برماله التى تفيض بالذهب .
- (٤) صخرة مارس « أريس » هي الأروپاياجوس ، ذلك التل القريب من أكرپول أينما الذى كان قلعة كيكرويس ، وقد شهدت المناظرة الكبرى بين أثينا وپوزيدون من أجل إطلاق اسم على المدينة . وكانت هذه المناظرة مألوفة بين الفنانين الإغريق ، فتحها فيدياس على الجبين الثلث الغربى للپارثينون .
- (٥) يعد معبد الإريثيوم على جبل الأكرپول تسجيلاً لهذين الحدیثین الأسطوريين يتمثل في احتفاظ إحدى ردهاته بفرع من شجر الزيتون المعجز الذى روى الرواة أنه قد احترق عندما دمر خشيارشا [خشيارشا أو أكسركيس عند اليونان] الأكرپول ثم عاد فانبثق من جديد بعد يومين . وثمة حفرة في الصخر أسفل البوابة الشمالية للمبنى قيل إنها من أثر رمح پوزيدون .
- (٦) هما أخ وأخت تسميا باسم چويتير وچونو فمسخا جبلين عقاباً لهما .
- (٧) هي چيرانا ملكة شعب من الأقزام يقطنون أعلى النيل ألها شعبها مما أثار غضب چونو وديانا فحولتها چونو إلى طائر كركى .
- (٨) تقول الأسطورة إن قبائل الأقزام كانت في حرب مستمرة مع الطيور الكبيرة الحجم وخاصة طائر الكركى .
- (٩) كانت أنتيجونى [وهي غير أنتيجونى ابنة أوديب] ابنة لاوميدون ملك طروادة ، وكانت - مثل رودوى وچيرانا - قد أثارَت غضب چونو حين تباهت بأن شعرها يزرى بجبال شعر چونو .
- (١٠) كان سنيراس ملك پافوس في قبرص وكاهناً لأفروديتى في الوقت نفسه ، اشتهر بأنه أسس مدينة أزمير ، وقيل إنه أبو أدونيس . أما بناته فقد أعجبن بأنفسهن أكثر من إعجابهن بچونو فحولتهن الإلهة إلى درجات من الرخام لسلم مُعبدها [انظر الكتاب العاشر] .
- (١١) إنه كيوس أحد العمالقة وقوى إبنة إلهة الأرض ، وقد أحبها چويتير وتحفى في صورة نسر ليضاجعها ، فلما أغضبته حولها إلى طائر السنان .
- (١٢) أنجب مكارپوس ابن ايولوس بنتا هي أمفيسا أو إيسيه التى أحبها أبوللو ، ويقال إنها أطلقت اسمها على مدينة مفيسا القريبة من دلفى .

(١٣) يعود الشرق جمع القنطور بين جسد الحصان وصدر الإنسان ووجهه إلى أن كرونوس الذي يسميه الرومان ساتورنوس كان يحون زوجته ريامع قبيرا ابنة أوقيانوس ، فلما فاجأت الزوجة العاشقين يوماً تخفى كرونوس في شكل حصان ليفلت منها ، الأمر الذي أدى إلى ظهور هذه الطبيعة المزوجة في ابنة خيرون .

(١٤) اسم المدينة كودروس وهو اسم مدينة وجبل في جالاطيا بالاناضول .

(١٥) سيبيلوس جبل مشهور شمال أزمير في آسيا الصغرى .

(١٦) كان تانتالوس ملك ليديا وابن زيوس هو والد نبيو . وكان قد استقبل الألهة على مائدته ولكنه قدم لهم ابنة بيلوبس ليأكلوه فغضبوا عليه وعاقبوه والقوا به إلى العالم السفلي . وكانت أم نبيو هي ديون ابنة أطلس التي كانت قد تزوجت من أمفيون وهو ابن زيوس من أنتيوي . وقد اشتهر بأنه شديد أصوات طيبة بالعزف على قيثارة كتابة عن براعته في العزف .

(١٧) كانت لير ابنة للمارد كوريوس الذي كان أقل شهرة من أخويه هيبيريون وبيايوس .

(١٨) على سفح جبل سيبيلوس في ليديا صخرة على هيئة امرأة باكية ينساب منها جدول ماء يقال إنه دموع نبيو . وأغلب الظن أن أوفيد استوحى الوصف الذي ذكره من أحد المجموعات المنحوتة التي تصور بنات نبيو المعزوة إلى براكشيليس أو سكوتاس . ويقال إن هذا التمثال كان قد نقل إلى روما منذ عهد قريب [بالنسبة لأوفيد] ووضع في معبد أبوللو فوق تل بالاتيونوس .

(١٩) الخيبريا وحش مشهور له رموس ثلاثة أحدها لاسد والثاني جدي والثالث لتين ، وتقت ثلاثها لهما ، وقد ولد لهذا الوحش من إخذنا وتيمون .

(٢٠) تروى الأسطورة أنه بعد ذلك ترجمت الإلهة يرافها بعض الذئاب و ليكوي باليونانية Lykoi ، إلى مهر زانثوس حيث استطاعت أن تروى ظمعاها وتغتسل هي وابنتها . وتكرما لمراقبتها سميت المنطقة ليكيا .

(٢١) تروى الأسطورة أن أثينا [منرفا] هي التي اخترعت المزمارة المزوج الذي صنعته من غراب بحيرة تريتون . فسخرت منها كل من هيرا وأفروديتي ، على أنها لاحظت أنها كلما أمسكت بالمزمارة وتاملت نفسها على سطح مياه أحد يتابع إذا أصابت وجهها التشويه فحنفت لذلك ، وألقت بالمزمارة إلى الأرض مقسمة بأن من يلتقطه سيتاله شر العذاب . وحدث أن التقطه منساتير اسمه مارسياس برع في النغم فيه إلى درجة تحدى معها أبوللو فأقيمت بينهما مباراة ظفر فيها أبوللو بجائزة ربات الفنون في عزف القيثارة . فامر الإله الفائز بسلخ جلد منافسه . وكان أوليمپوس أحد رفاق مارسياس الأوفياء هو الذي جمع ما تبقى من أشلائه ودفنها . أما مهر مارسياس فهو من روافده مهر ميناندر .

(٢٢) انظر الكتاب الثامن .

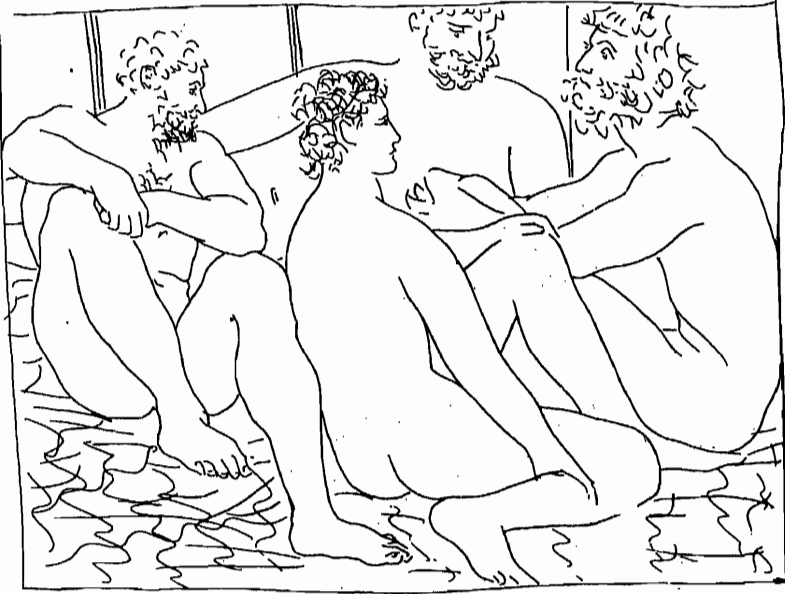
(٢٣) أي أن إثم عشق الأب لابنته ليس أشبع في نظر الشاعر من إثم عشق شقيقة زوجته .

(٢٤) مسنخت فيلوميليا بلبلا ، في حين مسنخت بركتي عصفور جنة يكسو صدره الاحمرار .

(٢٥) الكيكوبيس من سكان طراقيا وقد أغار عليهم أوديسوس أثناء عودته من طروادة لوقوفهم في صف بربام ملك طروادة ضد الأخيرين .

(٢٦) كان كالايس وزنتس من بين بحارة الأرجو ، ويرجع الفضل لهما في تخليص تيتيوس من ظيور الهاريس [انظر الكتاب السابع] .

(٢٧) سكان أورخوميونوس في بولونيا نسبة إلى ملكهم ميبياس .



بيكاسو: كينالوس بروى قصته لأبناء أباكوس ملك جزيرة إيجينا

الكتاب السابع

جاسون وميديا

على حين كان المينياسيون [أبناء سلالة مينياس] تمخر بهم البحر سفينتهم التي بُنيت في
 باجاساي^(١)، لمح الملاحون فينيوس^(٢) وقد هدّه الكبر ونقد بنور بصره نور الحياة، ورأوا أبناء «ريح
 الشمال» الصغار يزودون طيور الهاريس بعيداً عن فمه حتى لا تؤذيه، ثم انصرفوا حتى بلغوا
 نهر فاسيس^(٣) الصاحب المزبد يقودهم جاسون اللئيم الصيت وهم يغالون الصعاب^(٤). حتى إذا مثلوا
 بين يدي الملك أبيتيس جعلوا يطالبونه بفروة الكيش الذي حمل فريكسوس، فانقلب يمل عليهم شروطاً
 قاسية تلزمهم القيام بمهام جسيمة. وشغفت ميديا ابنة الملك بحب جاسون، وكم حاولت أن تدفع ذلك
 عن قلبها فلم تفلح، فأذعنت لسultan الهوى وهي تناجي نفسها: لماذا تراني فاعلة فيما قضاه على إله من

الألهة ، فما من شك في أنني صرت صريعة ما يسمى الحب . ولعل حبي لچاسون هو الذى جعلنى أرى شطط أبى فيما اشترطه عليه ، وهو الذى جعلنى أخشى عليه التهلكة وما وقعت عليه عينى من قبل . ثم مالى أحسّ القلق يتسأل إلى نفسى رويداً رويداً ؟ ترى هل تملكين أيتها الفتاة التمسعة أن تنجى بقلبك الغض من تلك النيران المضطربة وتعودى إلى ما كنت عليه خالية القلب ؟ إنى لأراى عاجزة يتنازعنى عقلى وعاطفتى ، وأنا لعاطفتى أميل مع علمى بأن الخير لى فيما يمليه عقلى . وكيف بى قد استهوانى حب رجل غريب فأصبحت أحلم بالزواج منه مع علمى بأن فى موطنى من قد يستهوئى . وسواء عاش چاسون أو مات فذلك مردّه إلى الألهة ، ولكنى أمل أن يعيش ، وعلى أن أصلّى للآلهة لكى يعيش وإن لم أكن أحبه ، فأى ذنب جئى ، ومن ذا الذى يرى شبابه ونبيل أصله وشجاعته دون أن يقدّره إلا إذا كان وحشاً جامد الحس . وإذا لم تكن لچاسون كل هذه السجايا فمن هذا الذى لا تحركه كلماته ؟ لقد مسّ قلبى ولم يلبث أن عشّ حبّه فيه ، وإذا لم أهرع لمساعدته فسوف تحرقه أنفاس الثورين اللذين يفتنان اللهب ، أو يصرعه أعداء البشر الذين ستبتهم الأرض حين تبدّر فيها الحبوب ، أو يذهب فريسة التنين النهم . وما كان يمكن أن أكون إلا غمرة قد قلبها من صخر أو حديد إن أنا لم أحل دون هذا . وما أتمنى إن رأيت يموت ، وهل أقوى على أن أثير عليه الثورين أو أمكنّ منه المحاربين الذين تبتهم الأرض ، أو التنين الذى لا يغفو أبداً ؟ كم أتمنى أن تمنحه السموات حظاً أسعد . فلاصليين من أجله ولسوف أسعى لسلامته .

٤٠ ترى هل أخون أبى ، وأعين غريباً على النجاة وقد يبهر بعدها دوفى ويتزوج من امرأة أخرى ، ويتركنى هنا أواجه العقاب جزاء خيانتى لوطنى . وإذا كان من الجائز بعد أن ينجو أن يؤثر على امرأة أخرى فهل أتركه يلقى حتفه جزاء نكرانه للجميل ؟ لا ، إنى أرى فى براءة وجهه ونبيل طباعه ورقته وسامته ما لا يدع لى مجالاً للخوف من أنه قد يخذعنى أو أن ينسى ما قدمت له من عون . على أن عليه أن يقطع لى عهداً قبل أن أساعده ولسوف أشهد عليه الألهة ، فإذا لم يكن ثمّ ما أخشاه فلم هذا الخوف إذن ؟ فلا تأهب للعمل دون تراخ ، ولسوف أجعل چاسون مديناً لى بحياته فيتزوجنى فى احتفال مهيب ، وستأتينى نساء اليونان جماعات من كل المدن لتكرمنى على أنى منقذة أبنائهن . ثم هل ترانى أهجر أختى وأخى وأبى وألحتى بل ووطنى نفسه وأذهب بعيداً عبر البحار ؟ ولم لا أتركهم والذى قاس وأهل وطنى جفافة ، وأخى مازال طفلاً ، وأختى تباركنى دائماً بدعواتها ، وأعظم الألهة تسكن صدرى ، وليس هناك مما أخلفه ورائى شىء ذو قيمة بينما أستهدف بفرارى شيئاً أعظم هو المجد . فإنقاد هؤلاء الأبطال اليونانيين ، والتعرّف على بلاد أفضل من بلادى ، وزيارة مدن طبّقت شهرتها الأفاق حتى بلغت هذه الشواطىء ، والإلام بفنون هذه المدن وثقافتها ، كل هذا أترقبه . ثم إننى سأظفر بچاسون الذى أرى فيه عوضاً عن كل كنوز الأرض ، وحين أصبح زوجته فسوف ينظر الناس إلىّ على أنى محظوظة باركتها السماء ، وسترتفع هامتى عالية حتى تلامس النجوم .

٦٠ ولست أعباً بحديث الناس عن تلك الجبال القائمة فى عرض البحار التى هى للملاحين بالمرصاد^(٥) ولا عن خاربيديس خصم السفن التى تارة تبتلع المياه المحيطة بها وتارة تقيتها ، ولا عن سكيللا الشرهة

المنطقة بالكلاب المفترسة النابحة في أعماق بحار صقلية . إنها جميعاً لا تخفي ، فسوف أمضى في رحلتى الطويلة في البحار وأنا بين أحضان حبيبي ، ولن أحس وأنا ملتصقة بصدر زوجي جاسون إلا الخوف عليه وحده . ولكن أى زواج ذلك الذى تتحدثين عنه يا ميديا ؟ يحسن بك ألا تخوضى في شيء من غير اللائق أن تخوضى فيه لاسيما وأنت آخذة فيه ، ومن الخير أن تطرحى هواجسك الشريفة .

وكتفت ميديا عن مناجاتها لنفسها بعد أن استبان لها أن العقل أولى أن يُتبع ، وأن عليها أن تغلب عواطف البهولة والشرف على حبها لجاسون . وحين أدرك كيوييد أن الهزيمة لحقت به بدأ يحزم أمره للرحيل بينما اتجهت ميديا إلى المحراب العريق لهيكاتي ابنة بيرسيس المخفى في ظلال الأكمات بأعماق الغابة وهى عازمة على أن تطرح الهوى من قلبها . ولكن ما إن وقع بصرها في الطريق على جاسون بن أيسون حتى علت وجنتيها حمرة ما لبثت أن اخفت ثم أعقبها شحوب واصفرار ، وأحسّت بمشاعر الحب تعاودها وتستعر في أعماقها ، وكأنما كانت ثمة جمرات متقدة تحت كومة قش هبّت عليها ريح مفاجئة فإذا بها تتأجج . هكذا أضرمت رؤية جاسون حب ميديا الذى كان قد أصابه الفتور ، وأتقدت في قلبها الجدوة التى كانت قد خلدت .

كان من الطبيعي أن يثير مشهد جاسون الوسيم حب ميديا ، فقد كان عندها أكثر وسامة من ذئ قبل فأخذت تتأمله وكأنها تراه للمرة الأولى ، مأخوذة بطلعته غير مصدقة أنه واحد من بنى البشر ، ولم تعد تستطيع أن تحمّل بصرها عنه . وما كاد يأخذ في الحديث إليها ممسكاً بيدها اليمنى بين يديه متوسلاً إليها أن تعينه ، أخذاً على نفسه العهد أن يتزوجها إذا نجحت مهمته حتى انهمرت من عينيها الدموع وهى تتمتم : « لقد بات الموقف أمامي بيئاً ، ولست أجهل حقائق الأشياء ، وإننى أعلم أن الحب لا الجهل بالحقيقة هو الذى يقودني ليوردي موارد الهلاك ، ولكنى سوف أعينك على النجاة والفوز ، كى تحقق لى أنت ما وعدتني به بعد نجاتك » .

وأقسم جاسون على الوفاء لها بأسرار الآلهة المؤلمة ثلاث مرات^(٦) ، وبالإله المائل في الكهف ، وإله الحية المستقبل^(٧) ، وبعين الشمس التى ترى كل شيء ، ويكل ما يملك ، وبالمخاطر الزهية التى سيتعرض لها . فقنعت ميديا بقسمه وصدقته ، وزودته بأعشاب سحرية قرأت عليها تعاويذها وعلمت كيف يستخدمها ، فامتلاً قلبه سروراً وعاد إلى سفينته فرحاً .

وعندما بزغ الفجر واختفت النجوم ، تجمّع الناس في حقل مارس المقدس واتخذوا أماكنهم في السفوح المرتفعة المحيطة به ، وتوسّطهم الملك متألّفاً في ثيابه الأرجوانية اللون مهيباً بصولجانه العاجى رمز سلطته . وفجأة ظهر الثوران ذوا الحوافر الذهبية والأنوف الصلبة ينفثان لهباً أشعل النيران في الحشائش الخضراء ، واختلط خوارهما بصخب النيران التى تندلع من حلقتهما ، وإذا هذا الخوار مع قوة النار أشبه بفورة الحُرّص [الجير الحى] في قبو غمره سيل من الماء ، غير أن جاسون بن أيسون تقدم نحوهما ، فهزّأ رأسياً شارعين قرونها المدببة الحديدية الأطراف وأخذت أظلافها تحفر الأرض ، وامتلاً الفضاء بخوارهما

المختلط بالسنة الدخان ، وجمد ملاحو الأرجو في أماكنهم خوفاً ، عدا جاسون الذى تابع خطوه دون أن يحس حرارة أنفاس الثورين النارية بفضل السحر الذى اعتصم به ، وتقدم في شجاعة فربت على لُغديها المتدلّيين ، ورفع الثير ووضع على عنقها فمضيا يجزان المحراث الثقيل والنصل الفولاذى وراءهما ، وأخذت خطوط الحرث تمتد في الأرض البكر وسط ذهول الكولخسيين وتهليل رفاقه ملاحى الأرجو . ثم مدَّ

١٢٠

يده إلى الخوذة النحاسية والتقط أنياب الأفعوان التى كانت قد غُمست من قبل في السم الزعاف ونثرها في شقوق الأرض المحروثة ، فما لبثت أن أخذت تنمو في التربة وتشكّلت فيها كما تشكّل الأجنة البشرية في أرحام الأمهات حتى يكتمل نموها فتخرج إلى النور ، وهكذا ظهر حصاد من أجساد بشرية لا يُعد ولا يحصى نما في جوف الأرض الحُبلى . وأعجب من هذا أنه برز منها شاهراً أسلحة نمت هي الأخرى معه في باطن الأرض ، وأفزعت البيلازجين^(٨) عندما أخذت تسدد رماحها الحادة إلى رأس البطل الثيسالى . وتحرك الخوف في قلب ميديا على جاسون رغم السحر الذى حصنته به ، وشحب وجهها وغاضت الدماء من أطرافها ، وسرت في جسدها رعشة مفاجئة وهي ترى هذه الأعداد الغفيرة من المحاربيين تحيط بالفتى وحده ، وساورها القلق مخافة أن تكون الأعشاب التى أعطتها لجاسون أقل تأثيراً مما ينبغي أن تكون عليه ، وانبرت تتمم بتعاويد أخرى تستعين بها وتستخدم أفانيتها لتزيد موقفه قوةً ، وإذا جاسون يحمل حجراً ثقيلاً ويلقى به وسط أعدائه ، فإذا بهم يتحولون عنه لينشب بينهم قتال مرير ، وأخذ بعضهم يصيب البعض الآخر بجراح قاتلة فأنفى بعضهم بعضاً . عندها تهلل وجه الأخيين [اليونانيين] بشراً واحتضنوا الفائز فرحين ، وتحركت في صدر الأميرة رغبة في عناق البطل لولا خشيتها من إثارة الأقاويل ، فكتمت فرحتها في نفسها وشكرت الألهة على إنجاحها تعاويذها السحرية ذات الأثر في نجاة جاسون .

١٤٠

لم يبق أمام البطل إلا أن يبعث النوم في عيني التنين الذى يحرس الشجرة التى علقت عليها الفروة الذهبية ، وقد كان منظر هذا المخلوق مثيراً بعُرفه الغريب ولسانه ذى الفروع الثلاثة وأنيابه المقوسة ، غير أن جاسون لم يكد ينثر عليه العشب الذى تجلب عصاراته السبات العميق ، ويتمم بالتعويدة التى تهدىء البحر العاتق والنهر الهائج حتى أسلم التنين للنوم جفنيه اللذين لم يغمضاً من قبل أبداً ، وانترع جاسون الفروة الذهبية ، ومضى حاملاً معها غنيمته انتصاره وهى الأميرة ميديا التى أعانته على تحقيق رغباته ، وأبحر عائداً بها إلى بلاده متخطياً العقبات حتى ميناء إيولكوس^(٩) .

أيسون

وقدمت نساء ثيساليا القرابين شكراً للآلهة على عودة أبنائهن سالمين ، وكذا فعل آباء الأبطال فعلهن فأشعلوا أكواماً ضخمة من البخور عند المحاربين ، ونحروا الضحية المذمبة القرون التى كانوا قد نذروها للآلهة . وكان أيسون قد قعد عن شهود هذا الحفل لشيخوخته التى قرّبت من حنقه فتوجه جاسون إلى

١٦٠

زوجته قائلاً : « أى زوجتى التى أدين لها بحياتى والتى يعجز العقل عن إدراك ما أسدته لى ، أترك قدرة وأنت التى لا يستحيل على سحرك شيء ، أن تأخذى بعض سنى عمرى وتضميها لى عمر أبى ؟ » ، وانسابت مع كلماته دموع عينيه فحرك حبه لأبيه قلب ميديا ، واتجهت بفكرها لى أبيها أبيتس الذى كانت قد هجرته ، لكنها أخفت مشاعرها قائلة لزوجها : « ما أقساه من عرض هذا الذى تعرضه ، أو يدور بخلدك أن باستطاعتى الاقتراع من عمرك لأصل به حياة غيرك . إن إلهة هيكتاى لا تميز ذلك ، فما من حقا أن تطلب لى ما أعجز عن تحقيقه ، غير أنى سأحاول أن أقدم لك هدية تفوق ما تطلب يا جاسون ، وسأستعين على تجديد شباب أيبك لا بالسنوات التى تريد اقتطاعها من عمرك بل بحذقى أنا حين تفضل الإلهة المؤهلة ثلاثاً فتعنينى فى محاولتى الجرئية » .

وأضى القمر ثلاث ليال حتى اكتملت استدارة قرنيه ، ومع تألق ضوءه تسللت ميديا من دارها فى ثيابها الفضفاضة عارية الرأس حافية القدمين مرسله شعرها على كتفيها متعثرة الخطى فى سكنون السحر ، والطيور والوحوش فى مخادعها مستسلمة لنوم عميق ، وأوراق الأشجار ساكنة على الفصوص لا يتحرك لها حفيف ، والهواء المحمل بالضباب قد سكن وقد تراءت من خلله النجوم المتوهجة فى كبد السماء . مدت ميديا ذراعها نحو النجوم ودارت حول نفسها مرات ثلاث ، ونثرت مياه النهر على رأسها مرات ثلاث ، وصاحت صبيحات ثلاث معها نحيب وعويل ، ثم خرّت على ركبتيها فوق الأرض الصلبة وأخذت تهمهم : « ليا الليل الحارس الأمين لأسرارى ، أيتها النجوم الذهبية التى ترسل ضياءها مع القمر بعد غياب نور النهار ، أيتها الإلهة هيكتاى يا صاحبة الرؤوس الثلاثة ويا من هدتنى دوماً لى ما أقوم به وأعانتنى على تحقيقه ، أيتها التعاويذ السحرية ، أيتها الأرض التى تنبت الأعشاب السحرية ، أيتها الأنسام والرياح والجبال والأنهار والبحيرات وجان المغارات وجان الليل ، أقبلوا جميعاً . فبعونكم أستطيع حين أريد أن أصد جريان الأنهار فترتد مياهها لى منابعها بين دهشة الشيطان ، وأن أهدىء عاصفة البحار أو أثير صخب مياهها بأناشيدى وأن أطرده السحب أو أجمعها ، وأن أرسل الرياح أو أخدها ، وأن أفتك بالثعابين بسحر تعاويذى وأن أحرك الصخور والأشجار ، وأمر البلوط أن يقتلع نفسه ، بل أمر غابات بأكملها أن تفعل ذلك أو أن أمر الجبال فتضطرب وتميد والأرض فتن وتزجر ، وأطياف الموت فتخرج من قبورها ، والقمر أيضاً أجذبه من السماء رغم صنوج تيميسا البرونزية^(١) التى تدق لتخفف من عنائه . إن جمالى يُرى برونق مركبة جدى^(٢) ويفقد الفجر أطيافه بفعل عقاقيرى ، أنتم الذين أعتمت على تهدئة وهج أنفاس الثورين ووضعتم عليهما الثبرين ليمضيا بالمحراث المعوج ولم يكونا قد جراً شيئاً قبل ، وأنتم الذين أترتم المحاربين الذين نبتوا من زرع أنياب الأفعى ليقتل بعضهم البعض الآخر ، وأرسلتم النوم لى عيني الثنين الذى لم ينم من قبل أبداً ، ثم أسلمتم الفروة الذهبية لى اليونان . ما أحوجنى اليوم لى عقاقير تعيد نضرة الشباب لى شيخ فان وترده لى مقتبل العمر ، وسوف تهبوننا إياى بعد أن لمعت النجوم استجابة لندائى ، وأقبلت مجموعة من التنانين المجنحة بهذه المركبة التى أوقفنتها بجوارى » .

٢٢٠ واعتلت ميديا المركبة التي كانت قد هبطت إليها من السماء وربت على أعناق التنانين التي تجرّها ، وحركت أعتبها فانطلقت في الفضاء ، وأطلت على وادي نهر نمى في نيساليا ثم وجهت تنانيتها جنوبي المناطق التي ستحلّ بها . وعكفت ميديا على فحص أعشاب جبل أوسا ثم اتجهت إلى هضاب جبل بيليون المرتفع وجبل أوثريس وجبل بيندوس وأوليمبوس^(١٢) أعلى الجبال قما وجمعت منها الأعشاب التي اختارتها ، بعد أن اقتلعت بعضها من جذوره واقتطعت البعض الآخر بالتصل المقوس لسكين من البرونز ، ثم جمعت حشائش أخرى من شواطئ نهر أيدانوس ، ومن أمفريسوس وإنبيوس ، وينيوس ، ومستنقعات سپيرخيوس ، ومن شواطئ بويي^(١٣) التي ينمو بها الغاب ، كما اقتطعت من أنثيدون المقابلة ليوبويا ذلك النبات الذي نال شهرة كبرى لما له من أثر في إطالة العمر بعد ما فعل فعله في جسد جلاوكوس^(١٤) .

٢٤٠ وأمضت ميديا تسع ليال وتسعة أيام تطوف البلدان في المركبة التي تجرها التنانين المجنحة ، حتى إذا ما عادت إلى دارها وقفت على عتبتها دون أن تنفذ إليها متجنية مخالطة الذكور ، وشيّدت محرابين في العراء أحدهما على يمين الدار والآخر على يسارها وجعلت الأيمن لهيكتاي والأيسر لربة الشباب^(١٥) ، وغطتها بأكاليل من غصون الأشجار التي تنمو في الغابة ، وحفرت خندقين قريبين ملأتهما بدماء شاة سوداء اللون ذبحتها قرباناً ثم ملأت كئوساً من النبيذ وأخرى من اللبن وسكبتها فوق الدماء في الخندقين ، ثم تمتمت بتعاويدها منادية جان الأرض ، متوسلة إلى ملك الظلال ومليكتة المخطوقة ألا يسلبا العجوز الحياة ، وأخذت تكرر الصلوات حتى أثارت عطفهم جميعاً . وعندها طلبت من چاسون أن يحمل أباه إلى خارج الدار حيث فرشت بساطاً من الأعشاب المنثورة أضجعت عليه الشيخ الفاني وأخذت تتلو عليه تعاويدها حتى استسلم للنوم العميق ، ثم أمرت ابنه وأتباعه أن ينصرفوا عن المكان وحذرهم من أن تقع أعينهم غير المتهيئة للسحر على مشهد الطقوس السحرية التي سوف تؤديها فأطاعوا وتفرقوا ، بينما أخذت هي تدور وحدها حول المحرابين بشعرها المرسل كأنها إحدى عابدات باكخوس ، وغمست مشاعلها الخشبية المشقوقة أعوداً دقيقة في الحفر المليئة بالدم الأسود حتى تشرّبه ، ثم أشعلتها ووضعتها على المحرابين ، وطهرت الشيخ بالنار ثلاث مرات ، وبالماء ثلاث مرات ، ثم بالكبريت ثلاث مرات ، بينما كانت قد وضعت فوق النار قدرآ تطهو فيه الجذور التي جمعتها من وديان هاميونيا والبذور والأزهار ذات العصارات الحريفة . وكانت هذه مقومات سائل قوى الأثر يغلى ويفور بزبد أبيض في القدر ، ثم أضافت إليها الأحجار التي جلبتها من أقصى الشرق ، والرمال التي غسلتها بمياه الأوقيانوس ونُدف الثلج التي جمعتها بالليل على ضوء القمر ، ولحم بومة مرعبة وجناحيها ، وأحشاء غول وهو ذلك المسخ العجيب الذي يستبدل بقسياته الحيوانية أحياناً قسبات بشرية ، ولم يفتها أن تضيف الجلد ذا الحرافش لثعبان مائي يسكن مياه كينيس في ليبيا وكبد وعل معمّر ورأس غراب عمّر ما يربو على أكثر من أجيال تسعة ومعه منقاره ، إلى جانب آلاف العناصر الأخرى الغريبة التي لا أساء لها ، والتي كانت تستهدف من مزجها إنجاز مهمة تفوق طاقة البشر .

٢٨٠ وأمسكت ميديا بغصن شجرة زيتون جاف ، وأخذت تحرك به هذا المزيج الذي تحول إلى سائل وهو يغلي على النار ، فما لبث الغصن الجاف أن اخضرَّ وأورق ، وسرعان ما أصبح محملاً بالكثير من عناقيد الزيتون ، وكلما غلى السائل وانسكبت قطرات من القدر البرونزي على الأرض اخضرَّت البقعة التي تقع عليها ونمت بها الحشائش وتفتحت فيها الأزهار . وعندما اطمانت ميديا إلى ذلك أمسكت بسيفها وشقت به حلق الشيخ الطاعن في السنَّ وتركت دمائه الهرمة تسيل منه حتى جفَّت عروقه ، وأخذت تملؤها بالشراب الجديد الذي امتصه أيسون عبر الجرح الذي أحدثته ميديا في فمه أيضاً ، وسرعان ما زال الشيب من شعر لحيته ورأسه واصطبغ بالسواد من جديد ، وغابت مظاهر الشيخوخة والضعف واختفى شحوب وجهه ، واكتنز لحمه تحت التجاعيد فسطها ، واكتسبت أطرافه قوة الشباب ، وتعجَّب الملك الشيخ من هذا التغيير الذي أعاده إلى حالته التي كان عليها منذ أربعين عاماً مضت .

وحين شاهد باكخوس المعجزة من علياء سائه أدرك أن الشباب من اليسير رده ثانية بالمثل إلى مرضعته ، وأن اليد الطولى في هذا تعود إلى ميديا أميرة كوثيس ، ومن ثم طالبها بتحقيق هذه الأمنية فوضخت لندائه .

پلیاس

٣٠٠ ولم تنته أعمال ميديا السحرية عند حدّ ، فلقد قصدت ذات يوم دار پلیاس شقيق أيسون والذي انتزع منه العرش ، وادعت أن خلافاً وقع بينها وبين زوجها وطلبت من الملك أن يأذن لها بالإقامة عنده ، فرحبت بها بناته بدلاً منه لأنه كان واهن القوى أحنث الشيخوخة ظهره . ولم تمض أيام قليلة حتى اكتسبت ميديا الماكرة محبتهم متظاهرة بصدافتهم ، وقصّت عليهن ما بذلته من عون لچاسون ثم عرجت على قصة إعادة الشباب إلى أبيه أيسون ، فأسهبت فيها وأطالت حتى حرّكت أمل بنات پلیاس في إمكان استعادة أبيهن لشبابه بالطريقة نفسها ، فأخذن يتوسلن إليها أن تفعل لأبيهن ما فعلته لأب چاسون مقابل ما تشاء .

وصممت ميديا طويلاً متظاهرة بالتردد في قبول طلبهن ، مدّعية أنها سوف تفكر في الأمر ملياً . وطال قلق المتوسلات وهن ينتظرن ، ثم كان أن وعدتهن بتقديم عونها لمن قاتلة : « لكى أبت الطمانينة في قلوبكن فسوف أحول الكبش المسنّ الذي يتقدم قطعان غنمكم إلى حَمَل صغير بدوائى السحرى » . عندها أخضرن لها كبشاً كثيف الفروة ملتوى القرون واهن الخطو قد بلغ أرذل العمر ، فأحدثت بسكينها جرحاً في حلقه فخرجت منه بقعة دم علقت على نصل السكين ثم أمسكت بالكبش فغمست قوائمه في وعاء ملىء بأعشاب قوية السحر ، فأخذت قوائمه تنكمش وقرونيه تحترق وتزول وتذهب عنه آثار السنين . وإذا الجمع يسمع فجأة ثغاء خافتاً يتردد وسط الوعاء النحاسى الذى قفز منه حَمَل صغير يتلفت باحثاً عن أمه .

٣٢٠ فتحركت الدهشة في قلوب بنات بلياس ، وأقنعهن الدليل بصدق وعدها ، وعاودن إلحاحهن بأن يكون لأبيهن حظه من هذا السحر .

٣٤٠ حطَّ فويبوس إله الشمس عن جواده المَجْنَحَة عَدَّتْها بعد هبوطه إلى مياه أيبيريا ثلاث مرات . وفي الليلة الرابعة وبينما كانت النجوم تبرق في السماء وضعت إبنة أيبيتيس المخادعة قدراً كبيراً على نار مشتعلة بعد أن ملأته ماء خالصاً أضافت إليه بعض أعشاب لا أثر لها من السحر ، وتمدَّد الملك وأغفى كأنه أخذته سنة من نوم شبيه بالموت ، وتلت ميديا تعاويذها التي جعلت الملك يغطُّ في نوم عميق ، وقالت ميديا لبنات الملك الواقفات حول فراش أبيهن : « كيف وقفنَّ جامدات لا تفعلن شيئاً ، ألا فلتمسكن بسيوفكنَّ واطمنَّ بها أباكنَّ حتى ينسكب دمه كى أبداً بعد ذلك بملاء شرايينه بدم الشباب ، فحياة أبيكن وتجديد شبابه بين أيديكن ، فإن كتنَّ تحبينه فلتقمن بواجبكن نحوه . أطردن شيخوخته بضربات سيوفكن لتخرج مع دم جسده الفاتر » . وأثارت هذه العبارات حماستهن فأقدمن على خطة لم يكن يعلمن شرَّ عاقبتها ، وأمعن في طعن والدهن إظهاراً لعمق جبهن وإن تمحاشين النظر إليه وهن يفعلن ذلك ، فهض الملك مثقلاً بالجراح مشوهاً تغطيه الدماء ، وحاول أن يردَّ سيوف بناته التي أشرعت من حوله فلم يفلح وصاح بهن وهو يئن « ماذا دهاكن يا بناتي وما الذى جعلكن تشهن السيوف لتقضين على أبيكن ؟ » . وسرعان ما خارت عزيمة بنات الملك بعد سماع كلماته وخانتهم شجاعتهن ، فعاجلته ميديا قبل أن يتفوه بكلمات أخرى بطعنة في حلقه ، ثم حملته وألقت بجسده في الماء المغلى ، وأسرعت تطير في الهواء تحملها دوابها المَجْنَحَة قبل أن يجيق بها مكروه . وحلقت طائرة فوق جبل بيليون المكسو بالغابات حيث دار فيليرا [أم القنطور خيرون] ، وفوق أوتريس والمناطق التي اكتسبت شهرتها منذ طوفان ديوكاليون الذى طغت فيه مياه البحر على الأرض فأغرقتها ، فتجمعت حوريات البحر حول كيرامبوس^(١٦) [ومسخته جُعرانا] ثم حملته وطرن به في الهواء فأنقذنه من الغرق في الطوفان .

٣٦٠ وبينما كانت ميديا في طيرانها أشرفت على مدينة بيتانى الأيولية^(١٧) التي ينتصب فيها تمثال الأفغوان الحجرى الضخم^(١٨) ، وفوق غابة إيدا^(١٩) حيث أخفى باكخوس العجل الذى سرقه ابنه بعد أن حوَّله إلى وعل^(٢٠) ، وفوق المكان الذى دُفن فيها والد كوريشوس^(٢١) وقد طواه كتيب من رمال خفيفة ، واستمرت حلقة فوق تلك الحقول حيث تنبح مايرا^(٢٢) فيملاً بناحها الغريب قلوب الرجال رعباً ، وفوق مدينة يوريبيلوس حيث نبتت القرون في جباه سيدات جزيرة كوس^(٢٣) لحظة رحيل هرقل ورفاقه عن بلادهم ، كما حلقت فوق رودس الجزيرة التي أحبها فويبوس وفوق مدينة بالسوس مقرَّ التلخنيين^(٢٤) الذين كانت أعينهم تنال بالسحر كل ما تقع عليه فأغرقتهم چويتري في مياه شقيقه نبتون ، ثم أطلت على كارثيا إحدى مدن خيوس القديمة التي أصيب فيها ألسيداماس^(٢٥) يوماً بالذهول حين أنجبت ابنته بمامة وديعة . كما شاهدت بحيرة هيربيه وتمي^(٢٦) موطن سيجنوس التي اشتهرت بعد أن تحوَّل الأخير إلى طائر البجع . وفي ذلك الموقع كان فيليوس نزولاً على إرادة الغلام سيجنوس قد قدم له طيوراً جارحة كان قد استأنسها وأسداً كان قد روَّضه ، ثم طلب إليه سيجنوس أيضاً أن يروِّض نوزاً وحشياً فأبى أن يفعل

ذلك ، إذ لم يكن الغلام يباده عاطفة بعاطفة . وأخيراً أبى فيليوس أن يستجيب لإلحاح ذلك الصبي فيروؤص له ثوراً إرضاءً له ، فصاح فيه سيجنوس غاضباً « عما قريب ستقول ياليتنى روضت لك الثور »^(٣٧) . ومضى سيجنوس فالتقى بنفسه من فوق صخرة عالية فظن الجميع أنه مات على حين أنه تحوّل إلى طائر البجع ، وأخذ يرفرف في الهواء بجناحين في بياض الجليد ، ويات أمه تكيهه حتى ماتت فتحولت إلى بركة تحمل اسمها . وعلى مقربة منها بليورون^(٣٨) التي طارت إليها كوميى ابنه أوفيس^(٣٩) فراراً من أبنائها الذين كانوا يريدون إيقاع الضرب بها . وألقت ميديا بعد ذلك نظرة على حقول كالاوريا^(٤٠) المكرّسة لابن ليتو [لاتو]^(٤١) والتي تحوّل ملكها وملكيّتها إلى طائرين ، ولمحت على يمينها كيلينييه حيث قدّر القدر أن يأتى مينيفرون بها ما تأتية البهائم ، وذلك حين غشى أمه ، ورأت غير بعيد سيفيسوس ينعى مصير حفيده الذى حوّل أبوللو إلى فقمة ، كما رأت كذلك دار يوميلوس^(٤٢) الحزين على ولده الذى تحوّل إلى طائر . وأخيراً وصلت بدواها المنجّحة إلى كورثه حيث ينبثق الينبوع المقدس « بيرينى » ، وحيث كانت تتوالد من نبات عش الغراب كائنات حيوانية تنتعش مع المطر^(٤٣) .

ولم تكد عروس جاسون الجديدة تموت بعد أن هراً الثوب المسموم الذى بعثت به إليها الأميرة الكولخيسية ، ويشهد البحران على كلا جانبي البرزخ اضطرام النار في دار الملك ، حتى حملت ميديا سيفها المخضب بالدماء بعد أن انتقمت انتقامها المروّع بقتل أبنائها من جاسون وهربت فراراً من غضبه ، فحملتها دواها المنجّحة إلى مدينة أثينا قلعة باللاس حيث طارت فينى أشرف النساء في صحبة بيريفاس^(٤٤) العجوز ، وكذلك حيث طارت ألكيونى^(٤٥) حفيده بوليبيمون علّقة عالياً بجناحيها اللذين اكتسبتها . وفي أثينا رحّب الملك أيجيوس بميديا ، ولم يكتف بإيوائها بل اتخذ منها زوجة له^(٤٦) .

ثيسيس

وإلى أثينا وصل ثيسيسوس الذى وطلدّ السلام وأشاع النظام في أنحاء البرزخ المحاط بالبحرين ، ولم يكن الملك أيجيوس يعرف أنه ابنه ، فحرصت ميديا على أن تعدّ له شراباً من جذور البيش السامة « الأقونطن » التى كانت قد جلبتها معها من شواطئ سكوثيا التى يقال إنها نبتت أول ما نبتت من أنياب الكلب الإخيدنى كيريروس الذى عاش داخل كهف مظلم ينفذ منه طريق إلى العالم السفلى وهو الطريق الذى اجتازه هرقل بطل تيرينث ، بعد أن شدّ وثاق كيريروس بسلسلة من الفولاذ ، بينما كان الكلب يقاوم ويدير رأسه بعيداً عن ضوء النهار . وحين تملك كيريروس ثورة الغضب ملأ الفضاء بناحه القوى الصادر عن رموس ثلاثة ، فأخذت قطرات اللعاب التى هى أشبه ما تكون بالزبد الأبيض تتناثر من خطمه هنا وهناك في الحقول الخضراء ، وإذا هى تثبت وتضرب بجذور لها في التربة الخصبية التى أينعتها ، وإذا هى تُنبت نباتاً ضاراً من جنسها ، وإذا انبثق هذا النبات وسط الصخر لذا سّاه أهل الريف أزهار الصخر « الأقونطن » . وأمسك أيجيوس الكأس المسمومة ليقدمها لهذا الطلوع وكانه يقدمها لخصم من خصومه

وكانت ميديا قد أخفت عليه أن هذا الطارىء ابنه . وما إن رفع ثيسوس الكأس إلى شفثيه وهو لا يدري ما دُبِّرَ له حتى أبصر الأب نقش شعار أسرته على المقبض العاجي لسيف البطل ثيسوس فإذا هو يعرف في التوّان هذا الطارىء ابنه ، فأطاح بالكأس القاتلة عن شفثيه . فحُفَّت ميديا وولّت وجهها هرباً خوفاً من الموت الذى كان يتعقبها ، وإذا هى تطويها السُّحب بين طيَّاتها وكانت قد أهابت بها بتعاويذها لتنجو .

وأحس أيجيوس رغم سعادته بنجاة ابنه بشيء من الفرع لهذه الجريمة البشعة التى كادت أن تقع فأشعل المصاييح على المحارِب ، وأتى بالثيران المزدانة الرعوس بالأكاليل وذبحها قرباناً للآلهة ، فكان يوماً مشهوداً فى حياة الأثينيين ، إذ اجتمع كبار القوم وعامة الشعب فى حفل ترفرف عليه البهجة ، أطلقت الخمر فيه الألسن فراحت تتصايح : « شكراً لك ولشجاعتك يا ثيسوس العظيم ، يا فخر ماراثون ، لأنك قويت على ذبح الثور الكريتي^(٣٧) ، ولأنك منحت فلاحى الحقول الممتدة حتى كروميون^(٣٨) الطمأنينة بعد قتلك للخنزير الوحشى . لقد شهدت أرض إبيداوروس مصرع ابن فولكانوس المسلَّح بالهرواة على يدك^(٣٩) ، كما شهدت شواطئ سيفيسوس نهاية پروكروستيس القاسى^(٤٠) ، ورأت إليوسيس المدينة العزيزة على الإلهة سيريس موت سيرسيون^(٤١) ، كما قضيت على سينيس الذى كان يتعدى طوره بقوته الحارقة فيثي جذوع الأشجار ويميل قمم أشجار الصنوبر حتى تلمس الأرض ويربط بها ضحاياها لتتمزق أعضاؤهم وتنتثر ، وأصبح الطريق إلى الكاوى^(٤٢) مدينة ميجارا بفضلك آمناً ومباحاً للجميع منذ قتلت اللص سكيرون الذى رفضت الأرض والبحار أن تضم رفاتة فظلت الرياح تتقاذف عظامه حتى صارت مع الأيام صخوراً ارتبط بها اسم سكيرون . ولو أنا شئنا أن نحصى أمجادك ووازناها بسني عمرك لأزيت عليها عدداً ، وكم تمنى لك يا أشجع الأبطال أعظم الأمنيات فنرفع الكئوس تكريماً لك . ودوى تصفيق الشعب ودعواته فى جنبات القصر الملكى ولم يعد فى المدينة مكان لم يعمه الفرع .

آياكوس

إن السعادة الخالصة لا تدوم ، فسرعان ما تتسلل المموم لتعكر صفو الأفراح ، وهكذا تغيرت فرحة أيجيوس بعودة ولده إلى قلقه بإعداد مينوس^(٤٣) ملك كريت العدة للحرب انتقاماً لمقتل ابنه أندروجيوس . وكان لمينوس جيش قوى وأسطول جبار ، كما كان يطوى صدره على حقد دفين ، فحرك سفنه السريعة التى تمثل قوته الضاربة ليكتسح بها البحار ، وأخذ يجمع جيوشاً من حلفائه كى يجاربوا إلى جانبه . فاستمال إليه جزيرة أنافى بوعود قطعها على نفسه ، وضم إليه جزيرة أستيباليا السيكلادية قرساً ، وانضمت إليه جزيرة ميكونوس الخالية من المرتفعات ، وجزيرة كيمولوس ذات التربة الطباشيرية ، وجزيرة سيروس التى ينمو بها الزعر التبرى ، وجزيرة سيريفوس المنبسطة السهول ، وجزيرة پاروس المترعة بالرخام الجميل ، وجزيرة سيفنوس التى باعتها الخائنة آرنيه الطرواقية^(٤٤) للأعداء لقاء ذهب دفعها جشمها إلى

طلبه منهم ، تلك الفتاة التي تحولت بعد حصولها عليه إلى طائر يسمى غراب الزُّرع الأسود القدمين والجنّاحين ، والتي ظلت تهمم بحبب الذهب إليها بعد تحولها طائراً . غير أن أولياريوس وديديماي وتنوس وأندروس وجياروس وبيباريوس التي تتكاثر فيها حبّات الزيتون الناصعة أبت أن تدعّم أسطول ملك كريت .

واتجه مينوس إلى أونوبيا مملكة أياكوس التي أطلق عليها اسم أمه إيجينا فخرج لاستقبال مينوس حشد كبير من الناس مرّحين به في حماس ، وأسرع للقائه تيلامون يصحبه شقيقاه بيليوس وفوكوس اللذان يصغرانه . كذلك خرج أياكوس يمشى واهناً تحت ثقل شيخوخته مرّحاً بيمينوس وسأله عن السبب في قدومه إلى بلاده ، فقال له عاهل المدن المائة الخزين على ولده : « جئت أنشد عونك في الحرب التي أخوضها لأثار لابني ، وكم أود أن تمدني ببعض رجالك ليكونوا جزءاً من جيشي في تلك الحرب العادلة . إني أناشدك أن تمدني يد المعونة لأستطيع أن أهون عن نفسي ما أجده من وحشة لابني في قبره » . فأجابه أياكوس حفيد أزوبوس قائلاً : « أن أجيبك إلى ما تطلب من المحال بمكان ، فليست ثمة بلاد أوثق تحالفاً مع بلاد آل كيكرويس [الأثينيين] منا ، فبيننا معاهدات وثيقة » . ووجه مينوس وانصرف وهو يقول : « لتجتون شرّ العواقب الوخيمة من جراء تلك المعاهدات » . قال هذا إثارة منه بأن يلوّج بالحرب دون أن يتورط في إشعالها فيبدد طاقاته سريعاً .

ولم يكن الأسطول الكريتي قد ابتعد كثيراً عن شواطئ أونوبيا حين أقبلت على مينائها سفينة مسرعة من أثينا تحمل كيفالوس برسالة من بلاده . وتعرّف أبناء أياكوس على كيفالوس رغم مرور زمن طويل على رؤيتهم السابقة له ، وصافحوه في حرارة ومضوا به إلى قصر أبيهم . وكان كيفالوس يسترعى أنظار المارة بوسامته التي ظل محتفظاً بها ، ويغصن الزيتون الذي يحمله رمزاً لبلاده ، ويسير وسط سفيرين من أبناء أثينا أصغر منه سنّاً هما كليتوس وپوتيس ابناً باللاس .

وبعد تبادل التحيات المتعارفة ألقى كيفالوس نص رسالة شعب أثينا الذي ينتظر العون من حلفائه وفقاً للمعاهدة التي وقّعها الأسلاف ، والوقوف في وجه مينوس الذي يعتمد بسط سيطرته على اليونان بأسرها . وحينما انتهى السفير من رسالته ذات المنطق الدال والعبارة البليغة ، أجابه أياكوس وهو قابض بيده اليسرى على صولجانه قائلاً : « يا أهل أثينا لكم ماشتم من عون من غير أن تسألوني إياه ، وليكن كل ما تملك من قوة عسكرية أو ثروة مادية دون تردد ملكاً لكم ، ولا تعوزني هنا الموارد ، كما أن لي من الجند فوق ما أحتاج للدفاع عن بلادى ضد الأعداء ، وشكراً للآلهة على ما أعطيني . وهكذا ترى أنه ليس لي ثمة عذر للتخلّف عن عونكم » . فرد عليه كيفالوس : « ليذم لكم رجاؤكم وليتم مع الزمن ، وكم اغتبطت الغبطة كلها منذ أن وطئت قدمي بلادكم بلقاء هذا العدد الغفير من شبابكم المملوء قوة ووسامة ، غير أني لا أجد هنا الكثير من سعدت بلقائهم في زيارتي الأولى لكم » .

وتهدد أياكوس وبدت في صوته رنة أسي وهو يجيب قائلاً : « لقد عشنا عمّة قاسية قبل أن ننعم بهذا الرخاء الذي تشهده الآن ، وسوف أسرد عليك الأحداث المتلاحقة لهذه المحنة دون أن أضيع وقتك سدى

بالأحداث العارضة . فقد ذهبت المحنة بهؤلاء الشبان الذين تحاول عبثاً أن تلقاهم وهم على هذا لا يمثلون غير جزء ضئيل ممن فقدناهم .

الطاعون في إيجينا

عمّ البلاد طاعون مُهلك أرسلته علينا الإلهة چونو غضباً وحقداً على بلادنا التي تحمل اسم غريميتها^(٤٥) ، ولقد حسبناه بادية ذى بدء وباء عاماً لم ترسله علينا قوى إلهية ، فإذا نحن نقاومه بوسائلنا الطبية غير أن هذه الوسائل لم تلبث أن انهارت أمام تلك المحنة القاسية الضارية .

كانت الساء قد أعتمت في الأيام الأولى وأرسلت ضباباً كثيفاً جثم على الأرض حابساً فيها هواء وبيداً ما لبث أن أتى على نشاط الناس وحيويتهم ، واكتمل البدر مرات أربع وعاد هلالاً مرات أربع ، وريح الجنوب تهب حارة محرقة ، ومياه الينابيع والبحيرات قد تلوّثت بالجراثيم التي نشرتها آلاف الثعابين الزاحفة عبر الحقول الجرداء في الجداول والأنهار ، وأخذ الوباء بضراوته يعاجل الكلاب والطيور والأغنام والثيران والوحوش فبدأت تتساقط ميتة ، وعمّ الأسى المزارعين التعماء وهم يشهدون ثراهم القوية تهوى صرعى وهى تحرث ، وكباشهم الكثيفة الصوف تنن تحت ثقل المرض ويتساقط صوفها وتضمحل أجسادها ثم تنفق ، ولم تعد الجياد تعرف حلقات السباق وقبعت في أماكنها تنن أنين الموت . كذلك لم تعد للخنزير البرى ضراوته ، وفقد الغزال سرعته التي كانت تعينه على الفرار من الوحوش ، وجهدت الدببة عن التصدى لقطعان الماشية إذ غدت أكثر منها ضعفاً ، وتعفنت الجثث في الغابات والحقول والطرق وملاّت رائحتها الكريهة الهواء . والغريب أن الكلاب والذئب والطيور الجارحة قد عافت هذه الجثث فتركتها تتحلل وتنفى مدنسة الأجواء بنتنها ، ناشرة الوباء في الأفاق الفسيحة .

واستفحل خطر الوباء حين انتشر بين الفلاحين البؤساء وسقطت مدينتنا الكبرى فريسة له . وكان يبدأ دائماً بأمعاء ضحاياه فيجعلها تضطرم حرارة تحمر معها جلودهم وتلهث أنفاسهم ، ثم تنتفخ ألسنتهم وتحشوشن ، وتحجف شفاههم وتظل منفرجة تحاول التقاط الأنفاس من الهواء الحار الملوّث . ولم يكن المرضى يطيقون البقاء في الفراش أو يتململون غطاء فكانوا ينبطحون على الأرض طلباً لسطح ندى ، غير أن الأرض كانت ترتد ساخنة عندما تلامسها أجسادهم . وعجز الأطباء عن الكشف على المرضى لتفشى المرض بينهم هم أنفسهم ، بل لقد أصبحت مهنة الطب أقصر الطرق إلى التقاط العدوى ، فكلما كان الطبيب أكثر مخالطة للمريض وتغافياً في رعايته عجل ذلك بإصابته ثم بموته . ودفع اليأس بالمرضى إلى الاستسلام لنزواتهم وإهمال ما كان يمكن أن يكون فيه خيرهم ، فتباعدوا عن العفة والوقار ، وربطوا عند الينابيع والأنهار يجاولون إطفاء ما أصابهم من ظمأ لا يطفئه إلا الموت ، إذ كان بعضهم ينحنون على الماء الجاري ليشربوا منه ، ثم إذا هم أعجز ما يكونون عن أن ينهضوا فيموتون غرقاً في هذا الماء الذى جاءوا إليه ليطفىء حرارة أجسامهم ، وبالرغم من ذلك كان غيرهم يتوافدون بلا انقطاع على المياه . وكان كثير من

هؤلاء البؤساء يضيّقون برقدتهم على الفراش ويزحفون بعيداً عنه ، وكان بين من تخونهم قواهم من يتدحرجون إلى الأرض فراراً من دورهم التي كانوا يخالون أن الموت جائم فيها ، فلقد حسبوا جهلاً أن دورهم الخائفة هي علة مرضهم . وكان ثمة مرضى تغشاهم حالة بين اليقظة والنعوبية يهيمون على وجوههم في الطرقات ما وجدوا القدرة على السير ، بينما كان الآخرون الذين لا يقوون على الحركة ينوحون راكدين محدقين بنظراتهم الزائغة في الأفق ، رافعين أيديهم إلى السماء إلى أن يفاجئهم الموت فيلفظون أنفاسهم وهم على هذه الحال .

٥٨٠

فإذا كنت سائلي عما كنت أشعر به حينذاك ، فلقد كنت أياس ما أكون من الحياة ، وكم تمتيت أن يكون مصيرى مصير شعبي ، إذ كنت حيثما أجلتُ البصر رأيت أجساداً هنا وهناك متناثرة فوق الأرض وكأنها تفاحات يانعة قد اكتمل نضجها فتساقطت من أشجارها ، أو كتشار البلوط المتناثرة تحت شجرتها التي عركتها العاصفة . رأيت هذا المعبد المواجه لنا فوق التلّ والذي نرقى إليه بدرج ؟ إن الذي يسكنه هو جوبيتر . أو تظنّ أنه لم يجد من يُقدّم له القرابين ويُطلق البخور على مذابحه ؟ لقد وجد يقيناً الكثير منهم ، غير أن شيئاً من ذلك لم يُجد نفعاً في كشف الغمة عنا . وكم من أزواج صلّوا من أجل زوجاتهم ، وكم من آباء صلّوا من أجل أبنائهم ، فسقطت زوجاتهم وأبنائهم موقى عند المحارب قبل أن تُسمع دعواتهم وقد أطبقوا أكفهم على أعواد البخور التي كانوا يبعثون إحراقها . كما كانت الثيران التي ساقوها إلى المعابد تنفق قبل أن تُنحر ، بينما كان الكاهن يتلو عليها صلواته ويصبّب النبيذ بين قرونها . وقد حدث حين قلّمتُ أنا قرباناً لجوبيتر عنى وعن بلادى وعن أولادى الثلاثة أن صاح ثور القربان فزعاً وسقط على الأرض ، فلما عملت السكين في حلقة لم تقطر منه سوى قطرات قليلة من الدم ، فلقد أسلم روحه قبل أن يُذبح .

٦٠٠

على أن أحشاء الحيوان التي ماتت بهذا الطاعون لم يوجد فيها ما يكشف عن كنه الواء أو ما يحمل نذيراً من نذر الآلهة . فقد كان هذا المرض المروع يسرى في الجسم حتى يبلغ الأحشاء فيقضى على صاحبها عجباً . وكم رأيت من جثث على عتبات المعبد وأخرى بين يدي المحراب وكأنما أراد ذؤوها بميتهم هذه في تلك الأماكن أن يسترحموا الآلهة ، وقد خلصوا من الحياة بخنقهم أنفسهم بالحبال هرباً من رعب الواء ، فعبجوا مُريدين إلى هذا المصير المحتوم . ولم تكن ثمة طقوس جنازية لأولئك الموقى الذين أتى عليهم الطاعون ، كما لم تُحمل جثثهم لتُدفن خارج المدينة كما هي العادة إذ لم تكن أبواب المدينة تتسع لمروور هذه الجنازات التي لا تُحصى فتركت كثرة من الجثث على وجه الأرض ولم تُوار في مقابر تسترها ، وكذا تراكت جثث أخرى فوق المحرقة دون أن تظفر بطقوس الإحراق ففقدت مناسك الإحراق قُدسيّتها ، وإذا الناس يتدققون بجثث أخرى إلى المحارق ليزاحموا غيرهم عليها . ولم يترك هذا الواء لباك أن يبكى فقيده ، وكم من أطفال وآباء وشباب وشيوخ ولّوا دون أن تُدرف عليهم دمعة ، وضاعت الأرض بموتها فلم يعد ثمة مكان لقبير ما ، كما لم يبق من الأشجار ما يكفي لإيقاد نيران المحارق .

الميرميدون

وأصابني هول الكارثة بالأسى العميق فأدرت وجهي للسما أصيح متضرعاً : « أى چويتر ، إن حقاً ما يقال إنك ضاجعت أُمى إيجينا ابنة أزوپوس ، وإنك تُقرّ أيها الإله القدير ببنوتك من غير حياء ولا خجل ، فأعدّ إلى رعاباي أو فلتمتني معهم » . وإذا أنا أرى وميض برقٍ وأسمع قصف رعدٍ ، فأيقنت أن چويتر استجاب لدعائي ، فانطلق لسانى يقول : « إلهى ، لقد لقت معنى إشارتك التى أرجو أن تكون بشارة خير لى ، ثم أهلا بهذا الوعد الذى وعدتني به » .

ونظرتُ إلى شجرة البلوط القريبة المتفرعة الأغصان التى هى وقفتُ على چويتر والتى هى نبتة من بذرٍ من أجمة دوكونا المقدسة^(٤٦) ، فإذا أنا أرى رتلأ طويلاً من النمل فى أفواهه ذرات وهو يسير بها فى شقّ من تجاميد جذع الشجرة ، فتأملتُ مُعجَباً أعداده الغفيرة واتجهتُ إلى الإله داعياً : « يا أجلّ إله ، هب لى عدد هذا النمل أناساً يملأون بلادى الخاوية » ، فإذا شجرة البلوط تُرعدُ وإذا فروعها تتهايل ولا وجود لريح عابرة . ومع أننى كنتُ أُرعدُ خوفاً وتأثراً انتصب معها شعر رأسى هُرعتُ لألثم الأرض والشجرة بقبلاى وقد امتلأت نفسى آمالاً كتمتها فى أعماقى دون أن أبوح بها لغيرى .

وأرخبى الليل سدوله واستسلمنا للنوم تحت وطأة الهموم ، ورأيتُ فى منامى شجرة البلوط بفروعها وأعداد النمل الغفيرة عليها وهى تهتزُّ هزتها التى رأيتها فى اليقظة ، وجموع النمل تتساقط منها حاملة اللدات منتشرة بها وسط الحقول . وعلى حين بغتة بدأت تبرز من الأرض مخلوقات صغيرة أخذت تكبرُ ثم تكبرُ حتى انتصبت وقد اختفت سيقانها الدقيقة وألوانها الداكنة ، فإذا هى على صورة البشر . وعندها زايل النوم جفونى حتى إذا عاودتنى اليقظة إذا الحلم هباء لا حقيقة له ، فعزّ على ما حرمتنى إياه الآلهة . غير أن جلبة مُدوية فى أنحاء قصرى لفتت سمعى ، وحُيِّلَ إلى أننى أستمع إلى أصوات بشرية ما أطول حرمانى من الاستماع إليها ، ورجلتُ أن هذا لم يكن غير بقية من آثار النوم ، وإذا تيلامون يدفع على باب حجرى ومخبطو نحوى قائلاً : « هلّم يا أبى فسوف تشهد شيئاً فوق الآمال والخيال » . وخرجتُ فإذا أنا أرى الرجال أنفسهم الذين رأيتهم فى منامى فى صفوفهم نفسها التى كانوا فيها ، فأبستُ بهم وإذا هم يُقبلون علىّ ويُحيوننى تحيةً المليك . عندئذُ وقيتُ ندرى لچويتر ، وفرقتُ دور المدينة وحقول الريف التى مات أصحابها بين أفراد هذا الشعب الجديد الذين سميتهم باسم الميرميدون^(٤٧) حتى يبقى ذكر الأصل الذى منه نبتوا مرتبطاً بالاسم الذى غَدوا يحملونه ، ولقد رأيتهم أنت رؤية العين ؛ غير أنهم ظلّوا يحتفظون بطبعهم فهم لا يزالون يُحسِنون الاقتصاد والتدبير ، ولا يُقعدهم الجهد ، ويحرصون على ما يقتنون ، ويختزنون ما يجمعون ، ولسوف يكون لك منهم فى الحرب جنود يتهاثلون سنّاً وشجاعة حلماً تسكن ريح الشرق التى جاءت بك هنا لحيرنا [وكانت ريح الشرق هى التى جاءت به فعلاً] فينفسح المجال لريح الجنوب » .

كيفالوس وپروكريس

مضى النهار الطويل في رواية القصص ، وشهدت ساعاته الأخيرة إقامة المآذب ، وأتى المساء فحملهم إلى النوم . وكانت الرياح الشرقية ما تزال تهبّ حينما أشرقت الشمس بأشعتها الذهبية ، وكانت السفن ما تزال راسية في الميناء رغم الحنين العاصف إلى العودة ، فمضى ابناً باللاس في رفقة كيفالوس للقاء الملك الذى كان نائماً بينما كان الأميران تيلامون وپيلبوس منشغلين في تعبئة الجند للمحرب ، فقام فوكوس الابن الثالث للملك أياكوس باستقبال سفراء أثينا عند مدخل القصر ومضى بهم إلى أحد أبياته الجميلة ، وقد لمح في يد كيفالوس حفيد أبولوس رجحاً من خشب مجهول نوعه صيغ له سنّ من الذهب فقال له متسائلاً : « إن اهتامي بالغابات وبالصيد كبير ، ولذلك فقد أثار عجبى ذلك الخشب الذى نحت منه رمحك ، لأنه ليس من خشب البلوط وإلاّ كان أصفر ، كما أنه ليس من خشب القرانيا وإلاّ كان ذا عُقْدٍ كثيرة ، إنى لا أدرى من أية شجرة هذا الرمح ، ومع هذا فإن عيني لم تقع على أجل منه » ، فأجاب أحد السفراء قائلاً : « لسوف يثير إعجابك أداؤه أكثر مما يثير إعجابك شكله ، فهو لا يخطيء هدفه ولا تحرف به المصادفات عن وجهته متى انطلق ، كما أنه يرتد من تلقاء نفسه إلى مُرسله ملوّثاً بدم ضحيته دون أن يعيده أحد » . وتتابع أسئلة فوكوس سليل نيربوس عن الرمح ومصدره ومن أعطاه لكيفالوس . وأجاب كيفالوس على أسئلة الأمير ، غير أنه لم يفصح بشيء عن الثمن الباهظ الذى دفعه لحيازة هذا الرمح خجلاً وندماً . وبينما بدأت الكلمات تنساب من شفثيه اعتصرت قلبه ذكرى زوجته التى فقدها واغرورقت عيناه بالدموع وقال :

« من يصدّق يا فوكوس يا ابن الإلهة أن هذا الرمح هو الذى يُدرّ اليوم عينيّ بالدمع كما سوف يُدرّهما بالدمع على مدى الأيام إن طال بي العمر ، وكم تمنيت لو لم أملك هذا الرمح أبداً لأنه هو الذى قضى على زوجتى بالموت وقضى علىّ أن أعيش مهتماً .

لعلك سمعت عن أورثيا الأميرة التى اختطفت من أثينا ، إنها أخت زوجتى پروكريس^(٤٨) ، ولو أنك قارنت إحداهما بالأخرى جمالاً وخُلُقاً لرأيت أن پروكريس كانت أولى بأن تُختطف من أختها ، وقد زوجنى منها أبوها إيرينثيوس ، وكانت عطاء الحب لى حتى نعتنى الناس بالسعيد . وقد كنت سعيداً حقاً ، ولولا إرادة الألهة لبقيت سعيداً طول العمر^(٤٩) . ومع نهاية الشهر الثانى على حفل قراننا ، كنت أنصب شباكى صباحاً يوم لأصيد الوعول ذات القرون فلمحتنى أورورا ربّة الفجر التى كان نورها الزعفرانى قد قشع الظلمة فاستولت على لُبّى على الرغم منى . وكم أتمنى أن يؤذّن لى فأقول الحقيقة دون أن أغضب هذه الإلهة . حقاً ، لقد كانت ربّة الحدّ الفاصل بين الليل والنهار وخلّابة الحسن وريدة الشفثين ، غذاؤها جرععات النكتار شراب الألهة ، غير أنى كنت أعشق پروكريس التى كانت تحيا فى قلبى ولا ينطق فمى بغير اسمها ، فذكرتها بمواثيق الزوجية وبزفافنا الحديث العهد وضّمات عناقتنا ولقاءاتنا فى عُش الزوجية الذى

غادرته منذ لحظات ، فإذا الإلهة تمتلئ حقدًا وتقول : « كُفَّ عن هذا التَّوَلُّهْ أيها الناكر للجميل ، واحفظ عليك زوجتك . وإذا قُدِّر لي أن أرى المستقبل جليًّا فإنك سوف تكون من النادمين إن أبقيت عليها » ، وصرفتني غاضبة لأرجع إلى زوجتي . وأخذت خلال عودتي أستعيد حديث الإلهة ، وبدأت الحشوية تراود نفسي ألا تكون زوجتي أمينة على رباط الزوجية ، وكان جمالها وشبهها يدفعاني إلى الشك في إخلاصها لي بينما كانت فضائلها تردني عن هذا الشك . ثم إنني كنت عائدًا من عند إلهة زينت لي لونًا من ألوان الحيانة ، كما أننا نحن العشاق نرتاب في كل شيء عندما نعشق . وهكذا عزمْتُ على أن أختبر تلك التي كانت سبب هُمِّي ، وأن أحاول اختبار إخلاصها وعقمتها بإغرائها بالهدايا . وضاعفت « أورورا » شكوكي ، فغيَّرت ملامح وجهي فشعرت أنني تحولت من حال إلى حال .

دخلتُ أثينا مدينة باللاس في صورة لا يعرفني معها أحد ، وولفت إلى بيتي فوجدت كل ما فيه ينطق بالطهارة والعفة وحُزن صاحبة الدار على غيبة زوجها . وبعد محاولات عدَّة نجحت في أن أحظى بمقابلة بروكريس فلما رأيتها اهتزت نفسي وكدتُ أعرض عن اختبار إخلاصها ، ولم أستطع إلا بصعوبة منع نفسي من أن أعانقها كما كان ينبغي أن أفعل . كانت حزينة ، غير أنها رغم حزنها كانت أجمل من أي امرأة سواها فقد كان الأسى على عباد زوجها يُثقل على قلبها . ولك أن تتخيَّل يا فوكوس كيف كان سحرها والحزن يُضفي عليها فتنة طاغية . هل أقص عليك كم من المرات صمدتُ طهرها أمام محاولاتي ، وكم من المرات قالت لي : « إنني أصون نفسي لرجل واحد حيثما كان ، وإنني لا أشركُ سواه في المتعة بي » ، فأى رجل عاقل لا يقنع بهذا السلوك دليلاً على إخلاصها ؟ لكنني لم أقنع وجاهدت كي أطعن نفسي بنفسي . وانتهى الأمر بأن هَوَّنت من صمودها بعد أن ضاعفتُ عطايي لها ووعدتها بثروة طائلة لقاء قضاء ليلة معها .

وعندها صرختُ في وجهها : « ما أسوأ حظك ، فليس هذا الذي يدعى العشق بين يديك غير زوجك . فمعي الآن البرهان على خيانتك » . وإذ طَوَّفها العار لم تنبس ببنت شفة وولَّت فارةً من زوجها المداهن وقد علاها الحجل ، تاركة الدار التي نصب زوجها لها فيها هذا الشرك . ومن أجل فعلتي نَبَذْتُ الرجال جميعاً ، وانبرت هائمة على وجهها في الجبال مكرسةً نفسها لخدمة ديانا إلهة الصيد .

واشتعل حبي لها بعد أن تركتني بنار أشدَّ ضراوة مما كنت أحسها قبلاً ، ورُحْتُ أتوسَّل إليها أن تغفر لي ، واعترفت لها بخطئي وبأن تلك الهدايا لو قُدِّمت لي لتردَّيتُ في الخطأ نفسه ، وبعد هذا الاعتراف مني وبعد أن انتقمت للإهانة التي طعنْتُ بها شرفها قبلت أن تعود إليَّ فأمضينا معاً سنوات هائلة كنا فيها على خير وفاق . وكأنا لم تكف بالهدية التي منحتني إياها بعودتها إليَّ ، فقدَّمت لي كلباً كانت قد تلقَّته من الإلهة التي وضعت نفسها في خدمتها قائلة لها : « إنه يسبق جميع الكلاب الأخرى » ، كما أعطتني في الوقت نفسه هذا الرُّمَح الذي تراه الآن بين يدي . وإنك لا شك راغب في أن تعرف مآل هذه الهدية الثانية ، ولسوف يغلبك العجب حين تستمع إلى قصته الغربية :

نجح أوديب بن لاويوس في أن يفسر الأحاجي التي لم تبلغ كنهها العقول الأخرى ، وألقت سفنكس تلك العرافة الغامضة بنفسها من الجُرف فخدمت ميَّته بالغازها وأحاجيها . ولا شك أن الإلهة المنصفة

نيميس لم تكن لتقبل أن تترك هذه الخطايا دون جزاء^(٥٠) ، فأرسلت في التّوباء ثانياً إلى أيونيا جثم على مدينة طيبة في صورة وحش أثار الرعب بين سكان الريف خوفاً على أنفسهم وعلى قطعان ماشيتهم . فذهبت مع شباب البلاد المجاورة ونصبنا شباكنا حول السهل الفسيح ، غير أن الوحش تحطّأها بقفزة سريعة خفيفة وأفلت من حبال الشراك التي كنا قد شددناها . فأطلقنا خلفه مجموعات من الكلاب التي أفلت الوحش منها في سرعة الطير ، فصاح بي الجميع أن أطلق كلبى « لايلابس » وهو الكلب الذى أهدته لى زوجتى بينما كان يجاهد محاولاً الإفلات من السلسلة المشدودة فوق عنقه ، ولم أكد أطلق سراحه حتى اختفى عن عيوننا فلم نعد نعلم مكانه . كان الغبار المثار يدلّ على آثار خطاه ولكنه اختفى عن عيوننا ، ولم يكن الريح بأسرع منه ، ولا القذيفة المطلقة من مقلاع يتأرجح في الهواء ، ولا السهم النحيل المنبعث من قوس كرىتى .

وكان ثمة تلّ يُشرف على الحقول المحيطة فتسلّقتّه وتطلّعت من فوقه إلى مشهد سباق فريد ، فكان يُخيّل لى أحياناً أن الوحش قد سقط بين فكّى الكلب وأحياناً أنه أفلت من بين فكّيه . وكان الوحش بهائه لا يمضى عبر السهل على طريق مستقيم بل يميل مرّةً يميناً ومرّةً يسرة حتى يندفع حطّم الكلب الذى كان يتشمّم خطاه ، ثم ينثنى راجعاً ، يدور دورةً ودورةً ليُضلّ من يطارده وتضطرب معه سرعة هذا المطارد . ومع هذا اقترب منه الكلب مجارياً إياه في سرعة العَدُوّ ويبدو وكأنه قد أمسك به ، غير أن فكّيه لا ينطبقان على غير الهواء . وبادرت لى رنجى وحين أحكمت قبضتى عليه لأحسن تسديده حانت منى التفاتة ما كدتُ بعدها أعود بعينى إلى حيث تتعاقب الحيوانات حتى عرتنى الدهشة . ذلك أنى لم أعد أرى فى السهل غير تمثالين من الرخام يبدو أحدهما وكأنه يحاول الهرب من الآخر بينما يبدو ثانيهما وكأنه على وشك اقتراس خصمه ، ويقىناً لو أن إلهاً كان يرقبهما ، ما ودّ أن يكتب لأحدهما الخروج من هذا الصراع مهزوماً .

وأمسك كيفالوس عن الكلام ، فسأله فوكوس قائلاً : « ولكن بم تعيب هذا الرّمح ؟ » فأجبل كيفالوس إثم هذا الرّمح بقوله : « كانت سعادق يا فوكوس هى مصدر أساى ، ولأحدثك عنها أولاً . وكم يطيب لى يا ابن أياكوس أن أذكر أيام سعادق ، فقى السنوات الأولى لزواجى كنت سعيداً بزواجى ، وكانت هى سعيدة بى ، كان كلانا يجب الآخر حتى ما كانت تؤثّر على الزواج منى الزوج من چوپيتر ، وما كنت لأقع فى غرام امرأة أخرى ولو كانت فينوس نفسها . لقد كنا قلين يضطربان بنار واحدة ، وكنت أخرج كل صباح إلى الغابة للصيد فى حماسة الشباب مع الخيوط الأولى للشمس المتسلّلة إلى قم التلال ، ولم أكن أحب أن اصطحب معى خدماً ولا خيلاً ولا كلاباً قوية الشّم ولا شباكاً محكمة الوثاق . كان رنجى هو كل عدّتى ، حتى إذا كلّت كفى من سفك دم الحيوان الوحشى رحت أتلمس الظلال الرّخيّة والأنسام النديّة التى تتصاعد من أعماق الوادى القارص البرودة . كنت أسعى وراء هذه الأنسام الرّخيّة وسط حرّ النهار متلهفاً إلى أن تخلصنى من الإرهاق . وكان من عادق أن أسترسل فى الغناء ، وأذكر أنى كنت أردّد : « أقبل أيتها الأنسام وامنحنى السعادة ، انفذى لى صدرى أيتها الساحرة ، واطفى كى عودتى تلك النار التى



بيكاسو : كيفالوس وپروكريس

٨٢٠ تلتهمني . وربما كنت أردد كلمات حانية أخرى أملاها على قدرى فأتزئم قائلاً : « أنت نشوق الكبرى ، تملثيني حياة بلمساتك وتحركين في حب العزلة والغابات ، إن فمي أظمأ ما يكون للارتواء من أنفاسك » . ولقد وقعت هذه الكلمات الغامضة في أذن من أساء فهمها فتصوّر أن كلمة « أنسام » التي أرددها هي اسم إحدى الحوريات وظن أني أهيّم بها غراماً . وقد تعجّل هذا الواشي الأحمق وذهب للقاء پروكريس وأسر إليها بما سمعه وأفضى إليها بهذه الخيانة الموهومة . ولما كان المحبّ يُلبله أذن شك ، فقد سقطت زوجتي مغشياً عليها صريعة هذا الخبر المفاجيء المزعوم حتى إذا أفاقَت أخذت تندب حظها التعس وظلم القدر وخيانتني لها . وأثارها هذا الاتهام الكاذب وبدأت تحشى شيئاً لا وجود له ، وتخاف اسماً ليس ثمة أنثى تحمله ، وأخذت البائسة تنتحب كما لو كانت لها غريمه حقيقية ، ومع ذلك فقد كانت تشكّ في صدق هذه

الوشاية ، وكانت تتمنى في مأساتها أن يبطل هذا الاتهام ، وترفض أن تصدق الواشى إلا إذا رأت خطيئة زوجها بعينها ، وإلا فلن تُدينه .

وفي صباح اليوم التالى حين بدد الفجر ظلمة الليل خرجت متوجهة إلى الغابة ، حتى إذا انتهت من الصيد اضطجعت على العشب وأخذت أردد منشداً : « تعالى يا أنسام ، أقبلى وخلصينى من الإرهاق » ، وخيل إلى فجأة أنني أستمع إلى أنات تردد كالصدى فى إثر كلماتى ، فواصلت غنائى : « تعالى يا مهجة قلبى » . وسمعت خفيف أوراق تسقط فظننت أن وحشاً يُقبل ، وأطلقت رعى السريع فإذا هى پروكريس وقد أصابها الرمح فى صدرها تصيح « وامصيتها ! » . وتبينت فى عسر صوت زوجتى الوفية فهولت إلى المكان الذى انطلق منه صوتها ، ووجدت پروكريس بين الحياة والموت وقد تلطخت ثيابها الممزقة بدمها ، وهى تنتزع من جرحها الرمح الذى كانت قد أهدته إلى ، وهملت بين ذراعى فى رفق ذلك الجسد الذى أعزّه أكثر مما أعزّ جسدى ، وضمّدت جرحها العميق بقطعة انتزعتها من ثوبى ، وجهدت فى حبس الدم حتى لا يتدفق ، واستحلفتها ألا تموت وتتركنى أعانى بعدها من جريمة قتلها ، غير أن قواها ما لبثت أن خانتها . وكانت فى احتضارها تعانى لتفصح عما فى صدرها من غير إكثار وهى تقول : « أستحلفك بحق رباط الزوجية الذى جمع بيننا ، بحق آلهة السماء وآلهة الأرض الذين أصبحت الآن بين أيديهم ، أستحلفك بحق ما أسبغت على من حنانك ، وبحق حبنى لك الذى لم يضعف حتى فى اللحظة التى أسلم فيها الروح ، والذى كان سبب موتى ألا تسمح « للأنسام » أن تغدو لك زوجة بعدي ، فتأخذ مكانى فى فراشنا » . حينئذ أدركت أن هذا الاسم هو الذى جرّها إلى ذلك الخطأ فكشفت لها عن الحقيقة غير أن ذلك لم يُجد نفعاً ، فغابت عن رشدها وأخذ ما بقى من قواها ينساب مع بقايا دمه ، وظلت عملاقة فى ، ثم ضمّت صدرى إلى صدرها وأسلمت على شفقتى روحها البائسة ، إلا أن قسايتها كانت تشح بسكينة تشى بانفلات روحها واثقة من إخلاصى لها .

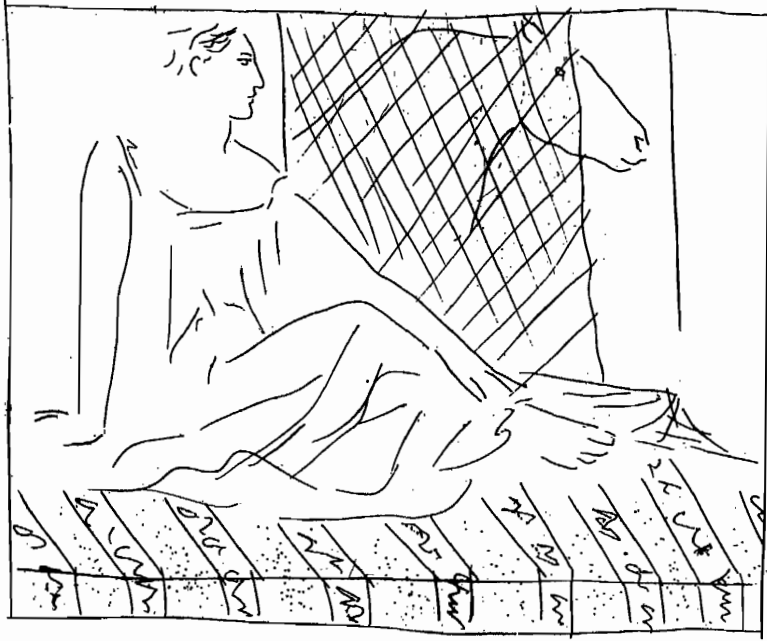
وانحدرت دموع الشبان جارية حين استمعوا إلى قصة هذا البطل الذى كان دمه يسيل هو الآخر ، وساعتها رأوا أياكوس مقبلاً فى صحبة ولديه الآخرين فى مجموعة من الجند الجدد المدججين بأقوى الأسلحة والذين استقبلهم كيفالوس ليمضى بهم .

التعقيبات

- (١) المينياديون [أبناء سلالة مينيادس] هم أهل أرجوس ، أطلق عليهم هذا الاسم نسبة إلى مينيادس جدّهم لأهمهم . وقد أطلق هذا الاسم على جاسون نفسه لأنه كان حفيد مينيادس عن طريق أمه الكيميديه . وكانت باجاساي بلداً في خليج باجاساي جنوب نيساليا على مقربة من مدينة بولكوس عاصمة مملكة أيسون والد جاسون .
- (٢) كان فينيوس ملك طراقيا قد فغا أمين ابنه عقاباً لها على تهمة كاذبة ألصقتها بها زوجته ، ففضى الألة أن يصبح فينيوس كفيفاً ، كما حكموا عليه أن تعذبته المارييس – وهي طيور ذات روعس نساء بشرية – بعرض الطعام عليه ثم إبعاده عن قومه حينما يقبل على التهامه .
- (٣) ينحدر نهر فاسيس من القوقاز ويرى كوخليس وهي جورجيا الحالية ، ويصب النهر في شرق البحر الأسود .
- (٤) الفروة الذهبية هي فروة الكيش الذي حمل فريكسوس وشقيقته هيل عبر البحر [انظر الكتاب السادس] ، وكانت هيل قد سقطت في مضيق الدردنيل الذي أضفت عليه اسمها . وأدرك فريكسوس كوخليس وحله حيث قدم الكيش قرباناً للإله أريس [مارس] .
- (٥) كان على بحارة الأرجو أن يتجنبوا مصخراً تطفو على سطح الماء عند مدخل البحر الأسود تسمى السميليغاديس ، كانت تلتصق بالسفن وتبوي بها إلى قاع البحر .
- (٦) أي هيكتا إحدى ربان القمر والعالم السفلى في آن واحد ، راعية الساحرات ومفترقات الطرق التي تبث الذعر في نفوس المسافرين ليلاً . وكانت تمثل على شكل ثلاثة أشخاص واقفة ظهراً إلى ظهر تمثل الحلات الثلاث المتوالية للقمر ، أي الهلال ثم البدر ثم المحاق ، لهذا اشتهرت هيكتا بالبقظة لأنها تستطيع الرؤية في اتجاهات ثلاثة في الوقت نفسه .
- (٧) هو آيتيس والد ميديا وابن الشمس .
- (٨) البيلاجيون اسم أول قبائل عاشت في اليونان القديمة ، وأصبحت هذه التسمية تطلق فيما بعد على اليونانيين عامة .
- (٩) ليست قصة الاستيلاء على الفروة الذهبية هنا إلا توطئه لسرد أعمال ميديا السحرية ، وهو ما جعل أوغويد يطرح جانباً قصة ملاحى الأرجو .
- (١٠) سبق أن ذكرنا أنه شاع بين اليونانيين القدماء أن مصدر خسوف القمر هو محاولات الساحرات التحكم فيه ، وأن إبطال فعل السحر يتم عن طريق قرع الصنوج البرونزية . أما نسبة الصنوج إلى مدينة تيميسا فليس مؤكداً ، وقد يكون المقصود هو مدينة تاموسوس في قبرص ، وهي مستعمرة فينيقية قديمة تجاورها سناجم النحل .
- (١١) أو إله الشمس أبو آيتيس .
- (١٢) هذه الجبال هي التي تكتنف سهول نيساليا .
- (١٣) ذكرت كافة هذه الأنهار في الكتاب الأول . أما بويى فهي بحيرة في نيساليا عند سفح جبل بيليون .

- (١٤) سترد هذه القصة تفصيلاً في الكتاب الثالث عشر .
- (١٥) ربة الشباب وهي جوقتا عند الرومان ، وتقابل هيمي عند الإغريق .
- (١٦) مسخت حوريات البحر كيرامبوس جمراناً لمحاولة هتك عرضهن وخلفته فوق جبل پارناسوس
- (١٧) في آسيا الصغرى .
- (١٨) يعنى أوفيد شواطئ جزيرة ليسبوس ، وهو يورد هذه القصة بالتفصيل في الكتاب الحادى عشر .
- (١٩) المقصود هنا جبل إيدا في فريجيا .
- (٢٠) كان رعاة البقر يطاردون ثيونوس بن باكخوس لأنه كان قد سرق منهم عاجلاً فحوّله أبوه إلى شكل صياد حتى لا يتعرفوا عليه . وفي الوقت نفسه حول العجل إلى وعل .
- (٢١) المقصود هنا مدن مملكة طروادة فقد كان والد كورينوس هو باريس بن بريام .
- (٢٢) مايرا لقب مشتق من كلمة يونانية معناها الكلبة ، وهي إشارة إلى هيوكوا التي تحولت إلى كلبة بعد مصرع أبنائها [انظر الكتاب الثالث عشر] .
- (٢٣) مسخت چونو سيدات كوس بقرات بعد أن قتل هرقل يوريبيلوس بن نبتون .
- (٢٤) كان أهل رودس يسمون التلخينيين نسبة إلى تلخينيا وهو لقب من القاب چونو . أما باليسوس فكانت مدينة في شمال جزيرة رودس يقال إن أهلها كانوا مهرة في تشكيل المعادن وفي السحر أيضاً .
- (٢٥) السيداماس هو أحد مواطني كارتايا وهي مدينة بجنوب جزيرة كوس في بحر إيجه ، وكانت إيشة كتيبيلا قد تحولت إلى يمامة لأن أباهما خطبها إلى رجل آخر غير الذى وعده بخطبتها من قبل .
- (٢٦) ليس المقصود هنا وادى نغمي المشهور وإنما إقليم في بويتيا . أما سيجنوس المذكور هنا فهو غير سيجنوس الوارد في الكتاب الثانى وغير ابن يوزيدون [نبتون] الواردة قصته في الكتاب الثانى عشر .
- (٢٧) فيليوس شاب بويونى كان يعشق سيجنوس بن هريه عشقاً محرماً ، وقد ازدري سيجنوس هذه العلاقة قائلاً لفيليوس أنه لو أراد الفوز بعطفه فعليه أن يفتك بأسد ضخم وأن يقتصص نسرين كبيرين على قيد الحياة وأن يقدم لجويتر قرباناً ثوراً برياً كان ينشر الرعب في الريف كله . واستطاع فيليوس تحقيق ذلك كله بالحيلة وبصائح هرقل ، الأمر الذى جعله ينسى عشقه لسيجنوس .
- (٢٨) بليورون مدينة في جنوب إيتوليا .
- (٢٩) كومي إينة أوفيووس هي أول من ابتكر الدرع النحاسى . وقد تأمر أبناؤها على قتلها فمسختها الآلهة طيراً كى تنجو من هذا المصير .
- (٣٠) تواجه جزيرة كالاوريا شواطئ أرجوس ، وقد اشتهرت لانتحار ديموسينييس فيها بالسم ، ولا يرد تحول ملك كالاوريا وملكتها إلى طائرين إلا في نص أوفيد .
- (٣١) ليتو أم أبوللو وديانا .
- (٣٢) كان يوميولوس قد قتل ابنه بوتريس في ساعة غضب فحوله أبوللو إلى طائر عقاباً له .
- (٣٣) أصل هذه الأسطورة مجهول تماماً .
- (٣٤) كان بيريفاس ملكاً في أتيا قبل كيكرويس واشتهر بالعدالة ، وعبدته القوم مثلاً كانوا يعبدون زيوس [جويتر] الذى نعم عليه إثر ذلك فحوّله إلى نسر صار منذ ذلك ملحقاً بشخص أبوللو ، أما زوجته فىنى فقد مسخها عقاباً بحريا .
- (٣٥) الكيوني هي إينة الفرصان سكيرون دفعها أبوها في الماء فحوها الآلهة إلى طير القارند .
- (٣٦) يمر أوفيد بسرعة غير متوقعة على ختام أسطورة ميديا التى انتقمت من جاسون بعد أن تركها من أجل كريوسا بنت كريون ملك كورنثه بأن أرسلت إلى العروس الجدينة وشاحاً وتاجاً مغموسين في السم ، ثم أشعلت النار في القصر وذبحت أولادها من جاسون وهربت . وهذا هو موضوع مأساة ميديا عند أوريبيديس وعند سنيكا ، بل وعند أوفيد نفسه ا
- (٣٧) تروى الأسطورة أن هذا الثور هو نفسه الذى قبض عليه هرقل ثم ساقه إلى يوسيثيا حيث عقته . ويقال إن الثور قد عبر برزخ كورنثه وبلغ أتيا وأخذ يثير الرعب بين الناس . وجاء تيسيبوس فرؤسه وقادة إلى أتينا ثم قدمه قرباناً إلى الإله أبوللو في دلفى .

- (٣٨) كانت أنثى الخنزير البرى تثير الرعب بين أهل كروميون الواقعة إلى جوار كورنث . وكانت هذه الخنزيرة حيواناً خرافياً ولدت من تفون وإخيدنا واستطاع ثيسوس أن يقضى عليها .
- (٣٩) كان بيريفيتيس بن فولكانوس [هيفايستوس] يقرع كل من يمرّ به بهراوته النحاسية الضخمة ، واستطاع ثيسوس أن يتغلب عليه ويسلبه سلاحه الرهيب .
- (٤٠) كان اللص يروكروستيس يصيد المسافرين المارين بمدينة إليوسيس ويرغمهم على الاستلقاء فوق أريكته ويشد أطرافهم ثم يبيت من أجسامهم ما يجعلها تطابق حجم الأريكة . وقد تغلب عليه ثيسوس وأرغمه على معاناة نفس العذاب الذى كان يذيقه الآخرين .
- (٤١) كان سيرميون بن نيتون يتحدى المارة باليوسيس إلى المصارعة فيقضى عليهم ، وقد صارع ثيسوس وسحقه فى الأرض .
- (٤٢) الكاثوى اسم قديم لميجارا مشتق من اسم أحد ملوكها الذى يدعى الكاثوس ، وتروى الأساطير أن أحد ملوك الكاثوى القدامى كان ليلاكس الذى وقد عليها من مصر . ويسمى شعب هذه المنطقة بالليليجين نسبة إلى ليلاكس .
- (٤٣) « مينوس » لقب يطلق على الشخصية الملكية فى كريت لا على شخص بذاته ، مثل كلمة « فرعون » المصرية . فمنذ فجر التاريخ القديم كان ثمة تمايز بين شخصين يحملان اسم مينوس أحدهما هو ابن أوروبا الأسطورى والآخر حفيده زوج پاسيفاي وعاهل دولة البحار ، غير أن أغلب الشعراء يخلطون بينهما . أما الحضارة المعروفة بالينوية فقد ازدهرت فى كريت إبان النصف الأول من الألف الثانى قبل المسيح . ومن آثارها المشهورة ما اكتشف فى كنوسوس وماليا على الشاطئ الشمالى وفيستوس فى جنوب الجزيرة . وامتد سلطان كريت حتى مدن أرجوس وفى كافة جزر الأرخيل .
- (٤٤) لم تذكر قصة آرئ إلا فى هذا النص .
- (٤٥) أطلق أياكوس بن إيجينا وزيوس اسم أمه إيجينا على جزيرة أوينوبيا .
- (٤٦) كانت دونونا فى إيروس بشمال اليونان تزهر بأهم معابد زيوس فى كافة أنحاء اليونان ، وكان التعبير عن الإرادة الإلهية فيها يتم عن طريق حفيف أوراق شجر البلوط المقدس .
- (٤٧) تعنى كلمة ميرميس المشتقة منها كلمة « ميرميدون » باليونانية « النملة » .
- (٤٨) انظر الكتاب السادس .
- (٤٩) كانت فكرة غيرة الألهة من سعادة البشر المرطمة مألوفة عند القدامى ، وكانت نيميسيس ربة الانتقام الإلهى تعاقب كل من يزهر من البشر بسعاده ويختال . وقد أعطى أوفايد مثلاً لهذا الانتقام فى قصة نيوبي بالكتاب السادس .
- (٥٠) لا يوجد هذا البيت فى الكثير من مخطوطات كتاب أوفايد ويعتبر دخيلاً على النص ولا تبدو له أية صلة سواء بما سبقه أو بما لحقه .



بيكاسو : باسيفاي والنور

الكتاب الثامن

مينوس وسكيللا

كانت نجمة الصُّبح قد أرسلت نور النهار وبددت ظلمات الليل حين حمدت ريح الشرق وتجمعت الغيوم في السماء ، ونشرت ريح الجنوب الحانية الشراع ليعود كيفالوس بصحبة أبناء أياكوس وأخذت تدفعهم إلى الشاطئ المأمول فبلغوه أسرع مما كانوا يأملون . عندها كان مينوس يغزو شواطئ ميجارا ويختبر قوة جيوشه المحاربة ضد مدينة الكائوس التي كان يحكمها الملك نيسوس الوقور ذو الشعر الأشيب تتخلله على جانبي مفرق الرأس خصلة من شعرات أرجوانية اللون متألقة يستمد منها قوته العاتية .

وتراعى الهلال الوليد بقرنيه ست مرات متتالية دون أن يحسم مصير الحرب ، وكان الطرفان يتنازعا النصر منذ أمد طال ، وكان الملك قد أضاف بُرجاً إلى أسوار المدينة الشادية ، ويُقال إن أبوللو بن لاتوقد أودع قيثارته الذهبية به ، فأخذت أحجار هذه الأسوار عنها أنغامها وحذقتها . وما أكثر ما كانت ابنة الملك نيسوس تصعد في البرج خلال العصر الذى ساد السلام فتلهو برمي الأسوار بحصوات صغيرة فإذا الأسوار تنطلق شادية بالأنغام . وكذا في أوقات الحرب لم تتخلف عن أن تصعد في البرج لتُشرف على معارك مارس الرهيب . وقد أتاحت لها تلك الفترة الطويلة التي امتدت فيها الحرب التعرف على أسماء القادة ومالهم من شبكة وسلاح ، وما يمتطون من جياد ، وما يحملون من جعبات لسهامهم الكريية الصُنع ، كما تبيّنت قسرات وجوه الجنود ، وكان أكثر ما تبيّنت قسرات وجه مينوس بن أوربا قاتدهم الأعلى ، بل لقد استشفت ما وراء تلك القسرات . فكان مينوس في نظرها وسياً حين يعتمر بحوذته البرونزية المُزدانة بحزمة من الريش ، ومهيأ حين يرتدى ترسه الذهبى التالق . وكان إذا رمى بذراعه المفتول العضلات رحمة اللذن أعجبت بمهارة البطل وقوته ، وحين كان يُثني قوسه الممتدة وهو يُسيء السهم على الوتر إذا هي تُقسم أنه أشبه بأبوللو عندما يتهايم لرمي سهامه . وحين كان يخلع خوذته البرونزية ويكشف عن وجهه وهو في رداة الأرجوانى ممتطياً جواده الأبيض المزدان بسرج زاهى الألوان وقد أحكم لجام مطيته ، إذا ابنة نيسوس تخرج عن رزانتها . وكما كانت تغبط الرُمح السعيد الذى يُمسك به ، وكذا جدائل اللجام التى حظيت بإمساكه بها ، وكما هاجت رغبة في أن تنزل في حومة الوغى بين صفوف الأعداء على الرغم من أنها لاتزال فتاة غضة العود ، وكما تمتت لو قذفت بنفسها من البرج إلى حيث معسكر مينوس ، كما تمتت لو قُدر لها أن تفتح أبواب المدينة البرونزية لتُتيح لجيوش الأعداء الدخول ، أو لو كان في قدرتها أن تحقق رغبة ما لمينوس .

وكانت وهى في مكانها الذى تجلس فيه من البرج تستطيع أن ترى خيام الملك الكريية الناصعة البياض ، وإذا هى تُناجى نفسها قائلة : « لست أدري أفرحة أنا أم حزينة لهذه الحرب المشثومة التى تدور رحاها . ثم كم أنا حزينة إذ جعلت هذه الحرب من مينوس عدواً لى ، ولكنى مع هذا فرحة إذ لولا هذه الحرب ما قُدر لى أن أراه . وهل لمينوس أن يضع السلاح على أن يأخذنى رهينة بين يديه فأحظى برفقته لقاء السلام ؟ فلا عجب أن تكون أمك يا أجهل الملوك التى أشعلت نار الحب في فؤاد أبيك الإله صورة منك . وقد أنعم مرّات ثلاثاً إذا قُدر لى أن أخلق في الأجواء بجناحين فأملك أن أهبط في معسكر مينوس لأكشف له عن حقيقتى وعن وهى به ، وأنا عندها على أهبة بأن أجزية ثمن حبه إياى إلا أن يكون هذا الجزاء التفريط فى قلعة وطنى . فليحترق عُش الزوجية الذى أحلم به ، فلن يكون ثمن سعادتى خيانتى لقومى . وكما بمن كُتب لهم النصر فى ساحة القتال من رزقوا الخير فأحسن المنهزمون لتساعدهم أنهم هم الغائون . ولقد كان مينوس عادلاً فى حربه ، فما تلك الحرب التى شنها إلا ليثأر لابنه الذى قُتل غيلة ، وقد زاده الهدف الذى يسعى إليه قوة إلى قوة عُدته . وما أشد إيمانى بأن الهزيمة بنا لاحقة ، وما أدري أى مصير سيكون لهذه المدينة . إذن فما لى أن أشجع وأفتح له أبواب مدينتنا لتلبية لنداء حسمى ، ولا أترك نفسى للانتظار الذى سيؤول إلى اقتحام الأسوار . فمن الخير أن يتم له نصر عاجل لا تُراقى فيه دماء ولا يعرض حياته للخطر .

وفي هذا ما يطمئني الطمانينة كلها بأنه لن يناله أحدٌ بسوء قاصداً أو غير قاصد ، وأقول غير قاصد ، إذ ليس ثمة إنسان يقسو أو يجرؤ فيسندُ رجمه إلى صدرك وهو يعرف من تكون أى مينوس العزيز .

هكذا هُتِمن على فكر إبنة نيسوس أن تُسلم نفسها إلى مينوس وأن تكون مملكة أبيها مهراً له ، ورأت في ذلك نهاية للحرب ، غير أن عزمها وحده لم يكن يُغنى ، وقالت تحدثت نفسها : « ثمة حامية تحرس مدخل المدينة ، ومفاتيح الأبواب مع أبى . ألا ما أشقانى أن يكون أبى هو الوحيد الذى أخشاه ، وأن يكون العقبة في طريق مسعاى . ليت الألهة خلقتنى بلا أب . على أن كل إنسان هو في النهاية إله نفسه ، ثم إن فورتونا « ربة الحظ » تصم آذانها لنداء الجبناء . ولو أن فتاة أخرى مُنيت بمثل ما مُنيت به من هذا الغرام المبرح لاقتحمت منذ أميد بعيد آية عقبة تقف في سبيلها وهى قانعة راضية بما تفعل ، فما بالى أكون أقل شجاعة ؟ وما أنذا أحسّ الشجاعة تملأ جوانحي وتدفعنى لأن أشقُ طريقى بين المشاعر والسيوف ، وأراقى في غير حاجة فيما أنا مُقدمة عليه إلى أن أخوض أيا منها ، فما أبغى غير خصلة من شعر رأس أبى ، تلك الحصلة الأرجوانية التى هى أنفوس عندى من الذهب ، فبها وحدها سوف أحقق ما أطمح فيه من سعادة .

٨٠

وفياها تقلب وجوه الرأى غشى الليل الذى تنزاح معه هموم الناس ، وإذا هى مع انسداد الظلام أكثر جُراً . ومع الساعات الأولى التى يغشى فيها النوم الأحياء ويخفّف عن قلوبهم قلق النهار وإرهاقه تسلّلت في هدوء إلى حجرة أبيها ، ونفذت خطتها الشعاع وانتزعت من رأس أبيها تلك الحصلة التى بها حياته ومصيره ، فما أفضله من جرم ! .

قبضت إبنة نيسوس على غنيمتها الثمينة ونفذت عبر أبواب المدينة وشقت طريقها وسط جنود الأعداء مفعمة بالثقة في أنها تقدّم إليهم خدمة كبرى ، حتى إذا بلغت مليكهم الذى تملكته الدهشة من وقوفها بين يديه قالت له : أنا سكيللا ابنة نيسوس دفع الحب بى إلى طريق الجريمة ، وجئتُ أسلمك مفاتيح بلادى ودارى ولا أريد سواك مقابلها . خذ هذه الحصلة الأرجوانية دليلاً على حبى ، وبهذا إبانى لا أسلمك خصلة أبى وحدها بل رأسه أيضاً ، « ويدها قدّمت له الهدية النكره ، غير أن مينوس ازور عنها واهترت مشاعره من هول فعلتها وصاح فيها : « ما أنت إلا عارُ دهرنا ، وإنى لأدعو الألهة أن تطهر الأرض منك ، وأن يابى البر والبحر أن يكونا ماوين لك ، فانا أرفض أن يلوّث مخلوق دنس مثلك عالمى أو أن يلوّث جزيرة كريت مهد جوبيتر » .

١٠٠

وحينما تم لمينوس النصر وأملى شروطه العادلة على أعدائه المقيهورين ، أمر بفكّ حبال السفن وبأن يتخذ الملاحون أماكنهم من مجاديف السفن ذات الحيازيم البرونزية . وحين ثبّنت سكيللا أن السفن تمخر عباب البحر مبتعدة عن الشاطئ دون أن يكافئها قائد الأعداء على خيانتها رغم توسلها استحوذ عليها غضب جنون وانخرطت في الصراخ وقد تطاير شعرها ، وجعلت تلوح إلى مينوس : « إلى أين تمضى يا من آثرتك على أبى وبلادى ؟ إلى أين تمضى خلفاً من هيات لك الفوز والانتصار ، وإلى أين تنأى يا عاق القلب بعد أن ظفرت بنصر أنا التى أستحق عليه كل إجلال وكل لوم . ألا تثير مشاعرك ما قدّمت لك من هدية ،

١٢٠
 ألا يعينك حبي لك وأنا التي وضعت فيك وحدك آمالي كلها؟ وإلى أين أروح أنا لو تخليت عني؟ لقد
 حاقت الهزيمة ببلادى، ولو أنها عادت لها حياتها يوماً ما استطعت دخولها، فقد أغلقت أبوابها في وجهي
 إلى الأبد لخيانتي لها. وهل أستطيع أن أراجع إلى أبي بعد أن أسلمت لك؟ إن مواطني ليمقتونني وهم على
 حق في ذلك، كما أن شعوب البلاد المجاورة يستنكرون المثل السيء الذي اقترفته. لقد أوصد العالم كله في
 وجهي ولم يبق لي ملاذ في غير كريت، ولو أنك حرمتني الاحتماء بها وهجرتني غير معترف بالجميل الذي
 قدّمته لك لما كنت ابن أوروبا بل ابن سيرتيس^(١) غير المأمونة، أو ابن نيرات أرمينية أو ابن مياه
 خاربيبيديس التي تهبها ريح الجنوب، فلست إذن ابن جويتر، ومن ثم ليست قصة ميلادك إلا أكذوبة،
 وليس إذن إلهاماً متمصّماً ثوراً ذلك الذي ضاجع أمك، بل هو ثور متوحش حقيقي لم يستشعر حباً قط
 لإحدى البقرات. أبناه! فلتنزل بي عقابك، وأنت يا أسوار البلاد التي خنتها، فلتشمتني بي فأنا جديرة
 بحقدك على ولا أستحق سوى الموت، وليقتلني واحد من بين الذين آذنتهم خيانتني. لماذا يا مينوس تريد أن
 أعاقب على جريمة قادتك إلى النصر، على حين أن هذا العمل الذي يعده أبي وقومي جريمة ليس غير منة
 تطوق عنقك؟ حقاً إن زوجتك الخائنة التي تخفت في تمثال بقرة من خشب واستدرجت ثوراً وحشياً وحملت
 منه مخلوقاً نصفه بشر ونصفه الآخر حيوان هي وحدها الخليفة بأن تتخذك زوجاً لها^(٢). أجبني يا مينوس،
 هل تبلغ كلماتي أذنانك أم أن الرياح التي تدفع سفنك تبدد شكواي أيها الناكر للجميل. لا يدهشني الآن
 أن پاسيفاي قد آثرت الثور عليك، إنك لأشدّ وحشية من الثور. ما أشقاني! ها هوذا يأمر ملاحيه
 بالإسراع والأمواج تصف وضربات المجاديف تشقّ المياه بينما أغيب أنا وبلادى عن عينيه، غير أنه لا
 جدوى، فعبثاً تحاول نسيان جميلي، ولسوف أتبعك على الرغم منك وسأتعلق بسفيتك سابحة في مياه
 البحر.

١٤٠
 ولم تكذ تفرغ من مناشدته حتى قفزت إلى المياه وأخذت تسبح بسرعة خلف السفن، تُكسبها رغبتها
 النائرة قوة وأي قوة، فما لبثت أن تعلقت بسفينة ملك كريت زائرة متطفلة، ولحها أبوابها [بعد أن تحوّل
 إلى نسر بحري وحشيّ الجناحين أخذ يملّق في الأجواء] فانقضّ عليها وهي متعلقة بالسفينة وجعل ينهش
 لحمها بمنقاره الأقي، فألم بها فزع أرخى قبضتها عن السفينة، وبدأت تهوى فتلقفتها نسمة خفيفة حالت
 بينها وبين أن تلمس الأمواج، وسرعان ما نبت لها ريش وتحوّلت إلى طائر أطلق عليه اسم كيريس [أبو
 قردان] أي من يجرّ الشعر، وهو الاسم الذي يذكر الناس بخصلة الشعر التي اقتلعتها من رأس أبيها^(٣).

المناهة وتاج أريادني

١٦٠
 وحين عاد مينوس سالماً إلى كريت ونزل إلى الشاطيء ذبح مائة ثور قرباناً ووفاء بنذره لچويتر،
 وعلّق غنائمه على جدران القصر ليزدان بها. وكانت الملكة قد وضعت طفلاً مهجناً خلال غيابه ليصم
 الأسرة الملكية بالعار. وما لبث هذا المولود المهجين الغريب أن شبّ ليفضح الملكة أمام الجميع ويكشف

قصة حبها المشينة مع الثور . فأصرّ مينوس على تحرير قصره من هذا المخلوق الغريب الكريه الصورة وقرّر حبسه في بناء مغلق معتم ملتبس المداخل ، يستحيل معه أن يصل أحد إليه أو يراه . ووفق دايدالوس أشهر صنّاع المعادن بفنه وبراعته إلى إقامة هذا البناء^(٤) بأن جعل العلامات في هذه المتاهة مضلّلة ليشقّ على العين بتلك التمرّجات المتّجهة إلى أنحاء مختلفة أن تهتدى إلى سبيلها . وكما تتلوّى مياه نهر المياندر لاهية في حقول فريجيا ، وكما يشقّ مجراه الحائر سبيلاً خفياً ثم يعود إلى حيث بدأ فيكاد يُدانى مآتاه ، وكما يرتدّ النهر إلى منبعه حيناً ونحو البحر الخضم حيناً آخر فيفتّر تياره بعد أن يضلّ مقصده ، كذلك ضاعف دايدالوس من سبيل التضليل بشقّه سبلاً ودروباً لا حصر لها^(٥) .

حَبَسَ مينوس ذلك المخلوق الغريب الذى نصفه ثور ونصفه آدمى ، وكان قد قدّم له ضحايها من أهل أثينا^(٦) مرتين . وحين قدم له الضحايها في المرة الثالثة مجارة للاقتراع الذى يتجدّد كل تسع سنوات قضى عليه واحد من هؤلاء الذين سيُؤا إليه كى يلتهمهم . ذلك أن ثيسوس الذى دُفع إلى المتاهة لكى يلتهمه الثور قد نجح بعون الأميرة أريادنى في أن تهتدى إلى طريق العودة ، إذ أخذ يعيد لفّ الخيط الذى كان قد ترك أوّله عند الباب ويحلّه كلما وليج إلى الداخل ، وبهذا استطاع أن يعود ثانية إلى الباب الذى كان قد دخل منه والذى لم يخرج منه أحد قبله . وأبحر بعدها إلى جزيرة ديا بعد أن اختطف ابنة مينوس ، غير أنه تخلّى عنها وهجرها على شاطئ تلك الجزيرة حيث بقيت وحدها حزينة إلى أن جاءها باكخوس فطوّقها بذراعيه وقدم لها العون ، وتناول التاج من فوق رأسها ليحوّله إلى كوكبة من نجوم السماء كى يسبغ عليها مجداً أبدياً ؛ فكانت جواهر التاج تتحوّل وهو طائر في الفضاء إلى نجوم متألّقة ما لبثت أن انتظمت في السماء محفظة بشكل التاج مستقرة في منتصف المسافة بين نجوم الجائى على ركبته وكوكبة حامل ١٨٠ الثعبان^(٧) .

دايدالوس وإيكاروس

ويعد أن ستم دايدالوس الإقامة في كريت اشتاق العودة إلى بلاده [أثينا] التى طال غيابه عنها والتى كان يفصله عنها البحر ، فأخذ يناجى نفسه قائلاً : « قد يملك مينوس أن يُحوّل دونى ودون العودة عبر الأرض أو البحر ، وأنسى أن السماء مفتوحة أمامى يمكننى العودة عن طريقها ، فلو استطاع مينوس أن يستحوذ على كل شيء ما استطاع أن يستحوذ على الفضاء » . وأخذ بعد ذلك يُعمل فكره في فن لم يعرفه من قبله أحد ، ويُخضع الطبيعة لقوانين جديدة ، وانبرى يُثبت صفّاً من الريش في خيط مبتدئاً بأقصره متدرّجاً به نحو أطوله حتى يكون طرفه منحدراً إلى أعلى ، على النحو الذى يصنع به الرعاة مزاميرهم من الغاب فيزيد في طول كل أنبوية عن سابقتها ، ثم شدّ الريش عند منتصفه بخيط من الكتان ولصق أطرافه السفلى بالشمع وشكلها على هيئة أجنحة الطائر الحقيقى بانحناءاتها الخفيفة ، وقد وقف ابنه إيكاروس إلى جانبه ضاحكاً دون أن يذهب خياله إلى أن أباه يشكّل الأداة التى ستورده حتفه ، وكان يقبض على الريش

٢٠٠ الذى ينتفش مع هبات الريح أو يطوّع جمود الشمع بليهامه ، فيُعرق بعبيته ما أنفقه أباه في هذا العمل العجيب .

وعندما فرغ دايدالوس من اختراعه ارتفع في الهواء وحاول حفظ توازنه بهذين الجناحين وهو يخفق بهما إلى أعلى وأسفل ، ومضى يوصي ابنه قائلاً : « أنصحك يا إيكاروس أن تحلّق بجناحك على ارتفاع وسَط بين البحر والشمس ، إذ لو دانيت سطح البحر نذت مياهه جناحك فثقلت ، ولو حلقت عالياً لألهب وهج الشمس جناحك ، فتوسّط في طيرانك بين بين . وإنى أحذرك أن تصوّب بصرك إلى النجوم وخاصة كوكبة راعي الشاء أو كوكبة الجوزاء في الدب الأكبر أو نجوم سيف الجبار^(٨) ، ولتتخذن لك مرشداً . وبينما دايدالوس العجوز يدلي بإرشاداته جعل يثبّت الأجنحة على كفتي ابنه إيكاروس وقد احمرت وجنتاه وبللتها الدموع وارتعدت يداه حناناً ، وقبل ولده في خدّه قبلاته الأخيرة . فقد حلّق بجناحيه في الهواء موزّع النفس على رفيقه ، هذا القلق الذى يساور الطائر وهو يُخرج صغاره من العشّ في أعالي الأشجار ويطلقها في الهواء للمرة الأولى . وبدأ يستحث إيكاروس أن يتبعه على أن يبقى على مقربة منه ، ويعلمه من الفن ما كان سبباً في هلاكه ، ويحرّك جناحيه متطلّماً إلى الخلف يرقب ولده . وقد رأهما صياد كان يلقي شبابه وراع كان متكئاً على عصاه وفلاح كان منكفئاً على محراثه ، وأخذ العجب منهم فظنوا هذين الرجلين القادرين على الطيران عبر الأجواء إلهين من بين الآلهة .

وكانت جزيرة ساموس التى وهبت لجنونو تقع عن يسارهما وياروس وديلوس من خلفهما ولبتشوس عن يمينها وكذلك جزيرة كاليمنى الغنية بعسلها^(٩) ، حين انتشى الصبى بالطيران السريع عبر أجواز الفضاء واستهواه الارتفاع فَمَلَا في السماء حتى اقترب من الشمس المُحرّقة فذاب الشمع العطر الذى يلصق الريش بعضه ببعض ، وإذا هو يحرّك ذراعيه بعد أن تعرّتا فصرخ منادياً أباه ، ولكنه كان عندها يهوى . وسرعان ما سقط في مياه البحر الذى ابتلعه في أعماقه وحمل اسمه . وأخذ الأب التمس الثاكل ولده يصرخ « إيكاروس أين تُراك الآن يا ولدى ، وأى أجواز الفضاء غيّبتك ؟ . وظل يصيح باسم إيكاروس حتى لمح نثار الريش على سطح الماء ، وعندها نغم على فنه ، ثم وارى ابنه التراب ، وما تزال الأرض التى دُفن بها إيكاروس تحمل اسمه .

سِير دِيكس

وبينما كان دايدالوس يدفن ابنه الذى لقي حتفه لمح طائر الحجل المائى الثرثار فجعل يغرد طرباً ويرفرف بجناحيه وقد خرج من حفرة موحلة ، وكان طائراً فريداً لم ير مثله من قبل ، إذ كان إنساناً تحوّل منذ قريب إلى طائر ليتمثل عقاباً أبدياً لدائداالوس ، ذلك أن أخته - ولم تكن تعلم ما خبأه لها القدر - أرسلت ابنها وكان فتى ذكياً في الثانية عشرة من عمره ليُعلّمه دايدالوس ويُنشئه . وقد أعجب الصبى بالعمود الفقري للسمك واتخذهُ نموذجاً يصنع على غرارهِ أسناناً على حافة شريط من الحديد فإذا هو يخترع

المنشار ، كما كان أول من استطاع وصلّ ذراعين متساويين الطول من الحديد بحيث إذا ركّز أحدهما وأدار الآخر حوله رسم دائرة كاملة ، ومن هنا اخترع الفرجار ، الأمر الذي أثار الغيرة في قلب دايدالوس فألقى بابلن أخته من فوق قلعة منيرفا ، ثم افتعل جلبة توحى بأن الصبي قد سقط قضاء وقدراً ، غير أن الإلهة باللاس حامية العباقرة سرعان ما أمسكت بالفتى وهو يهوى وحوّلته إلى طائر وكسته ريشاً وهو ما يزال معلقاً في الفضاء ، ومنحته سرعة في الجناحين وأخرى في القدمين يستغنى بها عن إعمال بديتها ، وبقي اسمه عالماً به يُمَيِّزه ، فهو لا يطير عالياً في الأجواء بل يجمل قريباً من الأرض ، كما أنه لا يتخذ عشه في قمم الأشجار أو المرتفعات بل يبيض بين حزم الأغصان التي تتخذ منها الأسوجة ، فقد كان يخشى المرتفعات لأنها تذكره بسقوطه منها فيما سلف .

الخنزير الكاليدوني . ملياجر

٢٦٠ وعندما أحس دايدالوس بالإرهاق من طول السفر استقرّ بيلاد إتنا ، وكان كوكالوس ملك هذا الإقليم قد حمل السلاح دفاعاً عنه بعد هروبه وأظهر له من ضروب العطف الكثير^(١٠) ، وكانت مدينة أثينا قد تخلّصت بفضل انتصار ثيسوس من دفع الجزية الرهيبة التي كانت تُثقلها بالأحزان ، فزيّنت المعابد بالكاليل الزهور وأخذ الناس ينشدون للربة المحاربة منيرفا ولجوبيتر والآلهة الآخرين ويقدمون لهم القرابين التي نذروها . وذاعت شهرة ثيسوس كالبرق في مختلف مدن أرجوس حتى بات الآخيون يفزعون إليه في الأوقات التي يُجلبق بهم فيها خطر ، وكذا لجأ إليه أهل كاليدون على الرغم من أن بطلهم ملياجر كان ما يزال بينهم ليحميهم من الوحش الكاسر الربة ديانا القائم بتنفيذ عقوباتها^(١١) .

وتروى الأفاصيص أن الملك أونيبوس قد نعم بحصاد وفير في عام رخاء فقدم القرابين للآلهة وجعل الحصاد الأول لسيريس^(١٢) والنيبد لباكخوس وزيت الزيتون لمنيرفا الشقراء ، وجعل لآلهة الريف ثم لبقية الآلهة ما كانوا يترقبونه ، عدا ديانا ابنة لاثو فقد كانت الوحيدة التي أهملت محاربيها ولم تُقدم لها قرابين أو يطلق لها بخور ، فاحتدم الغضب في صدرها وصاحت قائلة : « لن أترك هذا الأمر يمرّ دون عقاب يخفف عن نفسي ، ولن أسمح بأن يزدد الناس تراخى في النار لنفسي ، فما من أحدٍ يعيب على أن أنتقم لإهانة ٢٨٠ لحقت بي » ، ثم أطلقت خنزيراً برياً في ضخامة ثيران مراعى لبيروس الكثيفة الحشائش وأعظم جثة من ثيران صقلية . كان خواره مجلجلاً ، وعيناه الدمويتان ترسلان شرراً ، وعنقه الضخم الصلب يشمخ عالياً ، يغطي جلده شعر خشن نافر كالرماح ، ويلطخ كتفيه العريضين زبد يغلى ، وأنيابه كأنياب الفيل الهندي ، تنبث نار من بين فكّيه فتحرق أنفاسه أوراق الأشجار .

كان هذا الوحش الغريب يسحق القمح الذي ما يزال غضاً في سنابله أحياناً ويقضمه إذا استوى على أعواده أحياناً أخرى ، فحطم بذلك آمال الفلاحين وأبكاهم ، وعبثاً بات الناس ينتظرون أن تملأ الصوامع أو تكثر ساحات الدرس عامرة بالحصاد ، وتناثرت عناقيد العنب وأوراق الكروم على الأرض مع

حَبَات التوت وأغصان الزيتون الدائمة الخضرة . كذلك أخذ هذا الخنزير البرى يشن هجمات ضارية على قطعان الماشية فلم ينج منه لا الرعاة ولا كلابهم ، ولم تفلح الثيران الشديدة البأس في حماية القطعان التي تحرسها ، وكان الناس يهربون منه متفرقين هنا وهناك ، ولا يحسّون الطمأنينة إلاّ حين يحتمون خلف أسوار المدينة . وظلّ الحال على ما هو عليه حتى اجتمع ملياجر مع جملة من الأبطال وحَدّت بينهم الرغبة في نيل المجد والشهرة بالقضاء على هذا الوحش الرهيب .

٣٠٠

والتقى إنا تينداريوس^(١٣) التوأمان اللذان اشتهر أحدهما بللاكمة والآخر بالفروسية ، وجاسون مُشيد أول سفينة [سفينة الأرجو] وثيسوس وبيريثوس الرفيقان المتلازمان ، وابنا ثيسيتوس ثم لينسيوس وإيداس السريع العدو ولدا أفاريوس ، وكاينوس أيضاً الذى كان امرأة في سالف الزمان^(١٤) ، وليوكيپوس الصائب الرُمح ، وأكاستوس قاذف الرمح الشهير ، وهيرثوس ودرياس ، وفينيكس بن أمينتور ، وولدا أكتور وكذا فيليوس من إيليس . وانضم إليهم تيلامون وبيليوس والد أخيل ، وكذلك ابن فيريس ويولاس من بويوتيا ثم أريتيون المقدم وإخيون العذاء الذى لا يبارى ، وليلكس اللوكريسي وپانويوس وهيليوس وهياسوس الوحشى ونسطور الذى كان في مقتبل العمر ، وانضمت إليهم فصيلة من الرجال الذين بعث بهم هيبوكوون من أميكلاى القديمة ، وكذلك لايرتيس هو پنيلوپى الذى اصطحب معه أنكايبوس الأركادى والعُراف الحكيم ابن أمبيكس وأمفيارووس الذى لم يكن يخشى حتى ذلك اليوم أذى يناله من زوجته^(١٥) . ثم الفتاة الصيادة بطلة تيجيا وفخر الغابات الليكاوية^(١٦) وقد شبكت طوق ثوبها بمشبك مصقول وجمعت شعرها من الخلف مضموماً في عقدة واحدة ، وعلقت كنانة سهامها العاجية على كتفها اليسرى بينما أمسكت القوس بيدها اليسرى ، وكلما سارت اهترت الكنانة بسهامها محدثة صوتاً ، [ولو أن قسباتها على وجه فتى لقيت إنها قسبات فتاة ، وإذ كانت فتاة قبل إن قسباتها مثل قسبات الفتى الوسيم] ، ولم يكد البطل الكاليدونى يراها حتى هام بها رغم تحريم الآلهة ، واحتدمت رغبته الكامنة في الأعماق ، وزفر زفرات حارة وهو يتمتم : « طوبى لذلك الرجل الذى سوف يُظْفَرُ بها زوجة » ، ولم يُتَح له مع هذه الحال أن يضيف كلمات أخرى ، فقد كان هناك أمر أجَلّ خطراً يناديه وهو المعركة العاجلة الحاسمة مع الخنزير البرى .

٣٢٠

انطلق الصائدون حتى بلغوا تلك الغابة التى لم تنل الأزمان من أشجارها الضخمة فلم تمسها فأس حطّاب ، والتى ترقى عند نهاية السهل مطلة على الحقول المنحدرة ، فنصب بعض شباك الصيد ، وأطلق بعض الكلاب ، بينما اقتضى الآخرون أقدام الخنزير البرى متعجلين اكتشاف موقع هذا الوحش الذى جاءوا لاصطياده مغامرين بحياتهم . وكان الخنزير البرى قد كمن في أسفل جزء من مجرى في أعماق واد تنمو فيه نباتات المستقعات والعشب المائى والغاب وتجتمع فيه مياه الأمطار ثم برز مندفعاً بين مطارديه كما يندفع برق العاصفة من بين السحب المتراطمة ، وانطلق بين الأشجار التى أخذت تهتز وترسل أصواتاً مختلفة ، فتصايح الأبطال وقبضت أيديهم في قوة على أسلحتهم المشهورة الوضاعة النصل فاندفع الخنزير إلى حيث الكلاب التى تجمعت لتصدّه محاولاً تشتيتها بقفزات جانبية . وقذف إخيون أول سهم فطاش ولم

٣٤٠

يُحدث إلا جرحاً طفيفاً في جذع شجرة اسفندان ، ثم بدت القذيفة الثانية التي أطلقها چاسون وكأنها ستصيب ظهر الخنزير البرى غير أنها لشدتها تجاوزت الهدف ومضت إلى أبعد منه ، وعندها صاح مويوس بن أمبيكس قائلاً « لكم أخلصت في عبادتك يا فويوس وسوف أظل مخلصاً ، فسدد رعى ليصيب هدفه » واستجاب الإله لأمنيته ، غير أن الإلهة ديانا سلبت الرمح وهو في مسراه نصله الحديدي فلم تصب الخنزير البرى غير يد الرمح الخشبية ، فامتلا الوحش غضباً ، وأخذت سورة الغضب تعصف في عنف البرق ، وانطلق الشرر من عينيه واحتدم اللهب في صدره ، واندفع كصخرة تهوى من منجنيق فوق الأسوار أو على أبراج غصت بالجنود ، وارتمى الوحش المنهوم للدم بعد قفزة لا تقاوم فوق الأبطال الشبان ، فطرح إيويالاموس ويلاجون أرضاً وكانا يحميان الجناح الأيمن فأسرع أصدقاؤهما بحملهما بعيداً . ولم يكن إيناسيموس بن هيوكويون سعيد الحظ إذ وقع بين أنياب الخنزير القاتلة ، وكاد نسطور هلك قبل حرب طروادة لولا أنه غرس رمح في الأرض وأتكأ عليه ليثب إلى قمة شجرة بلوط قريبة وأخذ يرقب خصمه وهو يدلك أنيابه في جذعها ، ثم انثنى الوحش فمزق أنيابه فخذ هيباسوس بن يوريتوس ، واعتل الشقيقان التوامان [كاستور وپولوكس] قبل أن يصبحا نجمين في السماء صهوق جواديهما الأنصبغ بياضاً من الجليد وقذفا الخنزير برحميها ، وكادا يصيبانه لولا إفلاته داخل الأدغال المعتمة التي لا ينفذ خلالها جواد أو رمح .

٣٦٠ . وأسرع وراه تيلامون ، لكن حماسه الرعناء جعلته يسقط على رأسه مصطدماً بجذع شجرة ، وبينما كان ييليموس يعانوه على النهوض من سقطته كانت بطلة تيجيا قد أطلقت من قوسها سهماً خاطفاً خدش ظهر الخنزير ونفذ أسفل أذنه وصبغ بعض شعراته بقطرات الدم . وأثار نجاح الفتاة فرحتها وفرحة ملياجر الذي كان أول من رأى دم الخنزير يسيل ، فلفت إليه نظر أصدقائه وقال لأتالانتا « ما أحقك بأن تتقلدى وسام الجدارة » .

غلب الرجال الخجل وأخذ بعضهم يستنهض همم البعض وبدأوا يُسدّدون رماحهم دون أن تكون ثمة خطة للهجوم فذهبت قذائفهم عبثاً رغم كثرتهم . ولم يصب أحدهم الهدف ، فاندفع أنكايوس الأركادى حاملاً بلطته ذات الحدين ، واتجه نحو مصيره المحتوم يصيح في جنون : « انظروا كيف أن ذراع الرجل أقوى من ذراع المرأة ! أفسحوا لي الطريق ، ولسوف أقضى على هذا الخنزير البرى بيدي مهما حتمه ابنة لاثو ودافعت عنه بأسلحتها ، وكرها عنها » . ورفع بلطته بكلتا يديه لكي يضرب الخنزير مغروراً غرور كلماته ، غير أن الخنزير البرى تنبّه لهذه الهجمة الجريئة وأعمل أنيابه في أعلى حقو أنكايوس سالكاً بذلك أقرب طريق يصل به إلى إهلاكه ، فتهأوى أنكايوس وقد برزت أحشاؤه وتدلّت وسط بركة من الدماء ، وغرقت الأرض بذلك الجدول الأحمر . وإذا پيرثوس بن إيكسيون ينطلق صوب الوحش شاهراً رمح بيده القوية ، فناداه ئيسبيوس الإيجي قائلاً : « يا من هو أعزّ على من نفسى افزع إلى مكان أمين ، فحنح على البعد أقدر منا على القرب ، فقد ذهب أنكايوس ضحية اندفاعه » وأطلق مع كلماته رمح المصنوع من خشب القرانيا ذا السنّ البرونزى الثقيل فلم يصب الهدف إذ اعترضه غصن شجرة بلوط . وسدّد چاسون في إثره رمحاً أصمى ضحية بريئة إذ أصاب كلباً في فخذه فخرّ على الأرض ، غير أن ملياجر

٤٢. رعه اللامع في كتفه ، فصاح رفاقه مهللين مشجعين وأخذوا يشدون بأيديهم على يد البطل الذي حقق
زيد مختلط بالدم المتدفق ، وها هو ذا من أدماء يقف بجواره وقد أثار غضب الوحش الجنوني ، ثم غرس
الخنزير . عندها لم يدع الوقت يذهب سدى ، فاقترب من الوحش الذي أخذ يتلوى نائراً يسيل من شدقيه
بن أوينيوس سدّد وعين اختلف مصيرهما ، إذ غاص أحدهما في الأرض بينما استقر ثانيهما في منتصف ظهر



بيكاسو : ملياجر

النصر ، وتطلعوا مذهولين إلى ضخامة الوحش الذى شغل مساحة كبيرة من الأرض وهو ملقى فوقها ، غير أنهم ظلوا يخشون الاقتراب منه ظناً منهم أن يكون ما يزال قادراً على التصدى لهم . ثم تقدم ملياجر ووضع قدمه فوق رأس الوحش والثفت إلى أثالاننا قائلاً : « تقبّل هذه الغنيمة التى ظفرت بها يا عذراء نوناكريس^(١٧) ، ولتشاركيني مجدى » ، ثم أعطهاها رأس الوحش بئتيابه الضخمة وجلده الخشن الشعر . وقد أعجبت أثالاننا بالهدية ومهديا ، غير أن صنيعه أثار غيرة الآخرين فسرت بينهم هممة هرّ بعدها ابنا ئيستوس قبضتيها وصاحا بغضب : « اتركى هذه الغنيمة أيتها الفتاة ، ولا تنزعى شرفاً هو حقنا نحن ، ولا تسترلى فى الغرور بجبالك فقد يصبح هذا المفتون المتيّم بجبالك عاجزاً عن أن يحمى فنتك » . وانتزعا الغنيمة من أثالاننا وسلبا ملياجر حق إهدائها لها ، فأحرق سلوكهما ابن مارس وانفجر غضباً وجزّ على أسنانه وهو يصيح : « أيها اللّصان إنكنا بهذا تسلبان رجلاً آخر مجده ، ولسوف تعلمان أيّنا يتوعّد وأيّنا ينفّد » ، وأسرع فأغمد نصله الفاتك فى قلب پليكسيوس الذى كان أبعد ما يكون عن أن يتخيّل ما كان . وقد تردد توكسيوس بين الرغبة فى الانتقام لأخيه المضرج بدمه وبين الخشية من أن يلاقى مصير أخيه ، ولكن ملياجر لم يدع له وقتاً لكى يتردد ، فقد عاجله برمح الذى كان ما يزال يحمل أثر سخونة الجريمة الأولى .

شأراألشاي

وكانت أليايا قد توجّهت إلى المعبد حاملة القرابين إلى الآلهة شكراً على انتصار ابنا ملياجر حين شاهدت جنمات شقيقها مجمولين إلى دارهما ، فملأت المدينة عويلاً وصراخاً وهى تضرب صدرها ، واستبدلت بئياها المطرزة بالذهب ثياباً سوداء ، غير أنها ما كادت تعلم اسم قاتل شقيقها حتى أنسيت أحزانها وجفّفت دموعها ولم تعد لها إلاّ رغبة واحدة هى الانتقام . وكانت الشقيقات الثلاثة ربّات الأقدار^(١٨) قد وضعن كتلة من الخشب فى المدفأة بدار أليايا ابنة ئيستوس ساعة كانت ترقد فى فراشها بعد أن وضعت مولودها ، وبينما كن يغزلن خيوط القدر بمسّ إيهامهن قلن : « لئيقين هذا الطفل ما بقيت هذه الكتلة الخشبية » ، وما كدن ينهين كلمتهن ويغادرن الدار حتى أسرعرت الأم واختطفت كتلة الخشب من النار وأطقتها بالماء وخيبتها فى حنايا الدار ، وعاش الطفل فى أمان بفضل حفظ هذه الكتلة الخشبية . وقد أسرعرت أليايا بعد مصرع شقيقها فأخرجت كتلة الخشب من مخبئها وأحضرت قطعاً صغيرة أخرى من خشب الصنوبر وكومتها جميعاً ثم أشعلت فيها النار التى هى إيذان بموت ابنا . وحاولت مرات أربع أن تلقى بالكتلة الخشبية وسط النيران إلاّ أن شجاعته كانت تخونها فى كل مرة ، إذ كان حبها لابنا يعادل حبها لأخوها ، كما كان قلبها يتمزق بين الوفاء لابنا والوفاء لشقيقها . وكان التفكير فى الجريمة التى سوف تقترفها يزيد وجهها شحوباً ، ثم تعاودها الرغبة فى الانتقام فيحتقن وجهها غضباً . وكانت تسيطر عليها مشاعر القسوة أحياناً ثم تتغلب عليها عواطف الحنان والشفقة ، أو ما تكاد حرارة غضبها الوحشى تجحف

دموعها حتى تعود الدموع فتنبثق من جديد . وصارت كالسفينة تتناوحها الأمواج وتتقاذفها الرياح في اتجاهات مختلفة فتضطرب في سيرها ، إذ كانت مترددة بين عواطفها المتنافرة ، فما يكاد غضبها يهدأ حتى يعود ثانية ويثور .

ومع ذلك فقد طغت عاطفة الأخوة على عاطفة الأمومة فيها ، وآثرت أن ترضى طيفى شقيقها اللذين يسرى دمهما في عروقها فاقترفت جريمة تلطّخت بإثمها . وحينما شاهدت الموقد المشوم يتوهج بالنيران صاحت : « ألا فلتحرق هذه المحرقة فلذة كبدى » وأمسكت بيديها الأثمتين الكتلة التي عليها يتوقف مصير ابنها ، ووقفت أمام المذبح الجنائزى وقالت تدعو : « يا ربّات العقاب الثلاث ، انظرن إلى هذه التضحية الخارقة التي قد تُطْفِئُ من غضبكن^(١٩) ، فإننى فى آن واحد أثار وأقترف جريمة لا ترضى عنها الآلهة ، فلا مناص من أن يكفّر الموت عن الموت والجرم عن الجرم ، وأن تتبع الجنائز الجنازة حتى تهلك أسرنا الملعونة تحت وطأة المصائب المتتالية ، فكيف يمضى أوبيوس سعيداً فرحاً برؤية ابنه المنتصر بينما يبكى ئيستوس ولديه ؟ من الخير يا شقيقى ويا بنى أن تسكبوا جميعاً الدموع . ولكن هل فى مقدوركما يا طيفى شقيقى يا من فارقتما جسديكما أن تقدرا هذا التكريم الذى أخصّصكما به وأن تتقبلا هذا القربان الكريه الذى يكلفنى النطفة التعسة التى نمت بين أحشائى . يالى من شقيّة ، ترى إلى أين يمضى به غضبى ؟ يا شقيقى ، اغفرا لأم تحجم يداها عن هذا الفعل الشائن . اننى أعترف أن ابنى يستحق الموت ولكن ما يعترضنى هو أن أكون أنا التى دبّرتُ موته . ومع ذلك هل يمكن أن يظل بلا عقاب ، وأن يعيش وهو المنتصر فخوراً بتحقيق جريمته ويحكم كاليدون ملكاً ، بينما أنتما حفنة رماد وشبهحان لا حراك بهما قد غيّبكما الثرى ؟ ولكن هل فى مقدورى أن أقدم على ذلك ؟ ألا تبا للمذنب وليحمل معه إلى قبره آمال أبيه ، ولتسقط بموته مملكته ووطنه . . ولكن أين حبّ الأم لأولادها ، وأين حنان الآباء والأمهات على أبنائهم ، وأين ذلك الضنى الذى حملته أشهراً خمسة ثم أشهراً خمسة ؟ ولداه ! لكم أتمنى لو كانت النار قد التهمتكم بينما كنت طفلاً صغيراً . لقد عشت بفضلى والآن تموت بسبب خطيئتك أنت ، فلتنل إذن جزاء جريمتك . لقد منحتك الحياة مرتين ، المرة الأولى يوم ولدتك ، والثانية يوم أخرجت من النار تلك الكتلة

الخشبية المتقدة ، ألا فلتردّ إلى الحياة التى منحتها لك مرتين أو فلتجمعنى ثانية بشقيقى . كم وددت لو أنزلت بالجنان العقاب ولكنى غير قادرة . ماذا ترانى فاعلة ؟ أحياناً أرى جراح أخوى مائلة أمام عيني ومشهد مصرعها الرهيب ، وأحياناً أخرى تنهار شجاعى أمام مشاعر أمومتى وحقّ ابنى علىّ . ما أشقانى ، لسوف يكون نصركما فادح الثمن يا شقيقى ، ولكنى سوف أنصركما مادمت سأتابعكما أنتما وهذا الذى سأسلمه لكما لكى يسرى عن رويكما . . ومع هذه الكلمات ألقّت بالكتلة الخشبية المميّنة وسط النيران بيد مرتعشة وقد أدرات وجهها بعيداً ، على حين أخذت كتلة الخشب والنار لتلتهمها ترسل أنات مكتوبة .

ولم يكن ملياجر يعلم شيئاً مما يدور بل كان عندها غائباً حين أحس نيراناً تشتعل فى أحشائه ، فبذل جهداً كبيراً لكى يقوى على تحمّل آلامه القاتلة ، حتى إذا أدرك أن موتاً دون طعن ومجالد قد أصبح يتهدده

بلغ منه الأسى مبلغه ، وعدّ الضربة التي قتل بها أنكايبوس خاتمة طيبة ومئةً من القدر ، وأخذ ينادى أباه . ٥٢٠
الشيخ الفاني بصوت مختنق بالأنين ، ونادى أشقائه وشقيقاته الحائيات وزوجته ، ومن يدرى لعله كذلك
نادى أمه ! وكان كلما استعرت النار استعرت الآلهة ، وحين أخذت السنّة اللهب تضعف تباعاً ثم تمخّدت في
النهاية أخذت أنفاس البطل تذهب هباء في الهواء وقد غطى جمرات الفحم رماداً أبيض .

وعمّ الحزن سكان هضبة كاليدون ومزق نفوس الشباب والشيوخ والقادة والعامّة ، وأخذت النسوة
الجالسات قرب ينبوع إيفينوس يشددن شعورهن ويضربن صدورهن . وانبطح والد ملياجر على الأرض
فاختلط شعره الأبيض ووجهه المغضن بالغبار برماً بطول عمره . أما أمه التي كان ضميرها يعذبها على هول
جريماتها فقد اقتصبت من نفسها فاستلّت خنجرأ أغمدته في صدرها .

ولو أن الآلهة منحتني مئآت الأفواه والألسنة وملكات ربّات الفنون في جبل هليكون لما استطعت
الإفصاح عن مدى حزن شقيقاته البائسات أو ما تُردّه شكائهن الحزينة ، فكُن يضربن صدورهن وقد
غاص دمهن وما أكثرن لجملهن ، ويقين ما بقيت جثة أخيهن يُعذّن إليها الحرارة ويدلّكنها بأيديهن ويغطينها
بقبلاهن ويعانقن المحفة التي فوق المحرقة ، حتى إذا تحوّل جسده رماداً أخذن حفنات منه ذربتها على
صدورهن ، ثم ركنن جاثيات على قبره يقبلن اسمه المنقوش على الحجر ويبلّنه بدموعهن . وحين شفت
تلك النوائب التي حلّت ببيت پارثاؤون غلّة الإلهة ديانا مسخت الفتيات جميعاً عدّاً جورجيه وزوجة ابن
النبيلة الكمينيا ، وأنبت ريشا يغطي أجسادهن وحوّرت أذرعهن إلى أجنحة طويلة ورفعتهن في الهواء ،
وأحالت أفواههن مناقير محدّبة ، وأطلقتهن بعد تحوّلن على هذه الصورة إلى الفضاء . ٥٤٠

أخيلووس

وبينا كان ثيسوس عائداً من المعركة التي اشترك فيها للقضاء على الخنزير البري متجهاً إلى قلعة
إريخيوس التي تحرسها أثينا التريتونية [نسبة إلى جزيرة تريتون بأفريقيا] صلّه نهر أخيلووس^(٢٠) المترع بماء
الأمطار وعاقه عن العودة ، وقال له ربّ النهر : « هلّمّ فادخل ببقى يا سليل كيكرويس العظيم ولا تعرّض
نفسك لقسوة أمطارى فما أكثر ما تقتلع الأشجار برؤمتها وتدفع أمالمها في صحب الصخور التي تعرّض
طريقها ، فكم رأيت من حظائر مرتفعة فوق الشيطان تنجرف بمواشيتها دون أن تغنى عن الثيران قوتها ولا
عن الجياد سرعتها ، وكم يحتدم السيل حين تذوب الثلوج وتفيض من فوق الجبال ، وما أكثر ما حوى من
شباب في دواماته الطاغية ، إنه لأمن لك أن تنتظر حتى تنحسر المياه بين شيطان النهر فيهدأ انسيابه في
مجره » . ٥٦٠

واستجاب ابن إيجيوس لنداء إله النهر وردّ قائلاً : « لسوف أعمل بنصيحتك يا أخيلووس وأنعم
بضياتك » ، ودلف إلى داخل كهف قوامه أحجار النسفة المسامية السوداء والصخور البركانية ، اكتست
أرضه التديّة بطحالب رخوة وازدان سقفه بأصداف وعارات متعددة الألوان . وكانت الشمس قد قطعت

٥٨٠ ثلثى مسارها في السماء حين اضطجع ثيسوس ورفاقه على الأرائك ، وإلى جانبه ابن إيكسيون^(٢١) وليليكس^(٢٢) بطل ترويزين الذي وخط الشيب فوديه ، وكذا رفاق ثيسوس الذين رأى إله النهر الأكارناني أنهم جديريون بالتكريم أيضاً ، فلقد كان أخيلووس فخوراً بضيفه الكبير ، وفي التوا أقبلت حوريات حافيات الأقدام وقدمن لهم الطعام على المواثد ، ثم قدمن لهم بعد الطعام الخمر في كتوس مرصعة بالجواهر الكريمة . ونظر ثيسوس أشجع الأبطال إلى المياه الجارية أمامه وأشار بأصبعه متسائلاً : « ما هذا المكان وما اسم هذه الجزيرة ، وإن كانت تبدو لي أكثر من جزيرة واحدة ؟ » فاجابه إله النهر قائلاً : « حقاً ليس ما تراه جزيرة واحدة بل جزر خمس ، غير أن بُعد المسافة يجعلها تبدو لك متصلة . لشد ما أنا راغب في أن أخفف عنك عجبك مما فعلته ديانا بكاليدون انتقاماً من إمامهم شأنها حين أقص عليك قصة هذه الجزر الخمس . فذات يوم قامت خمس حوريات مياه بنحر خمسة ثيران ثم خمسة ثيران ودعون جميع آلهة الريف إلى موائلهن ونسيفي ، وأدين رقصاتهن المرححة دون دعوق ، فتولأن غضب عاصف جعل مياهي تندفق فيضاناً جارفاً أتى على الغابات فجرفها غابةً غابةً ودمر الحقول واحداً إثر الآخر ، وغشى الأرض بالمياه واكتسح الحوريات اللاتق لم يعرفن قدرى إلا حينذاك ، ودفعت المياه بالأرض وبين إلى البحر فاقتطعت المياه من الأرض لساناً ما لبث أن انشطر عن باقى الأرض وتناثر جزراً في المحيط هي هذه « الإخيناديس »^(٢٣) الخمسة التي تراها أمامك . غير أن هناك كما ترى جزيرة بعيدة معزولة عن غيرها يسميها الملاحون بيرعيل ، وكانت في الماضي فتاة دفعني هيامي بها إلى أن أسلبها عُذرتها ، فثار أبوها هيبوداماس وألقى بها من فوق صخرة عالية لتبتلعها الأمواج ، غير أنى تلتفتها بلذراعى وعاونتها على السباحة ، وأخذت أصبح : « يا نبتون يا من تسود ثاني مملكة في الكون ، يا إله المياه السيارة ، أيها الإله المسلح بالحربة الثلاثية الشعب ، يا من نحمل إليه أنا والأنهار الأخرى أمواجنا المقدسة في نهاية مطافنا . فلتنصت إليّ ولتستجب إلى دعائي ، فأنت تعلم أن سبب مأساة هذه الفتاة التي أحملها ، ولو كان أبوها هيبوداماس عادلاً أو رحيماً ، أو لو أنه كان أقل وحشية مع ابنته لترفق بها وعفا عني . فلتدرك هذه الفتاة البائسة التي ألفت بها وحشية أبيها في الأمواج ، أضرع إليك يا نبتون أن تهينى لها ملجأ أو تجعل منها هي ملجأ فاستطيع أن أضمها إلى صدرى من جديد » ، فطاطاً ملك البحار رأسه . ومع لفنة رضاه هذه اضطربت رقعة المياه الفسيحة فارتعدت الحورية فزعاً لكنها واصلت سباحتها ، وأخذت أتحسس صدرها الخفاق في خوف ، وبينما كنت أطوف بيدي على جسدها شعرت به يجمد ويغطي التراب نهديها . وفيما كنت أحذتها إذا أطرافها الطافية فوق الماء تستحيل هي الأخرى نيساً وتمتد شيئاً فشيئاً فإذا هي جزيرة راسية » .

فيليمون وبوكيس

ولاذ إله النهر بالصمت بعد سرد قصته وساد الجميع تأثر عميق بالمغامرة التي رواها ، غير أن ابن إيكسيون الذي كان بطبعه مغروراً يحقر الآلهة ويسخر من سداجتهم تحدى مضيفه قائلاً : « ليست قصتك

يا أخيلوس إلا محض اختلاق ، وما أنت إلا مبالغاً في إعطائك الآلهة أكثر مما لها من قدرة على سلب الكائنات أو منحهم أشكالا^(٢٤) . وقد أذهل تحدّيه الجميع وخالفوه رأيه وخاصة ليليكس الذى أكسبته السنون خيرة فانبرى قائلاً : « إن للسما قدرات لا حدود لها . وإذا ما رغبت الآلهة في شيء وقع ، وإليك قصة تُذهِبُ عنك كل شكوكك :

٦٢٠

كانت بتلال فريجيا شجرة بلوط يحوطها سياج خفيض قرب شجرة زيزفون ، وقد رأيت هذه البقعة حين بعث بي يثيوس إلى حقول بيلوپس التى كان يحكمها أبوه في الماضى^(٢٥) . وعلى القرب من هذه التلال بركة راكدة كانت قبل بلاداً عامرة بالسكان ثم أصبحت اليوم مجتمعا لطيور المستنقعات . وكان چويتر قد زار هذه المنطقة مرة متخفياً في هيئة إنسان ، يصحبه الإله ميركوريوس حامل الصولجان السحرى بعد أن أطرح جناحيه ، وقد طرقا معا أبواب ألوف المنازل طالين مكانا يأويان إليه لكنها أغلقت جميعا في وجهيهما ، إلى أن لقيتا في النهاية ترحيبا بهما في كوخ مُغطى بالأغصان وأعواد الغاب تسكنه سيدة عجوز هي بؤكيس برفقة فيليمون الذى كان في مثل عمرها ، وكان قد تزوجها أيام شبابها وعاشا في الكوخ معا حتى أدركتهما الشيخوخة ، وقد هونا على نفسيهما ما كانا فيه من عوز بتسليمهما به وتحملهما له دون مرارة ، ولم يكن في رفقتها خدم بل كان يخدمان نفسيهما ، فكانا الأمرين والمأمورين معا .

٦٤٠

ولم يكد الضيفان السايوان يتخطيان عتبة الدار المتواضعة وبطاطئان الرأس كى يتمكنا من النفاذ عبر الباب حتى قدّم العجوز لها أريكة أسرع بؤكيس ببسط نسيج رخيص عليها ، ثم حرّكت الرماد الذى كان ما يزال ساخنا في الموقد ، وأججت نار الليلة السابقة وغذتها بالحية الأشجار الجافة وأوقها وأخذت أنفاسها التى نهبت منها الشيخوخة تطلق ألسنة اللهب ، ثم أتت من السقيفة بحزمة من الأعواد الخشبية والغصون الجافة وأخذت تشطرها قطعاً صغيرة وتدفع بها إلى النار حتى وضعت فوقها قدرأ من البرونز . وكان زوجها قد جمع من حديقة البيت بعض الخضر ونزع عنها أوراقها ، ثم تناول من أحد عروق السقف فخذ خنزير مقدّد أخذ منه شريحة أنضجها في القدر البرونزى . وفي الوقت نفسه مضى المضيفان يشغلان ضيفيهما بحديث مسلّ حتى لا يضيقا بانتظار الطعام ، وقد ملأ لها إناء من خشب الزان كان معلقاً بمسار في الجدار بماه دافئ حتى يغتسل الضيفان ويتعشا . وكانت هناك حشوية متفخخة بحشائش النهر وأعشابها الجافة الرخوة موضوعة فوق أريكة خشبية تتوسط الغرفة ، فقاما وغطياها ببساط لم يكن يستخدم إلا في الأعياد ، وكان مع ذلك باليا لا يصلح إلا لتلك الأريكة الخشبية المتواضعة . وتمتد الإلهان على الفراش ، وقامت بؤكيس العجوز وقد شمّرت عن ساعديها ومشت مضطربة ونصبت أمامها منضدة ذات قوائم ثلاث إحداها دون الآخرين طولاً فوضعت بلاطة تحتها لتترن وذلك سطح المنضدة بورق التنعاع ، ثم بسطت فوقها التوت المرقّش الذى تعشقه الربة مینرفا الحكيمة والكرز البرى المحفوظ منذ الحريف في ثقل النيذ وكذا الهندباء والفجل الأحمر والجبن والبيض المنضج بفعل الرماد الحارّ بعد أن وضعت كل ذلك في أطباق من الفخار ، وأحضرت قنينة فضية وأقداحاً من خشب الزان المبطن بالشمع الذهبى اللون . وبعد قليل قدّمت للحم السخن ، ثم وضعت النيذ غير المُعتق على المائدة ناحية لتُفسح لأطباق أخرى كانت تحمل

٦٦٠

البنقد والتين والبلح المجفّفين والبرقوق والتفاح العَطِر في سلاله المكشوفة ، والعنب الأسود الناضج بين أوراقه الأرجوانية ، وكان في وسط هذه الفاكهة كلها قرص من العسل الأبيض ، وأبهى من هذه الوجبة كان وجها المضيفين الكريمين وترحابها السخّي .

٦٨٠ وقد لاحظ المضيفان خلال تناول العشاء أن إناء النبيذ كان يمنىء وحده كلما فرغ ، فإذا هما يذعران ويدهشان ، ورفعاً أيديهما ضارعين إلى الآلهة وأخذوا يعتذران عما قدّما من وجبة هيئة ، وعرضاً على الضيفين المقدسين أن يذبحا لهما ما عندهما من إوزة فريدة كانت تحرس عليها بيتهما المتواضع . وشرعاً بمسكان بالإوزة ، فإذا هى تهرب أمامهما مما أجهدهما سعياً وراءها لشيخوختهما إلى أن لاذت بالإلهين فحميها من أن تذبح معلنين إنيها إلهان وقالوا : « لسوف ينزل بجيرانكما العقاب الذى هم به جديرون لبحودهم . أما عنكما فستكونان بمأمن مما ينزل بهم ، ولكن عليكم أن تهجرا داركما وأن تصعدا معنا إلى قمة الجبل » ، واستجاب الزوجان العجوزان وتبعاً الإلهين وأخذوا يتسلّقان المرقى الطويل في عُسْر وجهد متكتئين على عصبويها مثقلين بشيخوختيهما .

٧٠٠ كان بين الزوجين وبين قمة الجبل مرمى سهم حين أدارا أعينها فرأيا مستنقعاً فسيحاً قد ابتلع كل شىء عدا دارهما التى بقيت قائمة وحدها ، وفيها هما يدهشان لهذا الأمر ويندبان حظ جيرانها ، لمحا كوخهما الذى كان يضيق بساكنيه يتحول إلى معبد ، فتقوم أعمدة رخامية مقام قوائمه الخشبية ويتحول الغناء [القش] المضمّر إلى سقف ذهبي ، وازدان بابه بنقش زخرفي جميل وتغطّت أرضه بألواح رخامية . وقال ابن ساتورن بصوت ملؤه الرحمة والرقّة : « حدّثني أيها الشيخ الصالح وأنت أيتها الزوجة الجديرة بزواج مولع بالعدل ، أى شىء تتمنيان ؟ » وبعد أن تشاور فيليمون مع بؤكيس برهة رفع للإلهين رغبتهما المشتركة قائلاً « أن نكون لكما كاهنين ولعبدكما حارسين . هذا ما نبغى أن نظفر به ، وإذ كنا قد أمضينا حياتنا معاً في وفاق تام فهل لنا أن نحين ساعة موتنا معاً فلا أرى محرقة زوجتي ولا تُودعنى هى في قبرى ؟ » .

وقد تحققت أمنيتهما ، فظلاً حارسى المعبد طوال الحياة التى قدّر لها أن يعيشها . وجاء يوم ناء فيه بطول العمر وكان يقفان أمام اللّرج المقدس يرويان قصة هذا المكان ، ورأت بؤكيس فيليمون يتغطّى بورق شجر ، كما رأى فيليمون أوراق شجر تغطى بؤكيس . وارتفعت قمة شجرة فوق وجه كل منهما ، فتبادلا الحديث ما رزقا القدرة على ذلك ، ثم صاحبا معاً « وداعاً يا زوجى . . . وداعاً يا زوجتي » وما لبث فهاهما أن اختفيا في لحظة واحدة تحت لحاء ساق الشجرة التى تحوّل كل منهما إليها . وما يزال فلاحو فريجيا يشيرون إلى الشجرتين المتجاورتين اللتين نمتا من جسديهما .

٧٢٠ ذلك ما قصّه على شيوخ جديرون بالتصديق لم يكونوا مدفوعين بدافع من الخداع أو التضليل . وقد رأيت أنا نفسى أكاليل معلقة بالأغصان ، كما قدمت أكاليل أخرى فضره بديلاً عنها بينما كنت أتمتم : « ما أقرب الأتقياء لقلوب الآلهة ، ومن يُكرّم الآلهة يُكرّم » .

إيريزيختون

وفرغ ليليكس من قصته التي تركت أثراً عميقاً في نفوس مُستمعيه ولاسيما في نفس ثيسوس الذي كان وجوده يعزّز صحة ما قيل . وإذ كان ليليكس بدوره يودّ أن يستزيد من معرفة المعجزات التي حقّقتها الآلهة ، لهذا تحدث إليه إله النهر معتمداً على مرفقه قائلاً : « هنالك يا أشجع الأبطال أجساد تحوّلت إلى صورة واحدة وبقيت عليها أبداً ، وهنالك أجساد أخرى تحوّلت إلى صور شتى متباينة . أنت مثلاً يا پروتيوس الإله ساكن البحر الذي يحيط الأرض بذراعيه قد شوهدت أحياناً في صورة شاب ، وأحياناً أخرى في صورة أسد ، وقد كنت يوماً خنزيراً برياً هائجاً ، ومرة أخرى ثعباناً يهرب الجميع الاقتراب منه ، أو ثوراً مهيب القرون ، وما أكثر ما كنت حجراً أو شجرة ، وأحياناً ماء جارياً . كنت أحياناً نهراً وأحياناً لهباً على عداٍ مع الأمواج .

٧٤٠

وكانت زوجة أوتوليوكوس ابنة إيريزيختون^(٢٦) تحظى بهذه القدرة نفسها ، غير أن أباهما كان يسخر من قدرات الآلهة ولا يطلق البخور في محاريبهم ، ويقال إنه انتهك حرمة غابة مقدسة لسيريس ودنّس أذغالها القديمة ببلطته ، فقد كانت بين أشجارها شجرة بلوط ضخمة تحيط بجذعها الشرائط واللوحات التذكارية وأكاليل الزهور شواهد على الوفاء بنذور تحققت . وكثيراً ما كانت الحوريات يؤدّين رقصاتهن المرححة في ظلالها ، كما كن يعقدن أذرعتهن ويشكّلن دائرة حول جذع هذه الشجرة التي يبلغ محيطها خمسة عشر ذراعاً ، ويفوق ارتفاعها ارتفاع الأشجار الأخرى بقدر ما كان ارتفاع هذه الأشجار يفوق ارتفاع العشب المحيط بها ، ولم يثن هذا إيريزيختون عن أن يأمر أتباعه بقطع هذه الشجرة . وإذ رآهم يترددون لم يتورّع هو عن أن ينتزع البلطة من يد أحدهم قائلاً : « لسوف تسقط وتلامس قمتها الخضراء الأرض سواء أكانت شجرة عزيزة على الإلهة أم كانت هي نفسها الإلهة » . وهوى بالبلطة خلال نطقه بهذه الكلمات على جذع الشجرة بضربة قاطعة فإذا شجرة سيريس تهتز وتثن ، وإذا أوراقها وثمارها وأغصانها الطويلة تشحب . ولم يكد يشقّ جذع الشجرة حتى تدفق دم غزير أشبه ما يكون بدم ثور نُحر قرباناً في المذبح .

٧٦٠

سكن الجميع وعرتهم الدهشة ، وحاول أحدهم أن يحول بين هذا الاعتداء الأثيم ويردّ البلطة القاسية ، فحدهج إيريزيختون بنظرة قائلاً : « خذ هذه كفاء نوابك الورعة » وضربه بالبلطة ضربة شجّت رأسه ثم استدار إلى شجرة البلوط يلاحقها بضرباته . عندها انبعث من جوف الشجرة صوت يردد : « أنا حورية من حوريات الإلهة سيريس أغيب في طيّات هذه الشجرة ، أنذرك وأنا ألفظ أنفاسي الأخيرة بأن عقابك على جرمك آت عما قريب ، وفي ذلك ما يخفّف عنى فراقى للحياة » . وعندما أوهنت الضربات المتتالية الشجرة وأخذت تهتز ثم شدّت بالحبال سقطت محطمة تحت ثقلها الرهيب عدداً كبيراً من الأشجار المجاورة .

حزنت الحوريات الأخرقيات حزناً بالغاً على تلك الخسارة الفادحة التي لحقت بهن وبالغاية ، وجعلن ييكن شقيقتهن وارتيدين عليها ثياب الحداد السوداء ، ودنون من سيريس حزينات يسألنها أن تنزل عقابها بليريزيمثون فهزّت الإلهة رأسها قبولاً منها لما سألن ، ثم أتت على الحقول بحصاها الوافر ، واشتطت في عقابها عما كان يثير في الناس أحياناً الشفقة على المذنب ، ولكن ما طُبع عليه من إجرام بشع نزع الشفقة عليه من قلوب الناس ، فتركت الجوع يعض في جسده . ولم يكن من اليسير أن تذهب الإلهة سيريس للقاء « ربة الجوع » المهلكة [فالقدر لا يسمح بلقاء سيريس مع ربة الجوع]^(٧٧) فاستدعت سيريس إحدى حوريات الجبال قائلة : « في أقاصي أراضي سكوتيا مكان ثلجي منعزل لا ينمو فيه شجر ولا نبات ، يسكنه أرياب الصقيع والشحوب ورعشة المرض والجوع الذي لا يشيع قط ، مري ربة الجوع هذه أن تنفذ إلى جوف ذلك المعتدى على المقدسات ، وألا تهزم أمام وفرة الغذاء ، وأن تحارب في صفى حتى لو ذهبت بوفرق ، ولا يفرعك طول الرحلة . خذى مركبتى ودوابى الوحشية المجنحة وقوديا عبر الفضاء »^(٧٨) ، وأسلمتها سيريس المركبة فانطلقت بها الأوريدة^(٧٩) في أجواز الفضاء حتى بلغت سكوتيا ، ففكّت قيود الدواب فوق قمة جبل ثلجي يسمى القوقاز ، وأخذت تبحث عن « ربة الجوع » فوعدت عليها في حقل صخرى تنتزع بأظافرها وأسنانها أعشاباً هزيلة ، ووجدتها شعناء الشعر غائرة العينين شاحبة الوجه يكسو شفيتها زبد أبيض كريحه ، وفي حلقها بحة صوت حزينة ، وجلدها مشقق يكشف عن أحشائها للرائي وقد نأت عظام خاصرتها المقوسة المعروقة ، ومعدتها خاوية فبدأ صدرها معلقاً لا يكاد يمسه غير عمودها الفقرى ، ويدت مفاصلها من فرط هزالها ، وظهرت غضاريف ركبتيها شبيهة بالورم ، كما برز عظم كاحلها . وحين لمحتها الحورية خاطبتها على البعد [لأنها لم تجرؤ على الاقتراب منها] وأبلغتها رسالة الإلهة ولم تنتظر إلا برهة صغيرة ، وكانت قد وقفت بعيداً إذ ما كادت تبلغ المكان حتى أحست لساعتها بالجوع يهددها ، فأدارت مركبتها وعادت إلى هايمونيا .

ومع أن نشاط ربة الجوع لا يتفق ونشاط سيريس إلا أنها أمضت أوامر الإلهة بدقة ، وقد حملتها الريح عبر الأجواء حتى بلغت الدار المعينة لها ، وتسلمت مباشرة إلى غرفة نوم الكافر فوجدته في سبات عميق [إذ كان الوقت ليلاً] وأحاطته بذراعيها واحتضنته ونفذت إليه عبر أنفاسه ، وأخذت تملأ بنفثاتها فمه وحلقه وصدرة ، وأشاعت في شرايين النائم الحاجة إلى الغذاء ، ولم تكد تنهى مهمتها حتى غادرت تلك المناطق الحصبة وعادت إلى مأواها القفر وسط حقول الجذب التي اعتادت الإقامة بها .

رأى إيريزيمثون وهو ما يزال ينعم بلمسات أجنحة النوم الحانية تهدده أنه يبحث عن طعام ، ومضى يلوك شيئاً لا وجود له حتى أجهد أسنانه من كثرة ما اصططكت ، وأضنى حلقه المخدوع بابتلاع غذاء وهمي فكان يزدرد بدلاً من الطعام هواء لا نفع فيه ، حتى إذا استيقظ أحس رغبة عارمة في الطعام تنهش حلقه النهم وأحشائه الخاوية . وأسرع يطلب كل ما تنتجته الأرض والبحر والفضاء ، وراح يشكو أنه يموت جوعاً وبين يديه المائدة المتخمة بأنواع الطعام فيطالب بالمزيد ، ولم يعد يكفيه وهو رجل واحد ما يكفي مدناً عديدة وشعباً كاملاً ، وأصبحت معدته أشد ما تكون لهفاً إلى الطعام كلما امتلأت به ، كالبحر يتلقى بين

شطآنه مياه أنهار الأرض كلها دون أن يرتوى ظمؤه أو يكفّ عن ابتلاع مياه قنوات الأقطار البعيدة ، أو كالنار العاتية التي لا يقلت منها شيء وتلتهم كتل الأخشاب التي لا تُحصى ويزداد نهمها كلما ازداد ما يُقدّم لها من مواد وتزداد حدّة كلما توقّف لها ما تلتهم . كذلك كان فم إيريزيخثون يزدرد الأطعمة كلها مطالباً بالزيد ، ٨٤٠ كل طعام يحرك فيه الرغبة إلى غيره ، فكانت كثرة الأكل تزيد أحشائه فراغاً وخواء .

وتضاءلت ثروة آباءه وأجداده لإشباع جوعته وملء بطنه ، ومع هذا لم يخمد جوعه الشرس وبقي نهمه العارم يذكر حدّة . وبعد أن قذف كل ما يملك في أحشائه بقيت بين يديه وحيدته التي كانت ما أولاًها بابّ غيره ، فإذا هويبيعه لسدّ مسغبته . غير أنها كان لها كبرياؤها الذي لا تخضع معه لسيد ، فمدّت يديها إلى البحر القريب ضارعة : « لك وحدك يا إله البحر أن تحرّري من عبوديتي ، يا من وهبت لك عُذرتي » . فاستجاب الإله نبتون لضراعتها إذ كان قد استمتع بها من قبل . وكان مالكها الذي آلت إليه يقفو أثرها ويتتبع خطاها حينما حوّلها الإله إلى صورة أخرى ، فإذا هي على قسبات رجل يرتدى ثياب صياد سمك ، وإذا مالكها يرى بين يديه صياد سمك ، وإذا هو يقول له :

« أنت يا من تخفي تحت الطعام الخفيف شصك البرونزي ، أنت يا من تحيد تحريك قصبه الصيد ، كم أتمنى أن تبدأ مياه البحر لك دوماً وأن يتخدع لك السمك تحت المياه فلا يحسّ بشصّ إلا بعد أن يعلق به . منذ برهة وعلى هذا الشاطئ كانت تقف فتاة في ثياب بسيطة شعشاء الشعر ، ويعينى هاتين رأيتها منذ قليل . خبرتني أين هي فإن آثار أقدامها تشي بأنها لم تذهب بعيداً عن هذا المكان » ، وأدركت الفتاة أن الإله كان موفقاً فيما احتال به لخلاصها ، وما أشد ما اغتبطت حين سأل مالكها عن مكانها ، فأجابت : « معذرة يا سيدي كائنات من كنت ، فإنني لم أصرف نظري عن المياه العميقة ، إذ كنت أشدّ ما أكون انتباهاً إلى صيدى . ولكي أحو شكوكك فإنني أشهد إله البحر الذي يعينني في مهمتي على أن أهدأ غيري رجلاً كان أو امرأة لم يظهر على هذا الشاطئ منذ وقت طويل » ، فصدّقها سيدها واستدار يدوس الرمل بقدميه وابتعد بعد أن انخدع بالحيلة . وبعدها عادت الفتاة إلى صورتها الأولى

وحين علم أبوها أن ابنته حفيذة تريوياس تملك القدرة على التحوّل من صورة إلى أخرى ، باعها مرات عدة إلى سادة مختلفين ، فكانت تهرب منهم متخذة صورة ماهرة مرّة وصورة طائر مرّة ثانية وصورة ثور يوماً وصورة وعل يوماً آخر ، وكانت تحمل إلى أبيها النهم أطعمة مختلفة . ولما نفذ كل ما كان يمكن أن يطعمه دفعته حدّة الجوع القارص إلى البحث عن غذاء جديد لسدّ مسغبته ، فأخذ إيريزيخثون الشقيّ يقطع أعضاء جسده بأسنانه ليغذّي بها نفسه .

٨٨٠ ولكن كيف لي أن أضيّع الوقت أيها الفتيان في سرد قصص الآخرين ، على حين أرى أستطيع أن أتحوّل وأظهر في صور عدّة وإن كانت محدودة . فأنا أظهر أحياناً كما ترونني الآن ، وحينما أتحوّل إلى ثعبان ، وحينما أبدو ثوراً يتصدّر القطيع قوته كلها في قرنيه . وأقول قرنين لأنه كان لي هذان القرنان ، وأنتم الآن ترونني ونصف جبهتي أعزل وأعقت كللته هذه ات

التعقبات

(١) السيرتيس هي تلك المياه الضحلة بالقرب من شواطئ تونس وطرابلس وبيرقة والسيرتيس الكبرى [وتقابل خليج سدر اليوم بين بنغازي ومسراطه] هي الجزء الجنوبي الشرقي لهذه المنطقة الخطرة أمام الملاحنة بسبب الشط الرمل المخفي تحت سطح البحر . والسيرتيس الصغرى [وتقابل خليج قابس] هي الجزء الجنوبي الغربي منها . وثمة من يقول إن خطورة هذه المياه ليست سوى شائعة أطلقها التجار الفينيقيون حتى يفرضوا احتكارهم للتجارة في هذه المنطقة حارمين منافسيهم منهم . فالمعروف أن هذه السمعة لم تمنع ازدهار التجارة في جزيرة ميننكس [جربه] التي اشتهرت بتجارة الصبغات الأرجوانية وميناء تاكاهي [قابس الحديثة] وميناء تابارورا [سفاس الحديثة] .

(٢) هامت پاسيفاي زوجة مينوس ولما بثور ظهر بفتة من المياه بمشيئة نبتون فأمرت دايدالوس بأن يصنع بقرة جوفاء من الخشب كانت تنمخى داخلها كي تضاجع الثور الذي أنجبت منه إنثى هو المينوطور [الوحش ذورأس الثور وجسد الإنسان] . وإذ اشتمت الملك مينوس من رؤيته أمر بسجنه في المتاهة . ويبدو أن أسطورة البقرة الخشبية من أصل مصري ، إذ يذكر هيرودوتوس في الكتاب الثاني من تاريخه قصة تخنيط إنثى منكوروع ودفنها في تمثال خشبي أجوف لبقرة مطلية بالذهب .

(٣) يُرجع أولفيد كلمة كريس - دون أدلة - إلى الفعل اليوناني « خيرين » الذي يعنى قلع أو جز .

(٤) ثمة رأى يقول إن دايدالوس هو اسم أسطوري يعنى المهندس الصانع ، ويقال إنه من أهل أثينا وإنه ينتمى إلى أسرة آل إيرينثيوس . وكانت ثمة عشيرة في أثينا اسمها آل دايدالوس ، والراجح أن دايدالوس الحقيقي هو الذى قتل ابن أخته ، أما دايدالوس الأسطوري فهو مبدع الفنون بما فيها النحت والحجارة وحفر الخشب والعاج ، وقد نسبت إليه تمثال عدة ترجع إلى العهد السحيق ، فسمى أوائل المثاليين في أثينا بأبناء دايدالوس . وليس هناك دليل تاريخي على قصته التي حدثت في كريت إلا أنها تدل على الأهمية الكبرى التي كان يعطيها الإغريق للحضارة الكريتية في تاريخ ثقافتهم وفنونهم .

(٥) يتيح لنا هذا الوصف للمتاهة أن ندرك الأسس التي بنيت عليها الأسطورة ، فقصر مينوس الذي تم الكشف عنه في كنوسوس عبارة عن مجموعة لا تحصى من القاعات ذات المنافع المختلفة ، فمنها قاعة العرش وقاعة العبادة وقاعة الحرم وقاعة الجلوس والمخازن وما إلى ذلك ، وكلها متصلة بعضها ببعض الأمر الذي لا بد قد أصاب بالحيرة الإغريق الذين ألفوا بساطة تصميم مبانهم . وقد تكون كلمة « لايرينثوس » أى المتاهة مشتقة من الكلمة اليونانية في لهجتها الكارية [لايريس] التي تطلق على البلطة المزدوجة . ومعروف أن هذه البلطة دور كبير في الديانة الكريتية فهي منقوشة على أعمدة المعابد وعلى الحشوات المحفورة .

وقد تكون المتاعه هي « قصر البلطة » دون أن يُقصد بها متاعه ، غير أن هذا الاشتقاق مازال موضع جدل وبحث . ويُرجع البعض النور إلى أصول أسطورية مصرية إلا أنه موجود في الرسوم الجدارية لقصر كتوسوس في مشاهد لمسابقات الثيران . وقد عثر في حفائر كتوسوس على رموس ثيران من الفضة ذات قرون من الذهب انبثقت منها البلطة المزودة المشار إليها ، وما يزال الأمر يكتنفه الغموض .

(٦) المعروف أن مينيوس كان قد فرض على أهل أثينا جزية سنوية من سبعة شبان وسبع فتيات يُقَلَّمون غذاءه للمينوبور . وكان ثيسبيوس قد تطوع بمحض إرادته ضمن أفراد هؤلاء الضحايا كي يقضي على الوحش . أما ديا فهو اسم قديم لجزيرة ناكوسوس .
(٧) كوكبة الإكليل الشمالي (أو الفَكِيكَة) الموجود بين نجم الجاثي على ركبته [أو نجم الراقص] وكوكبة حامل الثعبان [الحورية] .

(٨) يوصى دايدالوس هنا ابنه بنفس النصائح التي أوصى بها فوبيوس ابنه فاثيرون في الكتاب الثاني .
(٩) يُخطئهُ أوفيد هنا كما أخطأ في وصفه لطيران ميديا في الكتاب السابع ، إذ تقع ساموس إلى الشمال الشرقي من جزيرة إيكاريا التي سقط بجوارها إيكاروس ، في حين تقع ديولوس شمال پاروس ، وجزيرتا لبتنوس وكاليثي شرقي ناكوسوس .

(١٠) يروي أن دايدالوس قد التجأ إلى صقلية محتمياً بالملك كوكالوس ملك كاميكوس [أجريجتوم الآن] ، فجاهه مينيوس بأسطول ضخم يطالبه بالمهاجر . وتظاهر كوكالوس ودعا مينيوس إلى وليمة حيث قتله غرقاً في حمام من الماء المغلي بمساعدة بناته . وكانت هذه الأسطورة موضوع مأساة مفقودة لسوفوكليس اسمها « كالميكي » .

(١١) كاليدون مدينة في إيتوليا على ضفة نهر إيفينوس وكان ملكها أوبينوس هو والد ملياجر .
(١٢) سيريس أو كريس إحدى ربوات اللاتينيين تقوم بإخماء الزرع وحمايته .

(١٣) يبدأ أوفيد هنا سرد أسباه الأبطال الذين اشتركوا في صيد الخنزير البري مثلما فعل حين سرد أنواع الكلاب في مصرع أكتايون [الكتاب الثالث] ، ويرى البعض أن هذا الميل إلى السرد لم يكن مجرد نزعة انفراد بها أوفيد بل إنه قد اقتبسه عن مصدر أسمى مجهول الاسم .

(١٤) انظر الكتاب الثاني عشر (١٨٩) .

(١٥) كان أمفيارابوس الأرجوسي عرّافاً مشهوراً تنبأ بالموت لكل من يشترك في الحرب ضد طيبة . وكانت زوجته إيريفيليه قد فُتنت بالمعدد اللهي الذي أهدها إليها بولينيكه وكان في الماضي عقد هارمونيا زوجة كاداموس . وعندما قرر أدراستوس ملك أرجوس وشقيق إيريفيليه أن يشن الحرب ضد طيبة بناء على رغبة بولينيكه طالب أدراستوس صهره أمفيارابوس أن يخرج معه إلى القتال فاختبأ أمفيارابوس في بيته لأنه يعلم سلفاً أنه ملاق حتفه في المعركة حسب نبوءته هو نفسه ، فاجبرت إيريفيليه زوجها على الاشتراك في هذه الحرب . وبعد أن لمي طلبها صاغراً أرسل جوبيتر صاعقة شقّت الأرض أمام قلعيه فابتلعته ، ويقال إنها حيلة لجأ بها جوبيتر كي يضمن له الخلود . وما تزال أطلال معبده الذي كان يتنبا فيه بالغيث قائمة بجوار قرية أوروبوس في أتিকা .

(١٦) هي أتالانتا من تيجيا [في أركاديا] بنت ياسوس ، تركها أبوها في العراء لأنه كان يأمل أن ينجب ولداً مكانها ، فأرضعتها دبة وعاشت على الصيد في الغابات [انظر الكتاب العاشر] .

(١٧) اسم جبل في أركاديا .

(١٨) هن ربوات الأقدار كلوثو ولاخيسيس وأثروپوس .

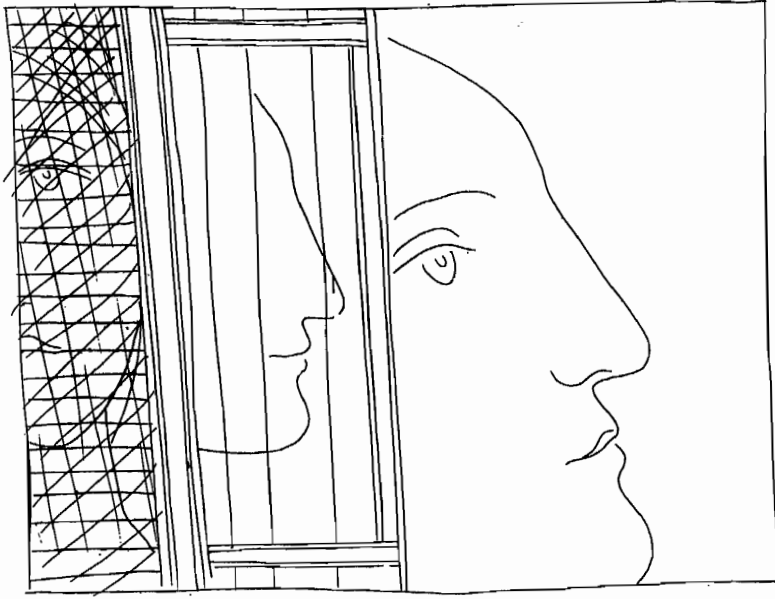
(١٩) تقوم ربوات الأقدار برعاية قوانين الأسرة التي تحرم قتل الأقارب ، وقد قتل ملياجر خاليه فاستحق عقابهن .
(٢٠) يفصل نهر أخيلوس بين نهر أركانتانيا وليتوليا في غربي اليونان ، ويزداد فيضانه حين يصل غرب كاليدون ، ولم يكن هذا النهر في الواقع على طريق عودة ثيسبيوس إلى أثينا . ويعد هذا النهر أطول أنهار اليونان وأغزرها مياهاً .

(٢١) هو بيريثوس نديم ثيسبيوس الذي رافقه حينما هبط إلى العالم السفلي . [انظر قصة زفافه إلى هيوداميا وما وقع فيه من عراق بين اللابيث والفتنطور في الكتاب الثاني عشر] .

(٢٢) لا علاقة بين ليلكس في هذا الفصل وليلكس الوارد في الكتاب السابع .

(٢٣) أرخبيل من الجزر الصغيرة الأهلة عند مصب نهر أخيلوس على الشاطئ الغربي لأركانتانيا ، ومن وقت لآخر كان الغرين يقوم مقام الجسر بين هذه الجزر .

- (٢٤) لم يكن بيرثوس كافراً بالآلهة مثل أبيه إيكسيون الذي حاول ذات مرة أن يتك عرض جونو . وكان بيرثوس قد هبط إلى العالم السفلى في رفقة ثيسوس لكي يختطف بيرسيفون ، غير أن هاديس اعترض طريقه وكبله بالأغلال . واستطاع هرقل فيما بعد أن يفك أسره وأن يعيده إلى الأرض مع صديقه ثيسوس .
- (٢٥) ليلكس هو ابن بيثوس بن بيلويس بن تانتالوس الذي ولى عرش فريجيا ، ثم التجأ إلى اليونان بعد أن بعثته الآلهة من الموت [انظر الكتاب السادس ٤٠٣ وما بعده] .
- (٢٦) هي منسترا . وليست القصة التي سيرويتها أولفيد عن عذاب الجوع الذي فرضته الإلهة ديميتر على ليريذبخثون إلا توطئة تفسر كيف تلتقت منسترا من نبتون هبة تحول شكلها من حال إلى حال . وكان زوجها أوتوليكسوس بن هرمس قد تلقى عن أبيه القدرة على سرقة ما يريد دون أن يضبط متلبساً وذلك لقدرة أيضاً على التشكل كيفما يريد . وكان أبا لانتيكليا أم أوديسيوس . ويقال إن مكر أوديسيوس كان موروثاً عن جدّه هذا [انظر الكتاب الحادي عشر والكتاب الثالث عشر] .
- (٢٧) لاغرو فسيريس هي ربة الخصوبة والحصاد الوفير .
- (٢٨) المركبة التي تجرّها التناثين المجنحة ، وكانت ديميتر [سيريس] قد أعطتها من قبل لتريتوليموس ليمنح بها إلى البشر ، كاشفاً عن خيرات الأرض . وقد شاع تصوير تریتوليموس فوق مركبته في الفنون الإغريقية .
- (٢٩) حورية الجبال والمضباب .



بيكاسو

الكتاب التاسع

أخيلووس وهرقل

سأل البطل ابن نبتون الإله أخيلووس عن سر أنينه وعما أصاب جبينه من سوء ، فأجابه إله نهر كاليديون وكانت خصلات شعر رأسه تنسدل تحت تاج من قصب الغاب قائلاً : « إنك تطلب صنيعاً يكلّفني إسداؤه الكثير ، وهل لمهزوم أن يفخر بمعاركه ؟ ولكني سوف أكون أميناً فيما أقصّة عليك . إن الخجل من الهزيمة يهون أمام مجد خوض المعارك ، وعزائي أن خصمي كان بطلاً عظيماً ، ولعل أصوات الجباهير قد حملت إلى سمعك اسم ديانيرا ، فقد كانت في الماضي عذراء نادرة الجمال يتنافس عليها خطّاب عديدون ، فمضيتُ مثلهم إلى دار من كان يتمنى كل منا أن يصاهاهه ، وقلت له : « فلتقبلي زوجاً لايتك يا ابن پارثاوون » . كذلك قصده هرقل هو الآخر فانسحب المتنافسون الآخرون حين تباهى منافسي الوحيد بأنه يقدم أباه چويتر ليكون هو الآخر حما للفتاة ، ثم مضى يستعرض جلائل أعماله بتغلبه على الأخطار التي عرّضته لها زوجة أبيه [چونو] . ولقد احتججت على ما ساقه من أسباب تزكيه بقولي : عارٌ

٢٠ على إله أن يتدنّى فبيح لواحد من البشر أن يُصهّر إليه ، [فلم يكن هرقل قد أصبح إلهاً بعد] . إنك ترى أننى سيد النهر الذى تتعرج مياهه فى مملكتك ، وأننى لن أكون ذلك الصهر الغريب الوافد إليك من بلد نازح ، بل صهراً مختاراً من بلادك وواحداً من بين رعاياك . وحسى أن چونو ملكة السموات لم تطاردنى عن كراهية ، وأن أحداً لم يفرض علىّ عملاً عقاباً لى . أو تفخر يا ابن ألكمينا بأنك ولد جوبيتر مع أنه ليس أباك ؟ وإن صحّ هذا فلم يكن إلا عن خطيئة . إنك حين تدعو جوبيتر أباً ترمى أمك بالزنا ، فاختر أحد أمرين : ألا يكون جوبيتر لك أباً أو أن تكون أمك قد أهدرت شرفها .

٤٠ ولم ين هرقل عن أن يتوعدنى بنظراته خلال حديتى ، وعجز عن أن يكتم غضبه المشتعل فى نفسه ، فصاح بى : « إن ذراعى يفوق لسانى ، ولسوف أترك لك ميدان الكلام ، وحسى أنا ساحة الوعى » ، وتقدّم نحوى بخطى جريئة ، ونخجلت أن أترجع بعد كل ما صدر على لسانى من زهو وتباه ، فخلعت عنى عباءة الخضراء ومددت ذراعى وتأهبت وثنيت قبضتى إلى صدرى وشمرت للعراك ، فقبض هو تراباً فى كفّه نثره علىّ ، فغطيت به دورى بالرمال حتى بدا أصفر اللون ، وكان يحاول أن يقبض تارة على عنقى وتارة على ساقى وكنت دائب الحركة بها كى أفلت منه ، إذ كان يلاحقنى ويسدّ علىّ كل منفذ ، وكان ثقل وزنى يجمى من ضرباته ، وكنت ككتلة من صخر تقف صامدة فى وجه الأمواج التى تحيط بها صاحبة ، غير أن هرقل لم يأبه وكان من ضخامة جسمه ما يكفل حمايته . وتباعد كل منا عن خصمه لحظات ثم ما لبثنا أن تقاربنا لستأنف العراك ، وتشبّث كل منا بمكانه فى حزم لا تقبل معه استسلاماً ، ولا مست قدمائيه ، وانحنيت بصدرى إلى الأمام ، وأخذت أعتصر أصابعه بأصابعى ، وأدفع جبهته بجبهتى ، وكنت قد شهدت قبل ذلك ثيراناً تتصارع على هذا النحو وهى تتنافس على أجمل بقرات القطيع ، وكان القطيع يرقب المتصارعين دون أن يعرف لمن تكون الغلبة فيظفر بالزعامة . وحاول هرقل مرات ثلاث أن يدفع صدرى بعيداً عنه ولكنه لم ينجح إلا فى الجولة الرابعة ، فقد استطاع فك قبضتى وإرخاء ذراعى المشدودين ثم سدّد إلىّ ضربة أدارتنى حول نفسى [فيجب أن أعترف بالحقيقة كاملة] ثملقى بكل ثقله على ظهرى . ولتصدّقنى فلست أحاول الزهو بادعاء الأكاذيب ولست أبالغ حين أقول إننى أحسست كأن جبلاً يدكّنى . وقد نجحت فى أن أدسّ بين جسدنا ذراعى اللتين كانتا تتصبيان عرقاً ، وأن أخلّص جسدى من ذراعيه اللتين كانتا تطوّقان عنقى ، بينما كنت ألهت وهو يضيق علىّ الخناق ولا يدعى أسترذ أنفاسى ، إلى أن أمسك بعنقى فتهاترت ركبتائى على الأرض وأخذت أعضّ الثرى .

٦٠ وحين أدركت أننى أضعف منه احتلت كى أفلت من قبضة البطل فتحوّلت ثعباناً طويلاً ، ورُحْتُ أحموى مرسلًا لسانى المشقوق بفحيح كربه ، فانطلق هرقل التيرنثى مستهزئاً بحيلى ، وقال : « لقد كانت هوائى فى طفولتى الفتك بالثعابين ، وإذا كنت تفوقنى قدرة فلست غير ثعبان وحيد لا يصل العديد من أمثالك إلى قوة الهيدرا الليرناوية التى كانت جراحها نمّدها بالمزيد من القوة والبأس ، فكانت كلما قُطع لها رأس من رعوسها نبت مكانه رأسان ويزداد عنقها صلابة وقوة ، وعلى الرغم من رؤوس الأفاعى العديدة التى كانت تتشعب منها ، وعلى الرغم من تزايد قواها مع كل محاولة للئيل منها فقد سيطرت عليها وقهرتها

وأحرق جسدھا . تحمیل إذن ما سوف یحیی بك بعد أن تحوّلت إلى ثعبان زائف تقاتل بأسلحة غريبة عليك وتتحفّی فی شكل مستعار ! . وحين انتهى من كلماته أطبق بأصابعه على حلقى حتى كدت أختنق ٨٠ وحاولت جهدى الإفلات من قبضته . وحين قهرنی ثعباناً استحلحت ثوراً مفترساً ، وهى الصورة الثالثة التى بقيت لى ، ونشب القتال بينى وبينه ، فانقضَّ علىَّ من الناحية اليسرى ولفَّ ذراعيه حول عنقى ، ومع تراجعى أخذ يلتصق بى ويضغط بكل ثقله على رأسى حتى غرس قرنىَّ فى الأرض ومرغنى فى التراب ، ثم أمسك أحد قرنىَّ بقبضته العاتية وحركه حتى انتزعه من جبهتى التى تشوّت وطوّح به ، وأسّرت الحوريات إلى القرن فملأنه بالفاكهة والزهور العطرة وقدمنه قرباناً مقدساً للآلهة ، فازدادت إلهة الرخاء الخيرة ثراء بقرنى .

وحين فرغ أخيلووس من حديثه تقدمت إحدى قبان الحوريات مرتدية ثوباً على غرار ثياب ديانا ، ومرسلة شعرها يتموّج على كتفيها ، وحاملة قرناً مليئاً بمختلف ثمار الخريف الشهية . ولم يكد النهار يطلّ على قمم الجبال مع أشعة الشمس الأولى حتى بادر الأبطال بالزحيل دون ترقب لعودة النهر إلى سكونه الطبيعى فى مجراه قبل أن ترتدّ مياهه عن الضفتين ، وعندها أخفى أخيلووس بين الأمواج وجهه الريفى القسأت وجبهته التى فقد أحد قرنيها .

نيسوس وموت هرقل

١٠٠ لم يفقد إله النهر فى معركته غير هذه الحلية التى سلبه إياها خصمه المنتصر بينما بقى جسدھ كله سليماً . لم يمسه سوء ، وقد اعتاد أن يخفى هذه السوءة تحت تاج من أوراق الصفصاف أو من الغاب . أما أنت يانيسوس المتعطر فقد لحق بك الهلاك الذى صبّه عليك حبك وهيامك بالعذراء ديانرا بعد أن اخترق ظهره سهم خاطف .

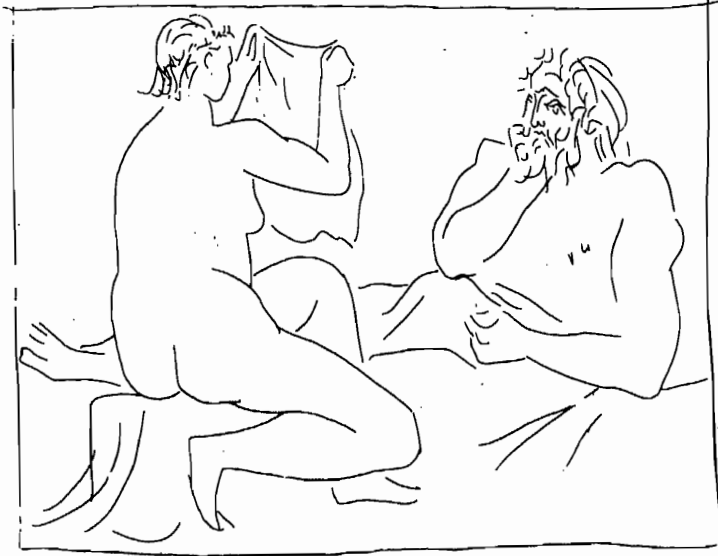
ففىما كان هرقل بن جويتر عائداً إلى وطنه مصطحباً عروسه الجديدة بلغ شاطئ نهر إيفينوس المصطخب الأمواج فوجده فائضاً على غير العادة بمياه الأمطار المشتوية التى كانت تثير فيه دوّامات عديدة يصعب معها عبوره . ولم يكن هرقل يجشى على نفسه بل كان قلقاً على زوجته ، وعندما اقترب منه القنطور نيسوس الجبار الذى كان خبيراً بأماكن العبور الضحلة وقال : « دعنى أحمل عنك هذه السيدة إلى الشاطئ الآخر ، فأوفّر عليك جهدك لتتقوى أنت على أن تعبر النهر سابقاً » ، عهد البطل البيويق إلى القنطور نيسوس بعذراء كاليدون التى عراها الشحوب وحلّت بها الرعدة هلعاً وخوفاً من النهر ومن نيسوس ، وطوّح هرقل بقوسه وراوته إلى الضفة الأخرى ، وأخذ يحادث نفسه وهو مثقل بكنايته ويجلد الأسد الذى يرتديه قائلاً : « أما وقد شرعت فى خوض النهر فلأمض إلى أن أبلغ الغاية » . وألقى بنفسه فى الماء دون تردّد ودون أن يعبأ بالمناطق التى تهدأ فيها حثّة المياه أو بالمناطق الأخرى التى تتدفق فيها المياه . وحين انتهى

١٢٠ إلى الضمّة الأخرى التقط القوس الذى كان قد طوّح به ، وإذا هو يسمع صراخ زوجته ، فتبين أن نيسوس كان يحاول أن يموت في زوجته التى حملها . فصاح به : « إلى أين تندفع أيها الوجود مستخدماً سرعة ساقيك خادعاً إياى بأباطيلك ، إننى أحاطبك يا نيسوس ياذا الخلقين ، اصغ إلىّ وحذار أن تسلبنى زوجتى ، وإذا لم تُرّع حقوقى فلتتعطّ بالعجلة التى رُبط بها أبوك من قبل بسبب عشق محرّم^(١) فلن تغفلت منى ، ولن يجديك ما رُزقته من صفات الخليل فستلاحقك سهامى قبل أن ألحق بك عدوّاً . وسرعان ما نفذ ما قال أخيراً ورمى بيده سهماً نفذ في ظهر الفتطور الهارب وأطلّ سنّه المعقوف من صدره . ولم يكد نيسوس يتزع السهم من صدره حتى تدفّق الدم من جرحه يمازجه سمّ^(٢) الهيدرا الرهيب ، فكتم الدم الدافئ المتدفق بقميصه ليجعل منه وسيلته للثأر ، مناجياً نفسه : « لا . لن أقضى نحسى دون قصاص » ، وقدم قميصه المُسبغ دماً للعدراء التى اختطفها راعماً أنه عودة تحرّك دفين الحب .

١٤٠ ومرّ وقت طويل ، وكانت أمجاد هرقل العظيم قد عمّت الكون وزادت من حقد جونو زوجة أبيه ، وحين عاد متصراً من أويخاليا^(٣) أخذ يتأهب لتقديم القرابين تمجيداً لـجوبيتر ووفاء بنذره في كينايوم^(٤) . وانتهى إلى سمع ديانيرا ثروة ربّة الشائعات التى يمتزج الزيف فيها بالحقيقة وتزكّيها بأباطيلها ، التى تبدأ تافهة ثم تنمو شيئاً فشيئاً فإذا هى أخيراً قصة عشق تربط بين زوجها ابن أمفيتريون وبين ينولى . وصدّقت الزوجة النبأ ، ولم تكذ تسمع قصة هذا الغرام الجديد حتى أرسلت البائسة الدمع يفيض من عينيها لتروّح عن همّها . ولكنها عادت تناجى نفسها وتقول : « فيم هذا البكاء ، فما أسعد غريمى بأن ترائى باكية ، وإذ كانت لا بد قادمة علينا فعلىّ أن أبادر قبل فوات الفرصة فأهتدى إلى وسيلة أحول بها بينها وبين أن تسلبنى فراشى . أيجزّ لى أن أجار شاكية أم ألزم الصمت ، أأعود إلى كاليدون أم أبقى هنا ؟ أهجر دارى أم أبقى فيها لأعكرّ عليها صفوها ، إذ لا حيلة لى أن أفعل غير هذا . وأذكرّ أننى أختك يا ملياجر^(٥) ، ولسوف أكيل لها ضربة قاصمة تقضى عليها لتدرك كيف يفعل الحزن بامرأة امتهنت واعتدى على كرامتها » . غير أن فكرها ضلّ بين التجاهات عدّة ، وقرّ رأياها على أن تبعث بقميص نيسوس الملطّخ بدمه إلى زوجها لكى يشعل فيه الحب الذى نجا دون أن يساورها شك في خطر قد يحدق به ، فلم تكن ديانيرا تحال أن هذا القميص سيُلْبسها ثوب الحداد ، فعهدت به إلى ليخاس الذى لم يخالج ذهنه هو الآخر شك في أمره وأسرت إليه بكلمات رقيقة طالبة إليه أن يقدمه هدية لزوجها البطل الذى تقبله دون أن يدرى ما يجنبه له القدر ، فألقى على كفيه ذلك القميص الملطّخ بسم الهيدرا الليرناوية .

١٦٠ وفيما هو يحرق البخور بين السنة النيران المنبثقة متمتماً بصلواته للأله ساكباً الخمر على المذابح الرخامية من دورق في يده ، كان السم يسخن ويذوب من حرارة النار ويسرى أثره المدمر حتى بلغ أطراف جسده . وقاوم البطل آلامه ما استطاع بشجاعته المعهودة دون أن يثنّ أنه واحدة ، حتى إذا نفذ صبره حطّم المذابح وملاً غابات أويتا بصرخاته وانطلق مهرولاً وهو يمزّق القميص المشوم ، غير أنه مع كل مُزّقة منه كان يتزع قطعة من جلده . ألا ما أبشعها من ذكرى ! لقد كان القميص أشد ما يكون التصاقاً بجسده فكان عسيراً عليه أن ينتزعه من فوق جسده إلّا وقد انتزع معه ما يترك عظامه وعضلاته عارية . وكما كانت

دماؤه تتزّ أزيز الحديد المُحمى عليه في النار حين يُغمس فجأة في ماء بارد كذلك كان فعل السّم في جسده وهو يهتصره . ولم يكن هذا ما يعانیه فحسب ، بل كانت ثمة نارٌ نعمة تلتهم أحشائه وعرقٌ أسود يتصبّب من جسده كله ، على حين تنداعى عضلاته المحترقة ويذيب الألم الدفين نخاع عظامه . وعندما رفع يديه إلى النجوم وصاح : « انعمي بمأساتي يا ابنة ساتورن . نعم ، اشمقي بي في علياء سياتك أيتها الإلهة القاسية القلب ، وأشبعي نظراتك بعذابي ، وليسعد قلبك الغليظ ، أما إذا كانت حالي تثير الشفقة في قلب خصم



بيكاسو: القنطور نيسوس يقدم قميصه إلى العنقاء ديانيرا

١٨٠ مثلك ، فخلّصيني من الحياة التي أنا فيها فريسة آلام رهيبة ، خلّصيني من الحياة التعسة التي لا أذوق فيها إلا المكابدة فلسوف يكون الموت خيراً لي . سيكون هدية جديدة بزوجة أب ، أو لست أنا الذي هزمت بوزيريس^(٦) الذي كان يلوّث المعابد بدماء الغرباء ؟ أو لست أنا الذي سلبت أنتايوس الرهيب قدرته التي كانت تدعمها أمه الأرض ؟ أنا الذي لم يفزعني راعي هيريا ذو الأجساد الثلاثة ولا الكلب كيريبروس ذو الرؤوس الثلاثة ! أو لست أنتما يا يديّ اللتان مرّغتما قرني الثور المخيف في التراب ؟ أو لم يشهد بقدرتكما إيليس ومياه ستيمفالوس وغابات پارثينوس ؟ أو لم تعدّ بفضل بسالتكنا حائل سيف ملكة الأمازونات الذهبي ، وكذا الثمار التي كانت في حراسة تينين لا يغمض له جفن ، أو ليس حقاً أنني أتيت على عيّن القنطور والختزير الوحشي الذي كان يجرب أركاديا ، وأن الهيدرا لم يُغن عنها شيئاً تزايد قوتها مع فقد بعض أعضائها واستبدالها بأعضائها المفقودة أعضاء أخرى ؟ هل أذكرك أنني حين رأيت جياد ملك طراقيا تعيش على الدماء البشرية وتمتلىء حظائرهما بمزق الجثث الأدمية هدمت الحظائر وقتلت الجياد وصاحبها ؟ ها هما

٢٠٠ تان اليدان اللتان خنتت بهما أسد نيميا الوحشى ، وها هو ذا الكنف الذى حملت عليه السماء . كم أحست زوجة چوپيتر القاسية بالإرهاق من كثرة أوامرها لى دون أن أحس أنا الإرهاق فى تنفيذها ، وها هى ذى كارثة جديدة تكلم أمامها الشجاعة وعُدّة الهجوم والدفاع معاً ، ففى أعماق رثى تضطرم نار تلتهم كل ما تجده فى جسدى من أعضاء بينما يعيش الملك يوريسثيوس^(٧) قوياً معافى ، فهل ثمة من يؤمن بعد ذلك بوجود الآلهة ! .

وما إن فاه بهذه الكلمات حتى حطمه الألم فهام على وجهه فوق سفوح جبل أويتا بخطوات ثور قد أنخنه رمح صياد رماه وانفلت هارباً ، فكان أحياناً يئن وأحياناً أخرى يرعد غضباً محاولاً أن يتزع عنه ثيابه أو يقتلع جذور الأشجار أو يصب غضبه على الجبال أو يرفع نراعيه إلى السماء مقرّ أبيه چوپيتر .

٢٢٠ وها هو ذا هرقل يلمح ليخاس الذى اختفى مرتعداً فى جوف صخر فصاح به وقد ضاعف الألم من غضبه قائلاً : « أنت يالليخاس من هيدنى هذه الهدية القاتلة ؟ أنت إذن من دبر موق ؟ » ، فأخذ ليخاس البائس يرتجف وقد علا وجهه شحوب الذعر ونبس بكلمات يعتذر بها يخفقها الخوف وهو يحاول أن يقبل ركبتي هرقل الذى أمسكه ودار به ثلاث دورات فى الهواء ثم قذف به فى مياه بحر يوبويا باندفاعه تربى على اندفاعه المنجنيق ، فإذا جسد ليخاس يجمد فى الهواء . وكما يقال إن أنفاس الرياح الثلجية تكثف مياه الأمطار فتغدو ثلجاً ، ثم لا تلبث كتلة الثلج الهشة أن تتجمد وهى تدور حول نفسها ثم تستدير متخذة شكل حبات برد سميكة ، كذلك لم يكد ليخاس يُقذف به وسط الفضاء ويجمد الفزع دمه حتى تحوّل جسده كله إلى صخرة صلبة كما تقول أسطورة قديمة . وما تزال إلى اليوم صخرة مرجانية خطيرة منبטحة فوق وهدة منخفضة على صورة آدمية وكأنها جثة ، وما يزال الملاحون لا يجرعون على أن يطوئها ، ويطلقون عليها اسم ليخاس .

أما أنت أيها الإبن العظيم لچوپيتر ، فإنك بعد أن اقتلعت الأشجار من فوق قمة أويتا وسويت منها محرقة . أخذت قوسك وجعبتك الضخمة وسهامها التى ستفتح بها مملكة طروادة ، وقدمت ثلاثها هدية لفيلوكيتيس بن پوياس^(٨) الذى عهدت إليه بأن يُشعل النار فى محرقتك ، وفيما كانت السنة اللهب النهمه تعم كومة الخشب الحافلة غطيتها بجلد أسد نيميا ثم تمددت فوقها متكئاً برأسك على هراوتك ، وقد بدا على وجهك الهدوء كما لو كنت مضطجعاً فى وليمة مزدان الجبهة بأكاليل الزهور وسط أقداح مليئة بالنبيذ .

٢٤٠ وتأجج اللهب وانتشر فى جوانب المحرقة كلها ثم بلغ أطراف البطل الذى كان يرقبه هادئاً فى استخفاف ، وخشيت الآلهة ما سيصيب بطل الأرض ، فتطلع إليهم چوپيتر بن ساتورن وهو يقول مازحاً : « إن ما يبدو عليكم من خشية هو متعة لى يا سكان السماء ، إننى أغبط نفسى من كل قلبى على أنى رب شعب يدين بالجميل لمن أحسن إليه ، كما أنى سعيد أن أراكم تبسطون حمايتكم على ابنى فهو جدير بها لما حقق من مآثر عظيمة خارقة ، إلا أن هذا لا يهون من تقديرى لموقفكم النبيل . فلتحرروا قلوبكم الوفية من هذا الفزع الذى لا معنى له ولا تقلقوا لهذه النيران المشتعلة فى أويتا ، فإن هذا الذى قهر الكثير

في قدرته أن يقهر هذه النيران . إنه لن يحسّ سطوة فولكانوس إلا في هذا الجزء من جسده الذي أخذه عن أمه ، أما ما أخذه عنى فهو خالد في مأمن من الموت ومن عصف النيران . والآن وقد أصبح هذا الجزء لا بقاء له على الأرض فسأرفعه إلى في السماء ، وكم أكون سعيداً أن يرضى الآلهة جميعاً عما سوف أنهض به ، وإن كان بينكم من يضيّق بأن يصبح هرقل إلهاً فهذا لأنه يرضنّ على ابني بهذه الجائزة الثمينة ، ولكنه مع ذلك سيقرّ بأنه بها جدير وسوف يؤمن بما فعلت رغم ضيقه به . « . وصفّق الآلهة لحديثه ، بل إن ملكة السموات وزوجة جوبيتر سمعت الشطر الأكبر من الحديث دون برّم به ، ولم يرتسم الضيق على وجهها إلا مع الكلمات الأخيرة ، فقد رُئيت غير مرتاحة للّمز الذي لمزها به زوجها . على أن إله النار فولكانوس [هيفايستوس] قد ذهب بجميع ما يمكن أن تأكله النار ، فلم يعد من اليسير التعرف على هرقل بما تبقى منه لأن شيئاً مما يذكرّ بأمه لم يبق ولم يحتفظ إلا بما يحمل من بصمات جوبيتر . وكما يحدث للشعبان حين يتجدّد شبابه بانسلاخه من جلده فيتحرّر من شيخوخته ويتفجّر قوة وتتألق برّاقة حراشفه الجديدة ، كذا حدث للبطل التيرينثي إذ تحرّر من غلافه الأرضي الفاني وعادت الحياة إلى أفضل جزء من ذاته وبدا أعظم مما كان وعلته هيبة جليلة تدعو إلى التوقير ، وعندئذ رفعه أبوه القدير في سحابة معتلياً عربية تجرها جياذ أربعة ، وجعله ينفذ بين النجوم المتلألئة^(٩) .

ألكمينا وجالانثيس

عندها أحسّ أطلس أن وزن السماء قد ثقلّ عما هو معهود ، ومع هذا لم يحمّد غضب يوريسثيوس بن سثينيليبوس فواصل مطاردة هيلوس ابن البطل بنفس الحقد الرهيب الذي كان في الماضي يطارد به أباه^(١٠) . وأحسّت ألكمينا الأرجوسية في غمرة همومها بأنه لم يبق لها إلا يولي صديقها التي اختارتها نجية لها في شيخوختها ، ومضت تروى لها مآثر ابنها التي كان العالم كله يعرفها والمآسى التي تجرّعتها . وكان هيلوس نزولاً على ما مره به أبوه هرقل قد أعطى لهذه المرأة اليافعة مكاناً في فراشه وقلبه وأودع رحمها ثمرة سلالة كريمة ، ولهذا حدّثتها ألكمينا قائلة : « أنى أدعوك أن تكون الآلهة بك رحيمة وأن تخفف الآلامك يوم تبلغ مدة الحمل نهايتها ، يوم تدعين الربة لوكينا حامية الحوامل حين الوضع وقد ساورك الخوف . أذكر كم كانت قاسية علىّ توذدّ أمنها لچونون حين دنت لحظة ميلاد هرقل الذي كانت ثمة أعمال كبرى سوف يظطلع بها . كانت الشمس تتحرّك في برجها العاشر ، وكان حمليّ ثقيل جنبى ، فلقد كان من الضخامة بحيث يستطيع المرء أن يتعرّف ما كان لچوبيتر من أثر في هذا الحمل المكتون ، ولم يعد في مقدورى أن أحتمل آلامى ، وحين أتحدث اليوم عن ذلك أحسّ الفزع يهتصر جسدى . لقد أصبحت ذكرى الولادة وحدها حتى اليوم موجعة . وبعد أن طال عذابى سبع ليالٍ وسبعة أيام رفعت يدي إلى السماء خائرة القوى من الألم ، وصرخت عالياً منادية لوكينا ومعاوناتها ، وأقبلت لوكينا ، غير أن غريميّ چونون كانت قد رشتها وطلبت إليها أن تتقرّب إليها بحياتي ، فلم تكذ تسمع أنأتى حتى جلست على هذا المذبح القائم على بابى

واضعة ساقاً على ساق ، وشبكت أصابعها المتباعدة كأسنان المشط وهى عاقدة العزم على العبث بمصري ، وصاتت بصوت خفيض كلمات سحرية عوّقت حركة الجنين الذى كان قد بدأ يهبل . وبذلتُ جهداً خارقاً ، وكنت خلال شرودى أرمى چويتير بالجحود ، وكم تمنيت الموت بينا أرسل شكاة تلين قساوة الصخر ، وأخذت الأمهات فى مدينة كادموس يتوسلن إلى الالهة ويشجعننى وسط الآمى المضمنية . وكانت إلى جانبى جالانثيس الشقراء إحدى وصيفاتى التى غدت عزيزة علىّ لسرعة تليتها رغباتى ولما كانت تقدمه إلىّ من عون . وقد أدركت أن فى الأمر لمحات من شرور چونو ، ولمحت فى دخولها وخروجها من الباب غير وانية أن الإلهة جالسة على المذبح ضامة ذراعها عاقدة أصابعها على ركبتيها ، فقالت لها جالانثيس : « أنت كائنة من كنت ، قومى فهنتى سيدتى الكمينى الأرجوسية فلقد خلّصت من آلامها وصارت أما وتحققت أمانيها » . ونهضت الإلهة التى عليها يتوقف وضع كل جنين فزعة وأرسلت خلال اضطرابها يديها المعقودتين فانتثرت مع حركة يديها قيود رحى وانحدر الطفل فخلّصت من الآمى . ويقال إن جالانثيس استغرقت فى الضحك حين اكتشفت أنها خدعت الإلهة وظلت تضحك حتى أمسكت بها الإلهة القاسية واجتذبتها من شعرها الجميل . وإذ حاولت أن تنهض من الأرض أفسدت الإلهة محاولتها بتحويل ذراعها إلى قديمين أماميتين ، غير أن الفتاة احتفظت بخفة حركتها وتغير شكلها دون أن يتغير لون ظهرها وغدت تلد من فمها ، إذ كان هذا الفم هو الذى انطلق بالكذب على الإلهة مضللاً لتعين سيدتها على الوضع ، وهى ما تزال تتردد على دورنا كما كانت تفعل فى الماضى [بعد أن تحولت إلى عرسة] .

دريوى . يولاووس

وبعد أن فرغت الكمينى من حديثها وأثارت أشجانها ذكرى وصيفتها القديمة نذت عنها زفرة ، فقالت لها زوجة ابنها التى أدركت عمق حزنها : « لقد كانت تلك المرأة التى تبكيها يا أمى غريبة عنا لا تجرى فى عروقها دماء أسرتنا ، فكيف بك لو قصصت عليك المصير الغريب لأختى ؟ وإن كنت أعجز ما أكون عن أن أتحدث إليك وأنا فى غمرة الدمع ووخز الألم . كانت دريوى وحيدة أمها فقد أنجبني أبى من زوجة أخرى ، وكانت أشهر نساء أويخاليا جمالاً ، وكان الإله الذى يسود دلفى وديلوس قد اغتصبها وافتض بكارتها عنوة قبل أن يتزوج بها أندريمون الذى كان يخال أنه سيسعد السعادة كلها بهذا الزواج . وكانت ثمة بحيرة ينحدر ساحلها فى لطف انحدار شيطان البحر ، وعلى آكام ذلك الساحل تتألق زهور الريحان . وقصدت دريوى هذه البحيرة دون أن يخالها شك فيما سيكون من أمرها . على أن ما سوف تستمعين إليه سيكون أكثر إثارة ، فقد راحت تهدى الأكاليل للحمريات وبين يديها حمل رقيق ، طفل لم يكمل عامه الأول ، كانت ترضعه من لبنها الدايق المُشبع . وعلى مقربة من البحيرة كانت شجرة لوتس^(١١) صنوة المياه تحمل زهوراً ألوانها أشبه بارجوان مدينة صور وقد أذنت بالثمر . جمعت دريوى حزمة من الزهور لطفلها كى يلهو بها ، وأخذت أتبادل معها أطراف الحديث ، وكنت على وشك قطف بعض الزهور كى فعلت فإذا بى أرى قطرات من دم تتساقط من الزهور ، وأشاهد أغصانها تهتز كأنما تسرى بها رعدة . وقد علمنا من

الفلاحين بعد ذلك بوقت طويل أن الحورية لوتيس قد تحولت شجرة لوتس هرباً من نزوات بريابوس الفاحشة ، ولكنها مع ذلك لم تغير اسمها .

ولم تكن أختي تعرف شيئاً عن ذلك الخطر الذي يهدد السابلة بتلك الأماكن . وقد رأت أمام ما اعتراها من قلق أن تعود ولا تعرج على الحوريات اللاتي جاءت للابتهال إليهن ، غير أن قدميها كانتا قد انغرستا كالجذور في الترى وعلقتا به ، وحاولت اقتلاعهما فلم يطاوعها غير جذعها ، وأخذ لحاء خشبي يكسوفى بطء جسدها من أسفل قدميها إلى الركبتين ، وما إن رأت ذلك حتى رفعت يديها إلى شعرها تريد انتزاعه ، فإذا يداها قد امتلأتا بأوراق شجر كان قد عمّ رأسها كله . وأحسن أمفيسوس الصغير [وهو الاسم الذي خلعه عليه جدّه يوريتوس] أن اللبن لم يعد يدرك فاه ، كما تصلبت ثدي أمه . شاهدت هذا المصير الموحع ينزل بأختي تحت بصرى وما كان بيدي أن أدفع عنها . أختاه ، لقد حاولت ما استطعت أن ٣٦٠ أؤخر بقبلاقي زحف الجذع والفروع وكم تمنيت أن يكسوفى هذا اللحاء . وعندما جاء أندريمون زوج درويو وأبوها التعس ييحثان عنها فلوحت لهما كي يلتفتا إلى الشجرة التي حلّت محل من جاءا ييحثان عنها ، فغمرا بقبلاتهما الخشب الذي كان لا يزال ينبض بالحياة ، وركعا أمام جذع الشجرة العالية وضماها بأذرعهما . أختاه الحبيبة ! لم يبق فيك شيء لم يتحول إلى شجرة ، عدا وجهك وتلك الدموع التي تروى الأوراق المثبقة من جسدك ، ولم يبق منها غير فم ينطلق منه صوتها في أجواز الفضاء شاكية : « إذا كان ثمة من يصدق البؤساء فأقسم بالآلهة أني لم أت ما أستحق عليه هذا المصير الرهيب ، فقد حاق بي هذا العقاب دون جرم اقترفته . فكم كنت نقية طاهرة في حياتي ، وإن كنت كاذبة فليذبلن عودي ولتسقطن عنى تلك الأوراق التي تظلني ولأهوين تحت وقع ضربات البلطة وليأتين اللهب على حياتي . هل لكم أن تأخذوا هذا الطفل المعلق في أغصان الأمومة على أن تمهدوا به إلى إحدى المرضعات ، ولتتيحوا لي أن أراه دوماً ٣٨٠ مضطجعاً في ظلي ، وليختلف إلى كثيراً ليلهو في ظلالى . وإذا ما بلغ أن ينطق فعلموه أن يجيبني على أنني أمه وليردّد في أسى أن أمه يطويها جذع هذه الشجرة ، ولكن فليحذر المستنقعات وليتجنب قطف زهور الأشجار وليحترس من لس سيقان أزهار قد تكون أجساد إلهات . وداعاً أيها الزوج العزيز ، وأنتما أختي وأبي ، وإذا كنتم تحبونني حقاً فاحموني من جراح النصل القاطع وأنياب قطعان الماشية ، وإذ كان من المتعذر على أن أُنحى إليكم ، فلتسبوا أنتم إلى كي ألثم شفاهكم مادام في قدرتكم أن تبلغوا شفتي ، ولعلكم تعرفون إلى طفلي كي ألثمه . وما أنا مستطيعه بعد ذلك أن أضيف شيئاً ، فها هو ذا لحاء رقيق قد بدأ يمتد إلى عنقي الأبيض ، وأخذت قمة الشجرة تطوى رأسي . أبعادوا أيديكم عن عيني فمن العبث أن تمذوا إلى يد العون ، وخلّوا اللحاء الصاعد يغشى عيني المحتضرتين » . وعجز فمها بعد ذلك عن الحديث واختفى من الوجود ، وبقيت غصونها الجديدة تنبض بالحياة طويلاً بعد أن مُسخت شجرة » .

وبينما كانت يولى تحكى هذه القصة الغريبة كانت ألكمينا وهى تبكى تحفّف دموع إبنة يوريتوس بأناملها ، وإذا بأعجوبة جديدة تقع فتقطع اتصال أفكارهما الخزينة ، إذ رأتا يولاوس واقفاً بالبوابة الشاهقة وقد عاد صبيّاً نمت على وجنتيه شعرات كالزغب ، فلقد استجابت هيبى [ابنة جونون]^(١١) ٤٠٠

لتوسلات زوجها هرقل وخلعت على يولاووس قسبات شبابه الباكر . وكانت هيبي على وشك أن تقسم بالأ ن فعل أبدأ مثل هذه المكرمة لأحد بعد ، فعارضتها ثيميس قائلة : « إن طيبة على وشك أن تسقط بين برائن الحرب الأهلية ، ولن يستطيع سوى چويتر قهر كاپانيوس . وسيموت أخوان يقتل كل منها الآخر ، وسيشهد الكاهن أمفياراووس وهو ما يزال على قيد الحياة طيفه بعد الموت عندما تشق الأرض لتلقاه ، وسيأثر ابنه لقتل أبيه بسفك دم أمه فيصبح في آن واحد ابناً باراً وأثماً ، ثم يهوله جرمه فيفقد عقله ويُنفى خارج وطنه ويفرّ تطارده ربّات الانتقام ، ويلاحقه شبح أمه ، وإذا يوم من الأيام تطالبه زوجته كاليرهوى ابنة إله النهر أخيلووس بالقلادة الذهبية المشثومة التي سيكون معها حتفه ، وكذا سينفذ سيف فيجيوس والد زوجته الأولى في جنبه إلى أن ينفذ الدم من جسده . وبعد ذلك كله ستجثو كاليرهوى ضارعة إلى چويتر العظيم أن يهب الشباب لولديها وهما مازالا في المهذ صغيران ، وتسأله ألا يطول بهما الزمن حتى يأخذنا بثأر زوجها الظافر . وها هي ذى دعواتها تهزّ قلب چويتر ، فيمنّ على زوجة ابنه ويجعل من ولديها شابين قبل بلوغهما الحُلُم ، ويهبهما تلك الهبات التي تهبها عادة هيبي [إلهة الشباب] زوجة ابنه هرقل السابوية وابنته من جنو في آن معاً » (١٣) .

بيليس

٤٢٠ ولم يكذب يجرى لسان ثيميس بتلك النبوة كاشفة النقاب عن المستقبل حتى أخذ الآلهة يتناولون الموضوع بمختلف الأفاويل في صخب ، وإذا هم يهمس بعضهم إلى بعض قائلين : « لماذا لا يكون للأخريين مثل هذه المنّة ؟ فشكت ابنة المارد بالاس (١٤) الشيوخوخة التي كانت لزوجها المرصاد ، وشكت سيريس إلهة الخصب والحصاد من الشعر الأبيض في رأس يازيون (١٥) ، وطالب مولكيبير [فولكانوس] لإريخوثيوس أن يكون له الحق في أن يبدأ حياته من جديد . وحاولت فينوس أيضاً أن يعود إلى أنخيسيس شبابه بعد أن ساورها القلق على أيامه المقبلة ، وامتلأ كل إله حماسة من أجل أتباعه ، وتزايد صخبهم وخلافهم ، ولكن ذلك كله ما لبث أن سكن حين تحدث چويتر قائلاً : « أيها الآلهة ، إذا كنتم تكتنون لي شيئاً من التوقير فأفصحوا لي عن رغباتكم ، وهل من بينكم من يظن نفسه قادراً على قهر القدر ؟ إن القدر هو الذي أعاد يولاووس إلى السنّ الذي كان قد تحطّاه ، والقدر هو الذي سوف يهب الشباب لطفلي كاليرهوى لا بالقوة ولا بالخداع . ولكي ترضوا بهذا الناموس بنفوس راضية فاعلموا أننا جميعاً — أنتم وأنا — رهن القدر ، ولو ملكت تغيير الأقدار لما انحنى ظهر ابني أياكوس تحت وطأة الأعوام ، ولبقى رادامانثوس يرقل في ريعان الشباب أبدأ ، ولعاش قبله كذلك مينوس العزيز (١٦) الذي تهوّن من أمره شيخوخته العاتية والذي لم يعد يحكم مملكته بالحكمة التي أثرت عنه في الماضي » . فسكّنت كلمات چويتر من شكاة الآلهة ، ولم يعودوا يجأرون بالشكوى بعد أن رأوا الشيوخوخة تدبّ في رادامانثوس وأياكوس ومينوس . وكان اسم مينوس وحده حين كان في ريعان الشباب يلقي الرعب في الأمم الكبرى ، أما الآن

٤٤٠

فقد غدا عاجزاً يخاف شرّ ميليتوس بن ديونى المزهو بشبابه وبأبوة فويوس له ، فلقد كان جدّ مقتنع بأن ميليتوس يهدّد عرشه ، ومع ذلك لم يكن يجرؤ على نفيه بعيداً عن وطن آباه .

على أنك قد هاجرت من تلقاء نفسك يا ميليتوس ، وحملك سفينة سريعة عبر أمواج بحر إيجه لتقيم على أرض آسيا أسوار مدينة تحمل اسم مؤسسها^(١٧) ، وهناك عرفت سيانى ابنة مياندر الفريدة فى جمالها حين كانت تسير فى إثر منحنيات ضفاف أبيها الذى كان يتعرج مرّة ومرّة . وفى هذا الموقع وضعت لميليتوس توأمين هما بيبليس وكاونوس . وفى قصة بيبليس عبرة للفتيات حتى لا يبعدن عن الحب المشروع ، وكان قلبها قد شغف حباً بأخيها حفيد أبوللو الذى يماثله جمالاً فأحبته لا كحبّ الأخت لأخيها بل فوق هذا ، ولم تكن تدرك أولاً كنه عاطفتها ، ولا تعدّ نفسها آثمة حين تغمر أخاها بقبلاّت متلاحقة أو لأنها تطوّق عنقه بذراعها ، فلقد عاشت طويلاً فى أسر خداع كاذب لعاطفة أخوية ، وشيئاً فشيئاً أخذ حبّها يمانب الطريق السوّى ، فكانت تأتى — حين تفد لزيارة أخيها — فى أحسن زيتها حريصة على أن تبدو فاتنة فى عينيه ، وتحسّ الغيرة حين تمجد إلى جانبه امرأة أكثر منها فتنة . ومع هذا لم تتبيّن حقيقة مشاعرها ، كما أنها لم تحسّ نحوه برغبة جسدية على الرغم مما كان يتأجج فى فؤادها من لوعة . كان الولد يغفل فى أعماق قلبها فانبرت تنادى كاونوس بـ « سيدها » ، وتنفر من الأوصاف الدالة على الأخوة والقرابة ، ففضل أن يناديها بيبليس لا أن يناديها بأخته ، ومع ذلك لم تكن تفسح فى نفسها مكاناً لرغبات دنسة ما كانت يقضى ، أما حين كانت تستسلم لاسترخاءة حانية فى أكثر ما كانت ترى محبوبها فى منامها ، بل لقد خيل لها أنها ترقد فى أحضان أخيها ، فتعلوها حمرة الخجل مع أنها ما كانت غير غافية فى فراشها ، فإذا هرب من عينها النعاس التزمت الصمت طويلاً تحاول أن تجمع من جديد شتات حلمها ، ثم تتلجى نفسها مضطربة الفكر قائلة : « يا لشقائى ! ما معنى هذه الخيالات التى تتراعى لى فى هدأة الليل ؟ لكم خشيت أن تتحقق . ولماذا تراودنى هذه الأحلام ؟ ما أجمل كاونوس حتى فى أعين حاقديه وكم أنا به معجبة ، ولو لم يكن أخى لكان بوسعى أن أعشقه ولكان لى خير الأزواج فنكّذ طالعى هو أننى أخته . ولكن مادمت لا أحاول أن ارتكب فى يقظتى ما يخالجنى فى سباتى فكم أتمنى أن تتراعى لى تلك الرؤى لأراك كثيراً فليس ثمة على الأحلام من رقيب ، ثم إن متعتها لا تعود بضرر . أى فينوس ، وأنت يا كيوييد المرافق المجنّح للألم الحانية يا لها من متعة تلك التى تدوّقها . ما أروع هذا الشعور وأنا مستلقية على فراشى ، شعور الاستسلام الذى غمرنى حتى نخاع عظامى ، ما أروع ذكرى هذا الحلم حتى وإن كانت متعنى فيه قصيرة عابرة ، إذ سرعان ما أتى عليها الليل الحسود حين ألتت به الغيرة من عطيتى . كم أتمنى لو أتيج لى أن أغبر اسمى واقترن بك . كم كنت سأصبح كينةً مثل لأبيك ، وكم كنت ستصبح صهراً كفتاً لأبى ! وكم تمنيت لو أن الآلهة جمعت بيننا فى كل شيء غير أن نكون من صلّب واحد ! ساعتها كنت أتمنى أن لو كنت سليل أسرة أنبل من أسرق . ولست أعرف إذن أية امرأة ستجعل منها أما لأبناك يا أجمل الرجال ، يا من اختارت الأقدار التعيسة لنا نفس الأبوين . فلتنكن لى أختاً شقيقاً فحسب ، فإن ما يربط بيننا هو يا يقصم هذا الرّباط ، فى بالى أحلم هذه الأحلام ، وهل لحلمٍ مهما بلغ قيمته ؟ ألا فلتغفر لى الآلهة قوى ؛ فقد يما بنى الآلهة بشقيقاتهم ؛ فلقد

٥٠٠ بنى ساتورن بأوبس مع أنها من أصله الذى ينحدر منه ، كما بنى أوقيانوس بثيتيس ، وبنى سيد الأوليمپ بجونو . حقاً لقد فاتنى أن للآلهة سُنَّتْهم ، وهل لى أن أسوى بين البشر والآلهة فى نواميسهم التى تخالف نواميسنا فتبيح للأخ أن يبنى بأخته ؟ لسوف أقتلع من قلبى هذا الحب المحرّم ، وإن لم أقدر فما أولانى أن ألقى حتفى قبل أن أقع فى الخطيئة ، ثم ما أولانى أن أتمدّد على فراش الموت وأتلقّى وأنا جثة هامدة قبلات شقيقى .

وعلى أية حال فإن ما أتوق إليه يتطلّب رضانا نحن الاثنين ، وإذا افترضنا أننى حزمت أمرى فقد يعدّه هو جريمة ، على حين لم يخش أبناء أيولوس أن يتزوجوا من شقيقاتهم^(١٨) ، ولكن كيف انتهيت إلى هذا ؟ ولماذا تتراعى أمامى هذه الأمثلة ؟ وأى منزلق أنحدر إليه ؟ فلتتخربى عنى أيتها الرغبات المدنّسة ، فكم أنا حريصة على ألا يكون بينى وبين أخى إلا كل ما هو مشروع . ولو أنه هو الذى شغف بى أولاً فلعلّ كنت أستطيع أن أستسلم لطيشه ، وما كنت أفدر أن أرفض توسّلاته لو كان قد فعل . هيّا أفصحى يا بييليس ، هل تستطيعين الاعتراف بالحقيقة ؟ بل ، فسيدفعنى الحب إلى ذلك . وإذا لم أستطع وأغلق الخجل فمى فسأبعث إليه برسالة فى الخفاء تكشف له مستور حبنى .

٥٢٠ وتولّأها الصمت عند هذا ، وإذا فكرتها تلك فخرج بها عن تردّدها . ونهضت على جنبها قليلاً واتكأت على مرفقها الأيسر وقالت : « لاكشفنّ له عن هذا الحب الطائش ، وعليه هو أن يتخذ قراره ، وأسفاه ، إلى أين يمضى بى هذا البلاء ، وأية نار هذه التى تحرق قلبى ؟ » وبعد أن استقرت على ما ستكتب أخذت تحطّه بيدها المرخفة . وأمسكت القلم الحديدى بيّمانها ولوح الشمع فى يّسراها ، وإذا هى تردّدت بعد أن بدأت ، ثم إذا هى تكتب ولكنها لم ترض ما كتبت ، فطمست وغيّرت وتراجعت ثم أقبلت . وكانت تتناول ألواحها ثم تضعها ، وتضعها ثم تتناولها من جديد دون أن تعرف ماذا تريد ، وساءها كل ما كانت مُقدّمة عليه ، وامتزجت على وجهها الجراءة المرتسمة بالحياء . وبعد أن حطّت كلمة « أختك » قررت أن تطمسها وسوّت لوح الشمع ثم كتبت : « إليك تبعث السلام امرأة تحبك وهى لا ترقب منك إلا السلام^(١٩) . وإن الخجل ، نعم الخجل ، يحول بينها وبين ذكر اسمها . وإذا سألتنى عما أطلب فهو رغبتي فى عرض حالى من غير أن يُذكر اسمى حتى لا تتعرّف أنت على بييليس فى شخصى قبل أن أطمئن إلى أن دعواتى باتت مستجابة . ومن الممكن أن تقع على دليل قلبى الجريح فى شحوب وجنتى ونحول جسدى وتعبيرات وجهى وعينيّ الدامعتين ، وفى الزفرات التى أطلقها دون سبب ظاهر ، وفى ضمّاتى المتكررة لك ، ثم فى قبلاتى التى لا بد أنك أحسست أنها لا تشبه قبلات الأخت لأخيها . ومع ما أحمله فى قلبى من جرح عميق ، وبرغم الجنون المشبوب المحتلم فى صدرى فعلت كل ما بوسعى [وأشهد الآلهة على ذلك] لكى أبرأ . وقد جاهدت طويلاً وأنا فى مأساتى من أجل أن أفلت من سهام كيوييد التى لا ترحم ، واحتملت قسوة المعاناة بشجاعة لا يتوقعها أحد من فتاة ، واليوم أجدنى مرغمة على أن أعترف بهزيمتى وأطلب عونك على استحياى . أنت وحدك تستطيع إنقاذى أو القضاء على الفتاة التى تحبك فآخذ هذا أو ذاك . إن التى تضرع إليك اليوم ليست خصماً لك ، بل هى أقرب ما تكون إليك ، تتلهّف شوقاً لتزيد اقتراباً منك

ولتتحد معك برباط أوثق . فلتترك للعجائز علم القانون ، فعليهم أن يبحثوا عما هو مباح وعما هو جرمية وعما هو ليس بجرمية ، ولتُخلّ الجور بينهم وبين القانون يفعلوا به ما يعن لهم ، فإذا قانون فينوس الشجاعة هو الجدير بسنوات عمرنا . ما هو الحلال ؟ إننا مازلنا نجهله ، ولكننا نؤمن أن كل شيء حلال ولنا في كبار الآلهة أسوة ، ولن يقف في طريقنا شيء ، فلا قوة تعترضنا ، ولا الخوف من الفضيحة ولا الرهبة تعوقنا ، ولنفرض جدلاً أن هناك ما يدعو للخوف فأى شيء نخشاه ؟ إذ بقدرتنا أن نخفى متعتنا المختلصة باسم محبة الأخ لأخته ، وإذا كنت حرّة في أن أبثك سرّي خفية ، فما أولاني أن أعانقك وأقبلك علنا . فهل يضجّ العالم إذا حققنا اليوم ما أصبو إليه ؟ فلتأخذك الشفقة بهذه التي تقرّ لك بحبها والتي لم تكن لتجرؤ على ٥٦٠ التصريح به لو لم تغلبها على أمرها تلك العاطفة المشبوبة . ناشدتك ألا يُذكر اسمك على شاهد قبري على أنك المشلول عن موتي . تلك كانت العبارات المرسلّة هباءً وبلا جدوى ، والتي حفرتها يدها على لوح الشمع الذي ضاق بكلماتها ، فكتبت آخر سطر في هامشه ثم ختمت هذه الرسالة التي مهرتها أئمة بخاتمها المرصّع بالجواهر والذي بلّته بدمعها [لأن لسانها كان جافاً] ، ونادت خادماً لها والنجمل يغمرها ، وقالت له بصوت يشيع فيه القلق والتلطف : احمل هذه الرسالة إلى . . . ثم أضافت بعد لحظة صمت طويلة « أختي » . وفي اللحظة التي قدّمت له الألواح أفلتت من بين يديها وسقطت على الأرض ، فاضطربت لهذا النذير ، وعلى الرغم من هذا أرسلتها ، حتى إذا ما وجد الخادم فرصة مناسبة اقترب من كاونوس وسلّمه الرسالة السرية .

ولم يكد كاونوس حفيد مياندر يقرأ بعض الرسالة حتى غضب غضباً مفاجئاً وقذف بالألواح التي تسلّمها بعيداً ، وأمسك بيديه التي كانتا موشكتين على خنق الرسول المرتعد صائحاً فيه : « أغرب عن وجهي بأسرع ما تملك أيها الشرير يا رسول العلاقة المحرّمة ، فلو لم يذع موتك عازنا لكان موتك ثمناً لجرمتك » . ولأذ حامل الرسالة بالفرار مذعوراً وأبلغ سيده ما كان من كاونوس من رد رهيب ، وعلا الشحوب وجه بييليس حين علمت أنها كانت موضع الأزدراء ، وسرى في جسدها كله صقيع وغشيه ٥٨٠ الاضطراب ، حتى إذا استردّت وعيها عاد هذيان العشق المبرّح إليها معه ، وبصوت خافت كأنه الهمس قالت : « لقد نلت جزائي ، فما كان أشدّ حقي حين اندفعت فكشفت له عن قلبي الجريح ؟ لماذا عجلت هكذا وسجلت على الألواح اعترافاً كان حرّياً بي أن أخفيه ؟ لقد كان جديراً بي أن أبدأ باختبار عواطفه بكلمات مبهمّة لا تورّطني . كان ينبغي عليّ كي تدفع الريح سفيني ألا أسلمها إلا طرفاً من الشراع ، وأراقب شدتها فأبحر فوق مياه لا تتهددها الأخطار . أما الآن فقد تركت الرياح التي لم أختبر شدتها تدفع بكل أشرعتي ، فالقت بي فوق الصخور أنا وقاري المحطوم وابتلعتنا أمواج المحيط بعد أن استحالت عودتنا للشاطئ . بل لقد حدّرتي فأل لا يخيب من أن أستسلم لهوى ، حين أمرت الخادم أن يحمل الألواح الشمع فأفلتت من بين يدي وهوت بأمانياتي إلى الأرض . أو لم يكن أجدى أن أستبدل باليوم يوماً آخر ، أو أن أنصرف عن هذا الأمر كله ؟ بل لقد كان عليّ أن أستبدل باليوم غيره ، فلقد حدّرتي الإله حين وجّه إلى ٦٠٠ علامة تحمل ما سوف يقع لو لم أكن سقيمة العقل . وقد كان عليّ أن أخطبه بنفسى بدلاً من أن أحمس للألواح بسرّي . كان عليّ أن أواجهه فأطلق العنان لعاطفتي المحمومة حتى يلمح دعماي ويشهد ملامح

وجهي الذي يجبه . وإذن كنت أستطيع أن أبوح له بأكثر مما بحث به في رسالتي ، ولاستطعت بالرغم منه أن أحيط عنقه بذراعي حتى لو صدني . وعندها كنت أستطيع بينا أنظاهر بالإشراف على الموت أن أقبل قدميه وأجثو على الأرض متوسلة إليه أن يمنحني الحياة . كان في مقدوري أن أستخدم وسائل شتى ، ولو كانت كل وسيلة وحدها لا تكفي لكانت كلها مجتمعة قادرة على أن تلين قسوة قلبه . من يدرى لعل الخادم الذي أرسلته إليه قد أتى خطأ ما ، أو لعله لم يحدّثه الحديث اللائق ، وإنني واثقة أنه لم يختر اللحظة المناسبة ولم ينتظر الساعة التي لا تساور فكره فيها الهموم . تلك هي الأسباب التي عاقت تحقيق رغبتى ، فيقينا إن أخى ليس ابن نيرة ، كما أن قلبه لم يقَد من صخر ولا من فولاذ ، ثم هو لم يرضع في طفولته لبن لبوة . ولسوف أفوز به ، فلأتصدّ له من جديد دون أن يدفعني نفوره إلى التخلف عن مقصدي طالما بقيت تتردّد في صدري أنفاس من الحياة . وإذا كانت بغيتي في البداية - لو أتيج لي أن أعود إلى ما أقدمت عليه - هي أن أخوض هذه المغامرة ، فقد أصبحت بغيتي الآن - وقد آن الأوان مادمت قد أقدمت - أن أنتزع النجاح الكامل قسراً . ولو صحّ أنني نبذت رغباتي جانباً فما أظنه ينسى أبدأ جُرأتى ، وإذا أنا وقفت عند هذا الحال حتى له ليس إلا نزوة طائشة فحسب أو محاولة مني لتعرّف ما يحمله لي من أحاسيس لأوقعه في شرأكي ، أو على الأقل سيصوّر أنني لم أكن مستسلمة لسطوة إله يعتصر قلبي ويشعل فيه نيرانه بل أسيرة شهوات . على أنني غير مستطعة أحر الأمر أن أبدو مبرأة لم أقترف جرماً كبيراً . لقد تدنّست نياي وما أستطيع أن أدعى البراءة . وما بقي عليّ أن أقوم به لتحقيق آمالي قد يكون أفدح مما أردت تحقيقه ولكنه لا يزيد جرميتي شيئاً . وكانت كلماتها تعبر عن اضطراب فكرها واضطراب الصراع فيه ، ومع ندمها على محاولتها غواية أخيها فلقد كانت سعيدة بتجديد سعيها إليه متخطية كل ما هو خلقى في معتها ، معرضة نفسها لامتهان لا ينقطع .

وحين يش كاونوس من رجوع أخته عن محاولاتها معه قرر الفرار من الوطن هروباً من زنا المحارم ، وراح يشيد لنفسه مدينة جديدة فوق أرض غريبة^(٢٠) . وقيل وقتها إن ابنة ميليتوس فقدت صوابها فمزقت ثيابها عند نحرها وكشفت عن صدرها وأخذت تلطم خديها غائبة عن وعيها ، ثم كشفت علنا عن هوسها وصارحت الناس برغبتها الجنونية وحبها الأثيم ، وهجرت هي الأخرى وطنها ومرتع نزواتها الفاجرة ، وتبعت آثار أخيها في المنفى ، متشبهة بعابدات باكخوس على جبل إيساروس حين يهيجهن ثيرسوسك^(٢١) . يا ابن سيمليه ، فيُحيين أعيادك التي يُحتفل بها مع كل أعوام ثلاثة . وعبرت ببيليس الحقول الفسيحة وهي تصرخ على مشهد من نساء مدينة بوباسوس^(٢٢) ، ومن هناك ساقطها خطاها التائهة إلى بلاد الكارين وإلى الشعب الليليجي^(٢٣) المدجج بالسلاح ، ومرّت بليكيّا تاركة وراءها كراجوس وليميريه ونهر زانثوس والهضاب التي يسكنها الخيميرا ، ذلك الكائن الوحشي الذي ينفث جسده ألسنة اللهب والذي كان له جذع أسد وذيل ثعبان^(٢٤) .

وأخذت الغابات الفسيحة التي اخترقتها ببيليس تتضاءل في عينيها كلما بُعدت عنها حتى أضناها السير سعياً وراء أخيها ، فسقطت معطمة فوق الأرض وعاجلها النعاس وقد انتفش شعرها فوق الأرض

الصلبة والتصق وجهها بأوراق الشجر المتساقطة . وأقبلت الحوريات الليلييات فحاولن إيقافها والتخفيف من آلامها وصرفها عن غيها ، لكنها صمّت أذنيها وأطبقت شفيتها وظلّت راقدة تمزّق بأظافرها العشب الأخضر وتروى المراعى بأنهار الدمع ، ويقال إن حوريات الماء قد احتفرن مجرى لدموعها لم ينضب أبداً . وأى هبة خير من هذه كان يمكن أن يقدمها إليها ! وكما ينبثق الصمغ من لحاء شجر الصنوبر والقار اللزج من التربة الحبيلى به ، وكما يتجمد الماء حين تهبّ رياح الشتاء الثلجية ثم يذوب ثانية مع أنفاس الشمس ، تحوّلت حفيذة فويوس التى أنهكها البكاء إلى ينبوع مازال يتفجّر حتى الآن فى الوديان تحت ظلال أغصان شجرة البلوط الخضراء الداكنة وقد احتفظ مع الزمن باسم صاحبه ببيليس .

إيفيس

وكان من الممكن أن يشغل حديث هذه المعجزة سكان المدن للمائة التى تنتظمها كريت لولا معاصرتها لمعجزة أخرى وقعت على حدود كنوسوس بأرض فيستوس حيث كان يعيش رجل اسمه ليجدوس من أسرة متواضعة غير مرموق المكانة ، ولكنه وُلد حرّاً تكافأ ثروته ومكانته ، وعاش حياته بعيداً عن الشبهات .

وكانت زوجته تليثوزا قد حملت منه فلما اقتربت أيام الوضع نصحتها قائلاً : « إننى أصلى رجاء امرين : أن تحفّ عنك الآم وضعمك ، وأن تُرزق بمولود ذكر ، فإنجاب البنات جهل يثقل على من ضاقت موارده مثل ، على أنى إذا فشلت ضراعاتنا ورزقنا ببنت فسوف أقضى بقتلها] على الرغم مما أكته من مشاعر الأبوة . . . ولتغفرى لى ذلك] . وبينما هو يُخطرها بما عقد عليه عزمه كانت دموعه تسيل سيل دموعها غزارة ، وقد حاولت زوجته بتوسلاتها المتتالية ألا يضيق الخناق على أحلامها ولكنه كان صلباً فى تمسكه بنواياه .

وحين بدأت تليثوزا تنوء بحملها ، زارتها إيو ابنة إيناخوس ليلاً فى منامها ، ووقفت أمام فراشها وسط حاشيتها المقدسة وقد توجّج جبينها بالنّاج الهلالي المرصع بالسنابل الذهبية تحيط بالصّل الملكى ، فبدت جليلة مهيبة^(٢٥) ، وقد صحبها كلبها أنوبيس العاوى ، والقطة المقدسة بوباستيس ، وآيس ذو الرداء المتعدد الألوان ، والإله الذى يجس صوته ويضع أصبعه على شفّيته داعياً إلى الصمت^(٢٦) ، وكذلك مصلصلاتها ، وأوزيريس الذى لم تنقطع إيزيس عن البحث عنه ، والثعبان الغريب المنتفخ بالسّم المنوم . وتحدثت الإلهة إلى تليثوزا التى خيل إليها أنها استيقظت من نومها وأنها تسمع وترى فى اليقظة لا فى المنام ، وقالت الإلهة : « أنت واحدة من أفراد حاشيتى يا تليثوزا فحقفى عنك قلقك ، ولا تطيعى زوجك فيما أشار به عليك ، ولا تبخلى بالرعاية على طفلك ذكراً كان أم أنثى حين تفرغ لوكينا من مساعدتك فى وضعه . أنا إلهة العوث أقدم العون لمن يتوجّه إلىّ بالرجاء ، ولن يجلر لسناك بالشكوى من أنك لجأت إلى ٧٠٠ إلهة لا تقرّ بالجميل . » ثم غادرت الإلهة الغرفة بعد أن أسدت نصيحتهما ، ونهضت تليثوزا الكريته من

فراشها مشرقة الروح ورفعت يديها الطاهرتين إلى النجوم وتوسّلت إلى الآلهة أن تحقق لها ما رأت في منامها .

حتى إذا جاءها المخاض وخرج الجنين إلى النور ورأت أنه أنثى أخفت الأمر عن زوجها وأدعت أنه ذكر . ولم تتجه إليها الشكوك ولم تهمس بسرّها إلا لمرضعة الطفل ، وأنفذ الأب قسمه وأعطى ابنه اسم جدّه إيفيس . وسعدت الأم بذلك الاسم الذي يُطلق على الذكور والإناث دون تمييز فلم تخدع أحداً بهذا الاسم ، وبقي سرّها خفياً بسبب هذا الاسم . وألبست طفلتها ثياب الذكور ، وأحفت سرّها بمختلف الحيل وإن لم تحفه على الآلهة التي باركت خطواتها . وكانت للطفلة قسّات تتميز بالجمال الذي يشارك فيه الذكور الإناث . وحين بلغت إيفيس الثالثة عشرة من عمرها أخذ والدها يعدّ لزواجها من إيانثى ابنة تيلستيس الكريتي أجمل بنات فيستوس وأكثرهن فتنة وكانت في سن إيفيس ، تلقياً معاً تعليمهما على أيدي الأساتذة أنفسهم فمسّ الحب قلبيهما البريين ، غير أنها كانتا تنظران إلى المستقبل نظرتين مختلفتين . فبينما كانت إيانثى شديدة اللهفة للزواج من إيفيس التي تحسبها رجلاً وتنتظر في شوق يوم زفافها إليه ، كانت إيفيس تعلم أنها مغرمة بفتاة مثلها لن تستطيع أن تجد إلى بجانبها السعادة ، وكان إحساسها بالضيق يزيدا التصاقاً بالفتاة ، وكانت دموعها تنهمر دون انقطاع ، وتردّد فيما بينها وبين نفسها : « أى مصير ينتظرني ، لقد وقعت في حبال حب غريب شاذ لم يعرفه أحد من قبل ، ولو شاءت الآلهة الإبقاء على حياتي لحررتني من قبضة هذا الحب ، أما إن شاءت هلاكى فلم لم تُصبني ببلاء مما اعتاد البشر التعرّض له . إن البقرة لا تهيم بحب بقرة ، والفرس لا تعشق فرساً ، والنعاج تتجه دوماً للكباش ، وأنثى الوعل تطارد ذكوره ، وعلى هذا النحو تتزاوج الطيور . ولا ينطوى عالم الحيوان على هيام أنثى بمثلها . ليتني لم أولد ، غير أنه مقضى أن تنبثق على أرض كريت هذه الأحداث النكراء . لقد أحببت ابنة الشمس^(٢٧) ثوراً حقاً ، لكنها كانت أنثى تعشق ذكراً . أما حبي أنا فهو - لو كشفت عنه - أكثر شذوذاً من حبيها ، فقد كانت لذة الجسد التي ترقبها هي التي أغوتها ، وقد استطاعت بالحيلة حين تحفّت في تمثال على صورة بقرة أن تسعد بالثور الذي تحبته عاشقاً حقاً . غير أنه على الرغم من ومضة العبقريّة التي تمثلت في تمثال صنعة دايدالوس الذي حلّق في السماء بجناحين ثبّتها بالشمع ، فإنه لو عاد ما استطاع أن يفعل ل شيئاً ، ولما استطاعت فنونه السحرية أن تحيلني من فتاة إلى شاب ، ولما استطاع أن يجعلك أنت يا إيانثى إلى صبي . إذن فلتحزمني أمرك يا إيفيس ولتتفضى عنك هذه العاطفة المخبولة الخرقاء ، وواجهي حقيقة الأمر إلا إذا كنت تخدعين نفسك فضلاً عن غيرك ، واستمتعي بما هو متاح للمرأة أن تستمتع به . إن الأمل هو الذي يولّد الحب ويغذّيه ، وقد حرمتك الطبيعة كل أمل ، إنك تستطيعين معانقة تلك التي تعشقينها دون أن يقف في طريقك زوج أو أب قاس ودون أن تمنع محبوتك . ومع ذلك فلن تكون محبوتك ملكاً لك ولن تجدي معها ما يمنحك السعادة معها عاونك في ذلك الآلهة والبشر . إن شيئاً واحداً فقط لم تحقّه لي الآلهة الرحيمة التي استجابت لكل ما رجوت . وهذا الذي أريده ويريده أبى وخطيبي نفسها والدها تقف الطبيعة حائلاً دون تحقيقه وهي أقوى منهم جميعاً . إن الطبيعة هي سبب بلائي . لقد جاء اليوم الذي كانت دعواتي كلها من

أجله واقترب موعد زفافي ، وستصبح إيانثى لى دون أن أقوى على تملكها ، وسأحس الظمأ وأنا وسط المياه ، مالى أراكها هنا يا چونو يا راعية الزواج وأنت يا هيميانياوس^(٢٨) ؟ وماذا تفعلان فى حفل ليس به زوج ، بل نحن فيه زوجتان ؟ . وما لبثت إيفيس أن لاذت بالصمت .

وكانت الفتاة الأخرى تشتعل حباً لا يقل ضراوة عن حب إيفيس لها ، وراحت تتصرع قائلة : « مدّ إلى يد العون على عجل يا هيميانياوس » . غير أن تيليثوزا كانت تخشى ما تدعو إليه إيانثى وتؤجل الموعد متصنعة المرض أو متعللة برؤى مقلقة أو بفأل سىء حتى استنفدت جميع حيلها واقترب يوم إشعال شموع الزفاف الذى تأجل مرات عدة ولم يبق إلا يوم واحد . وعندها فكّت تيليثوزا العصابات الملتفة حول رأسها وحول رأس ابنتها فتناثر شعرها ، وطوّقت بذراعيها محراب إيزيس وصاحت : « يا إيزيس ، أنت يا من تقطنين الباريتونيوم^(٢٩) وحقول مريوط وفاروس^(٣٠) والنيل المشعب إلى سبعة فروع ، أسرعى إلى نجدتنا . أتوسل إليك أن تمنحينا دواء لآلامنا ، أنت أينها الإلهة التى رأيتك ورأيت مظاهر قدراتك وتعرفت على حاشيتك ومشاعلك وأصوات مصلصلاتك ، وحفرت بإخلاص وصاياك فى ذاكرتى . إذا كانت ابنتى مازال على قيد الحياة ، وإذا كنت أنا نفسى أحياء فى مأمن من العقاب ، فذلك بفضل نصائحك وحمايتك التى أدين لك بها اليوم ، فلتترقى بنا نحن الاثنتين ، وامنحينا عونك الكريم » . وانسابت الدموع من عينها مع انتهاء دعائها ، وخيل لها أن المحراب اهتز كما اهتزت أبواب المعبد ، وأشرق هلال الإلهة الشبيه بالقمر ، ودوّت جلبة عاصفة ، ولم تعرف الأم ما حدث على وجه الدقة ، لكنها عدت ذلك فالأ حسنا وامتلاً قلبها بهجة ، وخرجت من المعبد ومضت مع إيفيس التى اتسعت خطواتها عما كانت عليه من قبل ، وقد فقدت بشرتها نعومتها ، وغدا شعر رأسها قصيراً مصففاً فى بساطة ، وأصبحت قسماً وجهها أكثر صرامة ، وبدت أقوى مما كانت وامتلات نشاطاً قل أن يمتلئ به جسد أنثى ، واستحالت هذه الأنثى الرائعة الجمال فتى فى غمضة عين ! هيا إذن أيها الزوجان السعيدان ، احملا هداياكم إلى المعبد وانعما بالفرحة فى طمأنينة .

ومضى العروسان هداياهما إلى المعبد ، ونقشا فوق جداره بيتاً قصيراً من الشعر يقول : « ها هوذا إيفيس يقدم قرباناً نذر بأن يحمله لإلهته يوم أن كان فتاة ، رمزاً للوفاء بالعهد بعدما أصبح - كما اشتاق - صبياً » .

ومع صباح اليوم التالى أشرقت الشمس وغمرت أشعتها أركان العالم الفسيح ، واجتمع كل من فينوس وچونو وهيميانياوس مع حاشيتهم فى حفل زفاف الفتى إيفيس يوم اقترانه بعروسه الحبيبة إيانثى^(٣١) .

التعقيبات

- (١) نيسوس أحد القنطورى وهو ابن إيكسيون أنجبه من الغمامة التى أرسلتها جونو بينها وبين إيكسيون عندما حاول الاعتداء عليها . وقد نال إيكسيون عقابه فى العالم السفلى بأن شدته الآلهة على عجلة تدور بلا انقطاع .
- (٢) كان هرقل قد غمس سهامه فى الدم السام للهدرا الليرناوية . عن تفاصيل أسطورة هرقل وأعماله الاثنى عشر راجع المقدمة التى صُدِّرَ بها د. أحمد عتيان ترجمته لمسرحية سينيكا « هرقل فوق جبل أويتا » (من المسرح العالمى . الكويت عدد ١٣٨ مارس ١٩٨١ ص ١٠ - ١٠٧) .
- (٣) أوغاليا اسم حملته ثلاث مدن يونانية أحدها فى ثيساليا والثانية فى ميسينيا والثالثة فى يوبويا . وقد ارتبطت أسطورة الملك يوريتوس بن أبولو بهذه الأخيرة ، وكان رامى سهام لا يبارى وعد بأن يزوّج ابنته ممن يقهره فى مباراة الرماية ففاز هرقل ، غير أن يوريتوس وأبنائه أبوا تسليم يولى بنت يوريتوس إليه وفاء بالوعد ، فغضب هرقل وأباد المدينة وقتل الملك وأبنائه وأخذ يولى أسيرة .
- (٤) كان للإله جوبيتر معبد على رأس كينايون أو كينايوم إلى الشمال الغربى من يوبويا .
- (٥) تذكر ديانيرا مصرع خالى ملياجر على يديه انتقاماً لإهانتها لأتالانتا [انظر الكتاب الثامن] .
- (٦) يبدأ أوغيد هنا استعراض مآثر هرقل . وكان بوزيريس ملك مصر يذبح كل غريب يفد إلى بلاده قرباناً للآلهة ، وعند وصول هرقل إلى مصر كاد يلقى نفس المصير غير أنه حطم قيوده وقتل بوزيريس وابنه وحاشيته .
- (٧) يوريشيوس هو ملك أرجوس الذى فرض على هرقل القيام بالمغامرات الاثنى عشر التى وردت على لسان هرقل خلال الفقرات السابقة .
- (٨) كان فيلوكتيتيس بن بوياص أعز صديق لهرقل . وبعد أن عاون هرقل فى إعداد المحرقة وهبه هرقل قوسه وسهامه . واشترك فيلوكتيتيس فى حملة الأخيين ضد الطرواديين ، غير أن ثعباناً أرسلته جونو لدغته فى قدمه فتركه وفاقه الإغريق فى جزيرة لنوس لاشتمتازهم من رائحة العفن الصادرة عن جرحه . وعندما قال العراف إن طروادة لن تستسلم بغير سهام هرقل التى كان يحتفظ بها فيلوكتيتيس أوفد الإغريق أوديسوس ونيوبتوليموس وديميديس لإحضاره . ولسوفوكليس مسرحية تتناول هذا الموضوع .
- (٩) كانت اللحظات الأخيرة من حياة هرقل موضوع مأساة التراخينيات « نساء تراخيس » لسوفوكليس .
- (١٠) المقصود به هيلوس أكبر أبناء هرقل وديانيرا . إذ حاول يوريشيوس بعد موت هرقل أن يظلف أبنائه الذين كانوا قد التجأوا إلى كيكس ملك تراخيس الذى أرسلهم إلى أثينا حماية لهم فهاجم يوريشيوس أثينا مطالباً نيسوس بهم إلا أن الأخير هزم يوريشيوس . وهذه القصة موضوع مأساة « أبناء هرقل » لأوربيديس .
- (١١) ليس المقصود هو نبات اللوتس المطرى بل المقصود هو شجرة العنّاب واسمها باليونانية اللوتيس نسبة إلى الحورية لوتيس . ومن هنا جاء اللبس من تسمية هذا النبات باللوتس صنو الماء فى نص لأوغيد .

- (١٢) تزوج هرقل هيمى ابنة جونو بعد أن تحول إلهما في السماء .
- (١٣) كان أمفيارووس قد أوصى ابنه الكهايون بأن يثار له قتل أمه . وقد فقد الكهايون صوابه نتيجة لذلك وظلادته ربات الانتقام كما ورد في « مأساة السبعة ضد طيبة » ، ففر من أرجوس ملتجئاً إلى أركاديا حيث تزوج من ألفيسيبويا ابنة الملك وأمهرها قلادة أمه الذهبية . وازداد جنونه بمرور الأيام فقصد الحاتف الإلهى البيشى الذى أمره بأن يقصد مصب نهر أخيلووس حيث تزوج كاليرهوى بنت إله النهر التى طلبت منه أن يهديها القلادة الذهبية ، فعاد إلى أركاديا ليسترد القلادة من زوجته الأولى ، ولكن أصهاره قتلوه ووضعوا القلادة في معبد أبوللو ببلقى . فتضرعت كاليرهوى إلى جوبيتر كى يتيح لابنائها الثار لأبيهم قبل إدراكهم سن الرشد ، الأمر الذى وافق عليه رب الأرباب .
- (١٤) هى أورورا التى مُنح زوجها تينونوس الخلود دون أن يظفر بالشباب الأبدى . ويبدو أن الصواب قد جانب أوفايد حين نسب أورورا إلى المارد بالاس بينما هى في واقع الأمر وفق رواية هزيودوس ابنة المارد هيريون .
- (١٥) ابن جوبيتر من إلكترا بنت أطلس ، وكان يحظى بعطف سيريس التى عشقته وأنجبت منه پلوتوس فغضب عليه جوبيتر وأرسل عليه صاعقة قتله .
- (١٦) مينوس ورادامانثوس وأياكوس أبناء جوبيتر من أوروبا :
- (١٧) مدينة ميليتوس في آسيا الصغرى التى كوَّنها طمى نهر المياندر .
- (١٨) زَوْجُ إله الريح أيولوس أبناءه من بناته الست .
- (١٩) هنا نوع من البلاغة اللفظية ، فكلمة SALUS تحمل معنى السلام كما تحمل معنى السلامة في الوقت نفسه ، وهى تورية قصداً الشاعر .
- (٢٠) أسس كلونوس مدينة باسمه في كاريا بآسيا الصغرى على ضفاف نهر كاليس بالقرب من البحر .
- (٢١) الثيرسوس عصا تنتهى بحلية على شكل ثمرة صنوبر هى صولجان باكخوس .
- (٢٢) بوياسوس مدينة في كاريا شرقى كيدوس .
- (٢٣) الاسم القديم للشعوب القاطنة في كاريا بآسيا الصغرى .
- (٢٤) ذكر هزيودوس أن الخيميرا هى ابنة تيفون وإخيدنا ، ومن ثم كانت أختا للكلب كيريوس وللأفموان الليرناوى . وأغلب الظن أن وصف هذا الكائن الخرافي يرجع إلى أصول شرقية بعيدة .
- (٢٥) روى أوفايد أسطورة ابنة إيتاخوس التى رحلت إلى مصر وتحولت إلى الإلهة إيزيس [انظر الكتاب الأول] . وتدل الإشارة الواردة في النص على إقبال الرومان على المعانيد المصرية ، والمعروف أن إيزيس كانت تمثل بقرص القمر فوق رأسها بين قرنين مثلها كانت تمثل إيو . وفى وصفه لإيو نسب أوفايد سنابل القمح والصل لها كما كانت الحال بالنسبة للإلهة والفراخنة عند المصريين القدماء .
- (٢٦) هو حور [حورس] بن إيزيس وقد سنَّاه الإغريق هارپوقراطيس وصَوَّروه دائماً طفلاً يضع أصبعه في فمه .
- (٢٧) پاسيفاي زوجة مينوس ملك كريت .
- (٢٨) هيمينايوس هو الإله الجميل راعى الزواج وأحفال الزفاف . وقال البعض إنه ابن أبوللو من إحدى ربات الفنون ، وادعى البعض الآخر أنه ابن باكخوس وتينوس ، ويصوَّر حاملاً شعلة الزواج وإكليل العرس وطرحه الزفاف .
- (٢٩) مدينة غرب الإسكندرية [ربما هى مرسى مطروح الآن] وكثيراً ما كانت كلمة « پاريتونى » تعنى المصرى أو السكندرى لدى الرومان .
- (٣٠) جزيرة أمام الإسكندرية أوصلها بطلميويس « المنقذ » بالمدينة وشيَّد فوقها منارة الإسكندرية الشهيرة .
- (٣١) يقول نيكاندر إن هناك قصة مشابهة لهذه القصة تدور أحداثها أيضاً في فيستوس ، واسم بطل هذه القصة ليوكيپوس لا إيفيس ، وإن الفضل في تحولها إلى فنى مرَّه إلى لاتولا إلى إيزيس . ويذكر نيكاندر بهذه المناسبة اثنين تمتعا بنفس القدرة على التحول من أنثى إلى ذكر والعكس وهما تيريزياس وكاينيويس اللابثى ، وقد ذكر أوفايد أولهما في الكتاب الثالث وثانيتها في الكتاب الثانى عشر .



پيكاسو: الأقمى تلذغ كاحل يورديكى

الكتاب العاشر أورفيوس

استجاب هيميناوس ربّ الزواج لدعوة أورفيوس لكى يشهد حفل زفافه ، فشقّ أجواز الفضاء متلفعاً بردائه الزعفراني^(١) إلى أن بلغ شواطئ الكيكونيين^(٢) ، إلا أن دعوة أورفيوس للإله كانت لا جدوى فيها لأنه على الرغم من حضوره ساد الحفل سوء الطالع . وقد بدا أورفيوس مقطبّ الجبين لا يعلو

وجهه سيبا البشر وانصرف عن شذو نشيده المألوف ، وكذ فهقت الشعلة التي يحملها وانبعث منها دخان كثيف يهيج دموع الحاضرين وذهبت كل محاولة لإشعالها سدى . ووقع ما هو أكبر شرًا مما أنبأ به الفال ، فقد اعترضت أفعى طريق العروس وهي تتجول في المروج بين صاحباتها ولدغت كاحلها فهوت على الأرض جثة هامدة ، فهال ذلك حبيها الشاعر مُنشد جبال رودوبى وهوى هابطًا إلى عالم الموتى في جُرأة لا حدود لها شاقًا طريقه إلى شاطئ نهر ستيكس عبر بوابة تيناريوس^(٣) كى يحرك أرواح الموتى شفقة ، وأخذ ييوس بين أشباح الأرواح الداوية إلى أن انتهى إلى حيث بيرسيفونى وزوجها اللذان يهيمنان على هذه الأنحاء المعتمة ، وجعل ينشدهما على أنغام القيثارة :

« أى إلهى العالم السفلى الذى سمنضى إليه نحن البشر الفانين ، هل لى أن أصارحكما بالحقيقة من غير زيف ولا مداراة ؟ ما أتيت إلى هنا لأتجول في دروب تارتاروس المعتمة ولا لأكبّل بالأصفاذ كلب ميدوسا المقترس ذا العروس الثلاثة والشعر الكثيف المتلبد الذى تنساب بين تلافيفه الثعابين^(٤) ، وإنما أتيت سعيًا وراء عروسى التى خبت جذوة حياتها وهي فى ربيع العمر صريعة لدغة أفعى أفرغت فى عروقها سمها الزعاف . وكم وددت لو استطعت أن أحتمل مرارة أحزاني باذلاً جهدى لأتلذع بالصبر ، غير أن الحنين إلى عروسى غلبنى ، والحب كما تريان إله له شهرته بين البشر ، وما أدرى هل تكون له شهرته هذه بينكم ، وما إنحالكما يغيب عنكما أمره . وعلى أية صورة كانت الصلة بينكما قبل أن تتزوجا ، فما من شك فى أن الحب هو الذى جمع بين قلبيكما ، فيحق هذه الدروب الرهية والمتاهات ، ويحق هذا الصمت المخيم على مملكتكما الشاسعة أضرع اليكما أن تُعيدا إلى يورديكى الحياة التى فقدتها يانعة ، وإنى لأعلم أن مصيرنا نحن البشر إن عاجلاً أو آجلاً إلى هذا المكان وكلنا ماضون إليه ، وأن سبطانكما على البشر أبدى لا انقطاع له ، وأن زوجتى سوف تُردّ روحها اليكما شأنها فى ذلك شأن غيرها ، وذلك بعد أن تقضى حياتها المقدورة على الأرض . وما أرجوه منكما هو أن تهبانى الفرحة بصحبتكما ، وإذا أبت مشيئة ربّات الأقدار أن تعيدا ثانية إلى الأرض فما فى نيتى أن أعود إلى عالم الأحياء ، ولكما عندها أن تتشفيا بموتى كما تشفيتما بموتها . »

وفيا كان أورفيوس يتغنى بكلماته على أنغام قيثارته أجهشت الأشباح الشاحبة بالبكاء ، وغفل تانتالوس عن متابعة المياه وهي تفلت منه^(٥) ، وتوقفت عجلة إيكسيون عن الدوران ، وأمسكت الصقور عن نهش كبد تيتيوس ، وأغفلت بنات دانائوس ملء جوارهن ، واستولى الدهول على سيزيفوس وهو يستريح على صخرته^(٦) ، وغلب الأسى ربّات الانتقام عند سماعهن هذا الشدو الحزين فابتلت وجناتهن بالدموع ، ولم يملك حاكم العالم السفلى وزوجته إلا الاستجابة لتوسلاته . ودعا يورديكى ، فأقبلت من بين الأشباح تنهادى مُثقلة بجرحها ، ومضى أورفيوس الطراقى مُنشد جبال رودوبى بزوجته على شريطة ألا يمدّ عينيه إليها إلا بعد أن يغادرا وديان أفيرنوس^(٧) حتى لا يفقدها ويعود إلى الدنيا وحده .

وانطلقا معاً بين السكون والظلمة يرقبان السفوح وقد خيم عليها ظلام لا تُشقّ غياهبه ، وحين اقتريا من سطح الأرض أخذ القلق يساور أورفيوس مخافة أن يكون الإعياء قد بلغ من زوجته مبلغه وأحس

بلهفة إلى رؤيتها ، فمال ببصره إلى الوراء فإذا يورديكي التعسة تعود لساعتها إلى الأعماق ، وهي تمدّ ذراعها إليه ، وعبثا حاولت أن تحمله على الإمسك بها أو أن تتعلّق به ، وإذا ملء كفيها هواء . وعاجل الموت يورديكي ثانية دون أن تلفظ بشكاة ، وممّ تشكو وكل ما حدث كان مبعثه هيام زوجها بها ! ولما همّت بوداعه تبدّت كلماتها قبل أن تبلغ سمعه ، وإذا هي تجهد نفسها ثانية في المكان الذي كانت قد خلّفته منذ لحظات .

ومزّق الحزن فؤاد أورفيوس لانتقال زوجته مرة أخرى إلى عالم الموت ، وصار أشبه بذلك الرجل الذي هلع حين رأى كيريروس ذا الرؤوس الثلاثة عمّدا على الأرض مغلول الرأس الأوسط ، ولم يخلص من هلعه إلا حين فقد صورته الأولى وتحوّل حجراً^(٨) ، أو بأولينوس وليثيا العاشقين التعمسين اللذين تحمّولا في مراعى إيدا^(٩) حجرتين لشدة غرور ليثيا بجهاها ، مما حمل أولينوس على أن يحمل جريرة إثمها على عاتقه ، فإذا هو قد حمل وزرها وغدا من المذنبين . وقد حاول أورفيوس أن يعبر نهر ستيكس ثانية غير أن محاولته ذهبت هباء ، ولم تُغنّ توسّلاته لحارس المعبر كي يأذن له بالعبور ، فبقى مطروحا على شاطئ النهر سبعة أيام لا يذوق طعاما أو شرابا ، يقتات من الحزن والقلق والدموع ، وعاد بعدها إلى جبل رودوبي السامق وجبل هايموس الذي يقع في مهب الرياح الشمالية يشكو ظلم آلهة عالم الموت .

وغمرت أشعة الشمس كوكبة الحوت النديّة التي تتم دورات ثلاثا في العام ، وكان أورفيوس قد هجر حب النساء خلال تلك الفترة كلها ، إما لتلك المأساة أو لعهد قطعه على نفسه . وكم من فتيات كن يتشوّفن للزواج منه استشطن غضبا لتجاهله إياهن ، غير أن أورفيوس آثر أن يقصّر علاقاته على صحبة الفتیان ذوى الشباب الغضّ ، وأن يستمتع بربيع اليافعين وشبابهم القصير المدى ، فكان أول من جنح بشعب طراقيا إلى هذا السبيل^(١٠) .

كِيَارِيسُّوس

وجلس الشاعر سليل الآلهة فوق ربوة منبطحه يغطّيها العُشب وليس ما يُستظّل به من أشعة الشمس ، ولكن ما إن أخذ يجرّك أوتار قيثارته الشاحبة وتنبعث منها أنغامها الأولى حتى أقبلت إليه الأشجار بظلالها ، فجاءته أشجار بلوط خاؤوليا^(١١) وأشجار الحور شقيقات فايتون ملتفة حوله ، وسنديانة زيوس العملاقة السامقة الأفنان ، وشجر الزيزفون والزبان وشجرة الغار العذراء وشجر البندق القصيف وشجرة الدردار التي نضج منها عيدان الرماح وشجر التنوب الأملس وشجر السنديان المثقل بجوزاته وشجر الجميز مكمن الفرح ، وشجرة الاسفندان ذات الأوراق المتباينة الألوان ، والصفصاف الذي ينمو بجوار الأنهار ، واللوتس عاشق الماء ، وشجرة البقس الدائمة الخضرة ، وشجرة الطرفاء النجيلية ، والرمان الثنائي اللون ، وشجرة اللّورة التي تحمل التوت الداكن الزرقة ، واللبلاب أيضا جاء يجرّ ذبوله ، والكروم المورقة ، والدردار بين ثناياها ، وشجرة الغبيراء وشجرة الصنوبر الراتنجي ، والفرواصد البرّي المثقل بالثمار

الحمراء ، والنخيل اللدن الذى يُنتج سعفه جائزة الفوز في المباريات ، وشجرة الصنوبر أعزّ الأشجار إلى سيبيل [كويل] أم الآلهة ذات الأوراق المنتصبّة وكأنها معرفة شعناء لجواد ، وذلك أن كاهنها آتيس كان قد استحال من هيئته البشرية إلى هذه الشجرة^(١٢) . وإلى الجمع الحاشد انضمت شجرة السُرّو بهيئتها المخروطية التي تذكّرنا بحدود زوايا المنعطفات في حلبة السباق ، وهي إن كانت اليوم شجرة ، فلقد كانت من قبل فتى عشقه ذلك الإله الذى يجيد غمز أوتار القيثارة إجادة شدّ وتر القوس .

واليكم القصة : في سالف الأيام كان ثمة وعلّ بديع التكوين تشمله حوريات حقول كارثيا^(١٣) برعايتهن ، وكانت قرونها متشعبة تمتد هنا وهناك متألّفة بوميض ذهبي ، وتطوّق عنقه الأملس قلادة من الأحجار الكريمة تسدل على صدره ، وتبرق على جبينه تعويذة فضّية مثبتة بأشرطة جلدية رفيعة ، وتتدلّى من أذنيه لآلى وضاعة على صدغيه الغائرين . وكان لا يخالط قلبه خوف ، يدخل على الناس بيوتهم ويداعب الغرباء بمدّ عنقه نحوهم ، وكان كيبارسوس أكثر شباب كُوس وسامة هو أقرب الناس إليه وأشدهم التصاقاً به ، وكان يقتاده إلى المراعى الحُضْر والينابيع الثرة ويكلّل قرونها بأجمل الزهور ، ويمتطي ظهره في بعض الأحيان وكأنه فارس على ظهر جواد ، ويوجّه خطم هذا الحيوان الرقيق بمئة ويسرة بأعنة أرجوانية .

١٢٠

وفي ظهر يوم من أيام الصيف وكانت أشعة الشمس الحارقة تلهب أذرع برج السرطان ضيف شواطئ البحر أحسّ الوعل بالإرهاق ، فاستلقى على العشب ينشد الراحة خلال الأنسام النُدى في ظلال الأشجار ، وتراعى لكيبارسوس مداعبته فوخزه بحريته المسنونة دون قصد إيدائه ، فإذا الوعل قد جُرح وانكفأ يحتضر وهمّ كيبارسوس بقتل نفسه ليلحق بصديقه في رحلة الموت ، فأسرع أبوللو إليه يواسيه بأجمل القول ويحاول إقناعه بالقصد في حزنه ، غير أن الصبى مضى يئن ويتحبب وانجه إلى الآلهة يسألها أن تحقق له رجاءه الأخير وهو أن يظل باكياً نائحاً إلى الأبد . ولم ينقطع الصبى عن البكاء حتى جفّت من عروقه الدماء ومال لون أطرافه إلى الخضرة ، وجهد شعره وتشعث بعد ما كان مُرسلاً يتموّج على جبينه الناصع البياض . وغمر الحزن العميق الإله أبوللو فناجى نفسه فائلاً في أسى : « لسوف أظل أبكيك أبداً ، ولسوف تظل أنت تذرّف الدمع من أجل الآخرين ، ولسوف تبقى دائماً رقيقاً لزمره المحزونين^(١٤) .

١٤٠

جَانِيْمِيدِيْس

وشرع أورفيوس يختبر أوتار قيثارته محرّكاً إبهامه عليها متوسطاً جمعاً من قطعان الوحوش وأسراب الطيور ، حتى إذا اطمانت أذنه إلى أتساق النغمات المختلفة التي يعزفها بدأ يشدو قائلاً : « أمّاه ، يا ملهمة الشعراء ، فليكن چوپيتر الذى تنحني لجبروته جميع الكائنات أول من أستهل به أغنيتي ، وما أكثر ما رويت من قبل عن جبروت چوپيتر ، وما أكثر ما تغنيت بالعالمقة وبالصواعق المدمّرة التي هوت على سهول

فليجرا^(١٥) بنغيات أكثر جلالاً . أما اليوم فما أحوجنى إلى نغيات هادئة توائم قصص الغلمان الذين عشقهم
الآلهة والفتيات اللاتي استبدت بأفئدتهم عواطف غير مشروعة ذهبت بعقولهن فدفعن ثمنها غالباً .

فقدتياً اشتعل قلب چوپيتر بحب جانيميديس الفريجي . ولكي يبلغ كبير الآلهة ما يريد أثر أن يتخذ
صورة كائن آخر بدلاً من صورته ، فاختار صورة ذلك الطائر الذي يطبق حمل صواغقه على جناحيه
[النسر] ، وحين استحال إلى صورة ذلك الطائر بدأ يضرب الهواء بجناحيه إلى أن خطف ابن
إيلوس^(١٦) ، الذي ما يزال إلى اليوم يعدّ كثوس النكتار ليحتسيها چوپيتر على الرغم من ضيق زوجته چونو
بذلك .

هياكيتوس

وكان فويوس على وشك أن يمنح هياكيتوس بن أميكلاس منزلة سامية في السماء لو أن الأقدار
القاسية قد أرخت له الزمن ليحقق هذه الأمنية ، ولكنه مع ذلك خلد على النحو الذي كان مُقدراً له
وقتها ؛ فإذا ما جاء الربيع في أعقاب الشتاء ، وإذا ما خَلَفَ برج الحمل برج الحوت التدي يعود
هياكيتوس إلى الحياة من جديد وينمو زهرة في المروج الخضراء .

لقد منح فويوس الصبي حُباً لم يمنحه غيره من البشر ، فهجر مدينة دلفي صرّة العالم ، وأخذ يبتلع
إلى يوروتاس ومدينة أسبرطة التي لا أسوار لها مُغفلاً قيثارته وسهامه متناسياً عاداته القديمة ، ولم يتردد في
حمل شبك الصيد واصطحاب كلابه مرافقاً هياكيتوس إلى حواف الجبال الوعرة ، فزادت هذه الصبحة
المستديمة نيران حبه تأججاً .

وفي يوم من الأيام ، وفي اللحظة التي تتوسط فيها الشمس الطريق بين ليل زائل وليل آت خلع إله
الشمس والصبي عنها ثيابها ، ودلکا جسديها بزيت الزيتون الدسم فبدوا يبرقان ، وأخذا يتباريان في
قذف القرص العريض . وبدأ فويوس فأمسك بالقرص ثم قذف به في الهواء ، فمزق القرص بثقله خلال
مسيرته السحب الكثيفة ثم هوى على الأرض شاهداً على ما للإله من قوة وبراعة . وشغف هياكيتوس
الفتى الأسيرطى باللعبة دون أن يعمل فكره والتقط القرص ثم قذف به ، غير أن القرص ما كاد يرتطم
بالأرض الصلبة حتى ارتد إلى الوراء طائراً في الفضاء مرتطماً بوجهه في عنف . فعلا الشحوب وجه ملك
الشمس ووجه الصبي ، وأمسك الإله بجسد هياكيتوس المتداعي وحاول وقف نزيف جرح الصبي
الدّامي ، كما أخذ يدلك أطرافه لكي يبعث فيها دفء الحياة ، وحاول إمساك روحه الموشكة على فراق
جسده بعقاير الأعشاب ، غير أن محاولات أبوللو راحت كلها سُلى فقد كان الجرح ميمتاً لا يجدي معه
دواء ، وتدلّى رأس هياكيتوس المحتضر تدلّى زهرة البنفسج في البستان أوزهرة الخشخاش الجامدة أوزهرة
السوسن المصفرة البتلات حين ينكسر ساقها فلا يقف شاخماً بل تشنى قمته منهذلة عملاقة في الأرض في
انكسار . وخارت قوى الصبي فاندك عنقه بين كتفيه خائراً عاجزاً عن أن ينهض ، فقال له فويوس :

٢٠٠ «ها أنت يا هياكيثوس تقضى نحبك بين يديّ وتفقد عمرك على مرأى مني ، وإن الجرح الذي قضى عليك يؤنّبني معاتباً ، ولكن أية خطيئة ارتكبتها سوى أنني أشركتك في لعبة ما ، وهل ألام على كلّفى بك ؟ ما أجدرني أن أفضي نحيبي معك ، ولكني لا أملك أن أفلت من قوانين القدر ، وسوف تظلّ عالقاً بذاكرتي ، وسيبقى اسمك على فمي إلى الأبد ولن يغيب عن فكري أبداً ، وستردّد اسمك أغنياتٍ كلما شلوت محرّكاً أوتار قيثارتى ، وستحوّل أنت إلى نوع جديد من الزهور تعيد إلى الأذهان نحيبي عليك بما تحمله من اسم . وليأتينّ يوم يرتبط فيه أشجع الأبطال بهذه الزهرة ويقرأ اسمه على أوراقها .»

وفىها كانت الكلمات تنساب من فم أبوللو الذي هدّه الإرهاق ، كان الدم الذي انساب على الأرض ملطّخاً الأعشاب قد تحول إلى زهرة ، وهو وإن كان قد أخذ شكل زهرة السوسن البيضاء غير أنه لم يأخذ لونها بل أشرق بلون أحمر أشدّ بريقاً من الأرجوان ، وهكذا كرم فويوس هياكيثوس إذ حوّله إلى زهرة . وحين لم يقع بهذا سجّل أساه على بتلاتها ، فحملت زهرة الهياكيثوس حروفاً تنمّ عن الحزن كأنها الآهات . ولم تحجل اسهرطة من ميلاد هياكيثوس على أرضها ومازالت تكرمه إلى اليوم ، وماتزال تجرى الألعاب الرياضية لتكريمه كل عام ، وتقدم عروضها لوفق العادات القديمة في احتفالات مهية^(١٧) .

الكيراستيس والپروپيتيديس

٢٢٠ وإذا عنّ لنا أن نسأل مقاطعة أماثونتي الشهيرة بمناجها^(١٨) عمّا إذا كانت قد أنجبت مختارة بنات البروپيتيديس^(١٩) الفاجرات لبرئت من هذا الوزر البراءة كلها ، ولبرئت كذلك من أن تكون قد تطلّعت إلى أن تنجب أولئك الرجال المسّمين بالكيراستيس^(٢٠) [نسبة إلى القرون التي تعلو جباههم] والذين كان يتصدّر بوابتهم مذبح للإله چويرتر المضياف . ولو شاهد أحد الغرباء هذا المذبح الدامي لظنّ أنه قد ذبحت عليه عجول رضية أو خراف صغيرة ، وما خطر بباله أن رقاب ضيوفهم كانت تُجرّز فوقه لتكون قرباناً بشرياً . وفزعت فينوس لنحرهم البشر على هذه الصورة البشعة ، وأخذت الإلهة الرقيقة أهبتها لهجر مدنها ومغادرة سهول أوفيوسا^(٢١) غير أنها ترددت وحدثت نفسها قائلة : «أى جرم اقترفته مدّني والمناطق التي أحببتها ؟ وأية جريرة تلك التي أخذها عليها ؟ من الخير أن ينزل العقاب بهؤلاء الأشرار أنفسهم ، فلما أن يعدّبو نفيّاً أو موتاً أو بعداب بين بين ، ولم لا يكون جزاؤهم أن يتحولوا إلى صور تختلف عما هم عليها ؟» . وفيها كانت آخذة في التفكير في تلك الصور التي تختارها لهم وقعت عينها على قرونها ، فحوّلتهم إلى فحول قوية كى يحتفظوا بهذه القرون . وعندما تجاسرت بنات البروپيتيديس الفاجرات على إنكار الوهية فينوس غضبت عليهن ، وأصبحن لهذا أولى النساء اللاتي تدنّست سيرتهن باحتراف الدعارة ، وإذ فقدن كل إحساس بالحياء بدأت الدماء تجمد في وجناتهن حتى أصبح من اليسير تحوّلن بعد ذلك إلى قطع صلبة من حجر الصوان^(٢٢) .

بيجماليون

وحين رأى بيجماليون حياة هؤلاء النساء الفاجرات كره ما أودعته الطبيعة في المرأة من نقائص مردولة وارضى لنفسه حياة العزوبية بعيداً عن النساء ، غير أنه في الوقت نفسه سخر فنه الرائع في نحت تماثيل عاجى له بياض الثلج وصاغه أكثر حملاً من نساء الأرض ، وإذا هويقع في غرام ما صنعتها يده . وكان التمثال يفيض حيوية حتى ليخيل للمرء أنه يوشك أن يتحرك لولا أن الحياض يقف به . ما أروع أن تضفى البراعة على الفن لونهاً من الأسرار ! لقد انبهر بيجماليون بما صنعت يده وأخذ قلبه يولع شيئاً فشيئاً بهذه المحاكاة لجسد المرأة ، ففهم بالتمثال ومضى يتحسسه لا يفتر ، ليستوثق مما إذا كان من العاج أم أنه حقاً من لحم ودم ، وبات بعدُ لا يصدق أن التمثال قطعة من عاج فحسب ، فكان حين يقبله يخال أن التمثال هو الآخر يقبله ، ويخال حين يعانقه أن أصابعه تغوص في لحم يخشى عليه من قسوة أصابعه . وكان يخاطبه مستعظماً ويحمل إليه الهدايا التي تنهأ بها الفتيات كالأصداف وحصى الشيطان المصقول وصغار الطير ، والزهور المختلفة والكرات الملونة ، وقطرات العنبر المتساقطة من الأشجار التي كانت في الماضي أخوات فايثون [أى الكهرمان] ، ثم كسى تمثاله ثياب النساء ووضع في أصابعه الخواتم ولقّف حول عنقه العقود الطويلة وجعل اللآلئ تتدلّى من أذنيه والقلائد على صدره . وكان التمثال جميلاً في حاله عارياً أو كاسياً ، فأضجعه فوق فراش مغطى بنسيج له لون أرجوان صُور ، ووضع تحت رأسه وسائد من زغب البجع وكأنه يوشك أن يتوسدها ، وسّاه ضجيجة الفراش .

وبدأت أعياد فينوس تقام في أنحاء قبرص محاطة بالأبهة والجلال ، وأخذت العجول الملتفة القرون الموشاة بالذهب تُنحر على المذابح وتعمل المني في رقابها البيضاء ، وبدأ البخور يتصاعد في كل مكان ، وجاء بيجماليون يقدم قربانه ويصلى خاشعاً بجوار المذبح وهو يتمتم : « إذا كان في قدرتك أيتها الإلهة أن تهبى كل شيء ، فهبى لى القدرة على الضراعة إليك [ولم يُشجع على أن يُصرح برغبته في الزواج من الفتاة التي من العاج بل اجترأ قائلاً] : « امنحني أيتها الإلهة زوجة على مثال العذراء العاجية » . وما أسرع ما فطنت فينوس المثقلة بالحلى الذهبي والتي كانت في هذا الحفل الخاص بها إلى ما يرمى إليه من ضراعة ، فكدت في الهواء بالسنة من لهب اشتعلت مرات ثلاثاً علامة رضاها وعطفها عليه . وما كاد بيجماليون يعود إلى داره ويخطو نحو الفتاة المنحوتة تماثلاً ويميل عليها يقبلها حتى أحس بدفء الحياة يدبّ فيها ، ومدّ يده يتحسّس صدرها فإذا العاج يلين وإذا بشرتها تلين للمس أصابعه كما يلين شمع هيميتوس^(٢٣) من حرارة الشمس وينصاع للأصابع تصوغه في أشكال مختلفة لأغراض شتى . وذهل العاشق وكان بين فرحة المصلّق وشك المرتاب ، وأخذ يتحسّس ما كان تماثلاً والذي طالما صرع من أجله مرّات ويتلمّس نبضات عروقه . وما إن استوثق بيجماليون فنان پافوس^(٢٤) أن التمثال عاد جسماً حياً حتى لهج بالشكر لفينوس . وانكفاً يهصر بشفتيه تلكما الشفتين اللتين أخذتا تنبضان بالحياة ، وأحسّت الفتاة بحرارة قبلاته فاهمرت وجنتها

خجلاً واختلست النظر إلى حبيبها ، فإذا هي ترى أول ما ترى صفحة وجهه مع بياض النهار في آن واحد . وأعدت لها فينوس عرساً شهدته ، وبعد أن اكتمل القمر مرات تسع وضعت عروس ييجاليون طفلاً أسمته يافوس ، وبهذا الاسم سُميت الجزيرة بعد .

مُورِها

٣٠٠ أنجب يافوس ولده سينيراس الذى ترك من ورائه أسرة وليته لم يفعل ، ولو أنه لم يفعل لكان من السعداء المخلدين . وهاكم هذا النشيد المروع : لتعزفن عنى أيتها الفتيات ولتناوأ عنى أيها الآباء حتى لا تبلغ كلمتى مسامعكم ، وإن بلغت فلا تصدقوا ما تحمل من إثم وافترضوا أن هذا الإثم لم يقع ، وإذا تراءى لكم أن تصدقوا فلتصدقوا أيضاً ما أعقبه من جزاء .

وإذا كان قد كُتب على بيثة أن تَشقى وَيَشقى فيها شعبها ، فما أسعد إسباروس وأسعد بلادنا ببعدها بعداً شامعاً عن تلك البيثة التى ولد بها كائن يستطيع أن يكفر بالمقدسات . وقد تكون أرض پانشايا^(٢٥) غنية بالبلسم والقرفة وعشب الجدار وأنواع كثيرة من الزهور ، ويفوح من أشجارها عبق الصمغ العربى والبخور ، ولكن ما جدوى هذا كله إذا كانت تنتج المر كذلك ، تلك الشجرة الجديدة التى لم تكن تستحق ما يُدلى فيها من ثمن باهظ . ثم إن كيوييد يؤكد أن سهامه لم تُصيب «مُورِها» بجرح ، ويقول إن التى أصابها بهذا الداء المريب هى إحدى الشقيقات الثلاث^(٢٦) ، تلك المسلحة بجمرات من نهر ستيسك وبالشعابين المنتفخة الأوداج ، وإذا عددنا كراهية الفتاة لأبيها جريمة ، فإن عشقها له هذا العشق هو جريمة تُرى على جريمة الكراهية .

٣٢٠ ولقد تابع الخاطبون فى طلب يدك من مختلف الأنحاء ، وتنافس من أجل الظفر بيدك كل شباب الشرق . ولك يا مُورها أن تختارى من شئت من بين كل الرجال الذين تقدموا لخطبتك غير رجل واحد . وأحسنت الفتاة بما يجالجه وجاهدت أن تخلص من تلك النزوة التى كانت تتملكها ، وناجت نفسها قاتلة : ما هذا الذى يُلبّل فكرى . . إننى أصرع إلى آلهة السماء التى تربط بين الأبناء والآباء بروابط الحب والواجب أن تطرد عن خاطرى ما يجالجه ، وأن تحول بينى وبين أن أقترف ما هو جرمٌ حقاً . ولكن أهو حقاً جرم ؟ وهل ثمة فرق بين هذا اللون من الحب وبين ما نكته من حب للآباء ؟ إن الحيوان كله ينزو بعضه على بعض ولا تفرقة عنده فى ذلك ، وليس ثمة من عار على البقرة حين يعلوها أبوها ، ولا من عار على الجواد حين يجعل من ابنته أنثاه ، ولا على الجلىدى حين يصطفى من سلالته عزته ، وإن ذكور الطير لتسافد فرخاتها . ألا ما أسعد الحيوان بما يبتأ به ، ثم ما أقسى ذلك الضمير الإنسانى بما يفرض من قيود جائرة حرمت ما أحلته الطبيعة . ولكن لازالت ثمة شعوب يقترن فيها الأبناء بأمهاتهم والآباء ببناتهم توثيقاً لروابط الحب بينهم^(٢٧) ، ولعل حظى العائر أننى لم أولد فى بلد من هذه البلاد ، وعلى الآن أن أدفع ثمن

مولدى هنا . ولكن مالى أستمرل فى هذه الخواطر دون إعمال فكرى ؟ فلا طرح جاهدة تلك الشهوات المحرمة . إن سينيراس جدير بحبى حب البنث لايها ولو لم أكن ابته لتزوجته ، لكنى لا أملك أن أتزوجه لأنه أبى ، وهكذا تُصبح صلبة القربى بيننا هى مبعث نكبتى . ولو أننى كنت غريبة عليه لتحققحت أحلامى فى يسر . ولقد كان من الممكن أن أجد الراحة فى رحيلى من بلدى كى أخلص من الشعور بالذنب ، ولكن ٣٤٠ حيبى لسينيراس ورغبتى فيه يقضيان على أن أبقى بجانبه لأملأ عيني منه ولأتحدث إليه ولأسعد بتقبيله إن لم أستطع ما هو أكثر . أيتها الفتاة المارقة أنتطلعين إلى إتيان ما هو أبعد من ذلك ؟ أتحاولين أن تخلطى الأنساب وتخرقى القوانين ، أو تريدن أن تنافسى أمك وتضاجعى أبك فتصبحى أختاً لإبنك وأما لأخيك ؟ أو لا ترهين ربّات الانتقام الشقيقات الثلاث اللاتي تنبت مكان شعورهن ثعابين سوداء تتلوى ، واللاتي يخشى المذنبون السنة اللهب التى يُطلقنها من شعلاتهن وهن يلوحن بها فى عيونهم ووجوههم ؟ فلنأخذى حذرنا ، ولا تدعى الأفكار الأئمة تعشش فى وجدانك مادمت لم تسقطى بعد فى وهدة الخطيئة ، ولا تحاولى انتهاك قوانين الطبيعة الصارمة بتلك المواطأة المروعة . وهى أنك عزمت على أن تُقدمى فستجيبين بالحقيقة لأن أباك يعرى روابط الأسرة حتى رعايتها ولا يفرط فيها يقضى به العرف . وكم كنت أتمنى لو أن ما أصابنى كان من مس .

وحين رأى سينيراس ذلك الجمع الحاشد من الخاطبين لابنته حار ولم يدر ما يفعل ، فأخذ يذكر أساءهم لها ويسألها عمن تختاره من بينهم فلزمت الأميرة الصمت فى بادئ الأمر ، ثم حملت فى وجه أبيها حائرة اللب وفاضت عيناها بدمع غزير . وخال أبوها أن ما اعترأها من حياء العذارى فأخذ يجفّف دموعها ويربت على كتفها لتكفّ عن البكاء ، وانحنى عليها يقبلها فإذا الفتاة تحمس متعة أية متعة ، وسألها أبوها : ٣٦٠ « أى زوج تختارين ؟ » ففزت الفتاة وهى تجيب : « زوجاً على مثالك » . وحسب الرجل ذلك منها لونها من ألوان البرّ ولم يفظن إلى ما تُخفى ، وقال لها : « كم أتمنى أن تظلى بى بأرة » ، وأحسّت الفتاة خجل الأئمة عند سماعها كلمات أبيها فأطرقت برأسها .

وأوى الناس إلى فراشهم مع منتصف الليل نافضين عنهم همومهم ومتاعبهم ولكن إبنة سينيراس لم يغمض لها جفن ، وثارَت فى قلبها لواعج لا تُحمد ، وتملكتها نزواتها الطائشة ثانية . وكانت تستسلم حيناً لليأس فتستكين خجلة ، وتتنازعها الجراءة حيناً فتتحرق شهوة . ولم تكن تملك أن تختار ولم تعرف ماذا هى فاعلة ، فلقد أصبحت أعجز من أن تنبّ فى أمر طالما عناها وعاشت تحت ثقله ترتجح ، مثلها فى ذلك مثل شجرة ضخمة توالى عليها ضربات البقلة وهى تهتز بيمينه ويسرة لا تدرى على أى جنب ستسقط مع الضربة القاصمة ، والخطابون حولها يرقبون وقوعها . ولم تر « مورها » خلاصاً لها من جها إلا فى الموت فهو الطريق الوحيد للراحة التى تنشدها ، فلقت حول عنقها الذى انقطع الدم عن بلوغه أنشودة وأثبتت طرفها فى عتبة الباب وقالت وقد أوشكت على التلذذ : « وداعاً سينيراس يا من هو أعزّ الناس عندى ، وما أظنك ٣٨٠ شيعيب عنك سرّ موق » .

وبلغت كلماتها سمع مربيّتها وكانت ترفد على باب حجرة نومها فنهضت وفتحت الباب ورات ما أعدته مورها للانتحار فأطلقت صرخة مدوّية ولطمت صدرها عمزقة ثيابها ، وبادرت فحلّت الأنشودة اللثغة على عنق الفتاة وهى تبكى ، ثم طوّقتها بذراعيها وأخذت تسألها عن سر ما همّت به ، لكن مورها ظلت صامته تحمّلق في الأرض حزينة لما فاتها من التخلص من الحياة ولاكتشاف محاولتها الانتحار .

والحّت المربية العجوز على الفتاة لتكشف لها عن سرّ رغبتها في الانسحاب ، وأزاحت وشاحها عن رأسها الأشيب وكشفت أنداءها الضامرة الذابلة وهى تتوسّل إليها وتستحلفها بأيام رعايتها لها فى مهدها وباللبن الذى غدّتها به فى طفولتها أن تسرّ لها بهمومها ، لكن مورها لم تفصح عن سرّها وأشاحت عنها بوجهها وهى تئن وتزفر زفرات حارة ، وازدادت المربية إصراراً على تعرّف الحقيقة ووعدت الفتاة بأنها ستكون إلى جانبها كما سوف تصون سرّها . وقالت لها : « أسرّى لى بدخيلتك أقدم لك عونى ، فلازلت غير متبلّدة رغم شيخوختى ، وإذا كانت ثمة لوتة قد ألّمت بك فإنى أعرف من يشفيك بالتعاويد والأعشاب ، وإذا كان هناك من مسكّ سحره بشرّ ففى الطقوس السحرية ما يخلّصك من هذا الشرّ ، وإن كان ما بك من همّ مرجعه إلى غضب الآلهة عليك ففى القرابين ضمان لرضى الآلهة عنك . وليس ثمة شيء بعد هذا ، فإنك تعيشين عيشاً رغداً ناعمة بجوار أمك وأبيك . »

٤٠٠

وزفرت مورها زفرة عميقة حين سمعت كلمة « أريك » وما خالت المربية أن فى هذه الزفرة ما يبيّن ، ولكنها أحسّت أنه ثمة غرامٌ عارمٌ هو سرّ شقائها ، وازدادت عمزاً على أن تعرف خبيثة نفسها مها كلفها ذلك ، فأخذت تتوسل إلى سيدتها أن تطالعها بأمرها ، وضمت الفتاة الباكية إلى صدرها الذابل بيدين تردان وهى تقول لها : ما أعرفنى بسرّك ، إنه الحب يخفق به قلبك ، ولكن لا عليك فستجدينى إلى جانبك دوماً عندما يعوزك العون ولن أمكّن أباك من أن يعلم شيئاً عنك .

فانتزعت مورها نفسها من بين أحضان مربيّتها شاردة الفكر ، واستلقت على فراشها وقد غمّت وجهها بالوسائد وهى تصرخ : « اغزّى عنى وإنى أضرع إليك أن تخلّينى وحدى ، رفقاً بى ولا تحاولى أن تكسفى خبيثة عارى » . وعندما عادت المربية تلحّ ، نازت مورها قائلة : « إن ما تحاولين أن تعرفينه جرم فاضح فكفى عمّا تحاولين » . وهلعت العجوز لما سمعت فارتمت على قدمي مورها ضارعة حيناً بما لها من دالة ومنذرة حيناً بأنها ستتهى إلى أبيها ما اعترمت عليه ، وكانت وهى فى حديثها لها تلوح بيدين مضطربتين بفعل سنّها وفزعها إلى أن استكانت إليها الفتاة ورفعت رأسها وإذا دموعها تساقط من عينيها على صدر مربيّتها . وكم جهدت فى أن تفصح غير أن شفيتها لم تنفرجا إلا عن كلمات قائلتها وهى تسرّ وجهها بشوها : « ما أسعد أمى حين ظفرت بأبى زوجاً » ثم تنهدت ، فإذا المربية يرد الدم فى عروقها ، وإذا شعر رأسها الأبيض ينتصب هوّلاً . لقد أدركت العجوز ما تخفيه الفتاة فأخذت تحلّرها عاقبة فعلتها الشنعاء .

٤٢٠

وما كان عند الفتاة ما تنقض به رأى مربيّتها ، لكن حينها كان عارماً لا يستجيب لنصح ، لذا ظلت عاقدة العزم على أن تنتحر إن لم تظفر بأبيها زوجاً . ورثت المربية للفتاة وأخذت تهون عليها ما هى فيه ،

ووعدها بأنها ستحقق لها الظفر بما تبغى كي تخلصها من الموت ، ولكنها لم تعرض لذكر الأب ولم تعدها بالظفر به ، غير أن هذا كان وعداً منها للفتاة أشهدت عليه الآلهة .

وحلّ عيد الإلهة سيريس الذى تشارك فيه المتزوجات جميعاً ويرتدين لذلك ثياباً بيضاء ويمجملن حزمًا من بواكير سنابل القمح يقدمنها للإلهة ويقضين ليالى تسعاً يُجانبين فيها الرجال ولا يضاغن أزواجهن . . .
وحيث خرجت سنخريس زوجة سينيراس تشارك الزوجات في هذا العيد وخلا الملك إلى نفسه لا زوجة إلى جواره ، انتهزها المريية فرصة واقتحمت عليه وحدته بعد أن أثقلت الخمر رأسه وحديثه عن فتاة هائمة به في عُمر مورها فطلب الملك من المريية أن تأتى بها . وما أسرع ما خفت المريية إلى مورها تحمل إليها تلك البُشرى ، ولكن الفتاة ما كادت تستمع إليها حتى تولّاه شعور مزيج بين فرحة الظفر ومرارة الخطيئة ، وظلت مضطربة بينها لا تدرى بأبيها تأخذ غير أن شعورها بالفرح كان غالباً . وحين خيم السكون على الكون وأخذت كوكبة العواء طريقها بين كوكبتى الدب الأكبر والدب الأصغر خطت مورها إلى الإثم ، فإذا القمر اللألاء ينحدر إلى مغيبه ، وإذا النجوم تغشيتها سحب كثيفة سوداء ، وإذا الليل تحمد جدوة فحاته ، وكان أول نجم وئى هو نجم إيكاروس ، وولت في إثره ابنته النجمة إريجونيه التى لم تبلغ منزلتها في السماء إلا لحبها الطاهر لأبيها . ولقد تعثرت مورها المسكينة في طريقها مرات ثلاث ، وكانت البومة في كل عثرة تعثرها تحذرها بنعيقها الكئيب ، غير أن مورها لم تلق لذلك بالا ولم تستمع لوخز ضميرها ومضت تمسك ببسراها يد مريبتها وتلمس بيمينها وسط الظلام الدامس إلى أن بلغت مخدع سينيراس وجازت الباب إلى حيث يرقد بخطى ثقيلة وهى شاحبة الوجه قلقة هلعة ، وإذا شعور بالندم يكاد يردّها عما أقدمت عليه ، ولقد همت أن تفعل وهى لم تستبين أمرها بعد .

وأحسّت العجوز منها ذلك فاجتذبتها من يدها ، واقتادتها إلى مخدع الملك المهيب وأسلمته الفتاة قائلة : « ها هى ذى لك يا سينيراس » ثم تركت الأثمين وحدهما . وضم الرجل إليه فلذة أحشائه على فراشه الدنس ، وأخذ يهدئ من روعها ويطمئنها واثراً أن يناديها « يا ابنتى » لعلّوسه ، وإذا هى الأخرى تناديه « أبتاه » ، وهكذا اجتمع الاسمان على أمر محرّم .

وغادرت مورها مخدع أبيها وفى أحشائها نطفته ، واستقر فى رحمها الدنس حملٌ دنس هو الجنين الذى كان ثمرة الخطيئة . وفى الليلة التالية عاود الاثنان إثمهما ، وتشوّف سينيراس إلى أن يعرف عشيقته التى ضاجعها مرات عدة ، فأشعل مصباحاً وإذا هو يتبين فى ضوءه وجه ابنته ، وإذا هو تترأى له بشاعة جريمته ، وتولاه جنون فنهض إلى سيفه ينزعه من غمده المعلق ، فهزلت مورها هاربة فى جنح الظلام لتنجو من موت محقق ، تضرب فى أنحاء مملكة أبيها الفسيحة حتى خلّفت وراءها نخيل بلاد العرب وحقول بانشايا .

ولقد شهدت مورها القمر يكتمل مرات تسعاً خلال رحلة ضربت فيها على غير هدى ، وأدركت بلاد سبأ بعد أن أصابها الإرهاق ولم تعد تقوى على احتمال ثقل حملها ، وأجست نفسها موزعة بين رهبة

الموت والنفور من الحياة . ولم تعرف ماذا تسأل الآلهة أن تحققه لها فأخذت تدعو : « أيتها الآلهة إذا كنتم تصغون لضراعة المذنبين فإنى أعترف أنى جديرة بهذا المصير ، وما أرضانى بما يلحقنى من عقاب صارم ، لكنى غير راغبة فى أن أدنس الأحياء ببقائى بينهم ولا الموتى بذهابى إليكم أن تذهبوا بى بعيداً عن مملكتي الموت والأحياء ، وأن تمسخونى كائناتاً آخر تمتنع عليه الحياة والموت معاً » . ولم تذهب ضراعاتها عبثاً إذ كان ثمة إله يتولى المذنبين ، وإذا الأرض تتجمع حول ساقها وتنشق أطراف أصابع قدميها عن جذور رفيعة تنفرس فى الأرض ، وإذا هى ساق شجرة شائخة ، وإذا عظامها تخشوشب وإن احتفظت بنخاعها ، وتحول دمهإ إلى عصارة نباتية ، وأصبحت ذراعها غصوناً ممتدة وأصابع يديها فروعاً صغيرة ، وجفّت جلدها وغدا لحاء طوى رحم الفتاة بما فيه كما لفّ صدرها ، وحين أوشك أن يبلغ عنقها سارعت مورها فغمست وجهها فى طيات اللحاء ، ولم يبق لها من آدميتها غير دمعات مرّة ظلت تذرفها وظلت حديث الناس بعدد ، وحملت اسم المرّ .

٥٠٠ ويبلغ الجنين مبلغه وهو مكون فى جوف الشجرة ، وكم حاول أن ينفذ إلى الحياة ، وكم عانت مورها من آلام حين ضاق بها جذع الشجرة ولكنها لم تملك أن تفصح عما تحس ، كما لم تملك أن تفرغ إلى الإلهة لوكينا لتأخذ يديها فى وضعها . وأحست الإلهة لوكينا بشجرة تتلوى وتنبعث عنها زفرات متصلة وتندى بفيض تلك الدموع المنهمة ، فخفت تعين الشجرة فى محتتها ومسحت يديها عليها وهى تتمتم بتعويذة الوضع ، فانشق الجذع وخرجت من خلل اللحاء ثمرة تنبض بالحياة وتصرخ صراخ وليد قد أهمل ، وأسرعت الحوريات يتلقين الطفل ووضعه فوق العشب الغض بعد أن غسله بدموع أمه . ولقد كان الوليد فى جمال كيوييد الذى يبدو عارياً فى لوحات المصورين ، ليس ثمة من فارق بينها غير جعبة السهام التى يجعلها كيوييد حتى أن ربة الحسد نفسها انصاعت لإطرائه .

أدونيس وقينوس . أنالانثا وهيبوميونيس

٥٢٠ ومرت الأيام فى تعاقبها وما بالى بها احد فما أسرع ما تمضى السنين ، وما لبث أن كبر الطفل الجميل الذى يقال إن أخته أنتجته من جدّه ، والذى كان خبيثاً فى جذع الشجرة إلى عهد قريب . وها هو ذا يصبح شاباً ، ثم ها هو ذا قد صار رجلاً يفتن بجماله قينوس وينتقم منها لما أشعلته فى أمه من شبق . فلقد تصادف أن اقترب كيوييد وهو يحمل جعبة سهام الحب من أمه قينوس ليقلبها فإذا هو يخدش عن غير قصد أعلى صدرها بطرف سهم كان يطل من جعبته ، فدفعت قينوس بابنها بعيداً حين أحست ألم الجرح الذى لم تدرك لأول وهلة مدى عمقه . غير أن افتتانها بجمال الشاب [أدونيس] أنساها رعاية شيطان جزيرة كيثيرا^(٢٨) ، كما لم تعد تتردد كثيراً على جزيرة پافوس ، تلك الجزيرة التى كانت قد أحاطتها بنطاق من المياه العميقة ، ولا شبه جزيرة كينيدوس^(٢٩) الغنية بالأسماك ولا على أمالوس الجبل بالمعادن ، كما لم تعد تظهر فى السماء إذ فضلت صُحبة أدونيس على السماء .

وأصبحت فينوس رفيقة أدونيس تصحبه أين ذهب ، وهجرت ما تعودته من الاسترخاء في ظلال الأشجار والعناية بجهاها وزيتها ، وانطلقت تجول في الغابات والجبال مشمرة ثيابها إلى ركبتيها على غرار ديانا إلهة الصيد . وأخذت فينوس تستحث كلاب الصيد وتطارد الحيوانات السهلة الفئس كالأرانب البرية السريعة العدو والغزلان والوعول الشائعة القرون ، لكنها تمهّبت الخنازير البرية الوحشية ، ولم تحاطر بالتعرض للذئب المتلصص والذئبة الحادة المخالب والأسود التي تحيا على دماء البهائم ، وحرصت على نصح أدونيس باتباع نهجها محذرة إياه من الوحوش ، مؤملة في أن يصغى إلى نصحتها ، وقالت له : « كن جسوراً حين تلقى الفريسة التي تفرّ منك ، ولا تأمن الحيوانات التي تتصلنى لك . ولا تكن طائشاً حتى لا أغدو تعسة بعدك يا فتى الحبيب . لا تعرض للكواسر التي زودتها الطبيعة بأسلحة تتجاوز قدرتك حتى لا أدفع أنا غالياً ثمن ما تشوف إليه من مجد ، فليس لشبابك وجمالك وسحرك الذى يفتن فينوس أثر على الأسود والخنازير البرية المشعنة الشعر ، فهذه لا تُدعز الوحوش ولا ترهبها ، ثم إن الخنزير البرى كالبرق في انقضاضه بمخالبه ، كما أن الأسد إذا أثير يتوثب دوماً للهجوم . لشد ما أمقت كل هذه الفصائل من الحيوانات » .

وتساءل الفتى عن سرّ كراهيتها لهذه الحيوانات فأجابته قائلة : سأقص عليك ما يثير دهشتك إذا ما استمعت إلى قصة تلك الجريمة التي حدثت منذ أمد بعيد . ها هي فى شجرة حور يدعوننا ظلها الوارف أن تنفياها فلاضطجع تحتها إلى جانبك ، فإن ما أبدله من جهد لم أعتد القيام به قد أصابنى بالإرهاق » . وتمّدا على العشب ووضعت هى رأسها على صدر أدونيس وأخذت تقص قصتها وهى تبادل القبلات :

« لعلك سمعت نبأ الفتاة التي كانت تنافس الرجال فى العَدُو وتبىز أكثرهم مهارة . وليست هذه بقصة خرافية فقد كانت أتانالانتا^(٣٠) تسبق الرجال جميعاً ، ولم يكن من السهل معرفة سر الإعجاب بها ، أكان لحفة قدميها فى العَدُو أم لسحر جهاها الفريد . وقد استشارت يوماً أبوللو فى أمر زواجها ، فقال لها : « لست يا أتانالانتا بحاجة إلى زوج ومع ذلك فلن تغلقى من الزواج ، ولسوف تتحوّلين إلى كائن آخر دون أن يدرك الموت » . وتولاها خوف من هذه النبوءة فلجأت إلى الغابات تحيا فى ظلالها بعيدة عن إلحاح الخاطبين الذين فرضت عليهم شروطاً قاسية قائلة لهم : « لن أتزوج إلا بمن يسبقنى فى العَدُو ، فلتبارونى وسوف يظفر بيدي ويفراش عرسى من يتقدمنى ، على أن يدفع المهزومون حياتهم ثمناً للمغامرة . تلك هى شريعة السباق » .

ولم يحجم الخاطبون على الرغم من قسوة شروطها عن هذا السباق ، فقد كان سلطان جمال أتانالانتا طاغياً يجتذب الكثيرين . وجلس هيوميونيس وسط المشاهدين يرقب هذا السباق غير المتكافئ وينحى باللائمة على هؤلاء الشبان الذين استسلموا لعواطفهم متسائلاً فى سخريّة : « كيف يرضى رجل أن يعرض حياته لمثل هذا الخطر من أجل الظفر بزوجة ! غير أنه ما كادت تقع عيناه على وجه أتانالانتا وجسدها بعد أن أزاحت عنه غلالته [ورأى قوامها مثل قوامى أنا فينوس أو مثل قوامك أنت يا أدونيس لو غدوت امرأة] حتى ذهل وصاح رافعاً ذراعيه : « فليغفر لى أولئك الذين أنحيت عليهم باللائمة منذ حين ، إذ لم أكن

أعرف قدر الجائزة التي من أجلها يتبارون . واتصل اطراؤه للفتنة حتى تحوّل إلى افتتان بها ، وتمنّى ألا يسبق أتلاننا أحد من الشبان فقد أثارت فيه الغيرة خوفه من أن يفوز بها غيره ، وقال لنفسه « لم لا أجرب أنا الآخر حظي في السباق ؟ فإن الألهة تناصر الجسور غير الهَيَاب » . وانطلقت الفتاة بخطوات مجنّحة تطوى المسافات أمام الشاب البويوق كأضى سهم من سهام سكوتيا فزاد إعجابها بها . ولقد زادها السباق فتنة إذ تطايرت في الريح أربطة حذاءها خلف قدميها ، وتموّج شعرها فوق كتفيها العاجيين ، وخفقت الشرائط المطرزة التي تزيّن ساقها ، واكتسى بياض بشرتها العذرى بحمرة قانية كبياض جدران المرمر المغطاة بغلالات قرمزية في فناء دار رومانية . وانتهى الشوط الأخير وظفرت أتلاننا بقصب السبق ، وأرسل المهزومون الزفرات والعقاب ينزلُ بهم . وعلى الرغم من أن هيبومينيس شهد مصرع المتسابقين القاسى فإنه تقدّم إلى الأمام وتوسط الجمع وحلق في الفتاة قائلاً : « لماذا تسعين وراء الفوز وأنت تستطيعين بلوغه في يسر ، ولماذا تحاولين التغلب على منافسين ثقيل الخطى وهم على غير ذُربة كاملة ؟ فلتتبارعاً معاً فإن كتب لي الحظ النصر فلن تحسّى بالخجل من هزيمتك أمام رجل في مثل منزلتي ، فأنا ابن أونخستيسوس من ميجارا سليل نبتون وآخر أحفاد ملك البحار ، وليس إقدامى أقلّ شأنًا من تحنّدي ، أما إذا كان الظفر من نصيبك أنت بعلى هيبومينيس فسوف تكسين مجدًا وتعمّ شهرتك الأفاق . . » والتفتت إليه إيّنة إسخرينوس في حنان ، ولم تعد تدرى أتمنّى فوزها أم هزيمتها أمامه ، وحذّنت نفسها قائلة : « وهل من إله يتنكر لصاحب هذا الوجه الجميل فيغيره بطلب يدي حتى ولو كان في ذلك حتفه ؟ ما إخالني أهلاً لهذا ، وإني لأحس برعشة نخالج قلبي من أجله ليس مبعثها جماله رغم ما له من سحر يهز القلب بل لأنه ما يزال فتياً فشبابه الغض لا جماله هو الذي يثير شفقتي ، ثم إنه شجاع لا يرهب الموت ، كما أنه من أفراد الجيل الرابع من سلالة حاكم البحار ، وإلى هذا كله فهو يحبني ولا يبخل عليّ بشمن ليظفر بالزواج مني ولو كان ذلك الثمن عمره إذا لم يسعفه القدر بالفوز . ألا فلتبتعد أيها الغريب قبل فوات الأوان ، ولتأ عن سرير زفاني الملطّخ بالدم فما أقساها من شروط تلك التي فرضتها لزوجي . ولسوف تجد غيري من الفتيات راغبات فيك وأنت جدير بإعجابهن . ولكن مالي أقلق عليك دون غيرك ممن سبقوك إلى الموت والحطّاب يعينك ولا يعنيني ، ولتلق جزامك إذا لم يكن لك فيمن سبقوك عظة ، وقد يكون موتك من أجل رغبتك في الحياة معي ، ولكن هل يكون هذا جزاء حبّك لي ؟ ولسوف يثير موتك بغض الآخرين لي ، ولكن ما جريوق ؟ هلّا عدلت عن السباق للظفر بي ، فما أشدّ نزك ، فكم هي جميلة قسائتك النضرة التي تشبه قسائت الغيد الحسان ، لبتك لم ترفي يا هيبومينيس المسكين فما أحقّك بأن تحيا ، ولو أني كنت من المحظوظات ولم يقف القدر حجر عثرة في سبيل زوجي لكنت أنت الرجل الوحيد الذي أسعد به شريكاً لحياتي » . ولم تدر أتلاننا الغيرة التي لا تجرّبه لها ما حدث لها بعد أن مستها سهام إله الحب للمرة الأولى ، فلققت وقعت دون أن تدرى في شرك الغرام .

٦٤٠ واحتشد الشعب والقادة مطالبين ببدء السباق المعتاد ، فقصدني هيبومينيس سليل نبتون يطلب العون وهو يقول : « إنني أضرع إليك ياربةً كثيراً أن تعينني في مغامرتك الجسورة ، وأن تؤجّجني في قلبي نيران

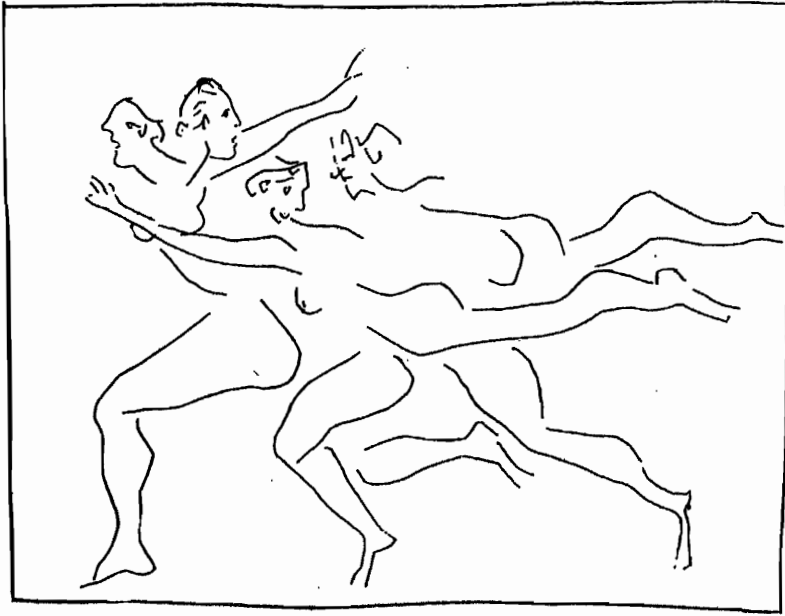
الحب التي أشعلتها أنت فيه . وحملت الأنسام الرقيقة ابتهالاته إلى ومست قلبى فلم أتردد في مد يد العون إليه ، وكنت ساعتها آتية من أجل بقاع جزيرة قبرص ، من حقل تلماسوس الذى أهدها لى شيوخ الجزيرة لينضم لمعبدى ، وإن فى وسطه لشجرة ذهبية لفروعها رنين المعادن . وكنت أحمل فى يدي ثلاث تفاحات ذهبية من تفاح هذه الشجرة ، فأسرعت إلى هيبومينيس مخفية عن الجميع إلا عنه وحده وأعطيته التفاحات الثلاث ، وهستت إليه بأمرٍ طلبت منه تنفيذه .

وآذن البوق ببدء السباق ، وانطلق المتسابقان من نقطة البداية وطارا مسرعين لا تكاد تمس أقدامهما سطح الرمال ، فبدوا وكأنهما يستطيعان الجرى فوق سطح الماء دون أن تبتل أقدامهما ، أو فوق أعواد القمح المنتصبة دون أن تنثنى ، وامتلا الفتي جرأة وسط صرخات النظارة الذين كانت قلوبهم معه فانبروا يشدون من أزره ويصيحون به : « فلتسرع يا هيبومينيس ولتبدل أقصى جهدك ولأنت الفائز » . ولعل ابنة إسخونيوس كانت أكثر سعادة بهذه الصيحات من ابن ميجارا البطل . وكم من مرة تباطأت أتلاننا عنه وهى قادرة على سبقه ، تطيل النظر إليه قبل أن تخلفه وراءها على مضض .

وأخذت شفتا هيبومينيس تجفان من الإرهاق وأنفاسه تتلاحق والمهدف لا يزال بعيداً ، فدفع بإحدى التفاحات الذهبية الثلاث فأخذت الفتاة ببريقها وتوقفت ذهلة ، ثم انحرفت عن مسار السباق لتلتقط تلك التفاحة الذهبية اللامعة مشغوفة بها . فانفسح المجال أمام هيبومينيس لكى يتقدم الفتاة فدوت أكف النظارة بالتصفيق ، واضطرت أتلاننا لمضاعفة جهدها لتعوض ما ضاع ، وقد نجحت فى أن تسبق الفتي وتخلفه وراءها . ومرة ثانية نجح هيبومينيس بصرفها عن الطريق بإلقاء التفاحة الثانية ، غير أنها نجحت هى الأخرى فى اللحاق به ثم سبقته بعد الظفر بالتفاحة الثانية . وبقي الشوط الأخير ، وأخذ الشاب يتضرع صائحاً : « أيتها الإلهة ، يا من وهبتى هذه الهدية ، كوني الآن فى عونى » ، ثم استجمع قواه وألقى بالتفاحة الذهبية الثالثة إلى طرف حلبة السباق لتبدل الفتاة وقتاً طويلاً فى الظفر بها قبل أن تعود إلى مسار السباق ، واضطربت الفتاة وحرارت فى أمر هذه التفاحة ، أتحرى وراءها أو تتركها ؟ غير أن فينوس دفعتها وراءها . وحين التقت الفتاة التفاحة زادت الإلهة من ثقلها كى تعوق خطواتها ، وهكذا حاقت الهزيمة بأتلاننا فتروجها هيبومينيس بعد أن كُتب له النصر عليها .

غير أن الشاب التزق أنسى ما فعلته له الإلهة فينوس ولم يتجه إليها شاكراً ولم يحرق لها البخور ، فإذا هى عليه غاضبة لتفريطه وأقسمت لتجعلن منه عظة للأخرين حتى لا يسلكوا مسلكه ، ولتلتزنا بها العقاب معاً .

وبينا هيبومينيس وأتلاننا يمران إلى جوار المعبد المتوارى فى أعماق الغابة والذي كان إخيون^(٣١) الشهر قد نذر إقامته لأم الإلهة ، كان الجهد قد بلغ منها بعد أن قطعاً مسافة طويلة على الأقدام ، فأحسا رغبة فى أن يأويا إليه فيستريحاً قليلاً فإذا فينوس تحركت فى هيبومينيس الرغبة لمضاعفة زوجته ، وإذا هو ينزوى بها فى محراب معتم مسقوف من الأحجار الطبيعية وحجر الخفاف له قدسيته منذ عهد بعيد ويجمع



بيكاسو: سباق أتالانتا وهيرمينيس

كثيراً من تماثيل الآلهة الخشبية . واستسلم هيومينيس لرغبته ، وإذا هو قد دنس المحراب ، وإذا التماثيل تزور عنه بوجهها . وكادت أم الآلهة كوييل ذات التاج المتعدّد الطوايق أن تغرق الأثمين في مياه ستيكس ولكنها رآته جزاء دون ما يستحقان ، ورأت أن تغشى رقبتيها بشعر أسود وأن تبدلها عن أصابعها مخالب ، وأن تحيلها حيوانين يعتمدان على صدرها ، ومدّت لها ذيلين ينسحبان على وجه الرمال ، ورسمت وجهيهما بالعبوس والقظوب ، وجعلت حديشها عواء ، وأسكتتها الغابات التي أصبحت ماوأها الوحيد إذ قد أصبحت أسدين يثيران الرعب في قلوب الناس . غير أن كوييل ما لبثت أن روضتها فشدتها إلى مركبتها فباتا يقضمان شكيمتيها . فحذار يا حبيبي العزيز أدونيس أن تقرب منها ، بل عليك أن تفرّ منها كما تفرّ من جميع فصائل الحيوانات المتوحشة التي لا تولى هاربة بل تهاجم من يعترض طريقها ، وحذار أن تكون شجاعتك سبباً في هلاكنا نحن الاثنين .

وحلقت فينوس في الأجواء منطلقة بمركبتها التي يقودها البجع بعد أن حذرت أدونيس ، غير أن الشجاعة لا تجدى معها التحذيرات ، فلقد لمح خنزيراً برياً كانت كلاب الصيد قد اقتفت أثره وأثارته من جحره وكاد أن يخرج من الغابة ، فأنفذ في جنبه رمحه بطعنة قاتلة ، وأسرع الحيوان فنزع الرمح الدامي بخطمه المتدلّي ، فدبّ الذعر في قلب أدونيس وأخذ يبحث عن مأوى ، غير أن الخنزير الوحشي تعقبه وعرض فخذة قريباً من خصيته بنابه فتلوى فوق الأرض محتضراً على الرمال وحيداً .

وبلغت أنات أدونيس أسباع فينوس التي لم تكن مركبتها الخفيفة ببجعاتها المجنحة قد بلغت بها قبرص فادارت طيورها البيضاء واتجهت إليه ، ولحته عن بعد يتمرغ في دماثة فاقد الوعي . وقفزت من مركبتها إليه وشقت ثوبها عند صدرها وشدت شعر رأسها ، وجعلت تضرب صدرها بيديها اللتين لم تخلفا لمثل هذا الفعل العنيف وانبرت تلوم الأقدار وصاحت فيها قائلة : « لا ، لن يخضع لكن كل شيء . وسوف يبقى أدونيس ذكرى حزن خالد إلى الأبد . وسوف يمثل كل عام مشهد موتك يذكر بما كان فيه من نواحي^(٣٢) عليك . ولتنبقن زهرة من دماثك . لقد استطعت يا بيرسيفونى أن تحولى امرأة إلى شجرة نعناع عطرة ، فهل ألام إن أنا أسبغت على حفيد سينيراس البطل العظيم صورة جديدة ؟ » .

وصبت فينوس على دم أدونيس بعد هذه المناجاة نكتارا عطراً لم يكد يمسه حتى غل الدم وتصاعدت منه فقاعات صافية كالفقاعات الشفافة فوق المياه المصفرة في الأماكن الموحلة . ولم تكد تمضى ساعة من زمان حتى انبثقت من بين الدماء زهرة في لون الدم شبيهة بزهرة الرمان التي تخفى بذورها تحت لحائها ، غير أن المتعة التي تهبها هذه الزهرة قصيرة العمر لأنها زهرة رقيقة واهنة الساق تعصف بها الرياح التي خلعت عليها اسمها ، وهى زهرة شقائق النعمان^(٣٣) .

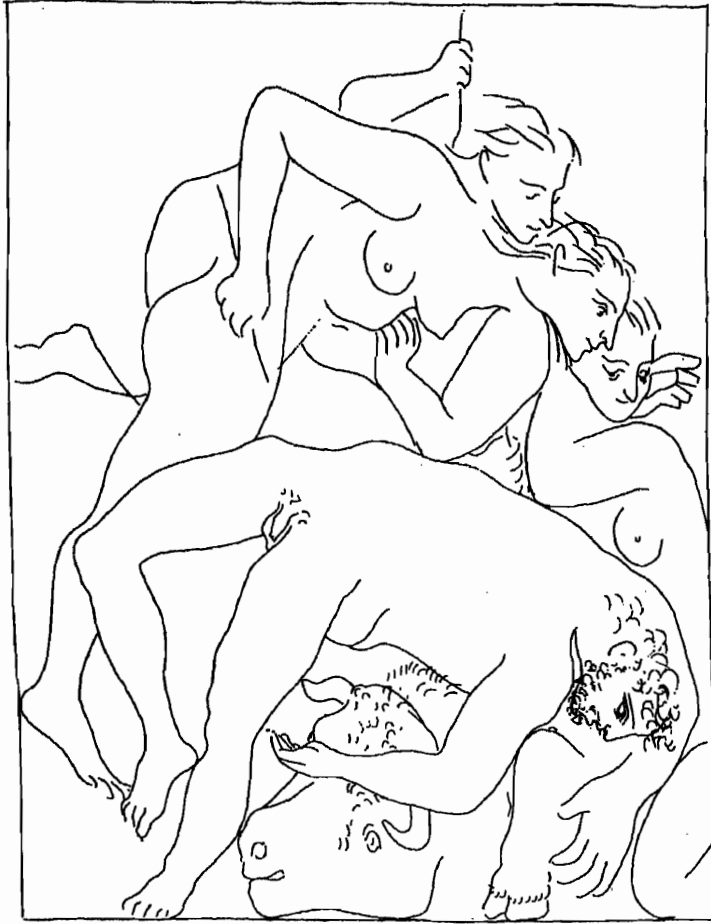
التعقبات

- (١) كان الزعفران هو لون الطرحة التي تتلفح بها العروس عند الرومان والمسماة «فلاميوم» ..
- (٢) اسم شعب طراقي يقطن شواطئ نهر الميبروس .
- (٣) بوابه تيناريوس هي إحدى بوابات العالم السفلى ومكانها برزخ تيناريوس المسمى الآن برزخ ماتابان بالمورة .
- (٤) هو الكلب كبيريروس .
- (٥) تانتالوس بن جوبيتر من إحدى الحوريات هو أحد ملوك ليديا ، صوره الشعراء من قديم الزمن بأنه قد عوقب على سرقة كلباً كان يحبه جوبيتر حباً شديداً ، وقيل إنه عوقب على سرقة للنكتار والأمبروزيا من على مائدة الآلهة ، وقال البعض الآخر إنه عوقب لقتله ابنه بيلوس وطهى جثته طعاماً للآلهة . وثمة رواية أخرى بأنه عوقب لأنه كان يعاشر جانيميديس غلام جوبيتر المحبب معاشرة شاذة . وكان عقابه بالعالم السفلى أن يظلماً ظمأً شديداً وهو واقف في بركة ماء يرتفع ماؤها حتى ذقته فإذا ما قرب من فمه انحسر الماء ، كما علقت فوقه غصون مثقلة بالثمار التي تبعدها الريح كلما حاول قطفها .
- (٦) كان سيزيفوس شقيقاً لثاماس وسالمونيوس وابناً لأبولوس والحورية إيناريتا واشتهر بأنه أخبث أمراء عصره . تزوج من ميرويس بنت أطلس وأسس مدينة إيفيرى التي سميت كورنثوس فيما بعد . وقد عاقبه الآلهة بعد موته بسبب اعتدائه التلاحقة على حقول البلاد المجاورة وكثرة أسلابه وغنايمه . وقال البعض إن جوبيتر هو الذي عاقبه ، لأنه عندما مرض مرض الموت توصل إلى زوجته ألا تدفن جثته بعد موته فلما ذهب إلى العالم السفلى سمح له الإله بلوتو أن يعود إلى الأرض لكي يعاقب زوجته على تهاونها في تأدية الطقوس الجنائزية مع الوعد بأن يعود على الفور ، وكان سيزيفوس يظن أنه بهذه الحيلة سيعود إلى الحياة من جديد . فأرسل بلوتو الإله مارس بعد اكتشاف حيلته لإعادته إلى العالم السفلى رغم أنه ، وكان عقابه أن يدفع صخرة كبيرة إلى أعلى الجبل ما تلبث أن تتدحرج إلى الوادي فيعود إلى دفعها من جديد بلا توقف . وقد اتخذ ألبير كامو الكاتب الفرنسي الوجودي أسطورة سيزيفوس عنواناً لكتاب فلسفى عن عبث الحياة ولا معقوليتها .
- (٧) دخل أوريفيوس العالم السفلى عن طريق بوابة تيناريوس وهي كهوف في جنوب المورة ، إلا أنه صعد إلى الأرض من جديد عند بحيرة أفرونوس بجوار كوماى في إقليم كامبانيا بإيطاليا .
- (٨) إشارة إلى أسطورة مجهولة الأصل ، وقيل إنها قصة إنسان اعترض طريق هرقل خلال عودته من العالم السفلى حاملاً الكلب كبيريروس .
- (٩) لا يعرف شيء عن أولينوس إلا أنه مؤسس إحدى مدن أخايا التي تحمل اسمه ، أما أولينوس المشار إليه هنا مع زوجته التسعة فغير معروف . وأغلب الظن أنها إحدى الأساطير المعروفة في عهد أوغيد عن تحول الناس إلى أحجار وصخور .

- (١٠) يتغنى أوفيدوس بعد ذلك مباشرة بحب الألهة للغلمان جانيميديس وهياكيثوس وكياريسوس .
- (١١) خاؤونيا إقليم في ليروس على شواطئ بحر أيونيا .
- (١٢) سجل أوفيد هذه الأسطورة في الكتاب الرابع من « التقويم » ، وهي أن كوبيل قد أحبت الشاب الفريجي آتيس فخرجت بذلك عن تعاليم الربة العذراء التي ترعاها والتي انتقمت من الشاب بأن أصابته بالجنون ودفعته إلى أن يمضى ذاته ، ثم عفت عنه الإلهة وأصبح المرافق الرسمي لكوبيل . وقد اقترنت عبادته في روما بعبادتها منذ عام ٢٠٤ ق.م . وكانت شجرة الصنوبر هي شجرته المقدسة وتلعب دوراً هاماً في طقوس عبادته ، ويذكر أوفيد هنا تحوله إلى شجرة صنوبر وإن لم تكن هذه القصة ذات أساس معروف .
- (١٣) كارثيا مدينة في جنوب جزيرة كوس .
- (١٤) كان شجر السرو ومايزال متصلاً بالطقوس الجنائزية ، وكان هذا الشجر يزرع حول معارك الجثث .
- (١٥) كانت سهول فليجرا هي الميدان الذي كتب النصر فيه لجوبيتر على العمالقة . ويقول البعض إنها في خلقدونية بآسيا الصغرى في حين يعتقد البعض الآخر أنها قريبة من مدينة كوماي في جنوب إيطاليا ، وتسمى المنطقة غرب نابلي حتى اليوم بالسهول الفليجيرية .
- (١٦) تنسب بنوة جانيميديس عادة إلى تروس ، ومن ثم فهو شقيق إيلوس لا ابنه كما جاء في نص أوفيد .
- (١٧) كان يحتفل بأعياد هياكيثوس في شهر مايو بمدينة أميكلاي في لاكونيا على مقربة من أسبرطة .
- (١٨) المقصود هنا أماثوس ، وهي مدينة في جنوب شرقي قبرص اشتهرت بمجدد الإلهة فينوس ربة الجزيرة .
- (١٩) البروبيتيديس هن بعض نساء قبرص عن تمرّدن على الإلهة فينوس فقضت الإلهة بأن تولد بنتان إلى الشواطئ لاحتراف الدعارة مع الغريباء . وقيل إنهن قد مسخن أحجاراً لاستهتارهن بكل شعور بالفضيلة .
- (٢٠) الكيراستيس كلمة ترجع إلى الأسطورة القائلة بأن أول شعب سكن قبرص كان ذكوره ذوى قرون . ومرت ذلك إلى أن كلمة كيراستيس معناها ذو القرون . وقد لقت الجزيرة بهذا اللقب بسبب كثرة تنويعاتها وألستها في البحر .
- (٢١) أوفوسا وتعنى جزيرة الأفاعي ، وهو لقب أطلق على جزر عدة في البحر المتوسط مثل رودس وتينوس . وأوفيد هو الشاعر الوحيد الذي أطلق هذا اللقب على جزيرة قبرص إذ هو ليس من أسائها الأصلية .
- (٢٢) انفرد أوفيد بين الشعراء بقص هذه الأسطورة التي تتجاهل تماماً وجود كاهنات عاهرات في معابد فينوس .
- (٢٣) هيميتوس جبل باليونان مشهور بعسله حتى اليوم .
- (٢٤) بافوس اسم لمدينة تقع في الجنوب الغربي لجزيرة قبرص ، وقد عرفت به الجزيرة بأسرها أحياناً .
- (٢٥) اسم لجزيرة خرافية بالبحر الأحمر ، تصور أوفيد أنها اليمن أو طرف شبه الجزيرة العربية التي اشتهرت بالتوابل والأعشاب العطرية .
- (٢٦) هن ربات الانتقام « فوراي » ، ألكتو وميجيرا وتيسيفون .
- (٢٧) عُرف عن الفرس إباحة زواج الأبناء بأمهاتهم ، وعن مصر القديمة إباحة زواج الأخ بأخته وخاصة بين الفراعنة ، وعن أثينا القديمة إباحة زواج الأخ والأخت غير الشقيقين .
- (٢٨) جزيرة على شواطئ المورة مكرّسة للإلهة فينوس .
- (٢٩) اسم مدينة في جنوب مقاطعة كاري على طرف شبه الجزيرة التي تحمل اسم كنيديوس في آسيا الصغرى ، وكانت فينوس ربتها .
- (٣٠) يشير إلى أنالانتا بنت إسخونيوس ، وكان بعض كتاب الأساطير يخلطون بينها وبين بنت ياسوس التي تحمل الاسم نفسه وبطلة اقتناص الخنزير البري في كاليديون [انظر الكتاب الثامن] . أما إسخونيوس فكان من أصل بويوي وهاجر إلى أركاديا . والقصتان تدور أحداثهما في أركاديا ، وقد يكون هذا مصدر اللبس .
- (٣١) كان إخيون أحد العمالقة الذين ولدوا من أسنان التين التي نثرها كادموس على الأرض [انظر الكتاب الثالث] ، وقد ساعد إخيون كادموس في تشييد طيبة باليونان وتزوج بابته أجافيه فأنجبا بطيوس .

(٣٢) كان يحتفل صيف كل عام بذكرى موت أدونيس ، وشاعت هذه الشعائر في بيبيلوس بفينيقيا إلى أن انتشرت في أنحاء العالم الإغريقي . فكانت النساء يلتفتن حول تمثال ممّدة لأدونيس على محفة الموت يُنْحَن ويكِين معبرات عن حزنهن ، وقد وصف ثيوقرطوس واحدة من هذه الحفلات بالإسكندرية في إحدى قصائده الرعوية . وكان البعث يلى موت أدونيس ، هذا البعث الذى أمر به جوبيتر بناء على التماس فينوس . وكان يحتفل بذكرى بعثه مثلما كان يحتفل بذكرى موته . ويقال إن أدونيس كان يقضى بعض شهور كل عام في العالم السفلى بجوار بروسيرينا [پرسيفونى] التى عشقته ، ثم يخرج إلى فينوس ليقضى معها بقية العام . وتعتبر هذه الحفراقة عن أطوار الخصوبة في الكون وتعالق الفصول والمواسم .

(٣٣) تسمى هذه الزهرة باليونانية « الأنيمون » وهى مشتقة من كلمة أنيموس التى تعنى الريح .



پیکاسو : موت أورفيوس

الكتاب الحادي عشر موت أورفيوس

وتغنى الشاعر الطراقي بأغان تَسَحَّرُ الصخور والغابات وتروّض الحيوانات الأبدية ، وأطلت عليه نساء كيكونيا^(١) المجذوبات من فوق قمة تلّ وهو ينشد على أنغام قيثارته ، وصاحت إحداهن وشعرها

بتطير في الهواء : « ما هوذا من يستخف بنا » وسدّت حربيتها^(٢) إلى فم الشاعر الذي يهيم به أبوللو ، غير أن الحربة لم تصبه بأذى لما علق بطرفها من أوراق الأشجار . وألقت أخرى عليه حجراً كبيراً فسقط عند قدميه مأخوذاً بجبال غنائه وشدو قيثارته دون أن ينال منه وكان لسان حاله يعتذر عن حمق من قذف به ، وتوالت قذائف النسوة وقد تولّهن ثورة الغضب المحموم . ولقد كان من الممكن أن يطيش ما قذفن به بسحر أغنيات أورفيوس ، ولكن صياحهن الصاخب وأنغام الناي الفريجي والبوق المقوس والرّق ولطم الصدور قد غطّى ذلك كله على صوت أورفيوس وقيثارته ، وسرعان ما نزع دم الشاعر الأعزل وأخذ يصيغ الحجارة بلونه القرمزي .

وأصاب قذائف النساء الطيور العديدة والأفاعى التي كانت تدور بالشاعر مبهورة بصوته ، كما أصابت الحيوانات الأخرى التي خفت لتستمتع لغنائه . وتدافعت النساء نحو الشاعر وكأنهن طيور النهار حينها يلمحن طير الليل يملق بينهن ، أو كمجموعة من الكلاب تطارد غزالاً ، يلقي بعضهم بالحجارة وبعضهم بأغصان الأشجار التي انتزعها . وأثار تجمعهم الخوف في نفوس الفلاحين الذين كانوا يسوقون ثيرانهم ليحرقوا أرضهم ويفلحونها بفؤوسهم ومعاولهم ومدماتهم^(٣) . وأسرع النسوة نحو القنوس فعزّفن بها الثيران التي تهدهم بقرونها ، ثم أنّجهن نحو الشاعر فتوسل أورفيوس إليهن أن يتركه لكنه فشل في استدرا عطفهن ، وسدّن إليه ضربة قاضية فخرجت روحه من بين شفثتي اللتين اجتذبتا بغنائهما الحيوان والشجر والحجر ومضت روحه تحملها الرياح .

انسابت دموع الحزن من مآقي الطيور والوحوش والصخور والغابات الكثيفة التي كانت تتبعه حيث يفتى ، وتساقت أوراق الأشجار التي أخذت تبكي الشاعر وغدت الفروع عارية ، بل لقد قيل إن الأنهار بدورها ذرفت الدموع وفاضت بها ، كما مرّقت الحوريات شعورهن وارتيدين ثياب الحداد السوداء . وتناثرت أعضاء الشاعر في أماكن مختلفة ، غير أن نهر هبروس احتضن رأسه وقيثارته اللذين طُفيا على الماء . عَجَباً ! لقد بقيت القيثارة تُصدر ألحاناً شجية ، ولسان الشاعر ما يزال يتمتم بالغناء والنهر يردّد صدى أنغامها . وما لبث الرأس والقيثارة أن اندفعا إلى البحر الفسيح حتى بلغا شاطئ جزيرة ليسبوس قرب ميثمنا . فاقتربت أفعى رهيبة من الرأس الغريب المطروح على الشاطئ والمغطى بشعر خالطه زبد الموج الأبيض ، وأوشكت الأفعى أن تلتهمه لولا أن ظهر أبوللو وحوله إلى صخرة جامدة ما تزال تحتفظ بضم الأفعى المفتوح . ومضى طيف أورفيوس إلى العالم السفلى ، فتعرّف على الأماكن التي سبق له رؤيتها ، وظل يبحث عن زوجته يورديكي حتى وجدها فعانقها في شوق الملهوف . وأخذ يتجولان معاً ، يسبقها مرة ويتبعها أخرى ، ويطلق إليها النظر بين الفينة والفينة دون أن يخشى شيئاً .

وحزن باكخوس أعمق الحزن على الشاعر العذب الألبان ، ولم يشأ أن تمرّ جريمة قتله دون عقاب ، فثبّت نساء طراقيا في الأرض إذ غرس سيقانهم في أعماق الثرى بعد أن أحالها جذوراً صلبة ، فأصبحن كالطير شدّت قوائمه في الشراك فأخذ يضرب بأجنحته للخلاص من القيد فإذا هو يزيد لإحكامه كلما زادت



پیکاسو: موت اورفیوس [رسم ایشاق]

٨٠ حركته . وقد انتاب النساء الذعر وأصابهن الجنون وهن يحاولن الخلاص دون جدوى ، وكان ثبات أقدامهن في الترى يجمدُهنَّ عن أن يتحركن ، وأخذت كل منهن تمد يدها لتتحسَّس قدميها وأصابها وأظافرها فإذا هي لا تمجد غير لحاء الشجر يلتف حول ساقها الجميلتين ، وجعلن يضربن أنفساهن فإذا هي الأخرى قد صارت خشب بلوط ، فتولّاهن أسى عميق . ولم تلبث أنداوهن وأكتافهن أن تحوّلت إلى جذوع أشجار وأصبحت أذرعتهن أغصاناً طويلة ، ولم يكن ذلك وهماً طاف بخيالهن ، بل كان حقيقة مفزعة .

ميداس

لم يكف باكخوس بذلك ولم تهدأ نفسه فهجر طراقيا مصطحباً معه ثلة من أتباعه المرعدين ، ليزور كروم [جبل] تمولوس التي يؤثرها ونهر باكتولوس الذي لم يكن قد سال ذهباً بعد ولم تكن رمال قاعه النفيسة قد أصبحت مثار حسد الحاسدين . وسهر على خدمته حشد من كاهناته والساتير غاب عنه سيلينوس ، ذلك أن فلأحى فريچيا كانوا قد ألقوا القبض عليه حين شاهدوه يسير بينهم مترنحاً لشيخوخته وفعل الخمر به ، فقيّده بسلاسل من زهور واقتادوه إلى ملكهم ميداس الذي كان أورفيوس الطراقي وإيومولپوس الأثيني من بعده قد لقناه أسرار عقيدة باكخوس ، حتى إذا عرف ميداس أن سيلينوس صفى للإله وشريك له في الأسرار احتفى به عشرة أيام وعشر ليال على التوالي . وفي اليوم الحادى عشر عندما كان « لوسيفر » نجم الصباح يهدى قطيع النجوم إلى ما وراء السهائ مضى الملك إلى ليديا مُشرق النفس ، وردّ سيلينوس إلى راعيه وحاميه الفتى .

١٠٠ وغمرت الإله باكخوس الفرحة لعودة مرشده سيلينوس ورأى أن يكافئ ميداس ، غير أنه أعطاه حرية اختيار ما يشاء ، ولكن اختيار ميداس لسوء حظه كان ينطوى على ما يكمن فيه شقاؤه ، إذ قد ولى وجهته إلى الإله قائلاً : « هبني قدرة على أن أحول ما ألمسه إلى ذهب أصفر » . وإذا الإله يأسى لسوء اختيار ميداس لكنه استجاب لدعائه محققاً له مشيئته ، فانصرف الملك الفريچى سعيد النفس مشرق الروح وأخذ يطمئن نفسه بما وعده به باكخوس من تحويل ما يلمسه إلى ذهب . وما لبث ميداس أن دهل حين انتزع غصن شجرة سنديان غض فإذا هو يتحول إلى قضيب من الذهب ، ثم حمل حجراً من الأرض فإذا هو يتوهج بلون ذهب منطفيء ، ثم لمس حفنة تراب فاستحالت كتلة ذهب ، كما تحولت سنابل القمح الجافة في يده إلى حصاد من ذهب ، كذلك استحالت التفاحة التي اقتطفها من غصنها تفاحة من ذهب تحسبها هدية من الهيسبريديس . ولم يكد يلمس أعمدة قصره حتى تحولت هي الأخرى ذهباً براقاً . وحين همّ بغسل يديه تحوّلت قطرات الماء التي نسي كفه شؤبوا من ذهب كفيلاً بإثارة شهوة داناي ، وتجاوز الخيال ما كان يحلم به من تحويل كل ما يلمسه ذهباً . وامتلات نفسه فرحاً بقدراته الجلديدة وجلس إلى المائدة التي حلها الخدم بأطيب ما تشتهي النفس من طعام ، لكنه لم يكد يلمس كسرة خبز حتى وجدها قد تحولت إلى

معدن صلب ، ولم يكده يطبق أسنانه على قطعة لحم حتى وجدها تنطبق على قضيب ذهبي ، ومع رشفات النيذ كان السائل يتحول إلى ذهب سائل بين شفتيه .

فإذا الشقاء يهصره في هذا الثراء الطارىء وأحس بثقل وطأة المأساة ؛ ولم تعد له أمانة غير أن يُجرم تلك القدرة ، ولم يعد يكره شيئاً أكثر من كراهيته لما تمناه ، إذ غدا عاجزاً عن إشباع جوعه من الطعام وإرواء ظمئه من الشراب . وطحنه العذاب وكره الذهب أكثر مما كره الموت ، فتضرع إلى الإله رافعاً ذراعيه قائلاً : « أسألك المغفرة يا أبانا باكخوس يا إله المعصرة ، لقد أخطأت ، وما أنذا أضرع إليك أن ترحمي وأن تحرّني من هذا البلاء الذي كان بدءاً بشير خير » . وتحرك الخير الكامن في أعماق الإله - كما هي طبيعة الألهة القادرين - حين اعترف ميداس بخطئه وردّ إليه طبيعته الأولى ، وقال له : « امض الآن فحرّر نفسك من آثار الذهب الذي تمّنته بحماقتك ، وسر على شاطئ النهر المتدفق [باكتولوس] بجانب مدينة سارديس العظمى^(٤) واصعد في اتجاه مضيئه عبر مرتفعات الشيطان حتى تصل إلى المكان الذي ينبثق فيه ماؤه في دقات كهري يغطيها الزبد ، فاعمس رأسك واغسل مع جسدك خطيئتك » . ومضى الملك ١٤٠ فأنغستل عند منبع النهر ، وانتقلت القدرة على تحويل الأشياء إلى ذهب من يد ميداس إلى مياه النهر فاكست بلون جديد ، وما تزال أرض الحقول المجاورة ذات لون ذهبي صلبة الثرى لتشرّبها مياه النهر .

ورُهد ميداس في الثراء ، وراح إلى الغابات يتخذ منها سكنه متعبداً للإله بان المقيم بكهوف الجبال ، غير أن حماقته ظلت تلازمه فورطته في بلاء جديد . ذلك أن بان قد وقف عند جبل تمولوس الشاهق الذي تشرّف قمته على البحر الفسيح وينحدر سفحه من ناحية إلى سارديس العظمى وإلى هيبياي^(٥) الرثة الحال من ناحية أخرى ، ووقف يزهي بين الحوريات اليافعات بمواهبه الموسيقية ويفاخر بقدراته التي تفوق قدرات أبوللو في عزف المصفاة المصنوع من قصبات الغاب المتلاصقة بالشمع ، ورأى أن يبارى أبوللو في مباراة غير متكافئة ، محتكماً إلى جبل تمولوس^(٦) ، فجلس المعجوز على سفح جبله جلسة القاضي ليقض بين المتبارين ، وأزاح الأشجار بعيداً عن أذنيه غير أوراق لشجر البلوط تكّل شعره الأسود ، وعناقيد جوز البلوط تتدلّى فوق صدغيه الغائرين ، والتفت إلى إله القطعان قائلاً : « إن قاضيكم على أهبة الاستماع » . وعزف بان على مزماره الرعوى لحناً أثار إعجاب ميداس الذي كان قريباً من المكان . بعدها التفت تمولوس إلى فويوس إله الشمس فتلفتت الغابة كلها معه ، وكان أبوللو قد كلّل شعره الذهبي بإكليل أشجار غار جبل پارناسوس ، وصبغ عباءته بأرجوان مدينة صور ، وهمل في يده قيثارته المطعمة بالعاج الهندي وبالأحجار الكريمة ، وأمسك بيمنه ريشة العزف وانطلق يجرمك أوتار قيثارته بانامل حذقة ، فانتشى تمولوس ودعا بان إلى الإقرار بهزيمة مزماره أمام قيثارة أبوللو^(٧) .

وقد سلّم الجميع بحكم إله الجبل عدا ميداس الذي لم يسلم به لمجانته للعدالة ، مما أغضب أبوللو فأصرّ على ألا تبقى أذنا ميداس الحمقاوين على حالتها البشرية ، فأطالها وكساها بشعر رمادي خشن ، ومنحها القدرة على الحركة حيث هما من رأس الملك . وبقي جسد ميداس كله بشرياً عدا أذنيه اللتين تحولتا إلى أذن جحش ثقيل الخطو .

١٨٠ ونجمل ميداس لهيئة تلك الزرية فحرص على إخفاء أذنيه بعمامة أرجوانية تلتف حول رأسه ، غير أن الحلاق وهو يقصّ شعره الطويل كشف عن هذا السر المخجل ولم يجسر على إفشائه رغم تحرقه شوقاً لذلك . وحين ضاق بكتنائه الأمر حفر حفرة في الأرض وهمس فيها بسرّ الأذنين اللتين رأهما في رأس سيده ثم أهال التراب على الحفرة وسوأها من جديد بعد أن دفن فيها سرّه ، ونحلاًها ومضى هادئ البال ، وسرعان ما نبتت أكمة من أشجار الغاب مكان الحفرة . ولم يتقصّ عام حتى كان الغاب قد نما واستطال ، وأخذ يذيع السرّ الذي خبّاه الحلاق ، وينبئ بتحوّل أذن ميداس كلما هزّته ريح الجنوب الوادعة ، مكرراً الكلمات نفسها التي أسرّها إليه الحلاق .

لاووميدون . هيزيونيه

٢٠٠ انطلق أبوللو بعد إنزاله العقاب بميداس مغادراً جبل الإله تمولوس مرتحلاً عبر الأجواء ، وبعد أن تلبّث عند مضائق هيلليه « هيليسپونت »^(٨) بنت نيفيل هبط على سهول طروادة حيث شاهد معبداً عتيقاً لچوپيتر ربّ العود في بانومفايوس^(٩) إلى اليمين من شبه جزيرة سيجيا وإلى اليسار من شبه جزيرة رويتيا المحاطة بالمياه العميقة ، وأبصر بالملك لاووميدون إلى جوار المعبد يحاول بناء أسوار مدينته الجديدة طروادة ، وهو ما كان يتطلب ثمناً باهظاً ويحمّل الملك مشاق عصية ومصاعب جمة . فتنكّر أبوللو في زي آدمى وأخذ في مساعدة طاغية فريچيا مستعيناً بإله البحر المتدفّق حامل الصولجان ذى الشهب الثلاث وربّ الهوآت التي تثير العواصف ، ووعده الملك الفريچي بقدر من الذهب لقاء معونته . ولما اكتمل بناء الأسوار حنث الملك بوعدّه ، فقال له ربّ البحار : « لن تمضى جرميتك بغير عقاب » ، ودفع البحار كلها تجاه شواطئ طروادة المتعطّشة التي أصبحت كالبحار فغطت المياه الأرض وما فيها مكتسحة بأمواجها الغائية حقول الفلاحين وبيوتهم . ولم يقنع الإله بهذه العقوبة وإنما أصرّ على انتزاع هزيونيه إبنه الملك لتقديما قرباناً إلى وحش من وحوش البحر ، غير أن هرقل هرع إلى الأميرة هزيونيه حين شدّت بالأغلال إلى الصخور وأنقذها ، وطالب بالجياد التي وعده بها لاووميدون مكافأة على صنيعه^(١٠) ، ولما لم يظفر بها اعترم قهر طروادة واختراق حصون المدينة التي انهارت متداعية للمرة الثانية . وقد رفض تيلامون الذي اشترك مع هرقل في إنقاذ هزيونيه أن يرحل دون أن يظفر بما هو أهل له من تكريم ، فنزل له هرقل عن هزيونيه ليتزوج بها ، أما پيليوس^(١١) الذي كان قد مدّ يد العون إلى هرقل هو الآخر فقد كرم بأن تزوج إلهة فأصبح چوپيتر بذلك حمّاً وجدّاً في آن واحد ، وبذلك لم يغد الإنسان الأوحده الذي ظفر بأن يكون حفيد چوپيتر فحسب بل كان أيضاً الإنسان الأوحده الذي اتخذ من إلهات زوجة ، وإليك ما حدث :

پيليوس وثيتيس

كان پروتيوس العجوز قد أفضى إلى ثيتيس بهذه النبوة : « قضى القدرُ عليك أن تكوني أمّاً يا إلهة البحار ، وسوف تلدين بطلاً عظيماً ما إن يبلغ مبلغ الرجال حتى ينافس أباه بطولته وبيزّه ، ويصبح في عين

البشر أعظم منه قدراً . ولذلك حرص چوييتز على ألا يتزوج من إلهة البحار خشية أن يأتي من صلبه من يصبح أعظم منه رغم ما كان يثور في أعماقه من لهفة جامحة ، أدناً لحفيده بيلبوس بن إياكوس أن يتزوجها ويسعد بضمّ عذراء البحار .

وكان في هايمونيا خليج تمتد ذراعه المنحنيان مثل ذراعى منجل ، ولولا ضحالة مياهه — إذ الماء ليس غير طبقة رقيقة فوق سطح الرمال — لأصبح مرفأً مختاراً ، وكانت سواحله جامدة لا تتعثر الأقدام عليها ولا تترك بها آثاراً ولا تنبت بها طحالب . وكانك ثمة غيضة من شجيرات الأس ذات ثمار مختلفة الألوان يتوسطها كهف لا يُعرف إن كان من صنع الطبيعة أم من صنع الإنسان ، وإن كان الراجح أنه من صنع الإنسان . وكانت ثيتيس دائمة التردد على هذا الشاطئ فتتجرد من ثيابها وتمتطي ظهر درفيل ، وذات مرة رآها بيلبوس وهي مستغرقة في سبات عميق ، فدنا منها محاولاً في رفق اكتساب ودها ، لكنها صدته فأحاطها بذراعيه محاولاً أن ينال منها قهراً ، وكان على وشك أن يحقق ما جرؤ عليه لولا ما احتالت به الإلهة إذ غيرت صورتها إلى طائر ثم إلى شجرة ضخمة ، فأمسك بجذع الشجرة دون أن يخفف من قبضته ٢٤٠ عليها ، حتى إذا أحالت نفسها نمرة مخططة أمسك به الفزع ورفع يديه عنها ، وراح يصبّ قربان النييد فوق مياه البحر تكريماً لآلهة البحار مُتقرباً إليهم بأحشاء الخراف وإطلاق البخور كى تتيح له الزواج من ثيتيس ، فصعد إليه عراف كارپاثوس^(١٢) من أعماق البحر قائلاً : « لسوف تظفريا ابن إياكوس بالعروس التى تتمناها إذا أمكنك أن تغافلها وهي في الكهف الصخرى وتشد وثاقها وهي غارقة في النوم خالية البال مما يُدبر لها ، وعليك ألا تتخذ بعشرات الصور التى تتمثل فيها الإلهة وأشدّد قبضتك عليها حتى تعود إلى صورتها الأولى » . وغاص پروتيوس في الماء وغطت الأمواج آخر كلياته . وكانت الشمس تمضي بمركبته في منحدر الأفق مقترية من بحر هسپريا [بحر الغرب] ساعة اتجهت الحورية كعادتها إلى الكهف الصخرى تضطجع على حشيتها المألوفة ، وانقض بيلبوس على الحورية وأمسك بجسدها العذرى بقبضتيه القويتين ، وسرعان ما بدأت في تحويل شكلها ، غير أنها تبينت أن أطرافها غدت أسيرة وأن ذراعيها بقيتا بمسوطتين ٢٦٠ على جانبي جسمها ، وعندما أدركت أنه قهرها قالت له « ما من شك أنك قهرتني بمعونة الساء » ، ثم أطلقت زفرة عميقة وعادت إلى شكلها الحقيقى ، فاحتضنها بيلبوس وظفر بما تمنّاه وأنجب منها ولده أخيل العظيم .

بيلبوس لدى كيكس

وعاش بيلبوس سعيداً بزوجته وولده ينعم معها بحياة ملؤها الرفاهية والرخاء ، ولم يذق الشقاء إلا حين قتل أخاه فوكوس وطرد على أثر ذلك من دار أبيه^(١٣) ، فالتجأ إلى بلاد تراخيس^(١٤) التى كانت تحيا في سلام تحت حكم كيكس بن لوسيفر نجم النهار الذى ورث عن أبيه تآلق وجهه ، والذى كان وقتذاك يجتاز فترة الحداد على أخيه . وقد وصل ابن إياكوس إلى تراخيس منهك القوى بعد طول السفر ، ودلف إلى

المدينة في صحبة بعض الرفاق بعد أن ترك قطعانه في واد ظليل عند أسوار المدينة . وحين أذن له الملك بلفاته قدم له غصن زيتون وكشف له عن نفسه غير أنه لم يكشف له عما ارتكبه من جرمٍ وعمّا كان سبباً لفضيه ، وطلب إلى الملك أن يقبله لاجئاً في عاصمته أو في مملكته ، وأجابهُ الملك قائلاً في رقة : ٢٨٠

« إن بلادى تفتح ذراعها لجميع الوافدين عليها يا بيلوس ، وتتيح لهم العيش في هناء ولا تضر عداة للغرباء فتلك شيمتنا ، وما عليك إلا أن تذكر لنا سبب لجؤك إلينا حتى نرحب بك بما يليق بجلال الاسم الذى تحمله لاسيما وأنت حفيد جوبيتر ، فلا تجهد نفسك توسلاً ورجاءً ، فلسوف تحظى بما تطلب ، ولتعّد كل ما تراه هنا ملك يديك ، وإننى لأتمنى أن تنعم هنا بأفضل مما نعمت به في حياتك السابقة » ، ثم أجهدش الملك بالبكاء فسأله بيلوس ورفاقه عن سرّ حزنه العميق فأجابهم قائلاً :

قد تظنون أن الصقر الذى يحيا على اقتراس ضحاياه ويثير الرعب في قلوب الطير كان ينفق بجناحيه المريشين منذ وُجد ، وليس هذا بصحيح ، فلقد كان أولاً رجلاً غليظ القلب يدعى دايداليون تواقاً إلى الحرب مندفعاً إلى العنف ، وكنت وإياه ابنين للنجم الذى يوقظ الفجر ويغادر السماء بعد آخر نجم فيها . وبينما كنت أنا أحبّ السلام وأرعاه حتى لزوجتى ، كان أخى يجد متعته في إثارة الحروب وقهر الدول والمملوك بشجاعته التى أصبحت تبعث الرعب في أسراب الحمام بمدينة تيزبي^(١٥) . وقد وُلدت لدايداليون إبنة أسماها خيونى ، وكانت فريدة في جمالها مما جعل العشاق يتزاحمون حولها منذ كانت في الرابعة عشرة من عمرها . وذات يوم رآها مصادفة كلٌّ من أبوللو وميركورىوس ، وكان أولهما عائداً من دلفى وثانيهما راجعاً من قمة جبل سيلين فوقها في غرامها معاً لحظة رأياها . وبينما أرجأ أبوللو الظفر بها حتى يمض الليل أسرع ميركورىوس ولس وجه الفتاة بعصاه التى تصيب من تمسّه بالنعاس فراحت الفتاة في سبات عميق واستسلمت بين ذراعى الإله القويّتين ، ثم أقبل أبوللو متخفياً في زى امرأة عجوز أثناء الليل الذى انتشرت في سماءه النجوم ، واستمتع بالفتاة التى سبقه ميركورىوس إلى الاستمتاع بها . ولما انقضت مدة الحمل وضعت خيونى توأمين أحدهما من الإله المجنّح القديم وهو أوتوليكوس ، ذلك الطفل الماكر المطبوع على ضروب الخداع والمدرب على إحالة الأسود الأبيض والأسود مما جعله شبيهاً بأبيه في سعة الخيلة ، وثانيهما من أبوللو وهو فيلامون ، ذلك الطفل الذى ذاعت شهرته لإجادته الغناء وبراعته في العزف على القيثارة .

ترى ماذا أفاد خيونى أن تضع توأمين أو تكون موضع إعجاب الهين ، أو تكون إبنة أب شجاع وحفيدة لكبير الآلهة ربّ الرعود ، أولاً يجرُّ المجدُّ الكوراث أحياناً ؟ نكم جرّ المجد من ويلات على كثير من البشر وكانت تلك التعمسة من بينهم ، فقد دفعها الغرور يوماً إلى الزهو بجمالها وإزدراء جمال ديانا ، فغضبت الرّبة أشد الغضب وصاحت فيها : « ليأتين اليوم الذى تُقرّينى فيه على أعمالى » . وأمسكت بقوسها وسدّدت سهماً إلى هذا اللسان المتطاوّل عليها فشقته فأصابه العمى ، ولم يعد يستجيب للفتاة صوتها ولا كلماتها ، وانطلقت تحاول الحديث غير أن روحها فاضت مع دماها ، وأحسست أنا بالشقاء بينا أضمتها بين ذراعى ، وأخذت أواسيها بقلب محزون ، وأبثّ أخى الحبيب الذى كان يغمز ابنته بخنانه كلمات

عزائى ، غير أن الوالد المكلم الذى انسابت دموعه لفقد ابنته لم يكن يسمع كلامى إلا بقدر ما تسمع صخور الشاطئ هدير الأمواج ، وقد حاول مرات أربع أن يلقي بنفسه وسط لهيب المحرقة حين رأى النار تشتعل فى جسد ابنته لولا إمسакنا به ، غير أنه ما لبث أن انقلت من أيدينا انفلاتة الثور الهائج وأخذ يعدو عدواً لا يقوى عليه البشر وكأنما رُزقت قلماء جناحين ، واندفع بعيداً عن جميع الطرقات المألوفة لا يدركه أحد حتى استقرت به رغبته فى الموت على قمة جبل پارناسوس والذى بنفسه من فوق الصخر الشاهق ، فأسرع إليه فويوس وقلبه يفيض شفقة عليه وأحاله إلى طائر يخلق فى الأفق بجناحيه اللذين نبأ له فى لحظات ، ومنحه فويوس منقاراً معقوراً ومخالب مقوّسة وأسبغ عليه قوة هائلة تاركاً له شجاعته التى حققت له الشهرة فى الماضى . وهكذا أصبح صقراً لا ينطوى اليوم صدره على قطرة من الشفقة يسوم صنوف الطير جميعاً سوء العذاب ويملاً نفوس الآخرين شقاءً .

وبينما كان ابن لوسيفر يقص هذه القصة الغربية ، كان آنتور ابن بلدة فوكيس راعى قطعان پيليوس يبحث الخطأ لاهناً حتى إذا أقبل صاح : « أيا پيليوس ، إننى أحمل إليك أنباء كارثة فادحة » ، فطلب منه پيليوس أن يقصّ عليه خبرها وقد امتلأت نفس ملك تراخيس ترقباً وارتسمت على وجهه سيباء الخوف بينما أخذ الراعى يسرد القصة قائلاً :

« عندما توسّطت الشمس كبد السماء فى منتصف طريقها المرسوم وقد بقى لها قدرٌ ما قطعت ، سُمّت قطيعك المنكب صوب الشاطئ المنحدر حيث خرت بعض الثيران مستلقية على جنوبيها تعباً وإعياء فوق الرمال الصفراء وعيونها متعلقة بصفحة مياه المحيط ، وأخذ البعض الآخر يتجوّل هنا وهناك أو يسبح فى الماء طافياً فوقه أحياناً وغائصاً فيه لا يظهر منه غير العنق أحياناً أخرى . وقريب من الشاطئ يطلّ معبدٌ من الخشب الغُفّل ، ليس مزوّقاً بزخارف ذهبية ولا مطعماً بالوواح رخامية منقوشة ، وتظله أغصان أشجار عتيقة ، ويسكنه نيريوس وبناته ، وقد أخبرنى ملاح كان يجفّف شبابه عند الشاطئ أنهم أرباب هذا البحر . وعلى مقربة من المعبد مستنقع راكد تخلّفت مياهه من مياه البحر ، وكانت هذه الأرض الرُخوة تنص بأشجار الصفصاف وينبث منها أصداء لصخب عنيف يثير الهلع فى أرجاء المنطقة . وإذا وحش هائل يبرز فجأة من المستنقع فى صورة ذئب ملوث الجسد بالوحل القلر ، قواطع فكّيه مغطاه بالدم والرغاء ، مشتعل العينين بوهج أحمر ، وكان جوعه ومع ما فى الجوع من شراسة قد أثارا فيه غضبية شديدة ، وكما لم تهدأ شراسته كذا لم يهدأ جوعه ، ولما كان ما يفترسه من ثيران لا يشبع نهمه فقد انطلق يعقر القطيع كله مندلاً الرؤوس جميعها قاتلاً بعض الرعاة ومصيباً البعض الآخر بجراح حين حاولوا إبعاده ، واصطبغ الشاطئ والماء القريب منه بلون الدم القانى ، ثم لم تلبث مياه المستنقع كلها أن احمّرت ، كما أخذت أصداء خوار الوحش تردد بين جنبات المستنقع ، وكان إحجامنا عن الدفاع عن أنفسنا يكلفنا الكثير ، وأصبحت المحنة ليس معها تردّد يعوق كل ما فى طوقنا أن نفعله ، وأحسست بواجبنا فى أن نمتشق سيوفنا وأن نمضى إلى الوحش نحاصره ونضربه ضربة رجل واحد .

وتوقف الراعى عن الكلام ، ولم يعبا يلبوس بخسائره من القطعان ، وقد تذكر الجريمة التى اقترفها حين قتل أخاه ابن الحورية ، وأدرك ساعتها أن أمه الحورية هى التى تنزل به هذه الكوارث لتجعل من ضحاياه قرباناً جنازياً لابنها القليل فوكوس^(١٦) .

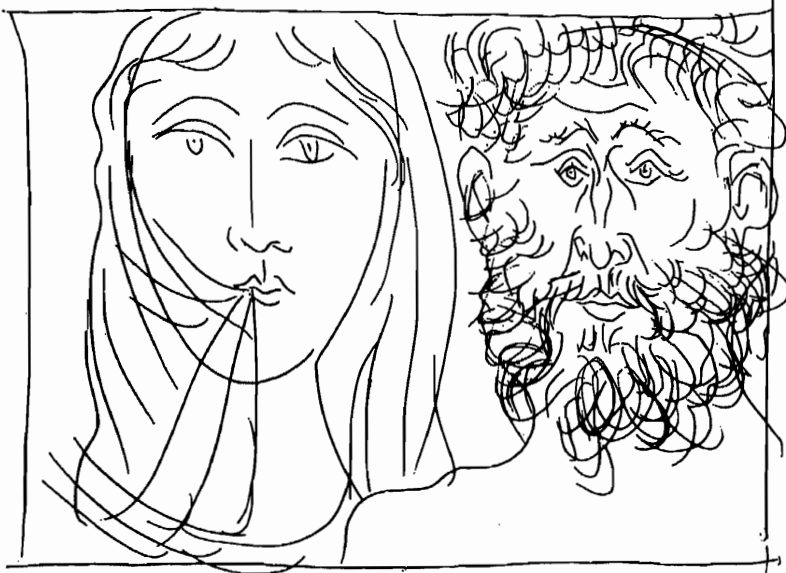
وما لبث كيكس ملك أويتا أن أمر رجاله بحمل السلاح والتأهب للانقضاض على الوحش كما تنبأ هو نفسه ليمضى معهم ، غير أن زوجته الكيونيه أسرع بالدخول عليه وقد أثارها الأحداث فأخذت تشد شعرها المشوش وألقت بنفسها على صدر زوجها متوسلة إليه أن يقنع بإرسال الرجال دون أن يصحبهم ، وذرفت الدمع عله ينقذ حياتها وحياته ولا يمضى لما عزم عليه ، فانبرى يلبوس ابن إياكوس يطمنها قائلاً : « ليست مخاوفك إلا دليلاً على ما تكئين من عطف رقيق وحب لزوجك أيتها الملكة . ألا فلتطرحى هذه المخاوف جانباً ، ومع عرفانك لك بجميل مساندتك لى فى هذه المحنة ، فما أريد أن يخرج أحد نيابة عنى لمنازلة وحش لم يشهد البشر مثيلاً له من قبل ، وليس لى من مفرغ أفزع إليه غير آلهة البحار ألتمس عونهم » .

وكان يعلو قمة القلعة برج شامخ تستهدى به السفن الضالّة ، فصعدوا فى هذا البرج وصوبوا نظراتهم المعجمة بالأنات إلى قطعان الثيران المجدلة على الشاطيء ، وأبصروا الوحش الذى اقترسها والدماء تقطر من فمه وتلوث فراه . وعندئذ بسط يلبوس يديه تجاه شيطان البحر الفسيح متوسلاً إلى ٤٠٠
پساماثيه ذات الشعر اللا زوردي أن تضع حداً لغضبها وأن تمده بعونها ، ولم تلق ضراعاته صدى فى نفس الربة ، إلا أن نيتسس استطاعت بصلواتها المتصلة أن تحصل لزوجها على العفو الذى كان ينشده ، ولم يكن من السير الحيلولة بين الذئب وبين شهوته فى الاقتراس بعد أن جن بلغم الدماء ، وظل كذلك حتى حوّلته الربة إلى تمثال من الرخام وهو يخرس أنيابه فى عنق بقرة ، وبقي محتفظاً بشكله الأول عدا لونه إذ أصبح فى بياض الحجر الذى بات شاهداً على أنه لم يعد ذئباً كما كان ولم يعد يثير الرعب الذى كان يثيره من قبل . على أن ربّات القدر لم ياذن ليليبوس الهارب بأن يستقر فى هذه البلاد إلى ما لا نهاية فبقى منفياً يصل تجواله كما كان حتى بلغ بلاد الماجنيتين^(١٧) حيث تطهر من جريمة القتل على يدى أكاستوس من ئيساليا^(١٨) .

كيكس وألكيونيه

وكان الملك وقتذاك نبأً للقلق الذى يؤرقه على مصير شقيقه وتقص عليه مضجعه نذر الشر التى بدت له ، فتأهب للذهاب إلى كلاروس كى يستشير الهاتفة الإلهية التى تضىفى الطمأنينة على النفوس ، غير أنه عرف أن ذهابه إلى معبد دلفى مستحيل بعد أن سدّ طريقه إليها فورباس الشرير وأتباعه الفليجيون . وما كاد كيكس يكشف لزوجته عن عزمه على الرحيل حتى داخلها خوف بعث الرعدة فى أوصاله ، وشحب وجهها فصار فى بياض خشب البقس ، وترقرق فى مآقيها الدمع ، وحاولت أن تتحدث مرات ثلاثاً فكانت

الدموع المناسبة على خديها والزفرات التي تطلقها تخفق صوتها ، وأخذت تعتب عليه في وله وتتوسل إليه قائلة : « أى خطأ اقترفته أنا فجعلك تتنكر لى يا أعز أعزائي ؟ أين هى رعايتك التي كنت تُصفيها على وحدى دون أى انسان آخر ؟ كيف تستطيع الآن أن تتخلى عنى وترحل لأعيش وحيدة ؟ أهكذا حزمت ٤٢٠ أمرك على الذهاب بعيداً عنى ؟ وهل يمكن أن أبقى عزيزة عليك أثيرة لديك مع غيبتى عنك ؟ أراك ستخبرنى أنك راحلُ برآ حتى لا تثير فكري المضطرب فيشغلنى الحزن على فراقك عن الخوف عليك . حقاً إنه ليس ثمة شيء يُخيفنى مثل البحر ، ذلك المحيط الموحش المخيف ، فلقد تطيرتُ منذ أمدٍ قريب حين رأيت ألواحاً خشبية محطمة على الشاطئ ، وكم من موقٍ قرأت أساءهم على شواهد قبور خاوية^(١٩) ، فلا تغرّتك تلك الثقة الزائفة تبعث الطمأنينة في قلبك اعتماداً منك على أن حماك هو الإله أيولوس بن هيبوتيس الذى يمسك الرياح العاصفة ويهدئ نائرة البحر بإرادته ، فلو أنه أطلق العنان للريح فأتبع لها السيطرة على المحيط لما استعصى عليها شيء ولأصبحت الأرض والمياه تحت رحمتها ، ولتصارعت السحب أمامها على صفحة السماء مُرسلة في تصادمها برقاً من الشرر الملتهب ، وكلما تزايدت معرفتى بالرياح [فمعرفتى بها معرفة قوية فطالما رأيتها في بيت أبى وأنا صبية] ازدادت يقيناً بوجود تحاشيها . على أنه إذا لم تنجح توسلاتى في إثباتك عن عزمك على الرحيل يا زوجى الحبيب ، وإذا كنت ما تزال مُصرّاً عليه فخذنى إذن معك حتى نكون سوياً من ضحايا العاصفة ، ولن أخشى حينئذ من الأخطار إلا ما قد يكون من نصيبى أنا ، ولسوف نحتمل معاً كل ما يقع ويُبحر معاً على صفحة البحار الواسعة . ٤٤٠



بيكاسو: كهكس والكهونيه

وأبى زوجها ابن النجم المتألق بما ناشدته به زوجته إبنة أيولوس وبما ذرفته من دموع ، فقد كان لهيب الحب يُشعل قلبه بمقدار ما يشعل قلبها ، غير أنه لم يتراجع عن عزمه على الرحيل كما أنه لم يشأ أن يقحم الكيونيه في مغامرة محفوفة بالخطار ، فحاول في النهاية تهدئة مخاوفها لكنه لم ينجح في كسب رضاها ، فأضاف يقول معزياً : « قد يكون الفراق بيننا طويل الأجل ، لكنني أقسم لك بالضوء المشع من أبي بآنى عائد إليك — بمشيئة ربّات القدر — قبل أن يكمل القمر دورتين » .

ومع هذا العهد — الذى قطعه على نفسه والذى بعث في نفس زوجته الأمل في عودته سريعة — أمر بإعداد سفينته التى لم تكد تراها زوجته حتى ارتحفت أطرافها من جديد واغرورقت عينها بالدموع كأنها تعرف سلفاً ما سوف تأتى به الأيام ، وعانقت زوجها مودعة إياه قانطة حزينة ثم انهارت مقاومتها وتهاوت ، فأخذ كيكس يتلمس الأعدار لتأخر إقلاعه غير أن ملاحيه الشبان كانوا قد جلسوا في صفين وقد أمسكوا بمجاديفهم العريضة وأخذوا يشقون الموج بضربات رتيبة الإيقاع . ونظرت الكيونيه بعينها المبللتين بالدمع إلى زوجها الواقف على مؤخرة السفينة يردّ على تحيتها ملوحاً بيده مودعاً ، وما زالت تمحق بعينها حتى مغيب السفينة واختفائها بزوجها عن ناظرها ، وظلت تتابع الأشرعة وهى ترفرف فوق الصارى الكبير حتى اختفت الأشرعة هى الأخرى ، فعادت واستلقت على فراشها الوثير مثقلة القلب بالهموم . وحينما خلت إلى نفسها أحست بغياب أعزّ شطر من ذاتها فانخرطت في البكاء من جديد .

غادرت السفينة الميناء بركبها وهزّت الريح جبال الأشرعة التى نُشرت على الصّورى تملؤها الرياح ، ونظّم الرّبّان إيقاع ضربات المجاديف . ولم تكد السفينة تقطع نصف رحلتها وتنبأ عن جميع الشيطان حتى بدأ البحر يشتعل بياضاً في ظلّمة الليل الساجى بقفزات أمواجه العالية الزابدة ، وتزايدت قوة رياح الشرق ، فصاح الرّبّان بملاحيه : « فلتسرعوا بخفض الأشرعة من قمة الصّارى وضمّهما جميعاً » ، غير أن رياح العاصفة التى كانت تهبّ تجاهه حالت دون وصول صوته إلى البحارة كما غطى هدير الماء على كل صوت ، ومع ذلك سارع بعض الملاحين من تلقاء أنفسهم باجتذاب المجاديف داخل السفينة ، وأخذ بعض يدرعون عن السفينة ثورة العاصفة ، وقام آخرون بضمّ الأشرعة ، وأخذ أحدهم ينزح الماء المتسرّب إلى السفينة بقذفه في البحر . وبينما كان هذا يجرى على غير نظام أو تدبير تزايدت عنف العاصفة وتصارعت الرياح المقبلة من جميع الاتجاهات فبعثت الاضطراب في البحر الغاضب ، وامتلأت نفس الرّبّان هلعاً واختلطت عليه الأمور وصار عاجزاً عن البتّ في أمر لا يُبدى ولا يعيد فقد كانت الأخطار فوق حدّته ومهارته ، وكان الرجال يصيحون ، وجبال الأشرعة تنقطع ، والبحر كتلة نائرة من الأمواج المتلاطمة ، والرعود تهدر في الأفاق ، والأمواج تملو كالجبال مشرّبة كأنما تريد بلوغ السماء وتترنّ رذاذها على الغيم المتكاثف ، أحياناً يضطرب الموج حاملاً الرمال التى يثيرها من قاع المحيط ، وأحياناً يصبح أكثر سواداً من مياه نهر ستيكس ، وأحياناً أخرى ينشر في الأجواء طبقات من الزّبّد الأصفر ترسل صفيراً عالياً . وكانت السفينة التراخيسية تميل بمنّة ويسرة ، تملو تارة وكأنها تطل من قمة جبل على أودية نهر أخيون بالجحيم ،

وتغوص تارة أخرى في جوف الأمواج متطلعة إلى أعلى وكأنما ترقد في إحدى بحيرات العالم السفلى . وكلما ارتطم أحد جنبها بموجة عاتية ارتفعت قعقة شديدة وانطلقت أنات موجعة وكأنها قلعة تتحطم وتميد تحت ضربات المنجنيق و « مدك » أبواب القلاع المحاصرة . وكانت الأمواج المدفعة أمام غضبة الرياح الثائرة تندفق على دروع السفينة وتعلوها كما تفعل السباع الباسلة حين تستجمع شجاعته لتندفع نحو الأسلحة المصونة إليها من كل جانب . وبدأت قوائم السفينة تتزحزح عن أماكنها والعوارض الخشبية تتفكك والقطران^(٢٠) الذى يغطيها يذوب وينمحي ، فانفتحت ثغرات ينفذ من خلالها ماء البحر الرهيب ، وانفجرت كوات السحب فجأة مطلقا الأمطار ، وبدت السموات وكأنها تنقُصُ جميعاً على البحر ، بينما بدا المحيط اللأثر وكأنه يشرُثب إلى السماء وابتلت الأشرعة بالفيض المنهمر ، واختلطت مياه البحر بمياه السماء ، وغابت النجوم من القبة الزرقاء ، وضاعت العاصفة من ظلمة الليل ، وإن كانت ومضات البرق تطرد الظلمة لحظات تضيء فيها المشهد كله فتتوهج المياه باحمرار لحيها .

تدفق الماء إلى قاع السفينة الجوف شأنه شأن جندي يبرز وحده من بين صفوف الجند محاولاً المرة بعد المرة أن يتسلق استحكامات مدينة محاصرة حتى يحقق أخيراً هدفه ، ويتمكن وحده من بين ألف رجل من الجدار الحصين مدفوعاً برغبته المضطربة في النصر . فقد استطاع المرح بعد أن ألقى بثقله مرات تسع على جوانب السفينة أن يرقى في المرة العاشرة إلى ارتفاع شاهق ، وأن يندفع في هجمة عاتية لم يرتد عنها إلا بعد أن استقر الماء على سطح السفينة كأنه ينقض على أسوار حصن متداعية ، وهكذا استقر جزء من البحر داخل السفينة بينما ما تزال بقيته تحاول غزوها . وكان الملاحون أسرى رعب ممزق شبيه بذلك الذعر الذى يستشرى في مدينة يحاول العدو تفويض جدرانها من الخارج بينما يجهد أهلها في دعمها خشية تدايعها . ونسى الملاحون خبرتهم بأمور البحر وتهاوت شجاعتهم ، وبدأ الموت مقبلاً عليهم مع مقدم كل موجة تفتح ثغرة في استحكاماتهم ، وعجز البعض عن حبس دموعه ، واستبد الدهول بأحدهم ، وأخذ ثان يحسد أولئك الذين تنتظرهم قبور مهياة ، والنمس ثالث عون السماء التى أخذ يمد يديه إليها دون أن تشهدا عيناه ، وشرد بعض بفكرهم إلى آبائهم وذويهم ، وآخرون إلى بيوتهم وأولادهم وكل ما خلّفوه وراءهم ، ووقع كيكس أسير الأسى وقد أصبح فكره كله مشغولاً بالكيونيه لا تتحرك شفتاه بغير ذكر اسمها ولا تتجه رغباته إلا إليها ، ولكنه كان راضياً لأنها لم تصعبه ، وودّ لو قدر له أن يتطلع ثانية إلى شيطان بلاده وأن ينطلق إلى بيته عائداً ، ولم يكن يدرى مكانه وسط الحضم المضطرب وعبر ستار السحب الداكنة التى أخفت صفحة السماء فضاعت من ظلمة الليل المدهم . وكسرت الريح العاصفة الصارى وتحطمت معه الدقة ، وعلت موجة على سائر الأمواج كقائد مظفر يتوسط أسلابه ، ثم هوت هذه الموجة في عنف وكأنها تقتلع به جبل آتوس وپندوس من جذورهما وتلقى بهما في البحر الفسيح ، فغاصت السفينة إلى أعماق المحيط تحت جبروت الموج ، وغاص مع السفينة كثير من الملاحين الذين ابتلعهم البحر فلقوا حتفهم قبل أن يطفوا على السطح من جديد ، وتعلقت قلة بأخشاب السفينة المحطمة . وأمسك كيكس بيده - التى طالما قبضت على صولجان الحكم - قطعة من الحطام الطافي ، وأخذ يرّد عبثاً أساء أبيه وحميه ، وكان اسم

الكيونيه قد تردّد على شفّيته أكثر من أى اسم آخر إذ كان حديته كله عنها وفكره مشغولاً بها . وأخذ يصل من أجل أن تحمل الأمواج جسده إلى حيث تستطيع زوجته رؤيته ، وأن يدفن في نهاية الأمر بيديها الرفيقتين . وانطلق يردّد اسم الكيونيه بصوت عال وهو يطفو على سطح الماء كلما أتاحت له الأمواج القدرة على فتح فمه ، فإذا أطبق البحر عليه من كل جانب قنع بأن يتمم باسمها ، وفجأة تدافعت على صفحة الحضم المزبد موجة سوداء عاتية غطت كيّكس فغرق . وفي تلك الليلة غشت الظلمة وجه لوسيفر نجم النهار فلم يظهر للعيون ، ودفن وجهه في الغيم الكثيف لأنه لم يكن قد أذن له بترك السماء .

لم تعرف الكيونيه بالكارثة ، وظلت كما كانت تحصى الليالى وهى تؤمّل عبثاً عودة زوجها إليها ، وتُعجّل في نسج بعض الأردية له كما كانت تُعجّل في نسج أردية أخرى لها لتزدان بها عند عودته ، وأخذت تحرق البخور قرباناً لجميع الأرباب وخاصة في معبد جونو ، وأكثرت من الاختلاف إلى هياكلها من أجل عودة رجل طواه الغيب ، وردّدت دعواتها كي يعود زوجها إليها سالماً وآلا يميل عنها إلى امرأة أخرى يؤثرا عليها ، وكانت هذه الضراعة الأخيرة هى الوحيدة التى استجابت لها الآلهة من بين ضراعاتها العديدة .

٥٨٠

على أن الربة جونو عزّ عليها ألا تستطيع أن تسعفها بالاستجابة إلى ضراعاتها إذ كان زوجها قد فارق الحياة حقاً ، وودّت أن تبعد عن هياكلها المقدسة تلكها البيدين اللتين لم تؤديا شعائر الدفن الواجبة^(٢١) فالتفتت إلى إيريس قائلة : « يا أخلص من حمل رسائل إلى البشر ، أسرعى إلى دار ربّ النوم^(٢٢) الغافى ، وسلية أن يدع الكيونيه تحلم حلمًا يتبدّى لها معه زوجها الراحل كيّكس لتدرك حقيقة الأمر » . وصدعت إيريس لأمر الربة وارتدت رداءها ذا الألوان الألف ، وانطلقت في مسار قوس قزح الموقّس عبر السموات الفسيحة حتى بلغت قصر الربّ الملتف بالغيم الذى أمرتها الربة بزيارته .

وعلى مقربة من بلاد السيميرين^(٢٣) كان ثمة كهف عميق مندرجت في جانب الجبل يسكنه ربّ النوم الغافى ، ولم تكن أشعة الشمس تبلغ ذلك المكان لا ساعة شروقها ولا عند تومّسطها كبد السماء ولا ساعة غروبها . وكان الضباب الداكن يتصاعد من جوف الأرض مشيعاً في الجو ظلالاً خافته من عتمة الغسق . ولم يكن بهذا المكان ديك يحنّال بعُرفه ويؤدّن للفجر بصياحه ، ولا كلاب هُفّة تقطع الصمت ، ولا أوّز يعلو صياحه على نباح الكلاب ، كما لم تكن هناك وحوش مفترسة ولا قطعان سوائم ، ولم يكن يُسمع به حفيف أغصان شجر ولا صوت شجار بين بشر . كان الصمت الأبكم يخيّم على المكان ، وكان نهر « ليقى » الذى يُغرى بالنعاس خلال انسيابه يهمس بخريه الخافت فوق الحصى الراقد في أعماق الكهف الصخرى ، وكانت أزهار الحشخاش تنمو بوفرة على عتبات الكهف ، كما يتكاثر العديد من الأعشاب التى يستقطر الليل الندى من عصاراتها عطر النعاس الرنّخى وينثره رذاذاً على الأرض الغبراء . ولم يكن للدّار باب واحد خشية أن يترّ فيه مفصل دوّار ، كما لم يكن هناك حارس يقف على عتبه ، وكان يتوسط الكهف فراش كبير من خشب الأبنوس داكن اللون تغطيه أستار سوداء في نعومة الريش ، وكان الإله نفسه يرقد في هذا الفراش وقد استرخت أعضاؤه في كلل ، ترقد حوله ربّات الأحلام الخيالية وقد تقمّصن أشكالاً متباينة ،

٦٠٠

فصورة لسنايل القمع وقت الحصاد أو للأوراق على أشجار الغابة وثلاثة لرمال الشاطئ المتراعى الأطراف .

ودخلت الرسالة إيريس العذراء وجعلت تزيح بيديها أطراف الأحلام التي اعترضت طريقها ، فإذا أرديتها المتألقة تُشيع وميض ألتي في مسكن الإله ، وبذل ربّ النوم جهداً فائقاً كي يفتح عينيه الكليلتين المُثقلتين بالنعاس ، وحاول النهوض فمال رأسه حتى لامست ذقنه صدره ثم استلقى على ظهره المرة تلو المرة ، إلى أن نهض متكئاً على مرفقه وتعرّف على إيريس فسألها عن السرّ وراء زيارتها ، فأجابته قائلة : ٦٣٠ « ياربّ النوم ، يا من يجد فيك كل كائن راحته بعد العناء ، يا أكثر الآلهة نشداناً للسلام ، يا من إليك تهدئة الحواطر وإزاحة الموموم وشفاء أعضاء الجسد المرهقة بالأعمال الثقيلة فتنتعش بعد طول الجهد والكلل ، مُرّ أحلامك القديرة على محاكاة مظاهر الأشياء الحقيقية وبعثها ثانية كما جرت في الواقع ، مُرّها أن تتقمّص مظهر الملك كيكس وأن تشدّ الرحال إلى الكيوتيه بمدينة تراخيس التي أذاع شهرتها هرقل ، وأن تُربها صورة الملك غريقاً . ذلك ما أمرت به جونو » . ورحلت إيريس بعد هذا كي تفلت من تأثير ربّ النوم القهّار ، فلقد أحست بالنعاس يتسلّل إلى عينها ، وعادت أدراجها سالكة نفس المسار المقوسّ الذي عبرته منذ لحظات .

وأيقظ ربّ النوم ولده مورفيوس أكثر أبنائه الألف الأقوياء قدرة على محاكاة الأدميين ، ولم يكن أحد يفوقه مهارة في تقليد طريقة المشى وتعابير الصوت ورنّاته ، وكان إلى هذا يستخدم الكلمات نفسها ويرتدى الثياب نفسها التي تميز كل شخص عن غيره . وعلى حين تحفّص مورفيوس في محاكاة البشر ، درج ابن ثان تدعوه الآلهة إيكيلوس ويسميه البشر فويتور على تقمص صورة حيوان أو طير أو أفعى طويلة ، كما تميز ابن ثالث هوفانتازوس بلون آخر من المهارة يبدو فيه في مظهر مخادع فيمثل الأرض أو الصخر أو الماء أو الشجر أو أى شيء من الأشياء الجامدة التي لا روح لها . وكان ثلاثهم يقومون بتمثيل الأحلام التي تظهر ليلاً للملوك والقادة ، في حين كان يهيم غيرهم على وجوههم يمثّلون الأحلام للعامة من الناس . وقد برّ الإله العجوز أبنائه كلهم في مواهبهم في تمثيل الأحلام غير مورفيوس الذي اصطفاه من بين أشقائه جميعاً رسولاً لينفذ ما طلبته إيريس ابنة ثاوماس . ولم يكده يعهد إليه بهذه المهمة حتى غاص رأسه المائل على صدره في ثنايا فراشه واستغرق ثانية في نومه العميق .

وطار مورفيوس مخترقاً الظلمة الخالكة دون أن يُسمع لجناحيه خفيف ، وسرعان ما بلغ مدينة هاميونيا حيث ألقى جناحيه جانباً ، وغير من هيئته ليبدو في صورة كيكس . وعندما اتخذ صورة الملك وأصبح شبيهاً بجثة زرقاء عارية من الثياب اقترب من فراش زوجته البائسة الكيوتيه بلحية منمّدة وشعر رأس مبتل تتساقط منه قطرات ماء ثقيلة ، ومال على الفراش دافع العينين قائلاً : « أى زوجتي التسعة المسكينة ، أنستطيعين التعرف على زوجك كيكس أم أن الموت قد غير هيئتي ؟ تطلّعي إلىّ ولسوف تعرفينني حقاً ، وإن رأيت شبيهاً لزوجك لا صورته الحقيقية . أى الكيوتيه ، لقد ذهبت صلواتك أدراج الرياح لأنني فارقت

الحياة ، فلا تدعى الأحلام الزائفة تداعب فكرك بعودتي . لقد هبت ريح جنوبية مثقلة بالغيوم لحقت بسفينتنا في بحر إيجة ، وأنزلت بها ضربات قاصمة حتى هسّمتها ، وجعد الموت بشفتي اللتين كانتا تردّدان اسمك . وما يحمل لك هذا النبا رسولاً لا يوثق به ولا شائعات مُهمّمة ولا ألسن تتناقلها ، وإنما أنا الذي جثت بنفسى أحمله لك بعد أن ذقت الموت غرقاً كي أخبرك بقدرى ومصيرى ، فلتنهضى الآن من فراشك ولتدرفى الدمع من أجلى ، وأتشمحي بثياب الحداد ، ولا تدعيني أذهب إلى غياهب تارتاروس غير مأسوف على ولا مشيع بالبكاء .

وبدا مورفوس خلال حديثه مع الكيونيه وكأنما يبكي حقاً ، وقد تعرّفت على صوت زوجها في صوته ورأت إيماءاته في إيماءاته ، وغالبها الأنين والبكاء في نومها ، ورفعت ذراعها محاولة تحسّس جسده فلم تقبض يداها على غير خواء ، فصاحت به قائلة : « انتظر ! لم تتعجّل الرحيل ورحلتنا واحدة ؟ » .

ونهمضت الملكة من سباتها وقد أيقظتها رؤيا زوجها وصوت صرخاتها ، وتلفّقت حواليلها بآدى ذى بدء لتستوثق بما إذا كان الرجل الذى ظهر لها منذ لحظات مازال ماثلاً أمامها ، فقد جاء خدمها الذين استيقظوا على صراخها بمصباح ، فلما لم تقع عينها على رجلها أخذت تلمم خديها بيديها وتشقّ ثوبها وتضرب صدرها ، وصاحت تقول لوصيفتها التى هرولت إليها تستطلع سبب حزنها : « لقد قُضى على الكيونيه ولم تعد شيئاً مذكوراً فقد أسلمت الروح مع زوجها كيكس . فلا تحاولى التسرية عنى بكلمات عزاء ، لقد مات زوجى إثر تحطّم سفينته ، وقد رأيتُه وعرفته ومددت إليه يدي حين أوشك على فراقى وحاولت استبقائه . ولم يكن من وقع عليه بصرى غير شبيح ، ومع هذا فقد كان هو زوجى ، ولئن شئت أن تعرفى كل شيء فإن قسأت وجهه لم تكن هى التى عهدتها فيما مضى ، إذ لم تكن تشعّ بتألقها السابق . لقد رأيتُه واقفاً في هذا المكان عرياناً شاحب الوجه مبتل الشعر بالماء . يا للبائس المسكين ! ويا له من مشهد مثير للرائء » ، ثم عادت فتطلعت حولها لترى إن كان قد خلف وراءه أثراً ، واستطرقت تناجى زوجها قائلة : « كان هذا هو سبب فزعى وخوفى حين رجوتك ألا تتركنى وألا تمضى إلى حيث تعصف بك الرياح ، فلئن كنت ماضياً إلى حتفك فما كان أجدرك بأن تصطحبى ، وكم كان أولى بى أن أمضى معك ، ولو مضيت معك ما قضيت شطراً من حياتى بعيدة عنك ، وما كنا لنموت مفترقين ، فما أنذا الآن أموت رغم أنى لم أصحبك ، وعلى الرغم من أنك خلّفتنى هنا وحيدة ، وعلى الرغم من أنى لم أشاركك العاصفة التى عصفت بك ، فما أنذا أتى على العاصفة ، ومع أن البحر لم يطولنى في جوفه فقد غدوت وكان البحر طوانى في أعماقه ، ولو أننى حاولت أن أعيش بعد اليوم أو جهدت في التغلب على أحزاني لأصبح قلبى أشد ضراوة من البحر . لا ، لن أحاول مقاومة أحزاني ، كما لن أحاول هجرى يا زوجى المسكين ، ولسوف ألحق بك . ومع أن رماد جسدينا لن يجتمع في وعاء واحد فإن نقشاً واحداً سوف يضم اسمينا على شاهد قبر مشترك . وهكذا إذا كان قد قُدّر لعظامنا ألا تتلامس فلسوف يتعانق اسمانا إلى الأبد » . ثم حال الحزن بينها وبين أن تزيد ، فقد أصبحت الزفرات تحبس كلماتها كما احتجزت الأناث عبارتها الصادرة من أعماق فؤادها المكلموم .

وأقبل الصباح فغادرت الكيونيه دارها وقصدت قصد شاطيء البحر حيث ودّعت كيكس وهو يُقْلَع بسفنته ، وأخذت تغدو وتروح عنده وهي تمهمم قائلة : « هنا كان يشدّ الحبال ، وعلى حافة هذا الشاطيء قبلنى قبله الوداع » . وبينما كانت تستعيد أقواله وأفعاله وتذكرها حيث وقمت صوّبت طرفها صوب البحر فأرأت شيئاً بعيداً وسط الماء أشبه بالجنة لم تستطع أن تتبين كنهه أولاً ، غير أن الأمواج كانت تحمله نحوها شيئاً فشيئاً حتى استبان لها على الرغم من بُعده أنه جثة إنسان . وتحركت مشاعر الكيونيه لمراى هذا الرجل الغريق ، ومع أنها لم تكن تعرف من يكون إلا أنها أخذت تخاطبه وتندب إنساناً تجهل حقيقته قائلة : « واسفاه على مصيرك أيها البائس كائناً من تكون ، وعلى زوجتك إن كنت قد اتخذت لك زوجة » . ولم تلبث الأمواج أن دنت بالجسد من الشاطيء وأخذت الكيونيه تحمّق فيه ونفسها تنهارى شيئاً فشيئاً فإذا هى فى النهاية تتبينه وتعرف أنه زوجها ! فصاحت صارخة : « إنه هو » ، وسرعان ما شقت ثيابها ولطمت خديها وشدّت شعرها ومضت تعول وهي تقول بأسطة ذواعيها المرتجفتين ناحية جسد كيكس : « أى زوجى العزيز ، أعلى هذه الصورة تعود إلى أيها المسكين ! » .

وكان على الشاطيء حاجز صنعته يد الإنسان عند حافة الماء ليقاوم ضربات الأمواج النائرة فيكسر حدتها ويهون من قسوة لطاها قفزت إليه الكيونيه ، ثم ما لبثت أن طارت إليه فقد نبت لها جناحان فى ظهرها أخذت تضرب بهما الهواء فى رقة وكادت تلمس الماء وهي محلقة على شكل يدعو للرناء ، وأخذ فمها الذى اتخذ شكل منقار ضامر يطلق فى أثناء طيرانها صرخات يغلب عليها الشجن وأنات شكاة وتوجع .

وحينما بلغت الكيونيه الجثة الساكنة الخرساء التى لم تعد تحمل قطرة دم ضمّت بجناحيها الوليدين أطرافها العزيزة ، وحاولت عبثاً لثم الشفتين الباردتين بمنقارها الصلب . وقد تسامل الناس عمّا إذا كان كيكس قد أحسّ بها أم أن اضطراب البحر هو الذى رفع رأسه ، ولكن الذى لا شك فيه أنه أحس بوجودها ، فقد رحمتها الآلهة فأحالتها طائر^(٢٤)ين ظل الحب يربطها معاً حتى بعد أن آل بها الحال إلى هذا الحال . وهكذا بقيا وقيين على عهد زواجهما حتى بعد أن نبتت لها أجنحة الطيور ، وظلا يتطارحان الغرام وينجبان الأبناء . ومنذ ذلك الوقت لا تزال الكيونيه فى عشها تحمضن بيضها ناشرة عليه جناحيها طوال سبعة أيام فى فصل الشتاء . وفى هذه الفترة تسكن الأمواج وتهدأ ، ويحكم أبولوس سيطرته على الرياح فيمنعها من الانطلاق ، متيحاً لأحفاده الاستمتاع ببحر هادىء .

أيساكوس

وفىما كان هذان الطائران منطلقين جنباً إلى جنب فوق صفحة المحيط الفسيح إذا شيخ كان يرقبها يُشيد بالحب الباقى الخالد الذى يجمع بينهما وإذا آخر كان يقف على مقربة منه يشير إلى طائر غطاس ذى عنق طويل ويقول : « أترى إلى هذا الطائر الذى يرفّ على سطح الماء بساقين دقيقتين قد امتدّتا خلفه ، إنه

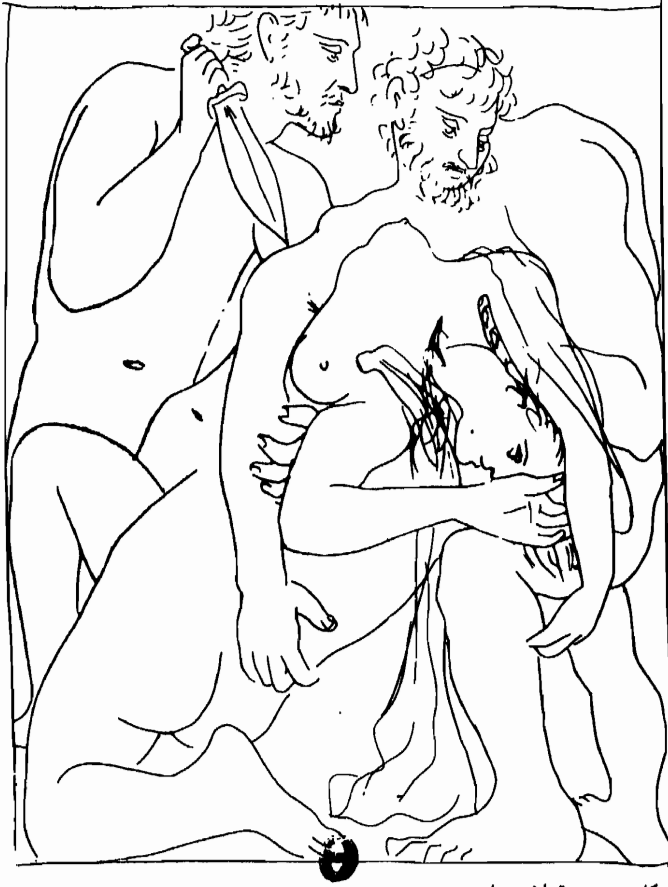
هو أيضاً من نسل الملوك ، فإذا استطعت تتبّع نسبه خطوة بخطوة فستجد أنه ينتهي إلى أيلوس الذي أنجب أساراكوس ، ثم جانيميديس الذي اختطفه جويتر إلى السماء ، ثم لاروميدون وبريام الشيخ الذي قُدّر له أن يشهد الأيام الأخيرة لطروادة . لقد كان ذلك الطائر شقيقاً لهكتور ، ولولم يكن قد لقي مصيراً غريباً في شبابه الباكر لذاغت لاسمه شهرة لا تقل عن شهرة اسم هكتور نفسه . غير أن هكتور هو ابن هيكوبا ابنة ديماس ، وإن كان يقال إن أيساكوس - وهو اسم هذا الطائر - كان ابناً لألكسيروي ابنة جرانيكوس ذى القرنين ، وضعته أمه سرّاً في غابات إيدا . وكان يكره حياة المدن ويقنع بحياة الريف البسيطة معتكفاً في حى التلال بعيداً عن أهبة البلاط ، ولم يكن يتردد على مجتمعات إلْيوم [طروادة] إلاّ لماماً ، ومع ذلك لم يكن فؤاده فظاً عصياً على الهوى ، بل إنه كثيراً ما طارد الحورية هيسيرييه ابنة كبرينيه^(٢٥) خلال الغابات محاولاً الإمساك بها ، حتى رآها يوماً جالسة على ضفاف نهر أبيها كبرينيه تجفّف شعرها المنسدل على كتفيها تحت أشعة الشمس . وما إن لمحتة الحورية حتى فرّت كما تفرّ ظبية مذعورة أمام ذئب أغبر ، أو كما تطير بطّة أمام صقر طاردها بعيداً عن بُركتها . وقد أسرع الأمير الطروادى عدّواً بقدمين زادهما الهوى المشبوب خفة محاولاً اللحاق بفتاة ضاعف الخوف من سرعة عقبيها ، وإذا حيّة كانت مستكنّة في العشب تبرز فجأة فتلدغ قدم الحورية وهى تملدو ، ونضحت أنيابها سمّاً سرى في جسدها فانقطعت عن العُدوّ لتوتّها وانقطعت معه حياتها أيضاً ، وضم العاشق جسدها الداوى في جنون وأخذ يصيح : « ما أشدّ تعاستى ، إنى أنا الذى طاردتك وما كنت أتوقع هذا الذى سيحدث يا فتاتى المسكينّة . لقد شاركت مع الحيّة في القضاء على حياتك ، وإن كانت الحيّة قد لدغتك فإنى أنا الذى أمتح لها هذه الفرصة ، على أنى أكثر منها جُرماً .

فليكن موتك عزاء لك عن فراقك الحياة » ، وما لبث أن ألقى بنفسه من فوق صخرة قوّضت الأمواج المزججة قاعدتها ، غير أن نيتيس أخذتها به الشفقة فهوّنت عليه الصدمة وتلقته على صدرها في رفق وغطته وهو يسبح في مياه البحر بدثار من الريش فحرمته نعمة الموت الذى تمنّاه لنفسه . وتملّك العاشق غضباً لما رآه من إرغامه على حياة أبابها ، ولحرمان روحه من التحرر من محبسها التعس كما تآقت أن تفعل ، وما إن اكتسب جناحيه الجلديدين حتى حلّق بها في الأجواء على ارتفاع خفيض ، ثم ألقى بنفسه ثانية على صفحة البحر غير أن ريشه خفّف من حدّة سقطته ، فاندفع إلى أعماق اليم وقد تملكه غضب جامح محاولاً دون كلل أن يجد وسيلة يقضى بها نجه . ولقد أصاب العشق جسده بالنحول فظل محتفظاً بساقيه الطويلتين وعنقه الممتد الذى يباعد ما بين رأسه وجسده ، وولع بمياه البحر حتى عُرف باسم « الغطاس » إشارة إلى إيغاله في أعماقها^(٢٦) .

التعقيبات

- (١) انظر الكتاب العاشر .
- (٢) اشتهرت هؤلاء النسوة بحمل ثيرسوس من نوع مختلف عن ذلك الذى ينتهى ساقه بثمره صنوبر ، وهو المسمى ثيرسولوخوس ، أى الثيرسوس على شكل الحربة وينتهى ساقه بحد سهم ، وهو الثيرسوس المقصود هنا .
- (٣) المدمة أداة ذات أسنان لجمع العشب أو لتقليب التربة وتسويتها .
- (٤) عاصمة مملكة ليديا بأسيا الصغرى اشتهرت بمقاومتها لحصار أعدائها من كل الأجناس .
- (٥) اسم مدينة أقل أهمية من سارديس في ليديا على الطريق بين سارديس وإفسوس .
- (٦) قد يكون هذا هو المثال الوحيد في الشعر اللاتيني لتجسيد الجبال ، في حين كانت الأنهار كلها تخاطب كأنها أشخاص إلهية .
- (٧) قد يكون هذا الوصف لأبوللو ترجمة حرفية لتمثال أبوللو حامل القيثارة للحفوظ بمتحف الفاتيكان .
- (٨) الهيلسبونت وسط الدردنيل حيث سقطت هيلليه ابنة أثاماس ونيقيل وهي تحاول الهروب برفقة شقيقها فريكسوس على ظهر كبش نى فروة ذهبية خوفاً من إينو زوجة أبيها .
- (٩) المعنى الحرفى لكلمة بانومفايوس هو المكان الذى تبتقى منه رسالة الهاتف الإلهى .
- (١٠) هذه إشارة إلى إريغثونوس بن داردانوس وكان يملك حسب قول هوميروس في الكتاب العشرين من الإلياذة ثلاثة آلاف فرس خارقة للعادة ، وجاء بورياس إله ريح الشمال على شكل فحل الجياد فأنجب منهن اثني عشر مهرة خالدة كانت تستطيع العدو فوق سنابل القمح دون أن تنثني أعوادها ، كما كانت تستطيع الركض فوق زيد الأمواج ، وقد طالب هرقل بها ثمناً لتحريره هيزيونيه من الوحش البحرى ، ولكن لاووميدون حاول خداعه بإعطائه جياداً عادية فعاد هرقل إلى طروادة وقتل لاووميدون وكل أبنائه واختطف هيزيونيه أسيرة له .
- (١١) كان بيليوس بن أياكوس وشقيق نيلامون قد تزوج من ثيتيس وأنجب منها أخيل .
- (١٢) اسم جزيرة بين رودس وكريت اسمها الآن اسكارباتو ، وقد أطلق اسمها على المياه المجاورة لها ، إذ يدعى البحر بين الجزيرتين بالبحر الكلابياتى .
- (١٣) انظر الكتاب السابع .

- (١٤) تراخيس مدينة على حدود دوريس ولوكريس عند سفح جبل أويتا . وترجع شهرة هذه المدينة إلى الدور الذي لعبته في أسطورة هرقل ، وقد سميت مأساة « نساء تراخيس » لسوفوكليس التي تقص موت هرقل بهذا الاسم لأن الكوروس فيها مكون من نساء تراخيس ، كما تدور أحداث المأساة في قصر كيكس ملك تراخيس .
- (١٥) اسم مدينة في بويوتيا سميت باسم الحورية نيزي ، غير أنه لا يعرف شيء عن اقتران المدينة بالحمام ، إلا أن هوميروس لقبها في الكتاب الثاني من الإلياذة بأنها بوليثيرون أى العامرة بالحمام .
- (١٦) الحورية پساماثي ابنة نيربوس هي أم فوكوس .
- (١٧) هم أهل ماجنيزيا ، وهو اسم أطلق على ثلاثة أقاليم أو لما – وهو المقصود هنا في ثيساليا – هو المنطقة الساحلية جنوب مصب نهر بينوس ، وثانيها مدينة في كاريا على ضفاف نهر المياندر ، وثالثها في ليديا على سفح جبل سبيلوم حيث تحولت نيوبي إلى صحرة .
- (١٨) ذكر أوغيد أكاستوس بن بيلياس ملك يولكوس بين الفرسان الذين اشتركوا في حملة الصيد بكاليدون [انظر الكتاب الثامن] .
- (١٩) اكتشفت بالفعل بعض النصب الجنائزية في جبانة قديمة بأثينا مخصصة لضحايا البحر ، وأغلبها في جبانة كيراميكوس ، أى حي الفخارين .
- (٢٠) الشمع في الأصل .
- (٢١) المقصود هنا أن يدى الكيونيه مدستان من حيث لا تدرى ، لأنها لم تؤد شعائر الدفن الواجبة على الأرملة الوفية المستولة عن إقامة الطقوس الجنائزية لزوجها المتوفى .
- (٢٢) هو الإله سومنوس عند الرومان وهينينوس عند الإغريق .
- (٢٣) بلاد السيميرين هي بلاد خرافية على حدود العالم المعروف وقتذاك ، وقد ذكر بعض القدماء أنها في أقصى الغرب ، وذكر البعض الآخر أنها في شمال البحر الأسود .
- (٢٤) هو الطائر المعروف باسم الفاوند أو الأسهيون ، من الطيور البحرية الأسطورية ويشبه طائر النورس .
- (٢٥) كرينيه اسم مشترك لمدينة ولنهر مجاورين لطروادة .
- (٢٦) اسم الطير باللاتينية هو « ميرجوس » ويعنى القطاس كما هو معروف الآن في اللغات الأوروبية ، ويميل العرب إلى تسميته بالقطاس .



بيكاسو: تضحية إيفيجينيا

الكتاب الثاني عشر

الإغريق في أوليس . ربة الشهرة

لم ينته إلى علم بريام أن ابنه إيساكوس قد تحوّل إلى طائر يخلق بجناحين في الأجواء ، فراح يبكي لفراقه ، وأقام هكتور وأخوته لشقيقهم ضرباً خاويّاً عليه اسمه وليس فيه رفاته وقدّموا عنه القرابين ، ولم

يشهد الحفل الجنائزى أخوهم باريس الذى عاد إلى الوطن بعد غيبة مصطحباً زوجته وكان قد اختطفها وأثار اختطافها حرباً طويلة الأمد ، إذ أبحرت ألف سفينة في إثرها حاملة أشجع أبطال اليونان يتعجلون الانتقام لولا أن العواصف العاتية سادت البحار فحالت بين السفن وبين الإبحار في بويوتيا عند أوليس حيث تعجّ المياه بالأسماك .

وأخذ اليونانيون يعدّون قرباناً لكبير الألهة وفقاً للعرف المتبع ، وحين توّهجت النيران في المذبح العتيق زحفت أفعى ذات حرافش داكنة على شجرة دُلب قريبة من المكان الذى يُعدّ فيه القربان ودنت من عُشّ يضم ثمانية من فراخ الطير في قمة الشجرة^(١) التهمتها جميعاً مع أمها التي جهدت أن تدوّد عن صغارها المنكوبة . وبهت الجميع حين وقف العراف كالحناس ابن ثيستور ليطالعهم بهذه النبؤة قائلاً : « أبشر يا شعب اليونان فسبحالفنا النصر ، وسوف تسقط طروادة لكن بعد عناء طويل » ، فهذه الطيور التسعة تعنى تسع سنين من الحرب المتصلة ، وما لبثت الأفعى أن تحوّلت وهي تلتفّ حول أغصان الشجرة الخضراء إلى تمثال حجرى على صورة الأفعى المتسلّقة .

ولم يقصر الإله نيريس عن إثارة الزوابع في بحار أيونيا ليعوق مسيرة الحملة ، وذهب البعض في تفسير ذلك إلى حرص نبتون على سلامة طروادة بعد أن شارك في تشييد أسوارها . غير أن كالحناس بن ثيستور لم ير هذه الرأى وطالع الجميع بما يرى ، وأنه لا معدى عن إباحة دم عذراء ليسكّن غضبُ الإلهة العذراء ، فما لبث الناس أن رأوا أن مصلحة الجماعة فوق المصلحة الخاصة . وغاب الحنان الأبوى لأجامنون حين واجه واجبه ملكاً ، فخلّى بين ابنته إيفيجينيا وبين الكهنة يريقون دمه أمام المذبح وهم سيكون لسفك دمها الزكىّ تضحية وقرباناً للإلهة الغضبي التي سعدت بما كان ، فإذا هي ترسل سحابة غشّت عيون الجمع المحتشد هبطت منها ظبية حلت مكان الفتاة الموكينية في موقعها . وسكن غضب ديانا بهذا القربان الذى ارتفضته ، كما سكن غضب البحار فدفعت الريح السفن الألف حتى بلغت سواحل فريجيا بعد مخاطر جمة^(٢) .

واتخذت ربة « الشائعات » مكاناً في قلب الكون بين الأرض والسماء والبحر . فمن هذا المكان الذى تلتقى فيه ممالك العالم الثلاث تستطيع أن ترقب كل ما يجرى مها نأى وتسمع كل صوت يخفق فيه ، وأقامت بينها فوق ربوة عالية خلته مفتوحاً ليل نهار بعد أن زوّده بألف منفذ ، وبمداخل لا حصر لها دون أبواب تعترض عتباتها . وكانت جدران البيت من النحاس الرنّان يعكس الأصوات فيردّد صداها ثانية معيداً الكلمات نفسها على الأسماع . ولم ينعم البيت بالهدوء لحظة ، ولم يسد الصمت ركناً من أركانه ، ومع ذلك لم تعل فيه صرخات بل همسات كوسوسة الأمواج التي تُسمع من بعيد ، أو بقايا أصداء رعود أطلقها جوبيتر تدفعها السحب الداكنة . وملأت أركان البيت الشائعات التي اختلط فيها الصدق بالزيف ، تجول بين الأروقة والردهات وكأنها جماعات من أطيايف يصبّ بعضها الأفاضيص في الأذان اللاهية ، ويحمل بعضها الآخر قصصه بعيداً ، وكذا الشائعات تنمو بما يضيفه كل قاص .

- ٦٠ وفي هذا البيت كانت تعيش ربّة « السذاجة » التي تصدّق كل شيء ، وربّة « الخطأ الجامح » وربّة « الفرح الطائش » وربّة « المخاوف الجزعة » ، وربّة « الفتنة التي تنفجر بغتة » وربّات « الوسواس » التي لا يعرف أحد مصدرها ، وكانت ربّة « الشّهرة » نفسها ترقب كل ما يحدث في أرجاء السماء والأرض والبحار ، وترقبّ ما يحدث في كل أنحاء العالم .

سـيـجـنـوس

وأذاعت ربّة « الشائعات » اقتراب أسطول السفن اليونانية المتأهبة للحرب من طروادة التي لم تكن تتوقّع هذه المفاجأة ، وسرعان ما تهبّ الطرواديون للدفاع عن شواطئهم محاولين منع اليونانيين من الهبوط فوقها ، وقضت الأقدار أن يكون پروتيسيلوس أول من يسقط في المعركة بسهم هكتور^(٣) ، وتدافع اليونانيون إلى المعركة التي جشمتهم الكثير ، وقد تبيّنوا مدى شجاعة هكتور من فداحة خسائهم ، كما تحقّق الطرواديون من بطولة اليونانيين أمام بحار الدم التي انسكبت من أجساد ضحاياهم .

- وغطى لون الدم المراق شاطئ سيجيون بعد مصرع آلاف الرجال على يد سيجنوس بن نبتون^(٤) ، وتمزيق سهام أخيل المنحوتة من أشجار سفح جبل پيليون أجساد كئيب كاملة من الجنود . وكان أخيل قد أخذ يشقّ الصفوف بحثاً عن سيجنوس وهكتور غير أنه لم يلق هكتور إلا في السنة العاشرة من الحرب ، بينما أسرع في لقاء سيجنوس الذي انطلق نحوه في مركبته الحربية التي تقودها جياد بأعناق بيض وكأنها الجليد وهي تعلّق أعتتها ، ولوح بذراعيه صائحاً فيه : « ليكن عزائك في موتك أيها الشاب كائناً من كنت أن حتفك سيكون على يديّ أخيل الوافد من نيساليا » ، وأطلق حربته التي أصابت هدفها ، غير أنها تركت أثراً هيئاً بصدر خصمه وكأنها كانت حربة مثلومة السنان . وبينما أمسكت الدهشة بأخيل ، صرخ فيه خصمه قائلاً : « يا ابن الإلهة ، لقد سبقني إليك شهرق لتعرف من أكون ، فكيف تعجب إذ لم تصبني حربتك بجراح ؟ » [ولقد كان أخيل عندها يعجب حقاً] ، فاستطرد قائلاً : « إنني لا أحمي رأسي بهذه الخوذة ولا أستر جسدي بهذه الدرع المقوسة ، وإنما أضعها كما يفعل الإله مارس . ولو شئت لنزعت عن جسدي هذه العدة الواقية دون أن أصاب في حلبة القتال بأذى ، فليس من العبث أن يكون المرء إبناً لنبتون الذي يحكم البحار كلها لا إبناً لإحدى النيريدات » .

- وفيا هو يتحدث أطلق حربة اصطدمت بسنام درع أخيل البرونزي ونفذت من طبقات تسع من جلد الثور المدبوغ إلى أن استقرت عند الطبقة العاشرة^(٥) ، فأمسك بها أخيل وألقاها جانباً ، ثم قبض على حربته وسدّها بذراعه المفتولة لكنها مع ذلك لم تمس سيجنوس بأذى ؛ وكشف سيجنوس عن صدره ومع هذا لم تصبه الحربة الثالثة . واشتعل غضب أخيل مثلما يشتعل غضب الثور المحتاج في الحلبة عندما يقتحم طريقه بقرنيه المخيفين نحو الملاة الحمراء التي تثير جنونه إلى أن يدرك أن طعناته باتت غير مجدية ، وأمسك ١٠٠ أخيل بحربته ويعد أن اطمأن إلى بقاء منها مُثبّتاً في ساقها الخشبي صاح قائلاً : « ترى هل فقدت ذراعي

قوتها التي ذاعت شهرتها منذ قديم الزمان وأصبحت خائرة ؟ أو لم تكن قوية يوم تقدّمت الجميع وهدمت جدران ليرنيسوس ، وحين أغرقت مدينتي تيلدوس وطيبة موطن إيتيون في دماء سكانها ، وحين صبغت نهر كايكوس بلون دماء الشعوب التي تمحيا على ضفتيه^(١) ، وحين ذاق تيليفوس مرتين طعم حربتي . أو لم أقتل هنا كثيراً من الرجال تكدّست أجسادهم على شاطئ البحر ؟ ألا إنهم في مصارعهم تلك دليل اكتمال قوة ذراعى التي مازلت أنعم بها حتى الآن .

وسدّد أخيل حربته إلى صدر مينوتيس ، وهو أحد الليكيين البسطاء فانغرست في صدره بعد أن اخترقت الدرع المصنّف ، وسقط مينوتيس عمداً فوق الأرض الصلبة ، فنزع أخيل حربته من جسده وقال : « ها هي ذى إذن يميني ، وها هي ذى حربتي التي حققت بها الآن نصراً . فلاسندها إلى هذا الخصم أملاً أن أحقق النصر نفسه . »

وهاجم أخيل ثانية سيجنوس الذي لم يحاول تفادى الضربة التي لم تحم عن مرماها فاصطدمت به الحربة التي من خشب الدردار وخلفت صوتاً مسموعاً ، ثم ما لبثت أن ارتدت كما تردت عن جدار أو عن صخرة ، غير أن أخيل لمح دماً يطفح من مكان ارتطام الحربة فتملكته الشوشة التي لم يكن لها ما يبررها ، إذ لم يكن الدم الذي رآه سوى دم مينوتيس . ودفع الغضب أخيل إلى الوثوب من مركبته الحربية الشاهقة لمبارزة خصمه بالسيف الذي استطاع أن يشق به درع سيجنوس وخوذته ، غير أن سيفه انثلم على جسد سيجنوس الذي لا يقهر ، ولم يستطع أخيل احتمال هذا الهوان ، فلطم وجه خصمه بسيفه مرات ثلاثاً أو أربع ، ومقبض سيفه هوى على صدغيه ، فتراجع سيجنوس إلى الوراء وأخيل يتعقبه دون أن يترك له فرصة يستردّ فيها أنفاسه ، حتى استولى الخوف على سيجنوس وانتشرت سحابة سوداء أمام عينيه وتابع خطوه إلى الخلف حتى ارتطم بصخرة كانت تعوق تقهقره ، فأمسك به أخيل ثم رفعه وضرب به الصخرة ضربة قاتلة . ووقف فوق جسده فهشّم ضلوعه بترسه وبضغطة ركبتيه على صدره ، وكنم أنفاسه بوضع خوذته على وجهه بعد ما جذب شرائطها إلى أسفل بشدة فمات سيجنوس غنوقاً . وحين أخذ يخلع عن خصمه عدته الحربية وجد أن العدة خالية لا شيء فيها إذ أن إله البحر كان قد حوّل سيجنوس إلى ذلك الطائر الأبيض الذي سُمي منذ يومها بطائر البجع [سيجنوس] .

كايكوس

ويعد هذه المعركة نعم الجيشان بهدنة لبضعة أيام ، وأقبل يوم العيد ولا يزال ديدبانان طروادة على أسوارها بعيون متطلّعة وديدبانان الإغريق في خنادقهم على أهبة الاستعداد ، ومضى أخيل الذي انتصر على سيجنوس ينحر بقرة ليقربها قرباناً للإلهة أثينا وألقى بأحشائها فوق نار المذبح فتصاعدت في الأجواء رائحة الشواء التي تراح لها الآلهة . واقتطع أخيل قدرًا من اللحم خصّصه للطقوس المقدسة ، ثم ورّع الأجزاء الأخرى من اللحم المشوى على الموائد يملأ بها رؤساء الجند بطونهم وهم يرشفون النبيذ مضطجعين

لينسوا همومهم ، لا تستميلهم أنغام القيثارة ولا نشيد المنشدين ولا تستهويهم ألحان المزمار من الغاب المتعدد الثقوب ، بقدر ما شدّهم الحديد المتع طوال الليل عن البسالة والمعارك والأخطار وعن النصر الذى حققوه ، فهل بعد هذا حديث يؤثر أخيل أن يخوض فيه ؟ وهل ثمة موضوع آخر يمكن أن يناقشه الآخرون فى حضرة أخيل ؟ لذا كان أهم ما دار بينهم من حديث هو عن الضربة القاضية التى أنزلوها بسيجنوس وكانت معجزة المعجزات ، فالمعروف أن الجراح لا تنفذ إلى جسده الحصين كما أن نصل السيف يتلثم إذا مسّه . وبينما كان حفيد إياكوس وغيره من أبطال الإغريق يبدون دهشهم وعجبهم إذا بنسطور يدهلهم بقوله : « لقد كان لكم فى سيجنوس خير مثال لمن تلقى الحراب بصدرة ساخرأ دون أن تنفذ فيه نصالها ، ولقد رأيت أنا قبلُ رجلاً سُدّت إلى جسده آلاف الطعنات فلم تثل منه ، وهو كايينوس ساكن جبال أوثريس وصاحب المغامرات الذائعة الصيت . أما ما يدهل له المرء حقاً فهو أن يعرف أن هذا الجسد الصّلب الذى صمد للرماح وُلد جسداً امرأة » .

١٨٠

فأثار قوله دهشة الجميع والتمسوا من نسطور أن يروى لهم قصة هذه المعجزة العجيبة ، وقال له أخيل : « تحدث يا وريث حكمة العصور الماضية وصاحب الشخصية الفلّة ومالك ناصية البلاغة الرصينة ، واسرد علينا قصتك التى نتحرق شوقاً لسياعها . فلتكشف لنا عن شخصية كايينوس وسرّ نغيره من امرأة إلى رجل ، وما هى تلك المعركة التى تعرّفت فيها إليه ؟ وهل حاقت به هزيمة يوماً ، وعلى يد من ؟ » . وتحدث نسطور العجوز قائلاً :

« حقاً كم أوهنت السنون تعديدة من ذاكرتى ومحت من ذهنى كثرة من أحداث شبابه ، ومع ذلك فهزلت أذكر الكثير . على أن من بين جميع المخاطر التى وقعت لى سلماً أم حرباً تلك القصة التى سأرويها لكم لأنها ألصق الأشياء بفكرى . وإذا كانت السنون الطوال تتيح للمرء أن يقع على الكثير فلا يغيب عنكم أنى عشت قرنين من الزمان ، وما أنذا داخلُ فى الثالث^(٧) .

وُهبت كايينوس إبنة إلاتوس جمالاً طاغياً فاقت به جميع بنات نيساليا ، مما حرك قلوب كثير من شباب المدن المجاورة بالأمل فى الظفر بها ، فلقد كانت كايينوس من مواطنيك يا أخيل . وقد حاول بيليوس هو الآخر الزواج منها ، وقد يكون قد حاول الظفر بأملك يا أخيل أو لعلها وعدته بالزواج منها ، غير أن كايينوس كانت تأبى الزواج من كل من تقدّم وإذا شائمة تذيع تقول إن إله البحار انتهز فرصة انفرادها على الشاطئ يوماً واحتواها بين ذراعيه ، وما إن ذاق المتعة بين أحضانها حتى قال لها : « لك أن تمنى علىّ ، وسوف أحقق لك ما تطلين » . فاجابته قائلة : « ما أكرهنى أن أنوق يوماً ما دُقته الآن من مهانة ، وكم وددت لو صيرتني رجلاً ، فإن فعلتها حققت لى أعظم رغباتى » ، وإذا جُرُسُ كلماتها الأخيرة أشدّ عمقاً حتى ليُخال أنه جرس رجل ، وكان فى الحق جرس رجل ، فلقد حقق إله البحر للتورغبتها ، فإذا الفتاة كايينوس تصبح رجلاً سعى من يومها كايينوس ، ومُنح جسداً حصيناً لا تخدشه الرماح أو تجرحه .

٢٠٠

ومنذ ذلك اليوم وكاينوس يمجاً سعيداً بهذا العطاء الإلهى مستمتعاً بما يستمتع به الرجال ، ويهيم على وجهه على ضفاف نهر بينوس .

القنطورى

ولقد ذهبت أشهد زفاف هيوداميا إلى پيرثوس بن إيكسيون الشجاع بين من دعاهم پيرثوس من جماعات القنطورى المتوحشين أبناء السحاب ومن أمراء نيساليا إلى قصره الذى أخذ يضع بالمرح . وحين أقبلت العروس تهادى وسط وصيفاتها من السيدات الوقورات الفاتنات واللاق تيزهن جمالاً انطلقت أغاني الزفاف ، وانتشى پيرثوس بحظه السعيد إذ ظفر بتلك الزوجة . غير أنه قد حيل بينه وبين تلك السعادة التى كنا نرتقبها ، فقد أشعل وجه هيوداميا الندى نار الغرام فى فؤاد يوريتوس زعيم جماعة القنطورى الذى لعبت الخمر برأسه فاستسلم لشهواته المحتمة ، وقام فقلب الموائد وأثار الفوضى فى الحفل وقبض فى شراسة على هيوداميا . وأمسك كل قنطور بمن تروق له من الفتيات فتعالى صراخ النسوة ، وصاح نيسيوس قائلاً : « أمسك الجنون يا يوريتوس فإذا أنت تعتدى على پيرثوس وأنا حتى بعد ، فأثرت غضب اثنين باعتدائك على أحدهما » ، وتقدم فانقذ العروس من بين يدي يوريتوس الذى سلبته المفاجأة القدرة على الحديث ولكنه تصدى للبطل وسدد له ضربات بقبضتيه القويتين أخذت تنهال على وجهه وصدرة . فاستدار البطل إلى كأس عريق كان قائماً فوق المنضدة نتأت زخارفه البارزة فأخذه وطوح به فى وجه القنطور فشج رأسه الذى طفح بالدماء وأسأل دمه من جرحه ومن فمه معاً ، فسقط على ظهره وقوائمه تترنح فى الهواء وتلايف منحه تحتلظ بالنبيذ المتدفق على الأرض . عندها احتدم غضب جماعة القنطورى وقد منحتهم الخمر جرأة وهرعوا صائحين « إلى السلاح . إلى السلاح » ، واحتدم القتال فإذا الكئوس تتحول إلى أدوات تراشق تنظاير عبر البهو بعدما كانت وسيلة متعة .

وتقدم أميكوس بن أوفيون إلى المذبح المقدس فاقتحمه وحمل شمعدانا متعدد الأذعة مليئاً بالشمعات المتقدة ، وشهره كما يشهر الكاهن السكين التى ينحر بها القرابين ثم هوى به على رأس اللاييث كيلادون فحطم عظامه وشوه وجهه ، فقد برزت عيناه خارج محجرهما وغار أنفه داخل حلقة . غير أن پيلاتيس تصدى لأميكوس ويده رجل من أرجل منضدة فقهره بضربة دفعت بدقته داخل صدره ، وانبتق الدم من جسده وفمه ، ثم بعث به إلى عالم الموتى بضربة أخرى .

ثم رفع جرينيوس مائدة المذبح بما عليها من نيران متقدة وهو يقول : « ولم لا اتخذ من هذا عُدّة أستعين بها ؟ » ثملقى بها وسط جماعة اللاييث فاودت بحياة اثنين هما بروتياس وأوريون الذى أجمع الناس على أن أمه ميكالى كثيراً ما جعلت بموداتها ورقاها الهلال يهوى من السماء على الرغم من استعصائه ، وعندئذ صاح به إيكزادايوس : « لو أن سلاحى فى يدي لما أفلتت من العقاب » وانتزع قرن وعمل كان معلقاً بشجرة صنوبر وجعل منه رمحاً دفع به فى عيني جرينيوس فاقتلعهما ، والتصق شئ من لحمها بالقرن بينما

سال سائره على لحيته وتدل منها ممتزجاً بالدم المتخثر فوقها . والتفت رويتوس إلى شعلة من شعلات الهيكل المتقدة فأمسكها وهشم بها رأس خاراكسوس المغطاه بشعره الأشقر ، وأشعل النار في رأس جاجنيس التي احترقت وكانها العشب الجفاف ، وأخذ الدم في جراحه يفهق كما يفهق الحديد المحمي حين يُسقى بالماء . ٢٨٠
لكن خاراكسوس الجريح هز رأسه المشتعل وانتزع عتبة الباب الحجرية وحاول أن يقذف بها خصمه إلا أنها هوت من بين يديه على صديقه كوميتيس الواقف إلى جواره فحطمته . وتملكت الفرحة رويتوس فصاح : « ليت الباقون يتفجعون بقواهم كما انتفعت بها أنت » ، وأمسك بالفضن المحترق واستأنف هجمته محطماً جمجمة خصمه بضربات عنيفة مثنى وثلاث ورباع حتى امتزجت عظام رأسه بمخه اللزج .

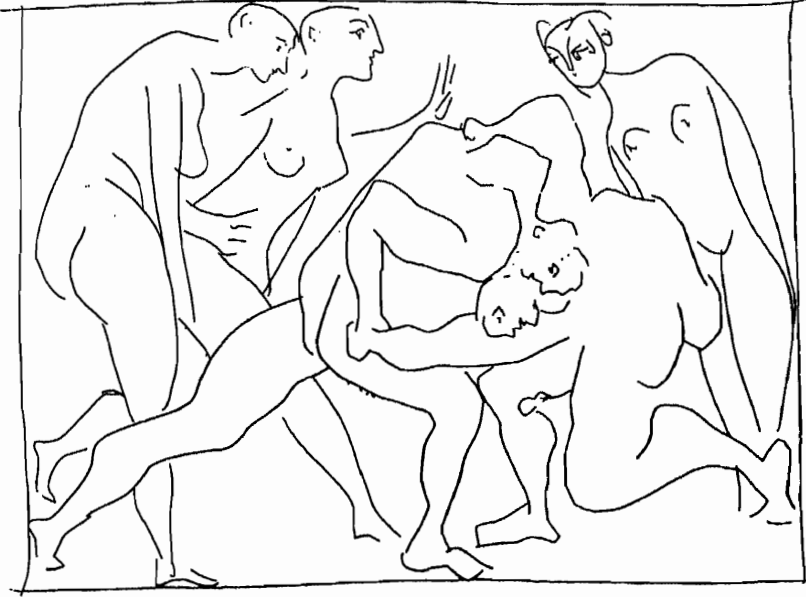
واستدار نحو إيفاجروس وديراياس وكورثوس ذلك الشاب الغض الذي بزغت شعيرات عذاره في وجنتيه فألقاه صريعاً ، فصاح إيفاجروس في القنطور : « أى مجد تحمقه بالانتصار على هذا الصبي ؟ » فأسكتته رويتوس بدس قضييب محمي في فمه الفاغر تاهباً لاستكمال الحديد وأنفذه من فمه إلى صدره . ثم أخذ بهذا القضييب المحمي يُضيق على دراياس وما استطاع قهره على الرغم مما كانت له من انتصارات على من سبقوه ، فقد استطاع دراياس أن يغرس غصن شجرة محترق في مكان التقاء عنقه بكفئه فأطلق رويتوس ٣٠٠
أنيناً عالياً ويذل غاية الجهد حتى انتزع الغصن من عنقه ، وأسرع بالفرار والدم يتدفق غزيراً من جرحه . ولحق به أورنيوس وليكاباس وميدون المجروح الكتف اليمنى ، ونحا نحوهم ثارماس وبيسنيور وميرميروس ثقيل الجراح خطاه مع أنه بز منافسيه عدواً من قبل ، ثم انفلت في إثرهم فولوس وميلانيوس وآباس صياد الخنازير البرية وأستيولوس العراف الذي حاول أن يُثنى رفاقه عن القتال غير أنه لم يفلح . وصاح لينيسوس في نيسوس مهيباً به بعد أن رآه يحجم خوف أن يُصاب « ليس بُنْجِك أن تولي الأديار ، فسيعدُّ القدر في عمرك إلى أن يودى بك سهم هرقل » . غير أن يورينوموس وليسيداس وآريوس وإمبريوس لم يفتلوا من الموت إذ أودت بحياتهم ضربات دراياس فوق وجوههم ، كما تلقى كرينايوس طعنة حربة بين عينيه رغم محاولته الهرب .

ووسط هذا الصخب كان النعاس قد غلب أفيداس وهو مضطجع على جلد دب اقتنصه فوق جبل أوّساً ممسكاً كأس نبيذ في يده المتخاذلة . فما كاد يلححه فورباس من بُعد حتى انقضَّ عليه برمحه الذي أنفذه في رقبته صائحاً به « تجرّع هذا النبيذ ولسوف تجرعه ممزوجاً بمياه نهر ستيكس » ، ولم يمهله فرماه بسلاح سنامه من حديد وساقه من خشب الزان وأنفذه في عنقه . وكان الفتى مضطجعاً حين بغته فورباس بسلاحه فأشرف على الموت وما درى أنه مُشرف عليه ، وتدقق دمه أسود فملاً كأسه وغمر فراشه . ٣٢٠

ورأيتُ بعيني بيترايوس يحاول أن ينتزع من التربة شجرة بلوط ضخمة وقد أحاط جذعها بذراعيه وأخذ يميل بها يمنة ويسرة ليقتلها من جذورها ، فانقضَّ عليه بيرثوس من الخلف وأنفذ في ظهره حربه فمزقت ضلوعه وألصقت صدره بجذع الشجرة ، وصرع بيرثوس كلاً من ليكوس وكروميس ، ثم حقق بعد ذلك انتصاراً مجيداً حين أنفذ غصناً في رأس هيلويس محترقاً صدغيه من الأذن اليمنى إلى اليسرى ،

ومضى يطارد ديككتيس الذى فرّ مذعوراً حتى سقط فى هوة سحيقة تحطمت ضلوعه على أسنان صخورها المدبية .

٣٤٠ وقد حاول أفاريوس - وكان على قرب - الانتقام لديكتيس فانتزع من سفح الجبل صخرة ضخمة رفعها ليهوى بها على خصمه ، غير أن ثيسوس عاجله بضربة من غصن شجرة بلوط حطمت ذراعيه ، ولم يُشغل نفسه بعدُ بالقضاء على خصمه ، فلقد غدا عاجزاً ، وأسرع يقفز على القنطور بينور ثم غرس ركبته فى ضلوعه وجذب شعر معرفته الغزيرة إلى الخلف بيده اليسرى ، بينما هشم باليمين عظام وجهه بهراوته ذات الأبن [العُقد] . ثم استدار يضرب بالهراوة نفسها نيديموس وليكوتاس الماهر فى تسديد الرماح ، وهياسوس ذا اللحية المرسلّة على صدره ، وريفوس الذى يفوق الأشجار طولاً ، وثرىوس صائد الدببة على سفوح جبال ثيساليا الذى كان يعود إلى بيته مصطحباً فرائسه أحياء وهى هائجة لافتراسه إياها .



بيكاسو : اعتداء القنطورى على الالبيث

٣٦٠ وضاق ديموليون بانتصار ثيسوس فحاول انتزاع شجرة صنوبر ضخمة لم تستسلم له فجزّ أحد فروعه ورمى به ثيسوس الذى أهتمته الرية باللاس أن يتفاده - أو لعل هذا ما يريدنا ثيسوس أن نصدقه - فانطلق الفرع إلى كراتور الفاره الطول ففصل عنقه عن صدره وكتفه اليسرى ، وكان كراتور هو حامل عُدّة أبيك الحربية يا أخيل يوم قدّمها أمتور كبير شعب الدولويس ضيائناً للسلم بعد هزيمته على يد أبيك . وإذ شاهد أبوك بيليوس مشهد كراتور بجرحه الرهيب الذى شطره إلى نصفين صاح « لسوف أنقم لك

يا كراتور ، يا أعز جنودى إلى » ، وسدّد بيده التى زادها الغضب قوة حربة ذات ساق من خشب الدردار إلى القنطور ديموليون اخترقت جسده وغاصت بين ضلوعه واستقرت في عظامه وهو يضطرب من قوة اندفاعها . ونجح القنطور في انتزاع مقبض الحربة الخشبي دون أن يُخرج نصلها الحديدي المستقر في رثيته ، ومع ذلك تحرك القنطور وقد عاودته قوة جديدة وأخذ يبطأ بيليوس بحوافره ، وبيليوس يتلقى الطعنات بخودته وترسه يحمى بها جسده ، إلى أن استطاع أن يُفدّ خنجره في صدر القنطور . وكان بيليوس قد صوّب قذيفتين أودتا بحياة فلجرايوس وهيليس وإيفينووس وكلائيس ، ثم ألحق بهما دوريلاس الذى كان يعتمر بقلنسوة من فراء الذئب فوق رأسه ، ويمسك بقرنى ثور مقوسين جعل منها حربته القائلة التى كم تلتطخت قبلُ بالدماء ، وقلتُ له ساعتها وقد ملأني الغضب قوة : « انظر يا دوريلاس كيف لا يثبت قرناك الحربتي » . ولم ألث أن سدّدت ضربة إلى جبهته لم يستطع تفاديا فرفع يده يحمى بها جبينه ، فنذت الحربة محترقة يده إلى جبهته فصرخ صرخة مدوية ، وخلفه جرحه القاسى عاجزاً عن الحركة . وكان بيليوس قد اقترب منه فطعنه بسيفه طعنة مزّقت بطنه ، فقفر القنطور وقد تدلّت أحشاؤه على الأرض فوطئها بحوافره وأخذ يدوسها حتى تمزّقت فتهاوى خامد الجسد .

ووسط المذبحة الدائرة لم يشفع للقنطور كيلاروس جماله بلحيته الذهبية التى كادت أن تبرغ وشعره الذهبى المنسدل على الكتفين حتى منتصف خصريه . ولم يكن نصفه الأسفل الذى على شكل الفرس والسليم من العيوب أقلّ جمالاً من نصفه العلوى ، ولو كان فرساً كامل التكوين لكان جديراً بأن يمتطيه كاستور فخر الفرسان ، إذ كان ظهره خليقاً بأن يعلوه أقدر الفرسان كما كان صدره مفتول العضلات . وكان عنفوان الحياة المثير للإعجاب يبدو في قسّات وجهه وفي عنقه وكففيه ويديه وصدره إذ كان نصفه الإنسانى جميل التكوين كالتماثيل المنحوتة التى تُبهر بها الناس ويعجبون . وكان جُلّه أشد سواداً من حلقة الليل ، بينما كانت قوائمه وذيله في بياض الثلج . ومع تراحم الكثيرات من بنات جنسه عليه فإنه لم يعل إلا لأجلهن وهى هيلونومييه التى ملكت أن تسلبه لُبّه بحنانها ورقّتها وبحبّها والعناية بمظهرها بقدر ما تسعفها أطرافها ، فكانت تصفّف شعرها بالمشط ، وتزيّنه بالورود وزهور البنفسج تارة وحصى البان تارة أخرى ، وأحياناً بتيجان تهبّتها من الزنبق الأبيض . وكانت تغسل وجهها مرتين كل يوم بمياه النبع المتدفقة من غابات پاچاساى ومرتين تغطس بجسدها في مياهه ، وتغطى كتفها بأفخر فراء الحيوانات البرية التى تنتقيها . وقد هام بها كيلاروس كما هامت به ، وكانا يتجولان معاً في الجبال ، ومعاً يأويان إلى كهف كان ملجأهما . وكانا قد ذهبا معاً إلى قصر ملك اللايث ، وإذا هما يشاركان في تلك المعركة الوحشية من حيث لا يدريان ، وفجأة انطلقت حربة من يد مجهولة آتية من الجهة اليسرى فنذت في ملتقى صدر كيلاروس بعنقه ، ومع أن الجرح الذى أصاب القلب كان هيئاً إلا أن جسد القنطور كان قد فقد الاحساس وغشيته برودة الموت بعدما انتزع السهم منه . وأسرعت هيلونومييه باحتضان حبيبها المحترض ، ووضعت يدها على الجرح محاولة كيبته ، ثم أدنت فمها من فم كيلاروس لتمنع روحه من أن تفارق جسده ، ولكنها ما إن رآته يُسلم الروح حتى صرخت صرخة مدوية ونذت عنها كلمات حالت صرخات المحاربين بينها وبين سماعي لها ، ثم ألقت بنفسها فوق النصل الذى به مات زوجها فلقيت حتفها وهى تضمّه بذراعيها .

وما تزال تتمثل أمام عيني حتى اليوم صورة فايوكوميس الذي كان قد دثر جسده الحصاني وأعضاءه البشرية بستة من جلود السباع عقد بعضها إلى بعض ، وقد رفع كتلة خشب ضخمة يشقُّ على زوجين من الثيران المشدودة معاً جرّها ، وألقى بها على تيكتافوس بن أولينوس فشجّت رأسه من أعلاه إلى أسفله ، وتهشمت جمجمته العريضة وانسابت عصارة مخه خيوطاً من فمه ومنخره وعينيّه وأذنيه كما تنساب قطرات اللبن الخثير من سلّة من فروع السنديان المضفورة ، أو كما يقطر العصير من ثقب معصرة ثقيل ضاغظها ، غير أنى تقدمت لحظة حاول القنطور نزع الأسلحة من ضحيته المهالكة وغرست سيفي في فخذ ذلك العدو الظافر - وأبوك شاهد على صحة ما أقول - وكذلك هوى خثونيوس وتيليوباس تحت ضربات سيفي ، رغم أن أولهما كان مسلحاً بغصن شجرة مزدوج الطرفين المسنّنين ، وثانيهما بحربة استطاع أن يصيبني بها ، وما أنت ذا ترى موضع الإصابة هنا متمثلاً في هذه الندبة القديمة التي ما تزال واضحة للعيان . ولقد كان الأجدر في تلك الأيام الخوالي أن يوفدوني في حملة لغزو پرجامون^(٨) [طروادة] ، ولو كانوا قد فعلوا لربما أفلحت بأسلحتي في وقف تقدم البطل هكتور العظيم إن لم أكن قد قضيت عليه ، غير أن هكتور لم يكن وقتذاك قد وُلد بعد ، أو لعله كان ما يزال طفلاً . أما الآن فقد أوهنت الشيخوخة قواي .

بماذا أحدثك ؟ أقص عليك كيف تغلبت پريفاس على القنطور پيرايثوس ؟ أو كيف دفع أمبيكس حربته المنحوتة من خشب القرانيا رغم فقدتها لطرفها المسنن في وجه إيكيتلوس المنتصب على أربعة قوائم ؟ وكيف قضى مكاريوس على إريجدوبوس من پيليثرون بغرس وتد في صدره ؟ وما زلت أذكر كيف رمى نيسوس حربة صيد استقرت في ملتقى فخذى سيميلوس ، ولا تحسب أن موبسوس بن أمبيكس لم يكن سوى عرّاف فقط ، فإن حربته هي التي أردت القنطور هوديتيس الذي حاول عبثاً النطق وهو ملقى على ظهره ، غير أن لسانه كان لاصقاً بلهاته الغائرة في فمه .

وخلال ذلك كان كايبيوس قد أتى على خمسة من الأعداء هم : ستيفيلوس وبروموس وأنتياخوس وإيموس وپيراكتيس المسلح بالبلطة ، ولست أذكر كيف أصيبوا غير أنى أذكر أسماؤهم وعددهم . ثم انطلق لاتريوس الفارع الجسد القوي الأطراف مسلحاً بما غنمه من هاليسوس المقدوني إثر قتله ، وكان يعيش في زهرة العمر بين الشباب والشيخوخة ، يتدقّق فيه ريعان شاب وإن ونخط الشيب فوديه ، وكان يجتذب الأنظار بترسه وسيفه وحربته المقدونية ، ويستدير بوجهه ناحية الفريقين راکضاً مرات عدّة في دائرة محددة ، ثم تحدّث قائلاً في خيلاء : « حتى أنت يا كايبيس ، كيف لي أن أصبر على وقاحتك ؟ أنت كما عهدتك لا تزال امرأة وستظل كذلك في نظري ، فهل أنسيت الهيبة التي وُلدت عليها ، أم أنسيت الفعلة التي أتيتها والتمن الذي دفعته كي تستحيل رجلاً زائفاً ؟ اذكر الهيبة التي وُلدت عليها ثم ابحث عن سلّة من خيوط الصوف واجدها بإبهامك ، واترك شئون الحرب للرجال » . وحين استمع كايبيوس إلى هذا الحديث المهين شهر حربته وهوى بها على القنطور حيث موصول نصفه البشري مع نصفه الحصاني ، فشقّ جذعه وهو يشرب عالياً متأهباً للانقضاض عليه . وجنّ لاتريوس تحت وطأة الألم وضرب بحربته هذا

الوجه العارى لذلك المحارب الشاب الوافد من فيلوس ، غير أن الحربة ارتدت ثانية كما تردت حبات البرد من على السطح الذى تسقط عليه ، أو كما تردت الحصاة عن سطح طبل أجوف . ثم دنا من كايينوس محاولاً ٤٨٠ غرس سيفه فى جنبه فوجد جسده أصلب من أن ينفذ سيفه فى أى موضع منه . ولكن لانيوس صاح : « على الرغم من هذا فلن نُفَلت منى وسأقتلك بنصل سيفى وإن تَلَمَّ سنه » ، وشرع سيفه ليهوى به على فخذى كايينوس قابضاً عليه بذراعه اليمنى الطويلة ، وإذا السيف يرسل رنيناً وكأنه ارتطم بقطعة من رخام ويتحطم وتتناثر أجزاءه على الجلد الصلد . وبعد أن تعرّض كايينوس لضربات خصمه مرات عدة دون أن يُصاب بأذى صاح فيه قائلاً : « والآن لنرَ ماذا سيكون أثر سيفى فى جسدك ؟ » وما لبث أن غرس سيفه الفتاك فى فخذى القنطورى حتى مقبضه وأخذ يديره ويحركه فى أحشائه وهو يُجَدِّد فيه جرحاً بعد جرح ، فاستشاطت جماعة القنطورى غضباً وصرخوا صرخة عالية واندفعوا ناحية كايينوس يطعنونه بأسلحتهم غير أنها كانت تسقط من أيديهم ملومة الأطراف . وبقي كايينوس بن إيلاتوس سليماً لم يصب بخدش ، فبُهِتَ مهاجموه لهذا الأمر الغريب ، وصاح مونيوكوس قائلاً : « يا للعار ، أينهم شعب بأسره أمام رجل وحده ، بل هو أقرب أن يكون رجلاً ، غير أنه على الرغم من هذا فهو رجل حقاً . ولقد غدونا نحن بجُبننا دواب على نحو ما كان هو قبل أن يصبح رجلاً . فما نفع أطرانفا القوية وقوتنا المزوجة ؟ ولم إذن ٥٠٠ جمعت الطبيعة فينا بين كائنين من أقوى الكائنات ؟ ليس صحيحاً إذن أننا من نسل آلهة أو أننا أبناء إيكسيون الذى ملأته بطولته أملاً بأن يظفر برضى جونو المتعالية مادما نسقط هكذا ضحايا عدو لا يعدو أن يكون نصف رجل . دَحْرَجُوا فوق جسده الصخور والأشجار والجبال ، وغَطَّوه بالغابات حتى تحمد روحه المتشَبِّهة بالحياة ، ولتلق الأشجار عنقه ، ثم ليقض عليه ثقلها كما تقضى عليه الجروح » . وأمسك وهو يتحدث بشجرة كانت قد اقتلعتها ريح جنوبية عاتية وقذف بها خصمه الباسل ، وتبعه آخرون فى اقتلاع الأشجار ، وما هى إلا لحظات حتى كان جبل أوثريس قد تعرّى من أشجاره وغابت عن جبل بيليون ظلال غاباته ، ودُفِن كايينوس تحت ثقل كومة هائلة من الأشجار حاول أن ينفذ من بينها بكتفيه القويتين ، غير أن تراكم الأشجار حين بلغ فمه وغطى رأسه أخذ أنفاسه فإذا قواه تخور ، وعبثاً حاول النهوض وإزاحة ٥٢٠ الأشجار عن جسده بدفعها هنا وهناك ، وكأنما نزل زلزال رهيب أخذ يهزّ جبل إيدا العظيم . ولا تعرف حقاً ماذا حدث بعد ذلك ، وإن ذهب البعض إلى أن جسده قد غاص تحت ثقل الأشجار إلى عالم تارتاروس . غير أن موبسوس بن أمبيكس نفى هذه القصة ، وقال إنه رأى طائراً بجناحين أسمرين يُفَلت من بين كومة الأشجار ويحلّق فى الفضاء ، وقد رأيت أنا أيضاً ذلك الطائر الفريد الذى لم أر له مثيلاً من قبل ولا من بعد ، وحين رآه موبسوس يحلّق تحليفاً لا عسر فيه فوق معسكره ويصرخ صرخات عالية جعل يلاحقه بعينيه وفكره فى طيرانه ، وصلاح فيه قائلاً : « سلاماً لك يا كايينوس يا فخر جنس اللايث ، يا من كنت يوماً بطلاً صنديداً ، وصرت الآن طائراً فريداً » . ولما نعرفه من هيئة موبسوس صدّقنا ما قال ، وضاعف الحزن غضبنا المحترم لأن عدداً كبيراً من الأعداء قد احتشدوا على رجل واحد وظفروا به ولوّحنا بسيوفنا إفصاحاً عن غضبنا ، ولم نتلبّث عن القتال حتى أتينا على نصف أعدائنا ، وأقلت الباقون فراراً مخطفين فى ظلمة الليل .

پیریکلیمینوس

استشاط تليبوليموس غضباً لأن ملك پيلوس قد روى معارك اللايث مع القنطورى أنصاف البشر دون أن يتحدث عن هرقل فصاح قائلاً : « عجبا سيدى ، أفصت وأنسيت ما أبداه هرقل من ضروب البسالة ، مع ثقى فى أن أبى قد قال أكثر من مرة أنه هو الذى هزم تلك المخلوقات وليدة السحب السهاوية » . فأجابه نسطور بنبرة حزينة قائلاً : « لم تضطرنى إلى أن أستعيد أحداثا تثير الأسى ؟ ولم تدفعنى لأنكأ جراحاً التأمت مع الزمن ، وأتحدث عن أبىك مع كراهيتى إياه بعدما لحق بى الكثير من الأضرار بسببه . حقاً إنه أتى من الأمور - كما تعرف الآلهة - ما يفوق التصور ، وملا الدنيا بمغامراته [وليس من شأنى أن أنكر هذا] ولكننا لا نمتدح ديفوبوس ولا پوليداماس بل ولا هكتور نفسه^(٩) ، فمن هذا الذى يمتدح أعداءه ؟ نعم لقد هدم أبوك مرة جدران ميسينيه ومرة أخرى دمر مدينتى إليس وپيلوس اللتين لم تجنيا جناية ما ، كذلك أحرق بيتى بالنار وتركه خاوياً بعد أن قضى على من فيه بحد سيفه ، ولن أذكر شيئاً عن قتله العديدين ، وحسبى أبناء نيلبوس الاثنى عشر ، وقد كنا آنذاك فى أوج الشباب نحن أبناء نيلبوس ، لكنه بطش بهم جميعاً سوى ، ولو أننا سلمنا بهزيمة الجميع فقد كان مصرع پيريكليمينوس شيئاً عجيباً ، ذلك أن نبتون مؤسس سبط نيلبوس قد رزق ذلك الصبى بقدرة يقوى بها على أن يبدو فى أية هيئة يشاؤها وأن يخرج عنها حين يريد . ولقد تبدل فى الهيئات كلها حذراً من هرقل ، غير أن ذلك كله لم يجده نفعاً .

فقد جعل نفسه الطائر الأثير عند كبير الآلهة والذى يحمل بمخالبه المحدبة صواعقه ، وأخذ ينهش وجه هرقل بمنقاره المعقوف ويخطبه بجناحيه ومخالبه ، فتصدى البطل التبرنى له بأن شد قوسه إلى صدره وأطلق سهمه الذى لا يخطئ أبداً ، فنفذ فيه وهوبين السحب عند منبت جناحه . ومع أن الجرح لم يكن عميقاً إلا أن العضلات الممزقة عجزت عن أداء وظائفها وأفقدت النسر قدرته على الحركة والطيران ، ولم يقو جناحاه المتهاويان على التحكم فى الهواء فسقط على الأرض وهوى جسده فوق السهم الذى كان عالقاً بجناحه ، فاندفع خلال صدره حتى نفذ من جنبه الآخر . أو تظن أن من واجبى بعد ذلك أن أثنى على هرقل أيها الربان الوسيم لأسطول رودس ؟ ومع ذلك فكل ما أثار به لأخوتى أن أتجاهل ما كان لهرقل من بسالة ، لأن الصداقة التى تربط بينك وبينى وثيقة » .

وبهذه الكلمات التى جرت على لسان الشيخ بليغة رقيقة اختتم قصته ، ودارت كتوس النبيذ ثانية ، ونفض الجالسون عن المائدة لياووا إلى مضاجعهم ما بقى الليل .

موت أخيل

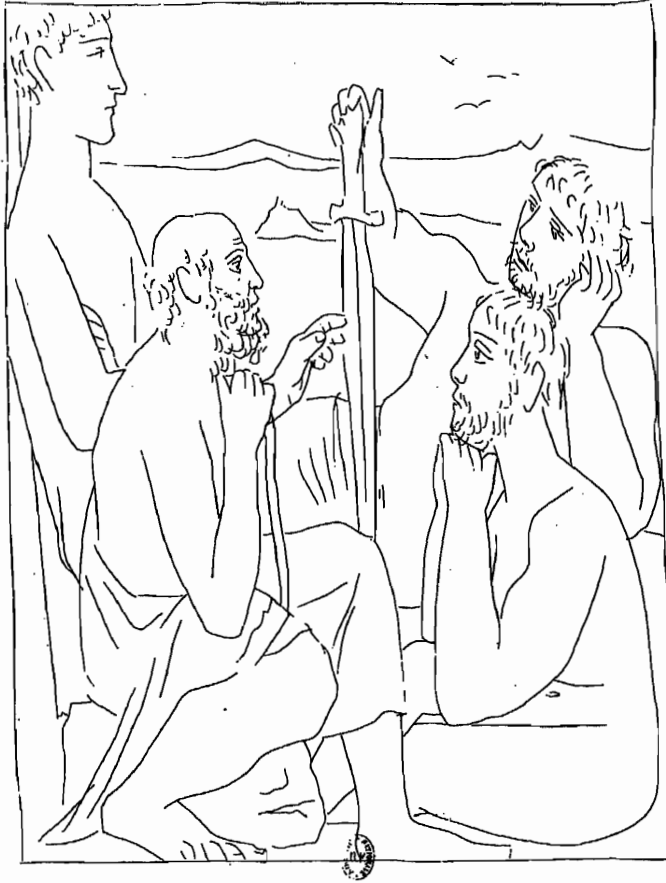
استبد الحزن بالإله نبتون الذى يسطر سلطانه على أمواج المحيط بصولجانه الثلاثى الشعب لمصرع ابنه سيجنوس الذى مسخ بجعة من بجعات فايثون ، فأخذ يستنز اللعنات على أخيل القاسى القلب

ويغلي غضباً على خصمه . وأخيراً ، وعندما طاللت الحرب حتى أوشكت أن تبلغ سنوات عشرين أخذ في الحديث مع أبوللو المسترسل الشعر قائلاً « يا أعزّ أبناء أخى عندي ، يا من شاركني في بناء أسوار طروادة دون أن تجئني من ورائها نفعاً ؟ ألم يؤسفك أن ترى هذه القلعة المشيدة تُشرف على الزوال ؟ ألم يحزنك مصرع الآلاف العديدة من الطرواديين دفاعاً عن أسوارها ؟ ألم يترامى لعينك طيف هكتور - من بين القتلى - وجثته تُجرّ على الثرى مرّة بعد مرّة حول برجامون مدينته الحبيبة ، ومع ذلك لا يزال أخيل يستمتع بالحياة ، هذا البطل الهمجي الوحشي الذي هدم ما شيّدناه ويسفك من الدماء أكثر مما تسفكه أية حرب ، فليأت إلى ولسوف يرى ما سننزله به حربتي ذات الشعب الثلاثة ! ولكن طالما أني لا أجد فرصة لملاقاته وجهاً لوجه فلتبطل أنت به بسهم خفيّ من سهامك لا يُدرى من أين أتى . »

ووافق أبوللو إله جزيرة ديلوس مستملياً من كراهته لأخيل التي لم تكن تقل عن كراهية عمّه له ، فطوته سحابة ثم هبط منها في صفوف الطرواديين . ولح وسط العممة باريس وهو يصوب سهمه إلى محاربيّ يونانيين لا شأن لهما فكشف عن نفسه لباريس وقال له : « لم تبّد سهامك في سفك دماء العامة ؟ إذا كنت تُعزّ أثاربك فلتبّر وجهك نحو حفيد إياكوس ولتنتقم منه لأشقائك الصرعيّ ! » وأشار أبوللو إلى أخيل وهو يُحدّث باريس وكان أخيل ساعتها يحصد بسيفه أعناق محاربي طروادة ، ثم أدار أبوللو قوس باريس ناحية البطل اليوناني ، ووجّه بيده الباطشة سهماً أصاب في التّهدفه ، فكانت هذه أول فرحة أحسّ بها بريام منذ مصرع ولده هكتور . وهكذا لقي أخيل قاهر الأبطال ذائعي الصيت هزيمته على يدي جبان كان قد اختطف زوجة يونانية خانت زوجها . لعمرى لو كنت عرفت يا أخيل يوماً أنك ستسقط صريعاً في حومة الوغى على يد أنثى^(١١) لأثرت الموت بضربة بلطة من يد إحدى ساكنات ضفاف نهر الثيرمودون^(١٢) . ها هو ذا البطل الذي كان يثير الفزع بين الطرواديين يغدو طعمّة للنيران وهو من كان فخر اليونانيين وزعيمهم المظفرّ في ساحات القتال . وأشرف على حرق جثته في المحرقة الإله الذي كان قد صنع له سلاحه ليخوض به الحرب^(١٣) واستحال أخيل العظيم رماداً ، ولم يبق منه غير تلك الحفنة التي لا تكاد تملأ وعاء صغيراً ، غير أن أمجاده عاشت من بعده حيّة في أسماع العالم ، فكانت شهرة ابن بيليوس ليست دون عظمته وكان بهما جديراً ، كما أنه بعد أن ترك الحياة لم يعبأ بوحشة تارتاروس . وكم أثار ترسه المعارك بعد موته واحتدم الصراع من أجل الظفر به ، كما أثار سلاحه العراك للظفر به . على أنه لم يجرؤ على المطالبة بترسه ابن تيديوس ولا أجاكس بن أوليوس ، ولا أصغر أبناء أتريوس ، [أجاممنون] ، ولا أخوه المحارب الأكبر سنّاً والأشدّ بطشاً [منيلاوس] . ولم يبق أحدٌ بجدارته لطلب هذا المجد سوى أجاكس بن تيلامون وأوديسيوس بن لايرتيس . وعرف أجاممنون سليل تانتالوس كيف يُخلّص من مهمة قد تجرّ عليه الأحقاد ، فدعا قادة أرجوس إلى الاجتماع وسط المعسكر وجعلهم قضاة ليفصلوا بين المتنافسين .

التعقبات

- (١) شجر الذّلب .
- (٢) يلاحظ أن هذا هو موضوع مأساة أوريبيدس : « إيفيجينيا في أوليس » .
- (٣) تنبأ عرّاف يوناني جهلاك أول يوناني يبيط على شاطئ طروادة فقّم پروتيسيلاوس نفسه قرباناً لتلك النبوة وسقط بسهام هكتور . وكان الإغريق قد أقاموا له قبراً بالقرب من الهيليسبونت ، ومن الغريب أن شاهد هذا القبر الذي يسجل اسمه قد اكتشف مؤخراً في حفائر طروادة .
- (٤) انظر الكتاب الحادى عشر .
- (٥) ليس المقصود هنا الدرع الذى اعطه هيفايستوس نزولاً على إرادة ثيتيس لابنها أخيل والذى وصفه هوميروس في الكتاب الثامن عشر من الإلياذة ، وإنما المقصود درع مصنوع من طبقات من جلد الثيران وصفه هوميروس منسوباً إلى كل من أوديسيوس وأچاكس [انظر مستهل الكتاب الثالث عشر] .
- (٦) يسرد أخيل أشهر مآثره منذ أن بدأ الإغريق في حصار طروادة ، وكانت ليريسوس مدينة في مملكة ميزيا بأسيا الصغرى ، وتينديوس جزيرة صغيرة تقابل الشاطئ الطروادى ، وأطلق أوڤيد على ثيبه اسم طيبه ، وهى مدينة قائمة على سفح جبل پلاكوس في ميزيا ، وكانت عاصمة مملكة إيتيون والد أندروماخى الذى قتله أخيل مع أبنائه ، أما الكايباكوس فهو اسم نهر في ميزيا .
- (٧) كان لنسطور أحد عشر أخاً قتلهم هرقل مع أبيهم ، ولم يبق من الأسرة سوى نسطور فمنحه الإله أبوللو الحق في أن يجبا مجموع عدد السنين التى كان مقدراً أن يجياها إخوته لو استكملوا عمرهم . لذلك يقال إنه عاش ثلاثمائة سنة .
- (٨) هذه بطبيعة الحال أمنية بعيدة عن التحقيق ، يقصد بها نسطور الإشادة بقوته وبأسه أيام شبابه ، فيزهو بأنه لو كانت حرب طرواده قد وقعت قبل موعدها في تلك الآونة لكان قد أبلى فيها أحسن البلاء .
- (٩) ديفوبوس هوشقيق هكتور ، وپوليداماس هو ابن پانثوس وكلاهما مذكوران في الإلياذة . وقد اتخذت الإلهة أثينا شكل ديفوبوس لتطمئن هكتور الذى كان يطارده أخيل ولتعيده إلى المعركة حيث كان مقدراً له أن يموت . أما پوليداماس فهو الذى نصح هكتور بالحرص ولم يستمع الأخير إلى نصحه .
- (١٠) يشبه أوڤيد هنا باريس بامرأة احتقاراً لشأنه .
- (١١) الثيرمودون نهر صغير يصب في البحر الأسود ويسرى خلال بلاد الأمازونيات في پونتوس على شاطئ البحر الأسود ، وكانت ملكتهن پنثيسيليا قد جاءت لنجدة الطرواديين فالتقت في المعركة بأخيل الذى قضى عليها .
- (١٢) فوكائوس أو هيفايستوس هو إله النار والحداة ، وهو الذى صقل أسلحة أخيل وبذلك يكون قد أعطه للقتال كما أحرقه فيما بعد بلهبه فوق محرقة الموتى .



بيكاسو: أجاكس يطالب بأسلحة أخيل

الكتاب الثالث عشر

أجاكس يطالب بأسلحة أخيل

جلس القادة وسط جماهير الجنود الذين اصطفوا وقروا ، ونهض أجاكس صاحب الترس المصنوع من جلود ثيران سبعة وأخذ يخاطب فيهم مُرغياً مُزيداً وعيناه عالقتان بشواطئ سيجيا وبالسفن الرأسية

عندها ، ولَوْح بقبضة يده وهو يصيح : ها أنذا أمام سفن الأسطول يا جوبيتر أذفع عن قضيتي أمام من جرءوا على أن يسووا بيني وبين أوديسيوس ! هذا الذي فرّ هارباً من نيران هكتور^(١) بينما اقتحمتها أنا لادفعها بعيداً عن سفننا ، والذي يؤثر المارقة بالحجة على المجاهدة بالسيف ، فقصاحته في الخطابة تعدل بأسى في القتال وإن لراغب عن منزلته بالكلام على قدر ما هو راغب في تجنّب منزلتي بالذراع . على أن ما أنجزته من أعمال ليس في حاجة إلى أن تفصح عنه كلمات فقد شهدتموها أيها اليونانيون ، وما أعوز أوديسيوس إلى الحديث عن مآثره ومنجزاته التي لم تشهدا سوى ظلمة الليل . وإن الجائزة التي أطمع فيها لعظيمة ، غير أن مطالبة أوديسيوس بها يُفقدنا كل قيمة ، ولن يباهى أجاكس بجائزة مهما عظم شأنها إذا ما تطلّع إليها أوديسيوس . وها هو ذا الآن يظفر بمجد كبير ، لأنه بعد هزيمته أمامي سيغدو من المشهورين ، إذ قد جعل نفسه ندّاً لي .

وإذا كان ثمة شك في شجاعتي فإن لي إلى جانب ذلك سنداً قوياً هو نُبل مُحتدى ، فانا ابن تيلامون الذي اقتحم أسوار طروادة في رفقة هرقل الشجاع ، كما أفلح في سفينة الأرجو التي بُنيت في باجاساي حتى بلغ شواطئ كوخيس ، ثم إن جلدى هو إياكوس الذي يفصل بعدالته بين الموتى الهامدين في المملكة التي يتعذب فيها سيزيفوس بن أيولوس مشدوداً إلى صخرة . وكذا يعترف جوبيتر كبير الآلهة بأبوته لإياكوس وهو ما يجعلني من الرعيال الثالث لأحفاد جوبيتر . وما كان لي أن أزعج بهذا النسب في قضيتي هذه لولا أنه نسب أخيل العظيم ، فلقد كان أخى وابن عمى ، ولهذا فإننى أطلب بميراثه . وأما أنت يا أوديسيوس يا من تشبه جدك سيزيفوس في الغش والخداع فكيف تستبجح إقحام اسمك في أسرة إياكوس وأنت غريب عنها ؟ . أو ترفضون أنتم منحه هذه الأسلحة وقد سبقته إلى ميدان الوعى دون أن يستحقني أحد ؟ أو تفضّلون آخر من حمل السلاح بعد تقاعسه عن الحرب مدّعياً الجنون حتى كشف عن خدعته التي فضحت جُبته إنساناً أشدّ دهاءً منه . لقد كان بالاميديس بن ناويليوس هو الذى حمل أوديسيوس على الانضمام إلى صفوف المقاتلين بعد أن كان يروغ من الحرب : أليحقّ له أن يحمل تلك الأسلحة العظيمة بعد أن كان يعزف عن حمل السلاح ؟^(٢) وهل أحرّم أنا من إرث قريبي لإقدامى على المخاطرة منذ البداية ؟ ليته كان مجنوناً حقاً أو ليته بقى كذلك بين الناس ! وليتنا لم ننسق إلى نصائح هذا الوغد الإجرامية ولم نندفع صوب القلاع الفريجية ! فلولا ذلك ما لحق بنا عار ترك فيلوكتيتيس بن پوياس في ليمنوس حيث يقال إنه يأوى إلى أحد كهوف الغابات محرّكاً أشجان الصخور ببكائه وضراعته للآلهة أن تنزل بابين لايرتيس [أوديسيوس] ما يستحق من جزاء^(٣) ، وإن كانت الآلهة موجودة حقاً فلا بد أن يُستجاب لهذا الدعاء .

إن هذا المسكين المنكود الحظ الذى خرج معنا مقسماً بين الولاء لقضيتنا وهو من قادة اليونان وورث سهام هرقل قد هدّه المرض والجوع ، وليس له من ثياب غير ريش الطير ، وليس له من غذاء غير لحومها بعد أن يرميها بسهامه ، تلك السهام التي كان عليه أن يقضى بها على طروادة . ومع ذلك فهو ما يزال حياً لأنه لم يصاحب أوديسيوس في سفينته . كذلك كان بالاميديس التمس يتمنى لو خلفناه هو الآخر في ليمنوس ، ولو حدث ذلك لبقى حياً أو مات دون أن يُرمى بتهمّة ظالمة ، ذلك أن خصمى يذكر جيداً أن بالاميديس

قد مرَّ اسمه في الوحل حين كشف عن ادعائه الجنون ، ولم يغفرها له أوديسيوس فأتته زوراً بخيانة الإغريق ودلَّ على هذه التهمة بتقديم سبائك ذهب كان قد خبأها في مكان أمين من قبل . وهكذا استطاع أوديسيوس أن يوهن من قوة الأخيين بنفى البعض وقتل البعض الآخر ، وكان هذا أسلوب أوديسيوس في الحرب ، وبهذا الأسلوب نفسه كان يروِّع من حوله .

ومع أنه يملك من البلاغة ما يبيِّز به نسطور الوفيّ فإنه لن يستطيع إقناعي بأنه لم يرتكب خطأ حين هجر نسطور العجوز الذي أرقه الإعياء وكان جواده جريماً فتوسل إليه أن يساعده فلم يستجب لرجاء من كان له رفيقاً . وإن ديوميديس بن تيديوس ليشهد أنني لا أخلتق هذه الاتهامات ، فقد نادى على أوديسيوس باسمه مرات عدّة ونعى عليه ذعره وهربه ، غير أن الآلهة ترعى أمور البشر من عليائها بالعدل ، فما هو ذا من رفض مساعدة نسطور تُعوِّزُه هو نفسه المساعدة ، وكما تحلَّى عن غيره كان طبيعياً أن يتخلَّى عنه الآخرون ، فحين أخذ يصبح منادياً زملاءه بأعلى صوته أسرعْتُ إليه فأرأته شاحب الوجه يُرعد فزعاً وذعراً من الموت الذي يتهدِّدُه ، فحميته بترسى وهو جاث على الأرض وأنقذت حياة هذا الجبان ، وإن كان هذا في نظري أمراً تافهاً لا أحفل أن أثاب عليه ! ولئن كنت مُصرّاً على منافستي في الاستحواذ على هذه الأسلحة فلنعد معي إلى حيث أنقذتك من يد الأعداء ، لنعد بجرحك وصراختك المدوّى وهاك ترسي لتختبئ خلفه وحاول وأنت في حمايته أن تبارزني . إنني لم أكد أيها السادة أنتزع هذا المحارب مما يحقُّ به من خطر - وكان جرحه قد أوهن قواه فلم يعد يقوى على الوقوف - حتى أخذ يجرى هارباً بعوني كما لو لم يكن به جرح يعوقه عن العدو . وتقدم هكتور إلى المعركة في صحبة أهله ، وكان يبثُّ الرعب حيث مضى لا في قلبك وحدك يا أوديسيوس بل في قلوب جميع الشجعان ، فما كان أشدَّ الهول الذي يصاحبه في خطوه ، وقد استطعت أنا في اللحظة التي كان يسعد فيها بطعناته الدامية أن ألقيه على ظهره حين قدفته من بُعد بكتلة ثقيلة من الصخر ، حتى إذا تقدم يطلب النزال انبريت له وكنت الوحيد الذي جرؤ على ذلك . وقد تضرعتم للآلهة أيها الأخيون أن يقضى الاقتراع باختيارى لمنازلته واستجابت الآلهة لضراعتكم ، أتريدون أن تعرفوا ما انتهت إليه المباراة ؟ إن هكتور دون ريب لم يتغلب عليّ . وأين كان أوديسيوس حين تقاطر الطرواديون على سفن الإغريق بالسيوف والنيران في حماية چوبيتر ؟ لقد وقفت أحمى بصدري سفنكم الألف التي كانت محط آمالكم في العودة إلى الوطن . من أجل هذه السفن العديدة ، أعطوني إذن هذه الأسلحة .

وإذا سمحتم لي أن أقول الحق كله فإن أسلحة أخيل تترقّب النصر على يديّ أكثر مما أتربّح أنا منها ١٠٠ فمجدها متصل بمجدي اتصالاً وثيقاً ، وإن السلاح هو الذي يُهبب بأجكس ، وليس أجكس هو الذي يُهبب بالسلاح ، ولْيُقْبَلْ أمير إيثاكا الذي لا يزن شيئاً [أوديسيوس] وليقارن بين ما أنجزت وما أنجز ، وليحدِّثنا عن سفكه دماء ريسوس ودولون الخانع وعن أسره هيلينوس بن بريام ، وسرقة « للبالاديوم » ذلك التمثال المقدس في معبد باللاس . إنه لم ينجز شيئاً قط في وضح النهار ، ولم يقدم على عمل دون عون ديوميديس ، فإذا ارتأيتم أن تكون هذه الأسلحة ثمناً لمثل هذه التفاهات فاجعلوها بينها وليكن لزميله

ديوميديس أكبر النصبيين . ولكن ما جدوى منح هذه الأسلحة لابن إيثاكا الذى لا يتحرك إلا فى الظلام ولا يصل إلا بالخديعة إلى عدو قليل الحيلة . وإن برىق خوذته الذهبية هو الذى سيكشف حركته وهو مختمىء فى الظلام ، ولو أنه ارتدى خوذة أخيل لما استطاع تحمّل ثقلها ، كما لن تستطيع ساعده المنهكتان حمل رمح أخيل المقدود من دردار غابات جبل پيليون ، وستثقل الترس المنقوشة عليها صورة الكون بأسره على يده اليسرى المتخاذلة التى لا تحمق إلا السرقة والخطف . كيف تطمع فى عطاء لن يزيدك إلا ضعفاً ؟ وما أشد فرحة العدو إن أخطأ الإغريق ومنحوك هذه الجائزة ، فما أيسر عليه أن يسلبك إياها لا أن يهاها وهي فى حوزتك ! قد يكون الفرار هو ميزتك الوحيدة يا أجن الجينه ، لكن سرعتك سوف تهن إذا حملت مثل هذه الأسلحة الثقيلة . ولتنظر إلى ترسك الذى لم يُختبر فى القتال إلا لماما ويبدو وكأنه لم يُمس ، بينما يحمل ترسى ألف أثر من ضربات السيوف التى تعرّض لها وما أوجهه إلى أن يستبدل به غيره . ثم ما أجدرنا أن ندع الكلام جانباً ونحتكم إلى القتال ، فلتلقوا بأسلحة البطل أخيل بين صفوف الأعداء ، ثم لتأمرونا بأن يهبّ كلانا لاستردادها لتكون من حق من يعود بها .

وأخذ ابن تيلامون إلى الصمت وسرت تمتها التقرىظ بين الجميع حتى نهض ابن لايرتيس [أوديسيوس] واقفاً ، فأرخى بصره قليلاً ثم رفع رأسه وجال بصره بين قادة الجيوش ، وانفجرت شفناه استعداداً لأن يحطّب ثم بدأ يتحدث بأسلوب بليغ مثير وقال : « أيها الإغريق . لو كانت الأقدار قد رعت آمالنا جميعاً لكنا الآن فى غنى عن الخوض فى أمر هذا الإرث ، ولبقت يا أخيل بيننا حيّاً حاملاً أسلحتك ولكننا أكثر سعادة بوجودك بيننا . ولكن الأقدار القاسية قد أبت أيها الأصدقاء أن يبقّى بطلنا بيننا [وهنا تظاهر بمسح دُمعة جرت من عينيه] فمن أحق بخلافة أخيل سوى من نصّب قائداً لجيوش الإغريق ؟ إن كل ما أطلبه منكم هو ألا يستميلكم خصمى إليه ، وهو كما يبدو فظ القلب غليظه [وهذه حقيقة لا مرأه فيها] ، كما أرجو ألا يستيركم أحد علىّ لذكائى الذى لم أستخلمه قط إلا لنفعكم أنتم . فلا تدعوا بلاغى - إذا صحّ وصف حديثنى بالبلاغة - تنقلب سبباً لبُغضكم إيانى ، فلسانى الفصيح يدافع الآن عن صاحبه الذى طالما دافع عنكم ، أو ليس من حق كل امرئ أن يستغل الملكة التى وهبها ؟

إن نبل أنسابنا ومآثر أجدادنا وهى ليست من صنع أيدينا لا تنهض مسوغاً لتمييزنا عن غيرنا ، ولكن مادام أچاكس قد أثار اتصال نسبه بجويتر فإننى أستطيع أيضاً الزهوبان جويتر كان مؤسس أسرق ، فأنا أنتسب إليه فى الدرجة التى ينتسب بها أچاكس إليه . وإن أبى لايرتيس هو ابن أركسيوس بن جويتر ، هذا إلى أنه ليس بين أسرق من أدين ونفى خارج وطنه^(٤) ، كما أن نبل نسبى يتجلى أيضاً فى قرابتنى ليركوريوس عن طريق أمى . وهكذا يتسمى كل من والدى بجده من أجدادهما إلى إله . ومع ذلك فلست أطلب بهذه الأسلحة التى أمامكم لأننى من سلالة أكثر نبلاً من سلالة أچاكس لو قدرنا فى الحسبان نسب أسرة والدتى ، هذا إذا أضفنا أن أبى لم يسبق له أن سفك دم أخ له^(٥) . وإن أطلب بأن تزونا هذه القضية بميزان العدل والإنصاف علىّ ألاّ تضفوا علىّ أچاكس ميزة ما لا لشيء سوى أن تيلامون هو شقيق پيليوس . ولا تقضوا بإعطاء هذه الأسلحة إلا لمن كان ذا شجاعة وجرأة دون التفات إلى مجد الأسلاف . ولئن كنتم تبحثون عن

أقرب أقارب أخيل وأقرب ورثته فأمامكم بيليوس والد أخيل أو ابنه بيروس . وإذن فما هو حق أجاكس في الإرث ؟ بل لتحملوا هذه الأسلحة إلى حيث وُلد أخيل في فثيا أو إلى حيث لجأ قبل حرب طروادة في سكيروس ! ثم إن تيوكروس ليس أقل قرابة لأخيل من أجاكس^(٧) ، ومع ذلك فهل رأيتموه يطلب بنصيبه ؟ ولو طالب به لنفسه فهل كان له أن يُعطاه ؟

170 وإذا كان الأمر منافسة بالمآثر وحدها ، ففي استطاعتي أن أقول إنني أنجزت أكثر مما أستطيع عدّه . ولو سردتها عليكم على تتبعها التاريخي لرأيتم أن كلاً منها كانت نتيجة لما قبلها وسبباً لما بعدها .

كانت أم أخيل — وهي إحدى حوريات النيريديس — قد تنبّت بالميتة التي تنتظر ابنها فألبسته ثياب النساء تخدع بهذا الجميع ومن بينهم أجاكس المائل أمامكم ، ورحتُ أنا عرض على أخيل سلعا من تلك التي تستهوى النساء بعد أن دسست بينها بعض الأسلحة التي تثير فضول الرجال الشجعان . وما كاد يراها البطل حتى أطرح عن نفسه ملابس النساء وتناول الرمح في يد والترس في يد ، فقلت له « إن طروادة المشثومة ترقب دخولك يا ابن الإلهة فلم تتردد في أن تقهر هذه المدينة المنيعه ؟ » ، وأخذت بيده لأدفع به نحو مستقبل زاخر بالمغامرات ، وأنا لهذا أعدّ مآثره مآثرى أنا . ومن ثم فانا الذي انتصرت على تيليفوس الصُلب ، وأنا الذي عاجلت جروحها استجابة لضرعته بعد أن أنفذت فيه رمحي ، وإن فتح طيبه ليعود إلى وحدى . ولا يفوتكم أن تذكروا لي فتح ليسبوس وتينيدوس وخريسيس وسيللا مدن أبولو ، وسكيروس أيضاً ، واذكروا أن يمناى هي التي هذمت أسوار ليرنيسوس ، ولا داعى أن أذكركم بأساء كل من قهرهم أخيل . وفي الحق إنى أنا الذى قدّمت لكم مقاتلاً استطاع أن يقهر هكتور الجبار ، فلي أنا الفضل في أن جنة هكتور الشهر ملقاة أمام عيونكم ، ولست أريد ثمناً لهذا إلا الأسلحة التي كانت بها بطولته . إنى أنا الذى أعطيته إياها يوم أن كان حيّاً ، وقد آن لى أن أستردّها بعد أن قضى نجه .

180 ويوم أصبحت فجيجة منيلاوس هي فجيجة الداناوين^(٨) [الأخيين أو الإغريق] جميعاً خرجت إلى المرفأ ألف سفينة تقصد قصد أوليس المواجهة لجزيرة يويويا ويقيت طويلاً تنتظر الرياح التي تدفعها إلى الأمام بعد أن ظلّت تتعرض للرياح التي تردّها للمرفأ ، وهتف العراف بأمر أفسى ما يكون حين أنبأ بأن الآلهة قضت بأن يضحى أجامنون بابنته البرية قرباناً للإلهة العطشى ، فأبى الأب الاستجابة لما قضت به الآلهة جميعاً بعد أن تمكّنت مشاعر الآبوة من قلبه ، وكنت أنا الذى أقنعت ذلك الأب الحانئ بإيثار مصلحة الأمة على عواطفه^(٩) ، ولقد كانت عمه شاقّة . وليغفر لى ابن أتريوس أننى نجحت في إقناعه وهو الوالد المنجوع ، فغلّبت مصلحة الشعب وشرف أخيه والمسئولية الخطيرة التي يحملها على مشاعره قبل أن يدفع دم ابنته ثمناً لمجد وطنه . وقد بعثوا بى كذلك إلى أم الضحية كى أقنعا ، وكان إقناعها أمراً عصياً فلجأت إلى الحيلة حتى أدفعها إلى تسليم ابنتها لى ، ولو أنهم كانوا قد عهدوا بهذه المهمة إلى أجاكس لكانت شرعنا ما تزال مُستكّنة في المرفأ تنتظر هبوب الرياح المواتية .

وقد أوفدوني كذلك سفيراً إلى قائد القلعة الطروادية فذهبت ومثلتُ بين يدى مجلس شيوخ طروادة المهيب ، وكان جميع أعضائه شهوداً وما اعترانى خوفٌ بل دافعت عن القضية التي عهد بها الإغريق إلى ،

والقيت التبعة على باريس وطالبت بإعادة هيلينا والغنائم ، وأثرت عطف بريام واستملت لجانبى أنتنور ، وقد أفلتت من أن أقع في قبضة باريس وإخوته والجماعة التى شاركت في خطف هيلينا بقيادته . وإنك لتعلم ذلك كله يا منيلاوس ، فقد كنا في ذلك اليوم نجابه خطراً واحداً لأول مرة في حياتنا . ٢٠٠

كم يطول حديثى لوشئت أن أقص عليكم كل ما اضطلعت به من مهام نافعة سواء بحنكى أو بندراعى خلال هذه الحرب الطويلة ، فقد تحصن العدو على إثر المعارك الأولى وراء أسوار المدينة ولم تكن ثمة فرصة يواجه فيها بعضنا بعضاً في العراء ، ولم نلتحم في قتال صريح إلا بعد أعوام عشرة ، فإذا فعلت أنت يا أجاكس خلال هذه المدة التى لا معارك فيها وأنت الذى لا تجيد إلا الحرب ؟ وماذا قدّمت أيامها ؟ لو سألتنى ماذا فعلت أنا لقلت لك أننى كنت أعدّ الكيائن للعدو ، وأقيم التحصينات حول خنادقنا ، وأسرى عن رفاقنا ، وأستحثهم على احتمال صعاب الحرب بصدور زجبة ، وأدبهم على التسلح والتزود بالمؤن . غير أن مليكتنا أجامنون ، بعد أن أفزعته رؤيا في منامه عن نصيحة من نصائح جويتر ، أمرنا بقص أيدينا من هذه الحرب . وقد كان من حق الملك أن يتعلل بما قرره ناسباً قراره إلى كبير الآلهة ، ولقد كان من حق أجاكس أن يرفض تنفيذ هذا الأمر وأن يطالب باستمرار القتال حتى تبيد طروادة مادام يملك ذلك . فلماذا لم يعترض طريق الجنود الذين حزموا أمرهم على الرجوع ؟ ولماذا لم يقف دون هؤلاء المترددين يمنهم سلاحه ؟ أو كان هذا كثيراً على محارب لا ينطق إلا عن زهو وتفانخ ؟ إننى أسألكم كيف تفسرون قومه هذا ؟ لقد احمر وجهى خجلاً يا أجاكس عندما شاهدتك تدير ظهرك للعدو وتستعد للإبحار بسفنك ! وساعتها أطلق الأسى عقدة لساني فصحت قائلاً : « ما هذا الذى أراكم تفعلونه يا رفاقى ؟ وأى جنون هذا الذى يردكم عن طروادة بعدما باتت في متناول أيديكم ؟ وماذا تراكم حاملين إلى دوركم بعد قتال دام عشر سنين سوى العار ؟ » ، وأفضت في الحديث حتى نجحت بقوة حجتي وبياني في إنهاض المحاربين إلى صفوف القتال . وحيث عاد أجامنون وأمر جنوده الذين هيمن عليهم الفرع بأن يحتشدوا ، ولم يجرؤ ابن تيلامون أن يفتح فمه في تلك اللحظة ، بينا أطلق ثيرسيثيس^(٩) لسانه في سب الملوك فلم أدعه يُقلت بلا عقاب ، ورحت أشد من عزيمة رفاقى المدعورين وأستفهمم للقاء العدو إلى أن ردّ حديثى إليهم إقدامهم الذى كادوا يفقدونه . ولهذا أقول إن كل عمل باسل حققه أحد رفاقى منذ تلك اللحظة هو لى ، لأننى أنا الذى رددتهم عن النكوص إلى مواجهة العدو .

ثم إننا لو فتشنا بين الإغريق عمّن يمتدحك أو يتوق لرفقتك ما وجدنا بينهم أحداً . وإن ديوميديس لشريك لى فيما أفعال وهو دائب التقدير لى والشئ على ، وهو أول من يقول بأن أوديسيوس رفيقه الجدير بثقته . وليس اختيار ديوميديس لرفقتى أنا من بين آلاف الإغريق شيئاً لا يقوم على سبب ، وما خرجت للقاء العدو بحكم الاقتراع بل أنا الذى أقدمت بمحض إرادتى مستهيناً بأخطار القتال غير عابء بالظلام ، وقتلت دولون الفريجى ذلك البطل الذى كان مثل لا يهاب المخاطر . وما قتلته إلا بعد أن أرغمته على الكشف عما أعدّه العدو في طروادة الجاحدة . وكان بوسعى أن أقع بهذا المجد وأعود إلى خيامى ، لكننى قصدت خيام ريزوس في معسكره وقتلته ورفاقه ، حتى إذا ظفرت بكل ما تقّت إليه من نصر اعتليت مركبة

خصمى التي استوليت عليها ودخلت بها معسكرى يخفق قلبى بفرحة الانتصار . لكم أن ترفضوا إذا شئتم منحنى أسلحة أخيل الذى طلب دولون عدونا الطروادى جياده ثمناً لتجسسه علينا ليلاً^(١١) ولكن فى هذه الحالة يكون أچاكس أكثر كرمأ معى منكم^(١٢) . هل أذكركم بمعاركى مع كتاب سارييدون اللىسى وكيف أبدتها بسيفى حين أجريت نهراً من الدماء غرق فيها كويرانوس بن إيڤيتوس والأسطور وخروميوس وألكندر وهاليوس ونويومون وبريتانيس ، وحين قضيت علسى ثورون وخرسيداماس وشارويس وإينوموس وآخرين أقل من هؤلاء شأنًا^(١٣) . وكم نالنى من جراح لو كشفت لكم عن مواضعها لعرفتم كم تكون هى مصدر زهو وفخار لى ، وإن كنتم غير مُصدِّقِيْ فميا أقول فها هى ذى جراحى فلتنظروا إليها ٢٦٠ [وعندها أزاح ثوبه بيده وقال : هاكم صدرأ لم يتعرض لخطر إلا من أجل قضاياكم ، على حين أن ابن تيلامون لم ينزف قطرة واحدة من دمه خلال هذه السنين الطوال ويخلو جسده من الندوب ومن آثار الجراح . ومع ذلك لماذا تلقون بالا لما يقول بأنه حارب الطرواديين دفاعاً عن أسطول الإغريق خارجاً بذلك عن أوامر جوبيتر؟ قد أسلم له بما يقول ، فلقد رفع بالفعل السلاح ضد العدو ولست ممن يقللون من شأن أحد حقداً عليه ، ولكنى لا أملك أن أنسب إليه وحده مجداً شاركه فيه غيره . ألايته يعترف لكم بنصيبكم أنتم فى المجد ، فباتروكلوس هو وحده الذى ردَّ هجوم الطرواديين ولاحق بظلمهم حين حاول حرق الأسطول ، وقد فعل ذلك فى عُدَّة خلعت عليه مظهر أخيل ، وما هو ذا أچاكس يدعى أنه هو وحده الذى تجاسر على مواجهة هكتور متناسياً أنه لقيته بعد أن لقيته مليكنا وقادتنا وبعد أن لقيته أنا ، والحق إنه كان تاسع من تصدوا لهذا الواجب المقدس . ثم إن الإقتراع هو الذى هيأ لى هذه المهمة ، ولتخبرنى أيها البطل الشجاع عما انتهت إليه مبارزتكما ، فمبلغ علمى أن هكتور قد خلف ميدان القتال دون أن يناله جرح واحد .

٢٨٠ الا ما أشقانى وأقسى ما أحسنه من ألم وأنا أستعيد الآن ذكرى اليوم الذى سقط فيه أخيل بطل الإغريق وحاميهم والذى لم تقعدنى الهيموم ولا الدموع عن رفع جسده الممدد فوق التراب وحمله إليكم على كتفى هذين بأسلحته وُعدته التى أتطلع اليوم لارتدائها ، وأرجو أن تُعيننى قوتى على تحمّل ثقلها جزاءً للشرف الذى تمنحونى إياه . وهل يُرضى أم أخيل حورية البحر أن تزول أسلحة ابنها التى هبطت إليه من السماء والتى تمثل عملاً فنياً رائعاً إلى جندى فظ يفتقر إلى الإدراك السليم ؟ إن أچاكس هذا يقصر عن فهم معنى النقوش التى تغطى الترس والتى تصور البحر واليابسة بمدنها العديدة وأفاق السواوات المرصعة بالنجوم وكوكبات الثريا والقلائص والدب الأكبر وسيف الجوزاء المتألق ، إن أچاكس هذا ليجهل قيمة الأسلحة التى يطالب بها .

وإنه يتهمنى بالفرار من واجبات الحرب الشاقة وبالتباطؤ عن المشاركة فى المبارزة ، دون أن يدرك أن هذا خطأ من شأن أخيل الكبير القلب . فإذا كنتم تعدون تظاهر المرء بغير ما يظن جُرمأ أكون أنا وأخيل مُدانين ، وإن كنتم تعدون التأخر فى المشاركة فى الحرب خطيئة فاذكروا أنى سبقت أخيل لى، المعركة ، وما عوّفتى إلا حب زوجة ودود ، وما آخره هو غير عطف أم حانية . لقد أعطيناهما الأيام الأولى من الحرب بينما

وقفنا عليكم بقية أيامها ، ولست أخشى تهمة يشاركني فيها بطلٌ عظيم ، ومع ذلك فإن التعرف على أخيل يعود إلى ذكاء أوديسيوس ، بينما لا يعود هذا إلى أجاكس .

لا تدهشوا حين يطفح لسانه الأحق سبأياً لى فهو يقول عنكم أنتم أيضاً ما ينبغي له أن ينجل منه ، فإذا كان يَشِيننى أننى وجهت إلى پالاميديس تهمة كاذبة فهل كان مما يشرفكم أنكم أنتم من أدنتموه بهذه التهمة ؟ لا . . لقد عجز ابن ناوليوس عن تبرئه نفسه من جرم بين بشع . ثم إنكم لم تستمعوا إلى التهمة التى وُجِّهت إليه فحسب بل شاهدتم كذلك دليل جرمته بأعينكم وهى الرشوة . وليس عدلاً أن أحاكم الآن من أجل بقاء فيلوكتيتيس بن پوياس حيّاً حتى اليوم فى جزيرة ليمنوس الأثيرة عند فولكانوس ، فأننا لم أنفرد بعمل كنتم معى فى الإجماع عليه ، ولست أنكر أننى نصحتة باعتزال الحرب والأسفار رفقاً بنفسه التى قَسَّتْ عليها الآلام فاستجاب إلى نصحتى ومن ثم بقى حيّاً حتى الآن ، وهذا ما يؤكد أننى لم أصدر رأى عن نيّة حسنة فحسب — وقد كان هذا وحده كافياً — بل لقد كان لنصحتى نتيجة طيبة أيضاً . وإذا كان الكهنة يريدون دعوته اليوم لِيُسْهِم فى إنهاء تدمير پرجامون فأناشدكم أن تعفون من تبليغه هذه الرسالة ، ولعل ابن تيلامون بما يملك من بلاغة يكون خير سفير لهذه المهمة لقدرته على تهدئة غضب رجل مريض نائر ، ولعله يجيد حيلة يخرجه بها من عزلة . وسوف يجرى نهر سيمويس على الضد من اتجاهه المعتاد ، وسوف يُعْرَى جبل إيدا من الشجر ، وسوف تنقلب الأوضاع بأن تسرع اليونان إلى معونة طروادة قبل أن يستطيع أجاكس الغبى أن يفيد الإغريق بفكره البليد وقبل أن يفتر حماسى لما فيه نفعكم أو قبل أن يفتر إخلاصى لكم . وتستطيع أنت يا فيلوكتيتيس القاسى القلب أن تحمد علينا جميعاً ، على مليكك وعلى حلفائك وعلى ، وتستطيع أن تغمرنى بالسباب وتطالب برأسى قرباناً للالهة وتودّ أن لو يُلقينى الحظ بين يديك حتى تستطيع سفك دمي وأخضع لإرادتك كما خضعت أنت لإرادتك ، ومع ذلك كله فإننى مُقبل عليك محاولاً العودة بك ، ولو أعاننى الحظ فسوف أظفر بسهامك كما ظفرت بسهام هيلينوس الكاهن الدردانى ، وإننى لقادر على ذلك فقد فسرت نبؤة الهاتف الإلهى وكشفت مصير طروادة (١٣) ، واختلست تمثال منيرفا الطروادية من مجراها متسللاً وسط الأعداء الذين كانوا يجرسونه ولم يكن من الممكن أن تأذن الأقدار بفتح طروادة دون الظفر به ، أو يمكن بعد ذلك مقارنة أجاكس بى ؟ وأين كان أجاكس بكل ما يفاخر به ؟ لماذا أمسك به الخوف فى ذلك اليوم ، ولماذا كان من حظ أوديسيوس أن يجسر على اختراق خطوط العدو الحصينة والتستّر بالظلام والعبور وسط سيوفه المشهورة ، وتحطى أسوار طروادة والنفاذ حتى قمم قلاعها لسلب تمثال الإلهة من مجراها والعودة به إليكم من بين صفوف العدو ؟ ولو لم أنجح فى ذلك لما كان لجلود الثيران السبعة نفع على ذراع ابن تيلامون الأيسر ! لقد كان الاستيلاء على طروادة ليلتها ثمرة جهدى ، فقد مهّدت الطريق لفتح حصون طروادة ، ولتكفّ يا صديقى ابن تيديوس عن التمتعة وإرسال النظرات صوب ديوميديس ، فإننى مقرّ أن له بعض الفضل فيما تم إنجازه ، لكنك أنت نفسك لم تكن وحيداً حين أخذت تدافع عن أسطول الحلفاء بترسك فقد كان وراءك جيش كبير بينما لم يكن معى غير رفيق واحد ، ولو لم يعرف أن الحكمة تسبق الشجاعة وأن القوة لا تستأثر وحدها بحق الظفر بهذه الأسلحة

لطالب بها هو كذلك ، ولطالب بها أجاكس الآخر^(١٤) الذى يفرقك تواضعاً ، وكذلك يوريبيلوس الرهيب ثم ابن أندرايمون الذائع الصيت ، وإيدومينيوس ومواطنه ميريونيس ، ومنيلوس أصغر أبناء أتريوس ، على أنهم جميعاً رغم قدرتهم البدنية وإقدامهم على الحرب قد سلّموا بتفوق حكمتي على حكمهم . وإذا سلّمنا بأن مينيك باطشة في المارك فما أحوجك إلى تلمس مشورتى حين تحتاج إلى التفكير لحسم أمر من ٣٦٠ الأمور ، فإذا كنت تملك القوة فما أعوزك إلى ذكائى الذى ينفذ إلى المستقبل . حقاً إنك تحسن القتال ، غير أن منيلوس بن أتريوس لا يختار لحظة الهجوم إلا عن مشاورتى ، فانت تخدم الإغريق بجسدك بينما أخدمهم أنا بعقلى ، وربان السفينة أكثر شأنًا من ملاحها الضارب بالمجداف . كما أن القائد أعظم شأنًا من الجندى ، فانا أفوقك كما يفوق القلب اليد في جسد الإنسان ، لأن القلب هو مصدر القوة كلها .

عليكم الآن يا قادة الإغريق أن تقلدوا الأسلحة أقدر جنديكم ، فامنحوني هذه الجائزة لقاء سنوات طويلة بذلت فيها الكثير من الجهد وحملت فيها الكثير من القلق ، امنحوني هذا الشرف جائزة لخدماتي . لقد قاربت مهمتنا من الانتهاء ، وكم من عراقيل وضعها القدر في طريقنا وأزحتها عنكم ، كما نجحت في أن أفتح لكم طريق قلعة براجامون بل لقد استوليت عليها بنفسى . إننى أناشدكم بالأمال التى تنطلع إليها وبأسوار طروادة الموشكة على السقوط في أيدينا ، وبالآلهة التى انتزعتها من أيدي الأعداء وبكل ما تمليه الحكمة وبكل ما تفرضه الشجاعة والإقدام أن تذكرونى إذا ظننتم أن طروادة ما تزال أمامها بقية من حياة . أما إذا ما رأيتم أنى تمنحونى هذه الأسلحة فلتعطيها لى هذه [وأشار إلى تمثال منيرقا] التى تصنع المصائر والأقدار . ٣٨٠

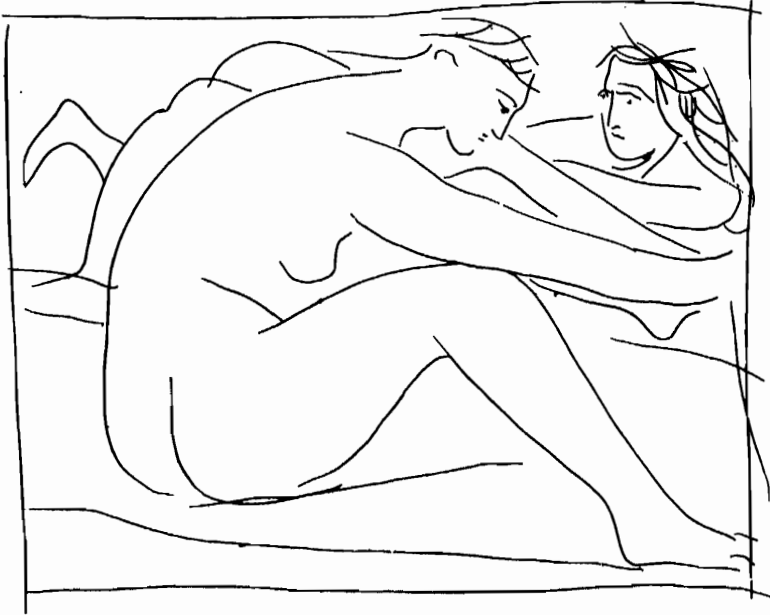
وهذا نجح أوديسيوس في استمالة زملائه القادة بكلماته ، وتجلّى سحر البلاغة وسطوتها في أنه فاز بعد خطبته الرصينة بأسلحة البطل أخيل ، بينما وقف أجاكس الذى كثيراً ما تصدّى لهكتور وواجه أخطار النار والسيف وصواعق جوبيتر عاجزاً عن مغالبة الغضب المحتدم في أعماقه . وقهر الأسى والحنق أجاكس العصى على القهر ، فلوح بسيفه صائحاً : « وهذا السيف سيفى ، أولاً يريد أوديسيوس أن ينازعنى إياه أيضاً ؟ لسوف أحتفظ به حتى أزهب به روحى ، وسوف يشرب اليوم هذا النصل من دم صاحبه وهو الذى طالما شرب من دماء الفريجيين ، وهكذا لا يقهر أجاكس أحد سوى أجاكس نفسه » .

ولم يكذب ينتهى أجاكس من كلماته هذه حتى أغمد سيفه المميت في موضع قاتل من صدره الذى لم يمسه جرح من قبل ، ولم تستطع كفه أن تقتلع النصل من مكانه فبقى حتى دفعه الدم الجارف المنبثق خارج جسده^(١٥) ، وانتشر الدم وتثخن على الأرض التى تحوّل لونها قرمزيًا . ولم تلبث أن انبثقت من بين العشب الأخضر تلك الزهرة القرمزية التى نبتت يوم جرح الصبى هياكيشوس بن إيبالوس ، وقد حُط على أجواف بتلات الزهرة حروف تنطبق على الغلام وعلى البطل ، فهى تسجل اسم البطل وصيحة أسى الصبى في آن واحد^(١٦)

هيكوبا

وما كاد أوديسيوس يُظفرُ بالجائزة حتى أبحر صوب وطن هيسبييليه وأبيها الملك ثواس الشهير ،
وهي البلاد التي تدنّست بجريمة قتل النساء لأزواجهن^(١٧) بغية الحصول على سهام هرقل التي كانت في
ذلك الموطن ، وحين بلغه أخذ السهام ومضى بها إلى الإغريق مصطحباً معه مليكها أسيراً . وبذلك أنهى
حرباً طالت ، إذ ما لبثت مدينة طروادة أن سقطت وسقط بسقوطها پريام . وبعد أن فقدت زوجة پريام
التعسة كل ما كانت تملكه في حياتها إذا هي تفقد كذلك هيسها الإنسيّة ، وانطلقت تملأ أجواء منفاها على
شواطئ نهر هيلسپونت المختنق بضفقى المضيق بعواثها .

كانت ألسنة اللهب تُلهبُ طروادة بنارها ، ومحراب چوييتير يرشف القطرات القليلة المتبقية من دم
پريام الكهل ، والمتصرون يشدون كاهنة فويوس من شعرها وهي تستصرخ الآلهة رافعة ذراعها ضارعة
دون جدوى ، وأمّهات الأسر الطروادية يحتضنّ تماثيل آلهتهنّ ويقبلنها قبل أن يأتى على معابدها الحريق ،
والإغريق الطافرون يسوقونهنّ أمامهم وكأنهن فرائس يتسابقون على الفوز بها ، ويلقون باستياناكس بن



بيكاسو: هيكوبا

هكتور^(١٨) من فوق الأبراج التي كانت أمه تدفعه إلى أن يتطلع منها إلى أبيه وهو يقاتل دفاعاً عن وطنهم وعن مملكة آبائهم .

وَحَثَّ رِيحُ الشَّمَالِ الإِغْرِيقِ عَلَى الإِبْحَارِ ، وَكَانَتْ هَبَّاتُهَا المَوَاتِيَةَ تَهَيِّزُ الأَشْرَعَةَ الَّتِي أَخَذَتْ تَمَحُّقًا ، وَأَشَارَ المَلَّاحُونَ عَلَى الجُنْدِ بالإِسْرَاعِ للإِفَادَةِ مِنَ هُبُوبِ الرِّيحِ ، وَصَاحَتْ نِسَاءُ طُرُودَةِ الأَسِيرَاتِ بَعْدَ أَنْ قَبِلْنَ ثَرَى بِلَادِهِنَّ وَخَلْفَنَ وَرَاءَهُنَّ دِيَارَهُنَّ الَّتِي تَنَفَثَ دَخَانُ الحَرِيقِ « وَدَاعَا يَا طُرُودَا إِنَّا نَتْرَكُ سَبِيَّاتٍ رَغْمَ أَنْوْفَانَا » . وَكَانَتْ هِيكُوبَا [هِيكَايَا بِاليُونَانِيَّةِ] الَّتِي يَثِيرُ مَنَظَرُهَا الرِّثَاءَ آخِرَ مَنْ غَادَرَ أَرْضَ الوَطَنِ ، وَقَدْ عَثَرَ الجُنُودُ عَلَيْهَا بِمَقْبَرَةِ أَبْنَائِهَا وَهِيَ تَحَاوِلُ تَقْبِيلَ عِظَامِهِمْ ، فَجَرَّهَا أَوْدِيسِيُوسُ عَنُودًا بَعْدَ أَنْ أَفْلَحَتْ فِي أَنْ تَقْبِضَ بِيَدَيْهَا عَلَى حَفْنَةٍ مِنَ التَّرَابِ أَحَدِ القُبُورِ مَمْتَرِجًا بِرَمَادِ جِثَّةِ ابْنِهَا هِكْتُورَ وَضَمَّتْهُ إِلَى صَدْرِهَا بَعْدَ أَنْ تَرَكْتَ عَلَى قَبْرِ هِكْتُورِ حِصْلَةَ مِنَ شَعْرِهَا الأَشْهَبِ مَمْتَرِجًا بِدُمُوعِهَا قَرِيبَانًا لِمَنْ فَقدْتَهُمْ .

وَكَانَتْ طِرَاقِيَا الَّتِي يَحْكُمُهَا بُولِيمِسْطُورُ وَمِنْ حَوْلِهِ حَاشِيَتُهُ المَفْحُشَةُ الثَّرَاءُ تَوَاجَهُ عِبْرَ البَحْرِ فَرِيجِيَا الَّتِي تَلَاؤُا فِيهَا نَجْمُ طُرُودَةِ ذَاتِ يَوْمٍ ، وَكَانَ بَرِيَامُ قَدْ بَعَثَ بَابْتَهُ بُولِيدُورُوسَ خَفيَةً إِلَى المَلِكِ الطِرَاقِي لِيُنْشَأَ بَعِيدًا عَنِ أخطَارِ الحَرْبِ الطُرُودِيَّةِ ، وَكَانَ هَذَا مِنْهُ تَدْبِيرًا حَكِيمًا لَوْلَا أَنَّهُ زُوِدَ ابْنَهُ بِثَرْوَةٍ ضَخْمَةٍ كَانَتْ كَفِيلَةً بِإِثَارَةِ الطَّامِعِينَ لِظُلْمِهَا . فَلَمْ تَكُ الدَّائِرَةُ تَدُورُ عَلَى أَهْلِ طُرُودَا حَتَّى شَهِرَ المَلِكُ الطِرَاقِي الجَاحِدَ سِيْفَهُ وَأَغْمَدَهُ فِي حَلْقِ الصَّبِيِّ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ وَصِيًّا ، ثُمَّ أَلْقَى بِجِثَّتِهِ المَاهِمَةَ فِي البَحْرِ الصَّاحِبِ مِنَ فَوْقِ صَخْرَةٍ عَالِيَةٍ وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّ جَرِيْمَتَهُ سَتَحْتَفِي بِاخْتِفَاءِ جِثَّةِ ضَحِيَّتِهِ^(١٩) .

وَكَانَ أَجَامْمُونُ بْنُ أَثْرِيُوسَ قَدْ أَرَسَى سَفِينَتَهُ إِلَى الشَّاطِئِ الطِرَاقِيَّ إِنتِظَارًا لِسُكُونِ البَحْرِ وَهُبُوبِ رِيحِ مَوَاتِيَّةِ ، وَإِذَا الأَرْضُ تَنَشَّقَتْ فَجَاءَتْ فِي ذَلِكَ المَوْقِعِ وَيَظْهَرُ شَيْخٌ أُخْيِلُ يَهُولُ وَيَهْدُّ وَكَأَنَّهَا عَادَ إِلَى الحَيَاةِ وَقَدْ ارْتَسَمَتْ عَلَى وَجْهِهِ سَيَا الغُضْبِ وَالمُوعِيدِ كَمَا حَدَثَ يَوْمَ أَنْ هَاجَمَ أَجَامْمُونُ بِسِيْفِهِ فِي غَضَبَةٍ عَاتِيَةٍ^(٢٠) : « أَهْكَذَا أَيُّهَا الإِغْرِيقُ ، تَبْحَرُونَ وَتَسْؤُونَ؟ هَلْ دُفِنْتُ مَعَ جِثَّتِي ذِكْرِيَّاتِ بَطُولَاتِي؟ لَنْ يَكُونَ هَذَا ! إِنْ عَلِيْكُمْ أَنْ تَقْدُمُوا بُولِيكْسِينَا قَرِيبَانًا تَتَقَرَّبُونَ بِهِ لِقَبْرِي حَتَّى تَهْدَأَ رُوحِي » .

وَمَعَ أَنَّ بُولِيكْسِينَا كَانَتْ العِزَاءُ البَاقِي لَأُمِّهَا هِيكُوبَا فَقدَ انْتَرَعَهَا رَفَاقُ أُخْيِلِ القَدَامِي مِنَ بَيْنِ ذُرَاعِي أُمِّهَا اسْتِجَابَةً لِنْدَاءِ الشَّيْخِ المَهِيْبِ ، وَاقْتَادُوا العِذْرَاءَ التَّعْسَةَ الَّتِي أَبْلَتْ شِجَاعَةً فَتَوْقُ شِجَاعَةِ بَنَاتِ جِنْسِهَا كَمَا يَذْبَحُوهَا قَرِيبَانًا عَلَى القَبْرِ المَوْحِشِ . وَلَمْ تَنْسَ بُولِيكْسِينَا نَيْلَ مَحْتَدِهَا حِينَ وَقَفَتْ أَمَامَ المَذْبَحِ الَّذِي لَا يَرِحُ وَافِدًا وَأَدْرَكَتْ أَنَّهَا لَنْ تَلْبَثَ أَنْ تَغْدُو ضَحِيَّةَ هَذِهِ الطُّقُوسِ الوَحْشِيَّةِ الَّتِي تُعَدُّ . وَمَا إِنْ رَأَتْ نِيُوتُولِيمُوسَ أَمَامَهَا شَاهِرًا سِيْفَهُ مَحْدَقًا فِي وَجْهِهَا حَتَّى قَالَتْ : « أَسْرِعْ بِسَفْكَ دَمِي العَرِيقِ فَلَنْ يَجُولَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ سَفْكَهَ شَيْءٌ ، أَعْمِدْ سِيْفَكَ فِي حَلْقِي أَوْ فِي صَدْرِي » ، وَكَشَفَتْ لَهُ مَعَ كَلِمَاتِهَا هَذِهِ عَنِ صَدْرِهَا وَعَنْقَهَا مَعًا ، ثُمَّ اسْتَطْرَدَتْ قَائِلَةً : فَلَنْ تَقْبِلَ بُولِيكْسِينَا أَنْ تَكُونَ أُمَّةً لِإِنْسَانٍ مَا ، أَتَرَكَ تَظُنُّ مِثْلَ هَذِهِ التَّضْحِيَّةِ سَتَالُونَ بِهَا رِضَاءَ الأَلْهَةِ عَلِيْكُمْ؟ كُلُّ مَا أَرْجُوهُ أَنْ يَبْقَى خَيْرٌ مَقْتَلٍ خَافِيًا عَلَى أُمِّي ، فَإِنَّ انشِغَالَ بَالِي بِهَا هُوَ الَّذِي يَهَيِّزُنِي وَيَهَيِّئُ مِنْ فَرِحَةٍ لِقَائِي لِلْمَوْتِ ، وَلَنْ يَكُونَ مَوْتِي وَحْدَهُ مَصْدَرُ عَذَابٍ لَهَا ، بَلْ أَنْ أَسِيَا وَأَكُونَ

أمة لأحدكم . ولست أبغى غير أن أهوى إلى ظلال العالم السفلى حرّة طليقة . تنحوا عنى قليلاً إذا اقتنعتم بعدالة مطلبي ، ولا تدعوا يد رجل تمسّ جسّد عذراء ، وإن من تبغون إرضاءه بذبحي أرضى له دم حُرّة لا دم أمة . ولو كانت كلماتي ستستدرّ عطف أحدكم فليذكر أن من ترجوكم ليست من أرقائكم بل هي ابنة الملك بريام . ولست أرجو غير أن تُظفر أُمّي بجنتي بعد موتى دون أن تدفع عنها فدية ، فلا تكلفوها أن تدفع لكم مكان الدموع ذهباً جزاء حظّها المنكود في إقامة قبري ، وما كان هذا أيسر عليها حين كان ذلك في مقدورها . ولم تلبث الدموع التي احتبستها في عينيها أن انهمرت غزيرة من عيون الحشد المجتمع ، حتى الكاهن نفسه لم يستطع هو الآخر أن يحبس عبراته وهو يغرس الخنجر مُثَقلاً بالندم في صدرها الناهد . وعلى الرغم من ارتجاف ساقها وسقوطها على الأرض فقد بقيت قسبات وجهها تنبئ عن شجاعتها ، كما كانت أحرص ما تكون على أن تستر جسدها عن عيون الناظرين في خضرٍ وحياء .

٤٨٠

وهرعت نساء طروادة إلى جسدها يحملنه مَعُولات مردّدات أسماء أبناء بريام وبناته الذين كم بكت لمأساتهم العيون بعد أن سال دمهم واحداً إثر الآخر ، وسرن يندبن مصير الفتاة وما أصبحت عليه أمها التي كانت إلى عهد قريب ملكة وقرينة ملكٍ عاشت رمزاً لآسيا المزدهرة ، ثم غدت بين الأسيرات أمة تعسة لاوديسيوس ، وما كان ليأسرها لولا أنها أنجبت هكتور الذي كانت بطولته الخارقة سبباً في أسر أمه واسترقاقها .

وضمت هيكونا جثة ابنتها إلى صدرها تتأملها وقد همدت بعد أن فارقتها روحها الباسلة وانخرطت في البكاء من جديد ، وانهمرت دموعها ثانية بعد أن انهمرت مرات حزناً على زوجها وأبنائها ووطنها فانسكبت على جرح ابنتها ، وغطت قبلاها فمها وضربت صدرها وما أكثر ما ضربته حسرة على موتها السالفين ، ولطخت شعرها الأشيب بدم ابنتها المتخثر ، وخمشت جسدها بأظافرهما وأخذت تصيح : « ابنتاه يا ذروة شقاء أمك ، ماذا بقي لي بعدك يا ابنتي ، ها هو ذا جسديك مُسجى أمامي هامداً . وإن أتأمل جرحك الذي هو جرحي . يا ويحى هل كان قدراً محتموماً على أن أفقد أعزائي جميعاً قتلى ؟ لقد كنت أحسب أدنى ما أحسب أنك لن تموتى بنصل خنجر إذ كنتِ أنثى ، غير أنك وقعت فريسة له ضحية ذلك الوغد الذي قضى على إخوتك جميعاً : أخيل مدمر طروادة الذي تركني تكلّي . لقد ظننت ساعة مرّفته سهام باريس وفويبوس ألا خوف منه بعد ، ومع ذلك فقد كان على أن أخشاه ، فرماده — رغم انتشاره في قبره — يثور في وجهي ووجه أسرتي ممزوجاً بالعداء لنا . أتأني قد أنجبت أولادى كي أفدّمهم فريسة لحفيد إياكوس [أخيل] ؟ وها هي ذى طروادة العظيمة قد صارت دِمناً وأطلالاً ، وحلت بدولتنا كارثة مروعة وانتهت إلى أبشع نهاية ، ثم إن الكوارث ما لبثت تلاحقني ، وكأنما يرى في الأعداء ما تخلف من طروادة ، أنا التي كنت منذ عهد قريب عظمى نساء وطني وزوجى وأبنائي وبناتي وأزواج بناتي وزوجات أبنائي . ها أنا ذا اليوم أساق إلى المنفى تعسة مُتزعّجة من بين قبور أسرتي ، هدية إلى پينلوپي التي ستناولني الصوف لأغزله وهي تشير إلى أمام نساء طروادة قاتلة : ها هي ذى أم هكتور الشهيرة زوجة الملك بريام . ابتناه يا من فقدتها بعد أن فقدت الكثيرين قبلها ، وبما من كنت سلوى أمك الوحيدة ، لقد ذبحوك على قبر

٥٠٠

عدونا . أتراني قد حملتُ بك كي أقدمك قرباناً لعدونا ؟ ما أتعس قلبي ، كيف أستبيح لنفسى البقاء من بعدك والتواني عن اللحاق بك ، ولم أعيش وقد أثقلتني السنون على امتدادها . أيتها الألهة القساة القلوب لماذا تبطئون بموت امرأة عجوز عاشت طويلاً إلا إذا كان مقدراً لي أن أحيأ لأشهد مزيداً من الموت والشقاء ؟ من كان يظن أن بريام سوف يكون محظوظاً بعد دمار طروادة ؟ إنه لا شك محظوظ لأنه مات ولن يشهدك قتيلة يا ابنتي ، فلقد فارق الملكُ والحياة معاً ، ألا ليتهم يمنحونك مراسم جنازية تليق بابنة ملك عظيم ! ويا ليتهم يوارون جثمانك ضريح أجدادك الشامخ ! لا ، لن تسعدني بهذا يا ابنتي فليس لبيتنا أن يظفر بهذا الشرف ، ولن يكون لك قربان سوى دموع أمك وحَفْنَةٌ من ثرى غير ثرى مُنْشُتِك . لقد فقدتُ كل شيء ، ولم يبق لي ما يجعلني أقبل الحياة أمداً آخر سوى طفل قريب إلى قلبي هو بوليديوروس الذي كان أصغر أبنائي وأصبح الآن وحيدى ، وكنا قد بعثنا به إلى شواطئ بعيدة ليكون في جحى ملك طراقيا^(٢١) ولكن لم أضيع الوقت سدى ؟ إنه لأجدر بي أن أغسل جرحك الذى فتك بك ووجهك الملطخ بدم أهدرته يد لا تعرف الرحمة .

وقامت المسكينة بعد كلماتها هذه تمشى بخطى أثقلتها الشيخوخة تقصد الشاطئ وهى تشدّ شعرها الأبيض ، وتردد : « أعطوني إناء يا نساء طروادة » . ومالت لكى تغترف من مياه صافية فإذا هى تبصر جثة بوليديوروس وقد ألقت بها الأمواج على الشاطئ ، وشاهدت جراح جسده بفعل خناجر طراقيا . وبينما انطلقت نساء طروادة فى العويل أصيبت هيكونا بالخرس من فرط كربها ، فقد اختنق صوتها وجفت الدموع فى مآقيها وجمدت فى وقتها وكأنما تحولت إلى كتلة من حجر الصوان ، وثبتت نظراتها وهى تحملى فى الأرض وأخذت تقلّب وجهها المتغضّن القسما بين السماء تارة وبين وجه ابنتها تارة أخرى ، ثم تطلّعت إلى جراحه وأخذت رغبة الثأر تحتدم فى أعماقها والغضب يغلى فى صدرها حتى إذا بلغ غضبها عنفوانه صمّمت على الانتقام وكأنها ما تزال ملكة ، وانشغلت بالألّ بالوسيلة التى سوف تثار بها ، وبدت كاللبؤة التى انتزع منها شبلها الرضيع تهم على وجهها فى كل مكان تتبع آثار أقدام من انتزعوه وتطارده عدوا لا تعرفه . وهكذا كانت هيكونا أسيرة مزيج من الحزن والحنق ، أنسيّت شيخوختها ولم تنس شجاعته ، فقصدت بوليمستور الشقيّ الذى ارتكب تلك الجريمة الشعة ، وطلبت لقاء الملك بدعوى أنها تريد مكاشفته بأمر كنز من الذهب أخفى من أجل ابنتها فصّدقها الملك الطراقى الذى أعماه جشعه الفطرى ، فجاءها وحده وتلطف معها فى الحديث كى يمكر بها وهو يقول : لا تضيعى الوقت يا هيكونا وأعطني كنز ابنك وأقسم بالآلهة أنى سأحفظ به له ، إلى كل ما أعطيتنى إياه فى الماضى من أجله .

ومضت تحدجه بنظرة عابسة وهو يتكلم ويقسم حائثاً إلى أن فار غضبها المكبوت ، فاستغاثت بحاشيتها من الأمهات الأسيرات اللاتي أمسكن بالملك فغرست هى أصابعها فى عينيه الغادرتين واقتلعتها من محجريها ، وقد ضاعف حزنها من قوتها فدسّت أصابعها الملوثة بدمه الأثم مرة أخرى فى محجرى عينيه اللذين لم يبق منها شيء وانطلقت تعبت بها .

وحين سمع أهل طراقيا بما حلّ بملكهم تدافعوا يرحمون هيوكوبا الطروادية بالأحجار ويرشقونها بالسهام ، وكانت كليا أصابها حجر أو سهم فتحت فمها ودمدمت به دون أن يصدر عنها غير صوت أشبه بنباح الكلاب فظل المكان الذى شهد هذه الأحداث معروفاً باسم مقبرة الكلبة^(٢٢) . وأخذت هيوكوبا تهيم على وجهها في حقول طراقيا وتعوى عواء حزينا كليا ألحّت عليها ذكريات شقائها ، إلى أن أثار مصير هذه الملكة التعسة عطف شعبها الطروادى وأعداءها الإغريق والآلهة أنفسهم ، فإذا چونوزوجة چوييتر وأخته تعترف بأن هيوكوبا لم تكن تستحق هذا الشقاء كله .

ممنون

لم تجد أورورا ربّة الفجر فُسحة من الوقت تُشغّل فيه بمآسى طروادة وهيوكوبا على الرغم مما كانت تضمّره من ميل إلى انتصار جيش طروادة^(٢٣) ، فقد استحوذ عليها شجن دفين لمصرع ابنها في سهول فريجيا ، وقد رأته وهى تتلّغ بردائها الزعفرانى مصاباً برمح أخيل ، وعندها شحب اللون الوردى الذى يكسو ساعات الصباح واختفى نور النهار وراء ستار من السحب . وحين وُسّد على المحرقة لم تقو على أن تُلقَى نظرة عليه ، وما منعها كبرياؤها من أن ترمى بين يدى چوييتر مشوشة الشعر تبكى وتُعول متوسّلة قائلة : « أدركْ أُنّى أقلّ الآلهة شأنًا فى سناواتك الذهبية اللون ، وما شُيد لى فى العالم غير معابد قليلة ، ولكنى مع هذا لازلت إلهة ، وما جئت طمعاً فى محراب يُقام لى أو هيكل تتوهج فيه النار ، ولا رغبة فى الظفر بيوم تُقدّم لى فيه القرابين . لم أجيء لهذا وإن كنت أهلاً له على الرغم من ضعفى وأنوثتى ، فإنا مع كل فجر جديد أؤدى لك عملاً جليلاً بفصلى النهار عن الليل . وما جئتك أطلب حقاً فى تبجيل وتكريمى فإن ما أنا فيه لا يتيح لى هذا ، وإنما جئتك لأننى فقدت ابنى ممنون ذلك الفتى الذى امتشق الحسام من أجل عمه [پريام] فى شجاعة لم تُجده شيئاً ، فلقد قُتل بسهم أخيل وهو ما يزال فى زهرة العمر . إننى أضرع إليك يا ملك الآلهة أن تمنحه قدرًا من التكريم كى تحفّف من كارثة موته علىّ وكى تسكّن لوعة لأم قلبها جريج » ، فأوما چوييتر برأسه استجابة لمطلبها ، وسرعان ما تداعت محرقة ممنون العالية وأنت عليها السنة اللهب المندلعة وهى تقذف بحمّم من الدخان الأسود إلى أعلى حتى أظلمت السماء ، فكان مثلُ هذا الحَمَم المتصاعد مثل الضباب المتصاعد من الأنهار فيحجب أشعة الشمس من النفاذ ، وما لبث أن تحول رماداً أسود فى الأفق واستحال جسداً له من النار الدفء والحياة ، وخلعت عليه خفته أجنحة يطير بها ، وأصبح بادىء ذى بدء شبيهاً بالطير ، ثم ما لبث أن صار طيراً حقيقياً يهزّ ريشه فيثير صخباً مدوّياً . وسرعان ما انضم إليه عدد لا حصر له من طيور مثيلة وُلدت مثله مما وُلد منه وملأت أجواز الفضاء بخفق أجنحتها ، وقد حلّقت حول المحرقة مرات ثلاث وهى تولول نائحة فى كل مرة . وحين حلّقت للمرة الرابعة انقسمت إلى سربين انطلقا فى اتجاهين متضادين ، ثم أقبلا يهاجم أحدهما الآخر فى غضب وشراسة تجلّت فى تمزيق أجنحة بعضها البعض وصدورها بمناقيرها ومخالبها المعقوفة ، ثم تساقطت أجساد هذه الطيور التى تنتمى لأسرة واحدة وكأنها قرابين تُقدّم إلى الرماد التبقى من جثة البطل الذى إليه خلقها ،

٥٨٠

٦٠٠

والتي أطلق عليها اسمه ، إذ سميت بالمنونيديس [أى آل ممنون] . وما زالت كلها أكملت الشمس دورة في أبراجها الاثني عشر تنهض فتستأنف قتالها ثم تموت من جديد تكريماً لنتيجها . وعلى حين كانت مأساة هيوكوبا بنت ديماس التي لها عواء كعواء الكلب تثير شفقة بعض الآلهة ، بقيت مأساة أورورا حبيسة في صدرها . وما تزال أورورا تدرف دموع الأم الآسية فتتناثر على الأرض قطرات ندى .

أينياس عند أنيوس

لم تيشأ الأقدار أن تنهار كل آمال طروادة مع انهيار أسوارها ، فقتة حمل البطل أينياس بن فينوس إلهة كثيراً تماثيل آلهة المدينة المقدسة ، كما حمل معها أباه الذى يشاركها قدسيتهما ، ولم يحمل أينياس شيئاً آخر مما يملك وسار بجانبه ابنه الحبيب أسكانيوس ، ثم أبحر من ميناء أنتندروس فأزأ بسفنه عبر البحار مخلماً وراءه ديار طراقيا الأئمة الملطخة بدماء پوليدوروس ، وظلّت الرياح المواتية تدفع به حتى بلغ مع رفاقه جزيرة ديلوس حيث ولد أبوللو . وكان أنيوس ملكها وكاهنها معاً يخدم شعبه وإلهه أبوللو بهمة وورع ، ففتح داره ومعبده لأينياس وطاف معه المدينة يذله على معالمها ومعبدها المشهور وجزى الشجرتين اللتين احتضنتهما لاتوفى وضعها جثنيها^(٢٤) . وبعد أن نثر الطرواديون البخور على النار وسكب النبيذ على البخور حسب العرف المتبع وحرقوا أحشاء البقرات الصغيرة الذبيحة عادوا إلى القصر الملكى حيث أعدت لهم القُرُش الثمينة الطنافس ، فأكلوا من خيرات سيريس وشربوا من نبيذ باكخوس . وعندها أخذ أنخيسيس الورع يقول : « سيدى كاهن فويوس وخليله . أترانى مخطئاً إذا قلت إنه كان لك ولد وبنات أربع حين زرت مدينتك للمرة الأولى ؟ » ، فهز أنيوس رأسه المعصوبة بشريط أبيض يحفّ بصدغيه وأجاب في حزن واكتئاب : « لا لست مخطئاً أيها البطل النبيل ، فقد كنت يوم رأيتى أبا خمسة أولاد وأكاد اليوم أعيش عروماً منهم ، فهكذا تتلاعب الأقدار بحياة البشر . وما يجدينى أن يعيش ابنى بعيداً عنى في بلاد أندروس التي سُميت باسمه ويحكمها نائباً عنى . وإذا كان أبوللو إله ديلوس قد وهب ابنى ملكة التنبؤ فقد منح الإله باكخوس بناتى ملكات أعلى شأنًا مما توقعن ، فما تلمس أيديهن شيئاً إلا تحوّل غللا أو جداول نبيذ أو زيت زيتون ، فكنّ بذلك مورد رزقى وأى رزق ! غير أن أجاممنون الذى نهب مدينتكم انتهت إليه عجائب بناتى فبادر ينتزعهن من حضنى . وهكذا ترون أن الأعاصير التى أتت عليكم قد أصابتنا ببعض شرورها . وقد أمر أجاممنون بناتى بأن يمددن أسطول الإغريق بالطعام والشراب ، غير أنهن جميعاً أبين في إصرار ولذدن بالفرار ، واستطاعت اثنتان منهن بلوغ جزيرة يوبويا ، ولحقت اثنتان بشقيقتهما في أندروس فاندفع وراءهما جيش العدو متوعداً بالحرب شقيقهما إن لم يُسلمهما إليه . وغلبت رهبة العدو في نفس الملك حبه لشقيقتيه فأسلمهما لمصريهما . ألا فلتغفر له خوّره فلم يكن إلى جانبه هكتور أو أينياس يدافعان عن أندروس كما دافعا عن طروادة التى قاومت عشر سنين . وأخذ الإغريق يُعدّون الأغلال لكى يقيّدوا بها أيدي الأسيرتين فإذا هما ترفعان ذراعيهما صوب السماء صائحتين في ضراعة : « امدد لنا يد العون » يا أبانا باكخوس . »

واستجاب باكخوس الذى منحها موهبتها فأمدّها بعونه ، هذا إذا أسمى التحول من هيئة إلى أخرى عونا ، وما أدرى كيف فقدتا شكليهما ، ولست إلى اليوم قادراً على أن أصف ما وقع لهما ، وما أعى غير تلك الكارثة التى حلت بي منذ أن بنتت لهما أجنحة ورأى الناس مكانيهما يامتين بياضين الثلج ، هذا الطير الأثير لى زوجتك فينوس» (٢٥) .

وأضى الرفاق الوقت خلال الوليمة يسرون عن أنفسهم بهذه القصة ويقصصون أخرى مماثلة إلى أن انتهوا من طعامهم وأووا إلى النوم ، واستيقظوا مع الفجر يستشيرون عراف فيويوس الذى أمرهم بالبحث عن أمهم العريقة وعن الشواطيء التى عليها نشأت أسرهم .

وودعهم الملك مقدماً لهم ما غلا وعزّ من الهدايا ووهب أنخسيس صولجانا ومنح حفيده عبادة ٦٨٠
وجعبة سهام ، وأسلم أينياس كأساً ثمينة كانت قد آلت إليه من ضيفه ثريسيس الذى كان يسكن طيبة ، وكان صائغها الكون من هيلاي قد نقش عليها نقوشاً فصل فيها قصة طويلة تصوّر مدينة ذات أبواب سبعة تدل أوصافها على أنها مدينة طيبة (٢٦) ، وصوّر أمام سور المدينة مشهداً جنائزياً بمواكب ومقابر ومخارقه المشتعلة وكذا الأمهات العاريات الصدور والهواء يعبث بشعرهنّ ، وحوريات البرّ والبحر باكيات شاقيات جفاف ينايحين ، وشجرة جرداء عارية ، ومجموعة من الماعز تشمّم التربة الصلبة التى جمّدتها حرارة الشمس . وصوّر الفنان وسط مدينة طيبة ابنتى أوريون (٢٧) وقد أمسكت إحداها بسكين تقطع بها عنقها العارى فى شجاعة ليست للنساء ، بينما أغمدت الثانية طرف مغزلا فى قلبها فماتت شهيدة وطنها بسلاح ليس فى الحقيقة سلاحاً . ثم صوّر جسديهما محمولين خلال المدينة فى موكب جنائزى مهيب يمضى إلى المحرقة التى ستلتهمها نيرانها أمام جماهير المشيعين ، وفجأة ينهض من رماذ العذراوين شابان اشتهدا فيما بعد باسم « التاجين » (٢٨) ، وتقدّما يقودان الموكب الجنائزى لرماد جتى أميها ، وكان سرّ ميلادها الحرص على ألا تنقطع سلالة ابنتى أوريون (٢٩) بوفاتها . وتنتهى نقوش هذه الوجوه البراقة فوق البرونز العتيق لشهد على حافة الكأس شريطاً من زخارف أوراق الأكانثا البارزة المذمّبة . وقد تقبل الطرواديون هذه الهدايا وقدموا لقاءها هدايا لا تقل عنها قيمة ، منها صندوق بخور للكاهن ، وصحن للقربان وتاج مرصع بالذهب والجواهر .

وحين ذكر الطرواديون أنهم ينحدرون من سلالة تيوكر لجأوا بسفنهم إلى جزيرة كريت ، إلا أنهم لم يقروا على تحمل قسوة مناخها أمداً طويلاً فأبحروا من هذه الجزيرة ذات المدن المائة أملاً فى بلوغ شواطيء أوزونيا (٣٠) [إيطاليا] ، غير أن أعاصير قوية عرضت لسفن الأبطال فالتجأوا إلى مواء جزر الستروفاديس (٣١) التى لم يجدوا فيها المأوى الآمن ، إذا اعترضهم ذلك الوحش الممتح أيلو الذى أفزعهم فولّوا يعبرون مواء دوليخيون وإيثاكا وساميه وديار نيريتوس حيث مملكة أوديسيوس المخالط ، وشاهدوا عن بُعد أمبراكيا التى تنازع الآلهة وهرقل السيادة عليها (٣٢) . كما رأوا على شاطيء أكتيوم تلك الصخرة التى مُسّخ إليها من حَكَم لصالح هرقل ، وهذه الصخرة قائمة اليوم بمعبد أبوللو (٣٣) ، كما مرّوا بدودونا

ذات أشجار البلوط الناطقة^(٣٤) ، وخلصان خاؤونيا التي استطاع أن يُقِلَّت من حريقها الذي أشعله الأثمون أبناء ملك مولوس بأجنحتهم التي ظلوا بها محلقين طويلاً في السماء^(٣٥) .

- ٧٢٠ ثم أبحروا إلى أرض الفاياكين^(٣٦) ذات بساتين الفاكهة الغنية بالشار ، وأرسوا بمدينة بوثروتوم بمقاطعة إيروس التي بنيت على غرار طروادة ، وكان يحكمها كاهن فريجيا هيلينوس بن بريام الذي كان عراًفاً لا تخيب له نبوءة ، وحين عرفوا منه مصيرهم ومستقبلهم أبحروا إلى صقلية ، وهي جزيرة تمتد منها ثلاثة السنة داخل البحر ، وألها يواجه الجنوب المطر ويسمى پاخينوس ، وهبَّ نسيم الغرب العليل على ثانيها المسمى ليليايوم^(٣٧) ، ويتطلع ثالثها وهو بيلوروس إلى الشمال وإلى كوكبتيّ الذيين الأصغر والأكبر اللتين لن تمهبطا أبداً من سائهما فتطويها صفحات الماء . واقترب الطرواديون من هذا اللسان واستطاعوا بما لمجاديهم من قوة وبما أمدّمهم البحر من عون أن يبلغوا عند حلول المساء شاطئاً زانكليه الذي كانت تهده من الجانب الأيمن صخرة سكيللا ومن الجانب الأيسر صخرة خاربيديس النهمة التي لا تنفك تلتهم السفن ثم تقيتها . أما سكيللا التي تلتف حول خصرها كلاب مفترسة فلها وجه فتاة ، وكانت قبل فتاة حقاً ، كما تروى قصص الشعراء وما نظنها غطّطه فيها تروى^(٣٨) ، وكم من خطاب – كما قيل – طلبوا يدها لكنها رفضتهم جميعاً ، وكم كانت تختلف إلى حوريات البحر الهائيات بها وتقصّ عليهن عزوفها عن حبّ الفتیان . وفيها كانت يوماً جالسة مع الحورية جالاطيا تمسّط لها شعرها إذ تهتدت جالاطيا قائلة : « حسبك أنك فتاة يتودّد إليك شبان لم تحلّ قلوبهم من الرحمة وتستطيعين صلّهم دون أن يُنال منك بجزء . أما أنا ابنة نيروس فعلى الرغم من حماية إخوتي لم أستطع الإفلات من مطاردة الكيكلويس إلا بعد أن دفعت من الألم والحزن ثمناً غالياً . وخنقت الدموع كلمات جالاطيا ، فأخذت سكيللا تمسحها بأناملها البيضاء بياض البرد وتسرى عن الحورية قائلة : « يا أحب الناس إلىّ خفّني عن نفسك وإرولي قصتك ولا تخفي عني سرّ حزنك فما أولاني بثقتك » ، فبدأت الحورية تقص قصتها على ابنة كراتاييس قائلة :

أكييس وجالاطيا وپوليفيموس

- « على الرغم من أن أكييس بن فاونوس من حورية البحر سيثاوس كان محبوباً من أبويه ، فإن حبي له كان يُرى على جبهها له . فلقد كان وحده محطّ عواطفى ، وكان وسيماً بلحيته النابتة التي كانت أشبه بالزغب على وجنتيه ولم يكن قد تجاوز السادسة عشرة من عمره . وبينما كنت أتلمّسه أنا أتى ذهب كان الكيكلويس [السيكلويس] پوليفيموس يتبعنى أنا ، ولو سألتنى أيها كان أشدّ ، حبي لأكييس أم كراهيق لبوليفيموس ما ملكت أن أجيب ، فلقد كانت العاطفتان متناظرتين حدّة . ما أقوى سلطانك يا فينوس الحانية إذ جعلت من پوليفيموس كائناً يتذوّق الحب ، وهو ذلك الوحش الذي يثير الرعب حتى في الغابات الوحشة ، ويودى بحياة أى طائر . يقع نظره عليه ، ويزدرى جبل أوليمپوس ومن عليه من الآلهة ، فأصبح أسير شهوة عارمة واشتعل حبه فأنساه قطيعه والكهوف التي يأوى إليها . وكم حاولت

يا پوليفيموس أن تهذب من هيتك لتنال إعجابي ، وكم مشطت شعرك المنفوش بالمذرة وحلقت بالمنجل
لحيتك غير المشدبة ، وكنت تتخذ من صفحة الماء مرآة تتأمل فيها وجهك القبيح تحاول تغيير ملامحه ،
وأنسيت وحشيتك وظمأك إلى الفتك بالناس وسفك دمائهم ، فكنت تترك السفن تروح وتغلو لا تمسها
بضرر . وكان تيليموس بن يورموس الذي لم تخطيء نذره قط قد بلغ وقتذاك صقلية خلال إحدى جولاته
وصعد سفح جبل إتنا لزيارة پوليفيموس المروّع ونصحه قائلاً : « كن على حذر فسوف يقتلع أوديسيوس
عينك الوحيدة وسط جبينك » . وعندها ضحك العملاق وهو يقول : « إنك لمخطيء يا أكثر العرافين
حقاً ، فثمة فتاة سبقته إلى استلابها » . وهكذا ذهبت نصيحة تيليموس سدى ، فلقد امتنها پوليفيموس
ولم يلق بالألإ إليها ، وانطلق بخطى واسعة فوق كثبان الشاطيء حتى أدركه التعب فعاد إلى ظلمات كهفه .

وصعد الكيكلوپيس في تلّ يمتد مسافة طويلة على ساحل البحر في شكل لسان ترتطم به الأمواج من
كل جانب ، وجلس على القمة وبين يديه قطع أغنامه ، ووضع إلى جانبه جذع الصنوبر الطويل طول
صاري السفينة ، والذي كان له عصا يعتمد عليها ، وأمسك بالمصفار الرعوى المكوّن من مائة قصبية ضمّ
بعضها إلى بعض وراح ينفخ فيها نغماته الرعدية فردّدت الجبال والبحار صداها . وكنت أنا مسترخية في
أحضان أكيس وراء صخرة وتسمّعت إلى كلمات الكيكلوپيس التي يتغنّى بي فيها ويشبّب بقوله : « لانت
يا جالاطيا أنصع بياضاً من الورود البيض ، وأجمل من سائر زهور المروج ، وأرق رشاقة من شجر الحور ،
وأشدّ إشراقاً من البُلُور ، وأخفّ من الحَمَل اليافع ، وأنعم ملمساً من الأصداف التي يغسلها البحر
دوماً . يا من أنت أكثر دفئاً من الشمس في الشتاء وأكثر حناناً من الظلال في الصيف ، وأحل مذاقاً من
الفواكه ، وأكثر بهاء من شجر الدّلب الشامخ ، وأشدّ تالقاً من الثلج ، وأشهى من الكرم الناضج ،
وأملس من زغب البجعة وأطرى من اللبن الخائر . لو لم تهري منى لكنت أروع مجالاً من الحديقة الغناء
بجدالها ، لكنك يا جالاطيا أعصى نفوراً من الثيران الجامحة ، وأشدّ إباءً من البلوط المعجوز ، وأكثر
خداعاً من البحر ، وأشدّ مراوغة لليد من غصينات الصفصاف ومخاليق الكروم البيضاء ، وأشدّ صرامة
من هذه الصخور ، وأعتى ثورة من ذلك النهر ، وأكثر صلفاً من الطاووس يتبه زهواً ، وأقسى من النار
وأخشن من نبات الشوك ، وأكثر توخّشاً من أم الدبّ ، وأصمّ من الحفصم ، وأخطر من الأفعى حين
تطوؤها قدم عن غير قصد ، وأخيراً فإن عيبك الأكبر الذي أود أن أبرئك منه هو أنك أسرع في العدو من الوعل
الذي تطارده كلاب الصيد بنباحها ، بل أسرع من الريح العاصف . أه لو كنت تعرفيني حق المعرفة ، إذن
لأسفت على هربك منى ولندمت على تمنّعت عني ، ولحاولت الإستمساك بي ، فإنا أملك في سفح الجبل
غارا تصدّره صخرة نابضة بالحياة على شكل قبولا تنفذ عبره حرارة الشمس ولا برودة الشتاء ، وعندى من
الأشجار ما تميل غصونها من ثقل ثمارها ، ومن الكروم ما يزحف حاملاً عنقيد العنب الشبيه بالذهب
والأرجوان . لقد أدخرت ذلك كله لك ، ويبيديك تستطيعين قطف ثمار الفراولة الطيبة المذاق في ظلال
الغابات ، وثمار الكرز والبرقوق في الخريف ، ولست أقصد البرقوق الداكن وحده ، فهناك أيضاً نوع
أخضر ضارب إلى الصّفرة يشبه الشمع الغض . ولو اتخذتني زوجاً لذّقت الكستناء كما تشاءين ، ولنعمت

٧٨٠

٨٠٠

- بشار البطيخ . وهنا تصبح كل شجرة لك ، وتموزين كل هذه الأغنام التي ترين ، ولي كثير غيرها ترعى في الوديان أو تميم في الغابات أو تُشدّ في حظائري . ولو سألتني ما استطعت إحصاء قطعاني ، فالفقر وحده هو من يحصي أغنامه ، وإذا شئت معرفة جاهلها فلا تُركني لحديثي عنها بل تعال هنا لتشهدي بنفسك كيف تعجز قوائمها عن حملها لامتلاء أئذائها . وقد جمعت التناج الجديد في حظائر دافئة ، وجعلت لكل من الماعز والحملان حظائره المستقلة ، وما أغزر اللبن الأبيض بياض الثلج عندي ، أحفظ بعضه للشرب وأحمر الباقي ليخثر . ولتسأل إن شئت عن أليف الحيوان فالجميع رهن إشارتك ، ولن أقدم لك ما يسهل الإمساك به من الحيوانات الأليفة كالوعل والأرنب أو الماعز والبيام ، أو صغار الطير فوق غصون الشجر ، بل سأقدم لك توأمين من صغار الذب الوحشي متشابهين يستحيل عليك تمييز أحدهما عن الآخر اقتنصتهما فوق الجبل وسأقدمهما لك كي تأنسى بهما ، وقد قلت لنفسى حين عثرت عليهما فلا أحفظهما من أجل حبيتي . ناشدتك يا جالاطيا أن تطلّي بوجهك المشرق فوق البحر الأزرق ، هلمّي ولا تزدرى هداياي . وليس يخفى على شكل ومع هذا فلقد رأيت صورق منعكسة على صفحة المياه الصافية وأعجبتني . انظري إلى طول قامتي ، وما أظنّ جوبيتر يفوقني طولاً ، [هذا الذي لم أسمع إلا منكم أنه حاكم العالم] ، ٨٢٠ وخصلات الشعر الغزير تحتضن قسبات وجهي الصارمة وتلقى على كفتي ظلالها وكأنها دغل كثيف . ولا تعدّيني دميماً لغزارة الشعر الحشن الذي يكسو جسدي ، فكم تلبو الشجرة قبيحة حين تكون جرداء ، والجواد لا يحظى بالإعجاب ما لم يُغشّى عنقه عُرفٌ غزير ، ولا تجمل الطيور إلا بريشها ولا الأغنام إلا بفرائها ، وليس أنسب للرجل من لحية تملاً وجهه وشعر غزير يغشّى جسده . حقاً ليست لي إلا عين واحدة وسط جبيني لكنها عين تشبه درعاً عظيماً ، وماذا في ذلك ؟ أولاً تعانق الشمس بنظرها الكون كله من علياء سهاها الفسيحة وما لها غير عين واحدة ، هذا إلى أن أبي هو ملك البحار التي تحيّن فيها^(٣٩) ، وسوف يصبح حملاً لك إذا تزوّجتني . فليس في العالم كله من أسجد أمامه سواك ، أنا من ازدرى جوبيتر والسماوات والصواعق النافذة ، أخشاك يا أجمل بنات نيربوس ، ففضبك أشد هولاً من البرق . وقد ٨٤٠ احتمل ازدرائك لي لو كنت تزدرين الجميع ، ولكن لماذا تصدّين الكيكلويس وتمنحين حبك لأكيس ، ولماذا تؤثرين عناقه على عناقى ؟ فليزُهُ أكيس ما شاء له الزهو وما شئت أنت يا جالاطيا . ليكن ، غير أنه لأول وهلة سيعلم أن قوق كفاء ضخامتي . وسوف أنتزع أحشاءه حياً وأمزّقه ثم أنثر أطرافه في الحقول . تُراه هل يستطيع بعد ذلك أن يقترن بك ، إنني أحترق عشقاً ولهب الهوى يلذعني ويضحى أشدّ لذعاً حين أكون موضع ازدرائك وكأني أحمل في أحشائي بركان إتنا . ومع هذا فانت لا تبالين بي يا جالاطيا .

وبعد أن فرغ بوليفيموس من هذه المناجاة التي ذهبت أدراج الرياح وقف كالثور الذي جُنّ بفقد بقرته ، وأخذت عينيّ تتبعه وهو لا يطيق الوقوف ساكناً بل يهيم على وجهه في الغابات والمراعى التي يالفها . وإذا بصُرّ العملاق يقع علينا فجأة ونحن لا ندرى ما سيعرض لنا من خطر ، وإذا هو يصبح في وحشية : « ها أنذا قد رأيتكما ولسوف أجعل عناقكما هذا آخر عناق لكما » . وكان صوته راعداً اهتز له بركان إتنا نفسه ، وأسرعت بالغوص في المياه فزعة بيننا استدار أكيس بن سيبايشوس هارباً وصاح بي

مستجداً : « عونك يا جالاطيا ، عونك يا والدي ، ائذنا لي في أن أدخل مملكتكما ، فإن لم تفعلنا لحق بي الموت » . وانطلق الكيكلوبيس يطارد أكيس بعد أن انتزع كتلة ضخمة من سفح جبل وقذفه بها ، ومع أن طرفاً منها هو الذي مسّ أكيس إلا أنه كان كافياً لسحقه ، وما نملك غير ما تتيحه الأقدار فلقد منحته الأقدار طبيعة جدّه^(٤٠) . كان الدم يسيل أرجوانياً أسفل كتلة الصخر الضخمة التي سقط تحتها ، وما هي إلا لحظات حتى بدأ الدم يشحب ، وشيئاً فشيئاً ظهر نبع صافٍ من المياه ، وتفتت الصخرة وانشقت وانبتقت من شقوقها سيقان غاب طويلة مياسة . وتفجرت المياه صاخبة من جوف الصخرة . وفجأة ، ويا لها من معجزة ، برز شابٌ من النبع إلى خصره وفي جبهته تاج من سيقان نبات السُّمار المجدول حول قرنين حديشيّ النبتة ، ولو لم يكن ما بدا من قامته طويلاً ولو لم يكن لأزوردي الوجه لكان هو أكيس نفسه ، ومع ذلك ومع هذا الشكل الجديد فقد بقي أكيس هو هو رغم تحوُّله إلى نهر ، وصار هذا النهر يحمل اسم أكيس .

جالاوكوس

٩٠٠ و فرغت جالاطيا من حديثها وتفرقت حوريات البحر سابحات في المياه الساكنة إلا سكيللا ، فقد عادت مسرعة إلى الساحل لا تجرؤ على البقاء في عُرض مياه البحر ، وكانت تحظّر عارية على الشاطئ تارة ، وكلما وجدت ظلمة بمعزل استرخت في ظلها تارة أخرى ، وإذا هي تستمع فجأة إلى صرخة مدوية تنطلق من أعماق البحر ، ثم أبصرت جلاوكوس الذي لم يسكن البحر إلا منذ قليل — لأنه قد مُسخ في أنثيدون القريبة من بحر يويويا — يشقّ الموج قادماً تجاهها^(٤١) ، حتى إذا ما رآها تجمّد في مكانه وقد اضطرمت في نفسه لهفة عارمة وتحرك شبقه ، فناداها بما عن له من كلمات ليصدّها عن المضى هاربة منه لكنها أصمّت سمعها ، وكانما أمدها الخوف بأجنحة طارت بها حتى أدركت قمة الجبل الشامخ المكدّسة بالغابات بجوار الشاطئ حيث امتدت أمامها رقعة فسيحة من المياه وجدت فيها مأوى آمناً استقرت فيه ، ولم تدر إن كانت ترى أمامها وحشاً أو إلهاً ، وأخذت تتأمل في دهشة لون بشرته وشعره الذي يغطي منكبيه وينسدل على ظهره وذيل السمك الذي يشبه تحت خصره . ولمحها جلاوكوس متأملة ، فاعتمد على صخرة قريبة وقال لها : « لست غولاً يا صبيبة ولا وحشاً مفترساً ، وإنما أنا أحد آلهة البحر ، وليس سلطان على البحر بأقل من سلطان تريتون أو پروتيوس أو پالايون بن آتاماس ، غير أنني كنت في الماضي إنساناً أعشق البحر عشقاً شديداً وكان عملي موصولاً به ، وكنت أجتذب الشباك مليئة بالأسماك تارة أو أجلس على صخر الشط أتصيد السمك بالشص . وكان على مقربة من المكان الذي أصيد فيه مرج أخضر يكتنفه البحر من جانب وتتفسح عند جانبه الآخر مراعي بكر لم تطف بها قطعان الأبقار الطويلة القرون ولا الأغنام المسالة ولا الماعز الشعشاء الوبر ، ولم يخلق بها نحل يمتص زهورها ليحيلها شهداً ، ولم تُجدل من أغصانها الأكاليل لتجلل بها هامات الضيوف خلال الولايم ، ولم تتناولها يدٌ بقضبٍ عُشبها بالمنجل الطويل ، وكنت أول من افترش هذا العُشب وقد جلست يوماً أجفّف الشباك المبتلة وأصفّ فوق العُشب السمك الذي جمعته

- لأحصى منه ما قذفت به الصدفة في شباكى أو ما أوقعته السداجة في شصى المعقوف . ولك أن تظنى أنى
أختلق ، ولكن فيم يفيدنى الاختلاق ؟ فما كادت الأسماك تفترش العشب حتى أخذت تتلوى وتضطرب
وتسبح فوق اليابسة وكأنها وسط البحر ، وبينها كنت ذهلاً وأنا أشهد ما يقع إذا الأسماك تنزلت نحو البحر
٩٤٠ وتغوص ثانية بين الأمواج التى كانت تحيا بها من قبل تاركة الشاطئ والصائد . وقد جمدت فى مكانى
مذهولاً ألتمس تفسيراً لما حدث وأتساءل عن سر هذه الظاهرة ، أهى إرادة إله أم فعل عصابة العشب ،
وقلت لنفسى « ترى أى عشب هذا الذى يملك تلك القدرة ؟ » . واقتلعت بعض أعواده وعضبتها
بأسنانى ، ولم تكد عصارتها الغريبة تساب فى حلقى حتى أحسست بقلبى يتنفض داخل صدرى وإذا
طبيعتى تأخذ فى التنغير ، ولم أقاوم طويلاً فصحت قائلاً : « وداعاً أيتها الأرض ، فلن أعود إليك مرة
أخرى » . واندفعت إلى المياه حيث رحب بى آلهة البحر وتلطفوا بى فأجلسونى بينهم فوق منصة السلطة ،
ثم طلبوا إلى أوقيانوس وتيثيس أن يزيلا عنى ما بى من عناصر فانية ، فأخذوا يطهرانى مرّدين مرات تسعاً
تعويذة مقدسة خلصتنى من أدرانى ، وطلبوا إلى أن أغمس جسدى فى ماء نهر ، وسرعان ما أخذت أنهار
جميع بلاد العالم تتصوّب مياهها نحوى من كل صوب وتصبها فوق رأسى . هذا كل ما أقوى على أن أسرده
عليك من عجائب مغامرتى ، فقد جمدت عند ذلك ذاكرتى وفقدت القدرة على استخدام حواسى ، وحين
عدت إلى وعى وجدلت جسدى مختلفاً تماماً عما كان قبلاً ، كما أصبح عقلى غير ما كان . ورأيتنى لأول مرة
٩٦٠ بهذه اللحية التى يذكرنى لونها المخضرّ بصدأ النحاس ، وبهذا الشعر الذى يتثر على الموج الفسيح ، وبهذين
المنكين العريضين ، وبهاتين الذراعين اللازورديتين ، وبهاتين الفخذين اللتين تنتهيان بذيل ملتو كذيول
الأسماك ذات الحراشف ، ولكن فيم يفيدنى هذا الشكل الجديد ؟ وفيم تفيدنى تلك المكرمة التى اختصنى
بها آلهة البحار ؟ بل فيم يفيدنى أن أكون أنا نفسى إلهاً إذا لم تعيرنى أنت انتباهاً ؟

على هذا النحو استرسل الإله فى الحديث ، وكان على وشك مواصلته حين أمعنت سكيللا فى
هروبا ، فعاد إلى الماء مغضباً حانقاً من نفورها ، واتجه إلى القصر المسحور الذى تمارس فيه كيركى^(٤٢)
ابنة التيتان معجزاتها العديدة .

التعقيبات

- (١) انظر النشيدين الثالث عشر والرابع عشر من الإلياذة .
- (٢) كان أوديسيوس يمشي ما تنبأ به العراف من أنه لو اشترك في حرب طروادة لما عاد إلى داره إلا بعد عشرين سنة وحيداً فقيراً ، وقد دفعته شدة خوفه إلى أن يتظاهر بالجنون حتى لا يضطر إلى الإبحار للمعركة ، غير أن بالاميديس شك في تظاهره بالجنون فخطف تيليخوس بن أوديسيوس من مهده وجعله يسك بمحراث يجره ثور وجواد ، فذعر أبوه ولم يستطع المضي في التظاهر بالجنون واعترف بخدعته ولكنه لم يفتخر له بالاميديس ما صنعه .
- (٣) انظر الكتاب التاسع .
- (٤) هذه إشارة إلى نفي تيلامون والد أجاكس بسبب قتله أخيه غير الشقيق فوكوس [انظر الكتاب السابع] .
- (٥) مثلما فعل تيلامون بقتله أخيه .
- (٦) كان تيوكروس بن تيلامون أخا لأجاكس من والده بينما كانت أم أجاكس هي ابنة لاوميديون وشقيقة هيرام [انظر الكتاب الحادي عشر] .
- (٧) عرف الإغريق باسم الأخيين كما كانوا يسمون أحياناً إلى دانالوس شقيق أيجيوتوس ومؤسس مدينة أرجوس الذي أصبح أجاممنون ملكاً عليها فيما بعد .
- (٨) يتبع أوفيد هنا مأساة « إيفيجينيا في أوليس » لأوريببديس متابعة تكاد تكون حرفية .
- (٩) أثارت وقاحة ثيرمستيس البطل أوديسيوس فضربه بصولجانه ضربة أعمده مرتعداً من الخوف والألم . وجاء وصف هذا الحادث على لسان هوميروس في الكتاب الثامن من الإلياذة .
- (١٠) كان دولون قد عرض خدماته على مواطنيه الطرواديين بأن يتجسس على مداولات أجاممنون والقادة الإغريق في مقابل وعده بأن يهبوه جياداً أخيل ومركبته بعد قتله .
- (١١) إشارة إلى ما اقترحه أجاكس سائراً من قسمة الأسلحة بين أوديسيوس وديوميديس منافسة ، الأمر الذي يعد أكرم من امتناع الإغريق عن مكافأة أوديسيوس بأي شيء على الإطلاق .
- (١٢) هذه قائمة القادة الليكيين التي ينسج فيها أوفيد على منوال هوميروس سرد أسماه الأعداء القتل .
- (١٣) هو العراف هيليتوس الذي كشف للإغريق بعد أن أسروه كيف يتسللون إلى طروادة .
- (١٤) المقصود أجاكس بن أوليوس ملك اللوكيين .

- (١٥) كان أجاكس يلتف بغراء الأسد الذي أعطاه إياه هرقل ، الأمر الذي جعله منيعاً على ضربات السيوف إلا في مكان واحد اختلف الشعراء على تحديده ، ويقول أوفيد أنه الصدر بينما يقول البعض الآخر أنه العنق أو الجنب .
- (١٦) أي تمثل بداية اسم أجاكس كما ينطق باللاتينية « أياكس » ، ويذكرنا مقطعه الأول بصرخة الألم والاستنجد التي صدرت عن هياكينثوس .
- (١٧) تهاوت نساء ليمنوس في تكريم الإلهة فينوس فترة طويلة ، أي أنهم لم يمارسوا مع الهوى وزهدن في مضاجعة أزواجهن مما دفع بالأخريين إلى هجرهن نحو نساء من طراquia . فغضبت الزوجات الزاهدات وقتلن كافة الرجال فيها عدا هيبسييله بنت الملك ثواس التي هربت أباهما من المذبحة الكبرى ثم أصبحت ملكة لبلادها ، وهي التي رُحبت ببخارة الأرجو عند مرورهم بوطنها وهامت بجاسون فحملت منه بولدين .
- (١٨) انتزع الإغريق استياناكس بن هكتور من أحضان أمه قسراً وألقوا به من فوق أسوار طروادة . وقد سجل أوريبيديس هذا المشهد الفاجع في مأساة الطرواديات [البيت ٧٠٩ وما بعده] .
- (١٩) ذُكر هذا الاغتصاب في مقدمة مأساة هيوكوبا لأوريبيديس على لسان شيخ پوليدوروس ، ويذكره فرجيل أيضاً في الكتاب الثالث من الإلياذة [البيت ١٩ وما بعده] .
- (٢٠) يشير إلى يوم طمع في الظفر بالأميرة بريزيس في مستهل ملحمة الإلياذة .
- (٢١) يعرض الجزء الثاني من مسرحية « هيوكوبا » لأوريبيديس قصة عنور هيوكوبا على جثة ابنتها پوليدوروس ثم انتقامها من قاتله پوليسطور ملك طراquia ، وهو ما يتناقض مع ما ذكره هوميروس في الإلياذة (٢٠ : ٤٠٧) من أن پوليدوروس هو ابن بريام من زوجة غير هيوكوبا هي لاوثويه وأن أنخيل هو الذي قتله أمام هيكتور .
- (٢٢) توجد « كينوس سيبا » أي مقبرة الكلبة على مقربة من الهيليسبونت وفقاً لما جاء على لسان العالم الجغرافي استرابو .
- (٢٣) أوردوا [إيوس اليونانية] هي أم ممنون من تيثونوس شقيق بريام ، وفي تلك القرابة يكمن سر مناصرتها للجانب الطروادي .
- (٢٤) انظر الكتاب السادس .
- (٢٥) كانت فينوس قد وقعت في غرام أنخيسيس . أما تسميتها بزوجه فهو من قبيل الأدب في الحديث .
- (٢٦) كانت لأسوار طيبة [بويوتيا] أبواب سبع .
- (٢٧) كوكبة الجوزاء .
- (٢٨) هما كوكبتا الإكليل الجنوبي والإكليل الشمالي عند الفلكيين العرب .
- (٢٩) كان أوريون بن هيريوس من أهل طيبة ، وكانت له ابنتان هما ميثوخى ومينيهي تقدمتا بحض إرادتهما قرباناً لإنقاذ أهل المدينة حين حل بها الطاعون ، وهو ما كان قد طالب به الهاتف الإلهي في معبد أبوللو بجزيرتنا . وقد انتحرتا على النحو المذكور بالنص فنالتا رضاه الألهة التي حولتهما إلى كوكبتين ، في حين تحول أوريون بعد موته إلى كوكبة الجوزاء . والملاحظ أن النص هنا يفترق إلى الوضوح ، وأن الإكليلين تأويل لنص فيه لبس بالمخطوطة الباقية .
- (٣٠) جاء وصف هذه الرحلة بالإلياذة لفرجيل [الكتاب الثالث - الأبيات من ١٢١ إلى ١٩١] .
- (٣١) مجموعة جزر أمام الشاطئ الغربي من المورة .
- (٣٢) دوليخيون ونيريتوس أسما جزيرتين مجاورتين لجزيرة إيثاكا . أما ساميه فهي جزيرة صغيرة في بحر أيونيا قريبة من جزيرة إيثاكا تحمل أيضاً اسم كيفالينا . وأميراكيا مدينة في إيبيروس غير الأمبراطور أوغسطس اسمها بعد انتصاره في معركة أكتيوم وسماها نيكوبوليس أي مدينة النصر .
- (٣٣) تنازع كل من أبوللو وأرتميس وهرقل السيادة على هذه المدينة فاحتكموا إلى كراجاليوس بن دريوس الذي كان يرعى قطعانه بجوار المدينة ففضى بحكمه لصالح هرقل ، فغضب أبوللو ومسخه صخرة . وكان لأبوللو في مدينة أكتيوم معبد مشهور ، والملاحظ أن أوكثافيوس قيصر الذي أصبح الأمبراطور أوغسطس فيها بعد قد انتصر على ماركوس أنطونيوس والملكة كلو باترة في معركة بحرية شهيرة سنة ٣١ ق.م . على مرأى من مدينة أكتيوم .
- (٣٤) انظر الكتاب السابع .

(٣٥) كان مونيخوس ملك المولوسيين حاكماً عادلاً وعرفاً مشهوراً بحياة الورع بين أسرته . وقد هاجمه بعض اللصوص ذات يوم وأشعلوا النار في دياره فمسخ جوبيتر أسرته النقية سرباً من الطيور لإنقاذها من الحريق .

(٣٦) فايكايا اسم جزيرة في بحر أيونيا قريبة من شواطئ ليروس تغير اسمها إلى كوركيرا [كورفو الحالية] اشتهر أهلها بالمجون والولع بالترف .

(٣٧) نتوه في جنوب صقلية .

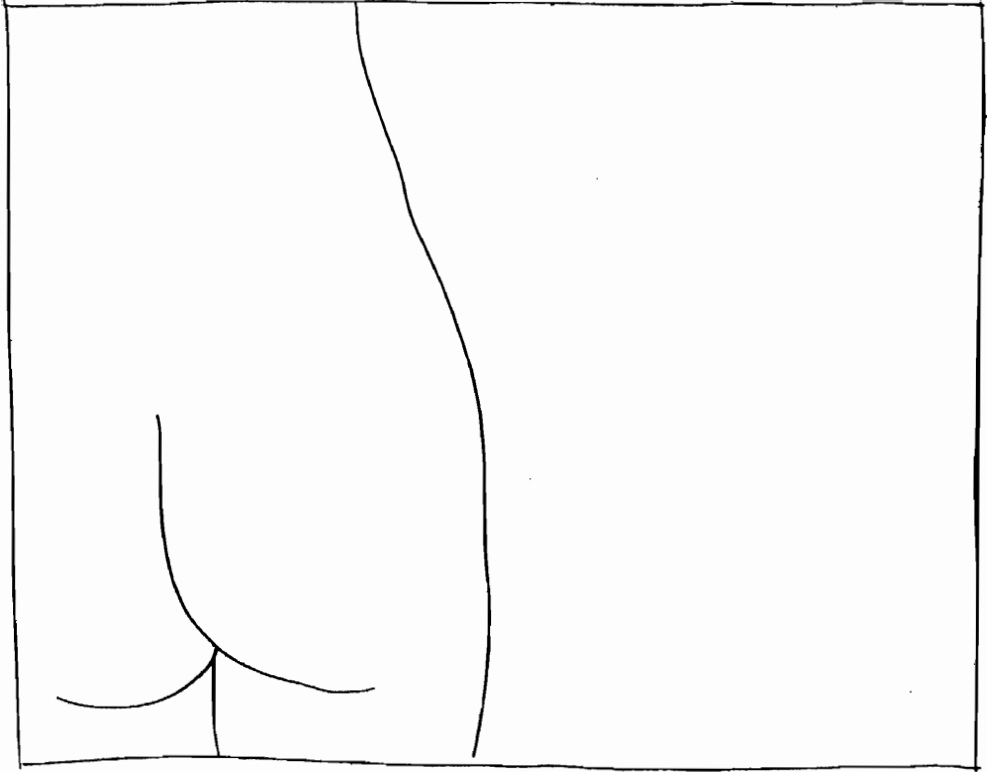
(٣٨) استوحى وصف سيكللا هنا من الأوديسيا لهوميروس [النشيد الثاني عشر . البيت ٨٥ وما بعده في خطبة كيركي أمام أوديسوس] .

(٣٩) كان بوليفيموس إينا لثتون إله البحار .

(٤٠) تحول أكيس حفيد نهر ثيايثوس بدوره . إلى نهر ، وهو ذلك الجدول المنحد من جبل إتنا والذي يحمل اسمه .

(٤١) جلاوكوس إله من آلهة البحار اختلف الرواة حول قصته ، فهو يمثل أحياناً في شكل شاب أمرد ، وأحياناً أخرى في شكل عراف عجوز يخشاه الملاحون ، وكثيراً ما يُخلط بينه وبين بروتوس ، ويروى توليد بعد ذلك قصة مسخه على لسانه .

(٤٢) كيركي هي بنت هليوس إله الشمس الذي كان — على ما رواه هزيودوس — ابن هيريوس وثيا ، ويصفه أوثيد بأنه أحد المرءة . وكان هليوس إله الشمس غير أبولو إلى أن أصبح الاثنان شخصاً واحداً ، وكان أبوه المارد هيريون بدوره يُن جيا ربة الأرض وأخاً لكرتونوس [ساتورن] .



بيكاسو

الكتاب الرابع عشر

سكيللا وكيركي

خلف الإله الذي اتخذ أمواج بحر يوبويا الصاخبة سكناً له جبل إتنا وراه ، ذلك الجبل الشامخ الذي قذف به الآلهة في قديم الزمان ليدقّ عنق أحد العمالق^(١) ، كما خلف حقول الكيكلوبيس الذين كانوا يجهلون استخدام النورج والمحراث ولا يدينون بفضل للثيران المشدودة إلى النير . كذلك خلف وراه مدينة زانكلييه^(٢) وأسوار مدينة ريجيوم المقابلة لها ، وكذا المضيق الذي ألق على سفن كثيرة بين ساحلى أوزونيا [إيطاليا] وجزيرة صقلية المتقابلين [ميسينا] . وبذراعه الممتولة استطاع عبور البحر الإثروسكى [التيرانى] حتى أدرك التلال السندسية حيث يشمخ قصر كيركى بنت إله الشمس ، ذلك القصر العامر

بن مسختهم حيوانات مفترسة مختلفة الأشكال . وما كاد يلقى كيركى ويادها السلام حتى قال لها :
ناشدتك أيتها الإلهة أن تترفقى بالإله الذى يمثّل أمامك ، فأنت وحدك من تستطيعين أن تحففى عنى آلام
حبنى إذا كنت تَرَيْنَ أنى جدير بهذه المنّة ، فما أعظم قدرة النباتات يا ابنة التيتان ، ولا أحد يعرف هذا
معرفتى به بعد أن عانيت المسخ بفعل سحر هذه النباتات . ولكى تعرفى سبب الاضطراب الذى يلمّ بى
فإليك ما حدث : لقد وقعت عيني على سكيللا على شاطئ إيطاليا المواجه لأسوار ميسينا ، ومعنى حياى
من أن أقصّ عليك كم من الوعود وَعَدْتُ وكم من ضراعات ضرعت وكم من عبارات غرام بعثت بها إليها
فسخرت من هذا كله . وما أطلب إلا أن تنفج شفتاك المقدستان عن عودة ، ففى عوداتك تكمن قدرة
تعلو كل قدرة . وإذا كان ثمة عُشب فى ملكوتك له ما ليس لعُوداتك من تطويح العصى فلتسعفينى به
فَلَأُنْتِ به خبيرة . وما أطلب منك ترياقاً ولا بلسماً لجرحى ، فما أنا فى حاجة إلى أن أهرب من الحب بل
إلى أن تُكْوَى سكيللا بنصيبيها من النار التى تضطرم فى نفسى .

٢٠

وإذ كانت كيركى أكثر النساء إحساساً بلوعة الحب ، سواء لما طُبِعَتْ عليه أو لما مُنِحَتْه من الإلهة
فينوس الناقمة على إله الشمس^(٣) [لوشايتيه بصلتها بالإله مارس] فقد أجابت جلاوكوس قائلة : « كان
أولى بك اختيار حبيبة تبادلك إرادة يراة ورغبة برغبة ونُحْسَ بلوعة الحب كما نُحْسَ ، فما أجدرك بأن تكون
النساء هُنَّ الساعيات إليك ، ولتطمئن بالأى أن سعى النساء إليك حقّ عليهن لوسامتك ، بل صدقنى
أنك لو تذرعت ببعض الأمل لأصبحت أنت من تسعى هى إليك بدلاً من أن تسعى أنت إليها . فلا
يخالجنك الشك فى نفسك ولا تفقدن الثقة بوسامتك . انظر إلى ، فمع أن إلهة ومع أنى ابنة إله الشمس
المتألق ، ومع أنى أملك العُودات والأعشاب السحرية ذات القدرات الرهيبية ، إلا أننى أتمنأك وأتوق إلى
عشقك . فلتزدر من يزدريك ولتقبل على من تسعى إليك ، وبذلك يكون انتقامك من واحدة فيه إرضاء
لأخرى » .

وقال جلاوكوس لكيركى يردّ على محاولتها اغراهه : « ما أنا بمتحولّ عن حبنى لسكيللا مادمت حياً ،
حتى لو انقلب الوجود رأساً على عقب فانشقت أعماق البحار عن نباتات الجبال وأعشبت قمم الجبال
بأعشاب البحار » .

وامتلاً صدر الإلهة غضباً ، وإذ كان حبّها لجلاوكوس يحولّ بينها وبين التنكيل به فقد صبّت نيران
حنقها على غريميتها . وهرعت - تلك التى جُرِحَ كبرياؤها ولم تجد صدق لحنانها - دون أن تضع وقتها
تهرس أعشاباً سامة ذات عصارات فتاكة ، وقرنت المزيج بعُودات لقتتها إياها الربة هيكاتى ، ثم التفت
بغلاتها اللازوردية وسارت وسط قطعان الحيوانات المفترسة التى كانت تحشد حولها مشرّبة الأعناق طلباً
للمداعبة وخلفت قصرها . ووصلت كيركى إلى مدينة ريجيوم المواجهة لصخور مدينة زانكلييه ، ثم اندفعت
فوق الأمواج الصاخبة تسير فوقها وكأنها تخطو فوق اليابسة ، تدوس بقدميها سطح الماء فلا تبتلان به .

٤٠

وكان ثمة مغارة صغيرة محّدة القباب متعرّجة المسارب تنسرب مياه البحر إلى جوفها هى الماوى الأثير
لسكيللا تختلف إليه هرباً من عنف الأمواج المضطربة ومن حرارة الشمس المحرقة ساعة تتوسط قبة السياه

فتكمش ظلال الأشياء . وإذا كبركى تلوث مياه المأوى. وتنتشر سمومها البشعة به ، وتنتثر سائلاً من عصارات جذور سامة ثم تمتصت مرات تسعاً ثلاث مرات بتعاويزٍ سحرية كلها لعنات غامضة وكلمات غريبة ملغزة . ولم تكذب سكيللا تغوص في الماء إلى خصرها حتى وجدت حولها وحوشاً مفترسة تعوى محيطية بفخذها . ولم يجمل بخاطرها في بادئ الأمر أن هذه الوحوش قد باتت جزءاً لا يتجزأ من جسمها فحاولت الفرار وطردت هذه الوحوش وقلبها يمتلئ فزعاً من أنيابها الجارحة ، ولكنها كلما حاولت التخلص من هذه الوحوش شذتها معها ، وكلما تحسست فخذها وساقها وقدميها وجلت مكانها مجموعة من الكلاب الشبيهة بـكلاب كيربيروس ذات الرؤوس المتعددة الفاغرة الأفواه ، وكلما حاولت النهوض وجدت نفسها تقوم على هذا الرهط من الكلاب المسعورة ورأت أن نصفها الأسفل ليس إلا كلاباً تلتصق بالجلد الذي يعلوها . أما عاشقها جلاوكوس فولئ فراراً والدموع تنساب مدراراً فوق وجنتيه ، رافضاً أن يتخذ من كيركى زوجة له بعد أن استغلت قدرات أعصابها على هذه الصورة الوحشية . وبقيت سكيللا جامدة في مكانها ، ولم تكذب تخمين أمامها الفرصة حتى اختطففت رفاق أوديسيوس نقمة على كيركى ، وكادت أن تغرق سفن الطرواديين أيضاً لولا أنها مُسخت قبل ذلك صخرة تنتصب حتى اليوم فوق الأمواج منذرة بخطر يتحاشاه الملاحون .

الكيركوبيس

ما كادت السفن الطروادية تُفلح بقوة مجاذيفها في الإفلات من سكيللا وخاريديس النهمة حتى شارفت سواحل أوزونيا وكادت ترسو بها ، وإذا ربح قوية تدفعها إلى شواطئ ليبيا . وهناك استقبلت أينياس الملكة الفينيقية التي تنتمي إلى أسرة صيدا الملكية وفتحت له قصرها وقلبها معاً . وقضت الأقدار ألا تحتمل ديدو فراق زوجها الفريجي [بعد أن هجرها بغتة] فألقت بنفسها على ذبابة السيف من فوق محرقة كانت قد أعدتها متظاهرة بأنها لتقديم قربان . وكما هجرها أينياس على حين غرة هجرت هي الأخرى شعبها وهي تغافل .

وللمرة الثانية^(٤) لاذ أينياس بأذيال الفرار ، فخلّف أسوار المدينة الجديدة المشيدة فوق الساحل الرملي مبتعداً ، وما لبث أن وجد نفسه يعود إلى أرض إريكس^(٥) وإلى الملك أكستيس^(٦) الوفيّ حيث قدم القرايين ونحر الضحايا أمام مدفن أبيه . ثم أبحر من جديد بسفنه التي كادت إيريس مبعوثة جونو أن تشعل فيها النار . وخلّف مملكة ابن هيوتيس^(٧) ، تلك الأراضي التي تنبت منها أبخرة الكبريت المشتعل . وبعد مروره بصخور « السيرينات » بنات نهر أخيلووس فقَدَ ربّانه [بالينورس] ، ثم اجتاز شواطئ جزيرة إيناريميه^(٨) وجزيرة بروخيتيه^(٩) ومدينة پيشكوزا^(١٠) المشيدة فوق تل أجرد والتي اشتق اسمها من اسم سكانها [پيشخوى أنى القردة] ، إذ يروى أن كبير الآلهة في قديم الزمان قد ضاق ذرعاً بالسنة الكيركوبيس وبرذائل هذا الجنس المخادع ، وقضى بإنزال العقاب بهم فحوّهم من أناسٍ إلى حيوانات دميعة تختلف شكلاً عن البشر وإن احتفظت ببعض الشبه به ، وجعل جوبيتر أطرافهم دقيقة وأنوفهم

فطساء وخذد أصداغهم بتجاعيد الكهولة ، ثم كسا أجسادهم بشعر داكن وألزمهم هذا المأوى . غير أنه قبل أن يفعل حرمهم القدرة على الكلام وجردهم من ألسنتهم التي تحلف كذباً وتحث باليمين ، ولم يترك لهم القدرة على الشكوى إلا بصراخ أجش وبأصوات ناشزة . ١٠٠

سببيل

وبعد أن مرَّ أينياس بهذه الجزر وخلف عن يمينه أسوار پارثينوى^(١١) وعن يساره ضريح ميسينوس^(١٢) نافخ البوق الرنان - الذى كان ابناً لأبولوس - رسا على شاطئ كوماى بمستنقعاته ذات المياه الراكدة . وهناك سعى إلى المغارة التي تأوى إليها سببيل المقلعة بالسنين ، وسألها أن تأذن له باختراق مملكة أفيرنوس [العالم السفلى] حتى يلقى روح أبيه . فثبَّت سببيل نظرها في الأرض برهة طويلة ، وبعد أن رفعت رأسها تحدثت بصوت الإله الذى تقمصها قائلة : « إنك لتطلب الكثير أيها البطل الشهير ، يا من كشفت عن بسالتك بضربات سيفك وعن وركك وبركك بأسلافك بنفاذك وسط أسنة نيران المدينة المشتعلة . فلتطرح عنك شتى ألوان القلق أيها الطرودى فستحقق أمانيك وساكون مُرشدتك ، وستعرف عن قريب على ديار إيزيوم [العالم السفلى] آخر ممالك الكون ، وستلقى روح أبيك الحبيبة لأنه ليس ثمة طريق تعجز الفضيلة عن سلوكه » .

وأشارت إلى الغصن الذهبى المتألق في الغابة المخصصة لجنوتو الأفيرنية ربّة العالم السفلى ، وأمرت أينياس أن يقطع الغصن من الجذع الذى يحمله فانصاع لأمرها ، فإذا بصره يقع على تلك المملكة العظمى التى يحكمها أوركوس ربّ الأهوال حيث شاهد أطراف أجداده وروح والده أنخيسيس الكهل السُمح القلب ، وما هى إلا هنيهة حتى كان قد ألم بالشرائع التى تسود هذه الديار كما عرف المخاطر التى سيتعرّض لها في حروبه المقبلة . ثم عاد يسير بخطوات منهكة في الطريق الصاعد محاولاً أن يتلمّس الراحة من الإرهاق الذى أحسَّ به وهو يبادل مرشدته سببيل كاهنة كوماى الحديث . حتى إذا خلف هذا الطريق الرهيب الكثيف الظلمات صاح بها : « يستوى عندى أن تكونى إلهة أو أن ترعك إلهة فسأظل دوماً معترفاً بفضلك علىّ ، لأنك أنت وجدك من أنحيت لى زيارة مملكة الموت ثم مغادرتها آمناً . واعترافاً بما أسبغت علىّ من مآثر لأشيدنّ لك معبداً عند عودتنا إلى سطح الأرض ولأحرقنّ باسمك البخور » . ١٢٠

فاتجهت الكاهنة نحوه وهى ترسل زفرة عميقة وقالت : « لست إلهة يا أينياس ولا يجوز أن تحرق البخور المقدّس لتكريم كائن فان . أقول لك ذلك حتى لا ترتكب خطيئة عن جهل . ولتعرف أنى لو كنت قد ضحيتُ بمُذرتي واستسلمتُ لنزوات الإله فويوس الذى كان يعيشنى لحظيتُ بنور الخلود . وكان فويوس يأمل وقتذاك أن ينالنى وما فتىء يغربنى بهداياه ، ويقول لى : « يا عذراء كوماى ما أشد حرسى على أن ألبى لك أية رغبة تفصحين عنها » . فالتقطتُ حفنة من الترى عرضتها عليه وطلبت منه في حماقة أن يبني أعياد ميلاد بقدر ما تحتويه قبضتى من ذرات التراب ، ولكنى نسيتُ أن أطلب في الوقت نفسه أن تكون هذه السنين كلها بينى وشباب إلى نهايتها . ومع ذلك فقد كان من اليسير على فويوس أن يبني أيضاً ١٤٠

الشباب الأبدى لو أننى ارتضيت أن يُشيع وله منى ، لكننى ازدريت ما طلب وبقيت عانساً حتى الآن . أما اليوم فقد غاب العهد السعيد من العمر وأهلت الشيخوخة الحزينة بخطواتها الراجفة ، ومازال على احتياها سنين طويلة أخرى . فقد مرّت قرون سبعة كما ترى ومازال أمامى أن أشهد ثلاثمائة مرّة حصاد الغلال ، وثلاثمائة مرة انسكاب النيذ الجديد من معصرة الكروم حتى أكمل عدد ذرات التراب التى تقابل سنى عمرى . وسياق وقت أضمرّ فيه حتى أصبح مخلوقاً أشدّ ما يكون ضالّة ، وستتكمش أعضائى بفعل الشيخوخة حتى تصبح ملاء قبضة يد فحسب . ولن يصدّق مخلوق يرانى على تلك الحال أنى كنت ذات يوم معشوقة إله . ومن يدرى فقد يعافئى فويبوس نفسه ، وقد ينكر أنه مال إلى ذات يوم ؟ وسأبلغ نهاية أيامى على هذه الصورة التى تختلف عما كنت عليه ، وإذا لم يعرفنى أحد لفرط ضالّتى فسيعرفنى الآخرون بصوتى ، وهو كل ما سوف تتركه لى الأقدار .

أخيمينيديس ويوليفيموس

وبينا كانت سيببلا مسترسلة فى حديثها كان أينياس الطروادى فى سبيله إلى ضوء النهار مخلفاً مملكة ستيكس على مقربة من مدينة « كومى » اليوبوية . وبعد أن قدّم القرابين وفق الشعائر المتداولة انحدر إلى الشاطيء الذى لم يكن قد سُمى بعد باسم مُرضعته « كاييتا » . وهنا أيضاً كان مكاربيوس بن نيريتوس اليونانى قد هبط هو الآخر واستقر بعد أن عانى الكثير فى مغامرة بحرية طويلة مرهقة برفقة أوديسيوس المحنك ، فإذا هو يتعرّف على أخيمينيديس الذى كان قد ترك مهجوراً منذ أمد بعيد بين صخور جبال إتنا . ودهش مكاربيوس لهذا اللقاء المباغت بشخص كان يظنه قد قضى نحبه وسأله : « أى إله هذا الذى تدين له بنجاتك يا أخيمينيديس ، وأية صدفه تلك التى ترجع لها سلامتك ؟ وأنى ليونانى أن يجد نفسه قد أبحر فى سفينة من سفن البرابرة الطرواديين ؟ وأى ساحل كانت تقصده سفينتك ؟ » .

وأجاب أخيمينيديس وكان قد نزع ثيابه المهلهلة التى كانت مخيطة بالأشواك فيما مضى بقوله : إنه لأحبّ إلىّ أن ألقى يوليفيموس مرة ثانية وأنظر إلى فمه الشره الذى تساب منه قطرات الدم البشرى عن أن يكون وطنى إيثاكا أعزّ لى من هذه السفينة أو أن يكون تبجيلى لأينياس دون تبجيلى لأبى . . . فمهما بذلت فى خدمة أينياس لن أفيه حقه من العرفان بالجميل . وهل لى أن أنسى أنى بفضلها أتكلّم الآن وأتنفس وأرى الشمس كوكب النهار ؟ إى مدين له بحياتى فلقد أنقذنى من الموت فى جوف الكيكلوبيس . وما أنذا لومت الآن وفارقت الحياة ما فقدت الأمل فى أن أدفن فى قبر وليس فى أمعاء الوحش . أو علمتم بما أحسسته ساعة تركتمونى وأبحرتم نحو البحر الفسيح ؟ [وإن كان الخوف قد سلبنى كل شعور وإدراك حينذاك] ، فكم كنت أودّ أن أنادىكم ولكنى خشيت أن أكشف بذلك عن مكانى للعدو ، حتى أنتم فى سفينتكم كدتم أن تحيى بكم كارثة لولا هتاف أوديسيوس . فقد رأيت الكيكلوبيس ينزع كتلة من الجبل ، كما شاهدته يلقى بصخرة ضخمة فى وسط البحر ، ورأيت بعد ذلك يقذف بقوة صخوراً شاهقة بذراعى عملاق وكان

منجنيقاً يطوح بها . وكم كنت أخاف أن تُفرق الرياح والأمواج السفينة وقد غاب عني أنى لم أكن فيها ، وما كاد الفرار ينجيكم من ميتة بشعة أكيدة حتى جُن جنون الكيكلوبيس وأنَّ أنأت غضب وأخذ يعدو على غير هدى حول جبل إتنا يتحسّس الغابات التي تعترض طريقه بيده . وقد عوّق به جرمانه من الإبصار فأصبح يتعثر في الصخور البارزة ، ثم رفع ذراعيه المملختين بالدماء واتجه صوب البحر وهو يستنزل اللعنات على سلالة الآخيين قائلًا : « لو أن الحظ أعاد إلى أوديسيوس أو أحد رفاقه ، لافترسته غاضبًا ولالتهمت لحمه ولزّقت يدي أطرافه النابضة ، ولرويت حلقى بدمه وهشمت عظامه بين فكّتي . لو أن هذا وقع لي لهان على فقدان نور عيني الوحيدة » !

وبهذه العبارات وغيرها التي أفصح بها عن غضبه امتنع وجهي من فرط فزعي وأنا أتأمل وجهه الذي أخذ تتساقط منه قطع اللحم ، كما حملت في كفيّ الجافيتين وفي المحجر الفارغ الذي أضحي لا يُبصر وفي أعضائه القبيحة وفي لحيته التي تلطّخت شعراتها بدماء البشر . ومثل الموت أمام عيني ولم يكن الموت إلا أقل ما أخشاه من شرّ ، إذ كنت على يقين أنه لن يلبث أن يقبض على ويلتهم لحمي فيستقرّ في أحشائه . وتبادرت إلى ذهني صورة تلك الأيام التي رأيت فيها رفاقي يُلقى بهم اثنين اثنين على الأرض ثلاث مرات أو أربعة وهو يجلس القرفصاء فوق أجسادهم كأنه أسدٌ منفوش اللبدة يلتهم أحشاءهم ولحمهم وعظامهم بنخاعها الأبيض وأطرافهم التي ما تزال تنبض بالحياة . كان جسمي كله يردد وجمّدت في مكاني ، كما جمّد الدم في عروقي وتملّكني اليأس وأنا أتطلّع إليه وهو يلوك ضحاياه في فمه وينهش تلك الوجبة الدامية ثم يقىء بعضها في سبل تختلط فيه قطع اللحم بالنبيذ . وما كان أشقائي وأنا أنتظر هذا المصير إذ أمضيت الأيام الطوال أهيم على وجهي مخبئًا بين كهف وآخر ، وكلما سمعت صوتًا ارتعدت فرائصي فكنت أخشى الموت وأتوق إليه معًا ، وكنت أسكن جوعي بأكل الأعشاب وثمار البلوط وأوراق الأشجار وأنا أعيش في وحدة كئيبة وفي عوز ويأس ضحية مُهمّلة معرّضة للهلاك فريسة للكيكلوبيس . وبيننا أنا في هذه الحالة رأيت سفينة من بُعد فاندفعت ألوح بيدي مستنجدًا وعدّوت نحو الشاطئء أنادي ملاحيا ضارعا . وهكذا قدّر لتلك السفينة الطروادية أن تحمل رجلاً يونانيا ، فما بالك يا مكاربيوس يا أعزّ رفاقي لا تكاشفني بمغامراتك ومخاطرات زعيمك والمقاتلين في رفقتك وأنتم تحت رحمة الأمواج ؟

مكاربيوس وأوديسيوس

وأخذ مكاربيوس يروي كيف كان أبولوس بن هيبوتيس يسود بحار إتروريا^(١٣) ، وأنه بعد ما حبس الرياح في جلد ثور قدّمه هدية لأوديسيوس ملك دوليكوم الذي أخذه معه . وبعد أن أمضى أوديسيوس ورفاقه تسعة أيام تدفع أسطولهم في البحر ريحٌ رخيّة وقعت أبصارهم على البلاد التي كانوا يقصدونها . وفي فجر اليوم العاشر ملأت الغيرة نفوس رفاق أوديسيوس وتملّكتهم رغبة شرهة في تقسيم الغنيمة التي يضمّنها جلد الثور والتي خالوها ذهبًا ، فمزّقوا الرّباط الذي كان يمسك الرياح سجينة في هذا الجلد ، فإذا هي

تنطلق وتدفع السفينة في اتجاه مضاد حتى ألقت بها عند ميناء مملكة أبولوس . واستطرد مكاربوس قائلاً :
« ومن هناك أدر كنا مدينة لاموس أَلستريجونية التي كان يحكمها الملك أنتيفاتس ، وقد ذهبت موفداً إليه في
حراسة اثنين من رفاقي ، غير أننا سرعان ما لُدنا بالفرار أنا وأحد رفيقي بعد أن رأينا رفيقنا الثالث قد أكله
أهل لستريجون وبدت شفاهم ملطخة بدمائه . ومضينا هارين وأنتيفاتس يطاردنا على رأس شعبه الذين
٢٤٠ أخذوا جميعهم يلقون كتل الصخور وجذوع الأشجار على سفننا حتى أغرقوها بما عليها من ملاحين إلا
سفينة واحدة نجت هي تلك التي كنت عليها مع أوديسيوس . وبعد أن بكينا من فقدنا من رفاق ،
وأمضينا وقتاً طويلاً نرثى لمصيرهم رَسَوْنَا على تلك الشواطئ التي يمكن أن تراها من هنا على بُعد .
وصدَّقني أنه خير لك أن ترى تلك الجزيرة من بعيد من أن تراها عن قُرب كما رأيها . أما أنت يا أشرف
الطرواديين يا إبن الإلهة [إذ يتعذر عليّ يا إينياس أن أدعوك بالعدو بعد أن انتهت الحرب بيننا] فنصيحتي
لك أن تتجنب شواطئ كيركي . ولما رَسَت سفينتنا بشواطئ كيركي أتينا أن نغادر السفينة أو أن نقصد
بيتاً لا نعرف أهله ، فقد كنا ما نزال نذكر مغامرتنا مع أنتيفاتس والكيكلوبيس المقتربين . لكن الأقدار
اختارتني - حين اقترعنا - أن أذهب ومعى هوليتيس الوفيّ ويوريلوكوس والبيثور الشديد الولع باحتساء
النيبذ في صحبة ثمانية عشر من رفاقنا لتتعرّف على أسوار ديار كيركي^(١٤) . وما كدنا نصل حتى وقفنا بباب الدار
وقد أفرعنا قطع من ألف ذئب ومعها آلاف الدببة واللبؤات . ولقد عرفنا بعد أنه لم يكن ثمة ما نخشاه من
هذه الحيوانات إذ لم يباغتنا واحد منها بشراً ، بل لقد داعبتنا بذبولها ورافقت خطانا في حنان وأبت مفارقتنا
حتى قابلتنا الخادما اللاتي قُدُننا إلى ربة البيت عبر أهباء كبيرة مرصوفة بالرخام ، وكانت تتربّع على عرش
٢٦٠ مهيب في نهاية قاعة شامخة وترتدى ثوباً يخطف بريقه الأبصار يغشيه معطف مزدان بخيوط القصب ، ومن
حولها الحوريات والنيريايس اللاتي لم يكن مشغولات كالعادة بغزل الصوف وجدل خيوطه الطيبة بأناملهن
المدربة^(١٥) بل كن يُنسّقن نباتات سيّدتهن ، كما كن يورّعن الزهور والأعشاب المختلفة الألوان بلا نظام في
سلال متعددة . وكانت كيركي ترقب أعمالهن باهتمام فلقد كانت وحدها هي التي تعرف نفع كل ورقة كما
تعرف أثر امتزاج بعضها ببعض ، ثم كانت بعنايتها الفائقة تزن فائدة كل عُشب بميزان دقيق .

وما إن رأتنا حتى بادلتنا التحية وأشرقت طلعتها وهي تعبر لنا عن تمنياتها الطيبة ، وبدا وجهها الباسم
وكأنه بشير بنجاح حُطتنا ، ولم تلبث أن أمرت بأن يُعد لنا مزيج من الشعير المحمص والزيت والنيبذ واللبن
الخشير ، وأضافت إليه عصارات غلبت حلاوة المزيج على مذاقها ، فتناولنا من يدها الكؤوس التي قدّمتها
لنا يميناً ، ولم تكد أنفواننا الجافة ظمناً تُسلمها إلى أجوافنا ، ولم تكد الإلهة الرهيبية تلمس أطراف شعورنا
بعضاها [وما أستطيع أن أذكر ذلك دون أن أحس العار] حتى أحسستُ بجسدي تثبت فيه شعيرات
٢٨٠ منتصبة ، وغاب نطقي وحلّ محلّه خوار أجش ، وانكفأت بوجهي على الأرض وإذا فمي يتحوّل إلى خطم
متهدّل ، وإذا عنقي ينتفخ بعضلات غليظة ، وإذا يداي اللتان تناولت بهما الكأس تستحيلان قدمين أمشي
عليهما ، ودفعوا بنا أنا ورفاقي سجناء في حظيرة بعد أن صرنا جميعاً ضحايا لهذا السحر [ألا ما أعظم قدرة
الشراب السحري] . وكان أوريلوكوس هو وحده الذي لم يسخ خزيراً لأنه رفض الكأس التي قدّمت

إليه ، ولو لم يكن قد ردّ تلك الكأس لكان إلى الآن خنزيراً بين القطعان الخشنة الشعر ، فكان هو الذى أنهى إلى أوديسوس الكارثة التى حلّت بنا ، فجاء لينقذنا ويأثر لنا من كيركى .

وكان ميركورىوس إله السلام قد أعطاه زهرة بيضاء بعنق أسود يسميها سكان السموات «مولى»^(١٦) ، فدخل أوديسوس دار كيركى وهو آمن من كل خطر بفضل سحر هذه الزهرة وبفضل وعد الألهة بشدّ أزره . ولما دعتة الإلهة إلى تناول الشراب الغادر وحاولت لمس شعره بعصاها دفعها بعيداً عنه وبتّ الرعب فى الإلهة المذعورة بأن شهر عليها سيفه . وبعدها تصافحا إيلدانا بعهد جديد يسوده صفاء النية ورحبت كيركى بأوديسوس فى فراشها ، وطلب منها جزاء معاشرته إياها أن تردّ له رفاقه على صورتهم الأولى ، فنثرت علينا عصارة عُشب مجهول وضربتنا على رؤوسنا بعصاها معكوسة ونطقت بعوذة تُبطل أثر العوذة الأولى . وكانت كلما رتلّت عوذتها أخذ قوامنا يعتدل وتساقط الشعر التى يكسو جلدنا واختفت شقوق أظفاننا واعتدلت لنا مناكبنا وعادت سواعدنا تظهر من جديد كما كانت . وما كاد أوديسوس يرى هذا التحول حتى انخرط فى البكاء تأثراً وبكىنا معه نحن أيضاً بينما نحتضنه بأذرعنا ، وكان أول ما نطقنا به هو الاعتراف بالجميل . وقضينا هناك سنة واحدة رأيت خلالها الكثير من الغرائب وسمعت الكثير من المعجائب . ومن بين ما سمعت ما روته لى سرّاً إحدى الوصيفة . الأربع المنوط بهن الأعمال السحرية . فذات يوم بينما كانت كيركى تختلي بقائدى قادتى وصيفتها إلى تمثال شاب من الرخام الأبيض الناصع كالجليد وعلى رأسه طائر النّقار . وكان هذا التمثال فى معبد على جوانبه أكاليل زهور كثيرة ، فازددت تشوّفاً لمعرفة من يكون هذا الشاب ، ولماذا يُعبد على مثل هذا النحو فى مثل هذا المكان المقدس ، وما هو سرّ الطائر الأخضر الذى على التمثال . فقالت لى : أصبح السّمع يا مكارىوس وستعرف من خلال ما سأقصّه عليك مدى قدرة ربّي ، فامنحنى إذن أذناً صاغية :

بيكوس وكاننز

« كان يحكم بلاد أوزونيا فى الماضى الملك بيكوس بن ساتورن الذى كانت جياد الحرب المدربة هى شغله الشاغل . وأمام عينيك صورته تستطيع منها أن تكتشف كم كان وسيماً ، كما تستطيع منها أيضاً أن تستشفّ طباعه . وكانت شجاعته تعادل جمال شكله ، ومع أنه لم يكن قد بلغ من العمر ما يكفى لأن يشترك مرات أربع فى مباريات المصارعة التى يقيمها الإغريق كل خمس سنوات فى إحدى مدن إيليس ، إلا أن جمال وجهه قد اجتذب إليه أنظار الدرياديس حوريات جبال لاتيوم ، كما سعت إليه أيضاً حوريات الينابيع وجارتها فى مسعاها الناياديس بنات مياه نهر ألبيولا ونهر نوميكيوس ونهر أنيو ونهر المون التى هى قصيرة مجارها ونهر النار المتدفق الصاخب ونهر الفارفاروس ذى الأشجار الظليلة ، كما سعت إليه أيضاً حوريات تلك البركة التى تحيط بها غابات الإلهة ديانا السكوثية^(١٧) وحوريات البحيرات المجاورة . غير أن الفتى كان ينأى عنهن جميعاً ولا يقدم فروض الولاء لغير حورية واحدة يقول الرواة أن فيثيليا كانت قد أنجبتها فوق جبل پالاتينوس بعد مضاجعة الإلهة چانوس^(١٨) الأيون . وما كادت الفتاة تشبّ ويتكوّر

هداها حتى آثرت بيكوس من أهل لاتيوم على كل من تقدّم لحطبتها فتزوجت منه . كانت فتاة نادرة الجمال غير أن قدرتها على الغناء كانت أكثر ندرة وتفرداً ، ومن هنا سُميت كاننز [أى مغنية باللاتينية] . وكان لوقع أنغامها صدى يجرّك الصخور والغابات ويروض الحيوان الكاسر ويوقف جريان الماء في الأنهار الكبرى ، ويُجمدُ بالظهور عن أن تحفّق بأجنحتها . وبينما كانت منهمكة بتريد أغانيها ذات يوم انطلق بيكوس من داره مطارداً بسهامه الخنازير البرية في برارى لاتيوم وقد امتطى جواداً جامحاً وقبض بيده ٣٤٠ اليسرى على رعين وارتندي الخلاميس^(١٩) الأرجواني اللون المضموم بمشيك من الذهب الأشقر . وكانت بنت إله الشمس الوافدة من البرارى التى تحمل اسمها . . . برارى كيركى ، قد دلفت إلى الغابة لتقطف من تلالها الخصبية بعض الأعشاب النضرة وما كادت عينها تقمان على الفتى المختبئ وراء إحدى الشجيرات حتى فنتت به وسقطت من بين يديها الأعشاب التى كانت تضمها ، وخبّل إليها أن ناراً ملتهمبة تسرى كالبرق في عظامها . وبعد أن استعادت رشدها كادت تقرّ ليكوس بحبها إلا أن اشتغاله برقص جواده والثفاف تابعيه حوالبه حالاً بينها وبين أن تُعرب عن افئنتها به ، وعندئذ تمتمت تناجى نفسها : « لن نُقلت منى أيها الفتى ولو هملتك الرياح بعيداً عنى اللهم إلا إذا بطل سحر الأعشاب التى أجمعها وإلا إذا فقدت عوداتى قدراتها . »

وانكفات على سحرها فإذا شبح خنزير برى أطلقته ليقطع الطريق على الملك ، وإذا الملك يترامى له كأنه يندفع صوب أجمة من الأشجار المتضامة المشابكة الغصون والأوراق يتعدّر على الجواد اختراقها . فاندفع بيكوس دون روية أو تردّد ودون أن يظن إلى ما دُبّر له فأخذ يطارد ذلك الخنزير الذى تمخّله ، ونزل ٣٦٠ عن صهوة جواده الذى رعى خطمه بالزبد من فرط إنهاكه ومضى الملك يعدو في الغابة العميقة وراء أمل زائف . عندها بدأت كيركى تتلو صلواتها لأربابها الخفية مرّدة تعاويد سحرية لا تقلّ خفاءً فقطت الغيوم بياض القمر ونسجت فوق وجه أبيها الشمس سحباً ممطرة ، واستطاعت بسحر عوداتها أن تغشى السماء بظلام كثيف وتطلق من الأرض ضباباً معتماً ، فهام رفاق الملك على وجوههم ينحشون عنه وقد حالت الظلمات بينه وبين حاشيته . وهكذا هيأت كيركى لنفسها المكان والزمان المناسبين ، وانطلقت تخاطبه قائلة : « يا أجهل بنى البشر الفانى ، ناشدتك بعينيك اللتين فتنتا عينيّ وبتلك القسيمات الجميلة التى جعلتني أنا الإلهة آقف أمامك ضارعة أن تحفّف من لذع تلك النار التى تلتهمنى ، وأن ترضى بإله الشمس العليم بكل شيء حمأ لك ، ولا تذهب بك قسوتك إلى ازدراء كيركى ابنة التيتان . »

غير أن بيكوس دفعها بعيداً دون اكتراث بضراعاتها قائلاً : « لن أكون لك أياً كنت ، فثمة امرأة أخرى تأسر قلبى ولا أبغى من الدنيا سوى أن أبقى أسيراً لها على مرّ السنين ، ولا أستطيع فى سبيل حب محرم أن أخون عهود الزوجية مادامت الأقدار ترعى لى كاننز ابنة چانوس . » ٣٨٠

وبعد أن كررت بنت التيتان محاولاتها وضراعاتها سدى حدّثته قائلة : « لا يبلغن بك الغرور أن تظن أنك بمنجاة من العقاب فلن تعود أبداً لزوجتك كاننز ، وهاك مثلاً يدلّك على ما تقدر عليه المرأة العاشقة حين تُهان . وإن هذه المرأة التى أحببت ثم أهينت هى أنا . . . كيركى . » . وعندها التفتت مرتين نحو

مغرب الشمس ومرتين نحو مشرقها ، ثم مسّت الفقى مرات ثلاث بعضها السحرية وتمتعت بعوذات ثلاث ، ولكن بيكوس فرّ من أمامها غير أنه ما لبث أن دُهِش حين رأى أن سرعته تفوق قدرته المهدودة وإذا هو يرى أن الريش قد نبت على جانبيه . وإذ أحسّ المهانة لمسخه في غير إبطاء طيراً ينضمّ إلى طيور غابات لاتيوم غرس منقاره الصّلب في جذع شجرة بلوط برى كما نقر به غصونها الفارعة ، وإذا هو يرى أن ريشه قد اتخذ لون أرجوان الخلاميس الذى كان يرتديه ، وتحوّل مشبكه إلى دائرة من الريش تحيط بعنقه وكأنها قلادة من ذهب ، ولم يبق من الإنسان الذى كان يحمل اسم بيكوس غير اسمه^(٢٠) [الطائر النّقار] .

وبينما بيكوس قد انتهى إلى هذا المصير كان رفاقه قد انطلقوا يبحثون عنه في الغابات والوديان فلم تقع عيونهم إلا على كيركى ، وكانت قد أعادت الضوء ينير الأجواء وسمحت للريح والشمس بأن تبدّد السحب ، فانتهال رجال بيكوس عليها شاكين مطالبين بمليكمهم ، ثم هددها أن يعنفوا بها وتيهيئوا لرشق سهامهم المروعة في جسدها ، ولكنها أسرع فاطلقت عليهم سباً مُبيداً ونثرت حولها عصارات فتاكة ، ونادت على الليل وألته من أعماق جحيم إيريبوس وعالم الفوضى والعماء ، ثم أطلقت صرخات طويلة متوسلة بها إلى الإلهة هيكتى . ألا ما أعجب ما حدث : فقد وثبت الغابات بعيداً عن مكانها ، وأرسلت الأرض أنات ملتاعة ، وشجبت الأشجار من حواليمهم ، وابتلت المروج في كل مكان بقطرات الدم ، وسمع الناس الأحجار تتأوه تأوهات صارخة كما سمعوا الكلاب تعوى ، وتغطت الأرض بحشود من الأفاعى الخبيثة ، ومضت أرواح الموت ترفرف في الهواء فذهل القوم مما شاهدوه . ولما أتهم كيركى على هذا النحو من الهول لمست بعضهاها السحرية وجوههم التى علاها الدهول ، فإذا معجزة أخرى تتجلى إذ مسخ البشر حيوانات ضارية وتجردوا من هيئاتهم الأولى .

كان فويوس قد غمر بضوئه سواحل تارتيسوس^(٢١) قبل أن يتوارى ، وبعثاً ظلت كاننز ترصد عودة زوجها بعينها وبقلبها ، وكان خدمها قد انتشروا في كل مكان وتبعهم أهل المدينة بحثاً عن بيكوس في أعماق الغابات حاملين الشعلات يبددون بها حلكة الليل . ولم تكتف الحورية بالبكاء وشدّ شعرها وضرب صدرها والتعبير عن ألمها بشتى الوسائل ، وإنما انطلقت خارج قصرها إلى وديان مملكة لاتيوم وقد مسّها الجنون ، وشهدت أياماً سبعة وليالي سبعة لا تطعم طعاماً ولا تنوق نوماً تهيم بين الجبال حيث تقودها المصادفة ، وكان آخر من رآها هوربّ نهر التير الذى ألقى بنفسها على ضفّته بعد أن هدّتها آلام الأسى وقسوة الحزن . ومع دموعها وبأسها كانت تردّد بصوتها المتهدج شكاة ما أشبهها في شجنها بأنعام حزينة موقّعة لبيجة قد أشرفت على الموت . وتحمّل جسدها مع الألم حتى ذاب نخاع عظامها ، وتهاوت شيئاً فشيئاً مختلطة بالهواء الذى علقت به . ومع ذلك فإن ذكراها ظلت خالدة حيث هلكت ، وكان هذا المكان هو الذى أطلقت عليه حوريات الماء المسّميات بالكاميناي^(٢٢) اسم هذه الحورية كاننز .

تلك عجيبة من عجائب ظللت طوال سنة أسمعها من الآخرين بأذى أو أشهداها بعينى . وكان الفراغ والخمول قد سلبانا الرغبة في الإبحار حتى أمرنا يوماً بأن نبحر . وقد أنذرتنا بنت التيتان أن الملاحة

غير آمنة في هذه المياه وأن الطريق طويل ، وأن هيجان البحر العنيف ينذرنا بأخطار شتى فإذا الخوف يملؤني . وإذ كنت قد أدركت هذا الشاطئ قرّ عزمي على استيظانه .

٤٤٠

رفاق ديوميديس

وبعد أن فرغ مكاربيوس من سرد قصته وضع أينياس رماد جثة مرضعته في إناء رخامي ونقش على قبرها هذه العبارة الموجزة : « ما أنذا كاييتا . هنا أودع البطل الورع الذي أرضعته نديى بقايا جثثاني في النار المقدسة كما تقضى شرائع الدين بعد أن انتشلتني من نار العدو الإغريقي الحارقة » . وما لبث الطرواديون أن أرخوا حبال سفنهم من المرسى المغطى بالأعشاب وحلقوا وراءهم تلك الجزيرة الغادرة مأوى الإلهة السيئة السيرة ، ثم اتجهت السفن نحو منطقة الغابات حيث يصب نهر التير مياهه المختلطة بالغرّين الأصفر في البحر تحت ظلال الأشجار . وكما قدّم لاتينوس بن فاونوس داره لأينياس قدّم له ابنته بالمثل ، غير أن تلك المشيئة لم يكتب لها أن تتحقق دون قتال ، فشبت حرب مع شعب عنيد شديد المراس . وكان تورنوس قد بذل كل ما يملك من وسائل الترهيب لكي يظفر بابنة لاتينوس التي كانت خطيبته فيما مضى ، ونحاضت مملكة لاتيوم حرباً ضد مملكة تيرينا (إتروريا) بأسرها وبقي جيشاهما يتنازعا طولياً نصراً عصبياً . وأخذ كل منهما يحاول تدعيم قوته بما يستعين به من إمدادات خارجية ، وكافحت شعوب شتى متحالفة مع شعب الروتولين أتباع لاتينوس ، كما كافح آخرون مساندة للمعسكر الطروادي^(٢٣) . ولم تكن زيارة أينياس لـ « إيثاندر »^(٢٤) بلا جدوى على حين جاءت بالفشل زيارة فينولوس [المنتمى إلى الروتولين] لمدينة ديوميديس المبعد عن وطنه^(٢٥) . وكان ديوميديس يحكم البلاد التي كانت مهراً من زوجته ، ولكنه كان يحكمها في ظل حماية داونوس الباييجي^(٢٦) واستطاع أن يشيد في هذه الأراضي مدينة ذات أسوار عالية . ولكن ما إن جاءه فينولوس بناء على أوامر تورنوس يطلب عونه حتى تحاذل عن مساعدته معتزلاً بقلّة موارده وضعف جيوشه إذ كان عازفاً عن توريث رعايا حيه . هذا إلى أنه لم يكن بين مواطنيه ما يكفي من المحاربين للاشتراك في القتال فاعتذر يقول : « ما أحب ان تحملوا ردى على أنه ذرائع وتعلات ، إذ كلما استعدت ذكرياتي أثار فيّ آلاماً مبرحة ، ولكني مع ذلك سأتحمّل بالشجاعة لأقصّ عليكم قصتي : بعد أن احترقت قلعة إليوم [طروادة] وبعد أن التهمت النيران التي أشعلها الإغريق مدينة برجامون ، لأن بطل ناريكس [أجاكس] اختطف عذراء ممن تشملهن إلهة العذارى بالرعاية [كاساندر] ، حتّى علينا أن نقاسم العقاب الذي كان يستحقه هو وحده . ودفعت الرياح سفننا في المياه المضطربة الثائرة وجعلتنا نصارع البرق والظلمات والأمطار وغضب السموات والبحر ثم لتاقى الهول الذي كان خاتمة المطاف في برزخ كافاريوس^(٢٧) . ولست أبغى الإسهاب في رواية ما حدث لنا من مغامرات فاجعة ، فلقد اجتازت اليونان كلها وقتذاك عنّة كان يسيراً أن تستدر حتى دموع بريام ملك طروادة . أما أنا فقد نجوت لأن رحمة الإلهة منيرفا ذات الدرع والرمح قد أنقذتني من غضبة المياه ، وما أنذا الآن أجدني مطروداً من حقول أبي ، تعاقبني الإلهة فينوس الطيبة على جرح قديم جرحته إياها عن غير قصد^(٢٨) .

٤٨٠

وهكذا قُدِّر لي أن أشقى هذه المحن في رحلاتي بالبحار العميقة كما عانيت محناً أخرى على اليابسة في معارك القتال ، حتى لقد صرت أعدُّ أولئك الذين لم يشاركوا في القتال جدَّ محظوظين ، وكم أسفت أن العواصف عند برزخ كافاريوس المنيع لم تأت على مثلهم . أما رفاقي الذين ذاقوا متاع الحرب ومغالبة الأمواج فقد انهارت شجاعتهم وأخذوا يتوسلون إلى أن أضع نهاية لرحلاتهم التي غناء فيها ، إلى أن صاح أكمون ابن مدينة بليورون الذي كان نائراً بطبعه والذي أذكت المحن المتتالية من ثورته قائلاً : « تُرى بعد كل ما عانيتم أيها الرفاق ما سوف يكون مدى احتمالكم ؟ وهل ثمة محن أخرى نخبُّها لنا إلهة كيثيرا ؟ فكلما خاف المرء أن يعرض له مزيد من المحن فوجيء بمحن أكثر . وما أقدر الإنسان على أن يغلب مخاوفه إذا ما انتهى إلى ذروة شقائه فلا يعود قلقه من المستقبل يساوره . ألا فلتسمنى الإلهة وتلاحقنا بكراهيتها نحن رفاق ديوميديس ، فكلنا نزدري كراهيتها ولا ترهبنا سطوتها الكبرى . » ولقد ضاعفت قولة أكمون المفعممة بالتحلى من ثورة غضب فينوس . وعلى حين هلل بعض رفاق أكمون لقولته لامته الكثرة وكنت أنا من بينهم . وحين حاول الرد علينا إذا صوته يضيع وحلقه ينطبق وإذا هو يضممر جسده ويتحوّل شعره ريشاً ، كما كسا الريش عنقه المسوخ وصدّره وظهره ونبت ريش أطول على ذراعيه وتقوس كوعاه فغدغنا جناحين خفيفين ، وامتلاً ما بين أصابع قدميه بغشاء رقيق ، وإذا فمه منقار مدبّب فحلقق فيه زملاؤه ميكوس وإيداس ونكتيوس وركسنور وأباس مذهولين وإذا هم الآخرون يُسخون على هيئته . وهكذا انطلق أكثر رفاقي سرباً من الطيور يخفق بأجنحته في الهواء ويدور حول المجذّفين بمجازيفهم . وإذا أردت أن تعرف هيئة هذه الطيور التي وُلدت لتوها فاعرف أنها ليست بجعاً وإن كانت تشبهه كثيراً لبياض ريشها^(٢٩) .

أما أنا وتلك القلّة الباقية من رفاقي فلقد غدونا نضطلع بشئون هذه الديار ونفعل تلك السهول الجرداء التي انتهت إلى مهراً من داونوس الياييجي لزواجي من ابنته .

٥٠٠

شجرة الزيتون البرية

وبعد أن قصّ ديوميديس حفيد أوينيوس قصصه غادر فينولوس مملكة كاليدون عائداً إلى بلاده عبر خليج بيوكيتيا وحقول ميسايا فوق بصره على كهف تظله أشجار كثيفة وتمججه عن العيون قصبات من الغاب ، وكان يسكنه بان الإله نصف التيس ، وإن تكن حوريات الأنهار قد سكنته قبل قديماً . ويروى أن راعياً من أبوليا حلّ ذات يوم بهذا الكهف فذعرت الحوريات من حلوه وهربن فزعات . غير أنهن سرعان ما جمعن شتات رشدهن غير مباليات بمطاردهن وعادن الرقص تدقّ أقدامهن الأرض على إيقاع نشيدهن ، فمضى الراعي يسخر منهن ويقلّدهن بوثبات ثقيلة هوجاء ويقذفهن بشتائم بذيئة ولم يكفّ إلا بعد أن وقع ساق شجرة على حلقه فإذا هو يُسَخ شجرة زيتون برّى ، وأصبحت عصارة ثمرة هذه الشجرة خير دليل على طبعه ، فمرازها التي اكتسبتها من خشونة أسلوبه تيمّ عن بذاعة لسانه .

٥٢٠

سفن أينايس وقصة أرديا

وحين عاد الرسل من يعثتهم برفض الإيتوليين تقديم العون لم يقعد الروتوليون عن القتال على الرغم من عدم عون أولئك الحلفاء لهم فتدفقت سيول الدماء من الطرفين . وها هو ذا تورنوس يقذف شعلات النيران النّهمة على السفن المصنوعة من خشب الصنوبر فإذا هي تلتهب ، وإذا الرجال الذين نجوا من الموت غرقاً يتهيئون الموت حرقاً ، وكان مولكيبير إله النار قد أخذ يقذف في جوفه بالقطران والشمع ويكل ما يغذى النار وتسلق الصارمى الكبير مُصعداً نحو الشراع وسط الدخان المنبعث من العروق التي في مؤخرة السفن .

وحين تذكرت كوييلى أم الآلهة المبجلة أن خشب الصنوبر الذى صُنعت منه هذه السفن قد جاء من أشجار جبل إيدا الذى تباركه ملأت الهواء بصفير المصفار وبقرق الصنوج ، وأقبلت تشقّ الهواء الرقيق على مركبتها التى يجرها زوج من الأسود المروضة وصاحت : « عبثاً تطوّح يدك الجاحداتان بهذه المشاعل المحرقة يا تورنوس فلسوف أنتزعها منك ، ولن أذن لنار أن تحيل جزءاً من غاباتي رماداً » .

٥٤٠

وما انتهت الإلهة من تحذيرها حتى أوعدت السماء ، وهبطت في إثر البرق أمطار غزيرة يتخللها برد متساقط . وأثارت الرياح أبناء أسترايوس^(٣١) في الهواء فتنة وفي المياه ثورة في هبوبها ، على حين جعلت أم الآلهة الحنون ريحاً من هذه الرياح تمزّق حبال الكتان التى تربط الأسطول الفريجى فدفعت سفنه أمامها حتى غرقت ، غير أن خشب السفن لم يلبث أن تحوّل لحماً واستحالت حيازيمها المقوسة وجوها بشرية ، كما أصبحت المجاذيف أنامل وسيقانا قادرة على السباحة . وتحوّل ما كان جوانب السفن إلى ضلوع . أما الصالب^(٣٢) الذى يتوسط قاع السفينة فقد استحال عموداً فقرياً ، وأصبحت الحبال شعوراً مسترسلة ، وغدت ساريتا السفينة ذراعين غير أن لونها بقى لازورديا كما كان من قبل ، وتحوّلت السفن التى كانت تهاب الأمواج إلى حوريات بحر يعبثن بالمياه . ومن عجب أن أولئك الحوريات اللاتي وُلدن على صخور الجبال بتن لا يفكرن في أصولهن بعد أن ضمّتهن المياه ، إلاّ أنهن لم ينسین مخاطر رحلاتهن في الخضم ، فما أكثر ما كنّ يسندن السفن التى تطلّمنها العواصف بأيديهن غير سفن الآخيين إذ كن مازلن يذكرن ماسى الفريجين التى غدّت كراهيتهن للبيلاجيين [الإغريق] ، لذلك فرحن لما رأين حطام سفينة ملك نيريتوس [أوديسوس] ، كما قرّت عيونهن بفرحة دونها عندما شهلن سفينة ألكينوس تتجمّد ، ويتحول خشبها إلى صخر وسط البحار .

٥٦٠

وحينما سرت الحياة في هذه السفن - التى تحوّلت إلى حوريات بحار - كان ثمة أمل في أن يفزع الروتوليون من هذه المعجزة وينفضون أيديهم من الحرب ، غير أن الروتوليين لم يعدلوا عن الحرب بل استمروا يواصلونها . وكان لكل فريق آلهته التى ترعاه ، كما كانت لكل منهم شجاعته التى تعدل رعاية الإله . فلم يمدّ النزاع قائماً حول مملكة أتفيق أن تكون مهراً ، ولا حول صولجان صبهّر ، ولا حولك أنت يالاثينيا العذراء ، بل أصبح هدف المعركة هو النصر وحده . واستمرت الحرب خشية عار الانسحاب ، إلى أن اطمانت فينوس في نهاية الأمر إلى فوز جيش ولدها وهزيمة جيش تورنوس ، وسقطت مدينة أرديا

التي اشتهرت بياسها في حياة تورنوس^(٣٢)، حتى إذا تهاوت محرقة وسط السنة النيران التي اشعلها الدردانيون وتساقت بيوتها تحت الجمر المتوهج، انطلق من بين الخرائب والأطلال طير لم يشهده أحد من قبل أخذ يرفرف فوق المدينة وينفض الرماد من أجنحته الخفاقة، وأخذت صيحاته وشحوبه ونحوه تذكر كلها بالمدينة الضائعة، حتى اسم المدينة نفسه قد حمل هذا الطير فسُمي أرديا [أى مالك الخزين]، وهو طير دائم الخفقان بجناحيه والبكاء على مصيره والرثاء لمصابه.

٥٨٠

تأليه أينياس

لقد أنست شجاعة أينياس الآلهة جميعاً ومن بينهم جونو الكراهية التي كانوا يضمرونها له منذ القدم. وكانت سلطة ابنه يولوس التي اكتمل نموها قد رسخت، وأن لهذا البطل أينياس بن فينوس أن يصعد في السماء، ومن أجل هذا أخذت فينوس تسعى سعيها لدى الآلهة واحداً بعد الآخر وطوّقت بذراعيها عنق أبيها جوبيتر قائلة: «أبتاه، أنت لم تقس على يوماً ما ولم ترفض لي رجاء، لذا فإن أسألك أن تمنحني اليوم أعظم ما أتمناه عليك فتهب ابني العزيز أينياس نصيباً من الربوبية مهما كان ضئيلاً، فهو من دم ابنتك ومن ثم فهو حفيدك. فحقق رجائي يا أجل الملوك، وحسبه أنه ألم بمملكة الظلال يوماً وأنه عبر نهر ستيكس ذات مرة».

وما إن سمع كبير الآلهة رجاءها حتى أجابها إلى ما طلبت، وقد قابسته ملكة السموات رضاها فبذت غير متحمة يفيض وجهها بالخير. وقال لها كبير الآلهة: إنك وابنتك جديران بهذه الهبة الساوية، أنت يامن رفعت إلى رجاءك، وهذا الذي تتوسلين من أجله، فإليك يا ابنتي ما تبتغين».

كانت هذه كلمة كبير الآلهة، وعندما قدّمت فينوس التي عمّها الفرح فروض الشكر لأبيها واعتلت مركبتها التي تجرّها اليامات البيضاء، وحلقت في الأثير حتى وصلت شواطئ لاورنتوم حيث ينعطف نهر نوميكيوس ليصبّ في البحر المجاور، هذا النهر الذي تفيض على جانبيه القصبات. وهناك أمرت فينوس ربّ النهر أن يغمس فيه أعضاء أينياس حتى لا يُصيها الموت بالتحلل، كما أمرته أن يغوص بها إلى أعماق النهر الهادئة، فاستجاب لها إله النهر ذو القرنين وغسل منه كل عضو فان إلا ما كان أسمى وأنبل فلا يحتاج إلى أن يمسه ماء النهر. وعكفت أمه بعد ذلك على دهان جسمه ببطر إلهي ثم مسّت شفثيه بمزيج من شهد الآلهة «الأمبروزيا» ونبذهم العذب «النكتار»، وهكذا جعلت منه إلهاً، فرحب به أهل كويرينوس [أحد تلال روما] ودّعوه رباً للمكان فشيدوا له معبداً وهياكل.

٦٠٠

يومونا وثيرتومنوس. إيفيس و أناكساريتي

وأصبحت مملكة ألبا ومملكة لاتيوم بعد ذلك تحت حكم أسكانيوس بن أينياس الذي حظي باسمين^(٣٣)، إلى أن خلفه سلفيوس. ومن بعده حمل لاتينوس بن سلفيوس اسم سلفه ملك لاتيوم القديم

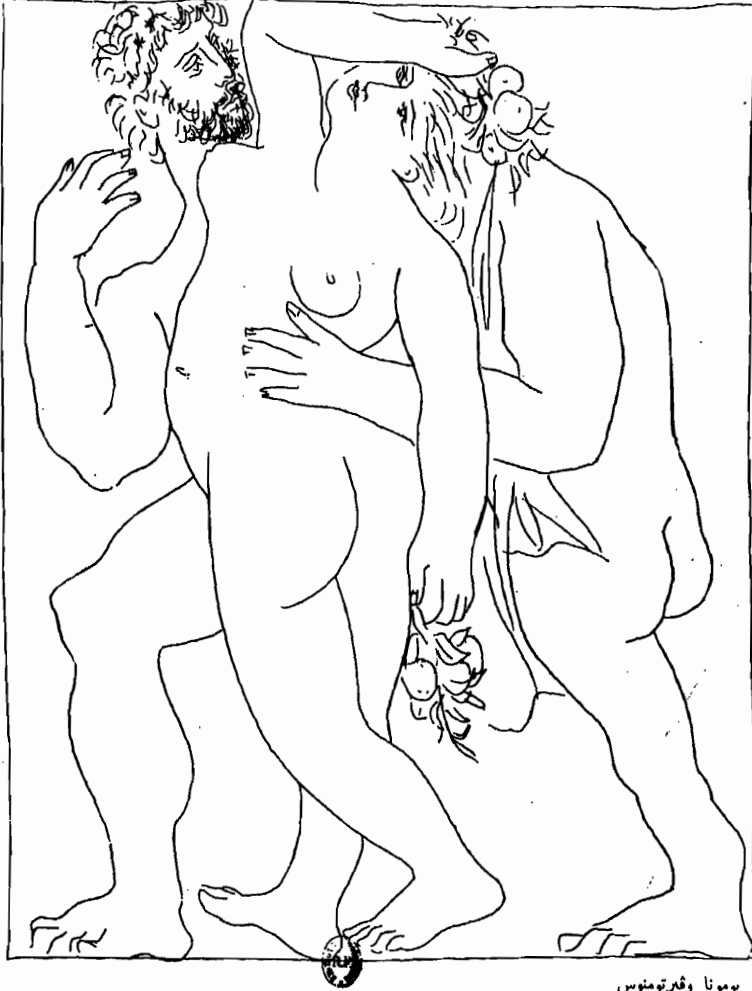
٣٠٦

كما حمل صولجان حكمه . وجاء ألبا الشهير بعد لاتينوس ثم ابنه إبيثوس ثم تولى كاييس الحكم ومن بعده كاييتوس . ومنها تسلم التاج تيرينوس الذى سُمى النهر الإترورى باسمه بعد أن غرق فيه . وأنجب تيرينوس ريمولوس وأكروتا المقاتل المعز بنفسه . وقد صعق البرق ريمولوس أكبر الأخوين عندما كان يحاول أن يقلد البرق في صعقه . وكان أكروتا أقل طموحاً من أخيه فسلم صولجان الحكم إلى أفثيتينوس الباسل الذى دُفن بعد موته في سفح التل الذى كان قد تقلد الحكم فوفه ، فأطلق اسمه على هذا التل بعد ممانه . ٦٢٠

وأصبح پروكا ملكاً لشعب البالاتينوس [أحد تلال روما] ، وفي عهده عاشت پومونا ، ولم تكن من بين حوريات غابات لاتيوم حورية تفوقها في فلح البساتين وتنسيق الحدائق ، أو تنافسها في العناية بشرا الأشجار ومن هنا أُطلق عليها اسمها پومونا^(٣٤) ، فلم تكن تعشق الغابات والأنهار فحسب بل تعشق أيضاً الحقول المزروعة وغصون الأشجار المثقلة بالفاكهة الوفيرة ، ولا تحمل يدها حربة ثقيل يدها بل تحمل المنجل المقوس تشدّب به أحياناً ذؤابات النيات وتنسّق الغصون المشعّبة أحياناً أخرى . كما تشق أحياناً لحاء جذوع الشجر لتدسّ فيه غصن شجرة يتغلّى من عصارة شجرة أخرى ، وكانت دائمة السّهر على النباتات لا تدعها تعانى ظمأً بل كانت تروىها من الجداول الجارية حتى تشرب بها أطراف الجذور المشعّبة . كان هذا همّها الأكبر ومتعتها الوحيدة في الحياة ، لا تعانى من لفة الحب . وكان خوفها من عنف سكان الريف الذين من طبعهم دوماً الشوق إلى المرأة سبب عزلتها في غوطة الفاكهة التى حرّمت على الرجال دخولها . وكم حاول الساتير أولئك الفتيان المرعبدون الذين لا يعرفون غير الرقص عملاً ، وكم حاول أتباع بان ذوو القرون المحاطة باكالييل ورق الصنوبر ، وكم حاول سيلينوس^(٣٥) الذى يبدو دائماً أصغر سنّاً من حقيقته ، وكم حاول پريابوس ذلك الإله^(٣٦) الذى كان يروّع اللصوص بالكشف عن مذاكيره الضخمة الممّعة طولاً والتلويح بمنجله الحاد ، كم حاول سدى أولئك جميعاً الاستمتاع بها . ٦٤٠

كذلك كان فيرثومونوس يكرّ لها حباً أعظم من حب هؤلاء جميعاً ولكنه مثلهم لم يسعد بها . كم مرة ارتدى رداء الفلاح البسيط كى يحمل إليها سنابل القمح في سلّة فيدا فلاحاً حقاً ! وما أكثر ما ظنّ مشاهدوه وحزمة العشب الغضّ المحصود حول رأسه أنه عائد لتوه من حقل الحصاد . وما أكثر ما كان يقبض على السّوط بيده القوية مما يجعل الناس توفن أنه منته لتوه من رفع النير عن أعناق ثيرانه المنهكة ، وإذا أمسك بالمنجل ظن الناس أنه إما قد فرغ من تشذيب الأغصان أو من تقليم الكروم .

وكان يسير أحياناً والسلم على كتفه فيظن الناس أنه ذاهب لقطف الفاكهة ، وإذا أمسك بسيف ظنوه جندياً محارباً ، وإذا أمسك بقصبة ظنوه صياد سمك . وأخيراً استطاع بعد هذه الحيل الكثيرة من التكر أن يجد الوسيلة التى يقترب بها من پومونا التى كان دائم الشوق إلى إمتاع عينيه بجهاها . وذات يوم أحاط بجبينه بشريط مطرّز باللوان مختلفة واتكأ على عصا ، وسوى شعراً أبيض فوق صدغيه ليبدو في صورة امرأة عجوز ، ودلف إلى حدائقها المنسّقة الغرس ، وأبدى إعجابها بالفاكهة التى شهدها قائلاً : « ما أعظم هذا التاج العزيز الوفير ! » وأغرق في الثناء على پومونا ، ثم هو بعد هذا الثناء يقبلها قبلات لم يُشهد مثلها من امرأة عجوز ، وافترش الأرض وقد قوس ظهره ورفع بصره إلى الغصون المتدلّية بثقل عطاء الخريف . ٦٦٠



بيكاسو : بومونا وفيرتوموس

وكانت ثيمة شجرة دردار شاخنة تنتصب أمامه تحيط بها عناقيد الكروم وكأنها قلادة لها مبيهرة ، فأطرى تلك الشجرة ورفيقتها الكرمة قائلاً : « لو كانت هذه الشجرة قد نهضت وحدها جذعاً وحيداً دون الكرمة التي تكتنفها لما قصدتها أحد إلا ليقطف أوراقها ، كذلك هذه الكرمة التي تستند إلى جذع الدردار لو لم تقترن به لمبطلت إلى الأرض متخاذلة . أما أنت فما يبدو عليك أنك تدركين هذا المثل الذي تضربه هذه الشجرة ،

فأنت دائمة المهروب من مباحج الحب ولا تحرصين على الاقتران برجل . ألا فلتكن مشيئة الآلهة أن ترضى يوماً بالزواج . فكم من عشاق قصدوك أكثر عن قصدوا هيلينا نفسها ، أو هيبوداميا التي كانت سبب المعركة بين اللايث والقططور ، أو بينيلوي زوجة أوديسيوس الذي كان يبدو شجاعاً حيناً وجباناً حيناً آخر^(٣٧) . وإلى الآن وأنت تتمتعين على العشاق ، فكم من ألوف من الرجال وقعوا في هواك ، وكم هناك من عشاق لك من بين الآلهة وأنصاف الآلهة ومن هم دونهم من الآلهة التي تعيش على جبال ألبا . ولو رُزقت شيئاً من الحكمة وشيئاً من الدراية بمصلحتك ، ثم لو كانت لك الرغبة في أن تعيشي في ظل رجل تسعدان معاً لأنصت إلى تلك المرأة العجوز التي تقف أمامك ، فحبها لك يطغى على حب الرجال لك وفوق هذا الحب . وما أنصح لك به يا ابنتي ألا تهبطي إلى مستوى العامة واجعلي من فيرتومونوس رفيقاً لك في مضجعك ، وأنا كفيلة باقناعه فإ أدراى به . وهو ليس ممن يهيمون على وجوههم في الأرض وراء مغامرات لا طائل تحتها ، بل هو هذا الذي يُفلح تلك الحقول الشاسعة الممتدة أمام بصرك . وهو لا يسقط في حب امرأة رأها آخر ما رأى كما هو شأن من يتوددون إليك كل يوم ، بل ستكونين له أول من أحب ولن يجب بعدك لأنه مشوق أن يجعل حياته كلها لك . ولا تنسى أنه مازال شاباً وأن الطبيعة قد أسبغت عليه حظاً كبيراً من الرسامة ، وأنه قادر على أن يتحول إلى أية هيئة شاء ، وأنه رهن إشارتك دوماً لأن يتحول إلى الهيئة التي تؤثرين . هذا إلى أنكما تتفقان مشارب وأذواقاً . أليس هو أول من يذوق التفاح الذي تزرعين ، ومن يملأ كفيها فرحاً بشار الأشجار التي رعتيها ؟ ولكني أقول لك إنه ما به من رغبة الآن في ثمار أشجارك ، كما أنه ما به من رغبة في نتاج بستانك ولا في فاكهتك الغضة ، بل هو أشوق ما يكون إلى طلعتك أنت . فارحمي عاشقاً يعصف به عاصف الحب ، واستيقني أن كل ما تمنأه قد عبر عنه على لسانى . واحذرى آلهة الانتقام واهة إيدليا [فينوس] ، تلك الإلهة التي تبغض القلوب الغليظة المتحجرة ، ولتحذرى غضب نيميسيس المتحفظ إله الثأر وراعية رامونتي التي لا تحونها الذاكرة أبداً . ولكي تدركى ما قد تعرّضين له من سطوة الآلهة إليك قصة ذاعت في قبرص ، فقد جعلتني حياتي الطويلة أقف على الكثير من الخفايا ، ومن يدرى لعل قصتي تلين قلبك وترقق عواطفك .

٧٠٠ « كان ثمة رجل من أسرة متضعة يدعى إيفيس قد وقع بصره على الأميرة أناكساريتي حفيدة تيوكير [ملك فريجيا في قديم الزمان] ، وسرعان ما أحس بنار الهوى تلهب عظامه . وحاول كثيراً أن يكبح حبه غير أن العقل قلما يكبح جنون العشق ، فجاء متوسلاً إلى عتبة بيت معبودته حيث اعترف لمريضتها بحبه اليائس للأميرة والتمس منها السعى لديها لتبثها ما له عليها من آمال ، كما توسل إلى وصيفاتها بصوت العاشق المذبذب ليمنحنه تأييدهن ومساندتهن . وكثيراً ما أودع في رسائله عواطفه الحانية ، وكثيراً ما كان يعلّق فوق باب القصر أكاليل الزهور مبتلة بدموعه ، وكثيراً أيضاً ما كان يلقي بنفسه على عتبة الباب مُسلماً جسده لقسوة الحجر الصُّلب وهو يلعن القفل المنيع الذي حال بينه وبين الدخول بصوت حزين . وكانت أناكساريتي أشد قسوة من البحر نفسه ، ذلك البحر الذي يهبج عندما يأفل نجا الجديدين زيتا وإيتا ، وكان قلبها أعتى من حديد مسابك نوريكوم^(٣٨) وأصلب من الصخور الراسخة في الأرض . وما

أكثر ما سخرت منه ، وما أكثر ما ردت على تشبيهه بعبارات قاسية ملؤها التعالي والخيلاء حتى سدت في وجه عاشقها طريق الأمل . ولم يستطع إيفيس صبراً بعد أن غلب شقاؤه قدرته على المعاناة فانطلق أمام بيت الفتاة يردد كلماته الأخيرة بصوت عال : « لقد كُتِبَ لك الفوز يا أناكساريقِ ولن تضيقى بالخاصي بعد اليوم دَزعاً . فلتفرحي ولتبعدي بنصرك المؤزر ، ولتنشدي نشيد النصر ولتعصبي جيبيك بأكاليل الغار المتلألئة . فانت من كُتِبَ لك الفوز ، وما أنذا أموت طوع إرادق . اذهبي راضية يا من قُدَّ قلبك من فولاذ ، ولعل يوماً يُقبل تشهدين فيه أن موقفك مني جعلني أفعل ما يحرك إعجابك بي وتقديري قدرى . ولكن اذكرى أن حبي لك دائم مادمت حياً إذ أن نور الحياة ونور الحب يجمدان معاً . ولن يجعل لك خبر موتي شائعة من الشائعات المتداولة بل سأمثل أنا نفسي أمام عينيك حتى يكون لك يا أقيس النساء أن تمتعي نظرك بروية جسدي الهامد . ناشدتكم أيتها الألهة في علاكم أن تجعلوا قصتي مروية على ألسنة الناس على مرِّ العصور كلما عنَّ لكم أن تنظروا في أعمال البشر [وما يملك لسان أن يتوصَّل إليكم بأكثر من هذا] ، وأن تضموا إلى ذكراى تلك السنين التي اقتطعتموها من عمري . »

٧٢٠

ثم رفع عينيه الدامعتين أمام الباب الذي كثيراً ما علَّق عليه أكاليل الزهور ، وبذراعيه الممدودتين ربط حبلاً بأعلى مصراعى الباب وشدَّ به أنشوطه ، وصاح من جديد قائلاً : « انظري . هاك الأكاليل التي ترتضيها يا أناكساريقِ القاسية ! » ثم دسَّ رأسه في الأنشوطه وشنق نفسه . وظل حتى بعد أن لفظ آخر أنفاسه معلقاً بالباب فاقد الحياة متجهاً ببصره صوب الأميرة . وأخذت قدمها ترتطبان بمصراعى الباب فإذا لها نحيبٌ وكأنه يندب ما حدث في مرارة ، وانفتح الباب قليلاً وإذا أهل البيت تتكشَّف لهم المأساة وصرخ الخدم والأتباع وأقبلوا يحاولون رفع إيفيس ، ثم حملوا جثته إلى دار أمه الأرملة ، فضمت ابنها بين ذراعيها واحتضنت الجثة الهالمة الباردة وفاهت بعبارات الأسي التي نسمعها للآباء والأمهات في مثل هذه المواقف ، وأقدمت على ما تُقدم عليه الأمهات الشقيقات فانفجرت بكاء وقادت جنازة طويلة اجتازت المدينة حاملة جثمان ابنها على النعش في طريقه إلى المحرقة . وكان بيت أناكساريقِ قريباً من الطريق الذي تمرُّ به الجنازة ، وبلغت أصوات النحيب أذن الفتاة المتحجرة القلب ، وشرع إله النار في إثارة ضميرها . وعلى الرغم من طبيعتها التي لا مبالاة فيها بدأت الشفقة تتسلل إلى قلبها وصاحت : « دعوني أشرف على هذه الجنازة الحزينة » . ثم صعدت إلى حجرة مرتفعة في بيتها لتطلَّ على المشهد من نافذتها المفتوحة على مصراعها ، وما كاد طرفها يقع على إيفيس وهو مُسجى على نعشه حتى جددت عيناها وسرى في جسدها شحوب الموت وجفَّت دماؤها وانطفأت فيها حرارة الحياة وحاولت أن تعود إلى حيث كانت ولكنها ظلت جامدة في مكانها ، وحاولت سدى أن تلتفت بوجهها مرة إثر مرة ، وإذا التحجر الكامن في قلبها يسرى في جسدها كله . وحتى لا تظني أن هذه القصة من بنات الخيال اعلمى أن في سلايس إلى يومنا هذا تمثالاً لعشوقة إيفيس بجوار معبد أطلق عليه اسم « فينوس المتغطسة المتوجسة » .

٧٤٠

٧٦٠

فلتذكرى هذه القصة أيتها الحورية وخُلِّ عنك هذا الكبرياء الذي يملؤك صداً وتمتعا ، وهى نفسك

لعاشقك ، حتى لا يُخمد لفتح الصباح البارد في الربيع براعم ثمارك ، ولا تنثر ريحه في هبوبها زهراتك التي هي الأمل في ثمارك .

وهكذا حاول الربُّ المتكرر في صورة امرأة عجوز أن يعرض قضيبته على بومونا ، ولكن إذ ذهبت مساعيه هباء عاد إلى هيئته الأولى وكشف عن وسامته الجذابة ، ونخل رداء الشبخوخة وظهر أمام الفتاة في أوج مجده كالشمس حين تظهر من وراء السحب البادية أمام طلعتها ، وتأهب لأن يأخذ أمره بالعنف فيحقق مأربه على حين لم تكن ثمة ضرورة لذلك ، إذ ما أسرع ما افتتنت الحورية بجمال الربِّ وأولعت به كما كان هو بها مولعاً .

رومولوس وهيرسيليا

وحكم مملكة أوزونيا ذات الثروة الوفيرة بعد بروكا أموليوس الظالم اعتماداً على جيشه الجرار إلى أن استرد نوميكتور^(٣٩) المعجوز بعون حفيده مملكته السلية . واكتمل خلال مهرجان الهاليليا^(٤٠) إرساء أسس أسوار مدينة روما . ثم جاء تاتبوس ورؤساء قبائل السابين فشنوا الحرب على قلاع المدينة ، وكانت الفتاة طارياً قد مهدت لهم الطريق إلى القلعة وإذا هي تلقى جزاءها العادل حين لقيت حتفها بقذائفهم المتتابعة . ثم تسلل أبناء قبيلة السابين^(٤١) من مدينة كوريس في خفاء وصممت الذئاب وهاجوا حراس المدينة وهم غارقون في نومهم . وكان رومولوس بن إيليا قد أحكم إغلاق أبواب المدينة عدا باب واحد فتحته جونوبنت ساتورن في حرص حتى لا يكون له صرير . وكانت فينوس هي وحدها التي رأت مزلاج الباب وهو ينزع وكادت تحاول إغلاقه لولا ما جرى عليه عُرف الآلهة بالألّا يُبطل إله عمل إله آخر . وإذا كانت حوريات المياه الأوزونيات يعشن قريبات من هذا المكان إلى جوار معبد جانوس في منطقة تتدفق فيها مياه عين نديّة ، لجأت فينوس إليهن فلم يستطعن إلا أن يُعاونها فقد كان مطلبها عادلاً ، ففجرت مياه الأنهار والجداول التي تُمدُّ ينابيعهم [للحيلولة دون العدو وبين اقتحام أسوار المدينة] . وبالرغم من ذلك عجزت عن أن يسدّدن الطريق المؤدى إلى باب معبد جانوس ولم يُفلح الماء وحده في صدّ العدو ، فوضعت الحوريات كبريتاً أصفر في أعماق النبع المتدفق وأضرم النار فيه تحت سطح الأرض بالقار الذي يتصاعد منه الدخان ، فترسبت الحرارة إلى أعماق الينابيع وغدت المياه التي تحدّث برودتها ذات يوم برودة جبال الألب في حرارة المُهل والنار نفسها . ومن هذا الشواظ الناري الملتهب اندلع الدخان في جصّنى بوابة المدينة التي استعصى على السابين الغلاظ أن ينفذوا منها حين طعموا في احتراقها [وما كان أضعف أمهلهم] ، فقد وجد أهل المدينة في هذه المياه المتدفقة عوناً لهم ريثما يجد جنود مارس فسحة من الوقت يتسلّحون فيها ويحملون تروسهم .

وقاد رومولوس جنوده في الهجوم وانتثرت جثث السابين على الأرض الرومانية وقد اختلطت بها جثث المواطنين الرومان ، فامتزج دمُ الصُّهر بدمِ زوج ابنته على نصال السيوف الغادرة يجرى في جداول .

وعندها رأى الجيشان أن يكفّا عن مواصلة القتال ، وأن يُبرّما بينهما صلحاً ينهى الحرب ، وأن يشارك تاتايوس رومولوس عرشه .

ومات تاتايوس وتوّج رومولوس ملكاً على الشعبين فخلع مارس إله الحرب نخوذته وتوجّه إلى كبير الآلهة والبشر قائلاً : « ألا لقد حان الوقت يا مولاي . ها هي ذى روما قد استقرت ولم تعد تركز إلى حماية بطل واحد ، وأطلّ الأوان الذى ستمنحني فيه الجائزة التى وعدتني بها فترقى برومولوس من الأرض إلى السماء . وإنى لأستعيد قولك لى فى مجلس من مجالس الآلهة [وإنى لأذكر كلماتك الجلييلة التى بقيت محفورة فى ذاكرتي] : لترفعنّ يا مارس أحد أبنائك إلى ذروة القبة الزرقاء . ألا فلتكن كلماتك الآن أفعالاً » .

فأوما جوييتير الجبار برأسه مستجيباً ، وما لبث أن ملأ الأجواء بسحب داكنة وألقى الفزع والرعب فى قلوب الناس برعده ويرهق ، فأدرك مارس أن هذه بشائر رضاء رب الأرباب على ارتقاء ابنه إلى السماء . واعتاداً على رمحه الطويل اعتل مركبته التى تجرها الجياد يشقّ الأنفس وبينها عريش ملطّخ بالدم ، وساطها بسوطه مراراً فانطلقت تنهب الفضاء إلى أن هبطت فوق قمة تل الهالاتينوس المكسو بالغابات حيث كان رومولوس بن إيليا يقضى بين شعبه بالحكمة والعدالة فانترعه مارس من بينهم ، وتناثر جسد الملك الفانى فى الفضاء كما تناثر فى السماء قذيفة متفجّرة قذف بها المنجنيق وإذا جسده البشرى فى جلال يليق بجلال الآلهة فى علاهم ، وغدا اسمه كويرينوس مُرتدى الترابيا [ثياب الاحتفالات الساوية] . ٨٢٠

وحين انخرطت هيرسيليا زوجة رومولوس باكية عليه متخيلة أنها قد فقدته ، أمرت جونو كبيرة الآلهة وصيفتها ورسولتها إيريس أن تهبط إلى الأرض لتتزوّد للأرملة البائسة بُشراها : « أيتها الملكة ، يا فخر القبائل اللاتينية والسايينية ، ما كان أجدرك فى الماضى أن تكونى زوجة لمثل هذا البطل العظيم ، ثم ما أجدرك الآن أن تصبّحى زوجة لكويرينوس . جفّفى دمعك ، ولو شئت رؤية زوجك فهلّمى معى إلى الغيضة الخضراء فوق الكويريناليس الذى تظل أشجاره معبد ملك الرومان » .

ونفّذت إيريس رغبة جونو وانزلت نحو الأرض عبر قوس قزح ذى الألوان البهيجة ، وأنهت إلى هيرسيليا مشيئة جونو ، ولم تجسر الملكة أن ترفع عينيها فأجابت فى خشوع وتواضع : أنا لا أعرف من تكونين أيتها الإلهة إلا أنه من الجلىّ أنك تحمّلين سمات الألوهية . خذيني لأرى وجه زوجى ، فلو أذنت لى الأقدار أن أراه مرة واحدة لحسبت نفسى قد دلفت إلى الجنة » .

واقبعت هيرسيليا إلى تل رومولوس فى رفقة بنت ثاوماس العذراء [إيريس] ، وإذا بنجمة من السماء تسقط بعتة إلى الأرض لتشعل النار فى شعر هيرسيليا وتتحد بها ثم تعرج بها إلى السماء حيث استقبلها مؤسس مدينة روما وضمّها إلى صدره وعانقها بذراعيه اللتين تعرفها حق المعرفة ، ثم وهبها جسداً واسما جديدين ، فأصبحت « هورا »^(٤٢) الإلهة التى ارتبطت عبادتها بعبادة كويرينوس .

التعقيبات

- (١) اسم العملاق المشار إليه إنكليديس [انظر الإلياذة لفرجيل الكتاب الثالث ٥٧٨] .
- (٢) مدينة بصقلية .
- (٣) كان إله الشمس قد وشى بحب مارس وثينوس [انظر الكتاب الرابع] .
- (٤) كان فراره في المرة الأولى برفقة أبيه وابنه من طروادة بعد سقوطها .
- (٥) جبل في صقلية كان أينياس قد دفن أباه إلى جواره .
- (٦) ملك من ملوك صقلية قدم العون إلى بريام في الحرب الطروادية وساعد أينياس خلال رحلته .
- (٧) أمير طرواى تحوّل إلى نهر وهو والد أبولوس .
- (٨) جزيرة إسكيا اليوم بإيطاليا .
- (٩) جزيرة پروكيدا الآن .
- (١٠) تملو جبلاً بجزيرة بيثيوكوزا التي يظن البعض أنها سميت كذلك نسبة إلى أن سكانها قد مسخهم جوبيتر قرداً . ويشيخوى تعنى القرد الصغير باللغة اليونانية .
- (١١) الاسم القديم لنابل .
- (١٢) أطلق اسم ميسينوس على لسان نايء في البحر عند شواطئ كامبانيا ، وكان ميسينوس قد دفن به بناء على توصية أينياس [انظر إنيادة فرجيل الكتاب السادس] .
- (١٣) أقحم أوفيد خطبة مكاريس كما فعل فرجيل من قبل في قصته عن بوليفيموس لكي يمزج بين مغامرات أوديسيوس وأينياس .
- (١٤) اقتبس أوفيد هذه الحادثة من الأوديسيا [الكتاب العاشر البيت : ٨٧ وما بعده] . أما فرجيل فلا يروى في إنيادته وقوف أينياس عند ديار الساحرة بل يجعل الإله نبتون يحرف سفن البطل عند الجزيرة [الإنيادة ٧] .
- (١٥) يتبع أوفيد هنا وصف هوميروس بدقة ولكنه ينحرف عن الأصل في وصف غزل الصوف ، فإن النص الهوميروى يقول إن يوريلوكوس ورفاقه قد سمعوا كيركى وهي تغنى أمام نولها نشيدها الذى دعاه هوميروس « نشيد النسجية » .
- (١٦) يرى بعض العلماء أن المقصود بنبات « المولى » هو « رجلة البحر » غير أن هذا الرأى ليس له ما يسانده .
- (١٧) هي بحيرة نيمى المشهورة بجوار روما ، وسميت أيضاً مرآة ديانا . وكان بجوار شواطئها معبد مقدس لديانا رية مدينة أريسيا ، ويلاحظ أن عبادة ديانا في هذا المعبد كانت قريبة جداً في طقوسها من عبادة أرتميس [ديانا] بجبال طوروس ، مما جعل أوفيد يلقبها بديانا السكوئية .
- (١٨) جانوس هو ابن أبوللو وقد أسس قرية بجوار نهر التير سميت جانيكولوم ثم أصبحت فيما بعد جزءاً من روما ، وقد تُوّج أول ملك لإيطاليا القديمة كما آله بعد موته ، وكان يمثل بوجهين لأنه كان يعرف الماضى والمستقبل .
- (١٩) قميص قصير خفيف يرتديه الشباب .

- (٢٠) تعنى بيكوس باللاتينية الطائر النّار .
- (٢١) منطقة مصب نهر الوادى الكبير بإسبانيا .
- (٢٢) الكاميناى اسم لحوريات المياه وأشهرهن إيجيريا التى كانت ملهمة الفيلسوف نوماً پومپيليوس ، ومن ثم كان اسم إيجيريا يطلق على أية امرأة تكون ملهمة لأحد المفكرين أو الفنانين .
- (٢٣) يشير أولفيد إلى الكتاب السابع من الإنيادة الذى تدور كل أحداثه حول ما يومىء إليه أولفيد .
- (٢٤) جاء من أركاديا وأسس مدينة بالتيموث على سفح تلال بالاتينوس ، وقد أصبحت فيها بعد جزءاً من روما .
- (٢٥) تدور هذه الأحداث فى الكتاب الثامن والحادى عشر من إنيادة فرجيل ، ويذكرها هنا أولفيد فى إنجاز مفرط اعتياداً على أن جمهور القراء وتقتد كان على بيته كاملة بكل ما ورد فى الإنيادة وبخاصة تلك الأساطير التى تقصّ نشأة روما .
- (٢٦) المقصود زوجته الثانية ، فقد تزوج ديوميديس إبنة أدريستوس ملك أرجوس ، غير أن زوجته خاتنه فطلقها وعاد إلى بلاده فى أيتوليا . وخلال عودته إلى دياره انحرفت سفيته نحو شواطئ يايجيا التى يحكمها الملك داونوس . وقد طلب داونوس من ديوميديس أن يعينه فى حربه ضد المسابيين وهو شعب مجاور لبلاده ، وبعد انتصارهما تزجه الملك إبته إيفينييه .
- (٢٧) فى الطرف الجنوبى الشرقى لمقاطعة يوبويا .
- (٢٨) كان ديوميديس قد جرح يد فينوس عن غير قصد وهو يقاتل أينياس .
- (٢٩) المقصود طائر النورس .
- (٣٠) استرايوس هو ابن التيتان كريوس ، تزوج من إيوس [أورورا عند الرومان] وأنجب رباحاً ثلاثة هى النسيم « زفير » وريح الشمال « بورياس » وريح الجنوب « نوطوس » .
- (٣١) العارضة الرئيسية التى تمتد على طول قاع المركب .
- (٣٢) كانت لافينيا ابنة الملك لاتينوس من زوجته أماتا ، وكانت قد خطبت لقريبها الملك تورنوس ولكن الهاتف الإلهى أمر أباهما أن يزوجها من أمير أجنبي ، لذلك قُدمت لأينياس عروساً له .
- (٣٣) أسكانيوس ويولوس .
- (٣٤) نسبه إلى يوموم أى ثمار الفاكهة أو الثوت .
- (٣٥) ابن راع وعززة كان يعيش فى العابات ، وكثيراً ما يصوّر ممسكاً بغصن شجرة سرو لانه كان قد عشق غلاماً تحول إلى شجرة سرو هروباً من ملاحظته له .
- (٣٦) كان الساتير وأتباع پان وسيلينوس من أرباب الريف . أما هذا الإله فهو الإله اللاتينى القديم راعي الحقول . ويصفه أولفيد بأنه پريابوس الذى كانت تُشيد له التماثيل العارية الناعطة العضو التناسل لرد شرور الحسد ولضمان خصوبة الأرض .
- (٣٧) أورد العلامة هاينسيوس تصحيحاً لهذا النص أخذ به الكثير من الشارحين ، وهو « الشجاع أمام الجبناء » ، ورأيت الأخذ بالنص القديم .
- (٣٨) منطقة جبلية فى وسط أوروبا على الضفة اليمنى لنهر الدانوب مشهورة بمناجم الحديد .
- (٣٩) الابن الأكبر لپروكا وكان أخوه أموليوس قد خلعه ، ولكن حفيديه رومولوس وريموس ساعده على أن يسترد ملكه المسلوب .
- (٤٠) عيد لتكريم پاليس إلهة القطعان والمراعى وهى التى أضفت اسمها على تل بالاتينوس فى روما .
- (٤١) السابين قبيلة مجاورة للآتين الذين احتلوا منبت روما الأصل ، ولم يكن بين اللاتين من النساء سوى بعض العاهرات ، وقد شاء رومولوس لرجاله الظفر بنساء كرمات حتى يتكاثروا فيخلقوا حضارة جديدة . وكان السابين يابون الزواج من غير عشيرتهم فدعا رومولوس أشراف السابين إلى حفل كبير فى الهواء الطلق وهمس إلى رفاقه أن يخفوا سيوفهم فى العشب حتى إذا أطلق إشارته أمسك كل بسيفه وقتل أحد رجال السابين ودفع إحدى العذارى السابينات إلى قلعة المدينة الجديدة . [انظر الكتاب الأول من « فن الهوى » لأولفيد . ترجمة كاتب هذه السطور] .
- (٤٢) كانت هورا كويرينى [أى التابعة لكويرينوس] توصف أحياناً بأنها الربة فورتونا السابينية الأصل التى تلعب دوراً كبيراً فى الأساطير الرومانية . وأحياناً أخرى كان يخلط بين مويرينى وبين الإلهة هورتا التى يبدو أنها من أصل إتروسكى ، والتى أقام الرومان لها فيها بعد معبداً مفتوح الأبواب . ويقول بعض الشراح أن هورا كويرينى قد تحولت إلى إلهة راعية للشباب فى العقيدة الرومانية .



بيكاسو

الكتاب الخامس عشر

نوما . موسكيلوس وكروتون

كان الناس آنذاك يتطلعون إلى رجل له القدرة على حمل تلك المسئولية الضخمة على نحو ما كان عليه السلف العظيم . وظهرت المتنبئة وإذا هي تصطفى نوما^(١) الذائع الصيت ليمسك بزمام السلطة . وكان نوما حكيماً لم يقنع بتعرف طقوس الشعب السابيني بل سعى إلى ما هو أسمى ، وهو اكتشاف أسرار الكون . وأملت عليه حماسه أن يهجر موطنه في مدينة كوريس^(٢) ويقصد قصد مدينة كروتونا^(٣) التي التجأ إليها هرقل يوماً . وهناك سأل عن أول من شيد مدينة يونانية على سواحل إيطاليا ، فأجابه شيخ من قاطني البلدة وكان عنده قصص الماضي قائلاً :

يروى الرواة أن هرقل بن چوبيتر عاد من المحيط ومعه قطمان أيبيرية كان قد اغتنتها ، وبعد رحلة موفقة بلغ شواطئ لابينوم فترك هذه القطمان ترعى العشب الغض ودلف إلى بيت كروتون العظيم الفياض الجود حيث وجد متنبعاً يرتاح فيه من عناء الرحلة . وحين عن له أن يغادر المكان قال : « لتقومن في هذا الموقع مدينة على أيدي خَلْفِنَا من الأحفاد » وحققت الأيام ما قال . وكان لاليمون الأرجوسى ابن اسمه موسكيلوس كان من أحب الناس إلى الآلهة ، فمال عليه الإله حامل المراهة وهو مستغرق في نومه وهمس إليه : « هلم معى ، واهجر بيت أبيك ولتقصد الجداول المغطى قاعها بالحصى في بلاد آيسار البعيدة » . وخشى الشاب أن يخالف أمره فتتوالى الكوارث الطاحنة ، وحين نهض ابن آليمون من سباته وأخذ يتدبر رؤياه احتدم في نفسه صراع بين الاستجابة لأمر الإله وبين الشرائع التى تحرم الهجرة وتقضى بإعدام كل من يستبدل بوطنه وطناً آخر .

٢٠

وحين غاب وجه الشمس المشرق جمالاً في البحر ، ورفع الليل رأسه المرصع بالنجوم خيل للأمير أنه يواجه الإله من جديد ، وأنه يسمعه يكرر تهديده ووعيده ، وأنه سيصيبه بأضرار أشد قسوة إن لم يستجب لندائه . واستحوذ الخوف على موسكيلوس فإذا هو يعد العدة لينقل ما ورثه عن أبيه إلى موطن جديد . وإذا الناس قد بدأوا يتهامسون بخبره وإذا هو يقدم إلى القضاء متهماً بالخروج على قانون البلاد ، وانتهت المحاكمة بإدانته دون حاجة إلى سماع شهود ، فارتسمت على وجه الفتى المتهم آيات الأسى ورفع بصره إلى السماء باسطة كفيه وهو يستغيث قائلاً : « يا هرقل يا من صعدت إلى السماء بمأثرك الاثنى عشر ، أتوسل إليك أن تمد إلى يد العوزة فانت من دفعنى إلى هذا الموقف » . ووجرت العادة أن يستخدم المحلفون الحصى الأسود إذا كان المتهم مدينياً والحصى الأبيض إذا كان بريئاً . وإذ حكم المحلفون في هذه القضية بإدانة المتهم وضعوا الحصى الأسود في الوعاء ، غير أنه سرعان ما استحال ما فيه من حصى أسود إلى حصى أبيض بقدرة الآلهة فتغير الحكم وبرزت ساحة موسكيلوس ، فهب يزجى الشكر لربه ابن أمفيتريون ، ثم ركب سفينته وأقلع بها في البحر الأيونى تدفعه الرياح المواتية ، فمر بالقرب من مستعمرة تارنتوم اللاكيديمونية [الأسبرطية] ، ثم مدينة سيباريس وفيريتوم مدينة السالنتينين^(٤) ثم بخليج الثوريين^(٥) بتيميسا^(٦) ، ثم بحقول ياكس^(٧) ومضى بمحاذاة الشاطئ يرقب الأراضى المطلة على البحر حتى بلغ مصب نهر آيسار الذى دفعته الأقدار إليه ، حيث وجد مقبرة يضم تراها المقدس عظام كروتون ، فبدأ يشيد في ذلك الموقع - استجابة لأمر تلقاه - أسوار مدينة تحمل إسم البطل المدفون في تراها . وهذه هى قصة أصل المكان كما رواها الرواة من قديم الزمان ، وتلك كانت أسباب بناء هذه المدينة في أطراف إيطاليا .

٤٠

پيتاجوراس

وفي جزيرة ساموس^(٨) ولد پيتاجوراس ، غير أنه تركها لطغيان حكماها واختار عليها أرضاً أخرى هرباً من البطش والاستبداد . وكان پيتاجوراس مشغول الفكر بالآلهة في علياء سمائها ، وببصيرته النافذة تعمق أسرار الطبيعة الكامنة التى تخفى عن البشر . وكان له من رجاحة العقل وعمق الدراسة ما نفذ به من

٦٠

ظلمة الجهل إلى نور العلم الذى بسطه ليدرکه العامة فى يسر ، فاحتشد تلاميذه من حوله مبهورين بعبقريته وسحر حديثه وهو يلقنهم أسرار الكون الفسيح معللاً الأسباب ، شارحاً ماهية الطبيعة وكُنْه الألوهية ، وهل هو جويتر الذى يسوق الرعد عبر قبة السماء أم هى الرياح التى تفرّق السحب عن بعضها البعض ، وأسباب الزلازل وقوانين دورة الكواكب وغوامض الطبيعة ، كما كان أول من أخذ على البشر أكل لحم الحيوان . وهكذا كان بحق أول من نطق بالحكمة لكن أحداً عندها لم يصدقه حين قال : « أيها البشر الفاني لا تدنسوا أجسادكم بطعام تبغضه الآلهة وبين أيديكم الغلال والفاكهة التى تثقل غصون الأشجار وعناقيد الكروم الناضجة وطيبات من النباتات تنضجها النار وتحيلها لينة شهية . وما ترضن الطبيعة عليكم باللبن ولا بالشهد الذى يفوح بأريج الزعتر ، وحقول الأرض سخية تقدم لكم نتاجها ، وغداؤها الشهى تزحمُ به موائدكم دون حاجة إلى ذبح أو سفك دماء . فالوحوش هى التى تشبع جوعتها بلحوم بعضها وليس هذا دأبها كلها ، فالخيل والأغنام والأبقار لا تغتدى إلا بالأعشاب . أما الحيوان المعروف بالقسوة والمطبوع على الوحشية مثل غور أرمينيا والأسود السريعة الغضب والذئب والذئبة فهى التى تجد متعتها فى لعق الدم . وأسفاه . ما أبشع أن تزدرد الأعماء أمعاء أخرى ، وأن يسمن الجسد على لحم جسد آخر ، وأن يمياً كائن على قتل آخر ! ألا تنقع بكنوز الأرض الأم وخيراتنا عن أن تمزق بأنابك أشلاء جسد آخر لثملاً فمك كما يفعل الكيكلويس ؟ هل من وسيلة أخرى لتسدّ نهم معدتك غير التهام كائن آخر مثلك ؟ ففى العهد السحيق الذى كنا ندعوه العهد الذهبى كان الناس لا يأكلون إلا من ثمار الأشجار ونباتات الأرض ، ولا يدنس الإنسان فمه بدماء الذبائح . وكانت الطيور أيامها مخلّقة فى الأجواء دون أن تهتدها أخطار ، وكان الأرنب البرى يعدو بين الأعشاب بلا خوف ولا وجل ، ولم يكن السمك يقع ضحية بريئة بالطعم الملقى إليه فيعلق بالشخص . كانت الطمأنينة والسلام يرفرفان وقتئذ فى كل مكان دون أن يحسب أحد حساباً للمكائد والخداع ، حتى ظهر إنسان شرير واسع الحيلة لا أدرى من هو ، حسد السباع على طعامها ، وقذف فى أحشائه النهمة لحم ذبيحة بادئاً الطريق إلى الجريمة الأثمة . وأظن الأمر بدأ بتخضيب السيوف بدم الوحوش التى تهتد البشر ، وقد كان هذا أمراً ينال الرضا فليس ثمة إثم فى سفك دم حيوان لا هم له إلا افتراسنا . وإذا كان للإنسان الحق فى أن يدافع عن نفسه ، فما أبعد عن الحق حين يتخذ من الحيوان غذاءه . ولكن الجريمة ما لبثت أن اتسع نطاقها ، ويقال إن الخنزير كان أول الضحايا التى استحققت الموت لاقتلاعه البذور من التربة بخطمه المدبّب هادماً بذلك الآمال المعقودة على الحصاد ، ثم جاء دور التيس الذى نُحر فوق مذابح باكخوس عقاباً له على قرضه الكروم ، فإن كانت هذه هى جريرة تلكا الحيوانين فما هى جريرتك أيتها النعاج الوادعة التى ما خلقت إلا لنفع البشر . فى ضرورك شراب نغتنى به ، وعلى ظهورك أصواف ننسج منها ثياباً حانية ، فنفعك لنا حية أكثر من نفعك لنا ميتة . وما أشقى الثور الذى لم يعرف الخديعة والمكر ولا الدهاء ولا الأذى وقد وُلد قوياً ليحتمل أثق الأعباء ! وكم صار الإنسان ناكراً للجميل حين دفعه شرهه إلى أن يرفع الثير عن عنق الثور الذى يجرث له حقله فيذبحه غير راض بما يغل له ، هاوياً بالساطور على ذلك العنق المكدود فى خدمته وفى حرارة الأرض الصلبة لإنبات الحصاد بعد الحصاد .

ولم يقنع البشر بارتكاب هذه الجرائم بل شاءوا إشراك الآلهة في إثمهم وخالوها تستمتع هي الأخرى
بذبح الثيران الوديعه ! لقد اتخذوا من فتوة الثور مسوغاً لهلاكه قتادوه إلى المذبح متوجاً بأكاليل الغار
والذهب ، يسمع صلوات الكاهن دون أن يفهمها ، ويرى بذور الغلال التي حرثها من قبل تنثر على جبينه
وتنسب من بين قرنيه ، ثم يهرون عليه بالساطور الذي سرعان ما يتخضب بدمه ، ذلك الساطور الذي
كان الثور يرى صورته منذ حين وديعاً ساكناً في المياه الطاهرة التي تحتويها آنية المعبد فلا يراه يحمل له شراً .
ثم يستخرجون أحشائه وهي ما تزال تنبض وترتف بالحياة يتفحصونها بحثاً عما تدبره الآلهة للبشر . كيف
تجسرون إذن أيها البشر على أكل هذه اللحوم ، ألا ما أشدّ نهم الإنسان إلى الغذاء المحرم . ناشدتكُم أن
تقلعوا عن ذلك ولتصغوا إلى نصيحتي ، واعلموا أنكم حينما تمضغون بأسنانكم لحم الثور الذبيح إنما
تلتهمون حارثكم الوقي .

١٤٠

ومادمت أتحدث عن أمر إله فسأنصاع لأمره كلمة كلمة ، وسأكشف لكم الستار عن أسرار دلفي^(٩)
التي أكتنأ في صدرى ، وسأفتح أمام عيونكم منافذ السموات ، وأكاشفكم برسائل الحكمة العليا وأبنيكم
الأسرار العميقة التي لم تستطع عبقرية بشر بلوغها فظلت خفية عليهم . وكم أود أن أحلّق في الأفاق بين
الكواكب والنجوم تاركاً هذه الأرض التي تقعد المهيم معتلياً السحاب حتى أمبط على كفتي « أطلس »
الجبّار ، وأنطلع ببصرى إلى البشر عن بعد وهم يهيمون على وجوههم على غير هدى فأنشر لهم لفافة القدر
المطوية وأبثّ في قلوبهم إيماناً لا يخشون معه الموت . أيها الجنس البشرى المفرّغ الذي وقف جامداً خوفاً من
الموت الجاثم ، لماذا تخشى نهر ستيكس والظلمات والكلمات الجوفاء التي ليست غير بضاعة يستخدمها
الشعراء في قصائدهم ؟ لماذا تخشى أخطار عالم لا وجود له ؟ فلتطمئن نفوسكم إلى أن أجسادكم لن تستشعر
ألماً بعد الموت سواء تحولت إلى رماد فوق المحرقة أم تحلّلت بطيئاً في الثرى مع مرور الأيام . أما الروح فإن
الموت لا يدركها ، فهي ما تكاد تحلّف ماوى حتى تجد لها ماوى جديداً يفتح أمامها وتعيش فيه
راضية^(١٠) . وأذكر واعياً أننى وقت حرب طروادة كنت يوفوريوس بن بانثووس الذي تلقى في صدره طعنة
قاتلة من رمح منيلاوس ثانى قادة الإغريق . وقد تعرّفت على تلك الترس التي كنت أحملها على ذراعى
اليسرى أيامها حين رأيتها منذ قليل بمعبد جونو في أرجوس مدينة أباس^(١١) . إن كل شيء يتحوّل ولكنه لا
يفنى ، وإن نسيات الحياة تمضى في الكون من هنا وهناك تضم من الأطراف ما تشاء ، وتنفذ إلى جسد من
تختار . قد تكمن في جسد حيوان ثم تدعه إلى جسد بشر . وهذه النسيات التي تبتّ فينا الحياة قد تنتقل منا
إلى الحيوان دون أن تفقد ذاتيتها ، فهي كالشمع المرن الذى يتشكل صورا جديده مختلفة ولا يبقى على
شكل ثابت ومع ذلك لا يفقد طابعه . أقول لكم إنى أؤمن أن الروح تبقى هي هي دوماً معها حلّت في
أجساد مختلفة ، فاحذروا - ناشدتكُم الآلهة - أن تطردوا من دوركم روحاً قد تكون بيننا وبين أرواحكم
وشائج قرى فتتهكوا بذبحها الحرمات ، ولا تجعلوا الجشع ينسيكم البرّ بأقربائكم ، ولا تدعوا الدم يعدو
على الدم .

١٦٠



ومادمت قد أبحرت كالسفينية في خضم أفكارى وجعلتُ الرياح تملأ شراعٍ حديشى فسأستطرد إلى ما هو أبعد وأقول لكم إنه ليس في الكون كله ثمة شيء ثابت ، فكل شيء في تغيرٍ مستمر يسيل كالماء ، وأشكال الكائنات عارضة ، والزمن نفسه يمضي منساباً وكأنه النهر بل أسرع ، لأن ساعة الزمن العجل لا تستطيع أن تتوقف ولو شاءت . فكما تدفع الموجة الموجة أمامها وتأخذ مكانها فكذاك الساعات تهرب

١٨٠

الواحدة من الأخرى ، وتطارد هذه تلك في تجمّد بلا تلبّث ، ويصبح ما حدث منذ قليل بعيداً ، ثم يحدث ما لم يكن قد حدث من قبل . وليست كل برهة من الزمن إلاّ خَلْقاً جديداً ، وإنكم لتشهدون الليل ساعة يفرغ من رحلته يمدّ يده إلى الفجر ، ويشرق نورُ النهار ليخُفّف ظلمات الليل ، وإن لون السماء ليختلف في أوج الليل ساعة يسترخي الناس بعد الكدّ عنه ساعة يصعد لوسيفر حاملاً النور من أمواج الخضمّ ممطياً جواده الأبيض ، كما يختلف قبيل الفجر ساعة ترقش أورورا ابنة باللاس العالم بألوانها قبل أن تسلمه إلى فويوس . وإن قرص الإله نفسه ليأخذ اللون الأحمر عندما يطفو قليلاً فوق سطح الأرض في الصباح الباكر ، كما يأخذ اللون نفسه آخر النهار عندما يبدأ في المغيب على المستوى نفسه من سطح الأرض . وهو يضحى أبيض حين يبلغ سمت السماء لأن الهواء في الطبقات العليا أكثر نقاءً لبعده عن أدراج الأرض . أما كوكب ديانا [القمر] الذي يتألق ليلاً فإنه لا يبقى في صورة واحدة بل يتغير حجمه من ليلة إلى أخرى ، إذ يكبر كل يوم وهو في طريقه إلى الاكتمال ، ثم يصغر كل يوم وهو في طريقه إلى المحاق .

ثم ماذا ؟ ألا ترونّ العام يأخذ أشكالاً أربعة متتابعة هي الفصول التي تحاكي مراحل حياتنا . فهي طفل وديع يتغلّى بلبن الثدي حين يهلّ الربيع ، ويظهر العشب الجديد غضاً رقيقاً لكنه زاخراً بالعصارة ، يبعث السعادة في قلوب المزارعين الذين يمثّل لهم الأمل ، ثم يزدهر كل شيء وتأخذ الورود المختلفة الألوان في الابتسام للأرض الحانية ، ولكن ما تزال الأوراق غصّة يعوزها النماء . وبعد انصرام الربيع يصبح العام أقوى جلدأ مع دخول الصيف مثلما يصبح الطفل شاباً قوياً ، فهي المرحلة الحافلة بالقوة والحصوية والدفء والحفاصة . وحين تفتت حرارة الشباب يهلّ الخريف في إثر الصيف ، وهو فصل الامتلاء بالضحك ، يلتقى فيه الشباب بالشيخوخة ، وتظهر بعض الشعرات الشهباء فوق الصدغين . ثم يأتي الشتاء الهرم مرتجفاً متعزّز الخطى ناحل الشعر ، وإن بقيت منه بقية كانت ذات لون ناصع البياض .

وكذلك تتغير أجسادنا نفسها ، ولا تكون في الغد مثل ما كانت عليه بالأمس ولا مثل ما هي عليه اليوم . ولقد كنا يوماً في أرحام أمهاتنا - يوم كنا فيها نطفة فحسب - الأمل في إنسان مكتمل ، فتناولتنا يد الطبيعة المخضرة وأمّدتنا بالعون ، ولم تشأ أن نبقي سجناء في رحم الأم الضيق لا نستطيع به حراكاً فدفعتنا إلى الهواء الطلق . وحين يخرج الطفل إلى النور لأول مرة يبقى مستلقياً لا حول له ، ثم يجوز أحفاً على يديه وقدميه كذوات الأربع . ورويداً ورويداً يتنصب على ساقين مرتجفتين لا تثبتان ، وقد يعتمد على ما يسند ، ثم يصبح قوياً سريع الحركة والعُدو ، يمرّ بمراحل الشباب إلى أن يبلغ سنوات الرجولة ، ثم يأخذ في الانزلاج على منحدر الشيخوخة التي توهم عزم السنين الخالية وتزعزع أركانها . ويروى أن ميلون^(١٢) كان لا يكفّ عن البكاء في شيخوخته كلما أحسّ ضعف ذراعيه ونحوها بعد ما كانت في قوة وصلابة ذراعي

هرقل . كذلك أجهشت هيلينا ابنة تندارس بالبكاء حين تأملت وجهها في المرآة وقد بدت فيه تمجاعد السنين وتساءلت متعجّبة كيف حدث أن اختلطت مرتين متتاليتين^(١٣) ؟ إيه أيها الزمن ، إنك تلتهم كل شيء ولا تشيع ، وكذلك أنت أيتها الشيخوخة الغيورة ، تطحنين كل شيء بأنياك وتنتهين به إلى الموت .

- ٢٤٠ لا ثبات لعناصر الطبيعة ، وإليكم تقلباتها . إن العالم الأبدى يشمل عناصر أربعة هي أصل كل شيء ، اثنان منها ثقلان يغموص بهما ثقلهما إلى أدنى وهما التراب والماء ، واثنان لا وزن لهما فلا يعوقهما شيء عن الانطلاق إلى أعلى وهما الهواء والنار الأشد نقاء . وعلى الرغم من أنه ثمة فراغ يفصل بين هذه العناصر فإن كل شيء يبدأ منها وينتهي إليها . فالأرض حين تذوب تستحيل سائلاً ، والسائل حين يتبخّر يصبح ريحاً وهواء ، والهواء بعد أن يفقد وزنه كله ويرق ينطلق نحو الأثير الملتهب . ثم نشهد بعد ذلك سلسلة من التحولات في اتجاه عكسي ، فتعود هذه العناصر إلى شكلها الأصلي مرة ثانية بعد أن تكون قد تحوّلت على النحو الذى ذكرته . فالنار مثلاً تتكاثف فتصبح هواءً . والهواء يصبح ماءً ، والماء عند تجمّده يشكّل أرضاً صلبة ، فلا شيء يحتفظ بشكله الأصلي ، فالطبيعة في جدد مستمر ، والمادة دائمة التشكّل في أشكال مختلفة ، إذ لا شيء يفتى ، فالكون فسيح ، وكل شيء فيه يتشكل على صور جديدة متغيرة . واليولد ليس إلا بداية حال جديدة تختلف عن حال سبقتها ، وليس الموت غير نهاية لهذه الحال من أجل بداية حال غيرها ، ومن الممكن نقل جزء من المادة إلى مكان ما وجزء آخر إلى مكان غيره ، ولكن حاصل جمع هذه الأجزاء يبقى بلا تغير ، فليس ثمة شيء يستمر على مظهره وقتاً طويلاً . وهكذا انتقلت العصور من الذهب إلى الحديد ، وهكذا تقلّبت مصائر الأمم والحضارات . وقد رأيت أنا نفسى تحوّل أرض جامدة إلى بحر متدفق ، كما رأيت بحراً يتحوّل إلى أرض صلبة ، وكثيراً ما نجد أرضاً مغطاة بالأصداف رغم بعدها عن البحر ، أو نعثر على مرساة قديمة فوق قمة جبل ، كما حوّل الفيضان سهولاً إلى وديان ، وكم دفعت السيول جبالاً إلى وسط السهول ، وكم جفّت مستنقعات وتركت مكانها صحارى جرداء ، كما تحوّلت أراض جافة إلى مستنقعات راكدة الماء . وفى ذلك دليل على قدرة الطبيعة على إظهار أشياء في مكان ما وحجب غيرها في مكان آخر . والزلازل الهادرة في أعماق الأرض تفجّر الأنهار فوقها تارة وتمتصها تارة أخرى تاركة مكانها بواراً . وقد انشقت الأرض تحت نهر الليكوس^(١٤) وابتلعتة في جوفها ، وإذا هويتفجّر ثانية في مكان بعيد عبر فجوة خرج منها إلى النور . وتكرر ذلك مع نهر إيراسينوس العظيم^(١٥) ، فبعد أن ابتلعتة الأرض ظل يسرى في أعماقها حتى طلع من جديد في حقول أرجوس ، وكذلك نهر كاياكوس^(١٦) في ميسيا لم يرض عن ضفافه الأصلية فتركها إلى ضفاف أخرى . أما نهر أمينانوس^(١٧) الذى يشقّ مجراه في رمال صقلية فإنه يفيض حيناً ويجف حيناً آخر . وقد كان الناس يشربون في سالف الأيام من مياه نهر الأنيجروس^(١٨) بينما لا نملك اليوم أن ندنو منها بعد أن غسل فيها القنطور جراحه التى أحدثتها سهام هرقل حامل الهراوة ، اللهم إلا إذا لم تأخذ بما يزعم الشعراء .
- ٢٨٠

ولنذكر أيضاً نهر الهيبانيس^(١٩) الذى ينبع من جبال سكوثيا فقد اختلطت عذوبة مياهه قديماً بماء البحر الأجاج . وفى قديم الزمان كانت مدن أنتيسا^(٢٠) وفاروس^(٢١) وصور الفينيقية محاطة بالمياه ، وقد خلصت اليوم ثلاثتها من الماء فلم تعد جزراً . ويذكر شيوخ ليوكاديا^(٢٢) تلك الجزيرة عندما كانت جزءاً من القارة وهى اليوم محوطة بالبحر من كل الجهات ، ويقال كذلك إن زانكلييه^(٢٣) كانت متصلة بإيطاليا حتى ذهبت الأمواج ببرزخ هذه المدينة وأحالتها إلى جزيرة . وإذا كنت تبحث عن مدينتى هيليكيه^(٢٤)

ويورا^(٢٥) في البلاد الآخية فإنك لن تعثر عليها إلا تحت المياه ، فما يزال الملاحون يشيرون حتى اليوم إلى أسوار هاتين المدينتين المتدامية الغائرة في الماء . وثمة تل عال أجرد بجوار ترويزن^(٢٦) مدينة الملك پيشوس كان في الماضي سهلاً مستوياً وأصبح اليوم ركاماً من التراب ، فعندما حُست الرياح في كهوف مظلمة انطلقت تبحث عن متنفّس فلما لم تجد شقاً ولا منفذاً ثارت ثورة عارمة وأخذت تنفث في الأرض كما ينثفث امرؤ في مئانة حيوان أو قربة من جلد جدى ذى قرنين ، فإذا هذا النفث يَخْلَف تلاً عالياً عذباً . ٣٠٠

وكم من أمثلة تتتابع على ذهنى سمعت بعضها وشهدت البعض الآخر ، وسوف أسرد لكم طرفاً منها . فإلما مثلاً يتخذ أشكالاً غريبة المظهر ، فنبعك يا آمون إذا القرنين^(٢٧) مياه باردة في الظهيرة دافئة عند الشروق والغروب ، ويقال إن الأثامانيين^(٢٨) يوقدون مشاعلهم بسبها بتلك المياه حين يكون قرص القمر قد انكشم أصغر ما يكون . ولدى شعب السيكونيس نهر تُجمد مياهه أحشاء من يشرب منه ويُحبل إلى رخام كل ما تمسّه من أشياء . وهناك نهر الكرائيس والسيباريس ، وهما ييلغان مشارف حقولنا ويحلان لون الشعر إلى كهربان وذهب^(٢٩) ، وأكثر من ذلك غرابة أن هناك مياهاً ذات قدرة على تغيير النفوس لا الأجساد وحدها . ومن ذا الذى لم يسمع عن بحيرة سالماكيس ذات المياه المسحورة أو البحيرات الإثيوبية^(٣٠) التى يُجِن من يشرب منها جرعة أو يسقط في نوم عميق ، وينبوع كليثور^(٣١) الذى يُصاب شاربُه بتقرّز يجعله لا يقرب النبيذ بعد ذلك أبداً . ولعل ذلك مرده إلى ما بين مياه ذلك ينبوع وبين النشوة التى يولدها النبيذ ، فبروى أهل البلاد أن ميلامبوس بن أميثاؤون استطاع أن يشفى بسحره ويعاقبه بنات پرويتوس من هديانن حين ألقى العقاقير في هذا النبع الذى كنّ يشربن منه ، ومنذ ذلك اليوم بعثت مياهه الكراهية للنبيذ . أما مياه نهر اللينكستيد^(٣٢) فإن لها أثراً على النقيض من ذلك فمن شرب قليلاً منها ترنح سكرأ كمن شرب نبيذاً صرّفاً . وهناك بحيرة في أركاديا سماها الأقدمون فينيوس^(٣٣) تُحشى مياهها لخواصها المتباينة المتغيرة ، فهى ضارّة خلال الليل لا النهار ، وهكذا تختلف خواص كل بحيرة عن الأخرى . وفي قديم الزمان كانت جزيرة أورتيجيا^(٣٤) طافية فوق سطح الماء بينما هى اليوم ثابتة . وكانت سفينة الأرجو تُحشى صخور السمبليجاديذ^(٣٥) التى تتمايل في المياه كلما لطمتها الأمواج ، أما الآن فهى ثابتة لا قدرة للرياح ولا للمياه عليها . وحتى بركان إتنا — ذو الحَمَم الكبريتية — لم يعد يقدف بلهيبه دوماً كما كان في الماضي ، لأنه إذا كانت الأرض تتنفس بنفس الكائن الحى في أماكن مختلفة تلفظ منها أنفاسها الملتببة ، فمن الممكن تغيير تلك المنافذ كلما تحركت فتسد بعضها لتفتح البعض الآخر . وإذا كانت هناك رياح سجيئة في كهوف الأرض العميقة هى التى تقذف الأحجار في إثر الأحجار ومعها مواد قابلة للاشتعال تلتهب حين تصطدم بأشياء صلبة ، فإن هذه الكهوف تبقى باردة حين تهدأ الرياح . ٣٤٠

وإذا كان القار هو الذى يشتعل فجأة ، والكبريت هو الذى تلتهب مادته الصفراء هو الآخر فجأة مُطْلَقَةً دحاناً خفيفاً ، فإن الأرض ما تكاد تفقد قدرتها مع الزمن على مدّ النار بهذه العناصر القابلة للالتهاب حتى تفقد الطبيعة النّهمة مادة غذائها وتتوقف قدرتها على خلق اللهب^(٣٦) . ويروى أن في مناطق

المهيبريون^(٣٧) في بالتي رجالاً يكسو أجسادهم زغب خفيف إذا هم اغتسلوا تسع مرات في بحيرة تريتون^(٣٨) ولست أصدق شيئاً من ذلك ، وإن قيل أيضاً إن نساء سكوثيا يستطعن تحقيق هذه المعجزة بدهن أجسادهن بعقاقير سحرية .

وإذا كان لنا أن نسلم بالأشياء التي هناك أدلة قاطعة على صحتها^(٣٩) ، فإمامكم الأجساد التي تتحلل بفعل الزمن أو الأشياء التي تتحلل بفعل الحرارة . ألا تعلمون أنها تتحول بهذا الفعل إلى حيوانات صغيرة ؟ اختاروا بضعة ثيران ممتازة واذبحوها وضعوها في حفرة ثم غطوها ، ولسوف ينبثق منها نحل ينمص الزهور ويعشق الحقول ويعمل دؤوباً من أجل الحصول على غذائه ، يشبه في ذلك الحيوانات التي تولد عنها . وإذا دفنت جواد حرب في التراب فسوف تولد من بقاياها أسراب من الزنابير ، وإذا نزع من سرطان البحر مغالبه المقوسة ودفنت بقاياها في التراب لم يلبث أن يخرج منها عقرب يهددك بذيله المعقوف . والسرورع الذي ينتشر في الحقول ويغشي ورق النباتات بخيوط نسيجه يتحول إلى فراش جنازى كما يشهد بذلك الفلاحون أنفسهم ، ويختصن الخرين بذوراً تنبت الضفادع الحضر ، ولكنها تنبت في بادئ الأمر بلا سيقان ثم تأخذ القوائم الشبيهة بالزعانف في النمو وريداً وريداً حتى تنمو بعد ذلك قوائم خلفية تطول عن القوائم الأمامية وتعينها بعد ذلك على الوثب البعيد . وما تضع أنثى الدب دباً صغيراً بل كتلة من لحم لا تكاد تنبض فيها حياة ، وتظل تلعقها حتى تبرز لها أعضاء وتتشكل كما تشكلت هي من قبل وتأخذ صورتها . ألا ترون أن يرقات النحل منتجة الشهد التي تعيش في خلايا النحل لا تكون ساعة ولادتها إلا أجساداً بلا أعضاء وتظل كذلك طويلاً حتى تنمو لها أجنحة وقوائم ؟ أما طير جونو [الطاوس] المرصع الذيل بالنجوم ، وطير جوبيتر [النسر] حامل صاعقته ، ويمامات فينوس إلهة كيثيرا ، وجماعات الطير كلها ، فهي تولد جميعاً في بيضات . ولكن أنى لمصدق ذلك إذا لم يكن يعلم أن هذه هي الحقيقة ؟ وهناك من يعتقد أنه حين يتحلل الكائن الحى في قبره يتحول نخاعه الشوكى إلى ثعبان .

على أن جميع هذه الحيوانات تدين بوجودها لحيوانات أخرى ، وليس هناك غير طائر وحيد هو الذى يتكاثر ذاتياً وهو ما يسميه الأشوريون العنقاء ، ولا يتغذى هذا الطائر على الأعشاب أو الحبوب وإنما ينمص عصارة أعواد البخور وعصارة الخبثان ، فإذا قارب عمره الذى يطول إلى خمسة قرون من الانتهاء اتخذ لنفسه عشاً وسط السعف في قمة النخلة المتأرجحة في مهب الريح ، يجمع بمخالبه ويمنقاره النقى من كل دنس أجزاء عشه من نبات القرقة وعلوج عطر الناردين الطيب الرائحة ، ويسيط فوقها أعواد الكافور المختلط بالمر البرى ، ثم يرقد فوقها حتى يلفظ أنفاسه وسط جو من العطور العبقية . ويقال إن ذكر عنقاء صغير يتولد بعد ذلك من جسد أبيه ليبدأ حياة تمتد إلى عمر أبيه نفسه . ومع تطوّر ثموه تتطوّر قواه على حمل الأثقال ، فيتخفف من أعواد عشه التي هي من سعفات نخل باسق شيئاً شيئاً ، ثم يحمل في خشوع ما بقى من مهده الذى كان قبل لحد أبيه ، ويشقّ به الفضاء إلى مدينة هيبريون حيث يضعه أمام البوابة المقدسة لمعبده هيبريون^(٤٠) ، وإذا كان في هذا ما يدهش فليسوف تكون دهشكم أكبر حين تسمعون عن الضبع الذى يتحول من ذكر إلى أنثى ثم من أنثى إلى ذكر^(٤١) ، كما سندهشون أيضاً من حيوان يتغذى على

الريح والهواء ويتلون بلون المكان الذي يحلّ فيه^(٤٢) . وقدماً أهدت الهند المهزومة حيوان الوشق^(٤٣) إلى باكخوس الإله المتوجّ بعناقيد العنب ، ويقال إن كل ما تلفظه مئانة هذا الحيوان يجمد ويتجمّد إذا ما خرج إلى الهواء^(٤٤) ، وهذه حال المرجان أيضاً وهو عود لين يعيش تحت الماء ويتجمد حين يخرج إلى الهواء .

سينظفء النهار وسيقود فويبوس جياده اللاهثة إلى أعماق البحار قبل أن أفرغ من إحصاء كل ما يتحوّل في الكون ووصف كل ما يتخذ لنفسه مظهراً جديداً ، فسنة الحياة أن يتغير كل شيء ، وهكذا تقوى ٤٢٠

بعض الأمم وتزدهر كما تضمحل أخرى وتتدهور . وقد كانت طروادة مدينة عظيمة البأس شاذة بأبطالها ومواردها وظلت تدافع عن نفسها بدماء أبنائها طيلة أعوام عشرة ، وها هي ذى اليوم كومة من الأطلال الخربة التي لا ترتفع كثيراً عن سطح الأرض ، وقبور شيوخها هي كل ثروتها الباقية . وكانت أسپرطة ذائعة الصيت ، وموكناي مزدهرة ، ولم تكن تقل عنها مجداً مدينة كيكروبس [أثينا] ولا مدينة أمفيون [طيبة] ، ولم تعد أسپرطة اليوم غير أرض جرداء ، كما تقوّضت أسوار موكناي الشاذة ، وماذا خلّفت طيبة مدينة أوديب غير أسطورته ؟ وماذا بقي من أثينا مدينة پانديون^(٤٥) ؟ لم يبق لها إلا اسمها . واليوم يقال إن ثمة مدينة شاذة أسسها أحفاد داردانوس بجوار نهر التير هي روما تُرمي أسس دولة قوية لا يقوّضها الزمن ، وقد أخذت تكبر يوماً بعد يوم ، وستصبح عاصمةً للكون الفسيح كما تكهن بذلك الهاتف الإلهي والمنبثون بالمصائر والأقدار . وإذا لم تخنّي ذاكرتي فلأنني أذكر أن أينياس كان ينشج مشككاً في الخلاص ساعة أخذت طروادة ترتج فوق دعائمها ، فجاء هيلينوس بن پريام قائلاً : « إذا كان لك أن تصدّق ما تنبأنا به يا ابن الإلهة فلتطمئن إلى أن طروادة لن تزول حقاً ، لأنك سوف تحيا ، ولسوف يفتح لك الحديد والنار معبراً فتغادر هذا المكان مصطحباً معك پرجامون بعد أن تنزعها من وسط الكارثة ، وستحملها إلى حيث تجد أرضاً أجنبية ترحب بكما أكثر مما رحبت بك أرض آبائك . وإنني أتنبأ كذلك بأن أحفاد الفريجيّين سوف يؤسسون مدينة لا مثيل لها ولن يكون لها مثيل كما لم يكن لها مثيل في الماضي . وعلى مدى القرون الممتدة سيهيء لها قاداتها البأس والسلطان ، غير أن واحداً من نسل يوليوس سيجعل منها سيدة العالم ، حتى إذا عرف الناس قدره عرج إلى السماء ضيفاً ، تاركاً الأرض إلى أسمى البقاع » .

ذلك ما أذكر أن هيلينوس قد تكهن به حين كان أينياس يمضي حاملاً معه تماثيل آلهتنا^(٤٦) ، وما أسعدني أن أعرف أن هذه المدينة ذات صلة القرى بمديتتنا تكبر وتزدهر ، وأن انتصار الهيلازجيين [الإغريق] قد استفاد منه الفريجيّون [الطرواديون] .

ولا ينبغي الآن أن نترك مجال القول يذهب بنا بعيداً عن مقصدنا ولنعد إلى موضوعنا . إن السماء وكل ما تحتها يتغير ، وكذلك الأرض وما تضمّه ، ونحن كذلك جزء من الكون لأننا لسنا أجساداً فحسب ، بل نحن كذلك أرواح مجنّحة تستطيع أن تجد لها ماوى في أجساد الحيوانات المفترسة والأليفة . لذلك علينا ألاّ نتمسّ هذه الأجساد بأذى ، فقد تضمّ أرواح آبائنا أو إخوتنا أو غيرهم من أقربائنا أو من البشر الآخرين ، فلتترقّب إذن عن تدنيس جنسنا ولننعم عن حشوبطوننا بلحوم كلحوم المادية التي أقامها ٤٦٠

اتريوس لأخيه ثايستيس^(٤٧) . ألا ما أبشع عادة أكل اللحم وما أكبر استعداد الإنسان الجاحد لسفك الدم البشرى حين يتقدم ممسكاً سكيناً ويهوى بها على عنق الثور الياغ دون أن يلين قلبه لخوااره . من منكم من يرتاح ضميره إذا ما ذبح حَمَلًا يصرخ صراخ الطفل الوليد ؟ وهل منكم من يستطيع أن يَطْعَمَ لَحْمَ طَيْرِ غَدَاةٍ بيده ؟ وهل ثمة فرق بين هذا الفِعْلِ وبين الجريمة الحقّة ؟ وإلى أين تنتهي بنا هذه الأفعال ؟ اتركوا الثور يُفْلَحُ الأرض لا تقضى عليه غير الشيخوخة . اتركوا الأنعام تزودنا بما يكون لنا فيه دفاء من ريح الشمال الباردة . اتركوا الماعز تملأ بطونها لتُدْرَ علينا من ضروعها لبناً تحلبه أيدينا . اتركوا الشراك جانباً والكثائن ووسائل الغدر ، ولا تخدعوا الطير بعضاً مكسوةً بعصارات النباتات اللزجة فتلتصق بها ، ولا تسخروا من الوعل بإثارة فزعه من ذلك الريش الذى تضعونه في طريقه فيتحوّل عنه إلى شراككم^(٤٨) . ولا تخفوا الشصّ المعقوف في الطعم الخادع . لكم أن تقضوا على الحيوانات الضارة ، وحسبكم هذا ، دون أن تجعلوا من لحومها طعاماً لأفواهكم . ولتبحثوا عن وجبات لا تحصلوا عليها بأساليب همجية ، ولا تجعلوا شفاهكم تلمس غير غذاء حصلتم عليه دون عنف أو عدوان .

إيجيريا وهيوليتوس

كانت هذه - كما قيل - هي الدروس التى انبى عليها فُكِرَ يوماً حين عاد إلى وطنه واستجاب لنداء شعب لاتيوم [الشعب اللاتينى] وأمسك بزمام السلطة . ومن حسن حظّه أن زوجته كانت حورية ، كما كانت الكاميناي حوريات الماء^(٤٩) ملهاته ، فلَقِنَ شعبه الشعائر الدينية ، وحَوَّلَ أُمَّةً تجنح إلى الحرب والعنف إلى أمه تجنح إلى فنون السلام . ولما أدركته الشيخوخة كانت نهاية حكمه وحياته قد قاربا الانتهاء معاً ، ويكته نساء لاتيوم كما بكاه الشعب ومجلس الشيوخ . وقد هجرت زوجته المدينة وآوت إلى أدغال أرسيا حيث أخذت تبكي وتندب حتى بلبت أنّاتها شعائر الإلهة ديانا التى كان أوريستيس قد أرسى قواعدها^(٥٠) . وكم من مرة حاولت حوريات الغابة والبحيرة التخفيف من آلامها ، وكم من مرة قال لها البطل هيوليتوس وهى غارقة فى دمعها : « هَوْنٌ عليك من عذاب نفسك ، فليست مأساتك بالمأساة الفريدة وكم من كثرات غيرك عانين مثلها ، فلتكن لك فيهن عظة وعبرة ولتخففى من شجنك ، وإليك ما وقع لى أقصه عليك حتى تهون عليك مصيبتك . أو لم يبلغ سمعك نبأ موت هيوليتوس الذى ذهب ضحية لسداجة والده وخيانة زوجة أبيه الأئمة ، وستدهشين حين تعلمين ما حدث كله وإن لم أكن أقوى على أن أقدم لك دليلاً على صحة ما أقول من أنّى أنا هيوليتوس ، وعلى الرغم من هذا فهيليتوس هذا ليس غيرى . وكانت فيدرا بنت پاسيفاي زوجة أبى قد حاولت إغوائى وما نجحت فى حملى على أن أدنس فراش أبى وأحمل وزر جرمها ، فاتهمتني بأننى كنت أبغى منها ما كانت هى تبغىه منى ، ولست أدرى حتى اليوم أكان اتهامها لى عن خوف من أن أفضح أمرها أم عن كراهية لى لرفضى الإذعان لرغبتها . ولقد طردنى أبى من المدينة رغم براعتى وشيئى بلعنات كلها كراهية ، فركبت عربتى وقصدت المنفى فى ترويزن مدينة الملك بيثيوس . وبينما كنت فى طريقى إليها عبر شاطئ كورنثه ، رأيت البحر يشور فجأة وترتفع كتلة من الماء

وكانها جبل لها خوار الثيران ، وإذا هذا الجبل المائي ينشق وينطلق من وسطه ثور ذو قرنين قد برز صدره ، وأخذ يلطف مياه البحر من خطمه ومن خياشيمه ، فملا الفزع قلوب رفاقي ولم ينطرق الفزع إلى قلبي الذي كان مشغولاً بأمر منفاى ، فتحولت جيادى الجامحة عن طريقها وانجهت صوب البحر ، ثم انتصبت آذانها وانتفش شعرها لهماً من الوحش فجمحت شاردة ملقية بالعربة بين الصخور العالية . وحاولت بيد عاجزة أن أجعلها تحس بجذب الشكائم في أفواهاها المزبدة بالرغاء الأبيض ، فمِلت إلى الوراء أجذب الزمام ، وكنت واثقاً من أن جموح جيادى لن يغلبنى على أمرى لو لم تصطدم إحدى العجلات بجذع شجرة هشم العربة وإطارها ، فسقطت أسفل عربتى متعثراً في اللجام ، وكادت أحشائى تُرى على الأرض نابضة متحركة ، ولصقت عضلاتى بجذع الشجرة وتناثرت أشلاطى إلى الأمام وإلى الوراء ، وتشممت عظامى وكانت لها قعقة مسموعة ، ولفظت آخر أنفاس حياتى المكدودة . ولم يكن ثمة جزء من جسدى يمكن ضمّه إلى جزء آخر ، فلم يعد جسدى غير أشلاء . فهل تَرَيْنَ أيتها الحورية بعد هذا أن مُصابك يبلغ مصابى ؟ لقد شاهدت أنا الآخر مملكة الظلمات وحاولت أن أغتسل بمياه « فليجيثون »^(٥١) ملتمساً الشفاء لأعضائى الممزقة ، ولولا عقاقير إسكليبيوس بن أبوللو ما عادت إلى حياتى . وإذا كنت قد عدت للحياة بأعشاب إسكليبيوس الشافية وفن بيون [أبوللو] طبيب الآلهة رغم اعتراض ديس [بلوتو] ملك العالم السفلى ، فقد غشّتنى الإلهة ديانا بسحابة كثيفة حتى لا أثير حسد من يشهد هذا العطاء الذى مُنحته وحتى تحمى من كل الأخطار فأظفر دون أن يُصيبنى أذى ، ثم أضافت بعض السنين إلى عمرى وغيّرت من قسماى وجهى حتى لا يعرفنى أحد . وقد أنعمت الإلهة التفكير طويلاً فيما إذا كانت تمنحنى جزيرة كريت أم جزيرة ديلوس لتكون وطناً لى إلى أن استقر رأياها على ألا تمنحنى واحدة منها فحملتنى إلى هنا ، كما طلبت إلى أن أُبدل اسمى الذى يوحى بذكرى الجيادى قاتلة : يا من كنت هيبوليتوس ، لتكن منذ اليوم « فيريوس »^(٥٢) . ومنذ ذلك الوقت وأنا أعيش فى الغابة متخفياً رهن أوامر سيدتى التى أخدمها ، ولست غير واحد من الآلهة الثانويين .

تاجيس وكيپوس

ولم يُخفّف ما قصصته من مآسى الآخرين شيئاً من آلام إيجيريا التى بقيت مستلقية عند سفح الجبل تنسكب دموعها منهجرة ، حتى أقبلت عليها ديانا أخت فويوس التى تأثرت بوفاء الحورية التعمسة لزوجها فبدلت جسدها نافورة نديّة وجعلت من أطرافها جداول من الماء لا تنضب . وقد ثارت الحوريات دهشات لهذه المعجزة ، كذلك لم تقل دهشة ابن الأمازون [أبوللو] عن دهشة الفلاح التيرينى^(٥٣) الذى شاهد وسط حقله كتلة من الأرض تتحرك من تلقاء نفسها دون أن يدفعها أحد إذ كانت فى يد القدر يجرّكها كيف يشاء ، ثم تحولت إلى إنسان وفغرت فماً برز بين قسماى وجهها ، فأخذ يُحدّث بنبوءات المستقبل . وقد أطلق أهل المنطقة اسم تاجيس على هذا المخلوق ، وكان أول من علّم الأمة الإيتروسكية أسرار التنبؤ بالمستقبل . وكان رومولوس قد أصيب فى غابر الزمان بالدهشة نفسها حين رأى حربته مثبتة فى سفح تل

٥٦٠ الهالاتينوس وقد اكتست فجأة بأوراق أشجار قد اتخذت لنفسها جلراً جديداً ، فلم تعد النصل الحديدى نفسه الذى غرسه فى الترى وإنما استحالت شجرة تبسط فروعها اللدنة ظلاً لم يكن يتخيَّله المشاهدون . وكذلك أصابت الحيرة كيبوس [قائد جيوش الجمهورية] حين شاهد صورته منعكسة فوق صفحة النهر ، إذ رأى قرنين خالهما فى بادىء الأمر وهماً وفرع يديه إلى جبينه مرّة بعد مرّة ، وما كان أشدَّ عَجَبَه حين لمسها فلم يكذب بعد ذلك عينيه ، وتلبّث فى طريق عودته بعد أن رجع مستصراً على عدوّه ، ورفع عينيه وذراعيه إلى السماء هاتفاً : « لست أدرى يا آلهة السموات عن أى شيء تُنبئ هذه المعجزة ، فإن تكن بشير خير فليكن الخير لوطى ولشعب كورينوس ، وإن تكن نذير سوء فليقع علىّ وحدى شرّ ذلك » . وتناول حزماً من العشب الأخضر أقام بها مذبحاً أطلق فوقه البخور قرباناً للآلهة ، وأراق أمامه نبيذ القربان من أوان الأضحية ، ثم نحر أغناماً وبقر بطونها كى يعرف من أحشائها التى ما تزال نابضة بالحياة ما يجنبه له القدر . وما كاد العراف الإتروسكى يشهد الأمعاء حتى أدرك أن المستقبل يخبئ له أحداثاً كبرى وإن لم يتبيّن ما هى ، ثم رفع عينيه الثاقبتين عن أحشاء الأغنام إلى قرن كيبوس وقال له : « مرحباً بك أيها الملك . لك أنت يا كيبوس ولقرنيك^(٥٤) ستخضع هذه المنطقة ، بل وقلاع لاتيوم كلها . فلا تضع الوقت هباءً وامض إلى أبواب المدينة المفتوحة ترحيباً بك . تلك هى مشيئة الأقدار ، فلن تدخل المدينة حتى تتوج بها مليكاً ، وترتقى عرشاً خالداً » .

ارتد كيبوس إلى الورا وأشاح بوجهه العابس عن أسوار المدينة ، وأجاب الكاهن قائلاً : « فلتحجب الآلهة عنى ما تعد ، وخيرلى أن أقضى حياق فى المنفى عن أن يرانى الكابيتولينوس ملكاً » . ولم يكذبته من قوله هذا حتى جمع الشعب وأعضاء مجلس الشيوخ الموقر بعد أن أخفى قرنيه تحت أوراق الغار رمز السلام^(٥٥) ، ثم اعتل ريوه سواها له جنوده البواسل ، وأقام الصلاة لآلهة الأجداد حسب العرف المألوف ، ثم خطب فى الحشد محدّراً : « إن بينكم رجلاً إن لم تبادروا بطرده بعيداً عن المدينة فسوف يصبح عليكم ملكاً ، فمن تُراه يكون ذلك الرجل ؟ لسوف أكشف لكم عنه لتعرفوه ، لا بذكر اسمه بل بذكر العلامة التى تميّزه ، فله قرنان يعلوان جبينه ، وقد أعلن العراف أنه إذا دخل روما فسبخضعها لقوانين تستعبدكم ، وقد كان بوسعه أن يدخل أبوابكم المفتوحة ، ولكفى منعه من ذلك على الرغم من أنه أقرب أقاربى ، إن عليكم أن تمنعوا هذا الرجل من دخول مدينتكم ، ولتقيّدوه بالسلاسل الغلاظ إذا ارتأيتم ذلك ، أو فلتتخلّصوا من مخاوفكم بقتل ذلك الطاغية الذى يتهددكم » .

وانتشر الهمس وسرت المهمة بين الناس وكأنها الريح الشرقية العنيفة تصفع غصون أشجار الصنوبر الشاخنة أو هدير أمواج البحر المنحدرة من بعيد ، غير أن صيحة ارتفعت فوق جميع الصيحات تقول « من هو ؟ » ، فأخذ الناس يتطلّعون إلى رؤوس بعضهم البعض ليتعرّفوا لمن تكون له هذه القرون ، فانطلق كيبوس قائلاً : « ها هو ذا من تتطلّعون إليه » ، وعندها نزع إكليل الغار الذى يغطى رأسه رغم معارضة الناس ، وكشف عن صدغيه وقرنيه المطّلين منها فعرّفه الجميع .

وزجر الشعب وغض من بصره ، ولم تثرثب إليه الأعناق بأبصارها وإنما تطلعت إليه القلوب
ببصيرتها لترى ذلك الرأس المهيب وقد توجته جلائل الأعمال ، ورفض الجميع أن تبقى رأس كيبوس عارية
عن رمز مجده وأرغموه على إعادة الإكليل إلى رأسه . ورأى شيوخ المدينة - إذ كان حمرماً عليه الدخول إلى
قلب المدينة - أن يبهوه نصيباً من الحقول بقدر ما يقوى على حرثه بزوج من الثيران من شروق الشمس حتى
غروبها ، ونقشوا على الأعمدة البرونزية القائمة عند مدخل المدينة قرنين يمثلان قرن البطل تخليداً للذكرى
هذه المعجزة لسنين مديدة مقبلة .

٦٢٠

إسكليوس

حدثنى ياربات الفنون يا مُلهيات الشعراء ، فأتتن أدري بما أسأل عنه ، وما يُخفى عنكن شيء من
أسرار الماضي البعيد ، فلتكشفن لى كيف استقبلت الجزيرة التي يحتضنها حوض نهر التيبير العميق ابن
كورونيس^(٥٦) وجعلته واحداً من آلهة مدينة رومولوس ؟

فلقد حدث قديماً أن لوث وباء بشع جوث لاتيوم ، وأخذ سكانها يتساقطون واحداً في إثر الآخر بعد
أن جُمدت أجسادهم الشاحبة وقد غاب عنها الدم ويات مشهدها بشعاً كريهاً . وحين ضاق أهل روما
صدراً بكثرة من يشيعون من الموت ورأوا عجز جهود الناس وقصور فن الأطباء عن القضاء على الوباء طلبوا
عون السماء ، فقصدوا دلفى « صرة » العالم ليستشيروا عراف فويوس متوسلين للإله أن يدرّكهم برحمته
ويُسعفهم بما يطمئنهم ويضع نهاية لهذه الآلام الفادحة التي طحنت مدينتهم . واهتزت الأرض واهتزت معها
شجر الغار وارتقت كنانة السهام التي يحملها الإله نفسه ، وإذا كرسى العرافة الثلاثى القوائم يصوت
فاهتزت لصوته أعماق الهيكل مما أثار الفزع في نفوس الحاضرين وإذا صوتها يقول :

« كان بوسعك أيها الروماني أن تلتمس وأنت قريب من بيتك ما جئت تطلبه هنا ، فعد إلى هناك
ولست في حاجة إلى أبوللو ليخفف عنك شقاءك . إن ابنه هو الذى سيجعل عدد موتاكم يتناقص ،
فاقصدهو محمّلين ببركاتى أنا واستضيفوا عندكم ولدى الذى أنجبته . »

٦٤٠

وحين علم حكماء مجلس الشيوخ ما أمر به الإله تسامل أعضاؤه عن المدينة التي يحيا بها ابن
فويوس ، واختاروا وفداً حملته سفينة دفعتها الرياح إلى شواطئ إبيداوروس ، وما كادوا يبلغونها
بسفيتهم المحدبة الجوانب حتى مثلوا أمام مجلس كبار المدينة اليونانية ، ورَجَّوه أن يدنهم على الإله الذى
سيحقق خلاص أمة الأوزونيين [الإيطاليين] على يديه حسبما صالح به هاتف إلهى موثوق به له شأنه .
وتداول المجلس الأمر ، وتفرقت الآراء بين قلة ترى أنه لا يمكن رفض مد يد المساعدة ، وكثرة تشير
بالرفض حتى لا يُجرموا رعاية الإله حين يُسلمونه إلى غيرهم . وطال نقاشهم حتى طارد الشفق ضوء النهار
ولف الليل وجه الأرض بظلمته ، وإذا أنت تحمل برؤية الإله المغيث متصبباً أمام سريرك أيها الروماني على
نفس هيشته وهو في معبده ، تمسك يده اليسرى بعصاه الخشبية ، ويمسح بيمناه لحيته الطويلة ، ويقول في

صوت رفیق : « لا تخشى شيئاً فسوف آتى مخلقاً طيفى ورائى وإن كنت سأبدو فى غير صورتى . فأنعم
النظر إلى هذا الثعبان الذى يلتف على عصاى ، وتبين أجزاءه لتتعرف عليه حق المعرفة ، فلسوف أبدو فى
هيئته غير أن حجمى سيكبر حجمه ، وسوف ترى لى قامة عالية لا تليق إلا بالآلهة حين تتحول من هيئة إلى
أخرى » (٥٧) .

ثم اختفى الإله واحتجب صوته وتبدد النوم . ومع انقشاع النعاس عن العيون بدأ شعاع الخير
يوميض ، وأخذ فجر اليوم الجديد يطغى على نور النجوم ، ومضى أعيان المدينة وهم لا يعلمون ما هم
فاعلون يتوافدون على المعبد الرائع (٥٨) للإله الذى طلب إليهم أن ينزلوا عنه ، والتمسوا من الإله أن يوحى
إليهم بالمكان الذى يختاره للنزول فيه . ولم يكدهم دعاؤهم ينتهى حتى كان الإله قد تحول إلى ثعبان ضخم
العُرف يُفصح بفحيحه عن ظهوره بينهم ، وعندها اهتز التمثال (٥٩) والهيكل والباب والأرض المرمرية
والسقف المذهب . ثم شمع الإله برأسه وصدره وتوسط المبنى مجيلاً فيه نظرات لها وميض فأزعج الناس
هلعاً حين تعرف عليه الكاهن - الذى كان يعقد شعره المقدس بشرط أبيض - وقال : « انظروا ها هو ذا
الإله ، ها هو ذا الإله . فليصمت الجميع ، ولتطردوا الأفكار المدنسة من رؤوسكم ، وليكن ظهورك بيننا
أيها الإله العظيم بشير خير للشعب الذى يخلص فى عبادتك » . وسجد الحاضرون للإله المائل أمامهم
مرددين دعاء الكاهن . وضم ممثلو شعب أيناى دعاءهم إلى دعاء الإغريق ، وتقبل الإله طقوس الطاعة
والولاء وحرك عرّفه تعبيراً عن رضاه ، واستأنف فحيحه بلسانه المتذبذب ، ثم انزلج على درج السلم
المصقول ، والتفت إلى الوراء قبل رحيله ليلقى نظرة أخيرة على المعبد العتيق . وبعد أن حيا مسكنه الأليف
والمعبد الذى عاش به زحف بجسده الضخم على الأرض التى غطتها الزهور ينثرها الناس على طريقه .
واخترق المدينة حتى بلغ الرفأ الذى يكتنفه رصيف صخرى دائرى ، فتلبث ونظر إلى مودعيه الذين جاءوا
فى إثره تكريماً له نظرة مفعمة بالسكينة تحمل الشكر وتأذن لهم بالانصراف ، ثم أخذ مكانه فى السفينة
الأوزونية التى أحست هى الأخرى أنها تحمل فى جوفها لها إذ بدأت تميل تحت ثقله وغاصت قليلاً فى
الماء .

وامتلات قلوب وفد مدينة أيناى بالفرحة ، ونحروا ثوراً قرباناً على الشاطيء ، وفكوا حبال
السفينة المزدانة بالزهور فدفعتها الرياح الرقيقة فى طريقها إلى بلادهم ، وقد انتصب الإله بقامته مُسنداً
عنقه على مؤخرها المقوس يتأمل الأمواج اللازوردية . وعندما أشرقت أورورا ابنة باللاس للمرة السادسة
أدركت السفينة إيطاليا مارة بشواطىء لاكنيوم الشهيرة بمعبد جونو ، وبشواطىء سكولاكيوم مخلّفة وراءها
يا بيجيا (٦٠) ، وتمشأى الملاحون بمجاديفهم صخور أمفريزا عن يسارهم وصخور كوكثوس عن يمينهم ، ثم
مضوا بمحاذاة روميثوس وكولون وناريسيا لا تعوقهم أخطار البحر ، واخترقوا مضيق بيلوروس الصّقل
حتى بلغوا مملكة ابن الملك هيبوتيس ، ومناجم تيميسيا وليوكوزيا وساتين الورد فى پايتوم المشمسة . ثم
لزمّت السفينة الشاطيء بجوار كاپرى وبرزخ منيرفا (٦١) وتلال سورنتوم ذات الكروم الشهيرة ، ثم مدينة
هرقل (٦٢) وستايباى وبارثينوى (٦٣) التى يقصدها الناس للاستمتاع بأوقات الفراغ ، حتى أدركت كوماى

حيث تقيم الكاهنة سيبيلا في معبدها . وتابعت السفينة سيرها حتى بلغت مدينة بايأي الدافئة المياه ، ثم مدينة ليتيرنوم الشهيرة بشجرة المصطكا ، وتجاوزتها إلى مصب نهر الفولتورنوس الذي تحمل مياهه المدومة قدراً ضخماً من الرمال . ثم أدرت سينويسا التي يحن إليها اليام الأبيض ، ثم مستنقعات ميتورناى الموبوءة ، وكايتا التي دفن فيها البطل أينياس مرضعته ، إلى أن اجتازت ديار أنتفاس ومدينة تراخاس المحاطة بالمستنقعات وأرض كيركى ، وأخيراً بلغت شاطئ أنثيوم برماله الراسخة ، وكان البحر عاصفاً فقام الملاحون بربط سفينتهم وأشرعتها مبسوطة .

٧٢

ومدّ الإله جسده وزحف حتى بلغ المعبد المكرس لأبيه بجوار الشاطئ الذهبى . ولما هدأت الأمواج ترك حامى إيداوروس هيكل أبيه الذى لقي فيه أجل ترحيب ، وعاد زاحفاً إلى السفينة مخلّفاً أخدودا في الرمال تشقه جسده بحراشفه الحادة ، وتسلق مؤخرة السفينة واستقر فوقها معتمداً برأسه على حافتها ، وظل كذلك حتى بلغت السفينة مدينة كاستروم ومدينة لافينيوم العريقة ثم مصب نهر التير . فلما بلغ ذلك الموقع توافد الناس للترحيب به ، وأقبل الرجال والنساء وكاهنات قمتا العذارى الطرواديات الساحرات على نيران الهياكل ، وكان الجميع يتصايحون فرحاً تحية للإله . وعلى امتداد الطريق الذى تشقه السفينة كانت المذابح والهياكل المشيدة على الضفتين تتصاعد منها سحب الدخان المنطلق من البخور يشيع عطره في الأجواء ، وكانت دماء القرابين تسيل فوق نصال المذبي المستخدمة في نحرها ، ثم هاهى ذى السفينة تدخل مدينة روما عاصمة العالم فيتصبب الثعبان مستنداً إلى قمة الصارى يتأمل ما حوله باحثاً عن مقام يليق به .

وفي الموضع الذى يتفرّع عنه نهر التير إلى فرعين يضمان ما يسمى الجزيرة ، وكأنما يمد النهر ذراعيه ليضم الأرض بينهما ، اتجه الثعبان ابن فويوس بعد أن هبط من السفينة اللاتينية إلى تلك الجزيرة حيث ارتدّت إليه هيئته الإلهية فإذا هو يقضى على الوباء ويخلص المدينة منه .

٧٤٠

تأليه يوليوس قيصر

على أن هذا الإله لم يكن غير غريب نزع إلى بلادنا ، على حين أن قيصر إله مدينة هو منها . ولقد كان قيصر رجل حرب وسلام معاً ، ولكن لا الحروب التى خاضها وانتهى فيها إلى النصر ، ولا أعماله الضخمة في روما ، ولا الهيبة التى رزقها في لمح البصر ، ما كان هذا كله ليصل به إلى أن يضىء على صورة كوكب جديد مذنب في السماء ، بل مردّ هذا كله إلى أرومته التى ينتمى إليها فهمي وحدها التى بلغت به هذه المرتبة . فلم يكن من بين مآثر قيصر ما هو أروع من أنه كان أباً لمثل هذا الإلهين^(٦٤) . وما فعله قيصر من قهر للبريطانيين فرسان البحر ، وما فعله من بعثه بسفنه الظافرة في النيل ذى الروافد السبعة والذى تغشى مياهه أوراق البردى ، وما كان من إخضاعه الثوار التوميديين [الليبيين] لشعب كويرينوس ، وما كان من انتصاره على الملك « چويا » سيد الكينيس وپونتوس المزهوة بملوكها المثيريداتيس^(٦٥) . ثم ما كان من

٣٣٠

انتصارات لا عدّ لها وخروج شعبه في مواكب نصر عديدة شارك قيصر في أكثرها^(٦٦) ، كل هذا لا يبلغ في جلاله أنه كان أباً لهذا الابن العظيم . وحين غدا ابن قيصر وصياً على هذا العالم أسبغت الآلهة على البشر رحمتها العيمة ، وحتى لا يكون ابنه من بذرة فانية ارتقى هو إلى مصاف الآلهة .

وإذا فينوس أم أينياس الإلهة المزدانة بالذهب تشهد مراسم تأليهه ، غير أنها شهدت قبل تلك المؤامرة التي حيكت ضده ، كما رأت تلك الميتة البشعة التي كانت تترصد الكاهن الأعظم لمدينة روما ومؤسس حضارتها ، فانتابها فزع شحب له وجهها ، وبدأت تشكو لكل إله تلقاه قائلة : أترون تلك المؤامرات التي تحاك لي ، ثم هذه المؤامرة التي تهدد حياة من بقي لي من أسرة يوليوس سليل داردانوس ؟ ترى هل سأبقى وحدي تنازعي المهوم ويساورني القلق ؟ أصبح يوماً جريمة بمرح ديوميديس بن تايدويوس الكاليدوني ، وإذا أنا يوم آخر أحمل عار سقوط طروادة التي أخفقت في الدفاع عنها ، ثم أرى ابني يميم السنين الطوال على وجهه تتقادفه البحار ، وأشهدته ينفذ إلى عالم الموت الهامد ثم وهو يصارع تورنوس ، وإذا شئنا الحق فنقول إنه كان يصارع جونو نفسها ، ولكن لماذا أستعيد اليوم ذكرى المصائب التي نزلت بأسرق في الماضي ؟ إن الخوف الذي أستشعره اليوم يفوق كل ذكريات الماضي ، ها هي ذى السيوف الغادرة تُشعل من أجلي ، هلا رددتموها عني وحلتم دون وقوع هذا العدوان حتى لا تدعوا نيران معبد فستا تخمد غريقة في دماء الكاهن الأعظم .

وبعثاً حاولت فينوس أن تشيع شكواها في أرجاء السماء لتستثير شفقة الآلهة ، فقد كانت الآلهة عاجزة عن أن تحول دون نفاذ الإرادة الصلدة للأخوات العنيدات [ربات القدر الثلاثة] ، لكن الآلهة لم تفعل غير أن أرسلت بعض النذر التي تنذر باقتراب الكارثة ، فإذا السحب الداكنة تسمع خلالها قعقة السيوف ، وإذا صخب الأبواق الحربية يزلزل السماء بعنف منذراً بالمأساة ، ولم يعد للشمس المكتشفة غير أشعة باهتة ترسلها على الكون القلق ، وخفقت أذنان المذنبات بين نجوم السماء ، وتساقطت خلال الأمطار قطرات دماء ، ونحيف وجه كوكب النهار وغشت وجهه صُفرة قائمة ، وتلطلخت مركبة القمر بالدماء ، وتردد نعيق البومة طير نهر ستيكس المشوم في أكثر من ألف مكان . وفي أكثر من ألف مكان بكت تماثيل الآلهة العاجية بدموع حقة^(٦٧) ، وترددت الصرخات وأصوات الرعيد في أرجاء الغابات المقدسة ، ولم تدلّ القرابين المذبوحة على دلائل طيبة بل كانت أحشاؤها تحمل نُذراً باقتراب الكارثة ، فقد بدا رأس الكبد مبتوراً^(٦٨) ، ودلّ الكبد نفسه على أن الحرب الأهلية أصبحت وشيكة ، وإذا الروايات أيضاً تنقل أنه قد سُمع عواء كلاب ، كما شوهدت أشباح موق صامته تجوس في السوق وبين الدور والمعابد خلال الليل ، وإذا زلزائل يهزّ أرض روما . وعلى الرغم من تحذيرات الآلهة فلم تُفلح في القضاء على الخيانة والغدر . وشهّرت السيوف المسلولة من أعماها داخل المبني المقدس ، ومن الغريب أنه لم يكن ثمة مكان يُختار لارتكاب جريمة الاغتيال البشع إلا قاعة مجلس الشيوخ . عندها ضربت فينوس على صدرها بيدها وحاولت إخفاء أينياس العظيم في السحابة التي أنقذت باريس من غضب ابن أتريوس كما حمت أينياس من سيف ديوميديس ، غير أن أباه ناداها قائلاً : أو تخالين يا ابنتي أنك في قدرتك وحدك تغيير القدر

المقدور . توجهي إلى مقرّ ربّات القدر الثلاث حيث ترين سجلّات الكون . ستجدين اللوح المصنوع من البرونز والحديد ، ذلك اللوح الخالد الذي لا يتحطم ولا يخبث رعد السماء ولا غضب البرق ولا أى زلزال عاصف ، وسترين ما قدّر على ذراريك محفوراً على الصلْب الذي لا يبلى . ولقد طالعت بنفسى ما هو مكتوب ووعته ذاكرت ، وسأعيد على سمعك ما قرأت يا فينوس إلهة كثيراً حتى لا تظلين يا ابنتى جاهلة بالمستقبل . لقد انتهى عمر هذا الإنسان الذي تبكين من أجله وأكمل سنه التي كتبت له في لوح القدر أن يحياها ، غير أنه سيصبح بعد إلهما يصعد إلى السماء ، وسوف تُقام طقوس عبادته في معابد الأرض جمعاء .

وسيكون هذا على يدك أنت وعلى يدي ابنه الذي سيرث اسمه ويحمل وحده عبء الحكم الذي سيُلقي على عاتقه ، وسيثار في جراحة لأبيه الذي اغتيل ، وسيجدنا إلى جانبه نشدّ أزره في معارك القتال ، وسيقود جيشاً يحاصر أسوار مودينا حتى تفتح له أبوابها طالبة السلام (٦٩) ، وستشعر حقول فارساليا بقوة بأسه ، وسيسيل الدم ثانية في فيليبس ، وسيلقى اسم يومى العظيم الهزيمة في مياه صقلية ، وستسقط الزوجة المصرية لقائد رومان مخدوعة في أملها بالزواج منه ، ويصبح هباء تهديدها بأن تُخضع الكايبتولينيوس المقدس لمدينتها كانوى (٧٠) . وما لي أقصّ عليك قصص بلاد الرابرة والأمم التي تعيش على شواطئ المحيطين ، فلسوف يملك هذا البطل جميع ما تحمل الأرض المعمورة ، ولسوف يذلّ له البحر نفسه . وحينها ينشر السلام على العالم سوف يرعى حقوق المواطنين ويشرّع القوانين التي تكفل العدالة بينهم ويطبّقها بنفسه ، وسيصبح مسلّكاً مثلاً يُحتذى من رفيع الأخلاق ، وسيجته بفكره وينفذ بصيرته إلى المستقبل وذرارى شعبه ، فيأمر أن يحمل ابن قرينته المَبجلة اسمه وأثقال الحكم معاً . ثم إنه في النهاية حين يبلغ من العمر ما بلغه نسطور حاكم بيلوس الكهل سيرقى إلى السماء حيث سيستخذ مكانه بين كواكب أسرته . أما الآن ، فخذى معك هذه الروح التي فاضت عن جسد قيصر الذبيح وأحليها نجماً حتى يسهر يوليوس المؤلّه إلى الأبد من علياء سبائه على الكايبتولينيوس المقدّس والقورم .

٨٢٠

٨٤٠

وما إن فرغ جوبيتر من حديثه حتى وقفت فينوس الحانية وسط قصر مجلس الشيوخ دون أن تلمحها عين بشر ، ورفعت روح قيصرها الغالى من جسده بعد ما فارقت وقبل أن تتبدّد في الهواء وحملتها وسط نجوم السماء ، فإذا هى تحسّ وهى تحملها أنها تشتعل شيئاً فشيئاً إلى أن التهبّت حقاً ، وإذا هى تنفلت من صدر فينوس محلّقة عالياً حتى جاوزت القمر وهى تمجرّ وراءها جدائل من أشعة لها شكل كوكب متألّق (٧١) .

وحين رأى قيصر من علياء السماء مآثر ابنه أذعن إلى أنها تفوق مآثره وسعد بأن يتفوّق ابنه عليه ، وإن كان الإبن قد حرّم على الناس أن يُقدّروا أعماله فوق تقديرهم لأعمال أبيه ، غير أن شهرة الإنسان تجرى على ألسنة الناس طليقة لا تخضع للقيود . ولقد رفعت الشهرة عالياً على الرغم منه ولم تخضع لغير إرادة القدر وحده ، كما تراجع مجد أتريوس أمام مجد أجاممنون العظيم ، وكما برّت شهرة ثيسوس شهرة أبيه إبيوس ، وكما فاق أخيل أباه بيلوس . ثم يأتي في ختام الأمثلة الجديرة ببطلينا (٧٢) ذكر ساتورن الذي

تراجع أمام ذكر ابنه جوبيتر حاكم السماوات العُلى وممالك الكون الثلاث . كذلك خضعت الأرض لسلطان أوغسطس ، وكان كلُّ من جوبيتر وأوغسطس أباً لدولته وسيداً عليها .

ابتهال

أيتها الآلهة المقدسة ، يرافق إينياس ، أنتم يا من تفتح أمامكم السنة اللهب وصليل السيوف الطريق رجباً لا نهاية له ، يا آلهة أرضنا ، يا كويرينوس [رومولوس] ، يا أب المدينة الحاني عليها وصاحب الطول فيها ، وأنت يا جراديفوس [مارس] والد كويرينوس الذى لم يُقهر قط ، وأنت يا فُستا يا من تُقام لك الصلوات تسيحاً باسمك الكريم وسط آلهة أسرة قيصر . وأنت يا فوييوس يا من تسكن مع فستا قصور القياصرة ، وأنت يا جوبيتر يا ساكن قمة تل تاربيوس^(٧٣) . أيتها الآلهة جميعاً ، يا من يمتحن للشاعر بل يلزمه أن يسبح بأسمائكم القدسية ، ناشدتكم جميعاً أن تُرجئوا إلى ما بعد هذا الجيل ذلك اليوم الذى يغادر فيه أوغسطس العظيم هذه الدنيا التى تدين لحكمه ثناصع ، يوم يصعد إلى السماء نجماً مضيئاً ، حيث يستجيب لضراعات البشر لها ، ولو أنهم سيُحرمون منه ملكاً يستجيب لضراعاتهم .

ختم

. ها أنذا قد فرغت من كتابي ، هذا الكتاب الذى تعجز غضبة جوبيتر الجبار عن أن تمحو أثره ، وتعجز النار والحديد بل وأنياب الزمن العاصف عن أن تطمس كلماته . ولتضع الأقدار — ما شاءت — خاتمة لحياتي ، فهي لا تملك إلاّ جسدى ، أما أنبل ما فى ذاتي فسينطلق خالداً فوق مسرى النجوم والأفلاك ، وسيبقى اسمى مشرقاً ما بقى الدهر . وأنى ينبسط سلطان الدولة الرومانية ، فلسوف تردّد ألسنة الناس شعري ، وإن صدق حدس الشعراء فلسوف أخلد باقياً على مرّ العصور علماً خفّافاً شهيراً .

التعقبات

- (١) اشتهر روما بومبيليوس من السابينيين بالحكمة والمعرفة ، وقيل إنه تتلمذ على پيناجوراس وتولى العرش في أوائل القرن الثامن ق.م. على الأرجح .
- (٢) مدينة قديمة كان السابينيون قد اختاروها عاصمة لهم .
- (٣) مدينة عند بداية خليج تورنتو وكانت جزءاً من « اليونان الكبرى » افتتح فيها پيناجوراس مدرسته الشهيرة .
- (٤) شعب كان يقطن الطرف الجنوبي الشرقي من شبه جزيرة ايطاليا .
- (٥) أهل مدينة كانت تحمل الاسم نفسه ، وحلت محل سيباريس بعد تدميرها ، وكانت أيضاً تشرف على خليج تورنتو في جنوب إيطاليا .
- (٦) مدينة قديمة في مقاطعة پروتيوم ، وهو اسم الإقليم الذى يشغل كل جنوب شبه جزيرة ايطاليا ، وقد اشتهرت بمناجم النحاس .
- (٧) هم الباييجيون [انظر الكتاب الرابع عشر] .
- (٨) الاسم القديم لجزيرة كيفالونيا ، وهو أيضاً اسم أكبر مدينة بها .
- (٩) يدعى پيناجوراس هنا أنه استوحى كلامه من وحى إلهى ، مثله في ذلك مثل الهاتف الإلهى في دلفى الذى يصوت بصوت أبوللو .
- (١٠) يبدأ پيناجوراس هنا عرض نظرية تناسخ الأرواح التى اقترنت باسمه عبر التاريخ .
- (١١) كان أباس الملك الثانى عشر لدولة أرجوس . وروى أن معبد جونو [هيرا] فى أرجوس الذى كان يحوى تمثالاً للإلهة من صنع بوليكليتوس كان يضم ترس البطل الطروادى يوفوربوس الذى قتله نيلاولس إثر محاولته نزع الأسلحة من جثة پاتروكلوس الماعدة .
- (١٢) كان ميلون بطلاً شهيراً فى حلبة ألعاب القرى بمدينة كروتونا عاش فى أوائل القرن السادس عشر ق.م. وفى الإشارة إلى شيخوخته مفارقة زمنية ، إذ المفروض أنه كان من تلاميذ پيناجوراس الذى يتحدث بنفسه فى هذا النص .
- (١٣) اختطف ثيسوس هيلينا وهى بعد فتاة بينا كانت تقدم القرابين لأرتميس وذهب بها إلى أثينا ، ثم اختطفها باريس بعد زواجها من نيلاولس وهرب بها إلى طروادة .
- (١٤) نهر فى فريجيا يمتلئ فى غار ثم يظهر من جديد ليرقى فى نهر مياندر .
- (١٥) نهر فى أركاديا يصب فى خليج كورنثه .
- (١٦) نهر فى آسيا الصغرى .

- (١٧) نهر في صقلية بجوار مدينة قطانيا .
- (١٨) نهر في اليونان .
- (١٩) نهر في صارماتيا جنوب روسيا يصب في البحر الأسود واسمه الآن نهر البوج .
- (٢٠) مدينة صغيرة على الشاطئ الغربي لجزيرة ليزبوس .
- (٢١) جزيرة صغيرة مواجهة للإسكندرية يربط بينها لسان ضيق من اليابسة ، اشتهرت بمنارتها (رأس الثين حالياً) .
- (٢٢) إحدى الجزر الأيونية .
- (٢٣) الاسم القديم لميسينا بصقلية .
- (٢٤) دمرها زلزال عام ٣٧٢ ق.م .
- (٢٥) كانت توأم هيليكيه ودمرت معها .
- (٢٦) لعل أوفيد كان يقصد برزخ ميثوني أو ميثانا ، ويقع إلى الشمال من المنطقة التي يشير إليها .
- (٢٧) ذكرى هيروdotوس ينبوع أمون في « تاريخه » وما يزال معروفاً في الصحراء السودانية ، ويبدو أن حرارته قد تصل أحياناً إلى خمسين درجة مئوية ثم تهبط أحياناً أخرى إلى درجة الصفر .
- (٢٨) شعب كان يقطن لبيروس على الحدود الألبانية .
- (٢٩) اشتهر هذان النهران بغزارة طمبهما فكان من يستحم فيهما من بشر أو حيوان يخرج من النهر مُغشًى بالطين البني .
- (٣٠) انظر الكتاب الرابع حيث تجرى أحداث قصة هيرومافروديتوس وسالماتيس . لما البحيرات الأثيوبية فلا تعرف ما يقصده أوفيد منها .
- (٣١) مدينة أركاديا .
- (٣٢) منطقة جبلية في مقدونيا .
- (٣٣) اسم لمدينة في شمال أركاديا وللبحيرة المجاورة لها .
- (٣٤) هي جزيرة ديلوس الآن ، وكانت في الماضي تتأرجح فوق المياه ، اختارتها ليتوماوى تلد فيه بعد أن طاردها جنون في جميع أنحاء الأرض ، ولم تثبت الجزيرة إلا بعد وضعها لأبوللو وأرتميس .
- (٣٥) جزيرتان صخريتان عند مدخل البحر الأسود .
- (٣٦) يعالج سنيكا في كتابه السادس « عن أمور الطبيعة » سر الزلازل بما لا يخرج عن النص الوارد هنا .
- (٣٧) شعب خرافي كان يسكن منطقة في أقصى شمال العالم المعروف .
- (٣٨) خلط أوفيد هنا بين تريتون الموجودة في طرايا وپاليني الموجودة في خالكيديكس .
- (٣٩) يبدأ پيتاجوراس في سرد بعض الخرافات الشعبية السائدة .
- (٤٠) ذهب هيروdotوس إلى أن معبد هيريون هو معبد الشمس في هليوبوليس بمصر ، بينما ذهب پلينيوس إلى أنه موجود في جزيرة خرافية اسمها پانشايا في بحر إريتريا بين آسيا الصغرى وبيوتيا .
- (٤١) كان ثمة اعتقاد شعبي بأن الضبع يبذل جنسه مرة كل سنة إلى أن دحض أرسطو هذا الزعم الخاطئ .
- (٤٢) هو الحرباء التي قال عنها « پلينيوس » إنها تتلون بكل الألوان عدا الأحمر والأبيض .
- (٤٣) من فصيلة السنابير وهو أصغر حجماً من النمر .
- (٤٤) ثمة حجر كريم يسمى « بول الوشق » يقابل حجر التورمالين لدينا .
- (٤٥) أحد ملوك أثينا في قديم الزمان .
- (٤٦) سبق أن ذكر پيتاجوراس أنه عاش حياة سالفة في طروادة ، إذ كانت روحه تنقص جسده البطل الطروادي پوفوربوس المعاصر لآينياس .
- (٤٧) كان أنريوس بن پيلوبس عدواً لأخيه ثاليسيتس ، وقد تظاهر بالصلح معه ودماه إلى وليمه بح فيها أبناء أخيه وقدم إليه لحم أبنائه فأكله وهو لا يدري .

- (٤٨) إحدى طرق صيد الوعل ، وتقوم على وضع حبل في طريقها مزدان بالريش الأحمر الذى يصيبها بالفزع فتتحرف نحو الشراك التى تنتظرها .
- (٤٩) الكامينات كن حوريات ماء ، أشهرهن إيبيريا التى كانت مُلهمة نوماً كما أسلفنا ثم تزوجها حسبما يقرر أولفيد في هذا النص . ولكن يتكهن بالمستقبل كربات الفن « الموساى » ، وكان هن معبد عند أحد أبواب روما ، هو الباب الكامينى في طريق آيها جنوى المدينة .
- (٥٠) كان وادى أريسيا عند سفح جبال ألبانوس بإيطاليا غير بعيد من بحيرة نيمى وعلى مقربة من معبد ديانا الأريسيانية الذى كان يتولى كاهنه منصبه فيه بعد أن يقتل سلفه . وكانت الشعائر تقام فيه لديانا الطوريسية الذى كان أوريستيس قد اختطف منه صنم « الإكسوانون » بصحبة إفيجينيا كاهنة المعبد . وكان سكان أريسيا يذبحون حيولة هذا الصنم الذى حمله إليهم أوريستيس ، غير أن الروايات اليونانية كلها تؤكد أنه موجود بمعبد أرغيس في هالاي باتيكا [وذلك بالنسبة لأهل أثينا] بينما يدعى أهل أسبرطة أنه في معبد أرغيس أورثيا في أسبرطة نفسها .
- (٥١) نهر من اللهب في الجحيم .
- (٥٢) اسم جنى غابة قرب بحيرة نيمى ، وكانت هذه الغابة محرمة على الجياد ، وقد أصبحت عبادة فيريوس مقترنة بعبادة ديانا الأريسيانية ، وكان فيريوس أول كاهن لها في معبدها .
- (٥٣) أى فلاح إتروريا .
- (٥٤) كانت القرون في الماضى رمزاً للقوة .
- (٥٥) هى رمز الانتصار وبالتالي السلام الذى يهيم في إثر الانتصار .
- (٥٦) إسكليبيوس بن أبوللو من الحورية كورنيس ، وقد بدأت الطقوس تقام له في نيساليا ، ثم أخلت تنتشر حتى عمّت أنحاء اليونان ، وتمركزت في إبيداوروس ، ولم تدخل روما إلا عام ٢٩١ ق.م. بعد الطاعون الذى اجتاحتها عام ٢٩٣ ق.م .
- (٥٧) كانت الآلهة تلبو في التماثيل الفنية القديمة أكبر حجماً من البشر .
- (٥٨) أقيم هذا المعبد عام ٣٨٠ — ٣٧٥ ق.م . وكان على بعد خمسة عشر كيلو متراً من المدينة ، وقد اكتشفت في أطلاله آثار فنية ووثائق بالغة القيمة .
- (٥٩) قام بنحته المثال تراسيميديس الفاروسى .
- (٦٠) اسم قديم للوكانيا .
- (٦١) برزخ كامبانللا حالياً .
- (٦٢) هرقولانيوم .
- (٦٣) الاسم القديم لنابلى .
- (٦٤) يضع أولفيد أوكتايفوس وهو ابن قيصر بالتبني في مصاف أبنائه الحقيقيين ، ويتحدث عنه بهذه الصفة .
- (٦٥) اسم ملوك وحكام ولايات پونتوس الموجودة في آسيا الصغرى والمطللة على البحر الأسود وعاصمتها طرابزون .
- (٦٦) يشير أولفيد هنا إلى حملة قيصر على بريطانيا عام ٥٤ ق.م . وحرب الإسكندرية عام ٤٨ ق.م . وهزيمة جوبا ملك نيميديا ، وإلى انتصاره على فارناكيوس بن مثرديات الأعظم ملك پونتوس عام ٤٧ ق.م . ويلاحظ أن قيصر لم يشارك في غير موكبين من مواكب نصره ، أولها عام ٤٦ ق.م . بعد انتصاره في بلاد الغال ومصر وپونتوس وثنائها عام ٤٥ ق.م . بعد انتصاره في أيبيريا .
- (٦٧) كان العلاج يستخدم في صنع تماثيل الآلهة أو بعض أجزائها ، وكانت التماثيل العاجية تدفن بالزيت فترسل بريفاً يوحى أنها تلمع .
- (٦٨) كان الكهنة يفحصون أحشاء الذبائح ويصمون بالقلب والرئتين والمعدة والطحال والكليتين ، وكانوا يسمون أهل الكبد رأسه ويعلمون فصله عن بقية الكبد تلذير سوء .
- (٦٩) انتصار أوكتايفوس على أنطونيوس في مودينا عام ٤٣ ق.م . ، وكان أنطونيوس هو الذى حاصر المدينة التى كان على رأسها ديكيموس بروتوس محافظ المقاطعات الرومانية جنوى الألب ، ويبدو أن أولفيد قد خلط هنا بين المحاصر والمحاصر .

- (٧٠) كانت كليوباترة هي ملكة مصر التي تزوجت أنطونيوس ، وتقع كانتون شرقى الإسكندرية ، وكانت مركزاً دينياً بينها كان معبد الكايبتوليتوس أقدس معابد روما ، وبهذا يريد أولييد اتهام كليوباترة بمحاولة إحلل آلهة المصريين عمل آلهة الرومان .
- (٧١) يروى سويتونيوس أنه أثناء الألعاب التي أقامها أوكتافيوس تكريماً لقيصر المؤله ، كان الكوكب المذنب يتألق في السماء طوال ليالٍ سبع ، وقد شاع الاعتقاد بأنه روح قيصر قد تحول إلى كوكب هو المعروف باسم فينوس .
- (٧٢) يوليوس قيصر وأوغسطس .
- (٧٣) الجزء الشرقى من تل الكايبتوليتوس وكان يضم القلعة التي سميت باسمه ، بينما يضم الجزء الغربى معبد جوبيتر ، وكان يسمى قبلاً بجبل تارييوس ، وقد انحصر اسم تارييوس بعد ذلك في صحرة بالطرف الجنوبى الغربى من التل كانت تستخدم في تنفيذ أحكام الإعدام بقذف المحكوم عليهم من فوقها .

ثبت التراجم

THE METAMORPHOSES OF OVID: TRANSLATED AND WITH AN INTRODUCTION BY MARY M. INNES. PENGUIN BOOKS, HARMONDSWORTH, 1955.

OVID: THE METAMORPHOSES. 2 VOLS. TRANSLATED AND WITH AN INTRODUCTION BY F. J. MILLER (THE LOEB CLASSICAL LIBRARY) LONDON AND NEW YORK. (ND)

OVIDE: LES METAMORPHOSES. TRADUCTION NOUVELLE AVEC UNE INTRODUCTION ET DES NOTES PAR JOSEPH CHAMONARD. 2 VOLS. EDITIONS GARNIER, PARIS, 1955.

OVIDE: LES METAMORPHOSES. TEXTE ETABLI ET TRADUIT PAR GEORGE LAFAZE (COLLECTION DES UNIVERSITES DE FRANCE PUBLIEE SOUS LE PATRONAGE DE L'ASSOCIATION GUILLAUME BUDE) PARIS, 1928. 3 VOLS.

ثبت المعاجم

CARY, M., DENNISTON, J.D., WIGHT DUFF, J, NOCK, A. D, ROSS, W. D., SCULLARD, H. H., WITH THE ASSISTANCE OF ROSE, H. J, HARVEY, H. P. AND SOUTER, A, THE OXFORD CLASSICAL DICTIONARY. OXFORD, 1949

ERNOUT, A. ET MEILLET, A. DICTIONNAIRE ETYMOLOGIQUE DE LA LANGUE LATINE. 3 EME EDITION. PARIS, 1951.

- HOWE, GEORGE & HARRER, G. A.: *A HANDBOOK OF CLASSICAL MYTHOLOGY*. F.S. CROTS. NEW YORK 1987.
- LEMPRIERE, J.: *LEMPRIERE CLASSICAL DICTIONARY OF PROPER NAMES MENTIONED IN ANCIENT AUTHORS*. ROUTLEDGE & KEGAN PAUL. LONDON 1963
- LEWIS, CHARLTON AND SHORT, D.P. CHARLTON AND SHORT, D.P. CHARLES: *A LATIN DICTIONARY*. LONDON 1879.
- STIMPSON, D.P.: *CASSELLE'S NEW LATIN-ENGLISH-LATIN DICTIONARY* 2nd EDITION. LONDON 1962.

ثبت المراجع

- BEAMER, MAUDE: *GREEK ART IN OVID'S POEMS*. (PUBLISHED ABSTRACT OF UNIVERSITY OF MISSOURI DISSERTATION, 1936)
- BREWER, W.: *OVID'S METAMORPHOSES IN EUROPEAN CULTURE*. 1933.
- CLARK, KENNETH: *LANDSCAPE INTO ART*. LONDON 1949.
- FRANKEL, HERMANN: *OVID-A POET BETWEEN TWO WORLDS*. BERKELEY AND LOS ANGELES, 1945.
- HAGSTRUM, JANH.: *THE SISTER ARTS*. CHICAGO 1958.
- LAFAYE, G.: *LES METAMORPHOSES D'OVIDE ET LEURS MODELES GRECS*. (UNIVERSITE DE PARIS, BIBLIOTHEQUE DE LA FACULTE DES LETTRES, XIX) PARIS, 1904.
- LASLO, NICOLAS: *RIFLESSI D'ARTE FIGURATA NELLE METAMORFOSI DI OVIDIO* (EPHEMERIS DACOROMANA, VI) ROME 1935.
- MORNAND, PIERRE & THOME, J.R.: *VINGT ARTISTES DU LIVRE*. LE COURRIER GRAPHIQUE, ALBERT CYMBOLISTE, EDITEUR, PARIS.
- MURRAY, GILBERT: *ESSAYS AND ADDRESSES*. LONDON, 1291.
- PANOVSKY, ERWIN: *PROBLEMS IN TITIAN MAINLY ICONOGRAPHIC*. PHAIDON, OXFORD, 1970.
- RAND, EDWAD K: *OVID AND HIS INFLUENCE*. BOSTON 1925.
- RIPERT. EMILE: *OVID, POETE DE L'AMOUR, DES DIEUX ET DE L'EXIL*. PARIS 1921.
- WILKINSON, L.P.: *OVID RECALLED*. CAMBRIDGE, 1955.

المُلحق الأول

دليل المنجزات الفنية التشكيلية
المستوحاة من كتاب « مسخ الكائنات » لأوفيد(*)

التصوير

- آدم الزهايمر : « الطوفان » . متحف ستيدل بفرانكفورت .
آنجر : « تأليه هوميروس » . متحف اللوفر .
أحد أتباع بيزيلينو : « صيد الخنزير البرى فى كاليدونيا » . متحف متروبوليتان بنيويورك .
أحد أتباع فرا أنجيليكو : « باريس يمتطف هيلينا » . متحف الناشونال جاليرى بلندن .
إدوارد بيرن جونز : « بيجاليون » . متحف برمنجهام .
إلخرتشينو : « أبوللو يسلمح مارسىياس » . جاليرى بيتى بفلورنسا .
إلخرتشينو : « أوروبا » . قصر لودوفيزى بروما .
إلخرتشينو : « كيركى » . متحف اللوفر بباريس .
أنطون فان دايك : « جويتير وأنتويى » . متحف ميونخ .
أنطون فان دايك : « دايدالوس وإيكاروس » . متحف تورنتو بكندا .
أنطون فان دايك : « سيلينوس ثملا » . متحف درسدن .
أنطون فان دايك : « كيويد ويسىخيه » . هامبتون كورت بانجلترا .
أنطون فان دايك : « فينوس إلى جوار كور فولكانوس » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
أنطون فان دايك : « فينوس وفولكانوس » . متحف اللوفر .
أنطونيو بولايلو : « أبوللو ودافنى » . الناشونال جاليرى بلندن .
أنطونيو بولايلو : « خطف ديانرا » . متحف الفنون بجامعة ييل بنيوهافن .
أنطونيو بولايلو : « هرقل والهيدرا » . متحف الأوفيتزى بفلورنسا .
أنطونيو فاتتوزى : « كيركى وملأحو أوديسوس » . مدرسة فونتنبلو .
أوجين ديلاكروا : « ميديا وأطفالها » . متحف اللوفر بباريس .
بارثولوميو سهرانجر : « فينوس وأدونيس » . متحف تاريخ الفنون بفيينا

(*) للمزيد من التفاصيل انظر : « الإغريق بين الأسطورة والإبداع » لكاتب هذه السطور . الطبعة الثانية ١٩٩١ . الهيئة المصرية العامة للكتاب .

- بارثولوميو سهرانجر : « منيرفا » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
- بارثولوميو سهرانجر : « هيرمافروديتوس وسالماكيس » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
- بارثولوميو سهرانجر : « اوديسيوس وكيركي » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
- باروثني : « ايناس يفر من طرواده مع زوجته وابنه حاملا اياه » . متحف فيلا بورجيزي بروما .
- باسانو : « هرقل واومفالوس » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
- برودون : « اختطاف پسيخيه » . متحف اللوفر .
- برويجل : « اينياس في العالم السفلي » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
- برويجل : « سقوط ايكاروس » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
- برويجل : « سيريس توزع الخيرات » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
- بلاشار : « حفل باخوسى » . متحف نانسي .
- بلفنوتو تشللفي : « پيرسيوس واندروميذا » . متحف البارجلو بفلورنسا .
- بوتشيللي : « ائينا [منيرفا] والقنطور » . متحف اوفتزي بفلورنسا .
- بوتشيللي : « مولد فينوس » . متحف اوفتزي بفلورنسا .
- بوشيه : « حوريتان وجان الغاب [الساتير] » . متحف الناشونال جاليري بلندن .
- بوشيه : « داناي » . متحف كونيك .
- بوشيه : « ديانا تأخذ زيتتها » .
- بوشيه : « زيوس واتيوي » . متحف پوشكين بموسكو .
- بوشيه : « ليذا وطائر البجع » . متحف لوكسمبورج .
- بيرو دي كوزمو : « انقاذ اندروميذا » . متحف الاوفتزي بفلورنسا .
- بيرو دي كوزمو : « مصرع پروكريس » . متحف الناشونال جاليري بلندن .
- بيرو ده كوزمو : « المعركة بين اللايث والقنطوري » . متحف الناشونال جاليري بلندن .
- بير نارسيس جيزان : « تقديم القربان لاسكليبيوس » . متحف اللوفر بباريس .
- تسيانو : « اختطاف اوروبا » . متحف جاردرن بيوسطن .
- تسيانو : « باخوس واريادن » . متحف الناشونال جاليري بلندن .
- تسيانو : « پيرسيوس واندروميذا » . متحف الناشونال جاليري بلندن .
- تسيانو : « تانتالوس » . المتحف البريطاني .
- تسيانو : « چويتر واتيوي » . متحف اللوفر .
- تسيانو : « داناي » . متحف اليرادو بمجريد .
- تسيانو : « ديانا وكتايون » . متحف بردچوتر هاوس بلندن .
- تسيانو : « ديانا وكالستو » . متحف بردچوتر هاوس بلندن .
- تسيانو : « سيزيفوس يحمل الحجر » . متحف اليرادو بمجريد .
- تسيانو : « فينوس وادونيس » . المتحف القومي للفنون بواشنطن .
- تسيانو : « فينوس تتوسل إلى اودونيس كي لا يخرج إلى الصيد » . متحف اليرادو بمجريد .
- تسيانو : « فينوس على اجنحة النغم » . متحف اليرادو بمجريد .
- تسيانو : « فينوس في استرخاء حالم » . متحف اوفتزي بفلورنسا .
- تسيانو : « فينوس وكوييد » . متحف فيلا بورجيزي بروما .
- تسيانو : « كالستو » . متحف جلاسجو .
- تسيانو : « مصرع اكتايون » . متحف جلاسجو .

تسيانو: «النسر ينهش كبد تيتوس». متحف اليرادو بمدريد .
تتوريو: «أريادن وباكخوس». قصر الدوج بالبندقية .
تتوريو: «باكخوس وأريادن». قصر الدوج بالبندقية .
تتوريو: «بيرسيوس وأندروميذا». متحف الإرميتاج بلنجراد .
تتوريو: «چونو وهرقل». كويام هول بانجلترا .
تتوريو: «ريات الفنون في الأوليمپ». هامپتون كورت بانجلترا .
تتوريو: «كور فولكانوس». قصر الدوج بالبندقية .
تتوريو: «كوييد وفيونوس وفولكانوس». متحف بيتي بفلورنسا .
تيرنر: «پوليفيموس يهزأ بسفينة أوديسيوس». متحف الناشونال جاليري بلندن .
تيرنر: «ديلو تشيد قرطاجه». الناشونال جاليري بلندن .
تيرنر: «ديلو وابتيايس». الناشونال جاليري بلندن .
تسيولو: «أبوللو ودافني». متحف اللوفر بباريس .
تسيولو: «تشيد حصان طرواده». متحف الناشونال جاليري بلندن .
تسيولو: «داناي». متحف ستوكهولم .
تسيولو: «سحب حصان طرواده». متحف الناشونال جاليري بلندن .
تسيولو: «فينوس والزمن». متحف الناشونال جاليري بلندن .
چان راوو: «پيجاليون وجالاطيا وفيونوس». متحف اللوفر بباريس .
چان ريسنو: «هيرا [چونو] تزور أوقيانوس وثيتيس». متحف پوشكين بموسكو .
جانستر: «فينوس وأدونيس». متحف تاريخ الفنون بفيينا .
جوتزولي: «اختطاف هيلينا». الناشونال جاليري بلندن .
چورچ فردريك واطسن: «أورفيوس ويورديكي». متحف تيت جاليري بلندن .
چوردانو: «أريادن». متحف درسدن .
جوستاف مورو: «پاسيفاي والثور» .
چوليو رومانو: «پوليفيموس». متحف مانتوا .
چوليو رومانو: «چونو وهرقل». بريدج ووتر هاوس بلندن .
چوليو رومانو: «رقصة أبوللو مع ريات الفن». متحف بيتي بفلورنسا .
چوليو رومانو: «طفولة چويتير». الناشونال جاليري بلندن .
چوليو رومانو: «فينوس وفولكانوس». متحف اللوفر .
جيدوريفي: «أبوللو يسلم جلد مارسيايس». متحف ميونخ .
جيدوريفي: «اختطاف هيلينا». متحف اللوفر .
جيدوريفي: «أورورا». قصر روسبيليوزي بروما .
جيدوريفي: «باكخوس معتلا». متحف فيلا بورجيزي بروما .
جيدوريفي: «هرقل وأخيلووس». متحف اللوفر بباريس .
جيدوريفي: «هرقل والهيدرا». متحف اللوفر بباريس .
جيران: «أورورا وكيفالوس» .
جيران: «تقديم القربان لأسكليپوس». متحف اللوفر .
دافيد: «باريس وهيلينا». متحف اللوفر .
دانتي جابرييل روسيني: «پروسيرينا». متحف ليربول .

- درير : « الحوريات ينعين ليكاروس » . تيت جاليري بلندن .
دور : « هرقل والطير السيمفالية » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
دومينيكيو : « ديانا وأكتايون » . قصر بيتي بفلورنسا .
ديلاكروا : « القبطور خيرون يعلم أخيل تصويب السهام » . مجموعة خاصة .
ديلاكروا : « هرقل يحمل الخنزير البري » . متحف كارنافاليه .
دوسو دوسى : « كيركى وعشاقها » . المتحف القومى للفنون بواشنطن .
دييه : « بيجاليون وجالاطيا » . متحف تور بفرنسا .
رافائيل : « أبولو ومارسياس » . متحف اللوفر بباريس .
رافائيل : « جالاطيا » . قصر فارنيزينا بروما .
رافائيل : « حفل الألهة في البارناسوس » . متحف الفاتيكان .
رافائيل : « كيويد ويسبيخيه » . قصر فارنيزينا بروما .
رمبرانت : « اختطاف پروسرينا » . متحف برلين .
روبنز : « آچاكس وكاساندر » . متحف ليخنتشتاين بفيينا .
روبنز : « اختطاف پروسرينا » . قصر بلنهم وودستك بانجلترا .
روبنز : « أتالانتا وملياجر » . متحف اليرادو بميليد .
روبنز : « أورفيوس ويورديكي » . متحف اليرادو بميليد .
روبنز : « أينياس وديدو » . متحف ستيدل بفرانكفورت .
روبنز : « پيرسيوس وأندروميديا » . متحف الإرميتاج بليننجراد .
روبنز : « پيرسيوس وأندروميديا » . قصر بلنهم .
روبنز : « تحكيم باريس » . متحف الناشونال جاليري بلندن .
روبنز : « جونو وهرقل » . متحف اليرادو بميليد .
روبنز : « ديانا » . متحف درسدن .
روبنز : « زيوس يختطف جانيميديس » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
روبنز : « سيلينوس في حفل باكخوسى » . متحف أوفيتزى بفلورنسا .
روبنز : « عيد فينوس » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
روبنز : « فايثون وأمفيتري » . متحف برلين .
روبنز : « فينوس وأدونيس » . متحف الإرميتاج .
روبنز : « منيرفا تحمى السلام من مارس » . متحف الناشونال جاليري بلندن .
روبنز : « مولد فينوس » . متحف الناشونال جاليري بلندن .
روبنز : « هاديس [بلوتو] يختطف پروسرينا [پيرسيفونى] » . متحف لوپى پاليه بباريس .
روبنز : « هزيمة المرءة » . متحف بروكسل .
رينيو : « تحكيم باريس » .
رينولنز : « موت ديدو » . قصر باكتنجهام بلندن .
سياستيان بوردون : « انتحار ديدو » . متحف بيزيه .
سيزان : « ليدا وطائر البجع » . مجموعة بيليران بباريس .
سكيافونى : « أسطورة ميداس » . أكاديمية الفنون الجميلة بالبنديقية .
شارل ده لافوس : « باكخوس وأرديانى » . متحف ديچون .
شازيران : « هوزيدون [نبتون] » . متحف بيزانسون .
فاتو : « زيوس وأنتيوى » . متحف اللوفر .

- فان هيمزكرك : « فينوس ومارس وفولكانوس » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
 فرانسوا لوموان : « نارسيسوس » . متحف هامبورج .
 فركويز : « هرقل وديانيرا ونيسوس » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
 فرنشسكو ألباني : « أيلول وذاقني » . متحف اللوفر بباريس .
 فرنشسكو ألباني : « أوروبا » . متحف الأوفيتزي بفلورنسا .
 فرنشسكو ألباني : « فوز جالاطيا » . متحف درسدن .
 فرنشسكو جويو : « كرونوس يلتهم أبناءه » . متحف الهراو بمدريد .
 فرانثسكو : « كيوييد يعدّ قوسه ويشحد سهمه » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
 فرنثسكو ميلزي : « فيرتوموس وپومونا » . متحف برلين .
 فلاكسان : « أوديسيوس يفتأ عين پوليفيموس » .
 فنان مجهول : « رأس ميدوسا بعد جُرّ عنقها » . فيلا لودويزي بروما .
 فيرونيزي : « اختطاف أوروبا » . قصر الدوج بالبندقية .
 فيرونيزي : « اختطاف أوروبا » . متحف الكابيتولينوس .
 فيرونيزي : « پيرسيوس وأندروميذا » . متحف الإرميتاج بلينينجراد .
 فيرونيزي : « فينوس وأدونيس » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
 فيرونيزي : « فينوس وفولكانوس » . متحف فيلا بورجيزي .
 فيرونيزي : « فينوس ومارس » . متحف المتروبوليتان بنيويورك .
 فيرونيزي : « هرقل وديانيرا ونيسوس » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
 فيلاسكيز : « باكخوس » . متحف الهراو بمدريد .
 فيلاسكيز : « فينوس في المرأة » . متحف الناشونال جاليري بلندن .
 فيلاسكيز : « كور فولكانوس » . متحف الهراو بمدريد .
 فيلاسكيز : « ميركوريوس وأرجوس » . متحف الهراو بمدريد .
 فيورنتينو روسو : « ربات الفنون أو الپيريديس » . متحف اللوفر بباريس .
 كاراتشي : « پوليفيموس وأكيس وجالاطيا » . قصر فارنيزي بروما .
 كاراتشي : « پيرسيوس وأندروميذا » . قصر فارنيزي بروما .
 كاراتشي : « چويتير وچونو » . قصر فارنيزي بروما .
 كارافاجيو : « بسبخيه في الأوليمپ » . متحف اللوفر .
 كارافاجيو : « رأس ميدوسا » . متحف أوفيتزي بفلورنسا .
 كراناخ : « فينوس » . متحف فيلا بورجيزي بروما .
 كراناخ : « فينوس وكوييد » . متحف ستيدل بفرانكفورت .
 كراناخ : « فينوس وكوييد » . متحف الناشونال جاليري بلندن .
 كراناخ : « نهاية العصر الفضي وبداية العصر البرونزي » . متحف الناشونال جاليري بلندن .
 كرسبي : « القنطور خيرون يعلم البطل أخيل الصيد » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
 كوريچيو : « جانيميديس والنسر » . متحف درسدن .
 كوريچيو : « چويتير وليو » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
 كوريچيو : « داناي » . متحف فيلا بورجيزي بروما .
 كوريچيو : « زيوس وليو » . متحف تاريخ الفنون بفيينا .
 كوريچيو : « ميركوريوس على تعليماته على كيوييد بحضور فينوس » . متحف الناشونال جاليري بلندن .

- كلودلوران : « أبولو ومارسياس » . متحف الإرميتاج بليتنجراد .
كلودلوران : « أوروبا » . متحف قصر باكنجهام بلندن .
كلودلوران : « نارسيسوس وإكو » . متحف الناشونال جاليري بلندن .
كلويه : « ديانا الصيابة » . متحف روان .
كيارى : « أبولو ودافنى » . جاليريا سيادا بروما .
لاستان : « هيرا تكتشف علاقة زيوس بليو » . متحف الناشونال جاليري بلندن .
لوقا چوردانو : « أريادنى » . متحف درسدن .
لوقا چوردانو : « پيرسيوس وثينوس » . متحف درسدن .
لوكاس : « أكيس وجالاطيا وپوليفيموس » . قصر تريانون بفرساي .
لوكليرك ده جويلان : « اختطاف أوروبا » . متحف دنكرک .
لوموان : « اختطاف أوروبا » . متحف پوشكين بموسكو .
لوموان : « هرقل وأومفالوس » . متحف اللوفر .
لوى ده بولوى : « چويتير وسيميليه » . متحف لومان .
ليوناردو دافنشى : « ليدا وطائر البجع » . متحف فيلا بورجيزى بروما .
ماتوار : « زيوس وليو » .
ماتوار : « هيبى تصب الخمر فى كأس أبيها چويتير » . متحف تروا .
مدرسة پيزيلينو : « جاسون وملاحو الأرجو » . متحف مترو پوليتان بنيويورك .
مدرسة پيزيلينو : « جاسون يضع النير على الثيران النحاسية ويذبح الجند المسلحين » . متحف مترو پوليتان بنيويورك .
مدرسة پيزيلينو : « جاسون يغادر الملك أيتيس لتنفيذ ما كلفه به » . متحف مترو پوليتان بنيويورك .
مدرسة پيزيلينو : « عصر الحديد » . مكتبة پيرپونت مورجان .
المدوسة الفرنسية : « مصرع أدونيس » . متحف بلوا .
مدرسة فوتنتيلو : « حمام ديانا » . متحف اللوفر .
مصانع پروكسل للنسجيات المرسة : « فيرتومنوس وپومونا » . متحف پروكسل .
نيكولا پوسان : « أبولو ودافنى » . متحف ميونخ .
نيكولا پوسان : « إكو ونارسيسوس » . متحف اللوفر بپاريس .
نيكولا پوسان : « أورفيوس وپوريدكى » . متحف اللوفر بپاريس .
نيكولا پوسان : « حفل باكخوسى أمام تمثال لپان » : متحف الناشونال جاليري بلندن .
نيكولا پوسان : « سيريس إلهة الحصاد » . متحف الناشونال جاليري بلندن .
نيكولا پوسان : « أبنياس عند ديدو » . متحف بيزانسون .

النت

- أندريا پيزانو : « دايدالموس » . متحف الكامپانيل [برج الأجراس] بفلورنسا .
أنطوان لوى پارى : « القنطور واللايث » . متحف اللوفر بپاريس .
أنطونيو كانوفا : « آجاكس » . متحف الفاتيكان بروما .
أنطونيو كانوفا : « پسيخيه تسترد الحياة إثر قبلة كيبيد » . متحف اللوفر .
أنطونيو كانوفا : « ثيسبيوس » . حدائق الفولكسجارتن بشينا .
أنطونيو كانوفا : « ثيسبيوس يصرع القنطور » . متحف تاريخ الفنون بشينا .

- أنطونيو كانونفا : « دايدالوس وإيكاروس » . متحف تاريخ الفنون بشينا .
 أنطونيو كانونفا : « هرقل وليتشناس » . المتحف القومى بروما .
 أوتريكولى : « چويتير » . متحف الفاتيكان .
 برتل نورفالدين : « أدونيس » . متحف ميونخ .
 برتل نورفالدين : « باكخوس وأريادنى » . متحف كوينهاجن .
 برتل نورفالدين : « جانيميدس » . متحف نورفالدين بكوينهاجن .
 برتل نورفالدين : « فولكانوس يمدّ سهام كوييد » متحف نورفالدين بكوينهاجن .
 برتل نورفالدين : « مارس وكوييد » . متحف نورفالدين بكوينهاجن .
 برتل نورفالدين : « منيرفا وپروميثيوس » . نقش بارز .
 پوچيه : « هرقل يصرع الهيدرا » . متحف روان .
 چان ده بولوى : « هرقل يحمل الكون » .
 چان ده بولوى : « هرقل يقتل القنطور نيسوس » . متحف چاكار أندريه پباريس .
 چيمس پراديهيه : « ربات الحسن الثلاث » . متحف اللوفر .
 چيمس پراديهيه : « مصرع أولاد نيوى » . متحف اللوفر .
 جيوم كوستون : « پان يعلم أبوللو العزف على المزمار » .
 دييوا : « ليذا وطائر البجع » . متحف لوکسمبورج .
 رود : « الإله ميركوريوس [هرميس] » . متحف اللوفر .
 رينزو برنىنى : « أبوللو ودافنى » . متحف فيلا بورجيزى بروما .
 رينزو برنىنى : « پلوتو وپروسيرينا » . فيلا بورجيزى بروما .
 رينزو برنىنى : « نافورة تريتون » بروما .
 سانسولينو : « باكخوس » . متحف بارچيللو بفلورنسا .
 سلوظز : « سقوط إيكاروس » . متحف اللوفر .
 فرائش فيل : « أورفيوس » . متحف اللوفر .
 فنان مجهول : « أبوللو ودافنى » . متحف فيلا بورجيزى بروما .
 فنان مجهول : « أولاد نيوى » . متحف الأوفيتزى بفلورنسا .
 فنان مجهول : « نيوى وطفلهما » . متحف الأوفيتزى بفلورنسا .
 كلوديون : « موكب عابديات باكخوس » . متحف اللوفر .
 ميكلانچلو : « أدونيس يمتضر » . متحف بارچيللو بفلورنسا .
 ميكلانچلو : « باكخوس ثملا » . متحف بارچيللو بفلورنسا .
 نيقولا سباستيان آدم : « پروميثيوس مغلولاً والنسر يتهش كبده » . متحف اللوفر .

هذا الكتاب

أحد الشوامخ القليلة .. ولسوف يبقى في ذاكرة الأجيال القادمة ولأمد طويل ، فترجمة الميتمورفوز لأوثفيد بقلم الدكتور ثروت عكاشة كانت اقتحاماً خطيراً في لغة سائغة دافقة الحيوية .. هي بالنسبة للمثقف المستنير عمل ممتع ونافع معا ، وهو من أجله يستحق كل تحية وثناء .

دكتور لويس عوض (الأمرام ١٩٧٢/١١/٢٤)

لابد لكل قارئ مثقف أن يمر بعينيه أياماً على واحد من هذه الأعمال الكبرى لأنه سوف يجد صداها في كل الآداب العالمية القيمة والحديثة . ولا بد أن د . ثروت عكاشة يجد لذته في أن يتحدى الأعمال الأدبية والفنية العسيرة . ومن هذه اللذة يتكون إقباله على الأعمال الأدبية البعيدة عن تناول الملقنين . هذه موسوعة العذاب الإغريقي أحكمت ترجمتها وصياغتها وقدمت بكل إخلاص إلى المكتبة العربية

أنيس منصور (الأخبار ١٩٧٢/٦/١٦)

لقد ظل هذا العمل الكبير الذي يعتبر من شوامخ الأدب القديم الفين من الأعوام دون أن تقدم الأقلام العربية على ترجمته إلى لغة الضاد حتى ظهر هذا الكتاب المترجم الأنيق نيملاً هذا الفراغ . لقد أقبل الدكتور ثروت عكاشة على هذا الجهد الشاق حبا وعشقا لمآته وإيمانا بأهميته للاكتمال والوضوح الثقافي ، مضيفا إلى معطياته الثقافية السابقة هذا العمل الجاد والممتع والمفيد

حسين بيكار (أخبار اليوم ١٩٧٢/١٢/١٦)

إن بلادنا بحاجة إلى مزيد من الأصول الكبرى للفكر والفن، وهي بحاجة إلى المؤسسات الثقافية الكبرى ، وبينشي أن نستقبل الأعمال الكبيرة مثل «مسح الكائنات» بالحب والتقدير . ومرحبا بأوثفيد إمام العاشقين في المكتبة العربية مترجماً مثل هذه الترجمة الأمينة الجميلة . إن مثل هذا العمل الكبير الذي يقدمه إلينا الدكتور ثروت عكاشة يحرر معه دليلاً جديداً على ما يملكه من طموح ثقافي بالغ السمواتي محاولة خلق اتصال «كهربائي» بين الثقافة العربية والثقافة العالمية حتى تتوهج ثقافتنا بنور العصر وتتخلص من غبار التخلف الفكري .. هو أحد الكتب الأساسية في الأدب العالمي ، ومن الخطأ والتقصير أن تخلو المكتبة العربية من هذا الأثر الفني والفكري الهام

رجاء النفاش (المصور ١٩٧٣/١/٢٦)

لابد أن يغبط المرء الدكتور ثروت عكاشة ويحسده أيضاً على هذا الإنتاج المتلاحق الفياض . وترجمة أوثفيد بهذه الأمانة والعناية والعدوية نموذج للترجمة التي ليست نقلاً ولكن خلقاً

محمد عوده (الجمهورية ١٩٧٢/١٢/٩)

